د. يوسف نصرالله

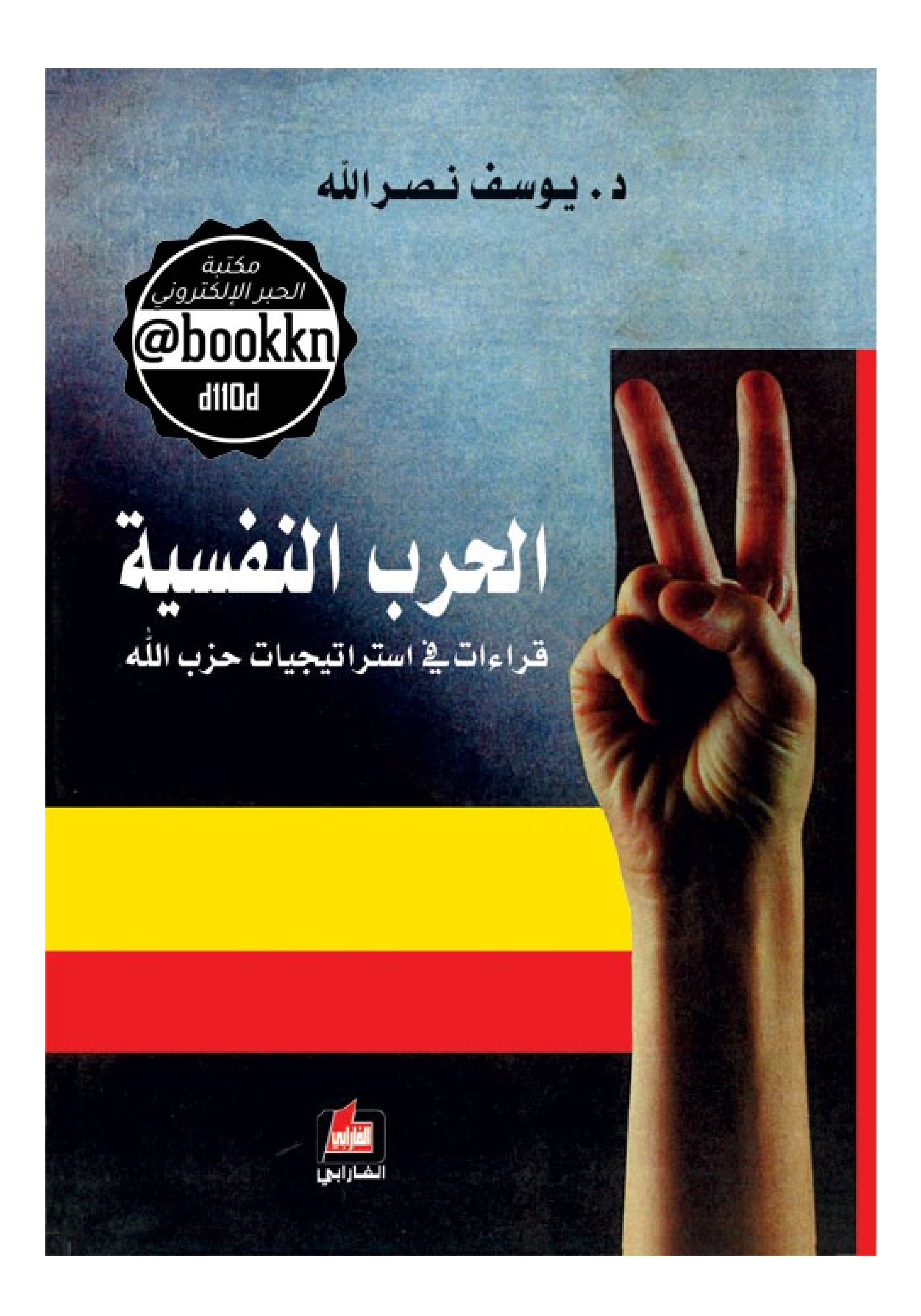


الحرب النفسية

قراءات في استراتيجيات حزب الله



الفارابي


د. يوسف نصرالله
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d
الحرب النفسية
قراءات في استراتيجيات حزب الله
الفارابي

الحرب النفسية قراءات في إستراتيجيات حزب الله

تاريخ

تأليف

د. يوسف نصرالله

دار الفارابي

الكتاب: الحرب النفسية، قراءات في إستراتيجيات حزب الله

المؤلف: د. يوسف نصرالله

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: 2012

ISBN: 978-9953-71-865-1

الإهداء

إلى (أب الحرب النفسية) السيد حسن نصرالله(*)

إليكَ

يا أبا هادي

ننهضُ من يتمنا

وقد غفا حبقُ الثورة على جرحِ العماد

ما لنا... وأنتَ فينا كعبة الأحلام،

وبابٌ للجهاد...

تدلُ القبائل على حدود أسمائها

فنسرجُ بنادقنا

نلمّ خلف خطاكَ البرق المتناثر من حوافر خيلٍ

ترسمُ شكل البلاد...

لا وجه لهذا العمر

غير مدى يطلّ من نافذة عينيك على عطشٍ

لا بحرَ كبحرك يطوي تعبَ مراكبنا

ولا يابسة سوى يدك القابضة على جمر الزناد

مقدمة

لعل مباحث ومتوناً وقراءات ونسوجاً عديدة ومتنوعة قاربت بالنقد والتحليل والتعليل والاستقراء موضوعة الحرب النفسية، وأعملت فيها معاول الحفر والتنقيب والتحرّي والكشف والبحث، ووقفت على اهتماماتها ومقاصدها وأغراضها وغاياتها، كما على مكامن خطرها ووجوه سطوتها وحضورها، واستحضرت لهذه الغاية تجارب تاريخية، واستدلت بوقائع وشواهد وبراهين وأدلة. وهي- لا شك- دراسات وازنة، وذات قيمة علمية ومعرفية محترمة، وغاية في الأهمية والإلحاح. إلا أنها على فضيلتها وجديتها واتزانها، وما انطوت عليه من كشوف وفتوح، وما راكمته من حقائق على غير صعيد ذي صلة، ظلت تعاني قصوراً حاداً في مقارباتها الفاحصة، وعلى نحو يحول دون الإحاطة الشاملة بظروف تخلق هذا الوليد من الحروب، كما بسيرورة اكتماله وتنضجه، وبعموم مكوناته المؤسّسة، وروافعه، وحوامله، وفواعله؛ فقد وقع بعضها في الاختزال والتبسيط والتسطيح، وقصر بعضها عن بيان جملة المركبات التي تنظم عمل هذه الحرب، كما بيان تمثلاتها وتجلياتها وترجماتها المختلفة، حيث صير إلى الاكتفاء بنشر إضاءة حول جوانب دون أخرى، وبالإلماع إلى فاعل دون سواه. وعانى بعضها الآخر أزمة بلحاظ وضوح المفاهيم والمعاني حيث سُجّل اختلاطها وتداخل الحدود والفروق بين هذه وتلك، وبنحو يُودي بالمتلقي إلى متاهات من التشرذم والبلبلة والتشوّش والتيه. في حين أنّ مقاربات ودراسات أخرى كان يعوزها الاستدلال المكين، والتوظيف السليم للمصطلحات، وتبيئتها، وإفراغ حمولاتها واسقاطاتها بنحو موجب وخلاق.

والحال هذه، كان لهذه الدراسة أن تتصادى لمقاربة من طبيعة مفارقة، تحرص على الشمول والإحاطة بكل ما للحرب النفسية من أساليب وطرائق وفنون وأواليات عمل وأهداف وغايات، بمقدار حرصها وإلحاحها على التعمّق الجادّ في المفاهيم والمصطلحات ذات الصلة، وبيان الفروق بينها، وحسن استخدامها وتوظيفها وتفعيل حضورها، والعمل بها، من خلال الاستدلال بالوقائع والتجارب الحسية، وبالترجمات والبراهين والشواهد الحية، لغرض اخراجها من إطارها النظري، ومن مثاليتها المتعالية، والإلقاء بها عارية في خضم المعاينة والفحص والاختبار.

لكنّ المعاينة العلمية الفاحصة التي تقصّدناها وأردناها هنا، لا يمكن لها أن تستقيم بإطلاق على نحو وازن، دونما تخفيضٍ لمستوى التوتر الفكري والانفعالي المصاحب- في العادة- لمثل هذه المقاربات، بحيث يصار إلى سوقها بعيداً من الصياغات الحماسية والشعاراتية والانفعالية، وإلى تجنيبها كلّ أشكال الارتجال، وكلّ ما هو لحظي وظرفي عابر، ويساعد- بالتالي- على توفير قدر أكبر من الحيادية والموضوعية، ويجعل المشهدية المقدمة بنحو أقرب ما يكون من الحقيقة، وأكثر تجسيدا للواقع القائم.

أمّا لماذا الحرب النفسية؟.

لا شكّ أنّ التقدّم الكبير في دنيا العلوم، والتطوّر الهائل في تكنولوجيا المعلومات، وفي وسائط الإعلام والاتصال، فضلاً عن تطوّر أساليب التحليل النفسي، أسهم على نحو فاعل في تعظيم مكانة الحرب النفسية، وشأنيتها وخطرها؛ بحيث أصبح من غير اليسير على أيّة جهة توفير القدرة

الحمائية لنفسها، أو تحقيق الحصانة والمناعة الداخلية لديها، أو خوض غمار النزاعات والحروب، دونما الاستعانة والاستنجاد بها.

فبعد أن ساد الاعتقاد طويلاً بهامشية الدور الذي تضطلع به الحرب النفسية: لا تحسم حروباً، ولا تعدو وصفها عنصراً ثانوياً مكمّلاً من عناصر العملية الحربية، أي ليست غير أداة إضافية في جعبة القيادة العسكرية... وسوى ذلك من مقولات تبهّت حضورها، وتبخّس من قيمتها، وتقلل من فعاليتها؛ قيّض لها أن تشكل أداة النصر الفاعلة والصالحة، وأدرجت عملياتها بالتوازي إلى جانب القوات البرية والبحرية والجوية لتشكل مجتمعة «قوى الدولة الشاملة»، بل إنّها اكتسبت أهمية خارج أطر الصراعات العسكرية المباشرة، بحيث طاولت صعد الحياة العصرية، ما جعلها من أخطر أنواع الحروب الموجهة ضد الكائن البشري، لقدرتها على النيل من عقله ووعيه وذاكرته، واستطراداً لقدرتها على سوقه وقوده والأخذ به نحو الاستلاب والهزيمة. والأخطر أنّها لم تكتف بإعمال التأثير في السلوك الاجتماعي للفرد أو للجماعة فحسب، وهذا ما منحها قيمة مضافة، بل وسّعت مدار استهدافاتها لغرض التأثير في سلوك الدول، وإحداث تغييرات وتحوّلات في مواقفها وتصوّراتها.

هذا التطور الملحوظ الذي استجد على غير صعيد، وحفر بصماته عميقاً في موضوعة الحرب النفسية، أشّر ليس إلى خطرها وحسب، بوصفها أداة فاعلة في النزاعات والمواجهات البشرية القائمة، بل إلى تسيّدها وهيمنتها وحضورها وسطوتها على كلّ الصعد، وفي غير مجال من مجالات الحياة. وأذن بتحوّلها إلى ركن ركين في عقائد الجيوش، وفي منظومات الدول والأمم الدفاعية والهجومية والحربية، كما أذن بتحوّلها إلى علم قائم بذاته، له فنون ومتون ونظريات وضروب وتخصّصات، ويحظى بالعناية والرعاية والاهتمام والتدريس، وتقام باسمه الندوات والمؤتمرات والورش التأهيلية... ما ولد لدينا فضولاً معرفياً محرضاً ودافعاً على إجراء مقاربة علمية تظهر ما لهذه الحرب وما عليها، وتكشف حجم الاستباحة التي لطالما أعملها الآخر المستعمر في عقولنا وذاكرتنا وأفكارنا ووعينا.

ولماذا ـ في موازاة ذلك ـ القراءة في إستراتيجيات حزب الله؟

الحق يقال، إنّ حزب الله صنع انتصارات عزيزة، وميمونة، وغير مسبوقة في تاريخ الصراع العربي-الإسرائيلي. وكان للحرب النفسية- التي برع فيها الحزب، وأجاد توظيفها وتثميرها وتفعيلها، وحسن ادارتها، وسُجّل له غير مرة فتوحات عظيمة على هذا الصعيد- فضيلة صياغة سيرورات اكتمال هذه الانتصارات، كما فضيلة تعزيزها وصيانتها، ذلك أنّ حزب الله في سياق ممارسته لهذه الحرب لم يقف في قبالة الإسرائيلي موقفاً تنافسياً أو ندياً وحسب، وانما كان له في صولات وجولات عديدة اليد الطولى وعظيم الباع وجميل الصنيع، وأنّ إستراتيجياته ومناوراته وتكتيكاته ذات الصلة قد نجحت، وأربكت العدو فعلاً، وأضرّت بوعيه، وحملته إلى إعادة نظر في أوضاعه ومستقبل وجوده، بعدما أحييت من جديد هواجس البقاء لديه ... ما ولد دافعية الإضاءة على مظاهر هذا الاقتدار وفواعله، وعلى أسباب هذه القوة، ونتائج ما صير إليه من فتح ونصر. علنا نسهم في معركة تنشيط الوعي العربي والإسلامي بحقيقة ما لديه من قدرات وإمكانات وطاقات، كما بتثويره، وتحفيزه، وعتقه من إسار الشعور بالتصاغر والدونية أمام الآخر المحتل والمعتدي والمستعمر بمعناه الكولونيالي.

والحال هذه، اتخذ الكتاب من عنوان «الحرب النفسية: قراءة في إستراتيجيات حزب الله»، لافتة المسار والوجهة، ودليل السفر والبرهان، والمظلة البحثية التي أرخت بأثقالها وأحمالها، لتظلل كل مساحات اشتغالاته، وتوضعاته، واهتماماته، وعنايته: تشفف المقاصد، وتثير الإشكاليات، تعاين الوقائع والأحداث، ترصد وتقارن، وتزن، وتتحرى، وتطلق الأسئلة القلقة، كما المعادلات والأحكام، في رحاب الفضاء البحثي المفتوح على غير صعيد، ما يلحّ على انطراح غير سؤال وسؤال: علام استقام متن الكتاب؟. وإلامَ نزع؟. وماذا توسل من أهداف وغايات؟. ووفق أيّة بنائية استوت هيكليته ومشهديته العامة؟.

لقد توزّع الكتاب وتنازعه فصلان اثنان، استقل كل منهما بأطروحته، إلا أنهما اجتمعا ليصوغا له أشغولته الحاكمة، وليشكلا مادته ومتنه، وليقفا على ما طواه في تضاعيفه من حمولات ودلالات، وما أثاره من إشكاليات، وما توفر عليه من إجابات.

بحث الفصل الأول بنحو أكاديمي في مسارات التشكل النظري لأطروحة الحرب النفسية وتنضجها، وتطورها على المستوى المفهومي والعلومي؛ وللغاية لم يجد مندوحة من التنقيب الحفري عن الامتدادات التاريخية الغورية لجذور المصطلح واستخداماته، ومن تحرّي كل قواعد الضبط الحاكمة، وفروض العمل والاشتغال التي قنّنتها، ودفعت بها إلى التخلّق والتبلور على النحو الذي تناهت به إلينا، بحيث استقام لها الأمر، وقيّض لها أن تشكل أداة النصر الفاعلة والصالحة في غير موقعة ونزاع وحرب، وفق ما كانت قد تكشّفت عنه المعطيات والوقائع والأحداث.

وبعد التوطئة التاريخية الممهدة، ألحّ هذا الفصل على محاولة إيجاد تعريف جامع مانع، تتوضع بين حدّيه بطاقة هوية الحرب النفسية، بكل ما تتوفر عليه من خصوصية وحساسية وفرادة. إلا أنّ الأمر كان دونه منزلاقات غير محمودة، بسبب من تعدّد المدارس والنظريات والآراء والمقاربات التي عكفت على تأطير المفهوم وتقعيده، بلحاظ ميادين العمل والأساليب والوسائل والأهداف المرجوة. وذلك قبل أن يصار إلى بيان الأهمية والإلحاح الذي كانت عليه هذه الحروب، وإلى ملاحظة أوجه الخطر المتأتي منها، وإلى الوقوف ملياً عند الأدوات والوسائل التي تتخذ منها منصات إطلاق، وعند الأشكال والأنواع والاتجاهات والأهداف التي تتوسلها، كما الأساليب الملتوية التي تتلبّس بها؛ نحو: الدعاية، والشائعة، والضغوط الاقتصادية، والمناورة السياسية، والاغتيالات، والتسميم السياسي، وتشجيع التمرّد، وغسل الدماغ، واستخدام الأقليات والمنظمات، والأعمال العسكرية الرادعة، وحروب المصطلحات، وما إلى ذلك من أساليب. لينتهي المطاف إلى التعرّض للسبل الكفيلة بدرء خطرها، وكيفية مواجهتها، والتصدي لها.

وآثر الفصل الأول أن لا يُبقي جهده في أنساق جامدة، وفي قوالب محنطة، وفي إطار من النظرية المثالية المتعالية البعيدة من الحسية والتجربة؛ فحرص- والحال هذه- على أن يقدم عرضاً موجزاً للمرتكزات التي انبنت وتهيكلت عليها الحرب النفسية الإسرائيلية في مواجهة العرب، كما للمرتكزات التي نهض عليها معمار حرب حزب الله النفسية في مواجهة إسرائيل، مضمناً الأولى الأهداف النفسية للعدوان على لبنان في صيف العام 2006، في حين انطوت الثانية على بعض فصول المواجهات النفسية التي استجلبت لحزب الله نصراً ميموناً، وحققت له فتوحاً كبيرة على غير صعيد.

أمّا الفصل الثاني من الكتاب فكان له شأنٌ آخر، حيث عكف على تقديم قراءة افتراضية لمنظومة المركبات والإستراتيجيات التي تخلقت منها عقيدة حزب الله في إطار حربه النفسية المشروعة والمفتوحة مع إسرائيل؛ نحو ما نقع على تمثلاته وترجماته، في ما يمكن الاصطلاح عليه بإستراتيجية الغموض البناء، وإستراتيجية المفاجآت، وإستراتيجية الردع، وإستراتيجية تثوير الوعي واستنهاضه... مع بيان ما لهذه الإستراتيجات المتبعة من فعالية وسطوة، ومن فضيلة على الإضرار بالذات الإسرائيلية الجمعية، كما بالوعي والمخيال والذاكرة، بنحو تبدّت مفاعيله في انكفائها جميعاً، وفي تقهقرها وتصاغرها وانهزامها.

منهجياً، ألحّ الكتاب في تشفيف مقاصده على توسل منهجية من طبيعة مركبة، تتداخل فيها غير أداة وطريقة، حيث يتساوق ويتحايث التاريخي مع التفكيكي والوصفي والتقابلي المقارن. ذلك أنّ الاقتصار على تفعيل أداة منهجية واحدة دون سواها، من شأنه أن يتأدّى إلى التبسيطية والاختزال في مقاربة الأمر، وأن يكون بالضرورة على حساب جلاء بعض جوانب الأطروحة، وبعض مكونات وروافع المقولة الواحدة، وبالتالي تتعذر الإحاطة بعموم مكونات المشهد، وفق ما تقتضيه الحقيقة العلمية.

ألحّ الكتاب أيضاً على مجانبة الوقوع في السلبية، ومجانبة المجافاة القصدية للحقيقة والموضوعية، فضلاً عن مجانبة أي نزوع للانحراف أو ميل للتحريف، وعكف للغاية على جمع مادته بنحو يرتقي بها إلى مستوى عال من الصدقية والجدية والتوثيق، إذ قلما تقع على صفحة من صفحاته خلت من مراجع مسندة، أو ايضاحات مفسّرة، أو تعليقات، أو تذييلات، أو شروح، كانت من الوفرة بحيث تتجاوز في أحايين كثيرة الخمس أو السبع ملاحظات، وكانت من التنوّع بحيث لا يصار إلى المصادرة والاختزال اللذين يفرضهما الاكتفاء بالنظر إلى زاوية واحدة من زوايا الصورة. كما عكف الكتاب على تحرّي الوقائع والأحداث، والتدقيق في البيانات والتفسيرات والشواهد والمفاهيم والمصطلحات بنحو يتيح للمتلقي الركون إليه، والأخذ به كمعطى علمي، وبنحو يحيل الدراسة إلى وثيقة مرجعية حاكمة من حيث أنها وُفقت إلى وضع معايير أكاديمية وعلمية وبحثية، يصحّ اعتمادها في القراءات والمقاربات والمراجعات والمقارنات والمقايسات والموازنات ذات الصلة بالحروب النفسية.

الجدير بالإلفات والاهتمام، أنّ أحداً لا يدّعي قدرة الكتاب على الإحاطة الشاملة والوافية بكل جوانب الحرب النفسية، بحيث أنه يستنفد الحديث عنها، ويغلّق الأبواب خلفه، فهذا ما لا طاقة لأيّ كتاب به، نظراً لتعقيدات هذا النوع من الحروب، ولكثرة مخاتلاته ومراوغاته وأوجه الحيلة لديه، كما لكثرة تشعباته وتمثلاته، ولتعدّد الميادين والمجالات والمساحات التي تشكل بيئة عمل له وفضاء لاشتغاله. والحال، فالكتاب لا يضع نفسه إلا في سياق المحاولة الجادّة والوازنة التي تتوسّل مثل هذه الإحاطة الشاملة، دون أن تدعيها، ودون أن تقطع مع المباحث ذات الصلة، أو أن تبخّس هذه الأخيرة حقها، بل تمنّي النفس بأن تشكل مع من سبقها عتبة وعي صحيح ملؤه الدافعية والتحفز، وعتبة انطلاق إلى مباحث أخرى؛ أرحب، وأوسع، وأشمل، وأغنى، وأعمق في الرؤية، وأعم في الفائدة، بما يضيئ على الحقيقة، ويخدم الرقي الفكري والمعرفي والثقافي، ويحقق الإضافة العلمية.

قصارى القول، أن يقع هذا الكتاب بعين الله سبحانه وتعالى؛ لهو- بلا شك- خيرُ ما نرجوه ونأمله، ومنتهى ما نصبو إليه من أهداف وغايات وأماني ورجاءات. وأن يُوفق- هذا الكتاب- إلى تقديم

فائدة جليلة وعظيمة لقارئ يبحث في ميادين الحرب النفسية، بما لها من دور في تفعيل المسارات الموجّهة لبناء الاتجاهات العامة، وبما هي أداة مؤثرة في عمليات إنتاج وإعادة إنتاج الوعي والذاكرة والمخيال، كما إنتاج وإعادة إنتاج مباني الصور المنمّطة والمتبناة من الرأي العام؛ لهو الحسب والرضى. وأن يشغل- هذا الكتاب- مكاناً لائقاً في المكتبة العربية، ويُسيّل كرأسمال رمزي في دنيا العلوم، ويشكل قيمة معرفية تضاف إلى خزانة نهضة الأمة؛ لهو طموح ينشده ويجدّ في طلبه أيّ باحث وكاتب. وأخيراً، أن أسهم – بدوري - في معركة تنشيط الوعي العربي والإسلامي، على نحو ممانع ومقاوم ومتحفز لصناعة غد أفضل، ولصناعة مستقبل قوامه الحرية والرفعة؛ لهو منتهى الرسالية الطامحة لأداء دورها وتكليفها الإلهي، ولهو شرف أعتدّ به وأفخر.

المؤّلف

الفصل الأول

الحرب النفسية

لقد تملك الإنسان منذ القدم نزوع إلى التملك، والاستئثار، والاستحواذ، والتسلط، والهيمنة، والسيطرة...، ليس على ما هو مادي وحسي وعيني فحسب، بل على وعي وعقل وأفكار وإرادات ومعنويات الآخرين. كما دأب على تسخيرها واستغلالها وفق مشيئته ورغبته ومصلحته. وكان قد توسّل في سبيل هذه الغاية استعمال واستخدام طرائق وأساليب ووسائل متعدّدة ومتنوّعة(1). تكفي العودة الحفرية التاريخية كي تتأكد صحة هذا المذهب، وكي نقع على كثير من الوقائع والشواهد الدالة والمعبّرة. ما يعني أنّ تجريد العدو والخصم من الروح المعنوية، وتحطيم إرادة القتال والممانعة لديه؛ هو قديم قدم نشوء النزاعات. ويعني- بالتالي- أنّ الحرب النفسية هي حقيقة قديمة، قائمة وماثلة منذ أن كان الصراع البشري قائماً وماثلاً(2)، إلا أنّها كمصطلح لم تتخلق وتتبلوّر على النحو الذي تناهى إلينا، ولم تحدّد قواعد ضبطها وفروض عملها واشتغالها، إلا خلال فترة الحروب الكونية، حيث قيّض لهذا الأخيرة في الحرب العالمية الثانية(3) أن تشكل أداة النصر الفاعلة والصالحة، وأن تحدث فتوحاً كبيرة على غير صعيد.

والحال هذه، عكفت الأمم والشعوب الخارجة لتوها من آتون هذه الحرب العظمى والمدمرة ـ تحسساً منها لخطورة وفعالية هذه الأداة الجديدة للحرب ـ على تلقف هذا المصطلح، والأخذ بهذا المفهوم، كما على تفعيله، وتطويره، وتعزيزه، ليصار إلى إدخاله كمركب وكمكون أصيل وفاعل، من مركبات ومكونات عقائدها ومنظوماتها الحربية(4). لقد أدرجت العمليات النفسية ـ بالتوازي ـ إلى جانب القوات البرية والبحرية والجوية؛ لتشكل مجتمعة «قوى الدولة الشاملة»(5) وفقاً لتعبير وايز كلاين. بحيث أصبح من غير السوي التخطيط لحرب، والانخراط فيها، دونما تفعيل للعمليات النفسية، ودونما تطوير لاستخداماتها على نحو يتأدّى إلى حسم المعركة سريعاً، كما إلى الوصول إلى النصر النهائي بالأقل من الخسائر والأكلاف البشرية والمادية.

وبعد تجاوز قطوع التمأسس في الحرب العالمية الثانية، تابعت الحرب النفسية سيرورة اكتمالها وتمدّدها وانفلاشها إلى ميادين وصعد مختلفة، فاكتسبت في ظل الحرب الباردة أهمية خارج أطر الصراعات العسكرية المباشرة(6)؛ مورست فيها كلّ أشكال وتمظهرات الدعاية، والتضليل، والمخاتلة، والتهديد، والوعيد، والمراوغة، وتزييف الوعي، والكذب، والافتراء، والشائعات... بوسائل وطرائق شتى(7). ما جعلها من أخطر أنواع الحروب الموجّهة ضد الكائن البشري، بوصفها تستهدف عقله وتفكيره ووعيه وقلبه وذاكرته ومخياله، وتنال من عزيمته وإصراره، وتحطم روحه المعنوية، وتقضي على إرادة المواجهة لديه، وتقوده استطراداً نحو الاستلاب والارتهان والهزيمة والاستسلام. كما لم ترضَ الحرب النفسية- إكتفاء- بإعمال التأثير في السلوك الاجتماعي للفرد أو للجماعة فحسب، وهذا ما منحها قيمة مضافة؛ بل وسّعت مدار اشتغالاتها واستهدافاتها لخوض غمار معارك كسب الرأي العام العالمي أيضاً، وذلك وفق قاعدة سيكولوجية مكمّلة للعمل العسكري والاقتصادي والسياسي، يصار إلى ترجمتها بأساليب دعائية نفسية ترمي إلى التأثير في سلوك الدول، وإحداث تغييرات وتحوّلات في مواقفها وتصوراتها وإيديولوجيتها.

وهكذا قدّر للحرب النفسية- مفهوماً وثقافة وممارسة– أن تلج إلى فضاءات ومدارات كل الأمم والكيانات والمجتمعات والدول، وإنْ كان ذلك بنحو نسبي وحادّ. ثم كان للتقدّم الكبير الذي صير إليه في دنيا العلوم على اختلافها، ولاسيما منها النفسية، والاجتماعية، والسياسية...، وسواها من العلوم التي توفر معرفة بالسلوك الإنساني، كما كان للتطور الهائل الحاصل في تكنولوجيا المعلومات، وفي وسائط الإعلام والاتصال(8)؛ إسهام كبير في تعظيم شأن الحرب النفسية(9)، وتضخيم دورها، وتوسيع هوامش ومساحات حركتها واهتماماتها واشتغالاتها، على نحو أصبح من العسير على أية جهة توفير القدرة الحمائية لنفسها(10)، أو تحقيق الردع والحصانة والمناعة الداخلية من ناحية، وخوض غمار النزاعات والحروب والمناكفات السياسية، دونما الاستعانة والاستنجاد بها(11).

وإذا كان أفلاطون قد أشار قديماً إلى عظمة الروح المعنوية في موضوعة الحرب، حيث يقول «إنّ أسوار المدينة لا تبنيها الحجارة». وكان نابليون بونابرت، قد أشار بدوره إلى قوة الكلمة وأثرها وفعاليتها في إدخال الرعب والخوف والتوتر والهلع إلى نفوس وقلوب المقاتلين والمحاربين، حيث يقول: « إنني أرهب صرير القلم أكثر من دوي المدافع»؛ فإنّ رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق مناحيم بيغن، يصف حديثاً كيف تحوّلت هذه الأداة- أي الحرب النفسية- إلى ركن ركين فاعل في منظومات الحروب المعاصرة، من حيث أنها أعطيت مجد كسب المعارك، وتحقيق الإنتصارات، وصناعة الإنجازات، وإحداث الفتوح السياسية والعسكرية «يجب أن نعمل» يقول بيغن «ولنعمل بسرعة فائقة قبل أن يستفيق العرب من سباتهم، فيطلعوا على وسائلنا الدعائية. فإذا استفاقوا، ووقعت بأيديهم تلك الوسائل، وعرفوا دعامتها وأسسها، فعندئذ سوف لا تفيدنا مساعدات أميركا، وتأييد بريطانيا، وصداقة ألمانيا. عندها سنقف أمام العرب وجهاً لوجه مجردين من أفضل أسلحتنا».

هذا قبل أن تتفتق الحرب النفسية عن آخر إبداعاتها وصرعاتها وكشوفها في الحروب الحديثة؛ حرب الخليج الثانية(12)، وغزو أفغانستان(13)، وحرب الخليج الثالثة(14)، وحرب لبنان في صيف العام 2006 (15)، وما سمّي بالحرب المفتوحة على الإرهاب.

في المحصلة، بالمقدور القول إنّ الأمر استتب للحرب النفسية، فاستقام عودها بنحو أصبح معه الكائن البشري في هذا العصر يتنفس المؤثرات النفسية والدعائية والإعلانية، كما يتنفس الهواء. ويغتذي من نتاجها ويقتات، كما يقتات من سائر صنوف الأغذية والأطعمة، وذلك بعد أن فرضت ذاتها حاجة ضرورية من حاجاته الحيوية الملحة. لكنّ المفارقة أنه في تنفسه للهواء يأخذ ما ينفعه ويمدّه بأسباب الحياة (الأوكسجين)، ويلفظ في قبالة ذلك ما يضرّه، وما يسئ إليه ويفسد عيشه (ثاني أوكسيد الكربون). أما في تنفّسه للعمليات النفسية على اختلاف تمظهراتها وتمثلاتها، فهو غالباً غير قادر على الانتقاء والتخيّر والفرز والتمييز. بل هو عرضة للتوعك النفسي وللإصابة بالعلة التي قد تقتل فيه الروح والإرادة والإيجابية والاندفاع والقوّة الرمزية والمعنوية. والحال، لكي ندرك طبيعة هذا النوع من الحروب، ونتحسّس مخاطره، ونقف على تخلقاته والآعيبه ومراوغاته، علينا أن نعي تمام الوعي ماهية الحرب النفسية، ونفقه أهميتها، ونتعرّف على أساليبها، وأشكالها، وأهدافها، وسبل مواجهتها، وعناصرها المكوّنة، ومبادئها، واتجاهاتها.

فما هي هذه الحرب النفسية؟

تعريفها

إنّ تعريف الحرب النفسية (Psychological Warfare)، ومقاربتها مقاربة جادّة ووازنة، هو أمر شائك، بالغ الصعوبة والتعقيد، حيث بالمقدور أن نقع على تمثل ذلك وترجماته في انعدام تبلور فهم جامع مانع لها، يمكن الاستناد إليه، والاتكاء عليه، لبناء تصوّر علمي حولها، لا تعوزه الإحاطة، ولا تنقصه الحجج. والحال هذه، تعدّدت الآراء، وتنوعت المقاربات، وتباينت وتفاوتت الأفهام، واختلفت زوايا النظر: فثمّة من رأى إليها «الحرب التي يستخدمون فيها الدعاية من أجل التأثير على أشخاص بين أوساط العدو». وأراد بالتأثير هنا تقويض ثقة هؤلاء الأشخاص– المستهدفين بالنصر(16). وثمّة من اعتبرها «عمليات تستخدم فيها وسائل الإقناع على نحو غير عنفي، لتحقيق أهداف الحرب العسكرية». ما يجعلها مجرد أداة إضافية لتحقيق مقاصد الحرب وأهدافها. وثمّة من استخدمها كمصطلح لوصف «العمليات الدعائية» التي تهدف إلى تحقيق الغايات المطلوبة عسكرياً في زمن الحرب. وثمّة من وجد فيها «عملية منظمة شاملة، يستخدم فيها من الأدوات والوسائل ما يؤثر على عقول ونفوس واتجاهات الخصم»، بهدف كيّ وعيه(17)، وتحطيم إرادته وإخضاعه، أو بهدف تغيير هذه الإرادة وإبدالها بأخرى، بما يؤدّي في نهاية المطاف إلى سلوكيات تتفق مع أهداف ومصالح منظم العملية.

وثمّة ـ أخيراً وليس آخراً ـ من قال فيها أنّها نوع من النشاط النفسي الحربي يمارسه كلّ طرف من الأطراف ضد عدوه لتحقيق أجندة أهدافه وسياساته، ما يجعلها مكوّناً أصيلاً من مكوّنات الحرب الشاملة، وعاملاً من عوامل الإخفاق أو النجاح فيها، من حيث أنّها تمارس قبل الحرب، وفي أثنائها، وتستمرّ معها بلا توقف، وقد لا تنتهي بانتهائها(18). وهي تستخدم في سبيل ذلك الدعاية وسواها من العمليات النفسية، بالتساوق والتزامن مع التدابير والإجراءات العسكرية والاقتصادية والسياسية الهادفة إلى إخضاع العدو، وتثبيط معنوياته، وشلّ إرادة القتال والمقاومة لديه، ودفعه إلى التسليم والاستسلام.

وقد حاول بول لينبارجر في كتابه القيّم «الحرب النفسية»(19)، الأخذ بكلّ هذه الإلماعات المفاهيمية، وتدوير زوايا النظر المختلفة، والإضاءة على مجمل مساحات اشتغال الحرب النفسية؛ حيث حدّد هذا النوع من الحروب بأنّه «استخدام الدعاية ضد العدو مع إجراءات عملية أخرى ذات طبيعة عسكرية أو اقتصادية أو سياسية»(20)، أو سوى ذلك من إجراءات ترى إليها الدعاية شرطاً لازماً وعضوياً لتحققها. كما إنّه– وهذا ما يزيد من فعاليته وتأثيره وسطوته، ويمنحه قيمة علمية مضافة– تطبيق «لبعض أجزاء علم النفس لمعاونة المجهودات» التي تبذل في المجالات المختلفة. وقد أراد لينبارجر من الدعاية- كي لا يبقى التحديد على عواهنه- ذلك الاستخدام الفاعل والمخطط «لأي شكل من أشكال الإعلام بقصد التأثير على عقول، أو عواطف مجموعة معادية، أو محايدة، أو صديقة»، لغرض تحقيق هدف إستراتيجي أو تكتيكي معين(21).

وعلى خطى لينبارجر مشى حامد ربيع، فوجد الحرب النفسية نوعاً «من القتال لا يتجه إلا إلى العدو». وهي بذلك على خلاف الدعاية التي تتعدّد فيها الوجهات. كما وجدها فناً حربياً «لا يسعى إلا إلى القضاء على إيمان المستقبِل بذاته، وبثقته بنفسه». وهي بذلك تتوسّل، لا الإقناع والاقتناع، وإنّما تحطيم الإرادة الفردية والجماعية.

وأدلى العالم الأميركي شفارتز بدلوه في مقاربة موضوعة الحرب النفسية، فأشار في مطالعة قيّمة إلى أنّها: «استخدام الصنوف المختلفة للحجج الحقيقية والمزورة»، التي من شأنها أن تتأدّى إلى إضعاف وتحطيم وقتل الروح المعنوية لجمهور العدو وجيشه، كما تخريب وتشويه سمعة قياداته، ونزع الثقة بإمكاناتهم وقدراتهم، والإضرار بمصالحهم. ما يعني في نهاية المطاف «الضغط والتأثير على الرأي الاجتماعي عامة، وآراء الناس المستقلين خاصة، لتحقيق هذه الأهداف أو تلك».

والحرب النفسية من منظور الرؤية الأكاديمية المتخصصة؛ هي «الاستخدام المدبر لفعاليات معينة معدّة للتأثير على آراء وسلوك مجموعة من البشر بهدف تغيير نهج تفكيرهم». وهي تتوسّل- في ما تتقصّده بمعناها الشامل والواسع- مفاهيم علم النفس واصطلاحاته، كما استعمال أدواته وميادينه لغرض تحقيق الهدف المنشود بأساليب الدعاية، والشائعة، والمقاطعة الاقتصادية، والمناورة السياسية... وتعدّ بحق أقل الأسلحة وأبخسها كلفة إذا ما أجيد توظيفها وتثميرها، مع لحاظ أنّ استعمالها واستخدامها لا يقتصر على أوقات النزاعات والحروب فحسب(22)، بوصفها عملية دائمة ومستمرة. فضلاً عن أنّ تلمّس نتائجها غير متاح وغير ممكن، إلا بعد مرور مساحة زمنية فارقة- قد تحسب بالأشهر أو ربما بالسنين- على انطلاقتها(23).

أمّا الحرب النفسية من وجهة نظر خبراء الإعلام والدعاية؛ فإنّها «استخدام مخطط من جانب دولة، أو من جانب مجموعة من الدول، للدعاية وغيرها من الإجراءات الإعلامية الموجّهة، إلى جماعات عدائية أو محايدة أو صديقة، للتأثير على آرائها وعواطفها ومواقفها وسلوكها». ما يجعلها ـ وفق هذه الرؤية ـ أداة صالحة، هادفة وفاعلة، لتحقيق مآرب وسياسات ونوايا وأهداف الجهة، أو الدولة، أو الجهات والدول الراعية لها، والمطلقة لشراراتها.

قصارى القول: إنّ الحرب النفسية هي حرب ذات أبعاد وحمولات ودلالات وأغراض متعدّدة؛ هي حرب ناعمة(24) قوامها برمجة الوعي، وهي حرب أفكار تستبطن الاستحواذ على العقول والألباب، كما تستبطن استلاب الإرادات والعزائم والذاكرة والمخيال(25). وهي حرب إيديولوجية ـ عقائدية ـ فكرية. وهي حرب المساس بالمرجعيات والبداهات والقيم الحاكمة. وهي أيضاً حرب باردة، وحرب الدعاية والإعلان، وحرب أعصاب، وحرب سياسة، وحرب الكلمات والشائعات. وهي حرب بناء الاتجاهات، وصناعة المواقف، وتكوين التصورات، وتغيير السلوك... وهي أخيراً حرب إخراج الإنسان من ذاتيته، ومن نفسه، ومن عفويته، ومن قيمه؛ ليكون صنيعة أخرى: هجينة ومشوّهة.

أهمية الحرب النفسية

تحظى الحرب النفسية- لدى الجيوش والقادة والحكومات من المستوى السياسي– بأهمية بالغة(26)، وبقدر من الاهتمام والعناية والرعاية، حيث توظف في سبيلها كلّ الإمكانات والمقدرات والموارد، بوصفها أخطر أسلحة الحرب فتكاً(27)، وأشدّها تأثيراً، وأكثرها إضراراً، وأمضاها، وأضمنها، وأقلها كلفة؛ تثير الفتن والقلاقل والصراعات في جبهة العدو الداخلية. تشقّ وحدة الصفوف لدى الخصوم والأعداء، وتشتت شملهم. تستهدف تمزيق وتحطيم وقتل الروح المعنوية، كما كسر إرادة الصمود، ودفع العدو إلى الاستسلام، بعد أن تكبح وعيه واندفاعته، وتعمل على تعريته من قواه الرمزية الفاعلة، وتجعله لاإرادياً يتقهقر مخلفاً وراءه الخسائر الجسيمة (28).

والحال هذه، تنبّه الخبراء والباحثون وذوو الاختصاص والمعرفة في شؤون الحرب وشجونها إلى خطورة الحرب النفسية، وتسالموا على أنّها أقوى أسلحة الصراع قدرة على إلحاق الهزيمة بالأعداء، كما أشدّها أثراً في جلب وتحقيق النصر بسرعة، وبأقلّ الخسائر والأكلاف(29): فإذا كان تفعيل الآلة العسكرية من شأنه أن يتأدّى إلى تدمير مادي للقوات، وللعتاد، وللبنى التحتية... وإذا كانت الحروب الاقتصادية تسفر عن حرمان العدو من المواد الأولية والحيوية، وتعطل أو تبطئ دورة وعجلة الحياة لديه، وتفضي بالتالي إلى شلل وعقم يدبّ في أوصاله ومَقاتله؛ فإنّ بمقدور الحرب النفسية ما هو أخطر وأدهى: إنّها وفق ما يقول بول لينبارجر«تحدث شرخاً عميقاً في خصال الشخصية، ومظاهر السلوك، وفي طبيعة الأداء، والآراء، والمعتقدات، والقيم المعنوية والروحية للفرد». وتتوسّل في سبيل ذلك أساليب خبيثة تصيب الإنسان في إنسانيته، وفي روحه، ومعنوياته، وإرادته، ووعيه، وعقله، وقلبه، وتفكيره، وعواطفه...، وتمنحه شعوراً قاتلاً بالدونية والتصاغر والعجز والإحباط والخيبة(30). ما يقلل من قابلياته على التحسّس بمسؤولياته الوطنية والأخلاقية، ويقعده عن الحراك، وعن القيام بما يتوجب عليه، ويقوده ـ في نهاية المطاف ـ إلى الهزيمة الكلية، وإلى أبشع أنواع الاستسلام والخضوع والخنوع والاستعباد والإذلال.

وإذا شئنا الاستدلال على خطورة الحرب النفسية، وعلى مبلغ فعاليتها وتأثيرها وسطوتها؛ فلنا في أقوال بعض قادتها وقادة الحروب الكونية شواهد وبراهين قاطعة:

قال ونستون تشرشل(31) في معرض توصيفه لخطورة الحرب النفسية: «كثيراً ما غيّرت الحرب النفسية وجه التاريخ».

وقال جوزف ستالين(32) عن الدعاية، بوصفها ركناً ركيناً من أركان الحرب النفسية: «إنّ للدعاية الأهمية القصوى في الانتصار النهائي» في الحروب. وكان أدولف هتلر، قد قارب الأمر من زاوية أخرى، حين أشار إلى «أنّ الرأي العام يعتمد على معرفة بالأشخاص؛ فالشخص يستسلم للدعاية دون أن يشعر».

وفي سياق متصل، اعتبر القائد الميداني الألماني أروين روميل(33) أنّ: «القائد الناجح، هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل أبدانهم». أما أدميرال البحرية الأميركية جيمس بلدوين؛ فأشار إلى دهاء الحرب النفسية بقوله: «إنّنا غالباً ما نعرف أنّ الحرب تكون باستخدام الوسائط العسكرية(...) لكن هنالك وسائط تبدو أكثر مكراً، هي الحرب النفسية التي تستخدم الصور والأفكار والشعارات والدعايات والتقنيات الإعلامية...» .

أساليب الحرب النفسية

تتوسّل الحرب النفسية لتحقيق مآربها ومقاصدها وأغراضها، أساليب وصيغاً مختلفة ومتنوعة؛ أبرزها:

أولاً - الدعاية السياسية

تعريفها: الدعاية لغة؛ من الفعل دعا، وتعني «الدعوة إلى مذهب أو رأي بالكتابة أو بالخطابة ونحوهما»(34). والداعية «الذي يدعو إلى دين أو فكرة، والتي تدعو إلى نفسها قد عُرفت بالفساد» (35).

والدعاية اصطلاحاً؛ هي وسيلة غايتها اجتذاب الناس وجلبهم إلى جهة معينة(36)، وجعلهم يطيعون وينقادون لمن يرغب في قيادتهم وسوقهم، فيتقبلون آراءه وأعماله بالإقناع(37)، المنظم منه الذي لا يخلو من ترغيب، والذي يستقيم من غير وسائل عنفية؛ نحو: خداع بالمصلحة. أو ذلك الذي لا يخلو من ترهيب؛ نحو: الإكراه على القبول. ما يعني أنّ الدعاية هي إثارة إعلامية ونفسية معدّة بعناية وحذق، على نحو دقيق ووازن ومسبق، للتأثير في اتجاهات وعقول ومواقف وعواطف المتلقين، كما في وعيهم وآرائهم وتصوراتهم وأفكارهم وسلوكياتهم(38)... متوسّلة في سبيل ذلك تقنية ضخّ وبثّ ونشر المعلومات- سواء أكانت حقائق أو فبركات وأكاذيب وأضاليل(39)– في وجهة محدّدة، وبكيفية مقننة ومنظمة وفاعلة. والحال، تكون الدعاية وفقاً لمعجم المصطلحات السياسية والدولية «هي المحاولة المقصودة والمنظمة لتشكيل الآراء والتلاعب بالإدراكات وتوجيه السلوك للرأي العام من أجل خدمة صاحب الدعاية. إنّها تهدف إلى جعل الأفراد يتبنون سلوكاً مختلفاً عن ذاك الذي كانوا يتبعونه بصورة عفوية، فهي تولد تصرفات ايجابية أو سلبية، لدى الجماعات أو الأشخاص الذين تتوجّه إليهم»(40).

والدعاية في علم الاجتماع السياسي؛ هي تلك التي تشغل «المسارات النفسية–الاجتماعية المستعملة في توصيل الخطاب السياسي، ونقله من المرسِل (الخطيب، الزعيم) إلى المرسَل إليه (المتلقي، الجمهور)»(41).

أمّا في ميدان علم النفس فينظر إلى الدعاية على أنّها محاولة للتأثير في اتجاهات الأفراد وآرائهم، وميولهم، ورغباتهم، ونزوعاتهم، وأنماط سلوكهم، وطرائق تفكيرهم؛ بحيث تأخذ الوجهة التي يرغب إليها رجل الدعاية. وقد يحدث هذا من طريق التلميح والإيحاء والإيماء والإشارة، أكثر مما يحدث من طريق توسّل المباشرة والمنطق في عرض وتقديم الحقائق، أو أنصافها، أو أشباهها.

وعلى اختلاف في المقاربات المتعدّدة لأطروحة الدعاية في الميادين العلمية ذات الصلة؛ حظيت الأخيرة بعناية العلماء والباحثين والمختصين: رأى إليها نعوم تشومسكي «وسيلة للهيمنة» بوصفها مؤثراً أيديولوجياً فاعلاً بصرف الانتباه عن الأسلوب والوسيلة التي تتوخاها للوصول بها إلى مقاصدها. واعتبرها كلاوس ميرتن «فعلاً وعملية اتصالية، رسالتها ومضمونها أشياء رئيسة تسعى في النهاية إلى الهيمنة على المتلقي».

أمّا هارولد لاسويل فقد رأى إليها بدوره نشاطاً اتصالياً تحريضياً واضحاً ومباشراً، باعتبارها لا حقلاً للنص وللإشارات والشفرات؛ بل «وضعاً وفعلاً اتصالياً تطلق فيه الأهداف». وكان عبد القادر حاتم قد وصفها بأنها «فن التأثير والممارسة والسيطرة والإلحاح والتغيير، والترغيب بقبول وجهات النظر أو الآراء أو الأعمال أو السلوك». كما عرّفها أحمد بدر بأنّها « الجهود الواعية

التي يقوم بها الداعية لنشر أفكار وآراء أو معتقدات معينة للتأثير في الرأي العام وعلى السلوك الاجتماعي، دون أن تفكر الجماهير في الأسباب التي دفعتها لتبني تلك الآراء ومنطقيتها».

وتطول قائمة المقاربات، وتتنوّع، وتتعدّد، وتتداخل، وتتخارج: فثمّة من قدّم الدعاية السياسية بوصفها «مجمل الوسائل التي تستعملها جماعة سياسية»، لغرض إشراك جمهرة من الأفراد أو الجماعات في نشاطها، وهم أفراد وجماعات- كما يذهب Jacques Ellul- يصار إلى «توحيدهم على الصعيد النفسي بواسطة مناورات نفسانية». وثمّة من أحكم المزاوجة بين شرطها الوسائطي وغايتها المنشودة؛ فكانت الدعاية السياسية هي «اللغة الموجّهة إلى الجماهير» وفقاً لمذهب جامعة برنستون، تتوسّل الكلمات والإشارات والرموز وسائر الوسائط الأخرى، لغرض التأثير على مواقف وسلوكيات وتوجّهات الجماهير حيال قضايا محدّدة تشكل موضوعات الرأي العام، وتشغل حساسياته واهتماماته، وعلى نحو يتأدّى في حصيلة الأمر- كما يضيف Bartelett- إلى تبني هذه الجماهير «لرأي معين وسلوك محدّد». وثمّة من وسّع من دائرة اشتغالها وتوضّعها، لتصبح الدعاية السياسية والحال هذه، عمليات بثّ ونشر وضخّ معلومات– حقائق كانت، أو وقائع، أو مبادئ، أو مجادلات، أو إشاعات، أو أنصاف حقائق، أو أكاذيب مختلقة، أو شيئاً ملفقاً من كل هذا أو من بعضه- وفق وجهة محدّدة، من قبل فرد أو جماعة، في محاولة منظمة لإحداث أثر في الرأي العام، أو تغيير في اتجاهات الأفراد والجماعات(42)، وذلك باستخدام وسائط الإعلام والاتصال بجمهرة المتلقين.

والدعاية هي الأسلوب الذي ينزع إلى نشر فكرة أو عقيدة أو خبر أو قيمة، وإلى ترويج معلومات وآراء منتخبة ومنتقاة بعناية، وبثها وإشاعتها وفق تخطيط هادف وموجّه بقصد التأثير على عقول ومشاعر وأعمال وسلوكات واتجاهات طائفة ومجموعة محدّدة من البشر، لغرض قد يكون اقتصادياً أو عسكرياً أو سياسياً... ما جعلها بحق إحدى أدوات الحرب النفسية الفاعلة، وواحدة من أسلحتها الفتاكة، بل ومصدراً رئيساً من المصادر المؤثرة في ساحة المعركة، وحفّز بالتالي الدول والحكومات والجيوش على العناية والاهتمام بها، وعلى التفنّن في كيفية استخدامها.

والدعاية ـ على النحو الذي ألمعنا ـ هي فن التأثير بخيال الجماهير، وهي محاولة منظمة ووازنة للتأثير على الرأي والمزاج العام عبر استخدام وتفعيل وسائل ووسائط المنظومات الإعلامية المختلفة والمتنوعة. مع لحاظ الاعتبار هنا، أنّ الطرائق والأدوات المكثفة التي تتوسّلها الدعاية لخلق وصياغة واقع ما، وإن كان بمقدورها أن تحقق نجاحاً آنياً وظرفياً قد يعوّض عن التمثل الحقيقي لراهنية الوضع السائد، إلا أنّ ذلك لا يستطيل، ولا يستمرّ إلى أمد بعيد، فسرعان ما تتكشّف الحقائق، وتظهر جلية على نحو بيّن وواضح. لكنّ ذلك لا يعني بإطلاق، أنّ توسّل التضليل والخداع والمراوغة وسوى ذلك من ميكانيزمات حرف الانتباه واستلاب الرأي وممارسة التأثير، قد لا يكون ملحاً وضرورياً ومطلوباً في أحايين كثيرة، وذلك بسبب من اضطرار القائمين على الدعاية إلى إبراز زاوية واحدة من زوايا الصورة، وإلى إظهار مكوّن واحد من مكوّنات المشهد العام(43)، وبالتالي الحرص على إخفاء الجوانب والمكوّنات الأخرى، لا لشيء إلا للتستر على الإخفاقات والهزائم، كما لتمييع وتحوير مظاهر الفشل والتقهقر والسقوط؛ فشدّة الصخب والصراخ والضجيج الإعلامي الممجوج تتأتى بالضرورة على نحو تعويضي، لتخفي وراءها قصوراً وضعفاً في القدرة على الفعل والتأثير(44). وكذلك حين تظهر في الفضاء والأثير الإعلامي حماسة أو اندفاعة لاعقلانية يصار إلى النظر إليها من خلال مرايا محدّبة؛ فتضخم وتفخّم وتدبلج وتتبّل من

قبل الوسائط الإعلامية المختلفة، ثم يصار إلى بثها بكيفيات مكرورة وممجوجة ومقزّزة، وبقوالب مملة ورتيبة؛ فإنّ ذلك يعتبر مؤشراً على انطراح تساؤلات حول صدقية ونزاهة المعلومات المبثوثة.

كما تتسم الدعاية بالحيوية والديناميةؤ إذ تسجّل المعاينات والقراءات الفاحصة والحفرية مواكبتها للعصرنة والتطور، ومرافقتها لصيرورة التحوّلات المستجدّة، وبالتالي انتقالها من طرائق وأساليب تقليدية إلى أخرى أكثر حداثة، وأكثر انسجاماً مع خصوصيات العصر والمجتمع والبيئة. يقول الباحث شيلفورد بيدويل في هذا الصدد: «كان جهاز توزيع المعلومات في الحرب العالمية الأولى محدوداً في الصحف. ولكن كانت الصحافة مألوفة وإمكانية القراءة والكتابة واسعة. وكان هذا الأسلوب يبدو كافياً لإثارة وتكثيف الكراهية الدائمة للعدو». أمّا وسائل «التأثير على الرأي العام في الوقت الحاضر» يضيف بيدويل فهي «أكثر إقناعاً، والرأي العام هو أكثر تعقيداً وصعوبة للتنبؤ به، يتلوّن بإيديولوجيات تتعدّى الولاء الوطني. ولكن من الحق أن نذكر أنّ واجب الدعاية في الوقت الحاضر هو إقناع الرأي العام بفكرة أنّ هناك مجموعات من الناس هي خارج حدود الإنسانية، وتستحقّ فعلاً أن تقصف بالمدفعية، أو أن تموت جوعاً، أو تغزى، أو تذبح. هذا التغيّر المتطرّف بدأ في الحرب العالمية الأولى»(45).

ولذلك نرى إلى الدعاية اليوم تعتمد على أسس وقواعد وبرمجيات ونظريات وأفكار علمية ومنهجية، وتتكئ على جملة من العلوم والمعارف ذات الصلة؛ نحو: علم النفس، وعلم الاجتماع، والتاريخ، والجغرافيا، والعلاقات الدولية والدبلوماسية. كما تستخدم تقنيات ووسائط علمية حديثة تساعدها على التكيف مع طبيعة الأهداف التي تنشدها وتسعى إلى تحقيقها. والحال هذه، كفلت لنفسها الحياة والصيرورة والديمومة والبقاء والاستمرار، على نحو أصبحت فيه تمارس فعاليتها وتأثيرها وسطوتها وحضورها في زمن السلم، كما في زمن الحرب دونما حدود، بعد أن كيفت أدواتها وطرائقها وأساليبها لتتلاءم مع كل مقام. هذا فضلاً عن أنّها أصبحت عملاً واعياً وهادفاً، منظماً ومخططاً ومبرمجاً، قد يوجّه إلى داخل الدولة لاستثارة الجماهير، ولإحداث تأثير أو تغيير أو تعديل في خياراتها، وقد يوجّه إلى الخارج لإحداث التأثير المطلوب في الرأي والمزاج العام العالميين.

إلا أنّ الدعاية بلحاظ غاياتها المرجوة وأهدافها المنشودة هي في السلم غيرها في الحرب. ففي السلم تستحضر الدعاية وتفعّل لغرض الإنتصار لقضية ما، أو لعقيدة معينة، أو لفكرة مفتاحية يُراد لها أن تتسيّد وتعمّ، وذلك بإعلائها ومقاربتها والإتيان عليها؛ تسويغاً وتعليلاً وتبريراً وترويجاً، بما يتأدّى إلى تخلق بيئة داخلية حصينة قوامها المنعة والاستعصاء. في قبالة إعمال معاول الهدم في عزائم الأعداء والخصوم، وتثبيط إرادات القوة لديهم، واستلاب عقلهم، وكيّ وعيهم، وكبح جماح اندفاعاتهم، وإفشال مخططاتهم ومؤامراتهم، بما يحول دون نجاحهم في عرقلة الإنجازات والفتوح وبرامج التثقيف والتوعية والتنمية التي يعكف عليها رجل الدعاية، أو تتنكبها الجهة العاملة على ابتداعها ـ أي الدعاية ـ ونشرها وتسويقها.

أما في حالة الحرب؛ فللدعاية شأن آخر، فهي تستهدف إدامة معنويات المتلقي الداخلي، والنفخ في روحه وهمته وإرادته، وتهيئته نفسياً لقبول فكرة الحرب، وما قد يترتب عليها من أكلاف وتضحيات، أو ما قد ينجم عنها من ويلات وكوارث إنسانية.

كما تستهدف في هذا السياق أيضاً، النفخ في روح ومعنويات المقاتلين خلال احتدام القتال واستعار المعركة، لاسيما في أشدّ اللحظات حرجاً، كما في لحظات الإخفاق والعجز عن صناعة الانتصارات وتحقيق النجاحات والإنجازات في الميدان، حيث تكون الأعصاب مشدودة بسبب من غموض الموقف، وعنف المفاجآت، وضبابية الأفق المفتوح على التطوّر والاحتمال. ما يرتب على الدعاية أن تفعّل اهتماماتها وقدراتها، وأن توجّه جهودها للتأثير، لا على العقل، بل على الأعصاب، وعلى المشاعر والعواطف والجوارح، وعلى النفس التي تكون في حالة إرباك وتوتر واضطراب وبلبلة وتشوّش، حيث تعكف– أي الدعاية- على بثّ الشعور بالسكينة والارتياح، وعلى تعزيز الشعور التدريجي بالاطمئنان والاستقرار، بنحو يُعيد الاتزان والهدوء إلى روح المقاتل المضطربة، كما إلى وعيه وإرادته، وهو لا شكّ أمر بالغ الأهمية والخطورة والتأثير في اللحظات العصيبة والحرجة والمصيرية. وفي قبالة ذلك، تستهدف الدعاية الإضرار بعزيمة العدو، والعبث بعقله ووعيه وروحه، وإضعاف معنوياته، وإيهامه بعقم محاولاته، وتيه خياراته، وقصور القدرة لديه عن استجلاب النصر، فضلاً عن محاولة التأثير على الدول والجماعات المحايدة لاجتذابها، أو بالأقلّ للحوؤل دون انزلاقها إلى الخيار الآخر.

وتتوسّل الدعاية- في معرض عملها واشتغالها وتوضّعها- بث ونشر معلومات وأخبار مختلفة: قد تتخلق على غير نحو، وقد تتلبّس غير لبوس وزيّ(46)؛ قد تكون حقائق تشفّ عن وقائع وأحداث، وعن معطيات وشواهد حسية ملموسة، كما عن حجج منطقية لا يعوزها برهان أو دليل. وقد تكون أنصاف حقائق، كأن تتأتى من حالة ولادية مبتسرة، أو من تهجين وتلفيق وتوليف بين ما هو واقعي ومنطقي، وما هو متخيّل ومختلق. وقد تكون- ثالثاً- محض أكاذيب وتخرّصات وأباطيل وسرابات وتهويمات وافتراءات وأوهام...، يصار إلى تركيبها وفبركتها وتصنيعها وهندستها وإخراجها، كما حياكتها واستيلادها من نسيج مخيلات حاذقة. وقد تدّعي الدعاية من الإنجازات والنجاحات والفتوح، وتنسب لنفسها ما ليس من عالم الحقيقة، وما ليس له وجود أو ترجمة أو مصداق في حيّزات الواقع وتمثلاته. وقد تحدث كثيراً من الصخب والضجيج والإثارة حول موقف معين، على نحو يفقد هذا الأخير بعض ألقه وصدقيته ومنعته، ويجعله بالتالي قابلاً للشكّ، ومداراً للاسترابة. وقد تذهب بعيداً في جنوحاتها ومغالاتها وتطرّفاتها وطروحاتها، بحيث يكون بمقدورها أن تجعل المتلقي كائناً يعيش وسط احتفالية من السرابات والتهويمات ومن المظاهر الخادعة والبرّاقة، وهذا لا شكّ منتهى ما تطمح وتصبو إليه الدعاية في حراكها وتوقها. إلا أنّ الحصيلة الأكيدة التي لا يخامرها شكّ ولا يداخلها لبس أو تهافت؛ أنّ الدعاية الفاعلة المؤثرة التي تؤتي أكلها كما ينبغي لها، هي تلك المتكئة على الحقائق الملموسة، وتلك الآخذة بالوقائع والحيثيات، وتلك التي تدير ماكينتها وعجلتها لتقدّم ـ بموضوعية وجلاء ـ الصورة الحقيقية.

أركان الدعاية السياسية

تتوفر الدعاية السياسية، بوصفها عملية اتصالية هادفة، على اجتماع جملة من الأركان والعناصر والمكوّنات المؤسّسة، التي تشيّد بتداخلها وتآزرها معمار الدعاية، وترسّم مشهديتها العامة:

أ ـ المرسِل: هو الدعائي، أو هو رجل الدعاية ومطلقها الذي يقوم بعمليات البثّ والاتصال والإرسال. ما يجعله الركن المؤسّس الذي غالبا ما نستطيع تمثله في جماعة سياسية تكون حاملة

لإيديولوجية معينة، ولمنظومة اعتقادية وقيمية وفكرية معينة، كما تكون مالكة لتصوّر إجمالي ومتكامل للكون والمجتمع والحياة والوجود.

ب ـ الرسالة: هي عبارة عن سلسلة متوالية من الشفرات والرموز والعلامات والمعاني والإشارات والدلالات والحمولات... التي تنطوي عليها الدعاية، وتتقصّد بثها وإرسالها عبر قناة إلى جمهور المتلقين. كأن تمثل وجهة نظر ما، أو تعبّر عن مضمون فكري نفسي موجّه.

ج- المتلقي: هو مستقبل الرسالة (فرد ، أفراد، جمهور، مجتمع...)، أي هو المرسَل إليه المعني باستهدافاتها بنحو مباشر أو غير مباشر، والمتفاعل، والمتماهي فيها وبها ومعها؛ تمارس عليه سطوتها وهيمنتها وتأثيرها، وترخي فوقه بأحمال مقاصدها وادعاءاتها ومزاعمها واستبطاناتها، وتظلله بمروحة اشعاعاتها ... فتستلب إرادته، وتستحوذ على عقله ووعيه ولاوعيه، لتتوضّع في بؤر التوتر الموجّهة لتفكيره، والبانية لتصوّراته الحاكمة.

د- الوسائط الاتصالية: هي وسائل وأدوات البثّ أو الإرسال الصالحة والفعّالة التي تُمّرر الرسائل عبر أقنيتها ومساربها إلى المتلقين على نحو يؤدّي الغاية المرجوّة والغرض المقصود. وتشمل مجمل الوسائط القادرة على نقل الرموز والشفرات اللغوية منها وغير اللغوية؛ نحو: الملصقات، اللافتات، البيانات، الدعوات، الندوات، المقابلات، المؤتمرات، السفارات، الصحافة، السينما، التلفزيون، المسرح، الإذاعة، المرئيات، الانترنت، المعارض...

هـ - الهدف: هو الأثر الذي ينبغي له أن يترتب على عمل الدعاية وفعلها في المتلقين، والذي بالمقدور ملاحظته من خلال معاينة وفحص التأثيرات والتحوّلات والتغييرات المستجدّة على الرأي والمزاج العام، كما على المواقف والاستجابات. ما يعني أنه السلوك المعيّن الذي تتوسّله الدعاية وتنشده في جماعة محدّدة؛ نحو تغيير آرائها، أو أفكارها، أو عقولها، أو مواقفها، أو تطوير استجاباتها...، وفق ما يتوافق مع تطلعات وأهداف مرسِل الدعاية ومطلقها.

أنواع الدعاية السياسية

ليست الدعاية- بلحاظ طبيعة مصادرها وحساسية أو شفافية علاقة الأخيرة بها- من لون واحد، أو من نوع واحد؛ بل يتنازعها في هذا السياق أنواع ثلاثة، هي:

أ ـ الدعاية البيضاء (White Propaganda): وهي الدعاية السافرة، البنّاءة، ذات الحجة المنطقية في تسويق وتظهير نفسها، وذات المصدر المعروف والجلي والواضح والبيّن والمكشوف والعلني، الذي يشفّ عن نفسه، ويتداعى سريعاً حين طلبه، ولا يحتاج الإفصاح عن هويته، أو تحديد منطلقاته ودوافعه، أو تظهير ما يباطنه من خلفيات، إلى عمليات تحرّ أو بحث أو تكهن أو تخمين. وعادة ما يجد سبيله في التعبير عن ذاته عبر وسائط الإعلام المتاحة، كالإذاعات ووكالات الأنباء والصحف والتصريحات ذات الطابع الرسمي، وكثيراً ما يحمل اسم الجهة أو الدولة التي توجّهه. ولذلك يُطلق على هذا النوع من الدعاية تسمية: الدعاية الرسمية أو الدعاية الصريحة. ما يعني أنّ الدعاية البيضاء ـ فضلاً عن حقيقة وعي المستهدفين من الناس ببالغ تأثيراتها ومفاعيلها فيهم ـ هي من طبيعة شافة، حيث يُفصح رجل الدعاية عن نفسه، ويوضح مقاصده وأغراضه ومراده ومراميه، على نحو تشخص معه الأبصار إلى رؤيته، وإلى إدراكه ومعرفته.

ب ـ الدعاية الرمادية (Gray propaganda): وهي الدعاية الواضحة والبيّنة المصدر أيضاً، وهي كسابقتها لا تخشى من انفضاح وانكشاف أمر مصادرها الحقيقية، إلا أنّها ـ على خلاف الدعاية البيضاء ـ هي من طبيعة مواربة ومراوغة وخادعة؛ تتلطى خلف أهداف معينة، وتستتر وراء عناوين محدّدة، وتخفي اتجاهاتها، وتميّع منطلقاتها، ولا تفصح عن حقيقة نواياها وأهدافها، كما عن مضمرات أعمالها، بل تعمل بطرائق ملتوية، وتدعو إلى ما تريد بنحو غير مباشر. مثلها كمثل نصّ أدبي مخاتل؛ ظاهره عمل روائي أو قصصي أو مسرحي. أمّا ما يباطنه؛ فهو دعوة إلى اعتناق مذهب سياسي معين، أو إلى اجتذاب المريدين والأنصار للتحلق من حوله.

ج- الدعاية السوداء (Black Propaganda): وهي الدعاية المقنّعة ذات المصدر السري، غير البيّن، وغير الواضح، والمجهول الهوية والنسب والانتماء. وهي من طبيعة قاتمة، كالحة، مستترة، خفية الغرض، تتصف بالتكتم الشديد على أصولها ومنطلقاتها وأهدافها، وعلى ظروف عملها واشتغالها، كما تتصف بعدم البوح والإعلان والإشهار، إذ إنّها تؤثر عدم الكشف عن مصدرها، وتسعى إلى التنكّر والتلطي والتخفّي، وتقوم على نشاط المخابرات والمافيات والعصابات والعملاء السريّين، وتستخدم الحيل والكذب والخداع والطرائق الملتوية أسلوباً لنشر أخبارها وتسويقها.

وتعكف الدعاية السوداء على رفع اللافتات والشعارات البرّاقة الجاذبة، وعلى إطلاق الأطروحات الرنانة كالديمقراطية والليبرالية والعدالة والمساواة... وعلى استخدام تقنية التكرار والإعادة بغية ترسيخ موضوع الدعاية في أذهان جمهرة المتلقين- المستهدفين، ودفعهم إلى الإيمان بها كحقيقة غير قابلة للشكّ أو الارتياب، كما تعمل على افتعال صنوف التهويل وأشكال المبالغات والتضخيم والنفخ، وعلى انتقاء جانب من الحقائق ذلك الذي يخدم غرضها ويحقق غايتها المرجوّة دون أن يصار إلى التعرّض لباقي الحقائق، بل على خلاف هذا الأمر تلجأ الدعاية السوداء إلى عمليات اختلاق وتزييف وتشويه وتغيير وتحريف للحقائق والوقائع والمعطيات والأرقام بما يتلاءم مع

أهدافها ويحقق لها مصالحها ومقاصدها. ومن أمثلتها ومصاديقها البيّنة الوسائط الإعلامية المجهولة الانتماء: كالصحف والإذاعات والمرئيّات، وكذلك المنشورات السرية، والمطبوعات والوثائق المزيّفة، والبيانات والرسائل التي لا تشير إلى مصدر محدّد، أو تلك التي ترسَل إلى المسؤولين بدون توقيع أو ترسَل مذيلة بتواقيع مزيّفة لأشخاص أو لمنظمات وجمعيات وهمية أو سرية. أمّا معيار تمايزها الفعلي؛ فهو قدرتها على النمو والازدهار والعمل في بيئات معادية، أو في مناطق ملاصقة لأرض العدو. والحال فهي تعتبر أداة رئيسة من أدوات الحرب النفسية.

وإذا ما صير إلى إجراء مقارنة وازنة بين تلك الألوان الثلاثة التي تتنازع الدعاية، بغرض الوقوف على أكثرها خطراً، وأشدّها فعالية وتأثيراً وفتكاً؛ فإنّه سرعان ما يتكشّف أمامنا أنّ الدعاية الرمادية هي- بما لا يقاس- الأخطر بينها، والأدهى والأشدّ فتكاً، حيث بمقدور الإنسان العاقل، بقليل من الذكاء والوعي والفطنة، وإعمال الذهن والتمحيص، أن يقف على خلفيات ومنطلقات وأهداف الدعاية البيضاء، كما الدعاية السوداء، بسبب من كون كليهما تتحيّز وتتوضّع في فضاء واضح الرؤية. أما تلك الرمادية فلها شأن آخر؛ هي تأتيه من حيث لا يحتسب، وتراوده عن نفسه دون أن يستعصم، تتسلل إلى عقله ووعيه ووجدانه متلطية خلف مظاهر برّاقة وجاذبة، فتبدو بذلك كدسّ السمّ في الدسم؛ يتجرّعها قبل أن يدرك نواياها ويكتشف أهدافها، ويتعرّض لتأثيراتها ومفاعيلها دون أن يشعر ودون أن يدري، وإلى إن يستيقظ من غفوته، ويعي حقيقة ما نال من عقله ونفسه ووعيه وإرادته ؛ يكون «الفأس قد استقرّ في الرأس».

والجدير بنظر الاعتبار، أنّ حملات الدعاية لا تقتصر على لون دون آخر، ولا تكتفي بواحد منها، بل تجمع بين طياتها عادة صنوف هذه الألوان الثلاثة. لكننا لا نكون قد جانبنا الحقيقة والصواب، إذا ذهبنا بعيداً في ادّعائنا، أنّ الدعاية الرمادية تحظى ـ بينها ـ بالقسط الأوفر من العناية والرعاية والاهتمام، وليست سعة انتشارها، وكثرة استعمالها، وعظيم استحواذها على مساحات العمل والاشتغال، إلا دليلاً ومؤشراً على خطرها ودهائها، وعلى قوة أثرها وفعاليتها.

وتتخذ الدعاية السياسية أيضاً ـ ولكن بلحاظ علاقتها بماهية المصدر ـ شكلين مختلفين:

أ ـ الدعاية العمودية (Vertical propaganda): وهي الدعاية التي تتنزّل من علٍ، وتهبط على جمهور المتلقين على نحو عمودي، أي إنها تسلك مساراً انحدارياً من أعلى إلى أسفل، يقوم بها قائد، أو زعيم سياسي، أو رئيس، أو مرشد ديني، أو موجّه... ما يُبقى رجل الدعاية خارج اصطفاف الجمهور واحتشادهم، ولكن غير بعيد، إذ يكون على علاقة وثيقة بهم، بحيث يبدو كواحدهم. وهذا ما يرتب بالضرورة- كي يستقيم الأمر- تفعيل أجهزة الاتصال الجماهيري المختلفة.

ب ـ الدعاية الأفقية (Horizontal propaganda): هي الدعاية التي تتمدّد على نحو أفقي داخل الجماعة، فلا تتنزّل أو تتساقط من علٍ، بل تتخذ في عملية توزعها وانتشارها وتشظيها مسارات هندسية مسطحة. الأمر الذي يحجب رجل الدعاية، ويخفيه، ويجعله بالتالي غير معلوم لدى الجماعة من حيث وجوده أو هويته؛ إذ ليس ثمّة قائد يتربّع على عرش الدعاية محرّكاً، وموجّهاً، ومحرّضاً... وإنما يتساوى في هذه المهمة جميع الأفراد الفاعلين، ما يُفضي إلى تشكيل وإنتاج وعي جمعي متماسك تتوسّله هاتيك الدعاية، وهذه فضيلتها. إلا أنّها قد تكتفي من حراكها بخطب ود الأذكياء بخاصة، ومخاطبة ذوي الألباب والعقول المتفتحة والراجحة.

إلا أنّ الأمر لا يستقرّ على هذه السويّة فحسب، لما يداخل معمار الدعاية من مكوّنات عديدة ، كما يداخل هويتها من عناصر وتحديدات، ما يجعل أنواعها تتعدّد بتعدّد مناظير أو زوايا الرؤية إليها:

أولاً - الدعاية من حيث الأسلوب

يتنازع الدعاية- باعتبار الأسلوب- نوعان:

أ- الدعاية المباشرة (Direct propaganda): هي الدعاية التي تتجّه مباشرة إلى أهدافها والى مقاصدها وأغراضها دونما مواربات أو مراوغات، ودونما تلمس لطرائق ملتوية أو السير في طرق متعرّجة؛ تسمّي الأشياء بمسمياتها، وتتصف بالمباشرة والقصدية والتعيين.

ب- الدعاية غير المباشرة (Indirect propaganda): هي خلاف سابقتها، تتوسّل طرائق ملتوية ومواربة للوصول إلى أهدفها المنشودة؛ ليس من اليسير بإطلاق اقتفاء أثرها أو ترصّدها، أو تعيين مسارب اندفاقها وانثيالها، أو الإحاطة بمجمل مسارات اشتغالها.

ثانياً- الدعاية بلحاظ الزمن واعتبار النتيجة

يتوزّع الدعاية- إذا ما صير إلى معاينتها وفحصها باعتبار معيارية الزمن وباعتبار طبيعة نتائجها المرجوّة– نوعان اثنان:

أ- الدعاية السياسية الإستراتيجية: هي تلك الدعاية التي تترفّع عن الاهتمام بالتفاصيل والجزئيات لتتوسّل أهدافاً كبرى رئيسة وحيوية، ولترمي إلى تحقيق أغراض مخطّطة على نحو مسبق وبكيفية دقيقة ووازنة، ولتعنى بوضع الدعائيات العامة ذات المدى المتطاول، كما برسم الخطوط العامة؛ كأن تعنى بترتيب الحملات الدعائية. والدعاية الإستراتيجية- بوصفها إعلاماً جماهيرياً يستهدف جماعة كبيرة من المتلقين يتوزعون بدورهم على مساحات شاسعة من الأرض- لا تتنكب في حراكها الاستحواذ على نتائج فورية عاجلة، بل على تلك ذات الطبيعة والمفاعيل البعدية التي يستغرق تحقيقها مدة زمنية طويلة، قد تمتدّ إلى عشرات السنين.

ب- الدعاية السياسية التكتيكية: هي تلك الدعاية التي تتوسّل أهدافاً مؤقتة يصار إلى تحديدها وانتخابها على نحو ينسجم مع أهداف الخطط الفرعية أو العمليات المرحلية المراد تنفيذها من قبل جهة ما، وتعدّ على وجه العموم مصاحبة للأعمال العسكرية والحربية(47). الأمر الذي يجعلها ذات مفاعيل وتأثيرات مباشرة وقصدية. والتكتيكية على خلاف الدعاية الإستراتيجية تسعى للحصول على نتائج فورية عاجلة، ومن مصاديقها الفاعلة ما يبذل في ساحة المعركة من محاولات حثيثة ودائبة لإشاعة الخوف، ونشر اليأس والإحباط، وتثبيط العزائم، وكبح الإرادات والوعي، وتهديم الروح المعنوية للمحاربين من الأعداء لتعجيل هزيمتهم وتسريع استسلامهم؛ كأن يصار إلى رمي منشورات أثناء الحرب، أو يصار إلى استخدام مكبّرات الصوت لدفع العدو إلى إلقاء السلاح ...

ثالثاً - الدعاية من حيث الوظيفة

أمّا الدعاية السياسية، إذا ما صير إلى النظر إليها بلحاظ معيارها الوظيفي؛ فهي على أنواع ثلاثة:

أ- الدعاية التحريضية: هي الدعاية التي تستبطن معاني التمرّد أو الحرب أو التحريض أو العصيان أو الاحتجاج، أو التآمر أو الانقلاب أو الثورة...؛ تتوسّلها جماعة أو جهة للإطاحة بسلطة قائمة، أو

للإضرار بنظام معين، أو لتحطيم كيان سياسي واستبداله بآخر جديد... وقد تكون ـ على خلاف ذلك ـ من صنيعة سلطة ما، ومن بنات أفكار نظام ما، أي محض دعاية حكومية، في مسعى حثيث لتحريض الجماهير وإعدادها وتهيئتها لغرض تقبل تغييرات جذرية منشودة. أكثر ما يصار إلى تفعيل الدعاية التحريضية وتنشيط العمل بها في ظل الأزمات العاصفة والظروف الصعبة، وقد تقوم هي بافتعال الأزمات(48) واختلاقها وإثارتها، أو تسعيرها وإذكاء نارها، وتأجيج أوارها إذا ما كانت قائمة. وهي تختصّ- من ضمن ما تختصّ- بمهارة استلال الفرد من حياته اليومية والطبيعية، ودفعه إلى ركوب المخاطر والأهوال والمصاعب، بعد أن تكون قد أطلقت في ذاته ذلك الإحساس العارم بالحماسة والمغامرة والاندفاع والتهوّر.

ب- الدعاية الاندماجية: هي أكثر- بما لا يقاس- دقة وتعقيداً من سابقتها الدعاية التحريضية، بوصفها لا تكتفي بالسعي كالأخيرة إلى إثارة مؤقتة وظرفية ومرحلية عابرة، بل تجدّ في السعي نحو قولبة شاملة، وقوننة عامة، وإعداد متقن لوعي الفرد، ولمنظومة أفكاره وسلوكياته وتوجهاته وقيمه، كما لانفعالاته وممارساته، بحيث يصبح نتاج مقولاتها، وصنيعة مقاصدها، وخليق إرهاصاتها وتمخضاتها وتفاعلاتها. والحال، فهي تنزع إلى إقامة مجتمع قوامه التوازن، والاتساق، والانسجام، والتماسك، والوحدة، والتماهي بين أفراده ومكوّناته وعناصره الفاعلة والحاكمة.

ج- الدعاية التسويقية: وهي دعاية ذات طابع تسويقي وترويجي، تتوسّل تظهير صورة فاضلة ومشرقة عن الجهة الصادرة منها سواء أكانت دولة، أم حزباً، أم مؤسّسة... وذلك بهدف إكساب هذه الجهة وجهاً حضارياً وعصرياً، كما الاستحواذ لها على مشروعية أخلاقية، أو إنسانية، أو قانونية، أو حقوقية، أو دينية. يدخل على سبيل المثال في مدار هذا النوع من الدعاية؛ الأنشطة، والعلاقات العامة... ما يعني أنّ الدعاية التسويقية تتوخى في حراكها وفي نشاطها واشتغالها عملية ضبط وتقنين الصورة الذهنية الوهمية لدى الجميع عن حال الجهة ـ صاحبة الدعاية ـ لتكون موافقة ومطابقة للصورة الذهنية التي تحرص وتلحّ هذه الجهة على ترسيبها وتثبيتها في الأذهان كصورة نهائية.

رابعاً- الدعاية من حيث الهدف والوجهة والغرض

كما نقع في الدعاية السياسية، باعتبار أهدافها ووجهاتها وأغراضها، على نوعين اثنين:

أ- الدعاية الدفاعية: هي الدعاية التي تحصّن الجبهة الداخلية للجهة الناظمة لها، وتخدم مجهودها الحربي، وتزيد نفوس مواطنيها ثقة واطمئناناً، وتوضّح الأهداف...

ب- الدعاية الهجومية: هي الدعاية التي تقصد إلى برمجة وعي الأعداء والخصوم، والتأثير على عقولهم وعواطفهم، والإضرار بمعنوياتهم. وقد تقصد إلى استمالة المحايدين واجتذابهم، وكسب تأييدهم. وقد تنزع إلى تعزيز صداقة الأصدقاء والحلفاء، وتمتين الأواصر، وتعميق التحالفات. وهي في مجمل توجهاتها قد تأخذ بتكتيك القتال؛ تهاجم في مكان، وتنسحب من آخر، تناور وتراوغ وتتوسّل الحيلة، وتمارس ألوان التخفّي والتضليل والتمويه والخداع، مستفيدة من غير وسيلة وأداة لاسيما الإعلامية منها.

أنماط الدعاية السياسية

يتمّ التمييز عادة ـ وفق ما تتكشّف عنه المقاربات العلمية ـ بين نمطين من الدعاية السياسية، مع ما تعنيه كلمة نمط هنا من وصفها التقنية الفنية المستخدمة في تظهير الدعاية، وإعدادها، وإخراجها، وإنتاجها، على نحو يحقق الغاية المرجوّة والمأمولة منها:

أ- الدعاية السياسية العقلانية: هي الدعاية التي تشيّد تصوراتها، وتبني فروضها وصروحها، وتخطّ مسارات عملها واشتغالها، بالاستناد إلى الأرقام والوقائع والإحصائيات والشواهد والبراهين والحجج والأدلة الدامغة، كما إلى الدقة والوضوح. ما يجعل وجهتها تقوم، ليس على مخاطبة المشاعر والانفعالات والعواطف والغرائز والميول؛ وإنما على مخاطبة العقل والوعي والمنطق، وعلى استهداف الجانب الإدراكي من الشخصية الإنسانية. وبالتالي لا تخلو مقولاتها من حقائق أو من أنصاف حقائق يصار إلى تتبيلها وتلفيقها وتقديمها بقوالب مختلفة، وبما يتناسب وحساسيات المتلقين.

ب- الدعاية السياسية اللاعقلانية: هي الدعاية التي تستنكف عن إيلاء العقل والوعي عظيم الاهتمام والرعاية والنظر؛ لتنحو باتجاه تغليب مخاطبة لاوعي الفرد، واستثارة غرائزه وميوله وأهوائه وانفعالاته ومشاعره وعواطفه، كما التصويب على الجانب الفيزيولوجي من الشخصية الإنسانية. والحال، تفتقد الدعاية السياسية اللاعقلانية إلى أواليات الاستدلال والاستنباط والبرهنة، وما إلى ذلك من أدوات التحليل والتعليل العقلي والعلمي. بمقدور الباحث أن يقع على ترجماتها وتمثلاتها ومصاديقها في الدعاية النازية.

أهداف الدعاية السياسية

تطول قائمة الأهداف والغايات والأغراض التي تتوسّلها وتنشدها الدعاية في حراكها العام، والتي تسعى وتجدّ في طلبها تلمساً للنتائج والمخرجات المرجوّة، إذ تتشعّب الأهداف وتتعدّد وتتنوّع وتتفارق باعتبار موضوع الدعاية، كما منطلقاتها ودوافعها، وبلحاظ اختلاف الزمان والمكان. إلا أنّه بالمقدور- وفقاً لمذهب هارولد لازويل- ترسيم وتبيّن معالم خارطة طريق لها، تشفّ عن جملة محاور لا تخرج الأهداف الإستراتيجية للدعاية- على تنوّعها- من فضاءاتها ومداراتها وحيزاتها، ومن حقول عملها واشتغالها:

أ- كيّ وعي العدو، وكبح جماح اندفاعته، واستلاب إرادته وعزيمته، وتحطيم روحه المعنوية، والحؤول دون استخدامه وتفعيله لأسباب القوة لديه.

ب- تعبئة الجماهير بكراهية العدو وشحذ نفوسها ومشاعرها بألوان وصنوف البغض والحقد والضغينة والثأر والانتقام.

ج- تشويه صورة العدو(49)، وتخفيت بريقه، وتبهيت حضوره، وتبخيس قدره وشأنيته واعتباريته، وتجريمه، وتشريره، وشيطنة أعماله، وأبلسة تصرفاته وسلوكياته وممارساته، والإساءة إلى سمعته ومكانته وعلاقاته، والتقليل من قيمته، كما من فعالية نفوذه على المسارح الإقليمية والدولية والعالمية.

د- تمتين أواصر الصداقة مع الحلفاء، والحرص على صون وتعميق العلاقة بهم، وتفعيل أطر التعاون، وتثميرها، ودفعها بالاتجاه الإستراتيجي، على نحو تصبح فيه العلاقات والتفاهمات من

طبيعة وجودية.

هـ- الحفاظ على صداقة الدول والحركات والأطراف المحايدة، بل الدفع باتجاه كسب تأييدها كمقدمة للحصول على دعمها وتعاونها لاحقاً.

و- تحييد الدول والحركات والأطراف التي تقيم صداقات وتفاهمات وتحالفات مع العدو.

أساليب الدعاية السياسية

تجهد الدعاية السياسية لتحقيق مآربها ومقاصدها وغاياتها، وتتوسّل في سبيل ذلك أساليب متعدّدة ومتنوّعة ومختلفة، وفق ما تقتضيه خصوصية الزمان والبيئة والموضوع والمتلقي والهدف المنشود. سنقف على أبرز هذه الأساليب:

أ- أسلوب النكتة: تستحوذ النكتة السياسية- لاسيما عند الشعوب التي تستهوي بطبيعتها الفكاهة، وتميل إلى الطرافة واستظراف الكلام- على قدر كبير من الحظوة والأهمية والقيمة والتقدير، نظراً لما تستحوذ عليه من فيض في القابلية على الانتقال والانتشار والتمدّد وجذب الأسماع والأذهان، ولما لها من قدرة فائقة على إحداث تأثيرات جوهرية وجذرية في الرأي والمزاج العام، كما تسيل مفاعيل قد تكون في أحايين كثيرة أكبر وأعمق وأدهى من تأثير المقالات الصحفية، والأحاديث الإذاعية، والصور الذهنية والكاريكاتورية. ما جعلها موضع عناية واهتمام الخصوم والحلفاء على حدّ سواء.

وقد قطعت النكتة أشواطاً بعيدة في ترسيخ وترسيب وتعزيز مكانتها، حتى غدت معيار تفاضل الشعوب والأمم إذا ما صير إلى الموازنة بينها باعتبار الذكاء؛ حيث تشير الدراسات والأبحاث المختصّة إلى أن الشعوب الأكثر إبداعاً وتداولاً للنكتة السياسية، هي الشعوب التي تتوفر على مستوى ذكاء أعلى، من مثيلاتها التي تشهد النكتة السياسية عندها انحساراً وانكماشاً وضموراً.

والحال، أخذت الدعاية بأسلوب النكتة(50)، وتوسّلت به، وعملت على تفعيله، وتثميره، لتحقيق أهدافها وأغراضها وغاياتها ومقاصدها.

بالمقدور أن نعرض على نحو من التمثيل والاستدلال هنا، للكيفية التي صير فيها إلى تناول موقعة بيرل هاربور(51) بأسلوب دعائي ساخر يتوسّل النكتة سبيلاً، ما كان له بالغ الأثر في تقويض الروح المعنوية للشعب الأميركي. فقد أفصحت النكتة التي تناقلتها الألسن والشفاه، وصير إلى تعميمها وإذاعتها حتى بلغت كلّ مسمع، واستقرت في كلّ منزل ودار؛ عن أنّ أحد الطيارين اليابانيين الذين شاركوا في الإغارة على الأسطول الأميركي في قاعدة بيرل هاربور، قد عثر في جيبه على رغيف خبز طازج لُفّ في أوراق أحد المخابز الواقعة في جزيرة هونولولو التي تضم القاعدة البحرية الأميركية، في دلالة معبّرة على ارتفاع الروح القتالية عند المحاربين اليابانين، واستخفافهم بالقوّة الأميركية، في قبالة قصور الأخيرة وتقاعسها، وغفلتها عما يدور حولها.

ب- أسلوب التكرار: توسلت الدعاية السياسية بأسلوب التكرار(52)، بوصفه تقنية فاعلة من تقنيات تثبيت المعلومات والأخبار المراد بثها ونشرها وإشاعتها بين الجماهير، وترسيخها وترسيبها في أذهان الناس، ومنحها قدراً من الصدقية الموهومة الزائفة، ومن القبول والرضى، «فالشيء يتوصل عن طريق التكرار» يقول غوستاف لوبون «إلى الرسوخ في النفوس إلى درجة أنه يقبل كحقيقة برهانية (...) فعندما نكرّر الشيء مراراً وتكراراً، ينتهي به الأمر إلى الانغراس في تلك الزوايا العميقة للاوعي، حيث تصنع دوافع كل أعمالنا. فبعد أن تمرّ فترة من الزمن ننسى من هو مؤلف القول المكرّر، وينتهي بنا الأمر إلى حدّ الإيمان به»(53).

وكان أدولف هتلر قد أشار إلى فعالية وإلحاح هذه التقنية في العمل الدعائي، حيث يقول: «إنّ الجماهير يلزمها وقت طويل حتى تفهم وتتذكر، ما يعني وجوب استخدام هذا الأسلوب لتكثيف الجوانب الإيجابية للتذكير»(54).

لكنّ استعمال التكرار على نحو ممجوج دونه مخاطر ومحاذير، إذ قد يتأدّى إلى إصابة المتلقي بالملل، وإلى إشعاره بالنفور والتقزّز، واستطراداً إلى رفض الرسالة، وإلى الإحجام والامتناع عن قبولها. ولذا يُنصح أن يقدّم التكرار على أطباق متعدّدة ومتفارقة؛ كأن تُصاحب ترجماته بالتنوّع، وأن يُعبّر عنه بطرائق مختلفة، وأن ينطوي على عناصر التشويق والإثارة والدهشة، كما على أدوات الجذب والإلفات والانتباه «يميل الناس إلى سماع الدعاية التي يعجبهم مضمونها وأهدافها» يقول شيلفورد بيدويل «وضمن هذه التحديدات لا شكّ أن المواقف يمكن تغييرها عن طريق تحويل التأكيد وخلق القالب الجديد، وعن طريق التكرار المستمرّ للمضمون نفسه ولكن بأشكال مختلفة»(55).

ج- أسلوب إطلاق الشعارات(56): غالباً ما تعكف الدعاية السياسية على إطلاق الشعارات التي يصار عادة إلى انتقائها، وتخيّر مرموزاتها وحمولاتها، وإحكام صياغتها بعناية بالغة، بحيث يصبح الشعار عنوان مرحلة، يُعمل فيها ـ بنحو وثوقي ـ على الربط الشعوري بينه وبين الأهداف المعلن عنها، وبكيفية يغدو معها مجرد سماع تلفظات وتمتمات الشعار، محرضاً تلقائياً على استحضار تلك الأهداف، ومثولها أمام المتلقي.

والجدير بنظر الاهتمام، أنّ رجل الدعاية يحرص على ربط أهدافه بأكثر الشعارات جاذبية وألقاً وتعالياً، وأشدّها طهرانية وأعظمها نبلاً، بمعزل عن صوابية هذه الشعارات ومصداقيتها، وجديتها، وواقعيتها، ومقدار تمثلها وترجمتها. مع لحاظ الاعتبار هنا، أنّ الشعار قد يتأتى في أحايين كثيرة من كلمات عفوية بسيطة(57) يتلفظ بها زعيم في مناسبة سياسية، ثم يفرض سطوته وحضوره بعد أن تتلقفه الدعاية، وتعمل على إشاعته ونشره وترديده من قبل أفراد الشعب قاطبة.

د- أسلوب الاستضعاف والاستعطاف: بالمقدور القول، إنّ الترجمة الشعبية المباشرة لهذا الأسلوب هي المقولة السائدة «تَمسْكنْ، لتتمكن». وهو أسلوب فاعل يقوم على التمظهر بالضعف، وادعاء المظلومية، وطلب النصرة والمدد لرفع الحيف والظلم المصطنع. تأخذ به الدعاية السياسية- تحقيقاً لمآربها- للتأثير في الآخر: حليفاً، أو صديقاً، أو محايداً، وذلك لغرض استجرار دعمه ومساندته، كما استدرار عطفه، واستجداء عطاياه، وكسب تأييده ومؤازرته، توطئةً ومدخلاً لبسط النفوذ والسيطرة والتمكن(58). وقد يكون هذا الأسلوب سبيلاً لتزييف وعي الناس(59) تمهيداً لاستقطابهم واستمالتهم وجلبهم إلى الضفة المقابلة للآخر، لأنّ الناس بفطرتهم يميلون إلى مناصرة المظلوم، والتعاطف مع المقهور، وتوفير الحماية والمساعدة للضعيف.

هـ ـ أسلوب الاختيار: هو أسلوب دعائي تتوسّله الدعاية السياسية، ويقوم على مصادرة رأي الآخر بدفعه إلى تبني واعتناق وجهة ما، بعد تضييق مساحات التخيّر لديه، وتحييد البدائل، وإلغاء هوامش المناورة. وذلك من خلال الإحتفال بالإيجابيات وتظهير الفوائد والمكاسب التي تناسب مقصد الدعائي وغايته وهدفه، في قبالة إخفاء السلبيات وطمسها وتمويهها وتغليفها بجماليات خادعة. وأكثر ما نقع على ترجمات هذا الأسلوب في الحملات الانتخابية، لاسيما تلك ذات الطابع الديماغوجي.

و- الاستفتاء وأسلوب المعادلات الرقمية والإحصائية: هو أسلوب دعائي خادع وماكر من أساليب الدعاية السياسية، يمتاز بقدرته على العبث بعقل المتلقي ووعيه، كما على تزييف الحقائق والوقائع والمعطيات، وتظهيرها على غير حقيقتها. تتأتى خطورته من وصفه يضفي كثيراً من المصداقية على الخبر المراد ترويجه ونشره وتعميمه، إذ تعمد الجهات المنظمة للدعاية إلى تعليل وتبرير وتسويغ كثير من الأخبار والمقولات والمزاعم والادعاءات والقرارات والخيارات، من خلال اللعب بخدع الأرقام، وتنظيم الاستفتاءات والدراسات البحثية والإحصائية، التي تنسب عادة إلى بعض الجهات المتخصّصة ذائعة الصيت والشهرة، ما يجعل المتلقي طيّعاً، مستسلماً، حاضرا لقبول ما يُملى عليه دونما نقاش أو ارتياب أو تشكيك، فضلاً من كونه يقف أمام مشهديات الأرقام - وهي تنتظم في نسب وجداول - مقيّداً، مشلول القدرة على النقد والتفكير؛ فهو غير قادر من جهة أولى، على التثبت من عدم صحة هذه النتائج للطعن بها، وهو من جهة ثانية، تعوزه القدرة أيضاً على التثبت من افتقار هذه المؤسّسات البحثية والإحصائية للنزاهة والمصداقية والمهنية والموضوعية.

ز- أسلوب التجريب القائم على الاختبار أو جسّ نبض الرأي العام: هو أسلوب دعائي يتصف بمرونة عالية، وقدرة على المناورة والالتفاف والمواربة والتحوّل والتبدّل والتغيّر والتراجع والتطوّر... يقوم على بثّ ونشر المعلومات والأفكار، وعلى إطلاق المواقف، وإشاعة الأخبار، وتعميمها بين الناس في لحظة مدروسة، وفي توقيت مساعد يحتمل التجريب، ليصار بعدها إلى رصد الاستجابات وردود الفعل الإيجابية والسلبية، ثم فحصها، وتحليلها ، كي يُبنى على الشيء مقتضاه، إذ لا تتحدّد الوجهة الجديدة للدعاية إلا بناء على نتائج التحليل والفحص والمعاينة.

ح- أسلوب الاحتواء: هو أسلوب دعائي مفارق يقوم على مجانبة إثارة القضايا الحسّاسة، أو مقاربة الموضوعات الخلافية والنزاعية والصراعية المستفزّة للذائقة العامة، كما للحساسية العامة والرأي العام لدى جمهرة المتلقين، بل يتجاوز ذلك كله إلى ما هو أبعد وأدهى، فيتعامل والحال هذه، مع الواقع من حيث هو، وبكيفية تؤدّي عفوياً ولاشعورياً إلى ترسيبه وترسيخه في وعي المتلقي، بحيث يصار إلى التعايش معه وتقبّله دونما تشكيك، ودونما تساؤل عن كيفية وصحة وجوده، فضلاً عن أحقيته في هذا الوجود(60). ما يعني أنّ أسلوب الاحتواء يحرص على عدم استفزاز المتلقي، وعلى عدم الدخول معه في مواجهات واحتكاكات مباشرة، بل يعمل على طمأنته، وتطييب خاطره، وتهدئة روعه، وإشعاره بالأمان، وكسب ثقته، قبل أن يصار شيئاً فشيئاً، وبكيفية وازنة وممنهجة، إلى تمرير مآرب الدعاية، وبثّ وإشاعة مقاصدها، وإفراغ حمولاتها.

ط- أسلوب الصورة الكاريكاتورية: هو أسلوب دعائي ذو طبيعة فنية وإبداعية خلاقة، تأخذ به الدعاية السياسية للتعبير عن مقاصدها، وتتوسّل به لتمرير شفراتها ورموزها وإيحاءاتها وتلميحاتها. يُسجّل لهذا الأسلوب الدعائي القبول المحبّب من جمهرة المتلقين، فضلاً عن قدرته على النفاذ إلى العقل والوعي والوجدان والمخيال والذاكرة بدون جهد أو عناء أو كلف، كما كثافته وغناه؛ فهو، وإنْ كان وسيلة موجزة ومختصرة، إلا أنّه مكتنز الدلالة، مترامي الأبعاد، بالغ الأثر. تتأتى أهمية هذا الأسلوب من وصفه يجسّم الأفكار، ويجسّدها، ويقرّبها إلى أذهان المتلقين، كمن يقدّم لهم مثالات ومصاديق حيّة، بكيفية تجعله يحظى بالموافقة والقبول والتصديق.

وإذا أردنا أن نعرض لترجمات هذا الأسلوب؛ فلنا أن نكتفي بما أقدم عليه الحلفاء إبان الحرب العالمية الثانية، بعد استشعارهم لخطر الروح المعنوية العالية التي كانت عليها القوات اليابانية،

حيث توسّلوا إلقاء منشورات فوق خطوط المواجهة مع الفرق العسكرية التابعة لهذه القوات في جنوب غرب الباسفيك. وكانت هذه المنشورات عبارة عن رسوم كاريكاتورية تصوّر الجندي الياباني وهو يعاني آلام الغربة والحرمان وأخطار الحرب، وتصوّر في قبالة ذلك قادته يخلدون إلى الراحة، ويستمتعون بأرقى أنواع الخمور وأفخر وجبات الطعام. وقد استلهم الحلفاء فكرة الرسم هذه، بعد إجراء غير دراسة قاربت الحالات النفسية والذهنية والجسدية التي كان عليها الجيش الياباني في الجبهة؛ فوقفت على ما يعانيه هذا الأخير من نقص في المؤونة والغذاء، وحرمان من الراحة، فضلاً عن المعاناة الناجمة من مشاعر الغربة.

ي- أسلوب المصطلحات: هو أسلوب دعائي تسعى من خلاله الدعاية السياسية إلى العبث بالعقل الجمعي للمتلقين، وتشويه الذاكرة، وتزييف الوعي، وتشويش المفاهيم، وبلبلة الأفكار وزحزحة البداهات والمسلمات، وخلخلة المباني والتصوّرات والقيم. ويكون ذلك من خلال اعتماد واستعمال حقول مصطلاحية ومفاهيمية ومعجمية تنطوي على حمولات رمزية ودلالية خادعة ومضللة ومغرضة(61)، فضلاً من كونها لا تمتّ إلى الحقيقة والموضوعية والواقع بصلة. يُسجّل لهذا الأسلوب عميق إحاطته بالثقافات والقيم والعادات، ودقته في صياغة ونحت المصطلحات والأسماء والرموز، وقدرته على المناورة والمراوغة وممارسة التضليل، بحيث يستطيع ـ في كثير من الأحيان ـ النفاذ إلى وعي المتلقي، وتمرير بضاعته وصناعته على نحو انسيابي هادئ، دونما اعتراضات تذكر، كأنّ هذا المتلقي في لحظة خدر أو موات.

وفي سياق الاستخدام الدعائي للمصطلحات؛ نقع على معجم منها لطالما كان موضع اشتغال الدعاية الإسرائيلية في غير اعتداء على لبنان. ولكنّ ضيق المقام هنا يحول دون عرضها. لذا سنكتفي بالإشارة إلى بعض منها، علها تنشر إضاءة كافية حول هذا الأمر:

أ ـ قوة: توسّل الإسرائيلي، في ما أطلق عليه اسم «عملية سلامة الجليل»، في حزيران من العام 1982 خلال اجتياحه للبنان، استخدام كلمة «قوة» للدلالة على شكل تنظيمي مؤقت(62)، يتراوح حجمه عملياً بين اللواء المعزّز والفرقة المعزّزة، وصولاً إلى ما يزيد عن حجم الفيلق، على النحو الذي حصل لقوة القطاع الشرقي، التي تضخم حجمها حينذاك ليزيد عن حجم الفيلق. ما استدعى تعيين قيادة مستقلة تتولى إدارتها، وترتبط مباشرة بهيئة الأركان العامة للجيش.

والجدير بالإلفات وبالاهتمام، أنّ تخيّر وانتقاء كلمة «قوة» هنا، لم يكن بإطلاق عبثياً أو عدمياً أو اعتباطياً، وإنّما كان لإحداث أثر إيجابي في الوعي الإسرائيلي العام، ولدى جنديه بخاصة، في قبالة إحداث أثر سلبي حادّ في وعي عناصر ومقاتلي المقاومتين اللبنانية والفلسطينية.

ب ـ الجدار الطيب: وهو التسمية الإصطلاحية الإسرائيلية التي أطلقت على الحدود الفاصلة بين لبنان والكيان الإسرائيلي الغاصب لفلسطين، في العاشر من شهر آذار/ مارس من العام 1976، في محاولة لاستمالة المواطنين اللبنانيين، وكسب ودهم وتأييدهم، وتزيين وتجميل التدخل الإسرائيلي في لبنان بإعطائه بعداً إنسانياً وأخلاقياً(63). وقد شكل «الجدار الطيب» عنوان التقديمات الاجتماعية والخدماتية المختلفة للمدنيين اللبنانيين، وعنوان السياسة الإسرائيلية المتدخلة طرفاً رئيساً في الحرب الأهلية الدائرة في لبنان منذ الثالث عشر من شهر نيسان/ابريل من العام 1975، وذلك من طريق مساعدة مجموعات مسيحية مؤلفة في معظمها من جنود وضباط منشقين عن الجيش اللبناني في الجنوب بقيادة الرائد سامي الشدياق والرائد سعد حداد.

ج- سلامة الجليل: هي التسمية التي صير إلى إطلاقها على عملية الاجتياح الإسرائيلي للبنان، في الخامس من شهر حزيران من العام 1982 (64). تستبطن التسمية حمولات دلالية من شأنها إيهام الرأي العام العالمي، بأنّ الأعمال العسكرية الإسرائيلية ليست من طبيعة عدوانية، وذلك استباقاً لكلّ محاولات التشرير والتجريم التي من الممكن أن تنال من سمعتها على المستوى الدولي، بل هي أعمال دفاعية لضمان سلامة أراضيها، وأمن مواطنيها، بسبب من الاستهدافات الحربية التي تقوم بها فصائل المقاومة الفلسطينية انطلاقاً من الأراضي اللبنانية.

ونقع في هذا الشأن أيضاً على سلة كبيرة من المصطلحات؛ نحو: مصطلح «جيش لبنان الجنوبي» في إشارة إلى ميليشيا العملاء الذين انضووا في إطار عسكري اتخذت منه إسرائيل دروعاً وسواتر للدفاع عن حدودها. لكنّ حمولات المصطلح تؤشّر إلى وطنية لبنانية: فالجيش هو لبناني، وأجندته لبنانية، ومهمته الدفاع عن الجنوب. وثمّة مصطلح آخر هو «حرب لبنان الثانية»، الذي أطلقه الإسرائيلي كتوصيف اصطلاحي لحربه على لبنان في تموز- آب من العام 2006، بوصفها جاءت بعد حربه الأولى في حزيران من صيف العام 1982 (65). وفي تشفيف حمولات التسمية نرى أنّ إلحاح الإسرائيلي عليها، لم يكن اعتباطياً بإطلاق، وإنّما كان بما تنطوي عليه من دلالات «محاولة لفرز وتفريد مسارات صراعه مع الأقطار العربية، كأن يريد القول إنّ الصراع هنا هو مع لبنان وحسب، ولا شأن لسائر الأقطار العربية به»(66). ما يسمح له باستفراد كلّ طرف على حدة، كما بتقزيم الصراعات العربية معه، وتحويلها إلى مجرد نزاعات قطرية صغيرة.

ك- الأسلوب الديني: أسلوب دعائي مراوغ يلبس لباس الدين، ويتخذ من الأخير هوية ومظلة وعنواناً. تكمن خطورته في قدرته على التسلل إلى وعي الأمة، كما إلى أعماقها ومعتقداتها ومبانيها وتصوّراتها، حيث يُعْمِل فيها معاول الهدم والتشويه والتحريف والتبديع. يُسجّل لهذا الأسلوب إلمامه بقضايا الدين وشؤونه وشجونه، وقدرته على اكتشاف الثغرات ومواطن الضعف التي يصار إلى النفاذ منها لنسف كيان الأمة العقائدي، والإساءة إلى منظوماتها القيمية.

ل- أسلوب اصطناع عدو وهمي(67): هو أسلوب دعائي، تنزع فيه الدعاية السياسية إلى اختلاق واصطناع عدو وهمي شديد الخطورة، يتهدّد الأمة بالويل والثبور وعظائم الأمور، ويحاول أن يفترسها ويستولي على مقدراتها وثرواتها وإمكاناتها، وذلك كي يبقى عصب جمهرة المتلقين مشدوداً على نحو دائم، ووعيها متيقظاً، وذهنها متقداً، وإرادتها متصلبة، فضلاً عن بقائها في أرفع درجات وحالات الجاهزية والاستعداد. وفي هذا الصدد يقول الرئيس الأسبق للاتحاد السوفياتي ميخائيل غورباتشوف في البيريسترويكا: «العدو الوهمي يكون مطلوباً في حالة إضمار نية الإبقاء على التوتر، ولمواجهة عواقب بعيدة المدى لا يمكن التكهن بها»(68).

كثيراً ما تتوسّل وتستنجد الأنظمة الديكتاتورية والتوتاليتارية بمثل هذا الأسلوب لتبرير سياساتها الخاطئة، وتعليل خياراتها وتوجهاتها وممارساتها، وصرف الجماهير عن الاهتمام بقضاياها المصيرية.

طرائق اختبار الدعاية السياسية

بالمقدور الوقوف– وفقاً لما حدّده هارولد لازويل- على جملة من الاختبارات التي تتكشّف الدعاية أمامها وتتعرّى، إذا ما صير إلى النظر إليها من منظور المضمون والوسيط الإعلامي:

أ- اختبار المجاهرة: فيه يصار إلى ملاحظة إعلان الدعاية عن انحيازها الصريح والبيّن إلى أحد أطراف النزاع، من حيث أنها تفصح عن نفسها صراحة، وعن تبعيتها، وعن منطلقاتها وخلفياتها وأهدافها، كما عن وجهتها من النزاع، بوصفها تتحدّث باسم أحد أطرافه، وتتبنّى مقولاته ومقاصده ومزاعمه وادعاءاته.

ب- اختبار المطابقة: فيه يصار إلى مقارنة ما تنطوي عليه الدعاية من حمولات ودلالات ومعان، بمضمون ما تنطق به قناة معروفة من قنوات الدعاية المعادية، من حيث تطابق الموضوعات وتوافق المصطلحات والمقاربات.

ج- اختبار الاتساق: فيه يصار إلى فحص وتبيّن مدى اتساق مساحات اشتغال الدعاية، ومسارب عملها وحدود ونطاق وحيّزات توضّعها، كما توجهاتها، وأغراضها وغاياتها ومنظومة أهدافها، مع تلك التي تتوسّلها وتنزع إليها أهداف الدعاية المعادية.

د- اختبار العرض: فيه يصار إلى فحص ومعاينة واختبار مستوى مقاربة وسيط إعلامي لمشكلة ما، بمعنى مقدار تناوله وعرضه لجملة وجهات النظر المتنوّعة بصورة موضوعية، وعلى قدم المساواة؛ ذلك أنّ المعالجة غير المتوازنة، وغير الموضوعية، من شأنها أن تعدّ مؤشراً لاشتغال ولوجود دعاية سياسية تتأتى من طريق استخدام الكلمات، أو الصور، أو الرموز، للتأثير في سلوك الأفراد والجماعات وفي مواقفهم، وفي الاتجاهات ذات الصلة.

هـ- اختبار المصدر: فيه يصار إلى فحص المصدر الرئيس الذي تتكئ عليه الدعاية في طرح مقولاتها، وتبرير ادعاءاتها ومقاصدها، وتقديم تعليلاتها، وعرض صورها وتعليقاتها وأخبارها؛ حيث تتعرض الإشكالية على النحو الآتي: هل ثمة مصدر واحد تنهل منه الدعاية، أم أنها خلاف ذلك تأخذ على نحو متوازن، من غير مصدر وجهة.

و- اختبار المصدر الخفي: فيه يصار إلى فحص ومعاينة إمكانية توسّل الدعاية بمصدر خفي، غير معلن، يحاط بالسرية والكتمان. من شأن تكشفه والإفصاح عنه أن يتأدّى إلى انفضاح أمرها، وإلى تشفيف هويتها ودوافعها ومنطلقاتها، وتحديد طبيعة أهدافها وغاياتها، والوقوف على حقيقة إنتمائها، كما إطارها المرجعي الحاكم؛ مع لحاظ ارتباط ذلك كله ـ على نحو وثوقي ـ بالدعاية المعادية.

ز- اختبار التمييز: فيه يصار إلى تحليل الألفاظ والرموز والصور والحمولات والإشارات والإيحاءات التي تنطوي عليها الدعاية، كي يعمل لاحقاً على فرزها وتمييزها، للوقوف على أوجه التفارق بينها وبين مثيلاتها المستخدمة في الدعاية المعادية.

ح- اختبار التشويه: فيه يصار إلى الجمع بين عدّة اختبارات سابقة، ويرمي فيما يرمي إلى تحديد ومعرفة الوجهة التي تتخذها العبارات المختلفة في موضوع ما، للوقوف على مقدار التشوّهات المتعمّدة التي اعترت وشابت الحقائق التي يستبطنها وينطوي عليها. وذلك من طريق إعمال

مقارنات علمية وازنة بين المضامين والاستخدامات التي تتوسّلها الوجهة أعلاه، وبين أهداف الدعاية المعادية المعلنة، واحتساب الجوامع والمشتركات بينهما، في قبالة ما يتنازعهما من اختلافات وتفارقات.

أواليات عمل الدعاية السياسية

لا شكّ أنّ عمل الدعاية لا يتأتى من فراغ أو عدم، ولا يصدر من فوضى أو من اعتباطية عشوائية، كما لا يخضع لاستنسابية منظمة؛ إنّما هو عمل واعٍ، وازن وهادف وموجّه، على قدر كبير من الأهمية ومن الفعالية والتأثير، لا يمكن له أن يستقيم ويستوي على نحو صحي، وأن يكون ذا أكلٍ ونتائج وحصائل يُعتدّ بها، إلا من خلال توسّله لأواليات وميكانيزمات محدّدة:

أ- قد تتوسّل الدعاية السياسية ممارسة التضليل والخداع والمكر والمراوغة؛ كأن تختلق أوهاماً وأكاذيب، أو تتحايل بذكر أنصاف الحقائق، أو تقوم بعمليات تدليس وتمييع للنتائج، أو عمليات تتبيل لوقائع مختلفة، أو توليف بين أحداث متباعدة ليس بينها من جامع أو صلة.

وفي معرض (التحايل بذكر أنصاف الحقائق) كما ألمعنا أعلاه؛ تعكف الجهة الناظمة للحرب النفسية على تلفيق أخبار زائفة، وتتبيلها مع أخرى صادقة، وتظهيرها جميعاً في توليفة موجّهة دالة(69): الزائفة من شأنها أن تبعث اليأس والقنوط والإحباط في نفوس المتلقين، وبالتالي تفقدهم الثقة بجدوائية عملهم وحراكهم، كما بقضيتهم وبمشروعية الهدف الذي يحاربون من أجله. وصادقة قد صير إلى انتقائها وانتخابها خصيصاً لتستكمل الأثر النفسي للأولى، على نحو ما تشفّ عنه قاعدة تخلّق الدعاية الفاعلة، بلحاظ ضرورة احتوائها على بذرة من الواقع.

لقد أفادت– على سبيل المثال- غير وسيلة إعلامية من حادثة انكشاف محاولة اختراق أمني لجسم حزب الله، نفذتها وكالة الإستخبارات المركزية الأميركية (السي.آي.ايه)(70)؛ فعكفت على إطلاق حرب نفسية، ليس تسريب الشائعات وتمرير الأخبار الملفقة الكاذبة التي تضخم ـ على نحو من المغالاة والغلو ـ عديد الكوادر الحزبية المجندة(71)، كما أدوارها، ومسؤلياتها، وقربها من موقع القرار، إلا وجهاً من وجوه هذه الحرب.

ب- تنزع الدعاية السياسية إلى استلاب المتلقي، واستتباعه لمشيئتها وإرادتها، والى العبث بعقله ووعيه ونفسه، والتلاعب بميوله وأهوائه، بحيث تضيق أمامه أو تنعدم مساحات وهوامش حرية اختيار النتائج المترتبة على تحليله لموقف معين؛ ما يعني أنّ تفعيل الدعاية لنشاطها، يتأدّى بالضرورة إلى مصادرة رأي المتلقي ومصادرة خياراته وتوجّهاته، وقمع تمرّداته، بحيث لا تدع له مجالاً للانعتاق من إسارها، والانفلات من كنف قيودها، والعيش خارج نطاق فضاءاتها وإلزاماتها وفروضها.

ج- تتنكب الدعاية السياسية في حراكها وفي تفعيلها لنشاطها، مخاطبة العواطف والانفعالات والأهواء والميول والنزوع الوجدانية، كما تعكف على استجرار مشاعر الناس، واستجلاب مودتهم وحبهم، واستدرار عطفهم وأحاسيسهم، واجتذاب قلوبهم ورغباتهم، واستقطاب محرّضات الفعل لديهم، وذلك من خلال اصطناع الكلمات والمواقف ذات الدلالات والحمولات المؤثرة؛ كتلك الدالة على لحظة انفعال وتوتر، أو تلك المثيرة لمشاعر الغضب، أو الفرح، أو الغبطة، أو الحزن، أو الخوف، أو الحب، أو الأمل، أو الرجاء... وقد تتنكب الدعاية في قبالة ذلك إثارة وافتعال المشاعر السلبية للناس، من خلال بثّ وإشاعة أجواء ومناخات من اليأس، والضعف، والإحباط، والتهديد، والمساس بالأمن، والفشل، والإخفاق، والسقوط، والتقهقر، والهزيمة،... وقد تتوسّل في سبيل ذلك

بأساليب التهويل والتخويف والتعنيف والتوهين والتضخيم والمبالغة، من خلال إعمال معاول الهدم في مرتكزات وروافع المعمار الاجتماعي، والتعرّض لنسيجه ولشبكات أمانه واستقراره؛ كالمسّ بالاستقرار الأسري، والأمن الشخصي، وإثارة النعرات والحساسيات المناطقية والدينية والعرقية والطائفية، كما الإخلال بالتوازنات الداخلية، وإحداث بذور الشقاق والفرقة والفتنة والاقتتال...

د- انكباب الدعاية السياسية على إثارة واستغلال الحاجات النفسية للناس؛ كحاجتهم الملحّة إلى الأمن، وحاجتهم إلى الرفاهية والرغد واليسر، وحاجتهم إلى العيش بكرامة وعزة وهناء، كما حاجتهم إلى الاستقرار والطمأنينة، وحاجتهم إلى استتباب الأوضاع، وتوافر الظروف الموضوعية للحياة والعيش، وحاجتهم إلى إشباع فضولهم العلمي والمعرفي، وحاجتهم إلى التطوّر والارتقاء...

هـ- تحرص الدعاية السياسية على عدم مخالفة الذائقة العامة لجمهور المتلقين. كما حساسياتهم، وخصوصياتهم، ومزاجهم، ودوافعهم، وقيمهم، وعاداتهم، وعقائدهم، ومنظومات أفكارهم وتصوّراتهم وسلوكياتهم(72)؛ بل تلحّ على التماهي معها جميعاً وبها(73)، وعلى احترام معايير ومثاقيل التوافق والتناسق والانسجام والتناسب والمحاكاة... كي يكون بمقدورها النفاذ إلى الوعي الجمعي، واستبطان العقل الجمعي، وكي تستقيم لها الحياة، ويطيب لها التموضع والحلول، وكي تتملكها القدرة على تحقيق مآربها ومقاصدها، دون ملاقاتها بعوارض الرفض والمنع والطرد والنبذ(74). وأكثر من ذلك، فقد ألحّت الدعاية، ليس على الإفادة مما هو قائم وماثل من عادات وقيم وعقائد جمهور المتلقين، والتكيّف مع خصوصياته وحساسياته فحسب؛ بل دأبت على خلق وابتداع وصناعة شعور ومزاج ووعي جمعي موافق لموضوعة الدعاية وأطروحاتها ومقولاتها، ومتبنٍ لها، ومدافع عنها، وعامل على تأصيلها ونشرها وتعميمها وترسيبها على نحو تصبح فيه جزءاً من الثقافة العامة، وركناً ركيناً من الذاكرة الجمعية والمخيال الجمعي للناس. كما ألحّت في أحايين كثيرة على الظهور بمظهر من يتخلق ويتناسل من أفواه المتلقين لها أنفسهم، وكمن يتوالد على ألسنتهم(75)، حيث يعكفون على ترديدها وإشاعتها كمصادرها، وينبرون للدفاع عنها وللمصادقة على قبولها وتشريعها. ذلك أنّ الدعاية التي يصار إلى إسقاطها من الخارج، تلقى بطبيعتها مقاومة ورفضاً، على خلاف مثيلتها المنبثقة من الداخل، التي تحظى بالموافقة والرضى، والتي تضعف كوابح الرفض حيالها وتقلّ المقاومة لها مهما حوت من مغالطات ومفارقات وتناقضات.

والحال هذه، اتكأت الدعاية على فكرة مفتاحية مفادها أنّ الأخبار التي يصار إلى صدورها من أفواه المتلقين، كما جريانها على ألسنتهم، من شأنها أن تكون أكثر قبولاً وتصديقاً، من مثيلتها الصادرة من وسائل ووسائط العدو، أو من وسائل ووسائط أخرى خارجية، مهما كانت درجة الثقة التي تستحوذ عليها، وتحظى بها. ذلك أنّ الجماعة الواحدة تقف على الأهداف والآمال والتطلعات عينها، وتستشعر المخاطر ذاتها، وتواجه الظروف والتحدّيات نفسها، فضلاً عن المشاركة الوجدانية الجامعة بين أفرادها على اختلاف توجّهاتهم. وكان التتار، كما تشفّ كتب التاريخ، قد وظفوا- على نحو جيد- هذا الأسلوب الدعائي في غزواتهم المتعدّدة، وفي فتوحهم لغير منطقة ودولة، حيث كانوا يستعينون على تحقيق ذلك من طريق إرسال مجموعة كبيرة من عملائهم وجواسيسهم إلى البلد المستهدف: يحلون به، ويقيمون فيه كأهله، يستحوذون على ثقتهم، قبل أن يشيعوا بينهم قصصاً مهولة ومخيفة عن قوة التتار وبأسهم وشدّة غلاظتهم، وعن المصير المرعب الذي يواجه كل من تسوّل له نفسه اعتراضهم ومقاومتهم. ثم يُترك لهذه الفبركات القصصية أن

تُعمل أثرها ببطء في النفوس وفي الوعي والمخيال. فلا يكاد الناس يسمعون باقترب التتار حتى يهمّون بالفرار لا يلوون على شيء.

و- ليست الدعاية السياسية عملاً فوضوياً أو اعتباطياً أو ارتجالياً، تعوزه العلمية والدراية، ويصار إلى تظهيره ونشره بكيفية تفتقر إلى الإحاطة والدقة، حيث يخرج إلى الملأ خابطاً خبط عشواء، وسائراً على غير هدى أو يقين؛ بل هو عمل ممنهج(76)، وازن ومدروس، يجيد ببراعة لافتة تصيّد واغتنام الفرص فضلاً عن صناعتها، كما يجيد احتساب خطواته بعناية، وتخيّر الوقت الملائم، وانتقاء الزمان والمكان المناسبين، وإلا كان عملاً عبثياً لا ريح له ولا موج، ينزل منزلة الخطوة الناقصة في فراغ أو عدم: ما كانت أكله تؤتى، وما كانت لتنقاد إليه القلوب والعقول والجوارح، وما كان بمقدوره أن يُحدث فتوحاً عظيمة قد تصل حدّ الإدهاش والإبهار، في حقول عمل وتجارب ليس لها من مادة فعلية إلا الإنسان.

والحال، فإنّ نجاح الدعاية لا يستقيم على نحو سوي دونما الاتكاء على المناهج العلمية، والأخذ بشرائطها وفروضها؛ كأن يصار إلى دراسة المجتمع الذي تستهدفه، والتعرّف إلى بيئته وظروفه، والوقوف على اتجاهاته المؤثرة، وطبائعه، وعاداته، وثقافته، ومنظومات عقائده وتربيته وقيمه الحاكمة...، وما إلى ذلك من مناح بمقدور الدعاية أن تتلبّسها وتتقمّصها وتتزيّا بأزيائها وتتخلق بها، لكي تتسلل إلى الوعي المجتمعي وإلى مخياله العام، وتستوطن، وتنمو، وتنتشر، وتقع على غايتها المنشودة.

ز- تتحدّد فعالية الدعاية السياسية وسطوتها، كما تأثيرها وحضورها في مدى استبطانها للموضوعات الجاذبة، والمثيرة، والجالبة للانتباه والنظر والتركيز، وكذلك الموضوعات ذات الحساسية المفرطة. وتتحدّد كاريزمية الدعاية أيضاً في مدى مقاربتها للقضايا الإشكالية، والمقولات الخلافية، والعناوين والأفكار التي تشعّ في غير اتجاه وعلى غير صعيد، كما في مقاربتها لتلك الأطروحات الصادمة لأفق التوقع عند المتلقي. إلا أنّ إبقاء النظر مشدوداً والانتباه معقوداً على نحو دائم - برغم أهميته وضرورته وإلحاحه - قد لا يفي وحده بالغرض والنوال، لأنّ الملل والوهن سرعان ما يصيب النفوس والعقول والجوارح والحواس، ويأخذ منها التعب كلّ مأخذ. وهنا نقع على سرّ ّالتنويع بوصفه يبعث فيها الحياة من جديد، ويدبّ الحركة في أوصالها، ويمدّها بالحيوية، ويعيدها سيرتها الأولى: شغف، وانتظار، وفضول فاغر فاهه على عطش الأسئلة.

ح- يشكل ميل الإنسان الفطري إلى المسايرة والتقليد والمحاكاة والاتباع عنصر دفع للدعاية السياسية، كي تمارس نشاطها وتفعّل حضورها في بيئات عمل واضحة المعالم والأفق. ويشكل ولعه بالجاهز والمسبق والناجز محرّضاً لها، كي تهب له عطاياها وهداياها على أطباق الإغواء والمكائد. كما أنّ وعيه المتأسّس على صياغات لا تني تعيد نفسها بكيفية منتظمة ومكرورة، يرسّم للدعاية مسارات توضّعها واشتغالها، إذ يُرى إليها كيف تعكف على صياغة مقولاتها ومقاصدها، ثم تعيد عملية إنتاجها بنحو استعادي تكراري واضح ومفهوم، إلى أن تستوي عقيدة وثقافة وذاكرة وديناً، حيث أنّ العقيدة هي بنت الإيحاء والتكرار.

ط- تضطلع الدعاية السياسية بمهام جسام من حيث علاقتها بمرسلها ومطلقها على اختلاف تمثلاته، سواء أكان جهة أم طرفاً أم نظاماً أم دولة...؛ فهي من ناحية أولى، تعبّئ جمهرة المستهدفين وتستنهضهم، كما تحدث تأثيراً ملحوظاً في سلوكهم ومواقفهم واتجاهاتهم وآرائهم

وأفكارهم. وهي من ناحية ثانية، تبرّر وجود النظام، وتدافع عن شرعيته وأخلاقيته ومدنيته وحضارته ورقيه، وتوفر له مظلة من الرعاية والحصانة والمنعة. وهي ثالثاً من طبيعة تحريضية؛ إذ إنّها تحرّض ضد الأعداء، وتسمهم بألوان الضعف والسفه والتوهين والوحشية واللاإنسانية، كما تؤلب الآخرين عليهم، وتدفع بهم إلى الاحتشاد والتعسكر والاصطفاف في مواجهتهم.

ي- لا تتقصّد الدعاية السياسية في سيرورة تخلقها وعملها واكتمالها- كما يُخيّل لبعضٍ بعقله التبسيطي– ممارسة ترف فكري وذهني، أو مزاولة لعب فني وتخييلي، أو إعمال طاقاتها وتوظيف قدراتها وإبداعاتها في تسليات ومراوغات لا تعدو كونها تزجية للوقت وترويحاً عن النفس؛ وإنّما تتقصّد ـ وهذا ديدنها- تكوين الاتجاهات، وصناعة المفاهيم، وصياغة الفروض، وبلورة الآراء والأفكار والتصوّرات، وتشكيل القيم، وتعديل السلوك... على نحو يصار فيه إلى الانتقال بالمتلقي- الهدف من حالٍ إلى حال، أو بالأقلّ إلى إحداث تطوّر دراماتيكي ملحوظ يطال زوايا رؤيته إلى الواقع والأشياء من حوله. كما تتقصّد الدعاية، فضلاً عن ذلك، نفث سمومها، وبثّ إيحاءاتها وإيماءاتها، ونشر ادعاءاتها لغرض التأثير في جمهور المتلقين، وتيسير عملية إقناعهم واقتناعهم واحتوائهم، تمهيداً للأخذ بناصيتهم إلى حيث يُراد لهم ويُرغب.

ك- تحرص الدعاية السياسية وتلحّ- في صيرورة تخلقها واكتمالها واشتغالها- على توافر جملة من الفروض والشرائط والبداهات الحاكمة؛ كأن تصدر ليس من جهل، بل من معرفة دقيقة، ومن دراية وإحاطة وافية، ومن حالة تخصصية إعلامية- نفسية مكينة. أو تتأتى من غير أداة اتصال، ومن غير قناة أو مسرب أو وسيلة، إذ تقع على المتلقي من حيث يحتسب، ومن حيث لا يحتسب(77). أو كأن تنطلق من مواقف مكتسبة: اعتقادية، إيديولوجية، دينية... فضلاً عن مراعاتها التبسيط، والبعد من التعقيد، كما مراعاتها تنسيق خطواتها ومراحل تدرّجها وتطوّرها بإحكام وعناية وتناسب واتساق.

ل- يتوزّع معمار الدعاية السياسية ركائزُ وأسسٌ وخصائصُ فارقة، تأتلف وتجتمع وتتضافر في ما بينها لترسّم هندستها ومشهديتها، ولتشيّد لها بنيانها؛ ينبغي للدعاية أولاً أن تمثل وجهة نظر، أو أن تعبّر عن مضمون فكري ـ نفسي موجّه وهادف، على أن تستند في ذلك- أي في تبرير وتعليل الوجهة أو المضمون أعلاه ـ إلى حجة دامغة، وأن تتكئ على منطق غير متهافت. ثم يصار ثالثاً ـ في سبيل نشر وجهة النظر تلك ـ إلى توسّل أسلوب عرض بسيط وسلس ومحبب ومحكم الصياغة والسبك، كما استعمال لغة تقديم مألوفة، وسائدة، وقريبة من روح العصر، فضلاً عن بعدها من الغرابة والتعقيد. وكيما تتصل وجهة النظرة بجمهرة المتلقين المستهدفين منها؛ لا بدّ أن نقع خامساً على قناة اتصال أو أداة تواصل صالحة وفعّالة. أما سادس الأسس والركائز؛ فهو توفر هدف حاكم ضابط لإيقاع وحراك توضّع الدعاية، والذي بالمقدور ملاحظته ومعاينته في إحداث تأثير، أو تعديل، أو تطوير، أو تغيير في آراء، وسلوك، وعقول، وأفكار، واتجاهات، ومواقف... الشريحة المستهدفة من المتلقين.

م- تنوّع الدعاية السياسية من تمظهراتها وتمثلاتها، ومن تفعيل أدواتها وميكانيزمات عملها واشتغالها، لكي تأتي بنتائج وحصائل ومخرجات بالغة الأهمية وعالية الجدوى والقيمة؛ قد تأخذ شكل الإدانة السياسية أو الحقوقية أو الأخلاقية لمغالطات وفبركات وأضاليل وأكاذيب الخصوم. وقد تعمد الدعاية إلى نشر فضائح الأعداء، وتظهير عيوبهم ومثالبهم، وتعريتهم، وكشف زيف مقولاتهم، وتسفيه مزاعمهم، وبيان تهافت ادعاءاتهم، وذلك في سبيل النيل من إرادتهم ووعيهم من

جهة، ولتهيئة الجماهير، وتحضيرها، وإعدادها، وشحنها بالمؤثرات من جهة ثانية. وقد تأخذ الدعاية بالمبالغات والغلو في تصوير حجم مشاعر الاضطهاد؛ لتثوير وعي الجماهير ودفعها إلى التمرّد والعصيان، كما إلى ساحات وميادين الحرب والقتال. وثانياً لتبرير ما يمكن أن يبدر من أفعال، أو ردود أفعال، أو أعمال انتقامية وثأرية. وثالثاً لتأمين بيئة دولية حاضنة، أو لخلق رأي ومزاج عام عالمي متعاطف، ومؤيد، ومناصر، وداعم. وقد تعكف الدعاية على استغلال كل تفصيل، وتوظيف كل حادثة مهما صغرت وضؤل أثرها، وتثمير مفاعيل ذلك في خدمة الأهداف الكبرى المنشودة. وقد تطرح الدعاية شعارات من طبيعة مرحلية، وذلك ليس من قبيل الإثارة الفارغة الجوفاء؛ وإنّما من قبيل تحقيق أغراض تكتيكية، تخدم في مجموعها الوجهة السياسية العامة وقائمة الأهداف الإستراتيجية. وقد تتوسّل الدعاية مخاطبة العقل والمنطق، حيث تأخذ بالحجة والبرهان والدليل، وتتجنّب استثارة المشاعر والعواطف والغرائز. وقد تكون على خلاف ذلك، إذ تعكف على مخاطبة الجوانب الانفعالية والعاطفية من الشخصية الإنسانية، وتهمل الجانب العقلي والمنطقي منها.

ن- تتخذ الدعاية السياسية لنفسها مساراً مائزاً يفرقها عن سواها؛ فلا هي خبر، إذ إن ما يجعل الخبر دعاية هو انطراح رزمة من الأسئلة: لمن جاءت؟، ولماذا؟، ومتى...؟. ولا هي رأي، إذ يصار إلى الخلط- تبسيطاً– بين الدعاية والرأي. فعملية تحليل الدعاية، تشمل بالضرورة تحليل ما تحاوله جهة ما من جعل الناس يفكّرون. بينما عملية تحليل الرأي، تشمل تحليل ما يفكر به الناس. ولا هي- ثالثاً- عملية تسميم فكري، إذ إنّ التسميم الفكري لا يسعى كهذه الأخيرة إلى الإقناع أو الاقتناع؛ بل يسعى إلى إعمال التأثير في العقول والنفوس من طريق التلاعب بعناصر التكوين المعنوي، ما يتأدّى إلى القضاء على الخصم، بمعنى شلّ وإعطاب قدراته الفكرية والذهنية والمعنوية.

سبل مقاومة الدعاية السياسية

ثمّة سياسات عديدة من شأن توافرها، كما من شأن توظيفها في، وترجمتها إلى برامج وإجراءات عملانية؛ أن يتيح خلق بيئة داخلية حصينة، منيعة، عصية على اختراقات العدو، وأن يتيح ـ في ما يسمّى اصطلاحاً «الدعاية المضادة Conter propaganda» ـ امتلاك القدرة على تفنيد مزاعم هذا العدو، وتكذيب ادعاءاته، وتجويف مقاصده وافتراءاته، ومقارعة أعماله الدعائية ومواجهتها:

أ ـ المعرفة الدقيقة الوافية والإحاطة الشاملة بالخلفيات الاعتقادية والإيمانية والاجتماعية، كما بالمنظومات القيمية، والتصوّرات، والمباني الفكرية التي يصدر منها العدو، والتي تشكل مرجعياته الحاكمة على غير صعيد، وذلك بغرض توظيفها وتثميرها في عملية تحليل مقاصده، وأفكاره، ومقولاته السياسية المعادية.

ب ـ تشفيف فلسفة العدو الدعائية من خلال إعمال معاول الحفر، والتنقيب، والتشريح، والتحليل، والتفكيك، والمعاينة، والفحص... في كلّ أسسها، ومرتكزاتها، وروائزها، ومبانيها التي تستقيم عليها؛ فتتكشّف- والحال هذه- نيّات العدو، وتتحدّد قائمة أهدافه ومبادئه وأغراضه ومقاصده.

ج- تعلم لغة العدو تعلماً متقناً، من حيث المعرفة الجادّة والوازنة بألفاظها، ومفرداتها، وتعابيرها، وصياغاتها، وتراكيبها، وميكانيزمات عملها. كما المعرفة بحمولاتها، ودلالاتها، ومعانيها، ووظائفها، ومروحة إشعاعاتها... ليصار إلى تكوين فهم حقيقي لدعاية العدو، وإنتاج وعي عميق بمنطوياتها وخباياها، وبالتالي امتلاك القدرة على بيان تهافتها وزيفها ومراوغتها وخداعها، ولاحقاً تفعيل الردّ عليها.

د- تقدير واقع العدو تقديراً علمياً للوقوف على نقاط ومواطن ضعفه، وعلى ما يحيق به من صنوف التهديدات، واستغلالها خير استغلال. كذلك الوقوف على نقاط قوته، وما يتوافر عليه من فرص متاحة للحؤول بينه وبين إمكانية تثميرها والإفادة منها.

هـ- تحرّي مواطن ومواضع التناقض، والخلل، والكذب، والتلفيق، والتضليل... التي تعتور خطاب العدو، والتي تتكشّف عنها أدبياته وممارساته الدعائية؛ وذلك لشلّ فعالية دعايته، والتهوين من شأنها، وبيان تهافتها، وكشف زيف ادعاءاتها ومزاعمها، تمهيداً لتعطيلها وإعطابها.

و- عدم إهدار الفرص المتاحة، بل العمل على تفعيلها واستثمارها واستغلالها والإفادة منها على نحو موجب، بعد تخيّر الزمان والمكان المناسبين، كما الوسيلة المناسبة، لإشغال العدو، ومهاجمته، وإلحاق الأذى به، والتسبّب له بالضرر البالغ. وأكثر من ذلك ينبغي عدم الاكتفاء بانتظار الفرص؛ بل العمل الدائب على خلقها وابتداعها واصطناعها.

ز- اجتناب المراوغات والمخاتلات والخداع والتسويف والتضليل، وكذلك الإهمال والاستخفاف... في العلاقة مع الجماهير، ليصار في قبالة ذلك إلى القيام- دورياً- بإجراء مراجعات نقدية، وتبرير الممارسات، وإبعاد الشبهات التي قد يتسلل منها العدو، وعرض الحقائق والوقائع، وتقديم المعطيات، وتحليلها، وتقييمها بشكل موضوعي متزن وجادّ.

ح- تحاشي المواجهات المباشرة، واجتناب الاحتكاكات مع دعاية العدو، حين تكون هذه الأخيرة في ذروة ألقها وأوجها وفعاليتها وعطائها.

ط- تمتين وتعميق وبناء عرى، وأواصر، وجسور الثقة المتبادلة بين القيادة السياسية وجماهيرها، والنأي بهذه الثقة عن كل أشكال الاهتزاز والتشكيك والارتياب، من خلال تفعيل الممارسات الديموقراطية، والمشاركات الجماعية، وإشاعة الحريات لاسيما حرية إبداء الرأي والتعبير... كما الحرص على الشفافية والمصداقية والوضوح.

ي- تثمير وتوظيف وتحشيد وتفعيل كل الطاقات، والقدرات، والوسائل، والموارد، والإمكانات...، لاسيما الإعلامية والتربوية والثقافية والتكنولوجية والفنية، لمواجهة ممارسات وأعمال العدو الدعائية.

ك- إتقان مهارات وفنون التواصل مع الجماهير، من خلال تعلم وإجادة فن الخطاب، وكيفية مخاطبة الجماهير، ونشر الأفكار، ومهارات الإقناع والتأثير. وكذلك إتقان مهارة إيصال الدعاية إلى العدو بطرائق إبداعية صادمة لأفق التوقع والتلقي.

نماذج دعائية

لنقف في المحصّلة على بعض النماذج الدعائية، التي كان لها قصب السبق في تحقيق النجاحات والإنجازات والفتوح في ميادين الحرب النفسية، على النحو الذي جعلها رائدة في هذا المجال إذا ما قيست بمثيلاتها وأخواتها؛ نحو: الدعاية النازية، الدعاية الصهيونية، الدعاية الأميركية.

أنموذج الدعاية النازية(78)

تتوسّل الدعاية النازية(79)، بوصفها فن التأثير بخيال الجماهير، جملة من السياسات الدعائية التي تتركز في مدار الجانب الانفعالي ـ العاطفي من الشخصية الإنسانية، كما في مدار التسطيح الإقناعي. ولعل أبرز هذه السياسات:

أ- إثارة المشاعر والعواطف والغرائز والأهواء والانفعالات، ومخاطبة الميول والحاجات لدى الأفراد والجماعات، بحيث لم يبقَ لهذه الأخيرة من فرصة للتفكير الهادئ والرزين. إذ يأخذ الخدر منها كل مأخذ، إلى حدّ الكف عن التفكير، وينال التبلد من عقولها إلى حدّ الإصابة بالعقم والإعطاب، ما يجعل الدعاية النازية دعاية لاعقلانية بامتياز، بوصفها تغلب المشهد الظاهري البراني على التبرير والتعليل، كما الحسّ الاندفاعي على التعقل والمنطق. «إن أسلحتنا» يقول أدولف هتلر «الاضطراب الذهني، وتناقض المشاعر، والحيرة، والتردّد، والرعب الذي ندخله في قلوب الأعداء. فعندما يتخاذلون في الداخل، ويقفون على حافة التمرّد، وتهدّدهم الفوضى الاجتماعية، تحين الساعة لنفتك بهم بضربة واحدة»(80).

ب- الإحاطة بمجمل غرائز الذات الإنسانية ونوازعها؛ نحو: غريزة الأبوة، والأمومة، والجنس، والحب، والكراهية، والعنف، والتملك، والقوة... وتوظيف كلّ منها على نحو متقن، لتحقيق الأهداف والأغراض المنشودة.

ج- الإفادة من تكنولوجيا الإعلام، ومن فعالية تأثير الصحافة ونفوذها لصناعة وتوجيه الرأي العام، الذي لا يعتمد وفقاً لأدولف هتلر «على الخبرة الشخصية، أو على معرفة الأشخاص؛ وإنما يستسلم للدعايات التي تسيطر عليه دون أن يشعر(...) الرأي العام يتلقّن يومياً دروسه من هذه المدرسة ألا وهي الصحف»(81).

د- إخضاع جميع البرامج والمناهج التربوية والمدرسانية والثقافية والتوجيهية والترفيهية والإعدادية... لرقابة الدولة، بعد أن توجّه جميعها لخدمة مصالح الأخيرة، كما لخدمة سياساتها، وإستراتيجياتها، وأهدافها.

وفي هذا السياق، يقول أدولف هتلر في كتابه (كفاحي): «تحاول الدعاية فرض المذهب على الشعب كله (...) تدخل في ذهن الشعب فكرة من الأفكار (...) دعاية تعمل على موقف الجمهور، وتنطلق من فكرة تجعل الجمهور مهيئاً لتقبّل هذه الفكرة(...) ثم تعمل على ترسيخها في أذهانهم معدّة إياهم ليوم النصر»(82).

هـ- تأليب وتحريض الأقليات، وذوي النفوس المريضة، وأصحاب المطامح، والنفعيين، والانتهازيين؛ لزرع الشقاق والفوضى والفرقة في ساحة وبيئة العدو. «ينبغي لنا أن نبحث عن

الأقليات الموتورة» يقول غوبلز وزير الدعاية الألماني في عهد هتلر، «وعن الزعماء الطموحين الفاسدين، وذوي العصبيات الحادّة والميول الإجرامية؛ فنتبناهم، ونحتضن أهدافهم، ونهول مظالمهم، ونهيج أحاسيسهم بمزيج من الدعاية والشائعة، مثيرين الغني على الفقير، والرأسمالي على البروليتاري، ودافع الضرائب على فارضها، والجيل الجديد على القديم... وبذلك نحقق درجة من الفوضى يمكن معها التلاعب بمقدرات العدو وفق ما نشاء».

و- تفعيل وتنشيط الاندفاعات الطبيعية للأفراد، وتوجيهها، وتحويلها، وتطوير الاستجابات الشرطية لديهم من خلال مقولات التفوّق، والتعالي، والتمايز، والذكاء، وصفاء العرق الجرماني، وطهرانية الدم والنسب، ومقولة الصنف البشري المختار...

أنموذج الدعاية الصهيونية- الإسرائيلية

توسّلت إسرائيل جملة من السياسات الدعائية التي تقوم على صناعة وصياغة فبركات وتلفيقات وأضاليل ومزاعم وأكاذيب وأساطير تلمودية مؤسِّسة. وقد عكفت– لتحقيق مآربها- على التمظهر بغير مظهر، والتخلق بغير خلاق وغير لبوس، على نحو يتواءم مع حساسيات الناس على اختلافها وتباينها، وينسجم مع مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية على تفاوتها وتفارقها، ويتماهى مع توجهاتهم الفكرية والعقيدية على تعدّد المشارب والميول والأهواء والقيم الحاكمة، متكئة في سبيل ذلك على أدبيات خطاب زئبقية مخاتلة، ومنتهجة أساليب متنوّعة؛ كالمناورة، والمراوغة، والتهديد، والتهويل، والوعيد، والاستعطاف، والإغراء، والإفساد، والتحريض، والتزوير، والتعظيم، والتكرار، والتشبّه بالشعوب، وعقدة الذنب، ومخاطبة مراكز النفوذ والقرار، وتسييل الإنجازات مكاسب سياسية، واستغلال الأحداث والحاجات والأزمات...

ويُسجّل للدعاية الصهيونية قدرتها على تظهير ممارسات العرب بصورة مماثلة لممارسات النازيين الألمان(83)، وفق ما صير إلى ترسيب الأخيرة في الوعي الغربي الجمعي، كما في المخيال العام. وكان هذا التزاوج التلفيقي المصطنع بما يحمله من تراكمات وحمولات سايكولوجية؛ يتأدّى- على نحو من الجدل الدياليكتيكي- إلى تشويه صورة العربي، واستطراداً إلى حالة من النفور والكره والعداء له.

الجدير بنظر الاعتبار، أنّ ابداعية الدعاية الصهيونية، وقدرتها الخلاقة على التأثير والفعل؛ لم يكن بأي شكل من الأشكال بسبب من توافرها على قدرات وأسباب قوّة ذاتية فحسب؛ بل بسبب من غياب إستراتيجية عربية دعائية دفاعية مضادة من شأنها مواجهة غريمتها، وتعطيل تأثيراتها، وإفساد خططها وبرامجها حتى قيل «إنّ الدعاية الصهيونية تسبق الأحداث والدعاية العربية تلهث وراءها»(84).

أمّا أبرز السياسات والإستراتيجيات التي استقامت عليها الدعاية الصهيونية، وانبنت وتخلقت؛ فهي:

أ- الإيحاء أنّ استيلاد الكيان اليهودي، وأنّ نشوء الدولة الإسرائيلية؛ ليس إلا تحقيقاً لنبوءة توراتية(85). كما أنّه ليس إلا إزالة لما لحق باليهود من ظلم تاريخي(86).

ب- الحرص على اصطناع روابط وجودية طبيعية بين إسرائيل الدولة والكيان، وبين ما تمخّض عن الحضارة الغربية من فكر، وجهد، وإبداع، ومهارة، ورقي، وثقافة، وتطوّر.

ج- تظهير إسرائيل لدورها ولموقعها في منطقة الشرق الأوسط على صورة الشرطي الحامي للمصالح الغربية، والمؤدّب للخارجين على إرادة المجتمع الدولي. وبالتالي فإنّ أي تهديد لإسرائيل؛ من شأنه أن يتأدّى بالمحصلة إلى تهديد لمصالح الغرب وللإرادة الدولية.

د- التأكيد على أسبقية الديانة اليهودية، وعلى أخلاقيتها، والإشارة إلى فضلها على الديانات الأخرى.

هـ- الادعاء بنقاء وطهرانية العرق اليهودي، وصفاء سريرته، وتمايزه، وتعاليه، وتفوقه على سائر الأصناف البشرية الأخرى.

و- القول إنّ إسرائيل ليست كياناً هجيناً، أو مولوداً سفاحاً، أو نتاجاً لتصالح لحظة ظرفية عابرة؛ وإنّما هي دولة ذات أصالة وعراقة، وذات رسالة حضارية ضاربة جذورها وامتداداتها وأصولها في القدم والتاريخ.

ز- ترديد لازمة أنّ الأمن الإسرائيلي مهدّد دوماً من البيئة المحيطة، وأنّه عرضة دائمة للاستهداف، والتصويب، والإضرار، ولصنوف المخاطر، وأعمال العنف والتخريب. فضلاً عن محاولة التظلل بمظلة ما يسمّى بالمجتمع الدولي، والتسلح بالإرادة الدولية، من خلال القول إنّ أمن إسرائيل وسلامها مرتبط على نحو وثوقي بالأمن والسلام العالميين.

ح- المبالغة في توصيف وتصوير ما لقيه اليهود في أوروبا(87) من اضطهاد ديني وعنصري، أي ما أطلق عليه اصطلاحاً (الهولوكوست)(88)، وتضخيم ذلك، وتكبيره، وتظهيره من خلال مرايا محدّبة واستغلاله، وتثميره، وتوظيف مفاعيله لمصلحة إقامة الكيان(89)، وضمان ديمومته واستمراريته وبقائه.

ط- إظهار إسرائيل لنفسها دولة صغيرة، وديعة، مسالمة، وأنّها واحة من واحات الديموقراطية، بل إنّها الديموقراطية الوحيدة في محيط جغرافي تتوزّعه أنظمة الاستبداد والديكتاتورية، وتتنازعه أحزاب، واتجاهات، وتيارات، وحركات، ومنظمات إرهابية، وجماعات إسلامية متطرّفة.

ي- تنميط صورة للعرب والمسلمين تفيض بصفات التخلف، والبربرية، والوحشية، والإرهاب، والشغب...، والعمل على ترسيبها وترسيخها في الوعي والوجدان العالمي العام كلازمة وثابتة. ولا بأس- والحال هذه- أن تكون مصحوبة بدعوة ملحّة إلى وجوب وضرورة التخلص منهم.

ك- تشكيك العدو بنفسه وبقدراته وبإمكاناته وبعناصر القوّة والفعل والتأثير لديه، بحيث يشعر بالدونية والتصاغر على نحو دائم، كما بالإحباط والضعف والخمول والكسل والعقم والتصحّر والموتية.

ل- تزوير الوقائع والحقائق والأحداث والتاريخ، وقلب المعطيات، وتوسّل أساليب الكذب والخداع والغلو والافتراء والتضخيم والتحريض والمبالغة والتسفيه والتوهين... بما يخدم مصلحة إسرائيل العليا، في قبالة الإضرار بالأعداء والخصوم، وإلحاق الأذى بهم.

م- التركيز على تقنيات الإبهار، والإدهاش، وقوّة المؤثرات، والمفاجأة، وصدم أفق التوقع. كما على تظهير أسباب الاقتدار، والغلبة، والبأس، وفواعل القوّة الساحقة الماحقة وعناصرها.

ن- إثارة عقد الخوف والفزع والرهبة والوجل والاحتراس من الإسرائيلي، وتظهير جوانب التفوّق والتمايز والاقتدار والقوّة لديه.

ص- إثارة نوازع الانكسار، والتراجع، والانكفاء، والسكون، والإحجام، والتقهقر، والانهزام، والاستسلام... لدى الوعي الجمعي العربي.

ع- توظيف أدوات تفعيل القوّة، ووسائل التقتيل والتعنيف والقمع والإرهاب العسكري، بغرض التأثير النفسي في الخصوم والأعداء، وإضعاف معنوياتهم وروحهم، وكيّ وعيهم، والإضرار بإرادتهم، والنيل من عزيمتهم.

أنموذج الدعاية الأميركية

إتكأت الدعاية الأميركية في تحقيق مآربها ومقاصدها وأهدافها على جملة من المقولات؛ نحو: (امبراطورية الحرية)، (الأمل الأخير المتبقي على الأرض)، (المدينة المشرقة)، (الأمة التي لا غنى عنها)، (الاستثنائية الأميركية)، وسوى ذلك من توصيفات ومقولات راجت وعمّت على مدى القرنين الماضيين. كما إتكأت الدعاية الأميركية على مرموزات ولوغوات إشارية دالة(90)، يعبّر كلّ منها عن مفهوم قيمي بالغ الدلالة، وتشكل في مجموعها منظومة مفاهيم قيمية تحرص أميركا على الإيحاء أنها- ككيان ودولة وحضارة- تمثل مصاديقها العملانية، وترجماتها الفعلية:

أ ـ النسر الأميركي: أريد له أن يرمز إلى قوّة أميركا وعلوها واقتدارها وجبروتها وبأسها، وأنّها عصيّة على الانهزام والانكسار.

ب- رامبو(91)، المارينز(92): أريد لهما أن يمثلا أو يرمزا إلى يد أميركا الطولى، التي تمتدّ أنّى تشاء، إلى حيث تشاء؛ تتوافر لديها الإمكانية والقدرة على الوصول إلى الأعداء أينما كانوا، وأينما حلوا، فلا تعوقها في سبيل ذلك موانع أو سدود، ولا يحول بينها وبين تحقيق أغراضها وأهدافها حائل أو حدّ.

ج- الجامعات: أريد من خلال تفعيل هذا المرموز، وما له من قيمة حضارية بالغة ودالة، الإيحاء بأنّ أميركا هي أمّ الحضارة الحديثة الإنسانية- الكونية- العالمية، وحاضنتها، وراعيتها، وممثلتها الوحيدة، وصرحها، ومصدرها، ومنارة إشعاعها وتفجرها وإبداعها.

د- جورج واشنطن(93): لقد شاءت الولايات المتحدة الأميركية أن تجعل من جورج واشنطن- مؤسّس الدولة ورئيسها الأول- أيقونة الديمقراطية، وعنوانها، وترجمانها الأمثل والأوفى، بحيث تنهل من معينه، وتنضوي تحت سقف مظلته كلّ التمثلات الديمقراطية المعاصرة.

هـ- الانترنت: لقد وظفت الولايات المتحدة الأميركية الانترنت- هذه التقنية العلمية المذهلة والخارقة- توظيفاً دعائياً متقناً، جعلها كمن يمثل ذروة التقدم والتطور التقني والعلمي، ويتوضّع دون منافس أو نظير على عرش التكنولوجيا الحديثة.

و- الجينوم(94): لقد وفقت الولايات المتحدة الأميركية في أن تجعل من الجينوم رمزاً علومياً، يؤشّر إلى عظيم مكانتها في دنيا المعارف والعلوم، وإلى استحواذها على قصب السبق في ميادين التقدم الثقافي والفكري.

ز- تمثال الحرية(95): أريد لتمثال الحرية أن يكون رمزاً تتلطى خلفه الولايات المتحدة الأميركية، للقول إنّها بلد الحريات العامة، وواحتها، وحاميتها، وكافلتها، والمدافعة عنها(96).

ح- المنظمات الحقوقية(97): حرصت الولايات المتحدة على حضانة ورعاية المنظمات الدولية لحقوق الإنسان، كما هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن... وما إلى ذلك من مؤسّسات دولية ذات طابع إنساني وأممي... حيث اتخذت الأخيرة من أميركا مقراً رئيساً لها، أمّا الغرض من ذلك فهو تثمير وتوظيف مثل هذه الحضانة المصطنعة للإيحاء أنّ أميركا هي راعية هذه الحقوق، وهي كافلة السلام والعدالة الدوليين. وفي هذا السياق ينصح جوزيف .اس ناي في مؤلَفه «القوة

الناعمة» الولايات المتحدة، بأن تعكف على تفعيل اختراقها وتوجيهها للمنظمات العالمية والدولية من خلال المشاركة الفاعلة فيها، كما من خلال استخدام الوسائل الإعلامية والثقافية، إذ تتيح شبكات الانترنت والفضائيات ووسائل الاتصال المجال واسعاً لتحقيق ذلك(98).

ط - الحرب الاستباقية على الإرهاب: لقد ألحّت الولايات المتحدة على تقديم نفسها، على هيئة من يرفض العنف والتطرّف، وينبذ الإرهاب والعدوان. والحال، شرعت منذ مطلع الألفية الثالثة في تنظيم سلسلة حروب في غير مكان من العالم- الحرب على أفغانستان، الحرب على العراق، فرض عقوبات على إيران، محاصرة سوريا وعزلها دولياً، ملاحقة أسامة بن لادن، الحرب على المقاومة في لبنان وفلسطين...- عنونتها جميعاً بعنوان الحروب الاستباقية(99)، والوقائية(100) والعادلة(101)؛ استهدفت من خلالها تنظيمات ودولاً وأنظمة ورسميات أدرجتها كيداً في عداد محور الشر، لا لشيء إلا لأنها تقف في طريق بسط ومدّ نفوذها وهيمنتها وسيطرتها على منابع النفط والطاقة، وعلى مقدرات الشعوب، وعلى استكمال تكريس القطبية الأحادية، وفرض إرادتها السياسية على العالم.

ي- الجينز، الهمبرغر، الكولا ...: لقد شاءت الولايات المتحدة الأميركية من خلال تفعيل العمل وتنشيطه ببعض الرموز المرتبطة بثقافتها وحضارتها، كما تعميمها، وتسويقها، ونشرها بوصفها مؤشرات دالة على مقدار الترفيه الذي يحظى به المواطن الأميركي، أن توحي أنها بلد الرفاهية، والنعيم، والرغد، والعيش المرخم...، التي ينبغي لكل إنسان على وجه الأرض- أينما كان موطنه، وأينما حلّ- أن يصبو إلى محاكاتها، وأن تشكل لديه منتهى الطموح.

ك- الاقتصاص من ليبيا(102)، غزو العراق(103)، احتلال أفغانستان(104)، فرض عقوبات على إيران، محاولة عزل سوريا، إدراج حزب الله وحماس والقاعدة ومنظمة الجهاد الإسلامي على لوائح الإرهاب:

كلها سياسات وأعمال وممارسات عدوانية غير مشروعة وغير مبرّرة؛ لكنّ الولايات المتحدة الأميركية حولتها بفضل الدعاية الفاعلة إلى رموز اعتبارية ومعيارية يؤدّب بها كلّ من تسوّل له نفسه مناكفتها، وإزعاجها، والتحريض عليها. فضلاً عن أنّها تظهّر أميركا على صورة وهيئة من لا يغفر لخصومه أبداً، ولا يتسامح إطلاقاً حيال المعتدي على مصالحه، ولا يتهاون إزاء المعطل لبرامجه ومشاريعه التوسعية.

إنّ تاريخ الولايات المتحدة الأميركية حافل بالممارسات العدوانية والظالمة، لاسيما تلك التي تتلبّس لبوس العدالة الدولية، ولبوس الدفاع عن الحقوق والحريات؛ نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر، كيف عكف الأميركي على استثمار حادثة اغتيال رئيس الحكومة اللبناني السابق رفيق الحريري(105) للانتقام من حزب الله وسوريا وسواهما من قوى المقاومة والممانعة(106)، كما للانتصار لحلفائه في المنطقة، ولتحقيق أجندة أهدافه ومشاريعه، وذلك في وقت سابق على الاغتيال كما ينبئ غير مؤشر ودليل(107)، وفي لحظة الاغتيال وما أعقبها: إن كان ابتداء على صعيد لجنة التحقيق الدولية(108)، أم على صعيد المحكمة الدولية(109) في مرحلة لاحقة، أم كان على صعيد التسريبات المتعدّدة للقرار الظني(110) الموجّهة والمدوزنة على وقع إيقاعات سياسية، والمتساوقة مع استحقاقات انتخابية داهمة، ثم توظيف ذلك كله في إمكانية ترتيب تسوية يدفع فيها السوري وحزب الله أثماناً لمصلحة الأجندة الأميركية، قبل أن تقحم الأخيرة بهذا القرار

الظني في أتون الحرب على الحكومة اللبنانية المنتخبة وفق الأصول الديمقراطية(111)، حيث صير إلى انتقاء وقت صدوره بالتزامن مع اذاعة البيان الوزاري لحكومة لبنان التي ترأسها نجيب ميقاتي(112)، بعد الإطاحة بسعد الدين الحريري(113).

ل- نهاية التاريخ(114): نبوءة فكرية- ثقافية أطلقها فرنسيس فوكوياما(115)، وأرادت من خلالها الولايات المتحدة الأميركية؛ القول: إنّ العصر الأميركي يمثل- من حيث رقيّه، وتطوّر أدواته، وحضارته، وثقافته، ورفاهية إنسانه، ووسائل عيشه- منتهى طموح البشرية في سعيها الدائب نحو الرقي، وذروة مخاض وتحوّلات وصيرورة التاريخ نحو الكمال. فلا عصر بعد العصر الأميركي، ولا إمكانية للتمدّن والحضرنة والعصرنة والإبداع خارج فضاءاته الكوكبية والعولمية.

م- الأقليات والإثنيات المضطهدة(116): لقد استغلت الولايات المتحدة الأميركية معاناة الأقليات والإثنيات المضطهدة(117)؛ نحو الأكراد، التركمان، الأقباط...، ووظفت ذلك في سبيل تفعيل وخدمة مصالحها الخارجية، ورأت إليه مدخلاً ملائماً للتدخل في شؤون الدول وسيادتها، كما في خصوصية الانتظام المجتمعي فيها؛ فانبرت والحال- وفق أجندة دعائية هادفة- إلى اصطناع الدفاع عن حقوق هذه الأقليات، وإلى حمل لواء حرياتها واستقلالها، وإلى كفالة وضمان مشروعية تمايزها وتفردها. وأخيراً إلى الظهور بمظهر القوة المرجعية الحامية للصنف البشري، الضنينة بإحقاق العدالة والمساواة والإنصاف بين الأطياف والملل والسلالات والأجناس والأديان على اختلافها.

ن- السيارات الفارهة: أريد لها أن تشكل مرموزات دعائية تؤشر- على نحو بالغ الدلالة- إلى مقدار التطوّر الذي بلغته الصناعة الأميركية. فضلاً عن العظمة، والفخامة، والجودة، والإبداع.

ص- هووليود، والت ديزني، مايكل جاكسون، مادونا، مارلين مونرو...: أريد لهذه الرموز، أن تكون مثالات وشواهد وأعلام ومصاديق على أنّ الولايات المتحدة الأميركية، هي بلد الغنى، والبذخ، والمتعة، والإسراف، واليسر، والفن، والإبداع...

وكان المفكر الأميركي جوزيف اس. ناي (Josepf.s.Nay)، في أطروحته «القوة الناعمة»، قد قارب- إلى جانب هذه الرموز والمثالات- العديد من العوامل والعناصر التي بمقدورها أن تشكل مصادر ثرية للقوّة الناعمة التي تتوافر عليها الولايات المتحدة الأميركية. فهذه الأخيرة تمتلك لـ 62 % من أهم العلاقات التجارية في العالم. وفيها زهاء الـ 28 % من جميع الطلاب الدارسين خارج بلادهم(118). وهي أكثر دولة تستقطب مهاجرين(119)، وتنشر الكتب والمؤلفات الموسيقية، وتنتج البحوث العلمية، فضلاً عن كونها أهم مصدر للأفلام والبرامج التلفزيونية...(120). والولايات المتحدة- إلى جانب ذلك-هي قائدة ثورة المعلومات والاتصالات، وهي القوة المهيّمنة على التجارة والاقتصاد، ويمتدّ تأثيرها– وفقا لوزير الخارجية الفرنسي السابق هوبير فيدرين– إلى اللغة، كما إلى أساليب الحياة والثقافة والفكر؛ فثقافة الولايات المتحدة الرفيعة منها والمتواضعة تدفع الآخرين إلى تمثلها واستلهامها ومحاكاتها والاستنارة بها. والتجارة تشكل واحدة من طرائق انتقال الثقافة، والاتصالات وجه آخر للانتقال الثقافي، فيما تتخلق– أيضاً- الزيارات والمبادلات والبعثات كمورد بالغ الأهمية على هذا الصعيد.

ثانياً - الشائعة

الشائعة والإشاعة في اللغة؛ هي «الخبر ينتشر ولا تثبت فيه»(121)، وهي «الأخبار المنتشرة»(122)، تتصل بكلّ أحد، فيستوي علم الناس بها، ولم يكن علمها عند بعضهم دون بعض.

الشائعة اصطلاحاً؛ هي «معلومة غير معروفة المصدر»(123)، حيث يقال على سبيل المثال: يشاع أنّ، أو الشائع أنّ، أو سوى ذلك من صياغات مبنية دائماً للمجهول. «ثمّة إشاعة قد ولدت» يقول روبير فوريسون «لكن لا أحد يعلم أبدا كيف تولد إشاعة»(124). كما أنّ الشائعة «غير ثابتة، يجري نشرها لهدف سياسي معيّن يكون مغرضا في الغالب(...) وتعدّ جزءاً مهماً من علم الدعاية السياسية وفنونها»(125). وهي خبر مختلق، غير صحيح، ذو حمولات ومنطويات بالغة الأهمية، يتناقله الأفراد من طريق الأفواه- ذلك أنّ المجتمعات تتبنّى تقاليد شفوية في مجال تصريف الأخبار، وقد تجسّدت العلاقة الرابطة بين الفم والأذن طوال عمر البشرية في خطاب الذات للآخر– كما تتداول به الألسن، ويجد سبيله إلى الانتشار والتمدّد والانفلاش من خلال الكلمة المنطوقة، ويمكن تمريره بأسلوب سلس وشيق وممتع؛ ما يجعله قادراً على زلزلة الرأي العام، وهزّه بقسوة، تمهيداً لإعادة إنتاجه وصناعته وبلورته من جديد. والجدير بنظر الاعتبار، أنّ الشائعة تكيفت مع مقتضيات العصر وضروراته(126)؛ فانتقلت في بعض ترجماتها وتمثلاتها من معاني المجتمع المصغر كالأسرة، والحيّ، والجماعة... إلى مجال الإعلام وفضائه، ما منحها والحال هذه، قيمة مضافة، وجعلها تكتسب بعداً جماهيرياً. فمع تطوّر تكنولوجيا الاتصال، وظهور الإذاعة والتلفزيون والانترنت، حصل نوع من التماهي بين عمل هذه الأجهزة والمؤسّسات ذات البعد الجماهيري والفعل المجتمعي، أفادت منه الشائعة على نحو لافت. فاضطلعت المؤسّسات الإعلامية بعملية نقل الأخبار، على غرار المجتمع الذي كان ولايزال يقوم أفراده وجماعاته بعملية نقل الإشاعة ونشرها.

والشائعة خبر مجهول المصدر، غامض النشأة، قابل للتأويل والتفسير والتحوير والزيادة والنقصان...، مشكوك في صحته، يتعذر التحقق من أصله، يحتمل الصدق أو التصديق، بل يصعب مقاومة تصديقه، على الرغم من أنّه لا يحمل بين طيّاته عنوان صحته ودليلها، فليس من برهان عليه سوى أنّ به من الوقائع والمعطيات ما يجعل الناس يتردّدون إزاءه ويكتفون بتناقله، لاسيما إنْ كان ثمة أحداث تحاط بالسرية والتكتم، وأمور تثير الشكّ والفضول والارتياب. وهو يتصل ويتعالق بموضوعات وأطروحات ومقولات تحظى بأهمية بالغة لدى الفئة المستهدفة به، من هنا خطره وإلحاحه، حيث تفضي عملية التصديق به أو عملية نشره في الغالب إلى تزييف الوعي وبرمجته وتضليله، لما ينطوي عليه من محتوى مروّع هدّام، كما إلى إضعاف الروح المعنوية والإرادة والمبادرة والطليعية.

أمّا الشائعة كما تسالم عليها علم النفس؛ فهي عبارة عن تنفيس للمشاعر المكبوتة، وعن تفريج للضغوطات النفسية والانفعالية التي يرزح الفرد تحت وطأتها، حيث يجد الأخير فيها ما ليس

موجوداً في غيرها. وهي إذ تخرج كما يحرص مروّجها على تقديمها- بصورة برّاقة وغاية في الجاذبية والتأثير؛ فإنّها تنجح دوماً في بثّ سمومها، وفي العبث بعقول شاغليها ومشاعرهم.

ومن منظور علم الاجتماع، يُرى إلى الشائعة بوصفها مجالاً مغلقاً للتعبير والإفصاح وإبداء الرأي، حيث يصار إلى التركيز على محاولة فهم خطابها، كما خلفيات دوافعها ومنطلقاتها، وطبيعة عملها واشتغالها وانتشارها داخل المجتمع بتلك السرعة القياسية الملحوظة؛ فقد تكشّفت الدراسات والمباحث ذات الصلة بسوسيولوجية الشائعة، عن حقيقة أنّ الدوائر والأوساط المغلقة، نحو: الجيش والقضاء والشرطة... تعاني جميعها– وفقاً لإدغار موران- من حساسية مفرطة حيال الشائعات التي يعكف أفراد المجتمع على إنتاجها بدأب واستمرار.

وعلى تفارق واختلاف في المقاربات المتعدّدة لموضوعة الشائعة كما صير إلى معاينتها في المجالات والميادين العلمية ذات الصلة؛ فقد حظيت بعناية العلماء والباحثين والمختصين: رأى إليها محمد عبد القادر حاتم فعلَ تأثير وهيمنة، بوصفها «فكرة خاصة يعمل مطلقها على أن يؤمن بها الناس، كما يعمل على أن ينقلها كلّ شخص إلى الآخر حتى تذيع بين الجماهير جميعها». وعرفها جان مازونوف في كتابه (علم النفس الاجتماعي)، بأنّها «ضغط اجتماعي مجهول المصدر، يكتنفه عموماً الغموض والإبهام، ويحظى عادة باهتمام قطاعات عريضة من المجتمع». وأشار إليها أحمد علي بوصفها قولاً أو كلاماً أو رأياً «يقدم عن طريق الكلمة الشفهية أو المسموعة أو المكتوبة، لكي يصدق دون أن يرفق ذلك بأي دليل أو برهان». في حين رأى إليها كلّ من البورت وبوستمان في كتابهما (سيكولوجية الشائعة)، اصطلاحاً «يطلق على موضوع ما ذي أهمية، وينتقل من شخص إلى آخر من طريق الكلمة الشفوية، دون أن يتطلب ذلك البرهان والدليل».

وكان باسكال فرواسار قد أشار إلى لازمنية الشائعة، باعتبارها عملية تدأب على تحيين الماضي بشكل مستمرّ، فضلاً عن تعذر الإمساك بها بسبب من خاصيتها المجرّدة، كما بسبب من الالتباس الذي تثيره عندما نودّ إخضاعها للتنظير.

أمّا الشائعة عند شارلز أتندال؛ فتستخدم «كستار لإخفاء حقيقة معينة، وتكوين صورة بعيدة كل البعد عن الواقع». ما يجعلها تحتفل بقائمة طويلة من الأهداف؛ نحو: وضع العدو في حالة نفسية شديدة الدرك والانحدار. التأثير على نمط العلاقات والإضرار بها. تعكير صفو الأجواء والمناخات العامة إلى درجة مخيفة. السيطرة على قدرات العدو للنيل منه بالضربة القاضية وفي اللحظة الحاسمة. وقد غالى بعض الباحثين في توصيفها فقيل في شأنها وفي فضيلتها؛ إنّها أفضل أسلوب مدمّر استخدم في الحروب، بما هي سلاح فتاك وفعّال من أسلحة الحرب النفسية. فلماذا- والحال هذه- نخضع الأعداء بالوسائل الحربية مادام بوسعنا إخضاعهم بوسائل أبسط وأجدى؟.

تعدّ الشائعة، وفق ما تتكشّف عنه المعاجم اللغوية والأدبيات والمرجعيات ذات الصلة، أقدم وسيلة إعلام، وأشدّها فتكاً ودهاء. إذ طالما شكلت- بوصفها نوعاً من أنواع التواصل والتفاعل بين الناس- الصوت الذي يلج الفضاء المجتمعي، ويعبر أجواءه بسرعة مثيرة، وفائقة، وعلى نحو يستدعي الحيرة والإدهاش. كما تعدّ الشائعة وسيلة رئيسة وفاعلة من وسائل الضغط التي تتوسّلها عادة الجيوش، كمقدمة تسبق مرحلة إعلان ونشوب الحرب، إذ يرى إليها طرفا القتال والنزاع خير وسيط لتثبيط عزائم الخصم، ودفعه إلى الإحباط، وتقييد حركته، وشلّ قدرته على التفكير، ومحاصرته ليصبح عاجزاً عن الفعل، وفي حالة خضوع واستلاب تام. وتتكشّف خطورتها- على

نحو بائن- بلحاظ ممارستها لسطوتها وتأثيرها على الأفراد المدنيين والعسكريين دونما تمييز، بوصفها تبعث في النفس والروح دفعاً جديداً يحدّد نشاط الأفراد سلباً أو إيجاباً، نمواً صاعداً أو ضموراً. وإن كانت تجد ضالتها في ضعاف النفوس والقلوب والأعصاب بوصفهم تربة خصبة، وأرضاً صالحة للاستخدام. كما تتكشّف خطورة الشائعة باعتبار قدرتها على التدخل المباشر في توجيه سياسيات الدول، وفي النيل من المؤسّسات على اختلافها، وفي التعرّض للنظم الحاكمة، وللقيم المرجعية السائدة.

وفي سياق متصل، تتعمّد الشائعة ترويج وبثّ الأخبار التي تشيع الرعب والهلع والخوف في نفوس المقاتلين من الخصوم والأعداء، وتزرع فيهم حالة الوهن والضعف والتشاؤم والسوداوية والارتكاس والإحباط. كما تتأدّى إلى تثبيط العزائم والهمم والإرادات، للحيلولة دون تمكين العدو من تحقيق أهدافه، ومن تنفيذ مخططاته ومشاريعه، ومن تفعيل قدراته وإمكاناته وأسباب القوة لديه.

وثمّة نوع من الشائعات، يستبطن المبالغة في تشرير العدو وتجريمه وشيطنته وتأثيمه؛ كأن يشار- في نوع من الغلو- إلى وحشيته وبربريته، في محاولة لتأليب الرأي العام، والتحريض عليه، والإساءة إلى مكانته وسمعته وموقعه الحضاري. لكنّ الأمر قد يكون له نتائج عكسية، بل وكارثية، إذا ما تجاوزت الشائعة حدود العتبة التي تسقف تمدّدها وتفاعلها وانتشارها، بحيث يُلقى الرعب والخوف في نفوس وقلوب جمهرة مقاتلي الجهة التي أساءت توظيف الشائعة.

والشائعة من طبيعة مراوغة، مخاتلة، مخادعة، تجيد العبث بعقول الأفراد والجماعات، فتقع والحال على آذان صاغية، وتجد ميلاً قوياً لقبولها كحقيقة ثابتة لا يأتيها الباطل، على الرغم من أنّها قد لا تنطوي على دليل يدلّ على صحتها، أو يشير إلى صدق مزاعمها، وعلى الرغم من تبدّل رواياتها، وتغيّر تفاصيلها من فرد لآخر، كما صدورها من خلفيات شخصية؛ مصلحية ونفعية وغرضية. وغالبا ما تكون ذات أبعاد ظرفية وآنية تأتي لخدمة فريق، أو طبقة، أو فئة، أو جهة، أو شريحة معينة(127). إلا أنّ الأخطر والأدهى في ممارسة الشائعة لسطوتها ولفعاليتها وتأثيرها؛ هو تكرار تواترها ونقلها من غير لسان، ومن غير جماعة، لتتحوّل إلى مادة لمصادر متعدّدة تقول وتردّد المقولات ذاتها، وتؤشّر إلى الدلالة نفسها وكذلك إلى المعنى. ذلك أنّ الشائعة بطبيعتها تعتمد في انتشارها وتشظيها على عملية الإيحاء النفسي الذي يضرب مناعة مستقبِل الشائعة، ويكبح مقاومته لها، ويسهّل عليه مأمورية تصديقها وإذاعتها وتحريرها ونشرها، وأنّ ثمّة نوعاً رئيساً من الإيحاء هو ما يمكن الاصطلاح عليه بـ«إيحاء الأغلبية»، حيث أنّ كلّ فرد يميل إلى تصديق ما تجمع عليه أغلبية أفراد مجتمعه. وقد دلت مباحث كثيرة على مبلغ هذا النوع من الإيحاء في تفعيل عمل الشائعة، كما في تسريع عجلة شياعها وتوزعها وانفلاشها.

إنّ هذه الطبيعة الزئبقية المخاتلة للشائعة، جعلت من منطقها منطق الشكّ والارتياب المفعم بمنطق النسبية، وجعلت من فعلها وحضورها وأثرها متجاوزاً- بما لا يقاس- ما قد يقال في توصيفها وتقديمها، وذلك بلحاظ قدرتها على الإستفزاز، وعلى إخراج المتلقي من حياديته وهدوئه، والأخذ بيده إلى فعل التأويل الذي يبقى أداتها الفاعلة والحيوية، وتبقى هي مملكته الرحبة، المترامية الأطراف. وكي لا يترك الأمر على عواهنه، وضع الباحثون- من ذوي الخبرة والاختصاص- لعملية التأويل ثلاث عتبات حاكمة، تضبط له إيقاعه وفصوله: التحرير وهي عملية تلخيص قصة الشائعة، تليها مرحلة تذويب القصة جماعياً، وتحويلها من طرف المساهمة الفردية في بناء قصة

الشائعة. ثم أخيراً، هناك الشكل النهائي الذي تأخذه الشائعة كقصة تتناقلها وتردّدها الألسن داخل المجتمع.

تتكشّف عملية التفكير في دلالات الشائعة، كما في حمولاتها السوسيولوجيا والسيكولوجيا، وفي أبعاد عملها وكيفية توضّعها واشتغالها داخل مجتمع ما(128)، لا عن ترف تنظيري وذهني، ولا عن عبث مجاني لاه؛ وإنّما عن حلولها بديلاً تعويضياً من غياب وتغييب الحقيقة الرسمية(129). فالشائعة تجد سبيلها إلى التشظي والانفلاش والتمدّد والانتشار، عندما تتوقف المرجعيات والمؤسّسات ذات الصلة بتقديم الخبر اليقين، وبتعرية المقولات والمزاعم المغلوطة والمغرضة(130)؛ نحو: القضاء والإعلام ومجالات الفكر والنقد والإرشاد والتوجيه... عن ممارسة مهامها الحقيقية والفعلية. إذ ينبغي للجهات المعنية أن تبادر إلى مصاداة الأفكار والمقولات والأطروحات الزائفة، وإلى إعمال معاول التشريح والنقد فيها دون تلكؤ، أو تواطؤ، أو استخفاف «فالخبر الكاذب» على حدّ تعبير مارك بلوخ «ينشأ عن التمثلات الجمعية التي تتأسّس قبل ولادة هذا الخبر. إنّه مرآة يكون فيها الوعي الجمعي، لايزال يتأمل في علاقاته الخاصة». ولعلّ ذلك يبرّر ويشرح كيف أنّ الشائعات تظهر وتتكاثر وتتناسل في أوقات الحروب والكوارث والأزمات والنكسات والمصائب أكثر من توالدها في أوقات السلم والاستقرار والهدوء(131). كما يبرّر كيف أنّ الشعوب والمجتمعات الأكثر تقبلاً وتأثراً بالشائعة، هي تلك التي تخضع لمهيمنات إيديولوجية منحصرة بالوثوق بكلّ ما هو أسطوري وميتافيزيقي ولاعقلاني، على نحو الإيمان بالخطاب والفكر المغرق بالغيبيات والتكهنات، التي لا تعير بالاً أو تولي اهتماماً أكيداً وراسخاً بما هو منطقي وعلمي وعقلي.

فلا شكّ، أنّ من العوامل التي تزيد من مناعة جمهرة المتلقين في وجه صنوف الحرب النفسية، ومن حصانتهم، كما تصلّب كوابح مقاومتهم للشائعات؛ هي الوقوف بهم على صحة الأخبار والأنباء والمعلومات في حينه، دونما مواربة، أو مخاتلة، أو تسويف وتأخير، وعدم ترك مجريات الوقائع والأمور ضبابية، غامضة، غير واضحة ومحدّدة في أذهانهم. وذلك كي تتولّد الثقة لديهم بما ينبغي الوثوق به، وكي لا يجد العدو- بسبب من جهل المتلقين بالحقائق- كوّة بمقدوره النفاذ منها متوسّلاً الأساليب المختلفة.

غير أنّ الأمر ليس على إطلاقه، إذ إنّ كثيراً من الأخبار تُعدّ عملية إذاعتها ونشرها إفشاء لإسرار من المحظور إفشائها، حيث يتلهّف العدو لفضّها، وكشفها، وتشفيف مغاليقها، وهتك حجبها، والوقوف على ما تنطوي عليه من معلومات. ولهذا تستوجب المكاشفة والنشر؛ محاذرة التسبّب بما من شأنه الإضرار بالمصالح الحيوية والأمن الاجتماعي والقومي، ومجانبة تقديم خدمة مجانية للعدو. ذلك أنّ العدو قد يلجأ- في كثير من الأحيان- إلى إذاعة أخبار كاذبة، ملفقة ومهولة، تتسبّب في تثبيط العزائم، وفي انخفاض الروح المعنوية، كما في إثارة مشاعر الارتياب والشكّ والضياع، بعد أن يضمّن هذه الأخبار جزءاً بسيطاً من الحقيقة، كي تحظى بثقة المتلقين، وتنال الموافقة والتصديق. ما قد يتأدّى إلى انزلاق ذوي القرار إلى شراك محكم، وإلى وقوعهم في فخ نُصب وأعدّ بعناية بالغة. فرغبة منهم في استنهاض جديد للروح المعنوية، يعكفون على ذكر حقائق وتقديم معلومات، في محاولة لتحسين موقفهم أمام جمهورهم، الأمر الذي يترجم فائدة يحصل عليها العدو، محققاً بذلك هدفه في معرفة أخبار غاية في الصحة والحقيقة، لم يكن ليحلم بالاستحواذ عليها من خلال الطرائق والأساليب المعهودة.

أصناف الشائعة

ثمّة أصناف ثلاثة رئيسة تتنازع الشائعة وفقاً لتصنيفات علماء النفس، وتتوزّعها باعتبار الموضوع والحمولات المضمونية، وباعتبار الجهة المستهدفة منها، وبلحاظ الغايات المرجوّة والمنشودة:

أ ـ شائعة الخوف: هي الشائعة التي تستهدف جمهرة الخصوم والأعداء، زارعة بذور الخوف والقلق والهلع في نفوسهم وقلوبهم، مثيرة هواجسهم، مثبّطة عزائمهم، ممعنة في كيّ وعيهم، وفي استلاب إرادتهم وارتهانها، وبالتالي تحقيق ارتداعهم عن التفكير وعن المبادرة والفعل للإضرار بالجهةـ مطلقة الشائعة، وتمكين الأخيرة من فرض إرادتها السياسية عليهم.

قد تلقي شائعة الخوف بجمهور الخصوم والأعداء في أتون من الحيرة والتيه والضياع، يتخبطون، ويتأرجحون بين الأمل واليأس. هم يتشاوفون- ابتداء- ويعتدّون بأنفسهم، ويثقون بقوتهم واقتدارهم، في محاولة لتحصينهم ذاتهم الجمعية ولتعزيز المناعة الداخلية لديها؛ لكنهم سرعان ما تأخذهم الوساوس والظنون، فيتخيّلون القوة الهائلة للطرف الآخر التي توحي بها انتصاراته وفتوحه، والتي يصار إلى تضخيمها على نحو مهول، فيقعون في شرك الخوف من المجهول، والمجهول هنا يتمثل بمصيرهم فيما لو عاكستهم الأقدار، وكان النصر من نصيب عدوهم.

وقد توجّه شائعة الخوف إلى الداخل(132)- أي إلى جمهور مطلق الشائعة ومنظمها-لغرض تجديد العصبية الجامعة، وتزخيم اندفاعتها، واستبقائها حية يقظة؛ ما من شأنه أن يصلب الإرادات، ويشحذ الهمم، ويستثير الحمية، ويضخّ الحماس في النفوس، ويمتن الوحدة الوطنية، ويعمّق أواصرها، ويؤمن الالتفاف الشعبي حول السلطة الحاكمة، ويدفع بالتالي إلى تبني خياراتها وسياساتها، وما تصدره من قرارات. ولكن ينصح هنا بالتنبه والمحاذرة، لأن الإفراط في عرض الشائعة على هذا النحو، كما في كيفية استعمالها؛ قد يفضي إلى نتائج غير حميدة، ومن طبيعة مفارقة. كالحال التي آل اليها «المستوطنون» اليهود في شمال الكيان الإسرائيلي الغاصب لفلسطين، والتي امتدت منهم إلى عموم اليهود في سائر فلسطين المحتلة؛ فأصيبوا جميعاً بفوبيا حزب الله. وذلك بعد أن ألحّ القادة الصهاينة في غير مناسبة واستحقاق انتخابي وسياسي، وفي غير واقعة تنازعتها بينهم الخيارات والمواقف، على الإفراط في تعظيم خطر حزب الله، وفي تضخيم قوته، كما المبالغة في تشريره وتجريمه، حتى غدا «الفزاعة» أو البعبع الذي يُخيّل لواحدهم، أو يتراءى في المخيال الجمعي لمجموعهم فيولّون الدبر. وقد استفاق القادة الصهاينة إلى هذه الحقيقة، ولكن متأخرين.

ب- شائعة الأمل: هي الشائعة التي تستهدف جمهرة المناصرين والمؤيدين والأحلاف؛ تعزّز الثقة بالنفس وبالإمكانات والقدرات، تصلّب المواقف والإرادات، تستنهض العزائم، وتبعث التفاؤل والأمل والرجاء بالنصر المرتقب.

وفي قبالة ذلك، تستهدف شائعات الأمل- التي يصدف فيها الفرد ما يتفق مع أماله وأمانيه من أخبار كاذبة، فيبادر إلى تصديقها- جمهرة مواطني الخصوم والأعداء، حيث تستبطن إشعارهم بالرضى، وإشباع حاجتهم إلى الأمن والحرية؛ كشائعة التحرّر التي روّجت لها الآلة الإعلامية الأميركية قبل بدء غزو العراق(133). أو تستبطن إشعارهم بإشباع الحاجة إلى توكيد الذات، وتثبيت علوها

واقتدارها وقوتها ومكنتها وثقتها بنفسها، على النحو الذي نقع عليه في ما أشاعته وزارة الدعاية الألمانية في العام 1941 خلال الحرب العالمية الثانية، بعد جهود ومحاولات مضنية ودؤوبة بذلتها القوات البريطانية لتدمير محطة السكة الحديدية في برلين بوصفها مركزاً حيوياً للمواصلات، ذلك أنّ تدمير هذه الأخيرة والإضرار بها من شأنه إشاعة الفوضى والبلبلة والاضطراب. إلا أنّ نصيب جميع تلك المحاولات كان الفشل والخيبة. وفي التفاصيل، سارع الألمان إلى استثمار الرغبة البريطانية؛ فبثوا شائعات ذات صلة، ونشروا أخباراً وتقارير غير مؤكدة، توحي بنجاح القوات البريطانية في استهداف المحطة المذكورة وتدميرها تدميراً كلياً. الأمر الذي أتى أكله، واستدرجت بريطانيا إلى حيث لم تحتسب؛ فعندما تناهت هذه الأخبار إلى مسامع ذوي القرار فيها، صير إلى تصديقها، وإلى اعتبارها تثبيتاً لقدراتهم ولتفوقهم، كما لنجاح محاولاتهم، فتبنوا الخبر دونما تمحيص، وأخذوا به على نحو جدّي، بل سوّقوا له باعتباره حقيقة دامغة، وأذاعوه عبر أثيرهم وفضائهم، ومن خلال الإذاعة الرسمية خاصتهم. وقد بلغ مبلغ امتصاص بريطانيا لهذا الخبر الكاذب وتلقفها له، أنّها أصبحت تردّده كنبأ صادر منها، وهو ما يحدث عادة في الشائعة، حيث يقبل عليها المتلقي، ويبدأ في ترديدها واستعادتها، وكأنّه هو مصدرها، ومانح مشروعيتها ومصداقيتها. فما كان من الألمان إلا أن وجّهوا دعوة لمراسلي الصحف الأجانب لزيارة المحطة التي ادعت الإذاعة البريطانية أنّها دُمّرت بالكامل، ولم تكن قد أصيبت بأيّ ضرر، في محاولة ذكية لبيان كذب الإذاعة البريطانية، ولكشف زيف إدعاءاتها أمام الرأي العام العالمي، ما أفقدها ثقة المستمعين، وأصاب جمهورها بالإحباط.

الجدير بنظر الاعتبار، أنّ انطراح مثل هذا النوع من الشائعات– شائعات الأمل- قد يتأدّى إلى نتائج عكسية، إذا ما صير إلى المبالغة في مقاربة الأمور، وفي التفاؤل على نحو غير منطقي وغير عقلاني، كما في رفع سقف التوقعات والآمال المنتظرة منها. لذا ينبغي التنبّه والحذر في كيفية استعمالها وتداولها لمجانبة الإفراط المؤدّي إلى الخيبة والصدمة والإحباط والتثبيط والانكفاء.

ج- شائعة الحقد: هي الشائعة التي تتوسّل تأليب الرأي والمزاج العام على الخصوم والأعداء. كما تتوسّل إثارة الحقد والتحريض عليهم، وإنتاج وعي عام مناوئ وباغض وكاره لهم، وتزييف هذا الوعي من طريق اختلاق الأكاذيب، والأضاليل، والفبركات، والتلفيقات المصطنعة. وفي سياق متصل، تعمل شائعة الحقد على إضعاف وإشغال جبهة الأعداء، وتفكيك وحدة ساحتهم الداخلية، وشرذمتهم، وتشتيت شملهم، وتجويف هويتهم الجامعة من طريق إثارة النعرات والنزاعات المناطقية والمذهبية والإيديولوجية...، وزرع بذور الفتنة والشقاق والفرقة والتنابذ والاحتراب والإقتتال.

الجدير بلحاظ الاعتبار ، أن الناس يميلون بطبائعهم إلى قبول الشائعة الوردية التي تولد لهم الشعور بالسعادة والغبطة، وتبعث إلى التفاؤل والأمل؛ كتلك التي تبشّر بقرب موعد النصر، أو تبشّر بقرب انتهاء الحرب. وذلك أكثر- بما لا يقاس- من تلك التي تتسبّب بتولد الشعور بالقلق أو الضيق أو الحزن أو القنوط واليأس، أو الخوف والرعب والهلع والفزع والتشاؤم والسوداوية. وهي بالضرورة شائعة غير محبّبة، لا يستمرئ الجمهور سماعها وتصديقها، بوصفها تبعث على التقزّز والنفور.

أنواع الشائعات

تتنوّع الشائعات وتتعدّد بتنوّع وتعدّد زوايا النظر إليها؛ فثمّة أنواع يؤتى بها باعتبار الدوافع، وثمّة أنواع أخرى تلحظ باعتبار معيارية الزمن، وثمّة أنواع يُنظر إليها بلحاظ الموضوع المطروق:

أولاً- من حيث الدوافع والمواقف المعبّرة: نقع، إذا ما قيّض النظر إلى الشائعة باعتبار الخلفيات الصادرة منها والمواقف المعبّرة عنها، على نوعين اثنين يتفارقان ويختلفان:

أ- الشائعات السوداء: هي شائعات ذات حمولات تشاؤمية ومضامين سوداوية قاتمة. تمتاز بسرعتها في الانتشار، وبقدرتها على التصويب والانفلاش والتشظي في غير اتجاه. أمّا الهدف الذي تتوسّله وتنشده وتسعى إليه؛ فهو إرباك العدو، وضعضعة صفوفه، وإصابته بالهلع و البلبلة والاضطراب.

ب- الشائعات البيضاء: هي شائعات ذات حمولات تفاؤلية تدعو إلى التفاؤل وتثبيت الثقة في النفوس وتقوية العزائم. أمّا الهدف الذي تتوسّله وتتوخاه؛ فهو دعوة إلى الاعتداد بالذات، وبثّ التفاؤل، ورفع الروح المعنوية، وتعزيز الثقة بالنفس، وتصليب العزائم والإرادات.

ثانياً – من حيث الزمن: يتوزّع الشائعة- إذا ما صير إلى ملاحظتها ومعاينتها باعتبار معيارية الزمن- أنواع ثلاثة:

أ- الشائعة الزاحفة (الحابية): هي الشائعة التي بالمقدور تمثلها بالزواحف، من حيث أنها لا تتعجّل الوصول إلى مقاصدها وأهدافها وأغراضها؛ بل تتخذ مساراً متمهّلاً، متبلداً، وتنتشر على نحو بطيء وهادئ.

ب- الشائعة العنيفة (الاندفاعية): هي خلاف سابقتها؛ أي هي الشائعة التي تحثّ خطاها، وتنتشر بسرعة هائلة، وتتعجّل الوصول إلى مقاصدها وأهدافها وأغراضها، دونما تريث أو تمهّل أو تأن. وتمتاز بقسوتها في تقديم الخبر وبثه ونشره. وأكثر ما نقع على تمثلاتها في أوقات الكوارث والحروب.

ج- الشائعة الغائصة (الغاطسة): هي الشائعة التي تمرّ بأطوار ومراحل متعدّدة تظهر، ثم تغيب سريعاً، ثم تعاود الظهور مرة أخرى إلى أن تستقر في وعي جمهرة المتلقين وأذهانهم، على نحو يصبحون فيه بالتالي حاضرين لتلقيها، وتلقفها، وللأخذ بها كما هي، كمسلمة، وكحقيقة ثابتة، لا نقاش في صحتها ومصداقيتها.

ثالثا - من حيث الموضوع: يتنازع الشائعة- إذا ما صير إلى معاينتها من زاوية الموضوع المطروق ومنظوره- أنواع عديدة، قد يكون من العسير ضبطها؛ نحو:

أ- الشائعة السياسية: هي الشائعة التي تعنى وتهتم بقضية من قضايا السياسة، أو بشأن من شؤونها.

ب- الشائعة الاقتصادية: هي الشائعة ذات الاهتمام بالشأن الاقتصادي.

ج- الشائعة العسكرية: هي الشائعة التي تقارب موضوعاً عسكرياً خالصاً؛ كأن تتناول أمراً يختص بجيش ما، أو بمركبات عقيدته، أو بأسلحته، أو بتجهيزاته، أو بخططه وبرامجه، أو بقياداته، أو بتدريباته، أو بتحركاته، أو بخارطة تموضعاته وانتشاره، أو بأساليبه وتكتيكاته القتالية...

والجدير بنظر الاعتبار، أنّ ثمّة شائعات لها من القوّة والتأثير بحيث أنّها تضاعف من الحالة الانفعالية الغرائزية اللاعقلانية للفرد(134)، مع لحاظ أنّ الانفعال من شأنه أن يُخرج الفرد من

سويّته وتعقله وهدوئه، وأن يفعّل حساسيته النفسية، وأن يفاقم من مأزمه الداخلي، وأن يقوده نحو ممارسات وتصرفات وسلوكيات غير موزونة، وغير مأمونة. فضلاً من أنّه يتأدّى إلى إحداث بلبلة واضطراب وتشوّش في الرأي العام. ولذلك يلحّ ناظم الشائعة ومطلقها على حسن تخيّر وانتقاء الوقت المناسب لسريانها وانسرابها وتمدّدها وانتشارها، ويحرص على إيجاد البيئة الملائمة لاحتضانها، كما لسيرورة عملها واشتغالها، على النحو الذي بالمقدور أن نقع عليه في أوقات الأزمات والاضطرابات والنزاعات والحروب، حين يُصاب الاتزان الانفعالي للفرد بالاختلال، وحين يأخذ به هذا الاختلال إلى فقدان القدرة على التمييز بين ما يُشاع ويُقال، لكي يتبيّن الحدود الفارقة بين الحقيقة وعدمها، بين المعقول وغير المعقول، حيث تختلط الأمور وتتداخل على نحو إشكالي معقد.

أهداف الشائعة

تحذو الشائعة من حيث الأهداف التي تتوسّلها حذو الدعاية، إذ يتنازع الجانبان الأهداف عينها؛ فهي كسابقتها تهدف- على سبيل المثال- إلى:

أ- تزييف الحقائق والوقائع والأحداث، وتحوير المعطيات والشواهد والأرقام، بما يخدم مصالح رجل الشائعة، أو الجهة المطلقة والمصنّعة.

ب- إضعاف ساحة العدو الداخلية، وتفكيك تحالفاته الخارجية، من خلال بثّ بذور الشقاق والفرقة والتنابذ، وإثارة الفتن والخلافات والنزاعات والعصبيات والقلاقل، والتحريض على الاقتتال والاحتراب والشغب، وشقّ الصفوف، والدعوة إلى الاصطفافات المتناحرة.

ج- إرباك العدو، وشلّ حركته ونشاطه، وتقييد حرية عمله، وإرغامه على إجراء تغييرات وتعديلات دائمة على خططه وبرامجه ومشاريعه. بما يؤدّي إلى استنفاد طاقاته وإمكاناته، وتشتيت انتباهه، وإضعاف قدراته على التركيز والتصويب والتهديف، والحؤول دون تفعيله لأسباب قوته وعناصرها.

د- تدمير روح العدو المعنوية، وكيّ وعيه، وكبح جماحه واندفاعته، وإلقاء الرعب في نفسه، والنيل من عزيمته وإرادته... بما يتأدّى إلى سقوطه داخلياً، كما إلى ارتهانه، واستلابه.

هـ- تقطيع أواصر العلاقة، وهدم جسور الثقة بين قيادة العدو وجمهوره، من طريق إثارة التشكيكات وصنوف الارتياب بالمستوى القيادي (نواياه، قدراته، أوليات اتخاذ القرار لديه...).

و- الإضرار بتحالفات واتفاقيات العدو الخارجية، والإساءة إلى مصداقيته ومكانته وسمعته على المسرح الإقليمي والدولي والعالمي. ويندرج في هذا السياق تحييد الدول والحكومات التي تقيم معه صداقات وتفاهمات وعلاقات وتحالفات إستراتيجية.

ز- حشو أدمغة المتلقين بالأفكار والمعلومات المراد استخدامها لمصلحة أهداف سياسية؛ كأن يصار إلى تعزيز الروح المعنوية، وشحذ همم وإرادات جمهور الجهة مطلقة الشائعة، أو يصار إلى تحضير الجبهة الداخلية وتهيئة المزاج العام، لغرض الدفع بالناس إلى قبول القرارات المتخذة وتبنّيها(135)، لاسيما منها ذات الصلة بموضوعة الحرب، أو ما يماثلها من قرارات مصيرية،

ولغرض تبرير المواقف والسياسات، وتزيينها، حؤولاً دون اعتراض الناس، أو رفضهم للأفكار والمفاهيم المروّجة على غير صعيد.

عناصر الشائعة

يذهب الخبراء والعارفون من ذوي الاختصاص إلى أنّ انتشار الشائعة، لا بدّ له كي يكلل بالنجاح ويؤتي أكله على نحو موجب، أن يتوافر على قيدين لازمين هما: الأهمية(136) والغموض(137). وهذان الأخيران من الضرورة والإلحاح، بحيث أنّه لا يستقيم دون تحققهما سريان الشائعة في المجتمع، كما تغلغلها وانتشارها. فقوّة الدفع التي تمنح الشائعة فيضاً في القدرة على الانفلاش والتشظي والتوزّع والتمدّد، ومرونة في التموضع والتكيف، وهامشاً واسعاً من حرية العمل والحركة؛ لا تتأتى من ناتج جمع الأهمية والغموض، وإنّما تتأتى من حاصل ضرب الأهمية بالغموض: الأهمية × الغموض. ما يعني أنّ الغموض وحده غير كاف لنشر الشائعات، ما لم يكن مصحوباً بأهمية الخبر ذي الصلة بالشائعة.

والحال هذه، فإنّ الغموض والأهمية يشكلان- على نحو من الجدل الديالكتيكي الخلاق- عنصري الشائعة الوجوديين، وقيديها الحيويين؛ فشدّة سريان الشائعة تقع في إسار معيارية غموضها وأهميتها، كما إنّ فرص انتشارها تتضاعف وتنمو، كلما كان هناك تناسق وانسجام وتماءٍ واتساق بين مضمونها، وبيئتها، والظروف الموضوعية المؤسّسة والمصاحبة التي تشكل حاضنتها.

ويتوضّع إلى جانب الغموض والأهمية كعناصر مؤسّسة ورئيسة للشائعة؛ حسن تخيّر وانتقاء زمن الخبر الذي تنطوي عليه الأخيرة، كما مقدار الوعي السياسي والثقافي لجمهرة المتلقين، ومدى استعداداتهم لقبول ما توفره من حمولات وإيحاءات مغرضة.

أواليات عمل الشائعة

كما الدعاية، لا تتأتى الشائعة من عدم أو من فراغ، ولا تصدر من فوضى، أو من لحظة ارتجال أو انفعال؛ وإنّما هي نتاج وخلاصة عمل منظم، وحاذق، ومتقن، وواع، وهادف، وموجّه ، وذي حمولات وإشعاعات دالة...، وعلى قدر كبير وعظيم من الأهمية، ومن الفعالية والتأثير، بحيث أنّها تحتاج- كي تكتب لها النجاة والحياة- إلى ميكانيزمات عمل، وتتطلب أواليات وقواعد اشتغال محدّدة؛ نحو:

أ- ينبغي للشائعة كي تأتي أكلها على نحو فاعل، أن تنطلق من واقع المجتمع الذي تبثّ فيه، ومن حيثية الانتظام العام الذي تعبث فيه، ومن خصوصية البيئة التي تشكل مسرح عملها ومساحة اشتغالها. كما ينبغي لها أن تأخذ عند بثها حاجات الأفراد بعين الاعتبار، وأن تقف على اهتماماتهم وحساسياتهم... وإلا ما كان لها أن تعمّر طويلاً، وأن تجد سبيلها إلى الحياة.

ب- تتسم الشائعة بطابع الغموض، وذلك لكونها لا تنتسب إلى مصدر محدّد. والغموض عنصر حيوي ووجودي لازم لها، بوصفه عنصراً مولداً للشكّ والارتياب، وهذا ملحّ لنجاح مقاصدها وأهدافها. فضلاً من أنّه يمنحها قوة دفع، ويساعد في سريانها وانتشارها وتثبتها، ويعطي الناس

حوافز لتقبلها، وتصديقها، والأخذ بحمولاتها ومضامينها. وتتأتى أهميته- أي الغموض- بسبب من أنّ الشائعات تتوالد وتتكاثر خلال الأزمات، كما في فترات الطوارئ، وعندما يستشعر الناس خطراً، ويرتابون في سلامة الوضع السياسي والوضع الأمني، حيث تفرض نفسها، وتمارس سطوتها وتأثيرها والناس في حالة من الترقب والحذر والاضطراب تحسباً وخوفاً من حدوث أمر ما. فإذا ما أطلت الشائعة برأسها لاقت قبولاً وترحيباً، لاسيما إذا كانت الأخيرة تمثل ذلك الموقف الغامض.

ج- تتنطف الشائعة وتتخلق وتتوالد من أصول مختلفة؛ قد تنتسب إلى خبر ليس من الصحة في شيء، فتكون محض أكاذيب وأضاليل وفبركات. وقد تنتسب الشائعة إلى خبر، هو ليس إلا نتاج تلفيقات ودبلجات فيها بعض الصحة.

د- تتسم الشائعة بالإيجاز والاختصار، والبعد من التعقيد والغرابة، وسهولة الحفظ والفهم والاستظهار؛ وذلك لتيسير عملية نشرها، وتعميمها، وتداولها، وتناقلها عبر الألسن.

هـ- لا تخرج الشائعة من وكرها إلا بصورة برّاقة، شديدة الجاذبية والتأثير والألق. ولا يستقيم لها ذلك إلا بعد تمامها، وبعد اكتمال عناصرها المؤسّسة، وبعد حبكة محكمة الصياغة والسبك والإثارة، وبعد تخيرٍ جيّد ومتقن للكلمات، وللمكان، وللزمان... كي يكون بمقدورها، أن تمارس تأثيرها وسطوتها وسيطرتها ونفوذها على الرأي العام.

و- لا تبقى الشائعة خلال مراحل تناقلها وتداولها وسريانها وانتشارها على حال واحدة، بل تتغيّر- أثناء حراكها- من حال إلى حال، بفعل تعرّضها لعملية تحوير، أو ما يصطلح عليه بالتطعيم، وهو من الأهمية والإلحاح بحيث يستفيد منه مروجو الشائعة، بوصفه يحقق لهم مآربهم ومقاصدهم وأغراضهم، ويخدم الهدف الذي من أجله تمّ إطلاق الشائعة وإخراجها إلى حيّز الوجود.

ز- تجانب الشائعة الصواب والحقيقة، وتعكف في قبالة ذلك على إطلاق الأكاذيب والأضاليل والفبركات والتلفيقات المصطنعة، أو بالأقل تتنكب بعض أنصاف الحقائق، ثم تقوم بإعادة تدويرها وإنتاجها بعد شحنها بالحمولات والإضافات الزائفة والخادعة والملفقة بحيث تبدو قابلة للتصديق، وتخدم الغاية المرجوّة منها.

ح- لا تحتاج الشائعة إلى وسائط اتصالية معقدة، وإلى أدوات تواصلية غاية في التطوّر، كي تتفاعل وتأخذ في الانتشار والتداول والتفشّي والسريان؛ إذ إنّها تجد سبيلها إلى ذلك من خلال الكلمة المنطوقة بين الأفراد.

سبل مقاومة الشائعة

ليس من الصحّة ومن السلامة في شيء الاستخفاف بالشائعة، والاستهانة بقدراتها على الفعل والتأثير؛ بل تقتضي السلامة أن يصار إلى مصاداتها ومواجهتها، حتى يُؤتى إلى تحجيمها، وانكماشها، وتقليص اندفاعتها، وتقليل خطرها، وذلك من خلال اعتماد وتوسّل جملة من السياسات والإجراءات والضوابط:

أ- محاربة الشائعة، وبيان خداعها، وزيفها، وتهافت مقولاتها، وفساد مقاصدها... من طريق إظهار الحقيقة، كما العمل على تثبيتها.

ب- العمل، وفق أسلوب منطقي يقوم على الحجة والدليل والبرهان، على إظهار الدوافع والخلفيات والأسباب المغرضة التي كانت وراء اختلاق الشائعة، وفضحها، وتعريتها، وكشفها أمام الرأي العام. وذلك حماية للعقل، وتحصيناً للذاكرة وللوعي الجمعي.

ج- تحاشي الاستجابات الانفعالية والعاطفية والبعيدة من التعقل؛ إذ ينبغي للمرء عدم تلقي الشائعة بانفعال وتوتر، أو باستخفاف وتهاون ولامسؤولية، بل العمل على معاينتها، وفحصها، ومناقشتها، وتحديد هويتها، والكشف عن مصادرها، والإبلاغ عنها، وتنبيه المواطنين وتحذيرهم منها، وتوضيح الدوافع والخلفيات... وما إلى ذلك من إجراءات تحدّ من فعاليتها وقدرتها على الانتشار.

د- يضطلع الإعلام- بأوجهه وأدواته وأجهزته المختلفة ووسائطه المتعدّدة- بدور كبير في تحجيم الشائعة، وتقليص أثرها، وتبهيت حضورها، ودحضها، وإبطال مفاعيلها. أو خلاف ذلك تضخيم الشائعة، وتكبيرها، والمبالغة في تصويرها وتظهيرها.

هـ- يعدّ عدم ترديد الشائعة وإذاعتها واستظهارها من الضوابط الفاعلة في القضاء عليها، وبالتالي دفنها في مهدها؛ فعدم ترويجها أو ترديدها من شأنه أن يصيب الشائعة بالشلل والعجز، وأن يحدّ من سريانها وانتشارها وانفلاشها، لتصبح عديمة الفعالية والتأثير.

و- العمل على تثقيف الناس والجماهير، وتوعيتهم، لعدم الأخذ بالأخبار على عواهنها دونما تدقيق أو تمحيص، ودونما إعمال لمعاول النقد في صحة مصادرها.

ز- تفعيل وسائط التواصل بين المستويات القيادية والقاعدة الجماهيرية، وإحكامها، وتوثيقها، بهدف تعزيز روابط الثقة والمصداقية.

ثالثاً - الضغوط الاقتصادية

هي نوع من أنواع الحروب التي تستهدف العدو، للنيل من إرادته وعزيمته ووعيه. تشنّ وتمارس بطرائق وأساليب متعدّدة؛ كالحصار الاقتصادي، والمقاطعة الاقتصادية، والعقوبات الاقتصادية(138)... والتي ما هي إلا مقدمات لفرض الإرادة السياسية. وتتمثّل في منع وصول الأطعمة، والأشربة، والحاجيات، والمواد الضرورية. كما تجميد إمكانيات البلد الإنتاجية، وتعطيل عجلة الحياة فيه، بما يؤدّي إلى الجوع والحرمان والبؤس والعوز...، وسوى ذلك من ظواهر من شأنها أن تخلق أزمات نفسية، وأن تفاقم من مشاعر الغضب، ومن النقمة المتزايدة.

وفي استحضار مصاديق هذا النوع من الحروب، نقع على الحال التي آل إليها الاتحاد السوفياتي بعد عقود من التسيّد على العالم، ومن التربّع في مصافي الدول العظمى؛ فلقد قادت الضغوط الاقتصادية، التي فرضت من قبل الولايات المتحدة الأميركية(139) والغرب الأوروبي على الاتحاد السوفياتي طوال عقد الثمانينيات من القرن العشرين، إلى «هزيمة شبه شاملة مُني بها الأخير على المستويات السياسية والاقتصادية والإيديولوجية والمعنوية دون أن تطلق قواته المسلحة ذات الإمكانات القتالية الهائلة طلقة واحدة في ساحة القتال»(140). وذلك بعد أن عكف الرئيس الأميركي جورج بوش الأب في ختام أعمال قمة موسكو- التي عقدت بينه وبين الرئيس الروسي ميخائيل غورباتشوف في التاسع والعشرين، وفي الثلاثين والحادي والثلاثين من شهر تموز من العام 1991، والتي صير فيها إلى التوقيع على معاهدة «ستارت»(141) للحدّ من الأسلحة الإستراتيجية- على ربط «تقديم مساعدات اقتصادية بموقف الاتحاد السوفياتي من الاستمرار في دعم كوبا، والتخلي عن جزر كوريل لليابان، ومنح دول البلطيق الثلاث الاستقلال، وتحويل الصناعات الحربية إلى الإنتاج المدني، فضلاً عن انضمام الاتحاد السوفياتي إلى الاقتصاد العالمي»(142).

كما تتجلى مصاديق هذا النوع من الحروب في الحصار المفروض على قطاع غزة في فلسطين منذ العام 2005؛ حيث يصار إلى قطع كل موارد الحياة وأسبابها عن ما يقارب المليون ونصف المليون فلسطيني، وإلى تجفيف مصادر معاشهم وسبل عيشهم الكريم، والى تقييد حريات تنقلهم وانتقالهم على نحو يجعل من القطاع سجناً كبيراً، وذلك لدفعهم الى الاستسلام للإرادة السياسية الإسرائيلية، والخضوع لمشيئتها ولرغباتها، ولفروض وإلزامات أجندة مصالحها ومستلزمات أمنها القومي.

وكانت الإدارة الأميركية برئاسة باراك أوباما- في رهانها على إمكانية احتواء صعود الإخوان المسلمين في أعقاب ما سُمّي بـ(الربيع العربي)، ووصولهم إلى تسلم مقاليد الحكم والسلطة في غير دولة- قد اتكأت على تفعيل روافع الضغط الاقتصادية. ذلك أنّ تجربة سديدة في ممارسة السلطة، وقدرة فعّالة في الحكم، تستدعيان بالضرورة الأخذ بالحسبان، علاقة المصالح الجيدة مع المتبرعين والمستثمرين الأميركيين والأوروبيين من الحكوميين والأفراد والمؤسّسات(143).

وقد تتخذ الضغوط الاقتصادية أشكالاً متعدّدة تتسم بالفاعلية والقدرة والتأثير، على نحو ما يُصطلح عليه بـ«جماعات الضغط». وهي جماعات تتنظم حول بعض المصالح الاقتصادية المشتركة بين

أعضائها، وتعرف باسم «جماعات المصالح الاقتصادية»(144). وفي هذا السياق يحضرنا تأثير جماعات الضغط الصهيونية في المجتمع الأميركي(145)، بلحاظ السياسات والأهداف، كما التوجّهات العامة، حيث تشير العديد من الوقائع إلى أن الطرف القوي في العلاقة الأميركية– الإسرائيلية، كان في أحايين كثيرة هو الطرف الإسرائيلي، على الرغم من توضّعه في هيكل القوى السياسية والاقتصادية العالمي بوصفه دولة تابعة للولايات المتحدة، بل إنّ إسرائيل لطالما حققت نجاحات باهرة باعتبار قدرتها على فرض آرائها ومصالحها، وإملاء شروطها، حتى لو تفارقت وتضادت مع آراء ومصالح راعيها الدولي والإقليمي– الولايات المتحدة الأميركية(146)؛ إذ تعدّ جماعات الضغط الصهيونية في المجتمع الأميركي من أنشط الجماعات الفاعلة سياسياً واجتماعياً؛ فعلى الرغم من ضآلة نسبة أصوات الناخبين اليهود، إلا أنّ تأثيرهم على الرأي العام الأميركي يتعدّى- بما لا يقاس- حقيقة نسبة أصواتهم الإنتخابية(147). وذلك بلحاظ القدرة على تنسيق مجهوداتهم وتنظيمها وتثميرها وتوجيهها من خلال العديد من الجمعيات والأطر والمنظمات الخاصة والعامة التي يفوق عديدها الخمس والسبعين منظمة مستقلة موالية لإسرائيل. كما بلحاظ القدرة على استخدام وتفعيل وسائل الدعاية والإعلام بذكاء شديد، وممارسة أساليب الإرهاب الفكري لكلّ من توسّل ولو موقفاً محايداً من قضية الصراع العربي- الإسرائيلي، حتى غدت معاداة إسرائيل تصرفاً لاأخلاقياً معيباً، ومظهراً لاحضارياً ولا ديموقراطياً، وموقفاً مقروناً بشعور المعاداة للسامية في أذهان معظم أفراد الشعب الأميركي. أما أكثر الجماعات اليهودية الأميركية نفوذاً وسطوة وتأثيراً؛ فهي: مؤتمر الرؤساء(148)، ولجنة الشؤون العامة الإسرائيلية– الأميركية والمعروفة بـ «الأيباك»(149).

رابعاً - المناورة السياسية

هي نوع من أنواع الحروب النفسية التي لا تكتمل فعاليتها، ولا يستقيم تأثيرها وسطوتها، إلا من خلال الارتباط الوثيق بسائر عناصر وعوامل هذا النوع من الحروب، تلك التي كنا قد ألمعنا إليها أعلاه، لاسيما منها الدعاية والشائعة. والمناورة السياسية هي في أوقات السلم أكثر ظهوراً وحضوراً وبروزاً، منها في أوقات الحرب والنزاع العسكري، حيث تتخذ مظاهر متعدّدة؛ نحو: التهديد المستمرّ بالحرب، فضلاً عن أساليب أخرى تعتمد على التلويح باستخدام القوّة.

يذكر في معرض الحديث عن ترجمات وتطبيقات هذا النوع من الحروب النفسية، كيف أنّ الإدارة الأميركية، إلى جانب أخذها بالإستراتيجية المباشرة التي تنطلق من مبدأ مواجهة القوى المعادية، بأسلوب الردع المباشر القائم على تفعيل استخدام القوّة العسكرية، أو على التلويح بها، لتحقيق هدف السياسة؛ قد توسلت حيال منطقة الشرق الأوسط، بالإستراتيجية غير المباشرة التي ترتكز على قلب ميزان القوى لمصلحتها، قبل الدخول في المعركة، من طريق المناورة السياسية الخارجية، لا بالقتال، وذلك لكسب الرأي العام العالمي إلى جانبها، كما لتوسيع هامش حرية العمل العسكري الذي تنوي القيام به، فضلاً عن إكسابه الشرعية والمقبولية والتأييد(150).

خامساً - الاغتيالات

تندرج الاغتيالات في إطار الحرب النفسية، باعتبارها وجهاً من وجوهها الفاعلة؛ سواء منها الاغتيالات ذات الطابع الأمني، أم تلك التي تعرف بالاغتيال السياسي.

- الاغتيالات الأمنية(151): تتمثل بتصفية كادرات العدو تصفية جسدية، وقتل رموزه، وقادته، والفاعلين من أفراده، من الذين يشغلون مواقع بالغة الحساسية، ويمثلون مفاصل هيكلياته التنظيمية والعسكرية والأمنية.

- الاغتيالات السياسية: تتمثل في إعمال القتل والاغتيال السياسي والرمزي والمعنوي في المستويات القيادية لدى الأعداء؛ التشهير بهم، إبراز فسادهم، وأوجه ضعفهم وقصورهم، وقلة حيلتهم، وانعدام كفاءتهم وخبرتهم، وسوء تدبيرهم، وعجزهم عن اتخاذ القرارات، وارتباطهم بأجندات خارجية غير ذات صلة بالمصالح الوطنية(152)... بما يتأدّى في نهاية المطاف إلى تبهيت حضورهم ونفوذهم، وفقدانهم ألقهم وهالتهم، وموتهم موتاً معنوياً بطيئاً.

ويشكل الاغتيال السياسي- المادي منه بخاصة- وسيلة للعنف السياسي بامتياز، ووسيلة للتخلص من الخصوم والأعداء بكيفية سريعة وخاطفة. وهو ذو دوافع وطرائق وأساليب متعدّدة ومتنوّعة، وفيه نقع على أنواع مختلفة: العفوي، المنظم، المرضي النفسي، الشرعي، المشروع، الفردي...، كما نقع على تنوّع في العقائد المسوّغة له، وفي الوسائل، وفي الجهات المنفذة، وفي الضحايا. وهو اليوم ينزع نحو الانطباع بطابع المجزرة. أما جانبه الأكثر رهبة وخطراً وإلحاحاً؛ فهو استواؤه على نحو يصبح فيه وسيلة لتغيير التاريخ، ما يجعل بعض المتحمسين له ينظرون إليه بوصفه آداة توجيه أو ضبط لتطوّر المجتمع. يقول جان- لوك ماريه مقارباً هذا الأمر: «يبدو أنّ الاغتيال السياسي ينطوي على مضاعفات أعمق حين يكون النظام الذي أصيب رمزه الرئيسي مركزياً، أو إمكانات إيجاد بديل عن رئيس الدولة ضئيلة، أو يعاني من أزمة، أو من عدم استقرار، أو من تغييرات اجتماعية أو سياسية سريعة. ومن المؤكد في هذا السياق، أنّ اغتيال هتلر كان له أن يغيّر مجرى الحرب»(153).

والاغتيال السياسي كتجلٍ من تجليات الحرب النفسية يسعى إلى إثارة مشاعر الخوف والهلع والاضطراب(154) في نفوس جمهرة الناس المتلقين «أقتل واحدا منهم؛ فترعب مئة» وفقاً لشعار الألوية الحمراء. كما يتأدّى إلى إضعاف العدو، والإضرار به من خلال تصفية كادراته الفاعلة، وضرب نخبه، واستهداف مواطنيه. ويتسم الأمر باليسر والسهولة في الديموقراطيات ذات الطابع التمثيلي، باعتبار أنّ الحياة السياسية فيها تتمثل وتتجسّد في بضعة رجال من الصف الأول.

ويوظف الاغتيال السياسي عادة- والمادي منه بنحو أخصّ- في خدمة أجندة المصالح لدى الجهة الناظمة والمدبّرة له؛ كالحال التي نقع عليها في تثمير الولايات المتحدة الأميركية ومن خلفها ما يسمّى بالمجتمع الدولي، لحادثة اغتيال رئيس الحكومة اللبنانية السابق رفيق الحريري، وربط مفاعيل ذلك بمحكمة دولية تنظر- ظاهراً- بجريمة الاغتيال، ويراد لها أن تكون أداة استهداف وقمع وابتزاز وترهيب وقصاص لكل من حزب الله وسوريا، ولمن يندرج في ركبهما من قوى الممانعة والمقاومة. فلا يملك قارئ مواد مشروع المحكمة التي استنها مجلس الأمن على عجل،

وشرّعها زمنياً بكيفية مفارقة، والتي أقرتها الحكومة اللبنانية في عجالة من أمرها أيضاً؛ إلا الخلوص إلى حصائل واستنتاجات مؤداها: أنّ دم الحريري وسواه ممن صير إلى اغتيالهم للغاية ذاتها، هو خارج مدار اهتمام الأطراف الدولية الفاعلة، وأنّ الهدف المنشود من استخدام المحكمة بموجب المواد التي تمّ تقنينها وتشريعها في نظامها، هو تحقيق مصالح محلية إقليمية ودولية. ذلك أنّ الارتباط الوثيق بين تواريخ الاغتيالات وبين حالة الاستعجال في إقرار المحكمة وفي إصدار الحكومة للقرارات المتعلقة بنظامها(155)؛ هو أمر مثير للحيرة والاستغراب ويؤشّر بالضرورة إلى حقيقة أنّ الدم اللبناني الذي سفك من قيادات قوى الرابع عشر من آذار(156) كان وسيلة صير إلى استخدامها واتخاذها مطية لاستعجال طلب إنشاء المحكمة أولاً، ثم توفير غطاء لعملية إقرار مشروع نظامها ثانياً.

سادساً - التسميم السياسي

هو من تمثلات الحرب النفسية؛ قوامه الإخلال بالتوازن النفسي والاتساق الفكري والعقلي لدى جمهرة الخصوم والأعداء. كما الإخلال بالتماسك الروحي والعاطفي، وتحطيم الإيمان بالعقيدة، وإحداث شرخ عميق في الخصال والمكوّنات الشخصية ومظاهر السلوك وأواليات التصوّر، وإعطاب الذاكرة الجمعية وإتلافها، وتعطيل الشعور والإحساس بالمسؤوليات الأخلاقية والوطنية والقومية.

سابعاً - تشجيع التمرد(157)

هو وجه من وجوه الحرب النفسية التي تخاض داخل كيان العدو؛ تتسبّب بإرباكه، وضعضعته، وإشغاله، وشرذمة وحدته، وتفكيك وتجويف جبهته الداخلية، حيث يصار إلى إحداث القلاقل والفتن، وإثارة الهلع، وافتعال الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحياتية، للتأثير على الرأي العام، وتحريضه، وتثويره، وتأليبه. كما يصار إلى تعميق الشعور العام بفقدان العدالة والمساواة والحريات والعيش الكريم، للتشكيك بسلامة النظام الداخلي القائم، وإرساء حالة من الترقب، والحذر، والاحتجاج، والتظاهر، والعصيان، والثورة، والتمرّد على الأمر الواقع(158)، وعلى الظروف والأوضاع السائدة. ويأتي دعم الحركات الانفصالية وتشجيعها، في طليعة مصاديق وترجمات هذا النوع من الحرب النفسية.

ثامناً - غسل الدماغ(159)

هو تجلٍ من تجليات الحرب النفسية، وتمظهر حادّ من تمظهراتها؛ يستهدف خلق شخصية جديدة، بخلاف ما كانت عليه سابقاً، من خلال إعادة تشكيل وصياغة معتقدات الشخص السياسية، على أن يكون ذلك استكمالاً لعملية إجباره ودفعه إلى إنكار المعتقدات التي كان يصدر منها، حيث يصار إلى تحقير أو تحطيم منظوماته الاعتقادية والمرجعية والقيمية الحاكمة، ثم إعادة تشكيل اتجاهاته، وبناء تصوّراته ومواقفه، وتشريبه معتقدات أخرى. وذلك من خلال استخدام متفاوت- بلحاظ الخصوصية- لكلّ من العقل، والعاطفة، والمنطق، والعقيدة، والاستمالة، والقهر...، وبأساليب متنوعة؛ نحو: السيطرة الكاملة، الضياع والشك، العزل، تثبيت الجرم، التعذيب العقلي والبدني والنفسي، التحقير الشخصي، الإنهاك الجسدي (كالنوم المتقطع، وإلزامه بنوع من الطعام)، وسوى ذلك من أساليب.

وكان الصحافي الأميركي ادوارد هنتر، أول من وفق إلى نحت مصطلح «غسل الدماغ»، وإلى جعله مصطلحاً مفهومياً فاعلاً في الميادين ذات الصلة. وذلك في معرض وصفه لظاهرة غريبة حصلت في أعقاب الحرب الكورية(160) في العام 1953. لاحظ هنتر أنّ عدداً كبيراً من الجنود الأميركيين الذين كانوا قد وقعوا في إسار المقاتلين الكوريين، قد عادوا إلى أوطانهم وديارهم بعد انتهاء الحرب، لكنهم رجعوا على غير حالهم التي كانوا عليها؛ أصبحوا على وجهة أخرى من التفكير، وضفة أخرى من الاعتقاد، وعلى نحو يؤمنون فيه بمبادئ أعدائهم: يبدون إعجابهم وافتتانهم، ويعربون عن امتنانهم وعن شكرهم من حسن معاملة الكوريين لهم. وقد صير إلى تعليل هذا التحوّل المنهجي والتبدّل الجذري بأفكار هؤلاء الأسرى وسلوكاتهم بسبب من تعرّضهم لعمليات ومؤثرات غسل الدماغ. ذلك أنّ الوقوع تحت تأثير ضغوط جسدية ونفسية مكثفة ولمدد زمنية متطاولة من الاستجواب والاستنطاق القاسي والمضني، من شأنه أن يجعل الدماغ من طبيعة رخوة، هشة، طيّعة، قابلة للإلتقاط والإيحاء، ومهيأة للتفاعل الإيجابي، ومن ثم قابلية الاستدارة والانعطاف إلى اتجاه مفارق. فالعوامل النفسية قد تصيب الدماغ بنوع من الاضطراب والبلبلة والانفعال والتشوّش والتوتر الداخلي، وقد تحدث فيه انزلاقات وتقعّرات حادّة بعد أن تتسبّب بإرهاقه وخدره، والإخلال بقدراته على التركيز، وإفقاده لتوازنه، وتعطيل كوابحه كما عناصر المنعة لديه، ليصبح بالمقدور زعزعة اتجاهاته وانطباعاته السابقة، واستنقاع أخرى محلها، من طريق تثمير واستغلال تلك الحالة الظرفية للدماغ التي يكون فيها مفككاً ومتشظياً ومهيئاً وحاضراً لقبول ما يُملى عليه من إيحاءات وإيماءات وتضمينات وفروض.

والجدير بنظر الاعتبار والاهتمام، أنّ ما شهده العصر الحديث من قفزات تطورية هائلة في تكنولوجيا المعلومات وميديا الاتصال ، كما في وسائل التأثير وتحوير الفكر والإقناع الخفي المتمثل بوسائط الإعلام، والإعلان، والدعاية (البروباغندا)، والحرب النفسية، وما شاكل ذلك من وسائط ومؤثرات؛ أفاد تقنية غسل الدماغ ووسّع من مساحات اشتغالها وعملها ومروحة تأثيراتها، فلم يعد الفرد وحده عرضة للوقوع في شراك هذه التقنية وفي حبائلها ومكائدها، بل إن المجتمعات بأسرها أصبحت من فرائسها وطرائدها، كما إنّ الرأي العام المحلي والعالمي أصبح يصنع وينتج على عينها، على نحو آثر فيه ذوو الخبرة والشأن عدم الخوض في الحديث عن رأي عام مستقلّ

وفاعل ومحايث، وعدم الإقرار بوجوديته وشرعيته ونبله، لأنّ هذا الأخير- وفق ما آلت إليه أموره واستقرّت عليه أحواله- ليس إلا صنيعة آلة الدعاية الماكرة التي تعيد تخليقه وإنتاجه في كل حين على هيئة أهدافها وطموحاتها ومشاريعها، وما تنشده من مصالح وأغراض. والحال هذه، أصبح اصطلاح غسل الدماغ عاماً وشاملاً يطوي في تضاعيفه كلّ وسيلة تقنية مخططة هادفة تسعى إلى تحوير الفكر والانطباعات، وإلى تشويش المفاهيم والقيم، وإلى تحويل السلوك البشري على خلاف إرادته، وسابق عاداته وتوسّلاته، وطرائق تفكيره ومعلوماته.

تاسعاً - استخدام الأقليات

يدرج في سياق الحرب النفسية، العمل على كسب الأقليات[161] على اختلاف صنوفها: العرقية، والطائفية، والدينية، والعشائرية... وتحريكها، والتهديد بها، والتلويح باستخدامها، أو استخدامها عند الضرورة والحاجة لابتزاز العدو، وإجباره على تقديم تنازلات سياسية، وإبقائها سيفاً مصلتا فوق رقبته لتقييد حركته، وشلّ قدراته وإمكاناته وموارده[162].

عاشراً - استخدام المنظمات

يعدّ استخدام المنظمات والجمعيات الأهلية والندوية التي يصار إلى إنشائها- داخل كيان العدو، أو داخل الجهة المستهدفة- بعناوين وهمية، أو تلك الرسمية التي يصار إلى تجنيدها مالياً أو فكرياً، وجهاً بارزاً من وجوه الحرب النفسية، بوصفها تشكل روافع ضغط داخلية، تحرّض الرأي العام، وتؤلبه على سلطة العدو، وتشكك في مشروعية هذه السلطة، وفي نزاهتها وعافيتها وسلامتها. كما تؤثر في المزاج الجمعي؛ فتحضره، وتجعله قابلاً للاستجابة، ولتلقي ما يراد تمريره وتثميره من شائعات، ومن أعمال دعائية مغرضة.

يذكر في هذا السياق، أنّ «وكالة التنمية الأميركية»، كما «مبادرة الشراكة الشرق- أوسطية»، ليسا سوى واجهة يعمل الأميركي من خلالها وتحت مظلتها، لتسويق هذا النوع من الحروب النفسية. وفي تبيين وتشفيف ذلك، نقف على ما كان مساعد وزير الخارجية الأميركية لشؤون الشرق الأدنى- السفير السابق في لبنان- جيفري فيلتمان؛ قد أقرّ به خلال مثوله أمام الكونغرس الأميركي في الثامن من شهر حزيران/ يونيو من العام 2010، حيث أدلى بشهادة كشف فيها أنّ الإدارة الأميركية صرفت في لبنان منذ العام 2006 ما يزيد على خمسمائة مليون دولار. وذلك لأجل الحدّ من صورة حزب الله الإيجابية لدى الشباب اللبناني، ولعدم تهيئة الظروف المساعدة التي تتيح لهذا الحزب أن يملأ الفراغ، أو أن يتعاظم وينمو ويقوى. فضلاً عن تقديمات وأعطيات أخرى وفرتها الولايات المتحدة على غير صعيد، وقد جاوز إجمالي مجموعها المليار دولار، وفقاً لإدعاء فيلتمان: كالمبالغ الضخمة (ستمائة مليون دولار) التي رصدتها الإدارة الاميركية بعنوان «مساعدت» لتفعيل عمل القوى الأمنية اللبنانية. وذلك في إطار السعي الدائم لاستبدال عقيدة الجيش اللبناني من خلال توفير أسلحة خفيفة وأعتدة لا تشكل خطراً على أمن اسرائيل، كما من خلال برامج تدريب وإعداد وتأهيل وتثقيف. وفي سياق مماثل تندرج هبة الخمسين مليون دولار التي قُدّمت لقوى الأمن الداخلي، والتي أفضت بالتالي إلى إدخال لبنان في إتفاقية أمنية(163) غير مشروعة، صير إلى توقعيها بين جيفري فيلتمان ومديرعام الأمن الداخلي أشرف ريفي.

وكانت الأموال الأميركية التي ألمع إليها جيفري فلتمان في اعترافاته، قد وجدت سبيلها إلى مجموعات شبابية، وأحزاب، وشخصيات، وأفراد، وأكاديميين، وكتاب، ومراسلين، ومراكز بحث ووسائل إعلام مكتوبة ومرئية ومسموعة وإلكترونية، وجمعيات ذات طابع تعاوني زراعي وصناعي، وشركات إحصاء، وأخرى إعلانية، وبلديات وجمعيات ومنظمات وأندية من مختلف المواقع عملت جميعها كمرتزقة في خدمة الأجندة الأميركية(164)، لتشويه الصورة المشرقة لحزب الله، ولإضعافه في بيئته، ولضرب صدقيته أمام الجمهور، ولنزعه من الذاكرة الجمعية ليس في لبنان وحسب، وإنما على طول المساحة العربية، للحؤول دونما استلهامه أنموذجاً يُحتذى من قبل الشعوب.

أحد عشر - الأعمال العسكرية الرادعة(165)

تعدّ الأعمال العسكرية الرادعة أحد المصاديق والترجمات والوجوه المختلفة للحرب النفسية، وهي تأتي تتمة واستكمالاً لصنوفها ولأشكال تمثلاتها الأخرى، بحيث يصار فيها إلى تفعيل استخدام القوة(166)، وتوظيف مفاعيل ذلك لتدمير الروح المعنوية، ولكيّ الوعي الجمعي، ولإلحاق الضرر النفسي بالخصوم والأعداء(167)... ما بالمقدور تمثله على نحو بيّن في الاستهداف الوحشي للمدنيين اللبنانيين العزّل خلال العدوان الإسرائيلي في تموز- آب من العام 2006، وفق ما ذهب إليه غير باحث غربي وعربي «أما سوء التمييز في الضربات الجوية» يقول سامي مكي «فكان نتيجة قرار مقصود به ردع أي شكل من أشكال المساعدة لحزب الله بإرهاب السكان المدنيين وبإجبارهم على الهروب من منازلهم»(168).

وفي سياق متصل، يقول بنيامين لامبث «كانت إستراتيجية استخدام العنف المفرط ضد المدنيين اللبنانيين» على النحو الذي تمثلته الحكومة الإسرائيلية خلال عدوانها على لبنان في صيف العام 2006 وسيلة «لحمل اللبنانيين على الانقلاب ضد حزب الله»(169).

ونقع على ترجمات وتجليات الأعمال العسكرية الرادعة كما تتوسّلها الجيوش والمنظمات في غير مظهر وطريقة وأسلوب؛ نحو: شنّ العمليات خلف خطوط العدو كما في عمقه الحيوي(170)، الغارات الجوية، الاستخدام المفرط للقوة(171)، ارتكاب مجازر جماعية، العمليات الاستنزافية، استخدام أسلحة جديدة، عراضات القوّة، تحريك الأساطيل والبارجات والمقاتلات(172)، إجراء المناورات الحربية بالقرب من الحدود(173)، تهديدات القادة وتصريحاتهم الدائمة بالحرب والتوعّد بالاقتصاص(174)، صفقات الأسلحة(175) الكشف عن اختراعات عسكرية(176)، إعلان التعبئة الجزئية أو العامة...

أثنا عشر - حرب المصطلحات(177)

تعدّ حرب المصطلحات استكمالاً وامتداداً للحروب النفسية المتنوّعة على اختلاف تمظهراتها وتشكيلاتها وتأطيراتها، بوصفها تضطلع بدور بالغ الخطورة في ترسيخ المفاهيم والقيم، وتزييف الوعي، كما في رسم السياسات، وافتعال الأزمات والحروب؛ فبمقدور مصطلح واحد بما ينطوي عليه من حمولات، أن يخلف مفاعيل وتداعيات وآثاراً قد تودي بالصنف البشري إلى الاقتتال والتنازع والاحتراب، كما إلى نشوب حروب دولية وكونية، والى صراعات حضارية. والحال، فإنّ توسّل سياسة التلاعب الاصطلاحي من شأنه الإسهام في تغييب الحقيقة، وخلق مساحات من الغموض تمكن مطلق هذا النوع من الحروب، من تمرير مقاصده، ومن تحقيق أغراضه وأهدافه(178).

وثمّة وجوه أخرى للحرب النفسية؛ كالعمل في المجال الدبلوماسي(179)، استصدار وصياغة القوانين(180)، أعمال التجسّس والاستخبار وتجنيد العملاء(181)، التزوير، التنصت(182)، تعطيل وسائل الاتصالات من قبيل ضربها، أو أعمال القرصنة والتشويش عليها(183)... وسوى ذلك من وجوه ليس بالمقدور حصرها، أو ضبطها، أو تقنينها(184).

أشكال الحرب النفسية

تخضع الحرب النفسية- وفق ما ذهب إليه عدد من الباحثين والمختصين– إلى تصنيفات عديدة ، أبرزها:

1- الحرب النفسية التعبوية - الاستنهاضية

هي الحرب النفسية التي تستهدف جمهور الجهة المطلقة لهذه الحرب؛ حيث تتوسّل رفع وتعزيز روحهم المعنوية والقتالية، وشحذ الهمم والعزائم والإرادات، وإشعارهم بالنصر، والتفوّق، والغلبة، والاقتدار، والتمكين. كما تتوسّل تحشيد الطاقات والإمكانات والموارد والقدرات، وشدّ العصب الجمعي، وتحصين الساحة الداخلية، ومواجهة ألوان الدعاية المعادية.

يعكف هذا النوع من الحروب على الأخذ بالمؤثرات النفسية التي من شأنها تفعيل قدرة مجتمع ما، وتنشيط عزيمته على شنّ الحرب، وكسبها، وتحقيق الانتصار البيّن فيها، بوصفها تؤثر بالغ التأثير في الجانب الرمزي والمعنوي، وتستهدف الإعلاء من الذات وزيادة الإحساس بها، وتعزيز الثقة بقدراتها، ونمو الشعور بالفخار والمكنة والاقتدار، كما الحماس والحافزية والدافعية، والاستمرار الدائب في العمل نحو تحقيق الأهداف والغايات المرجوّة. ومثّل ذلك الإحساس بالسعادة والاغتباط والرضا والفرح والمرح، وتدعيم دور الفرد، وتنمية روح الولاء والانتماء للجماعة، وتعزيز الثقة بها، والإخلاص لها، والاستعداد للجهاد والتضحية والبذل والعطاء في سبيل أهدافها العامة الكبرى، وعلى نحو يساعد في زيادة تماسكها، وتضامنها، وتكافلها، وتمتين أواصر الوحدة بين مكوناتها.

2- الحرب المثبطة للمعنويات

هي الحرب النفسية التي تستهدف بأدواتها السكان المدنيين من جمهور العدو، كما مقاتليه ومحاربيه وجنوده؛ تتوجّه إليهم لضمان الحصول على تعاونهم الجادّ والوثيق(185). ولقد أشارت غير دراسة مختصة إلى العوامل ذات الصلة التي تساعد هذا الصنف من الحروب على بلوغ أهدافه ومقاصده:

أ- الاندحارات العسكرية: تتمثل في الانهيارات الدراماتيكية السريعة لجيوش الأعداء، وإصابة صفوفهم بالتصدّع والتحلل، وما يصاحب ذلك من هزائم ونكسات، ومن انسحابات واستسلامات جماعية وذلك وفقا للمبدأ القائل إنه «عندما يحصل جانب على النصر؛ فإنّ اختلال التوازن العسكري لدى الطرف الخاسر يستمرّ في تسارع حتى السقوط النهائي»(186). ما يجعل سكان البلد المندحر مأزومين داخلياً، ومستعدّين نفسياً لقبول أية دعاية. كما قبولهم لأشكال الارتهان والاستسلام والخضوع الطوعي المطلق؛ يمكن الاستدلال هنا بفلسفة نظرية الحسم العسكرية وفق ما شاءته إسرائيل كمركب من مركبات عقيدتها الأمنية، وكيفية توظيف مفاعيلها في حروبها على

الجبهة العربية، وذلك بسبب من عظيم ما تخلفه من آثار وتداعيات على غير صعيد داخلي وخارجي:

يعمل الحسم السريع لنتائج الحرب- داخلياً- على تعزيز ثقة الإسرائيلي بجيشه، وبقدراته وإمكاناته، واستدراكاً يتولد لديه الإحساس بالرفعة، والنصر، والقوّة، والاقتدار، والبأس، والمنعة، والأمن. كما من شأنه أن يقلص خسائر الجبهة الداخلية إلى مستوى أقل. وبالتالي «يخفف من ضغطها على سير العمليات الحربية، وعلى أصحاب القرار من المستوى السياسي»(187).

أمّا خارجياً، فيترتب على الحسم السريع في ميدان القتال نتائج وآثار لا تقلّ أهمية وخطراً وإلحاحاً، من حيث عدم اكتفائها بالنتائج المادية والمباشرة للحرب؛ إنّه «يتأدّى إلى هزم الأعداء معنوياً، وإلى كيّ وعيهم، وإلى ضرب معنوياتهم، واستلاب إرادتهم، وتوهين أسباب القوّة والاقتدار لديهم، من حيث أنه يحدث صدمة في وعي الخصم وفي لاوعيه، ويحفر عميقاً بصماته في ذهنه ونفسه وروحه، بما يؤسّس لانهزام داخلي ومعنوي تخرج مفاعيله عن الحدثي والظرفي والآني والمرحلي، إلى آماد بعيدة، ليس بالمقدور تعيينها وكنهها واحتواء مخاطرها، على نحو الصدمة المدوّية التي أحدثتها حرب الأيام الستة في العام 1967، فيما أصطلح عليه عربياً بعام النكسة»(188). كما من شأن الحسم السريع للحرب خارجياً، أن يبعث بشفرات القوّة ورسائل الغلبة في غير اتجاه، «للخصوم والأصدقاء والحلفاء على حدّ سواء، بما يجعل الكيان العبري مرهوباً ومأمون الجانب، يحظى بالشرعية والاحترام»(189).

ب- دنو نهاية الحرب لغير مصلحة العدو: لا شكّ، أنّ دنو نهاية الحرب، وانكشاف الأخيرة عن هزيمة نكراء للعدو، يتسبّب بحالة من الهلع، والقلق، والتوتر، والخوف على المصير...، تصيب السكان المدنيين، كما تصيب المحاربين والمقاتلين، وتدفع بهم جميعاً إلى الأخذ بتوجّهات القوات المنتصرة، والإذعان لها، والتسليم لإرادتها ومشيئتها(190).

نستدل هنا بالكيفية التي وظّف فيها أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله تداعي القوات الإسرائيلية وانهيار روحها المعنوية إبّان إحتلالها لما اتخذته حزاماً أمنياً من الجنوب اللبناني(191)، في إحكام الضغط النفسي على أفراد وعناصر ما أصطلح عليه إسرائيلياً بـ(جيش لبنان الجنوبي)(192)، وذلك بعد أن تمخّضت المواجهات والعمليات العسكرية عن اندحار ذليل لهذه القوى مجتمعة، وعن هزيمة منكرة بدأت تلوح في الأفق كقدر محتوم لا يُرد ولا يُبدّل ولا يزول؛ حيث عكف في غير مناسبة على إطلاق الرسائل والتهديدات والتحذيرات، وعلى إعطاء المهل الزمنية للعفو والصفح، يسلم بعدها كلّ من يقدم على تسليم نفسه طوعاً(193). ليتأدّى الأمر إلى العديد من حالات الاستسلام والفرار على نحو أسهم في تصديع بنية هذا الجيش، وفي ضعضعة صفوفه، وفي إضعاف روح القتال لديه.

والجدير بنظر الاعتبار، أنّ هذا الصنف من الحروب النفسية المثبطة للمعنويات والعزائم؛ يقوم- بالضرورة- ويستوي على تكنيك إثارة الدوافع، وتحريك المخاوف والهواجس التي تختلج وتعتمل في دخائل المواطنين، وفي أعماق نفوسهم أثناء الحرب، أو عند تعرضهم للمصاعب، وللمخاطر، وللتهديد المستمرّ بالدمار والموت والإبادة . ثم يسعى- في خطوة ثانية- إلى تحطيم عنفوان هؤلاء المواطنين، وإلى قتل الروح المعنوية لديهم، وبالتالي تهيئتهم وتحضيرهم نفسياً لقبول أية فكرة، كما

الإذعان لمشيئة الاحتلال ولإرادته السياسية. ثم تشجيعهم- في خطوة لاحقة- على تبنيها وتنفيذها. وأخيراً مساعدتهم على تحقيقها.

وفي هذا السياق، ينقل سعد فاعور من مقالة له بعنوان «العمليات البرية في الغزو الإسرائيلي للبنان صيف العام 1982»؛ كيف أفاد الجيش الإسرائيلي خلال عملية «سلامة الجليل»، من تقهقر المقاومتين اللبنانية والفلسطينية أمام الاندفاعة السريعة لقواته في عمق الأراضي اللبنانية، في تطويع بعض معاقل المقاومة المفترضة، ودفعها إلى الاستسلام: «ومن جملة الأساليب التي اتبعها يتسحاق موردخاي- كان آنذاك قائداً للفرقة 91 ـ لأخذ مخيم عين الحلوة في صيدا بدون خسائر في صفوف جنوده» والكلام لفاعور «أنه استدعى أحد علماء النفس من إحدى جامعات إسرائيل، للتأثير على قيادة المخيم. وشكل وفوداً من الرجال والنساء والأطفال، ووفوداً مماثلة من مقاتلين فلسطينيين وقعوا أسرى، أرسلها لإقناع قادة المخيم بأنّ القتال بات يائساً، وأنّ المنطقة كافة من صور إلى الدامور باتت تحت سيطرة الإسرائيليين. ولجأ الى الحرب النفسية باستعمال مكبّرات الصوت لتوجيه نداءات تتسم بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى»(194).

أنواع الحرب النفسية

ككلّ أنواع الحروب والصراعات، ليست الحرب النفسية على حال واحدة؛ بل تتنوّع بلحاظ طبيعة الأهداف المرجوّة، وبلحاظ النتائج المتوخاة، وبلحاظ عجلة الزمن المطلوب في تطاولها وانكماشها. والحال، نقع على نوعين اثنين من الحروب النفسية؛ واحدة إستراتيجية وأخرى تكتيكية:

الحرب النفسية الإستراتيجية

هي الحرب التي تعدّ وتصمّم لغرض تحقيق أهداف من طبيعة عامة وشاملة وبعيدة المدى. وهي بذلك تتساوق مع الخطط الإستراتيجية العامة للحرب التي تعدّها الدولة الناظمة، حيث تعكف على إضفاء المشروعية على الخطط السياسية الخاصة بالحروب، كما على تسويغها وتعليلها، وإكسابها المقبولية والمعقولية، وشرح أهدافها وأغراضها، والإيحاء بأخلاقياتها ونبل غاياتها(195). تمتاز بالشمول والامتداد والاستطالة الزمانية والمكانية، بلحاظ استغراق عملية استوائها وقتا طويلا قد يتجاوز عشرات السنين، وبلحاظ أنّها لا تتوقف أو تنتهي بعد تحقيق الأهداف المنشودة منها أي بعد صناعة النصر؛ بل تستمرّ في حراكها واندفاعتها ونشاطها- على نحو فاعل- كي يصار إلى حفظ هذا الأخير وتثبيت دعائمه ومرتكزاته. فضلاً من أنّ بعدها المكاني قد تتسع تحيّزاته كما مروحة اشتغالاته لتشمل إلى جانب البيئة المستهدفة، كلّ المناطق المحايثة والمجاورة، وقد تعمّ- في أحايين كثيرة- لتظلل عموم الكرة الأرضية. والحال، فإنّ هذه الاستطالة التي تستغرقها الحرب في الزمان، وتتدحرج إليها في المكان، تجعل من العسير تقدير نتائج عملياتها، والقبض على مفاعيلها، وتلمّس آفاق مخرجاتها. وذلك لتعثر توافر المعلومات الكافية التي ينبغي الإحاطة بها بسبب من تعدّد البيئات وتفارق الظروف والأزمان.

لكنّ ثمّة ظروفاً مساعدة من شأن تثميرها والإفادة منها وتوظيفها على نحو موجب، أن يتأدّى إلى تيسير عمل الحرب النفسية الإستراتيجية، وتكليله بالنجاح والفوز؛ كأن يصار إلى الالتفات إلى ما يتنازع كيان العدو من مشكلات ومآزم، ثم يصار إلى امتطائها، وركوب موجها، والتسلل من خلالها لإرباكه، وإنهاكه، وإضعافه، ودفعه إلى الاستسلام والهزيمة؛ نحو: استغلال ما يعتور اقتصاده من تضخّم نقدي حادّ، ومن أزمة مالية خطيرة، الإفادة من النقص في المواد الأولية والمواد الخام اللازمة لاقتصادياته، ومن النقص في الحاجات الرئيسة لدى مواطنيه، كما من الضعف في قدراته التسليحية والحربية، ومن انعدام الثقة بين قادته وجمهوره، وأيضاً من انعدام العدالة الاجتماعية في ممارسته للسلطة والإدارة والحكم...

خير مثال بالمقدور تلمّسه هنا، هو الحرب النفسية التي يشنّها الكيان العبري على الإنسان العربي بعامة، وعلى الفلسطيني بخاصة، والتي لا تزال قائمة منذ عشرات السنين. أو تلك التي يشنّها الغرب الأميركي والغرب الأوروبي على الإسلام والمسلمين، كما على العرب، حيث تعكف– في عنصرية مقيتة- دوائره ووسائل الإعلام والدعاية لديه على الإساءة للإسلام؛ حرق القرآن(196)، الرسوم المسيئة للنبي(ص)(197)...، وعلى تقديم وتظهير صورة العربي والمسلم بنحو مسفّ

(جاهل، شرير، مخادع، غرائزي...)(198)، ليصار لاحقاً إلى تنميط هذه الصورة الكريهة في الوعي العالمي(199).

الحرب النفسية التكتيكية

هي حرب الصدام المباشر، كأن يصار إلى الاشتباك مع العدو والالتحام به وجهاً لوجه على غير صعيد؛ سواء أكانت حرباً سياسية، أم اقتصادية، أم إعلامية، أم ثقافية، أم عسكرية... ويستخدم في تفعيلها وسائل متعدّدة ومختلفة يصار إلى تخيّرها وانتقائها بدقة متناهية، وبما يتناسب مع طبيعة الحرب وحساسية المتلقي؛ نحو: توجيه رسائل دبلوماسية، إطلاق التهديدات والتحذيرات والإنذارات(200)، استدعاء سفير الدولة المعنية، فرض حصار اقتصادي، مقاطعة اقتصادية، تشويش على البثّ الإعلامي للدولة المستهدفة، إلقاء المنشورات واستعمال مكبّرات الصوت، الإذاعة، التلفاز، والصحف، الاغتيالات، إثارة القلاقل والفتن، تنفيذ عمليات في عمق أرض العدو ...

بمقدور الحرب النفسية التكتيكية تقديم يد العون لمثيلتها الإستراتيجية من خلال تمكين الأخيرة من الحصول على معلومات ومعطيات أدقّ حول تقدير واقع العدو: معرفة نقاط ضعفه، ومواضع قوته، وفرصه، وتهديداته.

وسائل الحرب النفسية

تنوّعت وسائل الحرب النفسية وتعدّدت، لاسيما بعد التطوّر الملحوظ في تكنولوجيا وميديا الاتصالات والمعلومات. كما اتخذت- بلحاظ منطلقاتها ودوافعها وحمولاتها وأهدافها وغاياتها- أشكالاً وهيئات مختلفة؛ فهي تتداخل وتتخارج، وتتشارك وتتعاون، وتأتي المتلقي من غير جهة وصعيد، كي تسلب له عقله، وتزيف وعيه، وتسمم أفكاره، وتنال من إرادته وعزيمته(201)، أو لتمارس عليها مجتمعة-وفقا لخصوصية المتلقي- عمليات توجيه، وتثقيف، وإرشاد، وتوعية، وتعبئة، وتعزيز روحي ومعنوي:

- فثمّة وسائل صوتية؛ كالإذاعة(202)، والأناشيد، والأغاني، والأزجال، والأشعار، والخطب، والهتافات، والاجتماعات، والشائعات، ومكبّرات الصوت(203)، والكاسيت(204)، والموسيقى الحماسية ...

- ثمّة وسائل من طبيعة مرئية؛ كالمعارض، والتماثيل، والمعالم، والمتاحف، والبروشورات، والبوسترات، والصور الفوتوغرافية، واستخدام الفوتوشوب، والمانشيتات، والشارات، والألوان، والأزياء(205)، والأوسمة، والأعلام، والعلامات، والرايات، والآرمات، والشعارات، والرسوم، والرموز، والكاريكاتور...

- ثمّة وسائل أخرى من طبيعة مركبة صوتية- مرئية؛ كالمهرجانات والاستعراضات، والتلفزة(206)، والاحتفالات، والمواكب الجماهيرية، والندوات، والمؤتمرات، والسينما(207)، ووكالات الأنباء، والفيديو، والأعمال المسرحية والفنية، والموبايل (208)(Mobile)، والانترنت(209)، ووسائل النيوميديا (210)(New Media) وأدواتها: كاليوتيوب (211)(Youtube)، والفيس بوك (212) (Facebook)، والشات (Chat)، والهوت ميل (Hotmail)، والتويتر (213)(Twitter)، فضلاً عن المدونات الشخصية وصفحات الإعلان وسوى ذلك...

- ثمّة وسائل من طبيعة مؤسساتية- ندوية؛ كالمؤسّسات، والجمعيات، والبعثات، والأندية، والإتحادات...

- ثمّة وسائل مطبوعة؛ كالصحف، والمجلات، والوثائق، والمقالات، والتحقيقات، والبيانات، والكتب، والأعمال الروائية والقصصية، والمنشورات(214)، والملصقات، واللافتات(215)...

- ثمّة وسائل لها طابع ترفيهي- استقطابي؛ كالرحلات، واللقاءات الترفيهية، والمخيمات الشبابية(216)، والمنتجعات السياحية، وأماكن اللهو والتسلية والألعاب وتزجية الوقت والترويح عن النفس.

أهداف الحرب النفسية

لا شكّ، أنّ أهداف الحرب النفسية تتسع وتتشظى إلى غير جهة وصعيد، باتساع دائرة أو مروحة اهتماماتها وانشغالاتها، وعلى نحو يجعل من العسير ضبطها وتقنينها؛ إلا أنّه بالمقدور إجمال أبرزها وأكثرها عناية واهتماماً بما يلي:

أ- مؤازرة التدابير السياسية والعسكرية والاقتصادية والعقائدية الموجّهة ضد العدو، والمساعدة على إنجاحها من خلال إعمال المؤثرات في أفكار هذا العدو، ومواقفه، ووجهات نظره، وتصوّراته، وسلوكياته، واعتقاداته...، وإضعاف إرادة القتال لدى مدنييه وعسكرييه.

ب- تشويش نظرة العدو السياسية، وبلبلة آرائه وتوجّهاته، وإرباك خياراته، وخلط الأوراق أمامه(217)، وشلّ قدرته على التركيز والتفكير، والإخلال بمرجعياته وبمبانيه وبأخلاقياته وبقيمه الحاكمة، وقتل مثله ومعتقداته التي يؤمن بها. كما قتل الروح المعنوية لديه، ومحاولة التأثير على وعيه وإرادته، وتشجيعه على الاستسلام، والقضاء على كلّ أشكال المقاومة عنده. وكان بازيل ليدل هارت(218) قد أشار إلى هذا الهدف المباطن للعمليات النفسية؛ ففي العام 1929 ذهب في نظريته الكاملة عن الحرب، وفق ما تضمنه كتابه (الحروب الحاسمة في التاريخ)، إلى أنّ «الإستراتيجية الدعائية- النفسية تهدف إلى خلخلة روح العدو المعنوية، والإضرار بوعيه، وذلك بمهاجمة توازنه العقلي والنفسي، ومن ثمّ زعزعة قدرته على القتال».

ج- السعي لتثبيط همة العدو، ولإقناعه بأنْ لا جدوى من الحرب أو من الاستمرار في القتال، ولزعزعة ثقته بنفسه، وبقدراته، وبسلامة أهدافه ومبادئه، وبعدالة قضيته. كما بقدرته على جلب النصر، وتحقيق الإنجازات، وإحداث الفتوح.

فالحرب النفسية تتنكب غير وسيلة وطريقة وأسلوب لإشعار جنود العدو في ساحة القتال، بأنّ الهدف الذي يحاربون من أجله، ويضحون بأرواحهم وعرقهم وتعبهم وبكل غال ونفيس في سبيله، أصبح مستحيلاً وعصياً على التحقق، أو أنّ دونه عقبات لا يمكن القفز فوقها، أو تجاوزها وتخطيها. كما تعكف على تسخيف هذا الهدف في نظر هؤلاء الجنود، وتقزيمه، وتصغيره، وبيان تهافته وفساده من طريق المغالطات المنطقية، والفبركات والتلفيقات، حيث تثير نقاشاً حول مشروعية القتال وأخلاقيته، تُظهر فيه للجنود أنهم إنّما يقاتلون من أجل أهداف غير سليمة وغير سوية، ويبذلون أرواحهم فداء لفكرة غير شرعية، وغير أخلاقية، وغير قيمية، فضلاً عن كونها صعبة التخلق والتحقق والتنفيذ.

يحضرنا- في سياق الاستدلال هنا- مثالات وشواهد كثيرة، بل وتجارب حيّة موحية، على نحو ما نقع عليه في المنشورات التي كانت تلقيها قيادة الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية على القوات اليابانية، لإضعاف الروح المعنوية والقتالية لديها، بعدما كانت الأخيرة قد أظهرت بسالة منقطعة النظير في المواجهات العسكرية. تقصّدت قيادة الحلفاء أن تذيّل كلّ منشور بعبارة موجّهة إلى الجندي الياباني تقول فيها: «مسكين أنت أيّها الجندي الياباني لأنك تضحي بنفسك في سبيل قضية خاسرة». وذلك في محاولة منها لإفقاد ثقته بجدوائية قتاله وحربه، كما بعدالة قضيته ومشروعيتها.

يحضرنا أيضاً على نحو مماثل، ما كانت قد أذاعته وحدة الدعاية الألمانية على الفرنسيين في العام 1940، إبان احتدام الصراع في الحرب العالمية الثانية بين كلّ من الجيشين الألماني والفرنسي، حيث أقدمت على تمرير نبأ مفاده: «إنّ لجنة هدنة فرنسية في طريقها الآن لتوقيع هدنة مع السلطات الألمانية». ما كان له أثار هدّامة على الروح المعنوية للفرنسيين، بعد أن صير إلى إنطراح الأمر بين الجنود والمحاربين وفق الإشكالية الأخلاقية الآتية: «لماذا نحارب اليوم، ونعرّض أنفسنا للموت والهلاك، إذا كانت الحرب ستنتهي غدا». ذلك أنّ المقاتل في الميدان، أيّاً تكن هويته وموقعه ودوره، عندما يدرك- أو حتى يشتبه عليه الأمر- أنّ قيادته العليا تنحو باتجاه عقد هدنة أو تمرير تسوية لإيقاف الحرب؛ فإنّ ما يتهيّأ له على وجه السرعة والمباشرة، هو تفوّق العدو واقتداره وتعاليه...ما يدفع به إلى تجنّب ركوب المخاطر، وإلى الإحجام عن ألوان التضحية والفداء، كما عن كلّ أدوار المغامرة والمناورة والطليعية والإقدام. لذا، فإنّ تسريب مثل هذه الأخبار، أو تصنيع مثل هذه الفبركات والتلفيقات والأضاليل(219)، من شأنه أن يتأدّى إلى فقدان المحارب لتماسكه الذهني والعقلي، وإلى تهدئةٍ لفيض انفعالاته الثائرة، وهما لوازمه ومستلزماته، إذ إنّه يندفع إلى الحرب والمواجهة طالما وجدت في ذهنه مسوّغات منطقية، ومبرّرات عقلية لمواصلة القتال واستئنافه، وطالما كانت حالته الانفعالية من العنف والتوقد والشدّة، بحيث تستثير في نفسه الجوانب العدوانية حيال أعدائه وخصومه.

وفي سياق متصل، نقرأ الفشل الإسرائيلي فيما أطلق عليه تسمية «تغيير الاتجاه 11»، وهو مرموز العملية البرية الموسّعة التي استهدفت الوصول إلى شمال نهر الليطاني في الثاني عشر من شهر آب من العام 2006، أي في اليومين الأخيرين من حرب إسرائيل الثانية على لبنان وفقاً للاصطلاح الإسرائيلي؛ ثمّة مدخلات وأسباب كثيرة لهذا الفشل الإسرائيلي، ولهذه الهزيمة المنكرة التي مُني بها، لكنّنا في هذا المقام معنيون في تظهير عامل اندفاع الجيش الإسرائيلي إلى العملية البرية، على إيقاع المفاوضات التي كانت تجري داخل أروقة مجلس الأمن الدولي بشأن القرار 1701. كان الإسرائيلي يتوسّل تحسين شروطه في المفاوضات من خلال تحسين وضعه على أرض الواقع في ميدان القتال. وهذا إنْ صحتْ سلامته في السياسة، إلا أنّ له مفاعيل نفسية سلبية على الجندي في المعركة. أي أنّنا نقع هنا على عملية نفسية مؤثرة ليست إلا نتاج غباء المستوى القيادي في الدولة الإسرائيلية وصنيعته، بعدما صير إلى توظيفها وتثمير مفاعيلها خير توظيف وتثمير من قبل حزب الله. وقد طاولت هذه العملية وعي الجندي الإسرائيلي الذي قارب المسألة على هذا النحو: «لماذا نقتل ونموت إذا كانت الدولة تتجه إلى إجراء تسوية لهذه الحرب». يكفي لتعليل ما نذهب إليه الوقوف على الأصوات الإسرائيلية التي تعالت من غير جهة، مشككة في مبررات العملية وأخلاقيتها(220).

د- إحداث الشقاق والفرقة والتباعد والتخاصم والتنابذ بين قيادة العدو وقاعدته الجماهيرية والشعبية(221)، من طريق تشويه صورة القيادة، والإساءة إلى سمعتها ومكانتها وتاريخها، ونزع المصداقية عنها، وغرس بذور التشكيك بها، وتسفيه مقولاتها وأطروحاتها، واتهامها بالتقصير والقصور، والتقليل من خبرتها وكفاءتها وقدراتها ومهاراتها، والإشارة إلى عدم أهليتها، وتحريض وتأليب الرأي العام عليها...

الجدير بالإلفات، أنّ إثارة نوازع الشكّ والارتياب حول القادة والزعماء، هو من أولى الأهداف التي تنشدها الحرب النفسية في حراكها ونشاطها على غير صعيد. ذلك أنّ شخص الزعيم أو القائد

يُعدّ بحق رأسمال الأمة الرمزي والمعنوي، وعنوان وحدتها واتحادها، ورمز قوّتها وجبروتها وعزّتها، وبالتالي فإنّ التعرّض له، والنيل منه، وتوهينه، والإضرار بسمعته، والتشكيك بنزاهته وإيمانه وصدقه وأخلاقه، وتصغيره وتقزيمه في عيون الأفراد؛ من شأنه تخفيت اندفاعة هؤلاء وحماستهم، وإضعاف ولائهم وحبّهم له، كما ارتباطهم وتعلقهم به، وزعزعة إيمانهم بالعقيدة الجامعة والموحّدة لهم. واستطراداً، تبهيت حضور القائد وتحطيم الصورة المثالية التي كان قد اكتسبها من جهة، وتحطيم وحدة الأفراد والتفافهم واجتماعهم حول شخصه من جهة ثانية.

هـ- استهداف ساحة العدو الداخلية(222)، وإضعاف مناعته، والإضرار بوحدته الوطنية الجامعة، وتفكيك أصر انتظامه المجتمعي العام(223)، من خلال بثّ السموم المذهبية(224) والفئوية والعرقية والمناطقية والطبقية والإيديولوجية بين أبناء الشعب، وإثارة النعرات والحساسيات والعصبيات والفوضى والبلبلة، وغرس بذور الفرقة والتباعد والتصادم والاقتتال والاحتراب(225)...

يندرج في إطار استهداف الساحة الداخلية للعدو، تهجير مدنييه فور اندلاع المعارك، وذلك وفق سيناريو معدّ بدقة وعناية بالغة من شأنه أن يربك العدو ويبعث على الفوضى. فضلاً عن أنّ الأمر يتأدّى إلى إصابة الروح المعنوية لدى جمهور هذا العدو ولدى مواطنيه بمقتل، واستتباعاً لدى مقاتليه وجنده، كما من شأنه أن يشكل روافع ضغط على ذوي القرار في المستويات القيادية خاصته. وقد يتسبّب في كثير من الأحيان بإعاقة اندفاع قواته إلى الجبهة، وبالتالي عدم اضطلاعها بالأدوار المحدّدة المنوطة بها على أكمل وجه لحظة احتدام القتال وتأزم الموقف.

و- إعادة إنتاج وعي العدو، وصياغة توجّهاته وقناعاته الجديدة، بما يتلاءم مع أهداف ومصالح مطلقي الحرب النفسية، وذلك من خلال ترسيخ الأفكار والقيم والتصوّرات والمنظومات الاعتقادية ذات الصلة، التي تجعل منه كائناً مستلب الإرادة والوعي.

ز- استغلال أيّ إنجاز أو انتصار صير إلى تحقيقه- ولو كان غير ذي بال أو أهمية- وتوظيفه على نحو بارع، في إضعاف وتسفيه عقيدة العدو، وفي توهين إرادته القتالية.

ح- تفكيك سلسلة وشبكة التحالفات التي يبنيها العدو في تمحوره واصطفافه، على نحو يؤدّي إلى إبعاد الحلفاء، وتحييدهم، ودفعهم إلى التخلي عن نصرته. كما يصار إلى عرقلة محاولاته الدائبة لجلب المحايدين واجتذابهم، وكسب ودّهم وتعاطفهم ومساندتهم ودعمهم.

في قبالة ذلك نقع في الحرب النفسية على أهداف داخلية تتوسّلها وتنشدها، وهي على أهمية بالغة بوصفها ترتبط وتتعالق بجمهور الجهة الناظمة للحرب؛ نحو:

أ- تعبئة جمهور الجهة الناظمة للحرب النفسية، واستنهاضهم، وتحشيدهم، وتصليب إرادتهم، وتعزيز معنوياتهم، وتنمية روحهم القتالية، وإقناعهم بأحقية قضيتهم ومشروعيتها وعدالتها ونزاهتها ونبلها. كذلك إقناع الحلفاء والأصدقاء ممن يقام معهم علاقات واتفاقات وتفاهمات بهذه الأحقية وهذه العدالة(226). إلى جانب الإبقاء على حياد الأطراف المحايدة في موضوعة النزاع، قطعاً على أيّة محاولة من الأعداء لاجتذابها واستمالتها.

ب- تعزيز وتمتين وتعميق أواصر الصداقة والودّ مع الأمم والدول والأطراف التي تقيم معها الجهة الناظمة للحرب النفسية علاقات واتفاقات وتفاهمات وتحالفات، وعلى نحو تصبح معه هذه

الأخيرة من طبيعة وجودية وإستراتيجية ودفاعية، وذات أهداف ومصالح حيوية ليس من اليسير تبدّلها وتغيّرها.

ج- تغذية مشاعر الاعتزاز والصداقة والودّ والتقدير للأمم والشعوب والدول والأطراف المحايدة في موضوعة النزاع والحرب، ودفعها إلى الاعتقاد بتفوّق الجهة الناظمة للعمليات النفسية، وقدرتها على جلب النصر وتحقيق الغلبة والفوز. فضلاً عن محاولة حثها على تقديم يد العون والمساعدة والنصرة والتأييد، وتعاونها الفاعل والإيجابي والمثمر.

قصارى القول في هذا الصدد، إنّ أهداف الحرب النفسية ليست واحدية، تتسم بالثبات والاستقرار والركون والاستنقاع؛ بل تختلف باختلاف وضعية الدولة التي توجه إليها وفقاً لتوصيف هذه الأخيرة في العلاقات الدولية(227)، وهنا نقع على واحد من أوصاف ثلاثة:

أ- قد تتوضّع الدولة– المستهدفة في خانة العداء، فتوصف بالمعادية، وبذلك تكون الأهداف التي تتوسّلها الحرب النفسية وتنشدها: قتل وتحطيم الروح المعنوية، شلّ الإرادة القتالية، برمجة وتضليل وتزييف الوعي، واستطراداً توجيه الدولة نحو الهزيمة.

ب- قد تتوضّع الدولة– المستهدفة في خانة الحياد، فتوصف بالمحايدة. ما يستدعي وجهة أخرى تنشدها الحرب النفسية، بحيث تدور الأهداف مدار النزوع إلى جذبها واستقطابها واستمالتها إلى جانب الدولة الناظمة للحرب، ودفعها إلى التحيّز لها، والاصطفاف معها، والتعسكر في معسكرها. أو النزوع في سياق متصل– إذا ما كان دون الحالة الأولى صعوبات ومخاطر- إلى إقناعها بعدالة قضية الدولة الناظمة للحرب ومشروعيتها ونبلها، لغرض كسب تعاطفها وتأييدها. أو بالأقلّ إبقاء الدولة- المستهدفة في وضعية الحياد، والحيلولة دون انحيازها إلى الجانب الآخر.

ج- قد تتوضّع الدولة- المستهدفة إلى جانب الجهة الناظمة للحرب، فتوصف بالصديقة. وهنا، تنحو أهداف الحرب النفسية نحو تدعيم أواصر هذه الصداقة، وتمتين عراها، وتحصينها... بما يتأدّى إلى مزيد من التفاهمات والتحالفات، ومن علاقات التعاون والاتفاقات المحققة والحافظة للمصالح الحيوية والإستراتيجية.

سبل مواجهة الحرب النفسية

ليست الحرب النفسية من نوع الحروب التي يستهان بمواجهتها، كما بنتائجها ومفاعيلها، أو يصار إلى التعاطي معها بتعالٍ واستخفاف؛ وإنّما تتطلب مواجهتها قدراً كبيراً من الحكمة والحذر والوعي، إلى جانب تفعيل وتوظيف ما لا يقاس من القدرات والطاقات الممكنة، أي ما يطلق عليه بـ(أساليب التأمين النفسي). وهذا ما بالمقدور إجماله بالسياسات الآتية:

أ- مكافحة الجماعات المعادية في الداخل أي ما اصطلح على تسميته «بالرتل الخامس أو بالطابور الخامس»(228)، وتعطيل فعاليتها ونشاطها وتأثيرها، وشلّ حرية الحركة لديها، ووضعها تحت مجهر المراقبة اللصيقة، وإحباط مشاريعها ومحاولاتها المغرضة لإثارة القلاقل والفتن، والقيام بأعمال الشغب والفوضى والتخريب والتحريض، وإطلاق الشائعات، وبثّ الخوف والهلع في صفوف المواطنين.

ب- تفعيل دور الإعلام– بأجهزته وأدواته ووسائطه المختلفة والمتعدّدة– للاضطلاع بمسؤوليته الملقاة على عاتقه، في الكشف عن أهداف العدو ونواياه أمام الرأي العام المحلي والعالمي.

ج- تنشيط فعاليات وأدوات الحرب النفسية كالدعاية والشائعة وسواهما، في ما يمكن اعتباره حرباً نفسية مضادة.

د- تعرية العدو أمام الرأي العام الداخلي بالأخصّ، والخارجي بعامة، وكشف مخططاته ومشاريعه وأطماعه ونواياه، وفضح ادعاءاته ومزاعمه وافتراءاته، وإيضاح أدواته ووسائله وأساليبه التخريبية.

هـ- تثقيف المواطنين تثقيفاً علمياً يتيح لهم، ليس تلقي المعلومات والأخبار تلقياً سلبياً؛ وإنّما ذلك التلقي الموجب الذي يقوم على قراءة الأخبار بعين النقد، ومعاينتها، وفحصها، وتحليلها تحليلاً موضوعياً، ليصار بعدها إلى الخلوص إلى نتائج مفيدة، ثم إلى تبني سلسلة مواقف واتجاهات بالارتكاز عليها.

و- إعداد برامج توعية(229) وترشيد للمواطنين تستهدف: تنمية الشعور بالمسؤولية لديهم، واستدامة اعتزازهم بالوطن وبالموروث وبالتاريخ وبالشعور القومي، وتشكيل مفاهيم الانتماء والولاء عندهم، والحرص على روح الجماعة بينهم، والحضّ على التفاني من أجل المصلحة الوطنية العليا... ما يتأدّى إلى تحصين الجبهة الداخلية، وتمتين الوحدة الوطنية(230)، وتماسك مكوّنات الانتظام المجتمعي في الدولة، وقطع الطريق على كلّ محاولات غرس الأحقاد والتباغض، وإحداث الفرقة والتناحر والاحتراب الداخلي.

ز- تفعيل أطر التواصل والتفاعل البناء مع الجماهير، واحترام ذكائها وحساسياتها، وذلك باطلاعها - دورياً- بشكل صادق ومتجرّد وشفاف، على حقيقة ما يجري، وما يعدّ، بعيداً من أساليب الديماغوجيا، والخداع، والمراوغة، والمخاتلة، والاستخفاف، والاحتيال.

ح- تمتين جسور الثقة بين المستوى القيادي والقاعدة الجماهيرية، وتفعيل أطر التواصل بينهما. كي يصار إلى قطع وتعطيل كلّ محاولات الاستغلال والتوظيف السلبي من قبل الأعداء في هذا

المجال.

ط- الإفادة من العلوم ذات الصلة، لاسيما العصرية منها؛ كعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم السياسة، وعلم الاقتصاد، والعلوم العسكرية، وعلم الاستخبارات...، على أن لا تبقى الإفادة نظرية، بل أن يصار إلى توظيفها في إطارات وسياقات عملية؛ فعمليات الاختراق والنفوذ والتجنيد الأمني في صفوف العدو، من شأنها أن توفر- على نحو استباقي– قاعدة بيانات واسعة، ووفرة معلومات عن نوايا العدو ومخططاته.

خطوات مواجهة ومقاومة الحرب النفسية

تمرّ عملية مقاومة الحرب النفسية بمراحل ضرورية لازمة، بحيث تنساب- على نحو سلس- في مسارب محدّدة، من المقدمات إلى المخرجات والنتائج. فما هي هذه المراحل أو الخطوات؟.

الخطوة الأولى: يمكن تسميتها بمرحلة الاستطلاع؛ تتمّ عادة بالتعرّف على ماهية الأداة المستخدمة، وتحديد طبيعتها، ثم فحصها، ومعاينتها، وتحليلها، واكتشاف غاياتها وأغراضها: هل هي دعاية؟، أم شائعة؟، أم مناورة سياسية؟، أم تجسّس؟...، وماذا تريد؟، وإلى ماذا ترمي؟ وما هي عناصرها ومكوناتها؟...

الخطوة الثانية: يمكن تسميتها بمرحلة إثارة المشكلة؛ وهنا تبدأ مرحلة التحضير والإعداد المركز للحرب النفسية المضادة، والتي تنطوي على سيناريوهات دفاعية وأخرى هجومية.

الخطوة الثالثة: بالمقدور الاصطلاح عليها بمرحلة تخيّر الوسائل والأدوات؛ وفيها يصار إلى تحديد وانتقاء وسائل وأدوات الهجوم الصالحة والملائمة: مرئية، مسموعة، مكتوبة، لقاءات، مهرجانات...

الخطوة الرابعة: هي مرحلة الهجوم؛ وفيها يصار إلى إطلاق الهجوم المضاد والمباشر. وذلك بهدف إرباك العدو، وإضعافه، وضعضعته، وزعزعته، وشلّ حركته، وتعطيل فعاليته، وإفشال مخططاته، وافقاده الثقة بقدراته على تحقيق الانتصارات والإنجازات، وبالتالي دفعه إلى التراجع والانسحاب.

الخطوة الخامسة: هي مرحلة التوظيف والاستثمار؛ تتصف بالدينامية والحيوية الدائمة، وفيها يصار إلى توظيف وتثمير أيّة انجازات، أو نتائج، أو انتصارات، أو مكاسب، أو اختراقات، وإنْ كانت متواضعة، أو محدودة، أو ضئيلة، أو غير ذات وزن وأهمية- حيث يُعمل على تضخيمها، وتكبيرها، ويبالغ في وصفها وتصويرها، بهدف التأثير في الرأي العام المعادي وإضعافه أو تحييده.

عناصر الحرب النفسية

إذا شئنا تعيين الإطار النظري(231) الذي يستقيم عليه ويستوي معمار الحرب النفسية؛ لوقعنا على اجتماع ثلاثة عناصر مكوّنة، ليس لهذه الحرب أية فضيلة أو قيامة في حال تصدّعها، أو تهافت مقولاتها ومبانيها، أو تقهقر أحد هذه العناصر المؤسّسة:

أولاً - المرسِل: هو بادئ الحرب النفسية، ومطلقها، وموجّهها، والمحدّد لها مساراتها ومساربها وأنساق عملها واشتغالها، كما وجهتها وأهدافها ووسائطها. وهو الضابط إيقاعاتها ومستوياتها، والمعني بالوقوف على نتائجها وتقييم أثرها.

ثانياً - المتلقي: وهو عنصر وازن من عناصر الحرب النفسية، ويقصد به الجمهور المستهدف بالرسالة، أي الجماعة من الناس الذين يشغلون بؤر استهدافات هذه الحرب، ويتوضّعون في مرمى نيرانها؛ فتشملهم مروحة اشعاعاتها على نحوٍ يكون بمقدورها أن تمارس عليهم هيمنتها وسطوتها وتأثيرها، من خلال تنكبها العمل على بلورة تصوّراتهم وأفكارهم وآرائهم، وخلق انطباعاتهم وقناعاتهم، وتكوين استجاباتهم واتجاهاتهم وميولهم ورغباتهم.

يتوزّع عنصر التلقي– بدوره- إلى ثلاث شرائح أو فئات:

أ- المتلقي الداخلي، أي البيئة الشعبية التي تشكل الحاضنة الفعلية للطرف المبادر إلى الحرب: وهو يعدّ الشريحة من الجمهور أو الفئة الأكثر أهمية بين فئات التلقي بوصفه صمّام الأمان، وخزين الحرب ووقودها؛ فعندما تريد دولة ما تجنيد كلّ طاقاتها وإمكاناتها وقدراتها- لاسيما البشرية منها- لخوض نزاعات ومعارك وأعمال حربية، فهي ملزمة بدفع مواطنيها إلى تبنّي خياراتها، وإلى السير على هدي توجّهاتها ووفق أجندة مصالحها، كما أنّها ملزمة بإقناعهم للقبول بأن يكونوا قرابين هذه الحرب وضحاياها الافتراضيين. ما يصحّ أن يطلق على هذه الفئة من المتلقين تسمية الجبهة الداخلية، التي قد يتوقف نجاح الحرب وتكثيف فعاليتها والإتيان بأكلها السياسي والعسكري والأمني، على تصالب هذه الجبهة أو هشاشتها.

لكنّ صلاح هذا الأمر المعبّر عنه بجاهزية المتلقي الداخلي، لا يمكن له أن يستقيم ويستوي على نحو وازن وخلاق، دون توسّل أعمال وقائية من شأنها تفعيل وتكثيف التحصين النفسي والمنعة الذاتية لهذا المتلقي، في قبالة ومواجهة محاولات الاختراق والنفوذ والتخريب النفسي والقيمي، وأشكال التجهيل والتضليل والتوهين والتآمر والخداع، وإثارة الهواجس والمخاوف والفتن والاضطرابات وشراء الذمم...، وما شاكل ذلك من محاولات يعكف عليها العدو عادة لاستباحة الانتظام المجتمعي والنسيج الداخلي الذي ينضوي ويسبح فيه هذا المتلقي، وتهشيمه تمهيداً لاستلابه واستتباعه. كأن يصار- في سياق التحصين النفسي والمناعة الذاتية- إلى تنشيط الوعي الوطني، ورفع الروح المعنوية، وتفعيل أواليات المحافظة على النظام القيمي، كما تفعيل التحصيل العلمي، والتثقيف العام، وتنمية الإحساس بالمسؤولية. على أن يتساوق ذلك كله مع خلق مناخات وبيئات مساعدة، يصار فيها إلى تهيئة وصناعة فرص أفضل للانقضاض على العدو، وظروف أحسن

لفعل التأثير في وعي المستهدفين، نحو؛ إعداد الأفراد وتأهيلهم مادياً ومعنوياً، وتعزيزهم، وتدريبهم وإكسابهم المعارف والخبرات اللازمة، والتجهّز بتكنولوجيا السلاح والمعلومات، وتمتين الاقتصاد، ودعم الدبلوماسية، وبناء شبكات الأمان المجتمعية....

ب- جمهور العدو: هو الفئة الثانية بين فئات التلقي، ويمثل الحاضنة الفعلية للطرف المستهدف من الحرب، ولا يقلّ بدوره أهمية وخطورة عن الفئة الأولى؛ فإذا كانت هذه الأخيرة تشكل جبهة الحرب الداخلية؛ فإنّ جمهور العدو يشكل جبهتها الخارجية. ويتوزّع جمهور العدو إذا ما صير إلى تصنيفه وفرزه إلى قطاعين اثنين: قطاع العسكريين وقطاع المدنيين. أمّا العسكريون فهم جنود وضباط العدو وأفراد مؤسّساته العسكرية والأمنية، في حين أنّ المدنيين هم مواطنوه وحاضنته الشعبية. ذلك أنّ استخدامات السلاح النفسي لا تقف عند الحدود الفاصلة والفارقة؛ بل تتلاشى الأخيرة وتضمحل وتذوي، وأنّ تأثيراته تعمّ دون أن تقتصر على جبهة القتال، والعبء الأكبر فيها لا يقع على عاتق العسكريين بمفردهم. ما يعني أنّ قطاعي الجمهور- العسكري والمدني- يشكلان مجتمعين ساحة عمل الحرب النفسية التي تستبطن مروحة رسائلها وشفراتها هنا؛ إضعاف الروح المعنوية لدى العدو، وتوليد حال من الإحباط والوهن في صفوفه، وكيّ وعيه، وسلب إرادته، وهزمه نفسياً وعقلياً، ومحاولة إقناعه بأنّ لا أمل له في كسب المعركة وتحقيق النصر، بل إنّ الأمر خلاف ذلك، فكلما تعجّل في إنهاء الحرب بسرعة، وحال دون تدحرجها واستطالتها، واضعاً مخارج وحلولاً لها، كلما كان ذلك أجدى له وأفيد. أمّا في وضعية عدم تمام القدرة على إلحاق وإنزال هزيمة نكراء كاملة بالعدو؛ فإنّ الجهود تنعطف صوب التقليل والتخفيف من عدوانيته ووحشيته، أو تحييده وإخراجه من دائرة الصراع.

ج- الجمهور الحيادي: يقصد به عموم الناس والحكومات والأنظمة والجمعيات الحقوقية والأهلية... الذين لا علاقة لهم ولا دخالة- من قريب أو بعيد- بموضوعة الحرب، والذين لا تربطهم مصالح حيوية بعجلتها، أو مكاسب بنتائجها، والذين قد يخلقون مزاجاً عاماً أو رأياً عاماً عالمياً ضاغطاً، ينزع عن أية حرب يبادر إليها العدو شرعيتها وأخلاقيتها ونبلها، بل ويتسبّب له بإحراجات، كأن يُسيء إلى سمعته ومكانته وموقعه الحضاري، ويشرّره ويجرّمه ويلبسه لبوساً شيطانياً، لاسيما وأنّ الحروب المعاصرة قد خيضت وتخاض خلف لافتات قيمية وتحرّرية للشعوب، ليس نشر الديمقراطية إلا آخر صرعاتها وإبداعاتها. أمّا الغاية المرجوّة من التوجّه إلى هذه الفئة من فئات التلقي؛ فهي كسب تأييدها، والحصول على تعاطفها، بل على مساندتها ودعمها العاطفي والانفعالي بالأقلّ، وجلبها إلى دائرة الصداقة لتفادي تحوّلها إلى الضفة الأخرى من الصراع، وبالتالي منع العدو من استغلالها واجتذابها إلى ناحيته... ما من شأنه أن يقيّد حركته، ويفرمل اندفاعته، ويكبح جموحه، ويرفع حول عنقه أسواراً حديدية عالية تربكه، وتتأدّى إلى محاصرته واختناقه.

ثالثاً - الرسالة: هي النصوص أو الشفرات المفخّخة ذات الطبيعة البصرية، أو السمعية، أو المكتوبة، التي يصار إلى إعدادها وصياغتها وتوجيهها إلى الجمهور المستهدف بغرض التأثير عليه، والنيل من إرادته ووعيه. وقد تجد سبيلها إليه من غير جهة وناحية وطريق، ليس النشاط الدبلوماسي، أو العمل العسكري، أو الجهود الاقتصادية، أو الأنشطة الإعلامية، أو عراضات القوة[232]...، سوى بعض منها. ولذلك لا نرى إليها تتخلق على نحو واحدي بلحاظ الغاية المرجوّة منها، وبلحاظ المضمون والصياغة والوجهة والأسلوب؛ بل إنّها تختلف باختلاف المتلقي، وتتغيّر بتغيّر الفئة المستهدفة:

- فثمّة رسائل تعدّ خصيصاً للمتلقي الداخلي، وهي رسائل من طبيعة استنهاضية ثورية؛ تحفز الإرادة، وتنفخ الروح المعنوية، وتعلي من شأنية المواطن- الفرد وقيمته واعتباريته. في حين أنّها- في قبالة ذلك- تلبس العدو لبوساً شيطانياً، فتؤثمه وتشرّره وتجرّمه وتشيطنه، وتعمد إلى إسقاطه إنسانياً وأخلاقياً، بل إلى إنزاله إلى الدرك الأسفل من البربرية والوحشية والإفساد.

- ثمّة رسائل أخرى من طبيعة مختلفة تعدّ- بخاصة- لجمهور العدو، وفيها يصار إلى استغلال مواطن الضعف في تركيبته الذهنية، والمواضع الهشة والرخوة في نسيج بنيته المجتمعية للنفاذ إلى وعيه وإرادته والتأثير عليه، ولضعضعة ثقته بقادته ومسؤوليه وأصحاب الحلّ والربط في دوائر القرار. ما يستدعي التوفر والاستحواذ على معلومات تاريخية وثقافية وانثروبولوجية واجتماعية ونفسية، ومعاينة دقيقة لواقع العدو، ومعرفة شاملة بعاداته وتقاليده ونزوعاته وأهوائه وميوله واهتماماته، كما يستدعي الأمر أيضاً إلماماً وإحاطة وافية بثقافته وقيمه وأعرافه، كما بالمباني والأساطير المؤسّسة لتصوّراته وأفكاره، والمشكِّلة لآرائه ومزاجه وحساسياته. أمّا الغرض من هذه الرسائل؛ فهو إشعار العدو بدونيته وتصاغره وهزاله وعقم محاولاته، وتغذية هواجسه وإحساسه الدائم بالارتياب، وإيهامه بانعدام أي رجاء أو بارقة أمل له في الانتصار والفوز وكسب الحرب، أو في صناعة وتحقيق إنجازات بالمقدور تثميرها وتوظيفها سياسياً، أو في ابتداع حلول ومخارج من شأنها أن تمكنه من فرض وإملاء إرادته وضمان مصالحه الحيوية. وكذلك إقناعه من خلال تفعيل عرض بعض الوقائع والأحداث، بأنّ الموازين مختلة لغير مصلحته، وأنّ الأرباح- وفقاً لمعادلة الجدوى والكلفة- التي يقدّر له أن يجنيها من حربه، هي أقلّ من حجم الأكلاف التي يتوجب عليه تحمّلها، وأنّ المكاسب التي قد يتوافر عليها، لا تعدل شيئاً من مقدار الأثمان التي عليه دفعها... ما يتأدّى في نهاية المطاف إلى زعزعة الوضع النفسي لجنود العدو، كما الوضع النفسي لمواطنيه ومدنييه، ودفعهم جميعاً إلى التفكير بجدوائية الحرب وفائدتها بشكل عام، وإلى طرح أفكار وجودية بشكل خاص.

- ثّمة صنف ثالث من الرسائل، كتلك التي تختصّ بعموم المتلقين الذين يشغلون مساحات وحيّزات محايدة من أطروحة الصراع وموضوعة الحرب. وهذه تهدف فيما تهدف إلى استمالة هؤلاء المتلقين وكسب تأييدهم وتعاطفهم، أو بالأقلّ إلى الحؤول دون اجتذابهم من جانب العدو. ولذلك فهي تحتفل بتحشيد الأدلة والمسوّغات والبراهين والحجج والوقائع التي تشرعن الحرب وتبرّرها وتمنطقها، وتؤشر إلى نبلها وعدالتها وأخلاقيتها وتسامي أهدافها، وترفّعها عن المصلحية والنفعية، وبالتالي عن كلّ أشكال استلاب الآخرين وارتهانهم واستعبادهم واستغلالهم واحتلالهم وكسر إرادتهم.

رابعاً - الوسائط الإيصالية: هي القنوات والمسارب والوسائل والأنساق التي تسمح بإمرار الرسالة وتسرّبها وانبعاثها وانسيابها الى المتلقي المعني بسهولة ويسر ووضوح(233)، على نحو يقع فيه الأخير في إسار سطوة شفرات الرسالة وتأثير حمولاتها، كما يقع ضحية أفخاخها وحبائلها ومكائدها. والحال، تتكشف الأهمية البالغة التي ينبغي أن يوليها المرسِل لعملية تخيّر وانتقاء الوسائط الإيصالية المناسبة لخصوصيات وحساسيات كلّ فئة من الفئات المستهدفة، بحيث يصار إلى تحديد قناة الاتصال الأبلغ، والأسهل، والأكثر فعالية، والأشدّ تأثيراً في وعي المتلقين؛ إذا كان التواصل مع المتلقي الداخلي يتمّ بسهولة نسبية، ودون تعقيد ملحوظ، إذ يصار إليه من خلال وسائل ووسائط الإعلام، وأدوات التحشيد والتعبئة وتثوير الوعي والمخيال، كما من خلال

الشعارات والمهرجانات والعروض الفنية، ومن خلال تثمير الرساميل الرمزية، وتفعيل الخزين القيمي والديني والإيديولوجي والوطني... ما بالمقدور القبض على حيثيته، وضبط إيقاعاته ومفاعيله، وإحكام قيادته وسوقه؛ فإنّ الصعوبات الحقيقية تكمن في تخيّر القنوات المناسبة لإيصال الرسائل للعدو، كما للجمهور المحايد من المتلقين، حيث يتطلب الأمر تفعيل كلّ السبل، وتوسّل كلّ الأساليب النفسية المباشرة وغير المباشرة، بدءا بالدعاية والإعلان والأنشطة الإعلامية، مروراً بالنشاط الدبلوماسي والجهود الاقتصادية، وليس انتهاء بالمناورات، وعراضات القوّة، والعمليات الأمنية والاستخبارية، والأعمال العسكرية والحربية.

خامساً - تقييم التأثير: هو عنصر مصاحب ومواكب لكلّ مراحل الحرب النفسية، منذ لحظة تخلقها وانطلاقها، إلى أن تضع أوزارها؛ فلا ينبغي لمرحلة أن تخلو من عملية تقييم ومراجعة وضبط. ويصار إلى تقييم وقع رسائل الحرب النفسية على جمهور العدو، وقياس ردود فعله حيالها، كما قياس النتائج وملاحظة الآثار بالاستناد إلى مصادر متنوّعة: التوقع، ترصّد الإعلام التابع للعدو، الوثائق المستحوذ عليها، الجواسيس والعملاء، استجوابات سجناء الحرب، مواقع العدو على شبكة الانترنت...

مبادئ الحرب النفسية

تنهض الحرب النفسية ويستقيم عودها على جملة من المبادئ التي ترسّم لها خريطة طريق عملها واشتغالها، وتشكل دليل صحتها وسلامتها؛ نحو:

أ- ينبغي لمصدر الرسالة أن يتوافر على المصداقية والموثوقية، كي يستحوذ على تصديق جمهرة المتلقين له، وينال ثقتهم به؛ فكثيراً ما كان يعرض الناس عن سماع إذاعة معينة أو يأنفون من قراءة صحيفة محدّدة أو ما شاكل...، لمجرد انكشاف كذبها، وزيف ادعاءاتها، وما تحوكه وتصطنعه من فبركات وتلفيقات، وما تروّجه من شائعات وأكاذيب. كما ينبغي أن يتمتع مصدر الرسالة بالجاذبية، والمقبولية، وإنْ أمكن بالنجومية والكاريزمية، كي يأخذ باللباب والجوارح، ويستحوذ على العقول والقلوب والأفئدة؛ فالشخص المغمور أو المكروه أو غير المحبّب لا يستهوي الناس، فلا يقبلون على سماعه والإنصات إليه، وإنْ أنصتوا وأصغوا لا يصدقونه. ولذلك يصار إلى الإفادة على هذا الصعيد من الشخصيات المحبوبة أو المقبولة أو المرموقة.

ب- ينبغي للجهة الناظمة للحرب النفسية أن تتوافر على دراسة المجتمع المستهدف دراسة معمّقة يصار فيها إلى الإحاطة به إحاطة شاملة؛ بحيث يكون بمقدورها الوقوف على اتجاهاته، ومعرفة ميوله وحاجاته وعقائده وعموم مكوّنات وعناصر ثقافته. كما يكون بمقدورها تقديم أفكار أو حقائق جديدة للمتلقي- المستهدف، وتوظيف هذه الحقائق لخدمة أجندتها وغاياتها وأغراضها، مع تخيّرٍ وانتقاء لما يحظى منها بمقبولية المتلقي ويستثير التفاتاته وانتباهاته، ومجانبة تلك التي ينفر منها ويرفضها على نحو قاطع. ما يقود إلى محاذرة الجهة الناظمة للحرب بثّ رسائل تخدش الذائقة العامة، والمزاج العام، والحساسيات الجمعية، وتتعارض مع عموميات ثقافة المجتمع؛ كالمساس بالدين، أو المساس بالمقدسات، أو بالعادات الراسخة...

ج- إنّ الحرب النفسية هي من طبيعة عابرة للزمان والمكان؛ تمارس قبل الحرب لتهيئة عقول المتلقين وإعداد نفوسهم. وتمارس خلال الحرب لخفض الروح المعنوية والإرادة القتالية للأعداء وتشكيكهم بعدالة قضيتهم وسلامتها، في قبالة الإعلاء منهما عند جمهور الجهة الناظمة للحرب، فضلاً عن تعزيز الاعتقاد لديهم بعدالة القضية التي يحاربون من أجلها. وتمارس بعد الحرب لتثبيت مكتسباتها، وصون انجازاتها وفتوحها.

والحرب النفسية أيضاً هي من طبيعة عابرة للجغرافية: لا تعرف الحدود ولا السدود ولا الفواصل؛ تمارس عبر الفضاء والأثير، وتنطلق لتجوب العالم كله. وتتوسل أدوات ووسائل وأسلحة، لها من الفعالية والتأثير بما يفوق صنوها من الأسلحة والأدوات العسكرية والعنفية.

د- ينبغي للحرب النفسية أن تأخذ بتقنية التكرار، بوصفه أداة فاعلة للحفر عميقاً في الوعي، شريطة أن يتزيّا بغير زيّ، وأن يتلوّن بغير لون، وأن يتقمّص غير لبوس ووجه، وأن يُصار إلى تقديمه بهيئات وأشكال متعدّدة، كما إلى تغليفه بالمؤثرات القائمة على وسائل الإثارة والجذب والتشويق، دفعاً لإصابة المتلقي بالملل والنفور.

هـ- ينبغي للجهة الناظمة للحرب النفسية أن تصطنع حالة من الغموض الفاعل والمساعد على تفعيل العمليات النفسية، وعلى تمرير الرسائل، وإشاعة الشائعات وانفلاشها وتشظيها وانتشارها... ما من شأنه أن يستثير جمهور المتلقين، ويستولد لديهم الفضول وحبّ الاستطلاع والاستكشاف والاستعلام. فتأتي الرسالة كاستجابة طبيعية لإشباع الحاجة إلى المعرفة، بعد أن تفرض نفسها واقعاً قائماً؛ تحظى بقبول المجتمع ورضاه، وتخفض مستوى التوتر الناجم عن الحرمان من المعرفة بالحقيقة.

و- ينبغي للجهة الناظمة للحرب النفسية أن تتوسّل تكنيكات دعائية قوامها التضخيم والمبالغة والنفخ والغلو في تظهير عناصر القوّة والاقتدار والبأس والجبروت، وذلك لترهيب الأعداء، وإضعاف معنوياتهم، والإضرار بوعيهم كما بروحهم القتالية، ولإشاعة الخوف والفزع والرعب في نفوسهم. وآية ذلك ما استنجدت به الولايات المتحدة الأميركية في حملاتها وحروبها الحديثة بالتساوق والتزامن مع تغطيات إعلامية واسعة النطاق؛ كالمبالغة في عراضات القوّة: عديد الجنود من القوات المسلحة والإشارة إلى إعدادهم وتدريبهم على أنواع الحروب كافة، توجّه المدمرات والبوارج وحاملات الطائرات والأساطيل البحرية والمدرعات وأسراب الطائرات المقاتلة والقاذفة، التهديد باستخدام أسلحة الدمار الشامل، أو الأسلحة النووية والكيميائية والجرثومية والبيولوجية، استخدام الغازات السامة والقنابل الضخمة والعنقودية والهيدروجينية...

ز- ينبغي للجهة الناظمة للحرب النفسية أن تجهد لخلق وتقديم صورة برّاقة ومشرقة عن مجتمع العدو وبيئته في حال خضوعه واستسلامه، وتوقفه عن الحرب، وقبوله بشروط الهزيمة(234)، وهي بالضرورة خلاف صورته التي صير إلى تسويقها قبل الحرب؛ كأن يصار إلى الإيحاء بإستعادة عافيته، ونهضته، وتبنيه لمنظومات الإصلاح، وانخراطه في ركب الحضارة والتطوّر والدولة المدنية، واستلهامه لقيم الديمقراطية والليبرالية ...

ح- ينبغي للجهة الناظمة للحرب النفسية أن توجّه قوس رسائلها وسهامها نحو ما يتنازع مجتمع العدو من مشكلات ومآزم، وما يعتوره من هشاشة وهنات وشوائب. حيث يصار إلى التصويب على ما يعتمل فيه من فقر وحرمان وعوز وجوع ...، والإشارة إلى ما ينوء تحته من أثقال وأحمال، ومن أزمات كبرى تتهدّد كيانه، وتعصف بنسيجه المجتمعي؛ كالبطالة، والفساد، وانعدام فرص العمل، وتدنّي مستوى العيش، وندرة المساكن، وصعوبة الزواج، وصعوبات التعليم ...

ط- ينبغي للجهة الناظمة للحرب النفسية أن لا تمعن– إسرافاً- في خطب ود العقل، وفي إعمال المنطق والحجة عند صوغ وتحرير رسائلها؛ بل أن تصرف جُلّ اهتمامها ورعايتها وعنايتها، للاستحواذ على عواطف الناس، وقلوبهم، ووجداناتهم، وانفعالاتهم...

اتجاهات الحرب النفسية

لقد حدّدت العلوم ذات الصلة اتجاهات الحرب النفسية على نحو تتوزّعه وجهتان رئيستان، هما:

أ ـ وجهة دفاعية

وفيها يصار إلى اتخاذ وتبني سلسلة من الأهداف والسياسات والإجراءات والوسائل والأدوات التي من شأنها تنشيط المناعة الداخلية للدولة الناظمة للحرب وتعزيزها وتحصينها، وحماية النسيج المجتمعي والانتظام العام فيها، كما حماية مكوّنات الوحدة الوطنية، بما يفعّل من القدرات الحمائية والردعية، ويظلل الدولة بمظلة تحول دون انجراف جمهرة المواطنين(235) فيها وراء التيارات الهدامة التي تأتيها من غير جهة وصعيد. على أنّ ذلك كله لا يستوي على نحو فاعل، ولا يأتي ثماره وأكله دون أن يتزامن ويتساوق مع إطلاق نشاط مكثف لإضعاف العدو، وإشغاله، وشلّ قدراته، وتعطيل مشاريعه، وإفشال مخططاته التآمرية، وإعطاب أدوات عمله واشتغاله، وبيان سفه حجته ومنطقه، والحدّ من قوته، ومنعه من الاستمرار في شنّ حملاته الهجومية. بما يمكن توصيفه تجوزاً بـ(دفاع هجومي)؛ أي إنّه دفاع بطبيعة هجومية أو هجوم ولكن بخلفيات دفاعية.

ب- وجهة هجومية

وفيها يصار ضمن عملية منظمة شاملة، إلى توسّل السيطرة على وعي الآخر- سواء أكان جماعة معادية، أو محايدة، أو صديقة– واستلاب عقله وأفكاره ومخياله وذاكرته وإرادته ومعنوياته واتجاهاته...، وتسخيرها جميعاً واستغلالها وفق مشيئة الدولة المنظمة للحرب، وبما يتناسب مع رغباتها ومصالحها، وبما يتأدّى في حصيلة الأمر إلى تجريد هذا الآخر من الروح المعنوية، وتقويض ثقته بذاته وبقدراته، والقضاء على حافزيته ودافعيته، وكيّ وعيه، وتحطيم إرادة الصمود والقتال والممانعة لديه. واستطراداً، دفعه إلى التسليم أو الاستسلام(236)، بعد أن يُعمل على كبح جماح اندفاعته، كما على تعريته من قواه الرمزية الفاعلة، وجعله لاإرادياً يتقهقر وينكفئ، بحيث يصار- بطريقة لاعنفية– إلى تحقيق الغايات المطلوبة عسكرياً في زمن الحرب.

مرتكزات الحرب النفسية الإسرائيلية(237) في مواجهة العرب

لقد انطوت الحرب النفسية(238) التي خيضت ضد العرب على مدار عقود عديدة من الزمن على روائز ومرتكزات رئيسة، عكف الإسرائيلي على تفعيلها، نحو:

أولاً - تشويه صورة الإنسان العربي

لقد مارس الإسرائيلي بروباغندا دعائية مسفة، دأبت على تشويه صورة الإنسان العربي، بل وعلى مسخه وتظهيره بنحو من الخفة، والهجانة، والجبن(239)، والغباء، والتخلف، والجهل، والرذيلة، وقلة الحيلة، وسوء التدبير، والتأمر، والغدر، وضيق الأفق، وقصور النظر والتفكير... وما إلى

ذلك من صفات غير حميدة. وقد استنجد في سبيل تسويغ وتبرير مزاعمه وادعاءاته بما كان بعض الاستشراق الغربي قد توصّل إليه في القرنين المنصرمين- عبر دراسات هادفة تفتقر إلى العلمية والمهنية والدقة- من خلاصات تقيمية مجحفة بحق الإنسان العربي، هي ليست إلا إسقاطات صادرة من شوفينية مقيتة، وعنصرية مقزّزة، ومن جاهزيات ومسبقات وأحكام قبلية. والحال، كان من اليسير انرساب وانرساخ مثل هذه الصورة الزائفة في الوجدان الغربي، حيث تلقفها وعيه الجمعي، كما مخياله العام دون عناء أو كلف أو مشقة: «إنّ العربي متخلف ورجعي، ولم يكن جنديا جيداً» يقول سامي مسلم من أطروحة تقارب صورة العربي كما تتبدّى في الصحافة الألمانية «إنه يهرب إلى الصحراء أمام الجيش الإسرائيلي. ليس على معرفة بالتقنية الحديثة والتنظيم الحديث. حالم، خيالي، يحب النوم، إرهابي، جبان...»(240).

وفي سياق متصل قدم حلمي ساري في مقاربة من كتابه «صورة العرب في الصحافة البريطانية»(241)، من ما تعكسه هذه الأخيرة من صور مشوّهة ذميمة تضع من قدر العربي، وتحطّ من مكانته وسمعته وأهليته، ومن قدراته الذهنية العقلية.

لكنّ الخطورة الأكبر والأشدّ وطأة وتأثيراً على هذا الصعيد؛ إنّما تكمن في احتفال البرامج التربوية، كما الكتب المدرسية بمساحات وحيّزات واسعة من التشويه الذي طاول على نحو مقزّز صورة العرب، ونال دون وجه حق من تاريخهم وإنسانيتهم وحضارتهم، وأعمل معاول الهدم والتشكيك في كلّ ما ينسب إليهم، أو يتصلّ بهم، من فتوح وكشوف وإنجازات وعلوم... «فالعنصر العربي» تقول مارلين نصر من دراسة وقفت على تمظهرات وتمثلات صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية «هو البادئ بالعدوان، المتسبّب به والخاسر دائماً. كما أنّ العرب: جامدون وبطيئون في العمل، حالمون، مطيعون لأوامر رؤسائهم، يهربون أمام المخاطر، يقبلون الاتهامات الظالمة دون دفاع عن أنفسهم، قدريون يؤمنون بالنصيب، يحلمون بالهرب إلى عالم خيالي ينتمي إلى الماضي»(242).

وفي موازاة عملية تزييف الوعي الغربي هذه، صير إلى عملية تزييف مماثلة طاولت الوعي الإسرائيلي، حيث أعملت فيه تصوّرات ومبان شفت عن تنمط صورة للمقاتل العربي الخائف، المرتعد، الجبان، الفرّار الذي يولي الدبر، ولا يعرف إلى النصر سبيلاً(243). وكانت الذاكرة الإسرائيلية الجمعية قد حفظت هذه الصورة المنمطة للمقاتل العربي، كما تلقفها الوعي والمخيال الإسرائيليان، حيث جرى تحنيطها، وتأبيدها، وتسويقها، وتداولها، والاقتناع بها كصورة نهائية لا يدركها صلاح ولا تغيير. وقد ساعد على ثبات هذه الحمولات المفاهيمية لصورة المقاتل العربي؛ مكنة المؤسّسة العسكرية والأمنية الإسرائيلية على جلب الانتصارات الخاطفة والسريعة على مدى عقود من الصراع، في قبالة متوالية لا تنضب من الاخفاقات والانكسارات والهزائم والنكسات والنكبات التي عصفت بالجيوش العربية مجتمعة في غير موقعة وحرب.

ولكي تكتمل مشهدية تزييف الوعي حيال صورة العربي؛ كان لا بدّ من حرب نفسية ضروس توسّلها الإسرائيلي لإحداث تغيير سلبي حادّ في صورة العربي حيال نفسه(244). كان ركن هذه الحرب الركين استواء معادلة «إدراك الهزيمة في وعي العدو، وإدراك النصر في وعي الذات». وقد وفِق الإسرائيلي إلى تحقيق نجاحات باهرة على هذا الصعيد، إذ استطاع «كيّ الوعي»(245) العربي وفقاً لتعبير موشيه يعلون(246)، وكبحه، وتجويفه، وهزمه نفسياً وعقلياً عبر خلق وهم القوّة الإسرائيلية فيه... ما تأدّى إلى ارتهان هذا الوعي، واستتباعه، واستلاب روحه وإرادته،

وانهيار حافزيته ودافعيته، والحؤول دون استشعاره بالنصر والتمكين والاقتدار والعزّة والغلبة، وإنّما إبقاؤه دوماً في حظائر الخوف والارتداع والاحجام وفي كنفٍ من التقوقع والانكماش. هذا في قبالة بعث الوعي الإسرائيلي، ونشره، وإشعاره بالاقتدار والتمايز والتعالي والتفوّق والحيوية، وتعزيز ثقة الجندي الإسرائيلي بنفسه وبإمكاناته وقدراته ومهاراته، بحيث تنجلي صورته على هيئة صانع الأمجاد والإنتصارات والمعجزات والفتوح، وقاهر الأعداء، العصيّ على الهزيمة والانكسار والتقهقر، بما يصحّ فيه الوصف: الجندي- النخبة، ويغدو معه الجيش: الجيش الذي لا يُقهر (247).

ثانياً - تظهير إسرائيل لنفسها على صورة الحضارة الغربية

ألحّ الإسرائيلي على إظهار كيانه العبري- تزلفاً- على غير ما هو عليه، دولة عصرية ذات نظام علماني ديمقراطي، يتبنى قيم الحضارة الغربية، ويمارسها، ويدافع عن الحريات والتعدّد والتنوّع والاختلاف، بل يحرص على الادعاء أنّه الديمقراطية الحقيقية الوحيدة في الشرق الأوسط الذي مازالت تتآكله الرجعيات، والممالك، والامارات، والديكتاتوريات، والثيوقراطيات، والتوتاليتاريات. «لقد أخذ التنظير منحى جديداً في العقد الماضي» يقول لويس برنار «من خلال الادعاء بأنّ المجتمع العربي– الإسلامي يتناقض مع الديمقراطية والمساواة بين الناس، وأنّ إسرائيل تمثل الجزيرة الديمقراطية الوحيدة في الشرق»(248). لكنّ صنيع اليهود الحضاري إذا ما صير إلى مقايسته بصنوه العربي؛ هو ليس «سوى سطور قليلة متناثرة في كتاب حضارة الشرق الأوسط الضخم الذي سطره العرب» على حدّ تعبير المؤرخ هـ. ج. ويلز (249)، في حين أنّ حقيقة إسرائيل- على خلاف ما تدعي، بل على النقيض منه- هي دولة يهودية مولودة سفاحاً، شوفينية، عنصرية، دينية، قوامها نقاء العرق والدم، وتاريخها حافل بالمجازر، والتقتيل، والتدمير، والتهجير، والإبادة الجماعية، والاعتقالات، وممارسة القمع، ومصادرة الحريات، وتفعيل استخدام القوّة، واستباحة الأرض والعرض، والزرع والضرع، والبشر والشجر والحجر... أمّا الغاية من هذه المراوغة الخادعة والمضللة التي تأخذ إسرائيل بناصيتها؛ فهي إظهار وجودها في المنطقة كضرورة ملحّة لتجسير هذه الأخيرة بالحضارة الحديثة، وإظهار صراعها مع العرب على أنّه صراع حضارات، واستطراداً تحويل أي عداء عربي تجاهها إلى عداء للحضارة الغربية. فإسرائيل– وفقاً لمقصد هذه الأطروحة- لا تستهدف إلا لكونها تنتمي حضارياً إلى جذر الحضارة الغربية، كما بوصفها ممثلة لقيم هذه الحضارة وسط بيئة حضارية مفارقة ضاربة في البربرية والوحشية والتخلف(250).

وليس آخر مصاديق وترجمات هذه المراوغة الماكرة، محاولة إسرائيل استغلال لافتة الحرب على الإرهاب التي رفعت لواءها الولايات المتحدة الأميركية بالتكافل والتضامن مع حلفائها الغربيين في أعقاب أحداث الحادي عشر من أيلول من العام 2001، وبعد أن حُوّلت وجهة الصراع الكوني إلى صراع حضارات متناحرة، وفقاً لصموئيل هنتنغتون؛ فقد أدخلت إسرائيل عجلة حروبها- مع حركات ودول المقاومة والممانعة- طيّ أجندة الحروب الدولية والأممية على الإرهاب، على النحو الذي أريد له أن يكون- لو قدّر له النجاح- في الحرب على لبنان في الثاني عشر من تموز من صيف العام 2006، وفي الحرب على قطاع غزة في العام 2008. كما في كل محاولاتها الدائبة لخلق روافع ضغط دولية وأممية على سوريا وإيران.

ولذلك نرى إلى المسؤولين الإسرائيليين في غير موقع قيادي، كيف ثمروا حضورهم في غير مناسبة، ومن على غير منبر دولي، للادعاء والزعم بأنّ إسرائيل هذه، هي ربيبة الحضارة الغربية، ووليدتها الشرعية، ومصداقها الشرق الأوسطي، وسفيرها وسط رجعيات ورسميات متخلفة؛ الأمر الذي يرتب– وفق الشرط الإسرائيلي الملحّ- على أرباب هذه الحضارة، ورعاتها، والقائمين عليها، أن يضطلعوا بمسؤولياتهم التاريخية حيال إسرائيل، أن ينبروا للدفاع عنها، وأن يفعلوا قدراتهم وإمكاناتهم في سبيل تحصينها، واحتضانها، وتوفير الحماية والأمن والازدهار لها. تكفي العودة إلى أرشيف الإطلالات الإعلامية والسياسية لقادة إسرائيل ليصار إلى الوقوف على حقيقة هذا الأمر؛ فلا يكاد يخلو لقاء سياسي أو إعلامي أو دولي من الإشارة- زعماً وادعاء- إلى أنّ إسرائيل هي الدولة الوحيدة بين دول الشرق الأوسط، التي تستقيم في ربوعها الديموقراطية كفلسفة، وممارسة، ونظام حكم، وطريقة عيش وحياة(251)، بل هي تقع على خط الزلزال في دفاعها عن منظومة القيم الغربية الحديثة، حيث تتصدّى لمحيط ماضوي غارق في الظلامية والجهل، «لا ندري» يتساءل رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو مستنكراً، في معرض تعليقه على ثورة الخامس والعشرين من فبراير المصرية «ما الذي تخبئه هذه الثورات للمنطقة ولإسرائيل التي أصبحت واحة الديموقراطية الوحيدة في منطقة تعمّ بالديكتاتوريات»(252).

ثالثاً - الحرب النفسية المباشرة

وهي حرب شائعات تعكف الدوائر المعنية في الكيان العبري على صياغتها وبلورتها وإطلاقها، وتحديد توضّعات عملها واشتغالها. وتحتاج عموماً إلى خزينٍ معرفي يقتضي وفرة وإحاطة بمعلومات ذات طابع نفسي، واجتماعي، وثقافي، وتاريخي، وأنثروبولوجي.

أبرز ما صير إلى تداوله من شائعات، كان لها بالغ الأثر على نتائج الصراع:

أ- شائعة التضامن اليهودي

يحرص الإسرائيلي على تظهير صورة تضامنية لليهود، كما يحرص على إشاعتها وتسويقها وتعميمها، وعلى إيهام كلّ من يقع خارج حدود جغرافيته الدينية والسياسية؛ أنّ ما يحكم اليهود- على اختلاف أطيافهم ومشاربهم- في علاقاتهم بعضهم ببعض، وما يشدّ أواصر القربى بينهم، هو التضامن والتكافل والانصهار والوحدة واللحمة والأخوة وذات البين، والائتزار بإزار الدولة والدين والقومية. فاليهودي هو عضدٌ لمثيله اليهودي، وهو عون له ونصير، وساعد وحافظ وكفيل، بنحوٍ يصبح فيه انتظامهم المجتمعي كالبنيان المرصوص، أو قل كالجسد الواحد الذي إن اعتلّ منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

لكنّ ذلك خلاف الحقيقة والواقع، فيهود الدولة العبرية- كما تشفّ الدراسات الفاحصة- ليسوا إلا حالة تلفيقية هجينة صير إلى تجميعها اصطناعياً، وإلى تحشيدها وبتسرتها كي تكون ثمّة دولة، ويكون ثمّة شعب. كما إنهم ليسوا سوى خليط فوضوي مهجّن من الأعراق والأطياف والثقافات والقوميات المتنوّعة والمختلفة والمتناقضة، التي لا رابط يربط بينها، ولا يجمعها جامع، فهم ذوو قلوب شتى، متباعدون على قربٍ(253)، ومشرذمون شرذمة الشتات الذي أتوا منه. لنستمع إلى الأديب والشاعر الإسرائيلي نتان زاخ في مقابلة له مع صحيفة معاريف في الثلاثين من شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام 2011، وهو يشرح مأزم الدولة العبرية: «هذه الدولة لن تصمد» يقول نتان زاخ، ولست متفاجئاً أن تصل- أي هذه الدولة- إلى «وضع يكون فيه الإنسان للإنسان

ذنباً. في نهاية المطاف نحن نعود إلى فترة ديفيد بن غوريون لإنتاج آتون صهر. فقد اعتقد بأنك إذا أخذت أناساً مختلفين من عقائد مختلفة، من أجزاء أخرى من العالم، من تقاليد وثقافات متنوّعة، وتضعهم كلهم في مطحنة واحدة؛ فإنّهم جميعاً سيصبحون متشابهين. في الحياة هذا ليس بسيطاً بهذا القدر. والدليل أنّ أميركا لم تنجح خلال 300 عام من التغلب على الفوارق الاجتماعية لناسها (...) في الدين أيضا تقرّرت ثغرات، وإن كان لزمن قصير خُيّل أنّه عامل موحّد بين المتدينين الأشكيناز والمتدينين الشرقيين، ناطوري كارتا، جماعة حباد، بار سليف والباقين». ويخلص نتان زاخ إلى تسفيه مقولات الانصهار اليهودي ومزاعم التضامن بالقول: «هذا الأمر الذي يسمّى إسرائيل، هو شعب لاجئين من كلّ أنواع البلدان، بلغات مختلفة، طبائع مختلفة، آداب مختلفة، ثقافة مختلفة وتقاليد مختلفة. هذه الأمور لا يمكن أن تلتحم بالضغط، حيال عدو خارجي في ظل انعدام القاعدة المشتركة (...) ليس لدينا في واقع الأمر شيء».

والحال، يعيش الكيان العبري حالة من التناقض والتفارق البنيوي الحادّ على غير صعيد «بين اليهود الشرقيين (السفرديم) واليهود الغربيين (الأشكناز)، وكذلك بين اليهود المهاجرين إلى فلسطين واليهود المولودين فيها»(254). ويكفي لتعليل ذلك، أن نقف على ما أشار إليه راحيلا مزراحي لدى مقاربته للفروق التي تستبدّ بالانتظام المجتمعي للدولة العبرية: «في حرب تموز» يقول مزراحي «حينما تخلت إسرائيل عن سكانها في الشمال الذين هم في غالبيتهم من اليهود الشرقيين، الذين وزّعتهم المؤسّسة الصهيونية على حدودها كـ(لقمة مدفع) في خمسينيات القرن الماضي، التقطت كاميرا إحدى القنوات التلفزيونية الإسرائيلية لقطة معبّرة جداً، تلخّص أزمة اليهود الشرقيين وآمالهم: الصورة كانت ليهودي شرقي يعبّر عن أمنيته باستبدال السيد حسن نصر الله بقيادته الخائنة. المراسل لم يفهم مغزى هذه الواقعة، حيث عدّها احتجاجاً على خيانة القيادة الإسرائيلية لسكان الشمال فقط، لكنّني على قناعة بأنّ ذلك الكلام كان في جوهره أعمق وأكثر تعقيداً ممّا فهمه المراسل التلفزيوني، ووجب التمعّن ملياً في طبقاته ومستوياته»(255).

كما بالمقدور الوقوف– للاستدلال أيضاً– على ما سمّي بمأزم مدرسة بنت يعقوب في مستوطنة عمانويل، في السادس عشر من شهر حزيران من العام 2010، والذي لما يبرأ من مفاعيله بعدُ المجتمع الإسرائيلي ككلّ. وهو مأزم ذو أبعاد متعدّدة: اجتماعي، واقتصادي، وسياسي، وديني... ما يؤشر إلى حجم ونوعية الشرخ المتعدّد الوجوه القائم أصلاً في هذا المجتمع. وفي تفاصيل الحادث، وقع خلاف قديم- متجدّد بين كلّ من الشرقيين والأشكناز، وبينهم وبين الدولة بسبب من ممارسة إدارة المدرسة- وهي بالمناسبة مدرسة دينية تتلقى موازاناتها المالية ومصارفاتها من الدولة- سياسة التمييز العنصري بين الطالبات. في ظاهرة غريبة لا نقع على مثيل لها إلا في القرون الأولى والوسطى من عمر البشرية. وحيث أنّ موضوعة التمييز هي موضوعة شائعة جداً في الوسط الحريدي اليهودي؛ فقد جاءت قضية هذه المدرسة لتفجّر وضعية تاريخية، ولتظهر حجم التناقضات القائمة ونوعيتها .

والجدير بنظر الاعتبار؛ أنّ هذه القضية- المأزم التي فجّرها الحاخام يعقوب ابن المرشد الروحي لحركة شاس(256)، قد أثيرت قبل ثلاث سنوات، حين كان التمييز يمارس بشكل علني، وعلى رؤوس الأشهاد: كان ثمّة سياج عنصري داخل المدرسة للفصل بين الطالبات الأشكناز والأخريات الشرقيات. أصدرت المحكمة العليا قراراً بإزالته، فما كان من إدارة المدرسة إلا أن تحايلت على القرار، فعمدت إلى الفصل بين الطالبات داخل الفصول الدراسية. بعد ذلك أصدرت المحكمة قراراً

آخر قضى بإلغاء التمييز داخل الفصول، لينتقل التمييز إلى إجراءات قبول الطالبات. وكان قرار المحكمة الأخير القاضي بإزالة كلّ مظاهر التمييز، دافعاً لقرابة ثلاث وأربعين عائلة يهودية، إلى إخراج بناتهم- الطالبات من المدرسة، والامتناع عن إدخالهن إلى أيّة مدرسة أخرى احتجاجاً على قرار المحكمة.

وبالعودة إلى شائعة التضامن اليهودي، بعد هذا الاستطراد الهادف والدال، فإنّ شائعة التضامن تلك، لا يستقيم لها عود، ولا يشرئب لها عنق، كما ليس بالمقدور أن تؤتي أكلها، إذا ما وقفت عند هذا الحدّ دون التمدّد إلى حيثيتها الأخرى: التشرذم العربي. بمعنى أنه؛ لا بدّ أن يقابل التضامن اليهودي بصورته المزعومة والمفبركة، فرقة عربية وتنابذ واختلاف واقتتال واحتراب وتنازع وافتتان. حيث يلحّ الإسرائيلي على إظهار العرب أطيافاً شتى، وفرقاً متناحرة، وجماعات ومذاهب وإثنيات. كما يلحّ على إثارة البلبلة بينهم، وإحداث الفتن والاضطرابات والقلاقل، وإشعال الحروب والنزاعات، وتعزيز نزوع الشعوب العربية نحو التفكك والقطرية عبر تغذية الوعي الذاتي لديها بتكوين هويات مناطقية مزدانة بالقيل الأيديولوجي، حيث نقع على أصوات ودعوات مشبوهة ليست إلا تعبيراً عن شوفينية مرضية مقيتة؛ كـ(مصر أولاً)(257) ، و(الأردن أولاً)(258) ، و(لبنان أولاً)(259)... وما إلى ذلك من دعوات قطرية جاءت كمحرّضات على تبنّي وجهة الحياد في أطروحة الصراع العربي- الإسرائيلي، كما جاءت كممهّدات لشرعنة وتبرير إقامة تسويات منفردة مع الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين.

والغريب أنّ مثل هذه الدعوات إلى القطرية، بما يصاحبها من تفكك وانحلال وتوضّع داخل الحدود الجغرافية للدولة؛ إنّما تأتي من سياقات يتيمة على عكس اتجاهات رياح التغيير العالمية والكونية. ففي ظل توجّه العالم لإقامة منظومات قارية أو اتحادات يكون بمقدورها مواكبة التطوّر المطرد في دنيا العلوم والاتصالات والتكنولوجيا، الذي لم تعد حتى الإمبراطوريات السابقة كفرنسا وبريطانيا قادرة على مجاراته منفردة؛ تتجه بعض الرسميات العربية إلى حالة من العزلة، هي ليست إلا لغايات في نفس يعقوب.

ب- شائعة الخيانة

هي شائعة جاهزة يصار إلى تعميمها وتسويقها ونشرها، ضداً على أيّة شخصية عربية، في أي موقع كانت، تتملكها الجرأة على رفع الصوت في قبالة إسرائيل، وتتسبّب في إحراجها، أو إزعاجها، أو إضعافها، أو محاصرتها، أو تعمل على الإضرار بها، بحيث يصار إلى اختلاق الأكاذيب، واصطناع الوقائع، وفبركة الأحداث، وربطها جميعاً بكيفية توحي بخروج هذه الشخصية من وطنيتها، وتحللها من التزاماتها ومسؤولياتها، والتحاقها بمحاور وأحلاف واصطفافات، وارتباطها بأجندات عمل خارجية. في حين أنّ المتعامل مع إسرائيل يحظى بوفرة الألقاب الغنّاء؛ كالمتحضّر، والمتنوّر، والليبرالي، والضنين على عمل مؤسّسات الدولة...

ج- شائعة التفوّق النوعي

هي شائعة تمأسست على مقولة اصطفاء الله (جل وعلا) لليهود دون أصناف البشر؛ فلطالما مارس اليهودي طقوساً خاصة بوصفه شعب الله المختار، وحاكى في سبيل ذلك الأساطير، ونسج الحكايات والمأثورات التلمودية ذات الصلة، وترجم ذلك في سلوكياته وأعماله: اعتداداً وتعالياً وغطرسة وتعجرفاً، حتى بات يرى إلى نفسه من جبلة غير جبلة سائر الناس، من حيث أنّه «يقيم

علاقة متفرّدة بالله، ويؤمن بأنّه متفوّق على الناس جميعهم»(260). ما كان يفضي بمقولات «الشعور بالتفوّق»، و«شعب الله المختار»، و«العلاقة الفريدة بالرب»، وسواها من المقولات الشوفينية المتعالية، إلى رغبة جامحة تملكت اليهودي «في الانتصار على الآخر»(261).

وكان اليهودي قد وظف كلّ هذا الخزين الأسطوري والإيديولوجي والاعتقادي والرمزي في صراعه مع العرب؛ فلم يعدم وسيلة للتنكيل بالذات العربية- المسلمة، وتوهينها، وتسفيهها، والإسفاف بها، وإشعارها بدونيتها حياله، وتوليد الإحساس لديها بتصاغرها، وتقزّمها، وضآلتها، وعجزها، وضعة شأنها ومكانتها، وانهزامها النفسي والعقلي أمام الاعتبارية الإلهية لليهودي. وقد كان لسجل الانتصارات التي توافر عليها الإسرائيلي في حروبه مع العرب (1948، 1956، 1967، 1973، 1982)، على الرغم من الاختلال الحادّ في الموازين العددية والكمية لغير مصلحته؛ فضيلة كيّ الوعي العربي، وانهزام الروح العربية، وإثقال الذاكرة العربية الجمعية بشائعة التفوّق النوعي الإسرائيلي.

لكنّ الحديث بشأن التفوّق النوعي، لا يصحّ دون ترميم وتلميع صورة اليهودي كما حفظتها الذاكرة التاريخية والإنسانية للشعوب؛ فقد تكشّفت دراسة نفسية قام بها الباحثان الإسرائيليان تامارين وبن تسافي في العام 1969، عن أنّ اليهودي هو إنسان أحدب ونحيف، ذو نظرة غريبة، ضعيف ومتمارض، عيناه عصبيتان، له ضفائر سوداء وذقن، شاحب وتتبدّى عليه بسرعة علائم الشيخوخة والتجاعيد والرعشة، يرتدي ملابس أوروبية باهتة وبالية، ويعتمر على رأسه قبعة أو طاقية. أمّا من حيث الشخصية؛ فهو منغلق وغريب في كلّ مكان. يستولي عليه الخوف والشكّ، يبتعد من مخالطة الناس، ثقيل الحركة ويفتقر إلى اليقظة والنشاط. ليس لديه تقدير لذاته، منحط، صامت، خجول، مرتبك، روتيني، يعجز عن الاستمتاع بالمباهج.

كما تذهب غير دراسة المذهب عينه لدى إشارتها إلى هذه الصورة التقليدية المنمّطة للإنسان اليهودي في الوعي الغربي، من حيث أنّه «شرقي السمات، متجعّد الشعر، ذو أنف معقوف قليلا، بخيل، محبّ للكسب والمادة، يستعمل الحيلة لبلوغ مآربه ومرائي»(262).

هذه الصورة، على ما حوت من عورات ومثالب وعيوب، ترسخت عبر قرون من الزمن في الذاكرة التاريخية والجمعية، وتناقلتها الأجيال جيلا بعد جيل، فأصبحت جزءاً من التراث الإنساني الذي لا يمكن طمسه بيسر، وقد بلغت حدّاً من السوء جعل اليهود أنفسهم ينبذونها، ويرفضونها، ويأنفون منها. لذلك عكفت الدعاية الصهيونية- وقد حققت نجاحات كبيرة في هذا المضمار- على محو هذه الصورة التقليدية لليهودي العالقة في الذهنية الغربية، وتركزت على ترميمها، وتشذيبها، وتلميعها، وفي قبالة ذلك على تظهير صورة اليهودي العبقري، الذكي، الموهوب، المثالي، الإنساني، ذو الإخلاق، المحبّ للسلام، الميّال للفكاهة والمرح، المتفوّق، الناجح، القويّ، النشيط، الصاخب بالحيوية والحياة، الشجاع، والقادر على مواجهة التهديد، وصناعة الفرص، وتحقيق المعجزات؛ حيث صير إلى الإفادة من المنجزات العلمية والفكرية والسياسية لكلّ من كارل ماركس(263) وسيغموند فرويد(264) وألبرت أنشتاين(265)، وتثمير ذلك في الإيحاء بقدرة اليهودي الأسطورية على تغيير مجرى الأحداث في العالم.

ويُسجّل للدعاية الصهيونية هنا قدرتها، ليس على تحميل مثيلتها النازية مسؤولية ما ألحق بصورة اليهودي حديثاً من تشويه وتقزيم وإضرار فقط، وليس على إزاحة وإبعاد ما ترسّخ وترسّب من

صورته الذميمة والهجينة عبر التاريخ وحسب؛ بل على تسويق تلك الصورة التي تشفّ عن اليهودي، النموذجي، المثالي، المتحضّر، والمتنوّر. كما على تحريرها، ونشرها، وتعميمها، وغرسها في الوعي وفي الذاكرة وفي المخيال الغربي الجمعي العام، كلازمة لا يأتيها الباطل، ولا يطاولها شكّ أو ريب.

ولكن بعيداً من ألوان الدعاية الصهيونية التي تعكف على تزييف الوعي، وتجميل الصورة، وتبديل الوقائع، وتغيير الحقائق، وما إلى ذلك من أواليات وسياسات خادعة يُسجّل لها فيها قصب السبق وعلو الكعب والاقتدار؛ فإنّ معاينة الواقع معاينة شفيفة، تتكشّف عن (لاأخلاقية) اليهودي، ليس حيال آلاخر، بل حيال قضيته وناسه، كما عن فساده وانحرافه وسوئه ونفعيته، فضلاً عن قصوره وقلة حيلته... ما بالمقدور أن نتلمّس مصاديق وترجمات لتعبيراته في ما يطالعنا به الإعلام الإسرائيلي نفسه، وبنحو يومي، من فضائح تطال قادة الصف الأول من المستويين السياسي والعسكري، وتنال من سمعتهم، إذ يُكشف عن تورطهم في أعمال هي أقرب إلى أعمال رجال العصابات والمافيات منها إلى رجال الدولة، وعن انخراطهم في صفقات ومشاريع وحسابات تجارية وشخصية، من النوع الرخيص والمباشر والمعيب(266).

أهداف الحرب النفسية الإسرائيلية خلال حرب تموز- آب 2006

تشفّ القراءة الفاحصة لفصول الحروب الإسرائيلية ووقائعها على حزب الله. كما التحليل الدقيق الوازن لرسائل الحرب النفسية التي لم تنفك تصاحب هذه الحروب وتطلق قبلها وخلالها وبعدها؛ عن جملة من الأهداف التي كانت القيادة الإسرائيلية تلحّ على إنجازها وتحقيقها. وقد أريد لهذه الأهداف أن تساعد بشكل فردي وجماعي على كبح حزب الله. وهي أهداف متصلة بعضها ببعض. بما يعني أن تحقق واحد منها، يؤسّس بالضرورة إلى تفعيل الأهداف الأخرى. فعلى سبيل المثال، يتأدّى ضرب مكانة السيد حسن نصر الله إلى إضعاف حزب الله، وهذا يضع بدوره حدّاً للهجمات الصاروخية. في حين أنّ وضع حدّ للأخيرة يمكن أن يتسبّب في إضعاف الحزب، الأمر الذي يفضي إلى توهين مكانة قائده.

وفي تحديد وبيان ماهية أهداف الحرب النفسية الإسرائيلية خلال صيف العام 2006؛ فإنّنا نقع على جملة منها، لعل أشدّها بروزاً:

- هدف عسكري محض يتعلق بوضع حدّ لاستهداف شمال الكيان الإسرائيلي الغاصب لفلسطين.

- إشغال الرأي العام، وحرف الانتباه والتركيز عن انتقاد حملة القصف الإسرائيلي للبنى التحتية اللبنانية. كما للمجازر التي تستهدف المدنيين من الأطفال والنساء والشيوخ.

- دفع الحكومة اللبنانية إلى مواجهة حزب الله، من خلال تفعيل روافع وحوامل الضغط التي يتسبّب بها تدفق اللاجئين شمالاً.

- هدف سياسي ذو الصلة بزعزعة وتقويض موقع حزب الله في لبنان وفي العالمين العربي والإسلامي. وهذا بدوره كانت تتنازعه بدائل عديدة، وتتوزّعه أهداف أكثر تحديداً كالإضرار بسمعة ومكانة الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله، والمساومة على موقعه داخل الحزب.

تأخذنا مقاربة هذا الهدف الأخير إلى انطراح الإشكالية الآتية على بساط البحث والتدقيق:

ما مسوّغ هذا النزوع الإسرائيلي إلى اصطناع المماهاة بين السيد حسن نصر الله وحزب الله؟.

ثمّة عادة إسرائيلية قديمة تقضي بأن تقدم إسرائيل على شخصنة صراعاتها: فجمال عبد الناصر على سبيل المثال اختصر أطروحة الصراع العربي الإسرائيلي في الستينيات من القرن العشرين، كما لخص أطروحة القومية العربية. وياسر عرفات اختصر موضوعة كلّ من الثورة الفلسطينية والقضية الفلسطينية. والأسد جسّد الصراع مع سوريا. والحال، كان من البديهي أن تعكف إسرائيل في حربها النفسية على اصطناع مماهاة وتطابق بين شخصية نصر الله وحزب الله، وتقديمهما على أنهما شيء واحد. الأمر الذي يسهّل عليها صياغة وتوجيه رسائل حربها النفسية. ذلك أنّ استهداف الأفراد لهو أيسر- بما لا يقاس- من استهداف تنظيمات على غير وجه. هذا فضلاً عن أنّ الإشارة إلى نصر الله بوصفه تشخيصاً وتجسيداً لحزب الله؛ من شأنه أن يسمح لها بممارسة تأثير على اللبنانيين عبر الإيحاء أنّه لا مشكلة لديها معهم، وبأنّ نصر الله أي حزب الله، هو المسؤول عن ما يعانونه من مأساة، وما يعايشونه من عذابات ومصائب.

لكنّ استهداف القائد على وجه العموم دونه مخاطر كبيرة، ليس من اليسير بإطلاق تجاوز قطوعها. والحال، تنازع الأمر- عند ذوي القرار الإسرائيلي- موقفان متعارضان بشأن اعتبار الهجوم المركز على قيادة العدو إستراتيجية مجدية وفعّالة:

الأول يقول بإيجابيته وإلحاحه، بسبب من قدرته على إحداث التأثير المطلوب بجعل معنويات العدو تصاب بالانهزام والتقهقر.

والثاني يرى أنّ المجتمعات التي تخضع لحصار وتضييق قد تتوحّد خلف قادتها، على نحو ما يمكن ملاحظته في أنّ القادة الذين يخضعون في الأوقات الأكثر سلماً للمساءلة ولتدقيق نقدي شديد، قد تتمّ مسامحتهم في أوقات الأزمات والمحن، ما يجعل محاولات استهداف قيادة العدو مسألة عبثية وغير ذات صلة. هذا إن لم يُصر – وهو الأسوء- إلى ردّ فعل عكسي يدفع بالجمهور ليس إلى الابتعاد والنفور من القادة، بل إلى مبايعتهم ومناصرتهم والالتفاف حولهم.

وبعد نقاش عسير، ومطولات من الجدل الداخلي الكبير، تمّ التوصل إلى قرار تركيز الحملة حول السيد نصر الله، وإلى إطلاق حرب نفسية واسعة النطاق ضده.

وهنا انطرحت بجدية إشكالية بدائل تحقيق هذا الهدف على نحو فاعل: ما هو شكل الهجوم الذي يجب أن يتخذ ضد نصر الله؟. هل على إسرائيل إصدار قائمة بجرائمه وأخطائه، تاركة للمتلقين من اللبنانيين وسواهم الخلوص إلى استنتاجات بهذا الشأن. أم عليها التعرّض على نحو عاطفي مؤثر وقوي لسمعته، ولمكانته، ولشرفه الرفيع؟.

وكان الخيار الثاني على كثير من الجاذبية، حيث قرّرت إسرائيل النيل من شرف ومكانة نصرالله بأسلوب تهكمي ساخر، وذلك عبر تحويله إلى نكتة سياسية وعسكرية، وعبر جعله موضوع هزء وسخرية.

أمّا الخلفية التي استند إليها توسّل مثل هذا الخيار في ضرب المكانة الرفيعة والجليلة لقائد حزب الله؛ فكانت وعي إسرائيل لأهمية مسائل الشرف والكرامة المرتبطة بالثقافة العربية، ولأنّ الطرفة بمقدورها أن تعبر الحدود المادية والثقافية، وأن تتخطى التفكير المنطقي والنقدي. فضلاً عن أنّ ذلك كان مدعّماً بواقع تظاهر مؤيدي السيد نصر الله في بيروت في الأول من شهر حزيران من العام 2006، أي قبل خمسة أسابيع من اندلاع حرب تموز، إحتجاجاً على تقديم البرنامج التلفزيوني (بسمات وطن) للسيد نصرالله بكيفية كوميدية، والتعرّض له بالسخرية. ينضاف إلى ذلك أنّ إسرائيل كانت تأمل أن يؤدّي التعرّض للسيد نصرالله إلى استفزاز مقاتلي الحزب خلال المواجهات، وبالتالي إلى افقادهم برود أعصابهم من جهة أولى، وعلى نحو يتأدّى إلى تأثير معاكس على أدائهم في الميدان، والذي بدوره يمكن تقديمه كبرهان آخر على قصور حادّ في خبرة السيد ووعيه وقدراته. وقد يساعد من جهة ثانية على إقناع مؤيديه الأقلّ تشدّدا، بالانفضاض من حوله وبإلقاء هذا الالتزام الواضح جانباً.

خلاصة الأمر أصبح السيد حسن نصر الله مركز اهتمام الحرب النفسية الإسرائيلية، التي نزعت إلى استهدافه والتصويب عليه بمستوى غير مسبوق في سجلات تاريخ الحروب النفسية الإسرائيلية، وإلى توسّل كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى تقويض مصداقيته، من خلال اثارة الارتياب حول علاقاته وارتباطاته، وطرح الشكّ بموثوقية أعماله وسياساته.

فعلى سبيل المثال، استغلت مالات إعلان السيد حسن نصر الله بأنّ حزب الله لم يتكبّد عملياً خسائر في صفوفه في مسار حرب تموز من العام 2006؛ لتسارع فوراً إلى نشر قائمة طويلة بعدد من مقاتلي الحزب الذين قضوا في الحرب، وذلك لغرض زعزعة معنويات حزب الله ومصداقية نصر الله على حدّ سواء، وفي المقابل رفع معنويات الداخل الإسرائيلي. وعندما سفه السيد القائمة الإسرائيلية مشيراً إلى أنّها من إبداعات المخيلة الإسرائيلية، وأنها محض اختلاق؛ عاودت مالات ثانياً إلى إصدار تقرير مفصّل عن دفعة جديدة من قتلى الحزب. ولكن هذه المرة مرفقة بصور صير إلى عرضها على الهواء مباشرة، بعد تمكن التكنولوجيا الإسرائيلية المختصّة من اختراق تردّدات المنار، وبذلك تكون إسرائيل قد دعمت مزاعمها بإثبات مرئي لا يقبل الشكّ أو الجدل. والجدير بالالفات، أنّ بثّ الصور على هذا النحو من الاختراق، ومن خلال تلفزيون المنار؛ كان له فائدة إضافية في تظهير تفوّق إسرائيل التقني، وفي النيل- ولو نسبياً- من معنويات جمهور حزب الله.

وفي سياق مماثل، استغلت مالات أيضاً سعي السيد نصر الله في إحدى المقابلات المتلفزة، لتبرير ما حدث بأنه لم يكن يعلم حجم ومقدار ردّ الفعل الإسرائيلي المتوقع؛ لتظهره كشخص هاو على المستوى السياسي والعسكري، أو كشخص عديم الخبرة لا يزن الأمور جيداً، ولا يملك حكماً صائباً عليها. ما يعني أنّ لجوء مالات إلى محاولة تظهير عدم قدرة السيد نصر الله على التكهن بضراوة الردّ الإسرائيلي كإخفاقات وتفصيل ذلك واستعادته على نحو دائم؛ كان متعمّداً ومقصوداً لغرض تقويض مكانته ككقائد يحظى بموثوقية عالية.

فقد أرادت حملة الحرب النفسية الإسرائيلية من خلال رسائلها التي تبثها على هذا الصعيد، أن تؤسّس- على نحو تراكمي- في الوعي الجمعي اللبناني والعربي، إلى أنّ سياسة السيد نصر الله بالمجمل، ما هي إلا مزيج هجين من القصور، والنقص، وانعدام الخبرة(267)، والتضليل، والفبركات، والارتباط العضوي بالأجندة الخارجية.

حرب حزب الله النفسية في مواجهة إسرائيل

لقد خاض حزب الله- طوال عقود ثلاثة انصرمت– إلى جانب الحرب العسكرية المفتوحة في مواجهة إسرائيل، حرباً نفسية لا تقلّ ضراوة عن سابقتها(268). شهدت بدورها على إنجازات يعتدّ بها، وعلى فتوح وانتصارات عظيمة في هذا المضمار. وكان الإلمام والإحاطة بمكوّنات الشخصية الإسرائيلية، كما حساسيتها، وقيمها، وموروثها الثقافي، وذاكرتها الجمعية...؛ قد مكن حزب الله، ومنحه قصب السبق والغلبة والتفوّق والاقتدار.

لنقف هنا على بعض ميكانيزمات وتمثلات وترجمات ومصاديق هذه الحرب:

أولاً- أطلق حزب الله حرب عصابات نفسية(269)، وتوسّل أعمالاً عسكرية ذات آثار ومفاعيل كارثية على وعي العدو لجهة الإضرار به، وكبحه، وكيّه، وثني إرادته، وتصدّع روافعه؛ شرع على سبيل المثال، في تنفيذ عمليات ذات طابع بطولي- نوعي، يصار فيها إلى تطهير- كي لا نقول احتلال، فيحدث عند القارئ تشوّشاً ولبساً، بحيث يفهم منه القيام بأعمال عدائية- مواقع العدو الإسرائيلي المحصّنة والمنيعة، التي كان قد استحدثها الأخير على مرتفعات جغرافية ذات أهمية إستراتيجية فائقة خلال فترة احتلاله لما أطلق عليه اصطلاحاً «الحزام الأمني»، وذلك قبل انسحابه القهري من الأراضي اللبنانية في أيار من العام 2000. فعلى الرغم مما يتطلبه هذا النوع من الأعمال من أكلاف وموارد مادية وبشرية، ومن جهد على غير صعيد: استطلاع، ورصد، وجمع معلومات، وتوفر أعداد كبيرة من المقاتلين، واستنفاد قدرات قطاعات مختلفة من الجسم العسكري (الهندسة، الصاروخي، المدفعي، الجوي،...)، في قبالة توقع سقوط عدد كبير من الشهداء في صفوف مقاتلي الحزب، وندرة في خسائر الإسرائيلي المادية والبشرية، إذ قد ينعدم عدد الجنود الإسرائيليين القتلى الذين قد تفضي إليهم محصّلة هذه الهجمات، في حين أنّ بقاء مقاتلي الحزب داخل الموقع الإسرائيلي قد لا يستغرق الدقائق المعدودات... والحال هذه، فإنّ أكلاف هذا النوع من الأعمال باهظة جداً في حين أنّ نتائجها المادية والبشرية ضئيلة وغير مضمونة، إذا ما صير إلى مقايستها بعمل من طبيعة أخرى كتفجير عبوّة ناسفة لاسلكياً، حيث تضمحل الأكلاف ويرتفع منسوب النتائج. ومع ذلك كله، كان حزب الله يلحّ على تنفيذ مثل هذه الهجمات، وعلى القيام بهذا النوع من العمليات العسكرية، ليس للاستحواذ على الأرض، وليس لتكبيد العدو الإسرائيلي خسائر جسيمة في الأرواح والقدرات؛ وإنما لضرب معنويات الجندي الإسرائيلي، وتوهينه، وإظهاره بمظهر الضعيف المنهزم الذي يتلطى كفأر خلف التكنولوجيا، ويختبئ وراء الترسانة التسليحية الجبارة، ولا يقوى على مواجهة وخوض ما يسمّى القتال البطولي، ولا على الالتحام المباشر وجها لوجه مع مقاتلي حزب الله.

وكان حزب الله في مذهبه هذا، قد تعمّق في قراءة العقل العسكري الإسرائيلي؛ النازع على نحو من التعبّد إلى الأخذ بأسباب التكنولوجيا التسليحية متأثراً بالطريقة التي أدار بها الأميركي منظومة حروبه المعاصرة(270)، والعازف عن المناورة الحيّة، والحيلة، والالتحام المباشر مع العدو، وسوى ذلك من أشكال القتال البطولي. مفيداً- أي حزب الله - إلى حدّ كبير من مساحة الانفصام الكامل بين الزمن السياسي والزمن التنكولوجي الذي تفرضه التقنية، باعتبار أنّ «المقاتل حين

يكون خارج دائرة الخطر» يقول آلان جوكس «فإنه يصبح أيضاً خارج دائرة الزمن السياسي»(271).

كما تعمّق حزب الله في قراءة الذات الإسرائيلية سايكولوجياً، وأفاد من تركيبتها الثقافية والاجتماعية والدينية على نحو بالغ، بعد أن تكشّفت له نزوعاتها المادية والغرضية والنفعية؛ فنفسية اليهودي المادية «تنعكس سلباً على نفسية الجندي الإسرائيلي» وفق ما خلص إليه علي نعمة من أطروحة مقاربة للأبعاد المصلحية التي تنطوي عليها الذات اليهودية «لا تتحدث الكتب اليهودية ومضامينها عن عالم يفيئ إليه الإنسان بعد الموت» والكلام لنعمة «المضامين المادية التي تشكل الفكر اليهودي تعدّ الفرد اليهودي للتعامل بمكر ونجاح مع الآخرين، لكنها في الوقت ذاته تجعل منه جباناً ورعديداً أمام الموت، أو أمام أيّة مخاطر قد تحمل الموت في طياتها. إنّ للموت معنى كبيراً عند اليهود، إنّهم لا يتقبلون بسهولة التضحية بالحياة، بل لا يتحملونها إطلاقاً. إنّ أيّة حرب يخوضها الإسرائيلي، فإنّما يخوضها بنفسية ترشح بالهزيمة سلفاً»(272).

ثانياً - دأب حزب الله، طوال عقود ثلاثة مضت، على هزّ شباك المؤسّسة العسكرية الإسرائيلية بقسوة وعنف بالغين، وعلى الضرب والطرق على روافعها وحواملها، والتصويب على مقاتلها ومواجعها، واستهداف خاصرتها الرخوة بصنوف الأسلحة والنيران المركزة، نظراً لما تمثله هذه المؤسّسة في الوجدان الإسرائيلي الجمعي من قيمة كبيرة تصل حدّ الأيقونة، ولما تشغله في الوعي والمخيال اليهودي العام من رأسمال رمزي، بوصفها صمّام أمان الدولة العبرية، وضامن وجود الكيان والمجتمع والإنسان اليهودي(273)؛ فقد حرص حزب الله على تظهير قتله لجنود الجيش الإسرائيلي، وعلى إبراز تنكيله وبطشه وفتكه بهم، واصطياده لهم، وجعلهم فرائس وطرائد وأكياس رماية وأهدافاً تنشد لذاتها. كما حرص على تظهير عجز هؤلاء عن مواجهته ومنازلته ومقارعته، وعن خوض قتال بطولي مباشر معه، أو إجراء التحامات ميدانية حيّة، وألحّ في سبيل ذلك على تصوير انهزامهم وتقهقرهم ودونيتهم وتردّدهم وجبنهم وخوفهم، وضعف إرادتهم وطليعيتهم، وفقر تجاربهم وإبداعيتهم، وسوء إدارتهم وتدبيرهم، وتردّي قدراتهم الفردية، وكفاءاتهم القتالية، وبالتالي حؤولهم دون تحقيق أي مكسب أو إنجاز أو انتصار. أمّا الغاية التي توسّلها حزب الله من هذا الحرص الملحّ، أو النزوع الدائب لتقديم صورة الجندي الإسرائيلي على هذا النحو؛ فكانت- بلا شك- تشويش الرأي العام الإسرائيلي، وبلبلته، وكيّ وعيه، وإضعاف معنوياته، وضرب دفاعاته وكوابحه، والإخلال بتوازنه، وسلب إرادته، وتجويف انتصاراته وبطولاته المزعومة، وتسفيه ادعاءاته باحتكار القوّة، وإعمال معاول الهدم في مباني ومرتكزات تصوّراته القائلة: بعلوه، وتفوّقه، وغلبته، وبصلاح صنفه لوراثة الأرض، واستتباعه أو استعباده لسائر الأنواع البشرية لغرض القيام على راحته وخدمته.

ثالثاً - جهد حزب الله، في نطاق تفعيل إستراتيجية الحرب النفسية، على تثمير كلّ قدراته، وطاقاته، وإمكاناته، وأسباب القوّة لديه... لكيّ الوعي الإسرائيلي، وتجويفه، وهزمه داخلياً، وذلك من طريق العمل على كسر نمطية صورة الجندي الإسرائيلي التي لطالما ترسّبت في الوعي العربي الجمعي منذ الأربعينيات من القرن العشرين، بل وحُفرت عميقاً في طبقات هذا الوعي، بوصفها صورة الجندي- الأسطورة، أو الجندي- المقاتل الذي لا يُقهر، ولا يُغلب، ولا يُهزم، ولا يعرف الخوفُ أو الوجلُ، أو الجبنُ طريقا إليه، يدرك النصرَ في صولاته وجولاته فلا يخذله الأخير، وإنما يلازمه كصنوه. ما تأدّى إلى إعادة تأطير هذه الصورة بنحو واقعي، وإلى إعادة تصميمها وهندستها وفق

مقاييس أكثر موضوعية وتجرّداً، بعد أن صير إلى تشذيب أغصانها وفروعها وزوائدها الممتدّة إلى خارج فضاءاتها ومجالاتها، وإلى تنفيس حالة التضخم والتورّم والاحتقان في حجمها ودورها وقدرتها ومفاعيل قوتها، والأهم تحرير الذات العربية من إسار الشعور بالدونية والتصاغر حيالها، وبَرؤها من فوبيا التفوّق اليهودي بعد الانكشاف السافر لحدود القوّة والإقتدار لديه.

وفي سياق متواز، أتت الحرب النفسية أكلها في لجم الوعي الإسرائيلي، وكبحه، وكيه، وتجويفه، وتقعيره، والاخلال بتوازناته ومرتكزاته، من طريق العمل على كسر تنمط صورة الجندي الإسرائيلي أيضاً، ولكن- هذه المرة- كما انطبعت في الوعي الإسرائيلي العام، وكما تلقفها هذا الوعي بوصفها صورة الجندي- مصداق الوعود والنبوءات التلمودية وترجمانها، الشجاع، والمقدام، وحامي الحمى، وحافظ الكيان والوجود، وصانع المعجزات والأمجاد، وقاهر الأخطار والمصاعب، وفاتح العصر الإسرائيلي، وأخيراً العصا الغليظة التي تؤدّب الخارجين على المشيئة وعلى الإرادة السياسية للدولة العبرية، والتي تدجّن الشعوب والأنظمة وفق ما تقتضيه مصالحها الحيوية والإستراتيجية. ما أفضى إلى انقلابية كاملة في الصورة المثال للجندي- الأيقونة، بسبب من تشوّهات حادّة اعتورت تفاصيلها، وأساءت إلى نقائها ومثاليتها، الأمر الذي رشح بالتالي عن ندوب وبثور علت جبين الجندي العازف عن الالتحاق بالخدمة العسكرية(274) وفق ما تكشفت عنه بنحو بالغ حرب تموز- آب من العام 2006، والجندي العاكف على تلمّس وابتداع واصطناع شتى الأعذار، وعلى اختلاق شتى المشاجب في سبيل ذلك، والجندي الفار من أرض المعركة، والجندي المفتقر إلى الطليعية والإقدام وإلى القتال البطولي والالتحام المباشر(275)، والجندي الذي يتلطى خلف ترسانة تكنولوجية وتسليحية جبّارة ولا يقوى على فعل شيء دونها، والجندي العاجز أبداً عن تحقيق مكسب ميداني، وعن جلب الانتصارات، وعن صناعة أي إنجاز يذكر بالمقدور تثميره أو توظيفه أو الإفادة منه.

ولكن كيف قيّض لحزب الله فعل ذلك؟.

لقد أجاد حزب الله تسييل انتصاراته وفتوحه وإنجازته العسكرية والأمنية- التي كان قد توافر عليها ووُفق إليها في جولات وصولات صراعه المرير مع الجيش الإسرائيلي- في مكاسب سياسية، وفي مانشيتات وأفيشات إعلامية ودعائية، وفي ميكانيزمات فاعلة، أضرّت مجتمعة بسمعة الجندي الإسرائيلي بالغ الضرر، وأسفرت عن انكشافه، وتعريته، وأودت بوظيفته الوجودية إلى الدرك الأسفل من الجبن والفشل والضعف، حيث أظهرته بمظهر العاجز عن حماية نفسه، فكيف، يناط به حماية الدولة والمجتمع الإسرائيليين؟. الأمر الذي أرخى بأسداله وأحماله في غير مكان، ووجد انعكاساته وتعبيراته على غير صعيد:

داخلياً، أي على مستوى الوعي العربي المقاوم: بالمقدور تلمّس ذلك على هيئة حالة استنهاضية متوثبة ناشطة، شرّعت النوافذ على حلم لطالما شرّد حتى غدا من سلالات الأضغاث، وشدّت العصب العربي الممانع من جديد، واستثارت حميته، وأضاءت جوانبه المعتمة والمظلمة، وعصفت بوجدانه ومخياله ووعيه، ودبّت فيها جميعا دبيباً ولقاحاً حيّاً، بعد أن كان الخدر والسبات والركود والجمود والاحتضار والموات والتحنّط قد نال منها، وأخذ بها كلّ مأخذ، وبعد أن كانت جراح النكبات والانكسارات والهزائم ومواكب الراحلين إلى استسلامات وتسويات مذلة قد أدمتها وأثخنتها وأرهقتها... فأصبحنا نقع على همس، وعلى أصوات، وعلى حراكات آخذة في الاشتداد والاقتدار على النحو الذي بلغته الانتفاضة الفلسطينية(276)، في أعقاب الانسحاب الإسرائيلي

القهري من لبنان- خلا مزارع شبعا- في الخامس والعشرين من أيار من العام 2000. هذا ما أكدته صحيفة هآرتس في افتتاحية العدد الصادر في 10/ 5/2000 حيث تقول: «لقد نجح حزب الله في لبنان بخاصة والعالم العربي بعامة، أن يقدّم الانسحاب الإسرائيلي حتى السابع من تموز كقرار تحت الضغط. ولن يكون بمقدور الدعاية الإسرائيلية– الأكثر ذكاء– أن تقوّض إيمان الفلسطينيين وآخرين بأنّ ضغطاً كهذا يضم في طياته فرصة لإخراج إسرائيل من الأراضي المحتلة».

خارجياً، أي على مستوى الوعي الإسرائيلي: ويتبدّى ذلك على هيئة حالة ارتكاسية نكوصية تستعيض– على نحو من التجاوز المرضي التعويضي- عن الفعل والتأثير، بتنكب الماضي التليد وتقليب صفحاته المجيدة(277)، والإضاءة على ما فيها من إنجازات وإشراقات تتغنّى بها، علها بذلك تقف على معالجة الاختلال الحادّ الذي اعتور الذات الإسرائيلية المنكسرة، وتعيد إليها بعض التوازن والاستواء، وعلها أيضاً تعيد ترميم ما تصدّع من مباني الوعي الجمعي المهزوم، وما كان قد كُبح وانكفأ من تصوّرات المخيال العام.

رابعاً - أتقن حزب الله في سياق ممارسته تفعيل إستراتيجية الحرب النفسية؛ الأخذ بأساليب وتقنيات الخداع والتضليل المختلفة، نحو:

أ - إثارة الشكّ والإرتياب

الشكّ كسلاح وفقاً لتعبير الكاتب الأميركي دايفيد فالغوم؛ لقد ألحّ حزب الله على ممارسة الخداع والتضليل من خلل دفع الإسرائيلي إلى الشكّ والاسترابة في كلّ شيء، على نحو بدا معه كمن أصابه المسّ والجنون: فاقدا للتوازن، تنأى به الظنون، متوجّساً ومتهّجساً، مشوّش الأفكار والذهن، عديم القدرة على التركيز، لا يخرج تعقله للأمور من إطار البلبلة والاضطراب والتخبّط والضرب على غير هدى. أمّا أواليات هذه الممارسة فليس أقلها بثّ تصريحات مواربة ومراوغة عن امتلاك قدرات وإمكانات، وإطلاق مواقف ضبابية، واستغلال منابع معلوماتية أخرى، وتسريب أخبار متناقضة، وتمرير معلومات خاطئة أو مدسوسة، وتوزيعها بكيفية غاية في الدقة والعناية عبر قنوات ووسائط ومصادر مختلفة؛ كوسائل الإعلام، والصحافة، والجهات الدبلوماسية، ودوائر القرار، والمراكز البحثية المتخصّصة، والمصادر النفوذية والعملاء المزدوجين... فضلاً عن الإيحاء بقدرات مكتومة؛ كالنفوذ والاختراق والاستعلام والرصد والتنصّت والمراقبة، وبالتالي إشعار العدو أن نظمه الحاكمة، كنظم الإشارة والاتصالات والمعلوماتية ونحوها، ليست محصّنة أو ذات منعة، بل تقع تحت دائرة التهديد والاستهداف.

وينقل الكاتب الأميركي دايفيد فالغوم من مقال نشرته مجلة « آفيايشن وييك آند سبايس تكنولوجي» في عددها الصادر في شهر تشرين الثاني من العام 2006، حقيقة توسّل حزب الله- وعلى نحو بارع وحاذق- لأساليب الخداع والتضليل من خلال إثارة الشكّ والارتياب، وإحداث فجوة في المدرك اليقيني المتحصّل لدى الإسرائيلي، ونشر مساحة من التوتر في وعيه، وإعمال معاول الهدم في ما توافر واستحوذ عليه من معلومات، وإفقاده الثقة بما ملكت يداه، ودفعه إلى الاعتقاد واهما بانكشافه، وبعدم منعته، وأنّ حزب الله على قاب قوسين منه، وعلى إحاطة تامة بنواياه وحراكه واستهدافاته «ما كانوا يفعلونه بحق» يقول فالغوم «هو عمليات نفسية جيدة جداً. إنّ واحداً من الأمور التي تريدها هو غرس الشك في قلب العدو. لقد أعلن حزب الله قدرته على قراءة الموجات

المشفرة، أراد من خلال ذلك أن يؤمن جنود جيش الدفاع الإسرائيلي بأنّهم ليسوا محصنين كما يظنون. وقد سرت الشائعة كالنار في الهشيم، وصولاً إلى القوات الأميركية أيضاً. لكنّ حقيقة ما شهدناه هو تكنولوجيا غير متطوّرة مستغلة في عمليات معلوماتية استخبارية متطوّرة».

أيا تكن حقيقة وصدقية ما ذهب إليه فالغوم، بشأن مراوغات حزب الله وتكتيكاته الخادعة حول امتلاكه القدرة على قراءة الموجات المشفرة؛ فقد خادع حزب الله مراراً المؤسّستين الإسرائيليتين العسكرية والأمنية، ليس في حرب تموز من العام 2006 وحسب، وإن تفتقت هذه الأخيرة عن إبداعات وروعة في هذا المجال، بل كان ذلك في عموم صولات وجولات الصراع القائم بينهما منذ ثلاثة عقود من الزمن. ما نقع على ترجماته في انتصارات وإنجازات ميمونة أحرزها حزب الله غير مرة على الرغم من اختلال موازين القوّة لغير مصلحته، حيث سجّل بذلك أهدافاً كثيرة ونقاطاً عديدة هزّت شباك المرمى الإسرائيلي في خانة الحرب النفسية.

ب- جاذبية الخيار الخاطئ

يندرج في إطار ممارسة الخداع والتضليل، على النحو الذي الأخذ به حزب الله في سياق حربه النفسية مع الإسرائيلي؛ إقناع الأخير بجاذبية الخيار الخاطئ(278). لطالما اصطنع حزب الله بيئات عمل مؤاتية، وركّب فيها أهدافاً من طبيعة خادعة ومضللة، واختلق ظروفاً ملائمة، ووفر معطيات وحيثيات، وسرّب أخباراً، ومرّر معلومات خاطئة أو مدسوسة عبر وسائط متعدّدة وغير متقاطعة في سبيل إيهام الإسرائيلي بصحتها وصوابيتها ومعقولية منطقها، وفي سبيل دفعه باتجاه تبنّي خيارات وتوسّل مسارات ظاهرها على قدر كبير من الجاذبية، بلحاظ سهولة ما قد تفضي إليه من إنجازات وانتصارات ومكاسب وفتوح. إلا أنّ الأمر سرعان ما كان يتكشّف- ولكن بعد فوات الأوان- عن عملية تضليل وخداع ماكرة وحاذقة، استُدرج فيها الإسرائيلي إلى أفخاخ وشراك ومكائد نصبها حزب الله، وأعدّها بعناية، ودبّر فصولها، ورسم سيناريوهات وسيرورات تخلقها وتنضجها واكتمالها... ما كان يتأدّى إلى سقوطه- أي الإسرائيلي- وإلى تكبّده خسائر معنوية ومادية جسيمة.

تضجّ مشهدية الصراع المتطاول منذ لحظة اجتياح لبنان في العام 1982 إلى عقود ثلاثة خلت، بمثل هذه الوقائع التي يلحّ الإسرائيلي على إبقائها طيّ الكتمان والسرية، وبعيدة من دوائر الضوء والإشعاع؛ كي لا يذهب ببقايا ردعه الموهوم الذي تآكل على نحوٍ لم يعد معه نفع يجديه ولا ترميم. وكي لا يصار إلى تصويره كوليد يؤخذ من يده وناصيته عنوة، ويجرّ جرّاً إلى حيث يراد له أن يكون. أو يصار إلى افتضاح عقم تفكيره وإبداعه، وجدب وتصحّر مخططاته، على الرغم من قدراته الاستخبارية، ومن تفوّقه في تكنولوجيا المعلومات.

ويحضرنا في هذا المقام- كمصداق جلي وبيّن- الإطلالة الإعلامية المتقنة لأمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله من على شاشة المنار بتاريخ 10/ 8/2006، بعد أن كان قد مضى على بدء الحرب الإسرائيلية في الثاني عشر من تموز من العام 2006، زهاء ثمانية وعشرين يوماً، فشل فيها الجيش الإسرائيلي الذي يعدّ رابع أقوى جيوش العالم، في صناعة أي إنجاز ميداني يذكر خلال المواجهات البرية في كل من قرى عيتا الشعب ومارون الراس وعيناثا وبنت جبيل والطيبة والخيام وسواها. لقد خرج السيد نصر الله ليقدّم للإسرائيلي- على نحو خادع- سيناريو الوصول الأسهل إلى ضفاف نهر الليطاني، وهو الهدف الأسمى الذي أصبح عليه الأخير من بين الأهداف

التي توسّلها للحرب، والتي كانت قد سقفت توقعاته منها، بعد تعثره وتخبطه وتصدّعه وإصابته بالمرارة والخيبة والهزيمة، عله بذلك يكتفي برفع راية، وبالتقاط صورة يسوّقها كإنجاز عسكري مثير، أو كنصر ميمون لا لبس فيه ولا جدال، فيستعيض بعض ماء الوجه الذي أهرق وأريق منذ لحظة خروجه إلى الحرب. لنستمع إلى السيد نصر الله كيف يقدّم مقاربته التلفزيونية المضللة، راسماً ممرّاً ومساراً إجبارياً لدخول القوات الإسرائيلية إلى النقطة الأقرب من النهر، إذا ما شاءت أن تصنع إنجازاً. ولا تبعد النقطة– الهدف أكثر من سبعة كيلومترات من الحدود الفاصلة بين لبنان وفلسطين، وتجد سبيلها من قرية الطيبة، مروراً بوادي الحجير(279)، وصولاً إلى ضفاف نهر الليطاني، حيث يقول من رسالة مطوّلة بعد اتخاذ الحكومة الإسرائيلية المصغّرة قراراً بتوسيع العملية البرية بالتزامن مع زيارة نائب وزير الخارجية الأميركية ديفيد وولش إلى بيروت: «الإسرائيليون حتى الآن» يقول السيد نصر الله «لم يستطيعوا أن ينجزوا السيطرة على الشريط الحدودي الذي قالوا إنّهم يريدون العودة إليه كما كان عليه الحال في السابق، وأنا قلت إنّ القتال لا يزال في جل العلم، وفي اللبونة، وفي القرى الأمامية والمواقع الأمامية. في كلّ الأحوال قد يلجأ العدو ويركز على محور الطيبة لأنّها هي أقرب نقطة تصل إلى نهر الليطاني. والفاصل بين إصبع الجليل ونهر الليطاني من جهة الطيبة هو فاصل بسيط ومتواضع».

وبالفعل لم تمضِ ساعات قليلة على أطروحة السيد حسن نصر الله بشأن سيناريو العملية البرية المحتملة، حتى كانت ألوية النخبة من القوات الإسرائيلية معزّزة بدبابات الميركافا تحثّ الخطى سريعاً نحو الليطاني(280)؛ لقد استمرأت الأمر، وتلقفت الفكرة، واستعجلت صناعة إنجاز دعائي. والحال كذلك، دخلت الطريدة بكيفها فمّ التنين، واندفعت نحو الممرّ الذي رُسّم لها وأعدّ بعناية بالغة. ولكي تستقيم المشهدية العامة لعملية الخداع، وتكتمل عناصرها المكوّنة على نحو وازن وموجب، كان على حزب الله أن يخلق بيئة عمل مساعدة؛ لقد مارس ما يمكن تسميته بالموت اللاسلكي، حيث لا اتصالات، ولا ثرثرات، ولا موجات اعتراضية، ولا عمليات تشويش أو قرصنة. كما مارس حالة من الانضباط الحديدي؛ فلا عراضات أو تحرّكات، بل سكون وتخفٍّ واستتار وصمت مطبق عمّ المكان، على نحو قد يُخيّل فيه لراصدٍ أنّ لا حياة هناك ولا أحياء. لكنّ ذلك ليس إلا ما قدّر له أن يطفو فوق صفحة المكان، أمّا ما كان يباطنه فله شأن آخر: جهوزية واستعداد واستحضار دعم... أثارت الوقائع تلك شهية الجيش الإسرائيلي فاستمطر طائراته الحربية جنوداً في عمليات إنزال واسعة شملت قرى الغندورية وفرون المطلة على مجرى النهر، واندفعت أرتال دباباته متوغلة في عمق الأراضي اللبنانية إلى حيث أريد لها أن تكون؛ حيث المصائد والكمائن والأشراك ومناطق القتل التي أتقن حزب الله إعدادها وهندستها وتوضيبها. لكنْ ماذا كانت عليه النتيجة؟. لقد «انتهت العمليات العسكرية» يقول جمال الخطيب متهكماً في دراسة مطوّلة «والدبابات الإسرائيلية على أبواب الليطاني، لكن محطمة ومحترقة»(281)؛ كانت الحصيلة بالأقلّ- وفقا لاعترافات إسرائيلية متباينة- تدمير ثلاث وثلاثين دبابة تدميراً كلياً(282)، وقتل وجرح العديد من أفراد وضباط الجيش الإسرائيلي(283)، في موقعة هي الأشدّ قسوة وعنفاً بلحاظ توقيتاتها، وبلحاظ ما أفضت إليه من نتائج كارثية معنوياً وعسكرياً، كما بلحاظ مفاعيلها المستقبلية على سمعة الجيش، وعلى هيبة المؤسّسة العسكرية والأمنية، وعلى مكانة إسرائيل الإقليمية والدولية.

كما تحضر جاذبية الخيار الخاطئ في عملية الخداع الكبيرة، المتقنة والمعدّة بحذق لافت، التي وُفق فيها حزب الله إلى استدراج إسرائيل، بل جرّها جرّاً إلى ما يمكن تسميته بـ(موقعة أنصارية) (284) ، بعدما بثّ لها معلومات وإشارات استخبارية- عبر وسائط وطرق ملتوية- تفيد بتردّد أحد كبار كوادر حزب الله إلى القرية المذكورة لأسباب عائلية. وكان قد عمل على إقناعها- بعدما حضّر كلّ الظروف المساعدة- بجاذبية خيار الإقدام على تنفيذ عملية أسر ناجحة، من شأنها أن تكون بمنزلة ضربة قاصمة لحزب الله، وبالتالي يمكن توظيفها وتثميرها كأبرز إنجازات أجهزتها الأمنية. ففي الخامس من أيلول من العام 1997 نصب حزب الله فخاً استخبارتياً محكماً، تمثل في كمين أعدّ بإتقان على المدخل البحري لبلدة أنصارية(285)، وأدّى إلى مقتل 12 جندياً من أفراد وحدة الكوماندوس (شييطت ـ13)(286) التابعة لسلاح البحرية الإسرائيلية، في حادث خلّف أضرارا مادية وبشرية جسيمة، وكان له تداعيات معنوية بالغة الأثر على إسرائيل؛ فقد دفع الحادث بالقيادة العسكرية والأمنية الإسرائيلية إلى الامتناع عن تنفيذ عمليات ذات طابع أمني في الأراضي اللبنانية لفترة زمنية طويلة، خشية أن يكون ثمّة محاولة استدراج من جانب حزب الله، وذلك بعد أن كان ديدن هذه القيادة ودأبها- قبلاً على الحادث- هو اعتماد وتبني سياسات تبيح العمل في عمق الأراضي اللبنانية، بغرض إرباك مقاتلي حزب الله، والمسّ بوعيهم ومعنوياتهم. كما دفع الحادث بإيهود باراك إلى أن يجعل موضوعة الانسحاب من لبنان لافتة حملته الانتخابية في العام 1999 (287). المفارق أنّ باراك هذا الذي كان يزعم على الدوام أنّ الانسحاب من لبنان هو نوع من التعاون مع حزب الله؛ قد أجرى تحوّلاً «في مواقفه فقط» وفق ما يقول حاييم رامون(288) «على اثر تغيّر المزاج الشعبي الإسرائيلي بعد إخفاق (شييطت 13) في أنصارية»(289).

ج- بثّ إيحاءات تطمينية خادعة

تشفّ ممارسة الخداع والتضليل أيضاً- بالكيفية التي أرادها حزب الله كمفردة من مفردات حربه النفسية المستعرة مع الإسرائيلي– عن تحضيره بيئة عمل خادعة، واختلاقه في سبيل ذلك ظروفاً مضللة وأوضاعاً مساعدة، تكون– عادة- مصحوبة بإطلاقه جملة من المؤشّرات الدالة الصريحة منها، والضمنية على وجه أخصّ، صوب الجهات المعنية بأطروحة الصراع سواء بصورة مباشرة أم غير مباشرة، كي يصار إلى تلقفها كرسائل تطمينية تدفع الإسرائيلي إلى حالة من الاسترخاء والخدر(290)، وتدبّ في أوصاله ما يخفت من منسوب تيقظه واندفاعته، على أن تضمر في قبالة ذلك ما هو أشدّ وأدهى، كأن تكون المؤشّرات والرسائل تلك، ليست إلا مقدّمة تمهيدية لعمل نوعي متقن، أريد له أن يأخذ الإسرائيلي على حين غرة، وأن يصعقه في لحظة خدره واستسلامه واسترخائه وسكينته. وإنْ كان يؤخذ على هذا العمل عدم أخلاقيته، إذا ما صير إلى النظر إليه بطوباية ومثالية متعالية، إلا أنّه من لزوميات واشتراطات الحرب النفسية القائمة على ميكانيزمات وأواليات تخدير الوعي لدى العدو قبل الانقضاض عليه وافتراسه، أو قبل إنزال هزيمة نكراء به، أو توجيه ضربة موجعة وقاصمة إليه. وهو يأتي هنا كردّ فعل مشروع ومبرّر على كل سياسات التضليل والمراوغة والاحتيال والخداع والمكر التي انتهجها العدو الإسرائيلي في حروبه ونزاعاته المزمنة مع الجيوش والحركات التحرّرية العربية. فلطالما أخذ الإسرائيلي بمثل هذه السياسات، وليس آخرها إرسال رسائل تطمين بالجملة- من خلال الوسيط المصري(291)- إلى من يعنيهم الأمر في حكومة حماس، بأنّه ليس في وارد الإقدام على إعتداء، إذا ما قيّض للأخيرة الاحتفال بمراسم تخريج دفعة جديدة من قوات الشرطة لديها... لكنّ الأمر وجد سبيله على نحو آخر، وفقاً

لما كان قد أعدّ من قبل المستويات السياسية والعسكرية الإسرائيلية؛ أدّت رسائل التطمين المنقولة عبر الوسيط المصري غاياتها المنشودة بفعل تسرّب حالة من الخدر والاسترخاء إلى الوعي الحمساوي، حيث كانت النتيجة مكلفة بما لا يقاس: عشرات الضحايا من عناصر الشرطة الفلسطينية(292) ينحرون كالخراف، بعد سلسلة هجمات منظمة نفذها سلاح الجو الإسرائيلي، جاعلا من هذا الاحتفال بوابة عدوانه البربري على قطاع غزة في كانون الأول من العام 2008 (293).

وكان المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، قد أورد في سياق التدليل على توسّل إسرائيل ممارسة عمليات الخداع والتضليل لغرض مباغتة حماس، ومفاجأتها، وأخذها على حين غرة. إذ نفذت سلسلة من السياسات والإجراءات ذات الصلة، التي من شأنها إيهام قادة حماس بأنّ لا حرب في الأفق القريب، وبالأقلّ خلال الأيام المعدودات القليلة القادمة: أقدمت الحكومة الإسرائيلية- على سبيل المثال- على فتح المعابر مع قطاع غزة، وذلك في السادس والعشرين من شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام 2008، أي قبل يوم واحد فقط من بدء العدوان. كما إدخال 428000 لتراً من الغاز الصناعي، ونحو 75 طناً من غاز الطبخ، فضلاً عن 105 شاحنات إغاثة... هذا إلى جانب انتخاب يوم السبت لبدء العدوان، وهو يوم مخصّص في الاعتقاد اليهودي للراحة والسكينة والتعبّد، وفق ما نشره موقع قناة العربية من مقالة بعنوان «سلسلة من عمليات التضليل والخداع ساعدت إسرائيل على مباغتة حماس». وكذلك يُسجّل هنا، حرص مكتب رئيس الحكومة الإسرائيلية على إبلاغ الصحافيين في يوم الجمعة، أي قبل العدوان بساعات قليلة، بأنّ الحكومة بصدد الاجتماع في يوم الأحد لمناقشة عملية مكثفة محتملة على غزة... ما عزّز التكهنات لدى قيادة حماس بعدم إقدام إسرائيل على أي تحرك قبل يوم الأحد. وسوى ذلك من عمليات تضليل وخداع مارستها إسرائيل بحذق، وتسبّبت في المقابل بمجزرة فلسطينية غير مسبوقة في تاريخ الصراع مع العدو الإسرائيلي.

يذكر أنّ الأميركي كان قد أخذ بدوره بأسلوب الرسائل التطمينية المراوغة والخادعة خلال غزوه العراق في نيسان من العام 2003؛ على النحو الذي بالمقدور تمثله بـ«عملية التوقف القسرية في ضواحي كربلاء، إذ حاول الأمريكيون إعطاء الجانب العراقي إنطباعاً بأنّ العمليات ستتوقف لبعض الوقت بهدف إشاعة روح الخمول والدعة في القوات العراقية»(294).

وبالعودة إلى مدار بحثنا حول ممارسة حزب الله لسياسة الخداع والتضليل والمراوغة والدهاء والمكر، في سياق صراعه المفتوح مع الإسرائيلي، عبر توجيه رسائل تطمينية تضمر في طياتها ما تضمر؛ يُسجّل للحزب كيف أنّه استبق تنفيذ عملية الأسر في 12 تموز من العام 2006– والمشهود لها بالحرفيّة والمهنيّة وحسن التحضير والإعداد والإبداع- بتوجيه رسائل تطمين إلى من يعنيهم الأمر في الحكومة اللبنانية بشخص رئيسها آنذاك فؤاد السنيورة، وبما مؤداه أنّ الحزب ليس في وارد الإقدام على أي عمل من شأنه أن يطيح بالموسم السياحي الموعود الذي يقدّر للبنان أن ينعم به، وفقاً لمزاعم حكومته التي كانت قد أفردت مساحات واسعة للترويج له والحديث عنه وتسويقه، لا لشيء إلا لإحراج حزب الله، وتقييد حراكه في لحظة توتر إقليمي حرجة، وساخنة، تنذر بانفجار شامل وكبير. كان حزب الله يُدرك بدهائه أنّ ما يصل إلى السنيورة– بفعل مروحة ارتباطاته وارتهاناته- من إشارات ورسائل تطمين أو خلاف ذلك، لن يقبع طويلاً بحوزته، ولن يبقى أسير مقتنياته، بل سرعان ما يجد طريقه معبّدة وآمنة وسالكة إلى دوائر القرار في البيت

الأبيض الأميركي، ومنه إلى ربيبته إسرائيل التي كانت- حينئذ- أحوج إلى تلمّس ما يطمئن جبهتها الشمالية، في حمأة انشغالها بالعدوان على غزة في فجر الثامن والعشرين من شهر حزيران من العام 2006، في ما اصطلح عليه- إسرائيلياً- بعملية «أمطار الصيف»، وذلك على إثر عملية بطولية جريئة، عرفت باسم «الوهم المتبدّد»؛ نفذتها المقاومة الفلسطينية في منطقة كرم أبو سالم (كير شالوم) المحتلة، حيث استهدفت موقعاً عسكرياً، وتمكنت خلالها من أسر الجندي الإسرائيلي جلعاد شاليط، وقتل جنديين آخرين.

أخذ الإسرائيلي رسائل التطمين هذه على محمل الجدّ «حزب الله ليس في وارد الإقدام على عمل ما، وهو عاكف على تذليل وتفكيك كلّ شبكات الألغام الداخلية التي أطبقت عليه من كلّ حدب وصوب، وهو غير معني بتاتاً بأيّ توتير على الحدود الشمالية لفلسطين، كما بأيّ تسخين للوضع الأمني». أخذ الإسرائيلي إذن على الرغم من وفرة ما تلقاه من معلومات حول نوايا حزب الله تنفيذ عملية أسر، كانت شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية قد وضعتها بتصرف أصحاب القرار من المستوى السياسي والعسكري. استبدّ الخدر بأوصال الجيش، وبلغ بها الاسترخاء أيّ مبلغ، واستولى طيف من إغفاءة واستسلام على اندفاعته وتيقظه وحذره ومستوى الجاهزية لديه، على نحو أضحت معه الدوريات التفقدية والاستطلاعية للحدود مع لبنان مجرد نزهات وتزجية للوقت، ولم يصر إلى تفعيل إجراء هنيبعل(295) إلا بعد مضي زهاء الثلاثين دقيقة على الهجوم الصاعق الذي نفذه حزب الله في الثاني عشر من تموز من العام 2006؛ لقد بات بحوزة الحزب اثنين من الجنود، وكبكب الإسرائيلي على وجهه كمن أصابه مسّ من الجنون، بعد عمل مهني نظيف وإبداعي، وغاية في الحرفيّة والاتقان.

د- استهلاك واستنفاد قدرات العدو بأهداف وهمية خادعة

تتكشّف فصول الحرب النفسية الدائرة رحاها بين حزب الله وإسرائيل عن براعة لافتة تظهرها القدرة التي أبداها الحزب على إمرار الأخبار والمعلومات والبيانات الخادعة والمضللة والمدسوسة إلى العدو، بل على ضخّها ضخّاً وبقدر هائل عبر وسائط ومسارب متعدّدة ليس التجنيد والاختراق والنفوذ والعمالة المزدوجة إلا مفردة من مفرداتها، كما عبر مراوغات وطرائق خداع ومكر ودهاء وحيلة كانت تأتيه- أي العدو- من خلفه، ومن بين يديه، ومن غير جهة وصعيد، بهدف إشغاله، وإلهائه، وإرباكه، وحرف انتباهه، وتشتيت مقدرته على التركيز، وصولاً إلى تخبّطه، وتصدّع تصوّراته، وفقدانه الثقة حتى بما ملكت يداه من يقين. كأن يصار إلى أن يستنفد العدو جهد سنوات عجاف من العمل المضني والشاق في تقدير واقع، وإعداد خطط، وصياغة أهداف، وبلورة تصوّرات، وجمع وتحليل معلومات، ورسم سيناريوات عمل، مع ما يتطلب ذلك من موارد بشرية ومادية وفنية وتكنولوجية، قبل أن يكتشف متأخراً أنّه كان يلهث خلف سرابات، أو أنّه كان يقبض على أوهام، أو أنّه كان يصبو إلى أهداف ليست إلا من طبيعة خادعة وزائفة.

ولتشفيف ذلك يطالعنا ما كان قد ألمع إليه ترجيحاً غير مصدر غربي، عن أنّ حزب الله قام– منذ العام 2000- بعملية بناء واسعة للإستحكامات والتحصينات والمخابئ والأنفاق. لكنّ المثير أنّ هذه العملية– وفق ما تكشفت عنه لاحقاً- كانت تنطوي على عملية خداع وتضليل كبرى، إذ بُني جزء منها تحت مجهر الرقابة الإسرائيلية، وسرّبت– بنحو متقصّد وممنهج- عن ذلك معلومات عبر الأهالي، في حين بُني الجزء الأهم بسرية تامة(296). الأمر الذي أوقع الإسرائيلي في حالة من

الضياع والتشتت والتخبّط، بعدما صير إلى تضليله وإيهامه واستدراجه إلى بيئة عمل ليس له فيها إلا تهويمات سرابية خادعة.

ويحضرنا في سياق متصل ما كانت الطائرات الإسرائيلية قد ألقته، في غضون دقائق معدودات قد لا تتجاوز الأربعين من فجر الثالث عشر من تموز من العام 2006، من حمولات جهد سنوات ست من الرصد والعمل الاستخباري المكثف، فيما عرف بعملية «الوزن النوعي» التي كان سلاح الجو الإسرائيلي قد دشّن بها حربه الثانية على لبنان، والتي أريد لها أن تستهدف ترسانة حزب الله الصاروخية من المديات البعيدة والمتوسطة، إلا أنّها أفضت- على خلاف المتوقع لها والمأمول منها- إلى استهداف منصات إطلاق وهمية أعدّت خصيصاً لاستدراج الطائرات، حتى صحّ في وصف العملية ما قيل أنها كانت «من وزن الريشة».

لقد أدرك حزب الله- وهو المجرّب في المواجهات العسكرية، وصاحب المران والخبرة والباع الطويل في هذا المجال- أنّ الضربة الأولى في الحرب تشغل عنصر تثقيل حقيقي لوزن المعركة، قد يؤدّي احتواؤها أو عدمه إلى رسم مصيرها وحسم نتائجها بشكل مبكر، من حيث مفاعيلها على الطرف المستهدف، وقد يؤدّي نجاحها إلى رفع الروح المعنوية للطرف المبادر إليها، أو إلى إحباط، وتثبيط عزائم، وانكسار نفسي حادّ في حال كان مآلها الفشل والتقهقر والخيبة.

والحال هذه، عكف حزب الله على امتصاص اندفاعة الإسرائيلي، وعلى استنفاد قدراته وطاقته، وعمل على إفراغ الضربة الأولى للحرب- التي لطالما أتقنها الأخير في حروبه- من مضمونها وفعاليتها وبالغ تأثيرها، فأبعد بذلك عن نفسه تجرّع كأس الصدمة والذهول، وأدار بالتالي الدائرة على الاسرائيلي الذي تعجّل إعلان نصره بعد أقلّ من ثمانٍ وأربعين ساعة على بدء الحرب، ظناً منه- واهماً- أنّه قضى على ذراع الحزب الصاروخية، وذلك قبل أن يستيقظ من خدره على هول نبأ الصواريخ التي أمطرت عمق الكيان الإسرائيلي، وقبل أن يتملكه الإحباط المرضي الشديد بعد جلاء غبار الجولة الأولى للحرب عن أنّه ما وقع في كلّ صولاته وجولاته التي أرادها حاسمة، إلا على مجسّات ومنصّات وهمية تقصّد حزب الله غرسها، تؤشر- بدورها- إلى مقدار حالة الغباء والترهّل التي كان عليها العقل الأمني والعسكري الإسرائيلي.

إلا أنّ ممارسة عملية الخداع والتضليل لا تستقيم، ولا تأتي أكلها على نحو فاعل، أو تستوي على نحو وازن، دون الأخذ بلحاظ الاعتبار توافر جملة من روافع الضغط:

1- التركيز على مواطن الضعف لدى العدو، واستغلالها، والنفاذ منها. وهذا ما كان حزب الله قد برع في الإتيان به؛ إذ قرأ العدو الإسرائيلي فأحسن وأجاد قراءته، وأجرى لبيئته الفاعلة تقديراً دقيقاً للواقع مع لحاظ ما يطرأ عليها من تحوّلات وتبدّلات مطردة، ووفر من الموارد ما لا يقاس في سبيل تعرية الكيان العبري، والأخذ بناصيته بعد الوقوف على مواجعه ومَقاتله ونقاط ضعفه، وبعد تشفيف ما يحكم استواء بنيانه وانتظامه المجتمعي من ثغرات واختلالات، أو ما يتنازعه من مشكلات ومآزم واضطرابات وتوترات. ما يعني أنّ عملية الخداع والتضليل– كما مارسها حزب الله- لم تكن لتأتي من علٍ، أو من حيث يحتسب الإسرائيلي ويستعدّ ويتحضّر ويتحصّن، وإنّما كان لها أن تراوغ وتتحايل وتتلطى لتتسرّب من ثقوب، وتنسلّ من مسارب، وتجدّ في البحث عن أكثر المواضع هشاشة وميوعة في الوعي والعقل الإسرائيليين، كما في نسيج تركيب كيان الدولة العبرية وفلسفة وجودها وميكانيزمات عملها واشتغالها، حيث يصار لها أن تنفذ وأن تستقرّ وتتوضّع

وتستوي، وأن ترخي بأحمالها وأثقالها ومفاعيلها بنحو يجعل الإسرائيلي في وضع دوني، بعد أن تلقي به في غياهب الحيرة والضياع والتوجّس والقلق، وفقدان التوازن والثقة، وانعدام القدرة على الفعل، كما على اتخاذ القرار.

2- أنْ يكون ثمّة مقدار محدّد من الصدق أو من الواقعية تنطوي عليه عملية الخداع، وإلا غدت عرضة للسقوط وللتهافت سريعاً أمام أيّة عملية تمحيص وتدقيق وتقييم. فلا يصحّ بإطلاق، أن تصدر عملية الخداع والتضليل من عدم أو من فراغ أو من فانتازيا تخييلية، بل ينبغي لها- في نزوعها إلى الإيهام- أن تتخلق وتتأتى كامتداد طبيعي لواقع ما، وأن تتحصّل على قدر من المعقولية والمقبولية، وأن تكتسب من البيئة الاصطناعية الحاضنة- التي أسقطت عليها وكأنها متولدة من رحمها- موروثات جينية، أو مصاحبات وحيثيات زمانية ومكانية، لا تظهرها على نحو من الهجانة والتلفيق والإسقاط. بالمقدور هنا ملاحظة انتساب كلّ مراوغات حزب الله التكتيكية وعملياته الخداعية والتضليلية إلى منطقية الظروف المصاحبة، وإلى نسقية الوقائع والأحداث، بحيث لا يبدو زيفها أو نفورها، ولا ينكشف ما داخلها من تلفيق، ولا ترتكب حماقة القطع مع مؤدياتها ومدخلاتها. ما منح حزب الله- على إمكاناته وقدراته المتواضعة جداً- قصب السبق في ميادين الحرب النفسية الدائرة رحاها مع الإسرائيلي على غير صعيد.

-3 أنْ تقوم صلات وأواصر وعلاقات بين مختلف الأجهزة والمنظومات الاستخبارية العاملة، بهدف إعداد وإخراج عمليات التضليل والخداع والمراوغة، وضبط سيناريواتها ومراحلها وفصولها، وسيرورة تخلقاتها وتحوّلاتها واكتمالها؛ كي تخرج، سليمة، محكمة، بالغة الإتقان، وغاية في الدقة، لا نتوء في سياقاتها، ولا تصدّع في ميكانيزمات تحققها وأواليات اشتغالها، أو تهافت في مبرّرات وجودها، وكي تؤتي مقاصدها دونما تردّد أو إخفاق، ولا تتأدّى- في المقابل- إلى نتائج عكسية من شأنها الإطاحة بمجمل ما كان قد تحقق من إنجازات، وتأخذ بوجهة الصراع القائم على نحو يفيد العدو، ويمنحه مكاسب غير متوقعة وغير منتظرة. لا يخفى هنا، أنّ إبداعات حزب الله التي تفتقت في صوغ وإخراج عمليات خداع تضليلية متقنة، كانت بدورها تفضي في كلّ مراحل ومحكات الصراع مع الإسرائيلي إلى نجاحات باهرة؛ إنما تعود فضيلتها إلى تثميره- أي الحزب- وتوظيفه، على نحو تعاوني خلاق، عمل كلّ الوحدات والأجهزة والمنظومات والأطر ذات الصلة، في بوتقة واحدة، وبما يخدم الوجهة المرجوّة والهدف المنشود.

خامساً - أخرج حزب الله في سياق تفعيل الحرب النفسية كلّ ثعابينه وشياطينه من أكمامها، وأطلقها في أثير وفضاءات الإذاعة والتلفزيون والدعاية والإعلام(297) التي استحالت جميعها– بفعل ما تفتقت عنه قرائح المبدعين وخيالاتهم- إلى منصّات إطلاق ذات عيارات ثقيلة ونوعية، دون مفاعيلها الصواريخ على اختلاف مدياتها وقدراتها التدميرية، حيث أريد لها أن تعبث بعقل الإسرائيلي وروحه، وأن تمارس سطوتها وفعلها وتأثيرها على وعيه الجمعي، كما على ذاكرته ومخياله وإرادته؛ فقد قيّض لقناة المنار أن تتحوّل إلى أداة البروباغندا الأولى في يد حزب الله، وإلى يده الطولى في سلسلة حروبه النفسية، حتى ذهب أحدهم إلى القول إنّها «بالنسبة إلى حزب الله، هي ما كانت إياه صحيفة البرافدا(298) بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي»، أو هي ما كان يضطلع به جوزيف غوبلز (Joseph Goebbels) بالنسبة إلى الدعاية النازية؛ فـ«لقد شكل الإعلام عنصراً مهماً في القتال ضد الجيش الإسرائيلي في لبنان» يقول أيال زيسر «وحزب الله استغله في ميدان المعركة، وهم استحقوا نصراً جارفاً. لقد أدركوا أنّ هذا بذاته سلاح، وفي العصر

الحديث مع وسائل الإعلام من الممكن الوصول إلى أيّ مكان. الإعلام بالنسبة لحزب الله هو أداة حرب، وبواسطة المحطة (المنار) ينزعون صفة الشرعية عن اسرائيل»(299).

والحال هذه، كان توسيع وتعميم نطاق تغطية المنار، وتوسيع مروحة بثها وانتشارها، من ضمن استعدادات حزب الله الطبيعية لأيّة حرب افتراضية مقبلة مع إسرائيل(300)، كما كان ذلك جزءاً مفتاحياً من دفاعاته واستحكاماته، بحيث أصبح بمقدور هذه القناة حالياً، البثّ والإرسال إلى كامل فلسطين المحتلة، كما إلى غالبية العالم العربي. وبالتالي أصبح بمقدور الإسرائيلي إدارة وتشغيل أجهزته التلفزيونية؛ ليجد نفسه واقعاً في إسار هذه البروباغندا الإعلامية، وليصبح- على نحو يومي- عرضة لمكائدها ولتأثيراتها وإشعاعاتها.

كان تلفزيون المنار قد اضطلع بمهام استثنائية، بالغة الحساسية والتأثير؛ كأن يصار إلى تقديم نشرات إخبارية باللغة العبرية. بثّ فلاشات توهينية لقدرات الجندي الإسرائيلي ولانهزامه وسقوطه وفراره من أرض المعركة. بثّ تهديدات وتحذيرات إلى الداخل الإسرائيلي، بعد تحديد الأماكن الافتراضية لسقوط الصواريخ(301). عرض صور وخرائط لمستوطنات ومدن الكيان العبري، كما لمصالحه وأماكنه الإستراتيجية. إذاعة خطب سماحة السيد حسن نصر الله، ونقلها مترجمة باللغة العبرية. فضلاً عن عرض العمليات النوعية التي تنفذها المقاومة الإسلامية- الذراع العسكرية للحزب، وإظهار سقوط المواقع الإسرائيلية المحصّنة بقبضة المقاومين(302). كما عرض صور الجرحى والقتلى في صفوف الجيش الذي لا يُقهر، وصور لآلته العسكرية الجبارة تتعرّض للإبادة، ولأذرعه العسكرية البحرية والبرية تتقهقر وتنهزم، وهي صور ليس لدى الجمهور الإسرائيلي من قدرة على تحملها- وفق ما تكشّفت عنه بالأخصّ وقائع حرب لبنان الثانية في العام 2006 ـ لأنها تولد لديه مخاوف هيستيرية يصعب على الأجهزة الأمنية، أو على السلطات المختصّة، إحكام السيطرة عليها.

وفي سياق متصل، يصف المحلل العسكري الإسرائيلي عوزي محنايمي كيف استحوذ تلفزيون المنار على ثقة الجمهور الإسرائيلي، وكيف أُدخل عنوة في مدار اهتماماته، وتحوّل في اعتباره إلى مرجعية موثوقة تُستقى منها المعلومات والأخبار والمواقف والتقديرات المحتملة لتطوّر الأوضاع والمعارك. كانوا ينظرون إليه بإعجاب وحسرة؛ يتسمّرون أمام شاشته ويتبنّون مقولاته دون سواها. يقول محنايمي موصفا ذلك من مقالة له نشرتها صحيفة الصنداي تايمز البريطانية في عددها الصادر في 27 آب من العام 2006: «إنّ حزب الله تمكن من تفكيك الشيفرة الميدانية للجيش الإسرائيلي، وفي كثير من الأحيان علم الإسرائيليون بالخسائر من تلفزيون المنار قبل أن تذيعه المصادر الإسرائيلية مما رفع المصداقية الإعلامية والسياسية للحزب لدى الجمهور الإسرائيلي طيلة فترة المعارك».

على أنّ مهارات تلفزيون المنار وقدراته الفنية والإعلامية التخصّصية لم تبق على حالها؛ بل شهدت تطوراً وتعاظماً ملحوظاً ومطرداً، بفعل ما راكمته من تجارب وخبرات على مدى سنوات مديدة من الصراع المفتوح مع إسرائيل. كما سُجّل لها قصب السبق في الولوج إلى حقول إبداعية عديدة غير مطروقة؛ ففي وقت سابق بكثير من اعتماد الولايات المتحدّة لمفهوم المراسل المدمّج في التشكيل العسكري، غرس حزب الله مراسلي المنار بين مقاتلي المقاومة الإسلامية في الميدان، فيما عرف لاحقاً بالإعلام الحربي(303)، حيث يعكف هؤلاء على تصوير المعارك والمواجهات المباشرة، ليصار بعدها إلى بثّ هذه المادة المصوّرة على امتداد المنطقة والعالم. وكان رون شليفر

في مقال بعنوان (العمليات النفسية؛ تحوّل جديد في فن قديم: حزب الله مواجها إسرائيل)، قد أشار إلى حقيقة هذا الأمر، بعدما وصف تلفزيون المنار بأنّه قناة اتصال مفتاحية غاية في الأهمية، ولخّص آلة حزب الله الدعائية، وماكينة البروباعندا لديه، بالمقولة الآتية: «إنْ لم تستطع التقاطها على فيلم؛ فأنت لم تقاتل».

لقد نظر حزب الله- وفقاً لشليفر- إلى الكاميرا كأداة عمليات فاعلة، وإلى الفيديو باعتباره سلاحاً حربياً من أسلحة المواجهات التي لا فكاك من الاعتماد عليها، بحيث أصبح بمقدوره- وعلى نحو لافت ومثير- الجمع بين القدرات العسكرية والنفسية الهائلة، التي تتوافر- بالضرورة- ابتداء من مهارة استعمال الكاميرا وفنون التصوير، وصولاً إلى المؤهلات والمهارات القتالية.

لكنّ الأخطر في كلّ حرب الدعاية التي تقوم بها المنار– كما تذهب المقاربة الإسرائيلية- هو تحوّلها بسبب من اتصافها بالصدقية والموثوقية والدقة والمهنية والاحتراف(304)، إلى إطار مرجعي إعلامي حاكم، تنهل منه بعض الشبكات والفضائيات والوسائط الإعلامية الأخرى، فتنقل الوقائع والمعطيات والأحداث والأخبار عن ظهر قلب، ويذيع المراسلون رواية حزب الله دون سواها، على نحو أصبحت فيه هذه الرواية تسمع على امتداد العالم(305)، وأصبح المتلقي يقع، ليس على نسخة واحدة من المنار، بل على نسخ متعدّدة بصوت واحد، ما زاد من قيمة المنار الإعلامية والدعائية، وبالتالي من تأثيرها ونفوذها وسطوتها: «لقد امتلك إعلام المقاومة صفة أن يكون شريكاً في المواجهة» يقول رفيق نصر الله «وفرض نفسه على المشاهد الإسرائيلي، كما على شريحة كبيرة من الرأي العام العربي والعالمي»(306)؛ فالمصداقية التي حظي بها هذا الإعلام شكلت دافعاً في تحوّله «إلى مرجعية ليس لجمهور المقاومة فقط، بل حتى لجمهور محايد أو ربما معاد في بعض الأحيان»(307). وهكذا وظفت المنار انفتاحها المحدود على الإعلام العالمي توظيفاً رشيداً، مكنها من تحقيق مكاسب كبيرة في الحرب النفسية قبالة إسرائيل، «للمرة الأولى في تاريخ حروبنا» يقول زئيف شيف من مقالة له نشرتها صحيفة هآرتس في عددها الصادر في 17/ 5/ 2000 «تغلب العدو في الحرب النفسية على إسرائيل بما في ذلك الاستخدام الذكي لوسائل الإعلام الإسرائيلية، فقد تبين أن قدرة إسرائيل على الصمود قد تآكلت بحيث لم يعد أحد يتعرّف إليها».

لا شكّ أنّ الإحساس بفقدان وتهافت بعض المواقع التي كانت محجوزة للإسرائيلي(308) فيما مضى على الساحة الإعلامية، وكان له فيها اليد الطولى؛ كان إحساساً شديد الوطأة والوقع والتأثير. كما إدراك أنّ الجمهور الإسرائيلي بات الطرف الخاسر في ميدان الحرب النفسية؛ كان إدراكاً عظيم الهول والتبعات، ففي «مجال الحرب النفسية يتفوّق حزب الله»(309) وفقاً لعوديد غرانوت. أما قوام المشكلة الحقيقية هنا؛ فهو «أنّ وراء هذه الحرب النفسية، التي تجد ترجمة لها في تهديدات نصر الله المتكرّرة، ثمّة إعداد جديّ للعمل»(310)، وهو– بالضرورة- جزء من معركة (بث الصورة) التي «أتقن حزب الله استخدامها في المواجهة»(311).

ثمّة جانب آخر على قدر كبير من الأهمية ، يشكل بدوره فصلاً وازناً من فصول الحرب النفسية التي تشنّها المجموعة اللبنانية للإعلام (المنار) على الوعي الإسرائيلي. وكان هذا الجانب قد تمثل– وعلى نحو من المعجزة- في قدرة المنار الأسطورية طيلة ثلاثة وثلاثين يوماً من الحرب المدمّرة، على الاستمرار في البثّ(312)، كما في الاضطلاع بدورها الإعلامي على هذا الصعيد، دون أن تتمكن آلة الحرب الإسرائيلية وتكنولوجياتها المعقدة من إسكاتها وإعطابها والإضرار بها،

أو التأثير على أدائها، أو الحيلولة دون تمريرها للرسائل، أو الحؤول دون ممارستها الإبداعية لشتى فنون وضروب الحرب النفسية والناعمة في الميادين ذات الصلة. فلقد «استمر الإعلام عاملاً بلا إنقطاع» يقول منير شفيق «بالرغم من تدمير المبنى الأساسي لقناة المنار أو لإذاعة النور؛ فهنا كان دور البديل سري الموقع حاسماً»(313). وكان المعلقون والخبراء العسكريون قد دللوا على فشل الحملة الجوية الإسرائيلية في تموز– آب من العام 2006، بل على فشل الحرب الإسرائيلية برمتها؛ بالعجز الذي تبدّى في قدرة الأخيرة «على وقف بثّ تلفزيون المنار طيلة زمن الحرب»(314) وفق ما ينقله جمال الخطيب عن غير مصدر غربي.

وكان بنيامين لامبث قد وصف، في دراسة مطوّلة بعنوان (العمليات العسكرية الجوية لحرب إسرائيل ضد حزب الله)، قناة المنار الناطقة بلسان الحزب بأنّها «أمر حيوي»، وتوقف عند «فشل الجيش الإسرائيلي في إزالتها» واجتثاثها، وإسكات صوتها خلال الحرب على لبنان في صيف العام 2006 .. ما سمح لحزب الله حينئذ بأنّ «يهيمن على معركة الخطابة، خلال النزاع وبعده، وليعلن نفسه منتصراً»، في قبالة «ضعف الحكومة الإسرائيلية في هذا المجال، وعجزها عن استقطاب تعاطف الإسرائيليين ودعمهم».

سادساً - أدار حزب الله عجلة توظيف التكنولوجيا في صراعه المرير مع إسرائيل، فلم تقتصر حربه النفسية على توسّل واستعمال ما هو تقليدي من أدوات ووسائل، بل عكفت على الإفادة من أي تطوّر حاصل في تكنولوجيا الاتصال والمعلومات، في إطار ما يصطلح عليه بالحرب الإلكترونية؛ فقد اضطلعت مواقع الانترنت التابعة لحزب الله، كما فريقه المتخصّص في هذا الحقل، بمهام جسام، ليست أقلّ قيمة وشأنية واعتبارية وريادة، من تلك التي أضطلعت بها المنار، سواء على مستوى صياغة الرسائل الدعائية وإرسالها إلى جمهرة المتلقين في الدولة العبرية، أم على مستوى مفاعيل ذلك في الوعي وفي المخيال الإسرائيلي الجمعي. ما أحدث هزّة عنيفة، وإرباكاً قلّ نظيره في الجانب الإسرائيلي، ودفع بسياسيه غير مرة إلى طلب وقف هذه الأنواع من الحروب.

فعلى سبيل المثال، كان التقرير الأولي الذي صير إلى إعداده من اللجنة الإسرائيلية لتقصّي الحقائق في إدارة الحرب على لبنان، ورفع حينذاك إلى رئيس الحكومة ايهود أولمرت ووزير الدفاع عمير بيرتس؛ قد أفاض في الحديث عن قدرات حزب الله الفارقة في ميدان الحرب الإلكترونية. إذ سجّلت الوحدة الهندسية ذات الصلة التابعة للأخير نجاحات عظيمة «في اختراق منظومة الاتصالات اللاسلكية التي استخدمها الجيش الإسرائيلي على جبهة القتال. كما تمكن بفعل حيازته على تقنيات متطوّرة للغاية في هذا المجال، من الاستماع إلى الأحاديث التي جرت بين الجنود والضباط في أرض المعركة، ومن رصد المكالمات الهاتفية التي تمّت بين الأجهزة الأمنية الإسرائيلية بعضها ببعض، وبينها وشبكة المخبرين الناشطة في مناطق مختلفة من لبنان». ويلحظ التقرير بين طياته أنّ هذه الوحدة الهندسية المتخصّصة كانت على مستوى عال من الخبرة والكفاءة والاقتدار، وأنّ أفرادها كانوا يجيدون اللغة العبرية بطلاقة. ما فاقم من مأزم الجيش الإسرائيلي، وساعد بالتالي هؤلاء على إنجاز «مهامهم بنحو أفضل وأسهم بصورة مباشرة ورئيسة في إحداث إخفاقات أودت بحياة العديد من الجنود وأجهضت عمليات تنفيذ خطط عسكرية».

كانت غير صحيفة إسرائيلية قد أشارت إلى إطلاق حزب الله- في إطار تفعيل حربه النفسية الإلكترونية- لموقع باللغة العبرية، وجد مكانه سريعاً على خارطة الشبكة العنكبوتية، وحمل

العنوان الآتي: http:ll moqavemat.ir l?lang =he. وذلك بهدف التأثير على المزاج الإسرائيلي العام، لاسيما أولئك الذين يعارضون أنشطة الحكومة الإسرائيلية في لبنان وفي المناطق الفلسطينية. كما كشْفُ الادعاءات والفبركات والمزاعم التي تتوسّلها إسرائيل لتبرير سياساتها، من خلل تزويد الجميع بالحقائق والمعلومات الصحيحة لما يجري على أرض الواقع. وكان مارك لست– الأستاذ المحاضر في هندسة تقنية المعلومات في جامعة بن غوريون في بئر السبع- قد أبدى إعجابه بحسن تنظيم الموقع الذي توزّعته- بكيفية جيدة- أقسام عديدة: فهناك قسم الأخبار، وقسم التقارير، وقسم الصور... كما أبدى إعجابه أيضاً بأسلوب اللغة العبرية الذي توسّله حزب الله في إثارة القضايا، وكتابة التقارير، وعرض الوثائق والمعلومات، وتقديم الأخبار، وبيان الحقائق.

والخطير إسرائيلياً في هذا المجال، أنّ حزب الله قد وُفّق في غير مناسبة ومحك واستحقاق داهم، لعل أبرزها الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز- آب من العام 2006، في أن يبني جسوراً من الثقة والتعاون والتواصل مع عدد كبير من العرب والمسلمين والأحرار، من ذوي الاختصاص وأصحاب الخبرة والمهتمين بالانترنت في جميع أنحاء العالم(315)، بعدما كان الحزب قد بادر إلى توجيه رسائل بهذا الخصوص، وأن يؤسّس لأوسع مروحة من العلاقات معهم في هذا الشأن، فكانت النتيجة مذهلة وفوق حدود ومستوى التوقع: تأسيس نواة معلوماتية ضخمة، بمقدورها أن تتحوّل إلى تجمع انترنت عالمي، ومتعدّد اللغات والقوميات والمشارب والجنسيات ضد إسرائيل، ما أثار حفيظة الأخيرة وخشيتها، وأجبرها بالتالي على التراجع والتقهقر في غير موقعة. إلا أنّ المحك الفيصل في هذا المجال؛ هو أن يصار إلى تعميق التواصل، وتمتين أواصره وجسوره، كما تفعيل وتنشيط كلّ ما من شأنه حفظ وتعزيز العلاقات مع هؤلاء العرب والمسلمين والأحرار، لتحويل النواة أو التجمّع الموعود من حالة طوارئ، ظرفية ولحظية عابرة، غير مبادرة، تنشط في الأزمات، ويغلب عليها طابع الانفعال وردود الفعل...، إلى حالة منتظمة، مبادرة، تتسم بالثبات والاستقرار.

سابعاً - أمعن حزب الله، تفعيلاً لحربه النفسية في مواجهة إسرائيل، في إطلاق الأوصاف والنعوت والاصطلاحات الكوميدية الدالة، التي من شأنها توهين الكيان العبري، وتصغيره، وتقزيمه، وتسفيه قادته من المستويين السياسي والعسكري؛ فلا تكاد خطبة من خطب السيد حسن نصر الله تخلو من صورة كاريكاتورية، أو من مشهد ساخر، يتعرّض فيه لمكانة إسرائيل، ولهيبتها، وسمعتها، ولردعها المزعوم، كما لرموزها، وقادتها، وزعمائها. ما دفع بعوفر شيلح إلى القول بـ«تحوّل السيد نصر الله إلى الشخصية المثولوجية التي ستضطر إسرائيل لمواجهتها زمنا طويلاً»(316).

فاستثماراً لما بدأ يفصح عنه تقرير لجنة فينوغراد(317) من اعترافات أدلى بها قادة إسرائيل بشأن فشل الحرب على لبنان في تموز– آب من صيف العام 2006؛ وظف أمين عام حزب الله هذه الاعترافات في سياق حرب نفسية غير مسبوقة، نالت من سمعة القيادة الإسرائيلية، وشككت بقدراتها وإمكاناتها وخبراتها وصلاح تجاربها. ما دفع بالخبير الإسرائيلي في علم النفس السياسي الدكتور أودي ليفل إلى القول- وفق ما أشارت إليه صحيفة معاريف في عددها الصادر في الأول من شهر شباط من العام 2007 ـ إنّ «أمين عام حزب الله أظهر إلمامه الميكروسكوبي بما ينشر من داخل لجنة فينوغراد، وبرع في الاستقاء من كلام دان حالوتس حول عدم ثقته بقدرة الجيش الإسرائيلي على مواجهة مقاتلي حزب الله(...) وإنّه– أي نصر الله- هو الشخص الذي يعلم، ويستطيع أن يقدّر أفضل من أي إنسان آخر قدرات ومحدودية وفجوات الجيش الإسرائيلي، من

أجل أن يجسّد لجمهوره توازن القوّة الجديد بين حزبه وهذا الجيش بناء على إقرار حالوتس».
ويعقب ليفل بالقول: «تصوّروا كيف يستخدم أب الحرب النفسية حسن نصر الله بعد فشل إستراتيجية القتال الفعّالة ضد حزب الله، الكلام عن إعادة ايهود باراك إلى وزارة الحرب، وهو المتمرّس على إستراتيجية الهروب من حزب الله، وقاد إسرائيل إلى انسحاب مستعجل ومرتبك من لبنان في شهر أيار من العام 2000».

وكان السيد حسن نصر الله، قد عقد عشية الحرب على لبنان في صيف العام 2006 مؤتمراً صحافياً وصف فيه قادة إسرائيل آنذاك- رئيس الحكومة ايهود أولمرت، ووزير الدفاع عامير بيرتس- بالقصور وبقلة الخبرة والمران والتجربة(318)، ناصحاً إياهما بعدم الإقدام على مغامرة غير محسوبة(319)، أو على خطوة جنونية من شأنها التورّط في حرب مفتوحة، لاسيما وأنّهما– على خلاف أسلافهم- من أصحاب التجارب الهجينة، ومن غير ذوي الخبرات والمؤهلات العسكرية ذات الصلة بإدارة الحروب. تلقف تلفزيون المنار الأمر، وترصد زلاتهما التي قد لا تحتاج إلى ترصّد لكثرتها ووفرتها، حيث صير إلى التركيز، وبكيفية إبداعية مفارقة- كدلالة على الإحباط الجمعي الذي تعيشه إسرائيل، فضلاً عن الشعور العام بالإخفاق والهزيمة- على صورة أولمرت(320)، وهو ذابل العينين، يتغشاه النعاس، عشية مثوله- للتحقيق معه- أمام لجنة فينوغراد. كما صير إلى التركيز– كإشارة إلى الغباء والجهل وقلة الحيلة- على صورة بيرتس، وهو ينظر من منظار عسكري مقفل العدسات خلال تفقده ومراقبته لمناورة يجريها جيشه(321). ما يعني أنّ حزب الله لم ينطلق في دعايته السياسية من أكاذيب وفبركات واختلاقات وأضاليل؛ وإنّما من وقائع وحقائق موضوعية. الأمر الذي جعل وقعها وسطوتها، أشد فتكاً وقوّة وتأثيراً في الوعي الإسرائيلي العام.

وفي سياق متصل، يحضرنا الرسم الكاريكاتوري الساخر الذي قدمه السيد حسن نصر الله، في معرض هزئه بإرييل شارون- آخر ملوك إسرائيل، وعنوان القوّة والصلابة والبأس والجبروت فيها- وقد كان الأخير يشغل منصب رئيس الحكومة، حيث وصفه في إحدى خطبه الجماهيرية بـ(الضفدعة).

لكنّ أخطر ما تضمّنته حرب حزب الله النفسية- في سياق الأوصاف والنعوت والاصطلاحات- هو ما انطوى عليه وصف السيد حسن نصر الله لإسرائيل من أنّها «أوهن من بيت العنكبوت»(322)، من حمولات ودلالات سايكولوجية أضرّت بالروح الإسرائيلية، كما بالوعي والإرادة والمخيال والذاكرة، وأصابت منها جميعاً مَقاتل ومواجع؛ فلقد أشار عوفر شيلح في كتابه (أسرى في لبنان) إلى حقيقة التأثير الكارثي المدمّر لمقولة السيد حسن نصر الله على الوعي الإسرائيلي الجمعي، حيث يقول: «عرف نصر الله كيف يلامس بمهارة المخاوف الأكثر عمقاً لدى الإسرائيليين. فخطاب (خيوط العنكبوت) الذي ألقاه في بنت جبيل بعد الإنسحاب من لبنان، أكد في نظر كثيرين في إسرائيل مخاوفهم الأكثر مرارة إزاء أنفسهم. لقد تحوّلنا فعلاً إلى ضعفاء، نحبّ الحياة وغير قادرين على التصدّي للواقع الوحشي في الشرق الأوسط، بينما نختفي خلف قوّة تكنولوجية من أجل تغطية عدم الاستعداد للقتال والموت (...) سيطرت الخشية من أنّ نصر الله يعبّر بالفعل عن مدى الحقيقة العميقة والمظلمة بالنسبة إلى الروح الإسرائيلية».

كان لوصف (بيت العنكبوت) وقعاً مزلزلاً على الوعي الإسرائيلي العام، وظلت مفاعيله وأثاره الكارثية آخذة في التراكم والتضخم(323)، إلى أن حاولت إسرائيل بعد مضي ست سنوات على

إطلاقه، أي في حرب تموز- آب من العام 2006، إبادة المجال الرمزي الذي ولد فيه أي مدينة بنت جبيل، في عملية عسكرية واسعة وكبيرة وغير مسبوقة، أطلق عليها تسمية «خيوط الفولاذ»(324)، كردّ على خيوط العنكبوت، ودفعاً لأثاره ومفاعيله(325)، إلا أنّ سوء طالع إسرائيل حال دون ذلك، فقد منيت العملية بالإخفاق والفشل والهزيمة والسقوط أمام المقاومة الأسطورية التي أبداها مقاتلو حزب الله، وغدت بالتالي مفاعيل الوصف المذكور- كلعنة الموت لا تردّ، ولا تبدّل، ولا تزول- أكثر تجذراً وتأصيلاً في الوعي الإسرائيلي.

أمّا كبرى الإهانات التي عصفت بالزعماء والقادة الإسرائيليين، وفقاً لعوفر شيلح؛ فهي تلك التي تمثلت «في أنّ مواطني إسرائيل يرون في الرجل صاحب العمامة السوداء، شخصاً صادقاً وكفوءاً أكثر من زعمائهم». إذ دللت الاستطلاعات والاستصراحات المشففة للرأي كما للمزاج العام الإسرائيلي، التي كانت- وعلى نحو متفاوت- قد صير إلى إجرائها من غير جهة مختصّة، في المساحة الزمنية التي أعقبت الحرب الإسرائيلية على لبنان في العام 2006؛ إلى أنّ الكثرة الغالبة من المستوطنين، ومن مستوطني الشمال بخاصة، بوصفهم العينة الأكثر اهتماماً ومتابعة وتأثراً بما يجري في الساحة اللبنانية، إذا ما صير إلى مقايستهم بسائر المستوطنين الآخرين، قد أعربوا عن ثقتهم المطلقة بالأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله. وأبدوا احترامهم له، وإعجابهم بكاريزماه(326)، وافتنانهم بقدراته التواصلية(327). واعتقدوا بصوابية كلّ كلمة أو تصريح أو موقف يطلقه، وبصلاح كلّ منطق يتوسّله، أو حجة يبني عليها أطروحته ومقصده. ورأوا أنّه أكثر صدقية وموثوقية من رئيس وزرائهم ايهود أولمرت الذي لم يتوافر حينذاك إلا على ثقة ثلاثة في المئة من نتائج الاستطلاعات والاستصراحات عينها(328).

الفصل الثاني

قراءات في إستراتيجيات حزب الله

تقع عملية البحث عن ماهية العناصر والمركبات التي تأتلف من انعقادها المنظومة الأمنية والعسكرية لحزب الله في تعسير وتعتيم واحتجاب. وذلك بسبب من انعدام وجود نصوص ذات صلة، أو توافر مدوّنات ووثائق مكتوبة، كما تصريحات رسمية تعنى بالحديث عن التقنيات التي يتوسّلها الحزب في نزاعاته وحروبه مع الدولة العبرية، وتفصح- على نحو صريح وبيّن- عن تلك العناصر والمركبات. ما يتأدّى إلى تصحرٍ مقيت يصيب هذه العملية البحثية، ويضعها في مدارات التكهّن والافتراض، ويحول دون التحقق والتثبت، أو الانتهاء إلى حقائق دامغة، ودون الخلوص إلى محصّلات ومخرجات يقينية على هذا الصعيد. لكنّ الأمر لا يُترك على عواهنه وإطلاقه، إذ يفضي تجميع بعض المعطيات والمؤشرات الدالة، الموزّع منها والمبعثر، ومعالجتها واستنطاقها وتحليلها، إلى تكوين تصوّر غير رسمي يؤطر ما بالمقدور الاصطلاح عليه بـ«منظومة الحرب النفسية لدى حزب الله».

تشفّ قراءة المعطيات والمواقف والوقائع، التي لطالما عكست طبيعة السياسات التي انتهجها حزب الله وتبانى عليها، والأدبيات التي توافر عليها خطابه وسلوكه، والقواعد والفروض التي حكمت إيقاعات عمله وآدائه وحراكه؛ عن أننا إزاء جملة من الإستراتيجيات الفاعلة في إطار تفعيل الحرب النفسية. لكنّ مبحثنا هذا لن يتنكب عناء الإحاطة والعناية بهذه الإستراتيجيات جميعها، بل سيكتفي بنشر إضاءات كاشفة حول أربع منها، دون أن يعني ذلك- بإطلاق- تبخيسا من قدر وشأنية الأخرى، أو تقليلاً من خطرها وإلحاحها وعظيم مآتيها، بل لموجبات ملحّة ولغايات ليس هنا موضع ومعرض الإشارة إليها.

إستراتيجية الغموض الفاعل والبناء

يشفّ تحليل ومقاربة طائفة من المعطيات والوقائع والحيثيات التي رشحت عنها فصول المواجهات والحروب والنزاعات ذات الطبيعة الوجودية بين إسرائيل وحزب الله - إذا ما صير إلى معاينتها حفرياً خلال تاريخية الصراع بين الجانبين أي خلال العقود الثلاثة المنصرمة- أنّ الأخير قد تصادى لإدارة دفة الصراع من خلال تبني منظومة أمنية- عسكرية؛ ليست إستراتيجيةُ الغموض الفاعل والبنّاء(329) سوى مركب أصيل من مركباتها، ومكوّن غير ظرفي وغير لحظي من مكوّناتها، وذلك بوصفها إستراتيجية أثبتت فعالية عالية ومؤثرة في إدارة الصراعات والحروب، على أشكالها المختلفة سواء الدبلوماسية أو الأمنية أو العسكرية. وكانت إسرائيل قد تبنت واعتنقت هذه الإستراتيجية بعد أن رأت إليها إستراتيجية عبقرية، وأدرجتها هي الأخرى ضمن مركبات عقيدتها الأمنية القومية، بل وبالغت في إيجاد مصاديق لها، حيث بالمقدور أن نقع على أبرز تطبيقاتها وترجماتها وتعبيراتها الراهنة فيما توسّلته بشأن قدراتها النووية(330)، التي حرصت على إبقائها في دائرة مغلقة يسودها التكتم والسرية، ويجانبها الضوء والإفصاح إلا بالقدر الذي يخدم مصالح الكيان العبري الحيوية(331). ويذكر أنّ إستراتيجية الغموض قد حظيت بقدر كبير من عناية واهتمام صنّاع القرار الإستراتيجي في الجانب الإسرائيلي بنحو يؤشر إلى استحالة أن تتخلى تل أبيب عنها في المدى المنظور(332)، كما تحوّلت سريعاً إلى هدف ذاتي بالنسبة للحكومة الإسرائيلية(333)، التي بات محظوراً عليها أن تتحدّث عن أحد أهم أسباب القوّة لديها، بل مارست حيال قدراتها النووية ما يُسمّى بسياسة الالتباس المتعمّد(334)، رافضة نفي أو تأكيد حيازتها وامتلاكها لمثل هذه الأسلحة.

وتتوزّع إستراتيجية الغموض الفاعل والبناء عناصر متعدّدة، يسهم تداخلها وتشابكها وانعقادها على نحو موجب وخلاق، في تثميرها، وترشيدها، واستقامتها، وتمكين مرتكزاتها، وتفعيل أوالياتها عملها واشتغالها، واستحلاب الحدّ الأقصى من النتائج والمخرجات والحصائل ذات الجودة العالية بلحاظ المقاصد والأهداف. سنقف على بعض هذه العناصر لمعاينتها وفحصها، وبيان وجه الإفادة التي تحصّل عليها حزب الله من جراء استنجاده وأخذه بمثل هذه الإستراتيجية:

أولاً - توافر بيئة فاعلة للغموض

تتوضّع إستراتيجية «الغموض البنّاء» في صدارة قائمة الإستراتيجيات التي تأخذ بها العقيدة الأمنية والعسكرية لحزب الله، بوصفها إستراتيجية مكينة أتت أكلها، وكانت ذات ثمار وإنجازات عظيمة وباهرة في ميدان الصراع المفتوح مع إسرائيل. إذ لا ريب أنّ الغموض هنا- بحمولاته ودلالاته السياسية والأمنية والعسكرية– قد أنجز ما هو مطلوب منه، وحقق قائمة أهدافه المنشودة على أكمل وجه، وهو ما لا يخفى على متتبع – باحث. غير أنّ استواء هذه الإستراتيجية على نحو صحي، لم يكن له أن يستقيم أبداً دون توافر بيئة فاعلة تشكل حاضنتها، وأسبابها الموضوعية، وشروط نجاحها الحاكمة، وحصانتها الأمنية التي بالمقدور تمثلها بالدائرة المغلقة، أو بالحزام الحديدي الأمني الذي يطبق- إطباقاً محكماً- على حركة المعلومات الصادرة والواردة من وإلى

جسم حزب الله، ويضبط لها إيقاعاتها ومنافذها ومساربها ومعابرها، ويحيط بالسرية التامة والتكتم الصارم والشديد مجمل الحراك العام للحزب... ما يجعل من تسرّب المعلومات أمراً عسيراً وشاقاً وبالغ الصعوبة إن لم يكن مُحالاً. ويجعل- بالتالي- من الحزب قلعة حصينة، ومنيعة، وعصية على النفوذ والاختراق والاستهداف(335)، أو «كهفاً مغلقاً»(336) وفقا لتوصيف الباحث الإسرائيلي يوعاز هندل .

يذكر في هذا السياق، ما كانت قد ذهبت إليه دراسة صادرة عن سلاح البحرية في الجيش الأميركي بعنوان (مكر حزب الله: الخداع في حرب تموز 2006)؛ حيث أنّها أشارت- في تقريرها الذي حمل تقويماً معبّراً عن المستوى الذي بلغه حزب الله، وعن المرحلة المتقدمة التي وصل إليها على غير صعيد في صراعه المفتوح مع إسرائيل، وذلك بالاستناد إلى ما تكشّفت عنه الحرب(337) من حقائق ونتائج وخلاصات- إلى قدرات هذا الحزب المائزة على الانغلاق والتحصّن والتسوّر والمنعة، كما المستوى الأمني العالي الذي يحافظ عليه: «إنّ امتلاك مجتمع مغلق مع سيطرة صارمة على الصورة الإعلامية» تقول الدراسة «حسّن قدرة حزب الله على التحكم في المعلومات المبثوثة إلى باقي العالم. لقد أسهم مجتمع حزب الله المغلق بشكل كبير في قدرات التعتيم على نطاق عام، بحيث أنتج بصمة معلوماتية محدودة أسهمت بطريقة عظيمة في منع حصول إسرائيل على المعلومات من خلال المصادر المفتوحة»(338).

وفي سياق متصل أيضاً، قارب أمير كوليك في دراسة متخصّصة بعنوان (الاستخبارات الصهيونية وتحديّات إطلاق النار منحني المسار)، أطروحة الصعوبات المتأتية من تفسير نيّات حزب الله، وذلك بسبب من امتناع الأخير عن إصدار إشارات شاهدة، وفق ما تقتضيه عملية تقدير الواقع، وما يتوسّله الإنذار الاستخباري الأخذ بها على نحو من التراكم، حيث يقول: «إنّ التحدّي الإستخباري يكمن في الأساس في القدرة على تحديد تغيّرات النشاط المعتاد في نظم النار، وإدماجها في نطاق الصورة العامة لتقديرات العدو للحرب (...) عند لاعبات مثل حزب الله، تكون قضية الإشارات الشاهدة مشكلة. في المستوى الإستراتيجي، تتخذ القرارات في دائرة مغلقة، وضيّقة جداً من النشطاء».

والحال هذه، فإنّ توافر بيئة فاعلة وحاضنة للغموض البنّاء، هو شرط ضروري لازم، وهو مكوّن جوهري رئيس من مكوّنات نجاح تخلقات وتطبيقات وتعبيرات هذه الإستراتيجية، إذ لا يوجد إمكانية عملية لتحيّزها وتوضّعها موضع التنفيذ والتطبيق، إذا كان ثمّة تسيّب معلوماتي، أو تسرّب معلوماتي، أو كان ثمّة انكشاف، أو اختراق أمني. ولهذا عكف حزب الله على تأمين مستلزمات هذا البيئة من خلال تفعيل العمل على محورين :

أ- محور داخلي: قوامه التكتم الشديد الصارم الذي يقارب حدّ الإغلاق والإحكام، وذلك للحيلولة دون تسرّب المعلومات أو تسيّبها أو فوضاها وانفلاشها أو إشاعتها وتعميمها. ما نستطيع تلمّس ترجماته في الانضباطية العالية التي وسمت أداء حزب الله وعمله على غير صعيد، وفي السرية التي أحاطت بمجمل حراكه الأمني والعسكري واللوجستي(339)، بحيث أنّ نقطة الارتكاز التي تهيكلت عليها إستراتيجيته المعلوماتية، وانبنت مداميكها؛ كانت تتمثل كما يقول محمد جمال غيطاس «في حرمان العدو من الحصول على أي معلومات أو بيانات أولية، تساعده في تنفيذ هجمات مؤثرة على أي هدف يخص الحزب»(340).

وللغاية، استعان حزب الله على عدوه بالانضباطية والكتمان والسرية. وكانت لهذه الأخيرة فضيلة ترجيح وتثقيل في موازين إحقاق الغلبة وجلب النصر، حيث أنّها أغرقت الإسرائيلي بظلام دامس، وجعلته يسير على غير هدى متخبطاً كمن مسّه الضرّ أو أصابه العمى: «إنّ الطابع السرّي للعمل» تقول أمل سعد من مقاربة بحثية مطوّلة «كان فعّالاً في تحقيق أهداف الحزب الإستراتيجية، إذ إنّه لم يكشف للعدو أهدافاً مثل ثكنات ودبابات، ولا خلف وراءه أثراً لوجستياً يمكن أن يُستهدف»(341)، ولا أفصح عن نواياه ومضمراته وخططه؛ بل بدا أقرب إلى لوحة سريالية يلفها الغموض، وتسكنها التعمية، ويتنازعها الإبهام والتلغيز، وتودّي بقارئها- في نهاية المطاف- إلى مهالك التيه والضياع واللاتوازن.

ونقع في هذا الصدد، ليس على نصّ رسمي مكتوب يشكل ضابطة مرجعية معيارية، وإنّما على بعض المعطيات والحيثيات التي تكوّن بمجموعها العام تصوّراً عن ماهية الضوابط والقواعد الحاكمة لإيقاعات سلوك حزب الله، بوصفه حزباً حديدياً يعمل – كما يقال- بالنظام المرصوص: لا فوضى في التصريحات(342)، ولا تضارب في المواقف، ولا إطلالات إعلامية عابثة، ولا معرفة إلا على قدر الحاجة الملحّة لاسيما في الدوائر المغلقة ذات الحساسية العالية؛ إذ ليس بمقدور أحد– إلا ندرة قليلة من أصحاب القرار والشأن– أن يدرك عموم مكوّنات المشهد، لأنّ العمل يصار إليه وفقاً لمنهجية البازل التركيبية التي تحتم على سيرورة تخلقه واكتماله أن تتطلب صياغة بالغة التعقيد، وحياكة متقنة حاذقة لخزين من المكوّنات والعناصر والعوامل والمدخلات، حيث أنّ العمل لا يتدفق أو يتأتى من مسرب واحد، بل من مسارب متعدّدة، ولا تتظهّر ملامحه ومعالمه دفعة واحدة، بل يُجزّأ ليتمّ بشكل مرحلي وممنهج، تمهيداً لإعادة تركيبه وتجميعه في مشهدية واحدة متكاملة. والحال، فإنّ العنصر المفتاحي الآخر «في حملة حزب الله التعتيمية» تقول دراسة مختصّة أعدها سلاح البحرية في الجيش الأميركي «هو الأمن الداخلي للمنظمة»، والذي بالمقدور تبيّنه وتلمّسه في المنعة الأمنية التي كان عليها أفرادها وكوادرها وقياداتها؛ كان ثمّة طريقان استطاع حزب الله من خلالهما السيطرة على أثاره الاستخبارية، وضبطها، والتحكم بها، والحيلولة دون انسرابها: الأولى تجد سبيلها عبر مقاتليه وقواته في توزّعهم وانتشارهم واشتغالهم وحضورهم الفاعل في ساحة المواجهة، إذ حضّر حزب الله الأرض على نحو بالغ السرية(343)، وأعدّ العدة لحربه مع إسرائيل، متوسّلاً في ذلك منهجية عمل مفارقة وشديدة الغرابة: «لم يكن هناك قائد واحد» والكلام للدراسة عينها «على علم بكامل مواقع الاستحكامات والمخابئ»، التي يُقدّر القتال منها(344). أمّا الطريق الثانية؛ فقوامها سيطرة مبرمة بالغة الإحكام على منابع المعلومات، كما وضع اليد على مصادرها المفتوحة المتدفقة إلى خارج لبنان. ما أتاح للحزب صياغة موحّدة متماسكة لسيرة الحرب، ومنحه- بالتالي- أرجحية على إسرائيل في تقديم نصه بنحو أفضل، بسبب من وجود قصة واحدة فقط لتسرد، يقوم بترديدها وتسويقها وبثها ونشرها وإذاعتها عدد محدود من المستوى القيادي فيه، وذلك دفعاً لأي لبس، أو تناقض، أو تهافت، أو تشكيك.

ب- محور خارجي: قوامه تفعيل السياسات والإجراءات الوقائية الضرورية التي تؤدّي إلى توفير بيئة فاعلة للغموض؛ لقد عكف حزب الله منذ توليه إدارة الصراع مع إسرائيل على العناية بالمجال الاستخباري، وعلى تنشيط أجهزته الأمنية وتمكينها، وعلى تأمين مستلزمات الحروب الباردة كما الساخنة، بما يؤدّي إلى إحباط الأنشطة الاستخبارية الإسرائيلية، وإفشال جهودها الرامية إلى الاستحواذ على المعلومات، من خلال تفكيك شبكات العملاء والجواسيس، وعرقلة عمل أجهزة

الاتصال والمراقبة والرصد(345)، في قبالة رفع منسوب الحصانة والمناعة الداخلية لجسم حزب الله، على النحو الذي يجعل منه قلعة حصينة عصيّة على الاختراق والنفوذ والتجنيد، وما إلى ذلك من محاولات يتوسّلها الإسرائيلي.

تتكشّف فصول المواجهات - لاسيما حرب تموز من العام 2006 - بين إسرائيل وحزب الله؛ كيف انكبّ الأخير على تثمير وتوظيف طاقاته وقدراته لغرض السيطرة على فضاء الاستخبارات. ما جعله- إلى حدّ كبير- بمنأى عن أشكال القرصنة، ومنحه مقدرة على صون مخططاته وبرامجه ومشاريعه، كما الحفاظ على أمن عملياته، وبالتالي حرمان إسرائيل المعلومات الحاسمة التي تسمح لها بتعديل خططها الحربية أثناء العمليات(346). وهكذا تحكّم حزب الله، بفعل سيطرته على البيئة الاستخبارية، بقواعد اللعبة؛ أملى شروطها وإلزاماتها، وضبط إيقاعاتها، واستطاع استعمال الخداع والمراوغة والتضليل، فضلاً عن استحواذه على مفتاح تفعيل الغموض وتطبيق التعتيم في الوصول إلى مجسّات الخصم واستحكاماته.

فعلى صعيد ضرب البنى الاستخبارية الإسرائيلية؛ نجح حزب الله غير مرة في تحقيق إنجازات عظيمة، كما نجح في صناعة انتصارات وإحداث فتوح، لعلها غير مسبوقة في تاريخ الصراع العربي- الإسرائيلي. ما جعل شبكات العملاء تتهاوى وتسقط تباعاً كأحجار الدومينو، بعد تعرّضها لإصابات قاتلة ومميتة أخلت بتوازنها، وأفقدتها رشدها، وسلبتها القدرة على التنفيذ، فضلاً عن التقصّي والاستعلام. حيث تمّ الكشف عن عشرات الشبكات العاملة والخلايا النائمة(347)، وافتضاح عشرات المخططات والمؤامرات، وإحباط العديد من محاولات القتل والاغتيال، وإلقاء القبض على مئات العملاء والجواسيس والمخبرين، وغنم عشرات الأجهزة والوسائل والتقنيات البالغة التطوّر، والمستخدمة في أعمال التجسّس والمراقبة والرصد والاتصال والإرسال والمسح والتنصّت والتعقب والتصوير... فضمن إطار مكافحة التجسّس، وبعد أن شخّص حزب الله مصادر استخبارية بشرية هامة لإسرائيل في لبنان، كانت تعمل على رفد ضباطها بمعلومات غاية في الأهمية عن مواقعه ومخابئه ومراكزه وأنشطته؛ قام الحزب غير مرة في تنظيم سلسلة من حملات الاعتقال الواسعة التي نجحت- عملياً- في استهداف وكسر حلقة الجواسيس والعملاء(348)، كما في تعطيل وإعطاب وإبطال القدرات الاستخبارية البشرية الإسرائيلية(349)، التي لطالما اكتسبت تقديراً على خلفية تفوقها الاستخباري في كلّ الحروب والصراعات السابقة مع العرب. وقد أتى هذا المجهود أكله وثماره، وبانت نتائجه في تموز من صيف العام 2006، حيث أفضى وفق ما تكشّفت عنه الحرب إلى فشل وإخفاق استخباري إسرائيلي، وقاد- في قبالة ذلك- حزب الله إلى تحقيق إنجازات ونجاحات متعدّدة على غير صعيد.

الجدير بنظر الاعتبار هنا، أنّ حزب الله لم يكتف بالعمل على ضرب مخططات ومحاولات التجنيد والاختراق التي لطالما أجاد الإسرائيلي هندستها وبرع من خلالها في اختراق ساحة لبنان الداخلية؛ وإنّما توسّل نزعة هجومية على هذا الصعيد، لعلها غير مسبوقة، أو يتيمة الحدوث في تاريخ الصراع العربي- الإسرائيلي. فقد سُجّل لحزب الله نجاحات باهرة في غير محاولة تجنيد ونفوذ واختراق داخل الجيش الإسرائيلي، وداخل الانتظام المجتمعي الإسرائيلي بمكوّناته وتوليفاته الهجينة(350). وكانت غير دراسة مختصّة قد أشارت إلى هذه الحقيقة، وقاربت من خلال عمليات تقصّ بحثية النجاحات التي حققها حزب الله في مجال الاستخبارات البشرية: فماثيوس يؤكد في مبحثه(351) نجاح حزب الله في كشف عدد من شبكات التجسّس التابعة للموساد، كما نجاح

استخباراته في تحويل عدد من هؤلاء الجواسيس إلى عملاء مزدوجين غذوا الإسرائيليين بمعلومات مضللة. ويشير إلى أنّ ملفات مواقع ومراكز الحزب المهمّة لدى الاستخبارات الإسرائيلية كانت تضم بين تضاعيفها مواقع لا وجود لها، أو مواقع كاذبة لغرض الخداع والتضليل. ثمّ يعرض لدلائل كثيرة تلحّ على تثبيت فرضية نجاح الحزب في تحقيق عدد من الاختراقات الأمنية الموصوفة، وفي تجنيد عملاء له في شمال الكيان الإسرائيلي.

كذلك كان مذهب الخبير العسكري والباحث الأميركي أنطوني جوردزمان في كتابه (دروس الـ2006 لحرب إسرائيل حزب الله)، حيث يقول: «إنّ بعض أنماط القصف الصاروخي، مثل قصف قاعدة زيغات الجوية، يؤشر بالضرورة إلى حقيقة وجود عملاء لحزب الله في منطقة الجليل، وفي المنطقة الحدودية المتاخمة للبنان»(352).

أمّا على صعيد تسوير الجسم التنظيمي، وتنقيته، وتأمين حصانته الداخلية، ورفع منسوب المناعة لديه؛ فكان بدوره محطّ اهتمام: بالغ حزب الله في مكافحة التجسّس، وحسناً فعل، وجعل هذا الأمر موضع العناية والرعاية والمتابعة، وكثف لذلك من إجراءاته الاحترازية والوقائية للحؤول دون نجاح أيّة محاولةِ اختراق أو نفوذٍ يقدم عليها الإسرائيلي، أو ينشدها ويصبو إليها. ما أوقع هذا الأخير في حالة من التخبّط والتيه والضياع، بسبب من فقرٍ وتصحّرٍ حادٍّ في مصادر المعلومات. وقد أقرّ الإسرائيلي غير مرة بشحّ وضحالة المعلومات الإستخبارية التي يمتلكها عن حزب الله(353)، سواء على مستوى القيادة أو البنية(354)، أو العديد(355)، أو السلاح، أو طرائق القتال والدفاع(356)، أو بيئة العمل(357). كما أقرّ بالعجز عن سبر مكنونات هذا الحزب واكتناه دخائله وخباياه، أو التعرّف الدقيق على هيكلياته، وقدراته التسليحية، ومنهجيّات عمله، وأساليب تفكيره، وأواليات اتخاذ القرار فيه. والحال هذه، قامت جملة المقاربات الإسرائيلية لحيثية حزب الله، لا على المعطيات والأرقام والأدّلة والصور والمعلومات والحقائق والبيانات، قدر ما قامت على فرضيات التخمين(358) والتقدير والتنبؤ والافتراض والتجريب «إنّ قدرات جمع المعلومات الكبيرة والعالية التي أظهرها جهاز الشاباك والجيش في الصراع مع الإرهاب الفلسطيني» يقول يوعاز هندل في معرض مقاربته للإخفاقات الاستخبارية الإسرائيلية «لم تأخذ ترجمتها على الجبهة الشمالية بسبب مصاعب مفهومة في إدخال عملاء إلى داخل تنظيم حزب الله. فقد قلّت بشكل ملموس قدرات جمع المعلومات التي كانت في أيدي الاستخبارات عن هذا التنظيم وعمله وانتشار قواته»(359).

ويندرج في هذا الإطار أيضاً، الحرص الملحّ الذي أبداه حزب الله على توفير كلّ مستلزمات الأمن الميداني، في محاولة لاجتناب قيام إسرائيل بعمليات تنصّت وقرصنة؛ الأمر الذي بالمقدور تمثله وفقاً لبنيامين لامبث «في معرفة الحزب بقدرات إسرائيل التقنية (فك الشفرات)، وبالتالي توخي قيادته الحذر على نحو شكل تحدّياً كبيراً أمام الاستخبارات الإسرائيلية»(360). كما بالمقدور تمثله في ركوب شتى ضروب التشفير والترميز والتلغيز، وفي توسّل منظومة أمن معلوماتية مهجّنة، ليست على قدر من التكنولوجيا، قدر ما أنها تنحو باتجاه المزاوجة بين البساطة وبين الاستعصاء والمنعة... ما يجعلها حصينة من الاختراق المعلوماتي المضاد الذي قد تقوم به إسرائيل بفعل ما تستحوذ عليه من تقنيات بالغة التطوّر(361). ويحضرنا هنا قول أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله- على نحو من التعبير الكاريكاتوري- في معرض مقاربته لموضوعة الوسائط الكلامية التي تتوسّلها المقاومة في عمليات التواصل: «الإسرائيليين بيعتمدوا أجهزة مغلقة

وبيشفروا وبفكوها بالكمبيوتر لما بدن يوصّلو رسالة. نحن يمكن ما نحتاج لا تشفير ولا كمبيوتر. نحن إذا أهل الضيع حكو مع بعضن بلغة أهل الضيع أكبر عقل إلكتروني ما بيقدر يحلها. إذا قلو مثلاً لاقيني عند جب البلان عند أبو طنجرة حدّ الشجرة تبعيت أبو دجاجة شو بدو يعرّفو الإسرائيلي ؟؟».

ثانياً - الإدارة الصارمة

يتمثل العنصر الثاني في ما يسمّى الإدارة الصارمة لإستراتيجية «الغموض البنّاء»؛ تلك التي تتوافر على المعرفة، والوعي، والذكاء، والدقة، والاتزان، والانضباط وحسن الأداء، وكلّ ما من شأنه أن يضع السلوك في دائرة الفعل والتعقل، لا في دائرة الانفعال والتأثر: حيث لا تردّد، أو اضطراب، أو صخب إعلامي عابث، أو استعراضات تلفزيونية وكرنفالية، أو فوضى تصريحات وبيانات عن الموضوعات ذات الصلة، كتلك المتعلقة بالشأن العسكري والأمني واللوجستي والتسليحي. بل إنّ الأمر قد ضبط وفق إيقاع هادئ لا يحتم عليه الخروج إلا عبر عنق الزجاجة، بما يعني أنّه أنيط بجهة واحدة محدّدة ، كأن يتم عبر بيان مكتوب صادر عن جهة مختصّة، أو عبر شخص واحد هو الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله. وهذا على خلاف ما كان عليه الحال في الجانب الإسرائيلي عشية الحرب على لبنان في تموز- آب من العام 2006، وقبل هذه الحرب وبعدها. يقول شمعون بيريز في اعترافاته أمام لجنة فينوغراد التي كلفت النظر في إخفاقات الحرب على لبنان: «أعتقد أنّه كان هناك سقوط نفسي كبير جداً، والسبب هو أنّ حزب الله تألق بخطيب لا يفتقر إلى الكفاءة (الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله)، وعندنا هاجم الواحد فينا الآخر من دون توقف (...) ما حدث لديهم أنّه كان عندهم متحدّث واحد هو نصر الله، وهو يعرف المهنة. وما حدث لدينا أنّه كان عندنا كثير من المتحدّثين، خليط كبير في التلفزيون، هناك ضباط متميزون، لكنهم ليسوا خطباء كباراً، لا يعرفون كيف يشرحون الموضوع بالضبط ... لأنك تحتاج للتطرق إلى الفلسفة. عندما تكون البلاد ممتلئة بأناس لم يخبروا الحروب، حينئذ الجميع يتحدّث»(362).

إنّ هذه القناة الضيّقة- التي توافر عليها حزب الله- لتسرّب المعلومات، بعد توضيبها وإعدادها وطبخها؛ كانت تنتقي عبارتها بدقة، وتختار ألفاظها بعناية بالغة، فضلاً عن تخيّر التوقيت الملائم والظرف المناسب لبث وإشاعة المعلومات، التي جرت العادة أن تكون نادرة، ومقننة ، وموجّهة، وذات مغزى، وتتأدّى في نهاية المطاف إلى زيادة منسوب الغموض وفعاليته في الآن عينه.
والحال، فإنّ الغموض قد لا يتأتى من توسّل التكتم وعدم البوح، وعدم الإفصاح والإظهار والإبانة وحسب؛ بل إنّ التصريح الموضب والمدروس بعناية- وهذا ما دأب عليه حزب الله- قد يفضي في أحايين كثيرة إلى غموض بنّاء أعظم، من شأنه أن يزيد من حال تشوّش العدو واضطرابه وبلبلته وحيرته وتخبطه «هناك أمور يجب قولها للإسرائيلي» كما يعلن السيد حسن نصر الله من خطبة له في الذكرى السنوية العاشرة لتحرير الجنوب من الاحتلال الإسرائيلي «وهناك أمور يجب أن لا نقولها للإسرائيلي، وثقوا تماماً بأنّ الأمور التي لا يجب قولها أنا لن أقولها، ولا أحد سيقولها، وستبقى مفاجآت لزمن الحرب، وإذا تحدّثنا فليس لصنع مانشيتات (ومش ناقصنا)؛ بل هو جزء من الحرب بيننا وبين الإسرائيلي، واليوم هناك حرب نفسية»(363).

ما يعني أنّ الإفصاح المقنّن والموجّه- كما أريد توظيفه هنا- لا يندرج في سياق الاستهلاك الكلامي والخطابي والشعاري، ولا يتوضّع في إطار الترف التنظيري والدعائي؛ وإنّما يتوسّل- بوصفه فناً من فنون الحرب- مآرب عديدة، وينشد غير غاية ووجهة، ليس الردع إلا واحدة منها «نحن

بإمكاننا صنع أمور قادرون أن نعملها» وفقاً للسيد نصر الله «ويجب أن نعلن عنها لنقول للإسرائيليين خافوا»(364).

إنّ مثل هذا التصريح الهادف، والإفصاح الموزون والمدروس والموضب والمعدّ بعناية ودراية وإتقان، هو ما كان عليه واقع الأمر عشية الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز – آب من العام 2006؛ لقد أدرك الإسرائيلي- لاحقاً - أنّ حزب الله كان يقوم ببعض التسريبات من خلال وسائط متعدّدة، ويتقصّد إرسال بعض الإشارات إليه، لا لشيء إلا لإشغال مخيلته، أو حرف انتباهه، أو إقلاقه وإرباكه، أو إشعال هواجسه ومخاوفه.

لنقف على بعض التمثلات والمصاديق والترجمات التي تشف عن توسّل حزب الله لسياسة إطلاق التصريح الموجّه والهادف، الذي بقدر ما يوحي أنّه يكشف ويفصح ويبوح؛ فإنّه يستبطن من الغموض البنّاء ما لا يقاس:

أ- في الخامس والعشرين من شهر أيّار/ مايو من العام 2005، واحتفاء بذكرى تحرير الجنوب ودحر القوات الإسرائيلية عن الجزء الأكبر من أراضيه؛ اعتلى السيد حسن نصر الله في مدينة بنت جبيل منصة إطلاق خطاب مراوغ كشف فيه النقاب عن جانب من قدرات حزب الله التسليحية والصاروخية «يقولون أنّ لدينا 12 ألف صاروخ بين كاتيوشا وغيرها» والكلام لنصر الله «ونحن نقول لدينا أكثر من 12 ألف صاروخ».

وهكذا يكون السيد حسن نصر الله قد سلف الإسرائيلي، ما يملكه وما يدركه الأخير بنحو حسي وملموس، وهو امتلاك الحزب لترسانة صاروخية، لطالما توسّلها في مواجهة الاعتداءات الإسرائيلية في عملية «تصفية الحساب»(365) في 23 تموز من العام 1993، وفي عملية «عناقيد الغضب»(366) في 11 نيسان من العام 1996، وفي الردّ على كل الخروق الإسرائيلية للتفاهمات القاضية بتجنيب المدنيين من الجانبين. فإذا كان السيد حسن نصر الله– كما يحلو لبعضٍ من يعيشون مراهقة سياسية القول من منظور تبسيطي - قد أخرج الإسرائيلي من قلق السؤال حول امتلاك القدرة الصاروخية من عدمه؛ فإنّه- بلا شك- قد أدخله في معمعة أدهى وأمرّ، من حيث أنّه ضمّن بحذق طيّ خطابه جرعتين من الغموض البنّاء: الأولى ماثلة في الإشارة الصريحة إلى أنّ عدد الصواريخ التي تندرج ضمن الترسانة الصاروخية للحزب هي أكثر من 12 ألف صاروخ. وقد أردف في موضع آخر متهكماً «أكثر من 12 ألف صاروخ ليس معناه أنّه لدينا 13 ألف صاروخ، يمكن أن يكون العدد (أكبر من هيك)»، في إيحاء ماكر إلى غموض يتقصّده. امّا الجرعة الثانية فيمكن تمثلها في الإشارة الشفيفة إلى أنّ مدى هذه الصواريخ- بالأقلّ- يغطي ويظلل عموم مساحة المستوطنات الإسرائيلية القابعة في الشمال الفلسطيني المحتل، بما يحويه من المنشآت والمرافق الحيوية العسكرية والمدنية، حيث يقول: «سيكون كلّ شمال فلسطين، كلّ مستوطنات العدو ومزارعه تحت أقدام وأيدي أبنائكم في المقاومة الإسلامية» .

لا يخفى أنّ القراءة الفاحصة لمضمون الخطاب وحمولاته، بقدر ما تؤشر بوضوح متعمّد إلى انكشاف الحدّ الأدنى لحجم ترسانة حزب الله الصاروخية، لناحية كمية هذه الصواريخ وعديدها، وهو إثنا عشر ألف صاروخ، كما إلى انكشاف الحدّ الأدنى لمداها ولمجالها الحيوي، وهو شمال الكيان الإسرائيلي الغاصب؛ فإنّها تضفي- في كلتا الحالتين- لبوساً غامضاً على الحدّ الأقصى .. ما أربك الإسرائيلي(367) وأحرجه، وشوّش عليه معلوماته وأفكاره، وتسبّب في تصدّع أواليات

عمله واشتغاله. فهل ما كانت إسرائيل تجهد للبحث عنه، وتوافر في سبيل ذلك الطاقات والإمكانات والقدرات.. هو الحدّ الأدنى؟.

ب- في الثاني والعشرين من شهر أيلول/ سبتمبر من العام 2006، واحتفاء بالنصر الإلهي الميمون على الجيش الإسرائيلي الذي كان إلى أمد قريب يوصف بالجيش الذي لا يُقهر؛ أطلق السيد حسن نصر الله خطاباً مراوغاً آخر، وبنكهة خاصة، حيث قدّم- من خلال سياسة الكشف المدروس عن بعض ما بحوزة حزب الله من قدرات تسليحية- جرعات موصوفة من الغموض البنّاء. وكعادته درج على الإشارة إلى الحدّ الأدنى من مجموع ما يتوافر عليه من قوة صاروخية «اليوم أقول لكم» يقول السيد نصر الله «إنّ المقاومة تملك أكثر من عشرين ألف صاروخ»(368). لكنّ المفارقة هنا أنّ السيد حسن نصر الله لم يضمّن كلامه إشارة صريحة إلى الحدّ الأدنى لمديات هذه الصواريخ، على النحو الذي استقام به الحديث في خطاب بنت جبيل كما ألمعنا أعلاه، لا لشيء، إلا لأنّ هذا الحدّ الأدنى لتلك المديات قد تكشّف أمام الإسرائيلي وبانت مفاعيله طوال ثلاثة وثلاثين يوماً من الحرب المتواصلة. ما دفع بالسيد إلى الاكتفاء بالقول «ما قدمناه في الحرب هو جزء بسيط من قدراتنا»(369)، ليضفي على الحدّ الأقصى لعدد الصواريخ التي يمتلكها الحزب بعداً هلامياً، مدخلا بذلك الإسرائيلي في آتون من التساؤلات، ومغرقاً إيّاه في بحر من التكهّنات والتحليلات والتخمينات التي لا تزيد الأمر إلا لبوساً وتعقيداً وغموضاً.

والحال هذه، فإنّ سياسة «الكشف المقتّر والمدروس عن معطيات عسكرية»، وفق ما توسّله حزب الله؛ كان من شأنها أن ترفع من منسوب الغموض ومن فعاليته لدى الإسرائيلي، عوض أن تعمل على تبديده وتشفيفه وجلائه.

ج- في الرابع عشر من شهر آب /اغسطس من العام 2007؛ أعلن السيد حسن نصرالله عن امتلاكه مفاجأة كبرى(370) من شأنها أن تغيّر ليس مصير الحرب فحسب، بل وجه المنطقة ككل، وذلك إذا ما أقدمت إسرائيل على أي عمل عدواني، أو إذا ما أرادت حرباً جديدة تستهدف المقاومة، أو حتى «إذا ما فكرت في الاعتداء»، حيث يذهب في توعّده إلى القول «وأنا لا أنصحهم بذلك». لكنّ السيد نصرالله ترك مفاجأته الكبرى تلك على عواهنها، دونما تحديد أو توضيح أو تقنين، كي لا تفقد سرّ سطوتها وأسباب قوتها، وكي لا تفقد قدرتها على إحداث الفجأة، وإعمال الدهشة، كما على صدم أفق التوقع. ذلك أنّ التحديد هنا يعني بالضرورة أنّها لن تكون مفاجأة، وأن توسّل الغموض في هذا الأمر يُعدّ جزءاً من لعبة الصراع مع إسرائيل، وهي إدارة لطالما برع فيها السيد نصرالله، وأجاد على هذا الصعيد ابتداع فنون وأساليب، واجتراح ضروب كانت تتأدّى سياسياً وأمنياً الى إنتاج إرباك واضح في صفوف القيادة العسكرية والسياسية الإسرائيلية.

والحال، فإنّ مقصد السيد نصر الله بعدم تحديد نوع مفاجأته وحجمها، وترك الأمر غامضاً، قد أصاب من الإسرائيلي مقتلاً، وتسبّب له بالتشوّش والإرباك والقلق الشديد(371)، ودفع بقيادته العسكرية والأمنية كما أشرت الوقائع والمعطيات؛ لأن تجري مراجعات بشأن سيناريوهات الحرب المفترضة التي كانت بصدد تفعيلها ضداً على حزب الله لغرض إعادة تلميع صورة ردعها المفقود. ما جعل من الإعلان عن امتلاك الحزب لمفاجأة كبرى على النحو الذي صير إليه؛ يُرجئ إلى أمد غير منظور– وفق ما أراد السيد نصر الله- حرباً عدوانية إسرائيلية جديدة، كانت تعدّ داخل أروقة القرار الإسرائيلي لاستهداف قوى المقاومة والممانعة في المنطقة.

د- في الرابع عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2008، وقف الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله خلال مراسم تأبين القائد الجهادي الحاج عماد مغنية(372)، مطلقاً سيلاً من التهديدات ذات المفاعيل البعدية التي لا تنفك تتراكم وتتعاظم ككرة الثلج: «أيّها الصهاينة» يقول السيد نصر الله «أمام هذا القتل في الزمان والمكان والأسلوب إنْ كنتم تريدون هذا النوع من الحرب المفتوحة، وليسمع العالم كله، فلتكن هذه الحرب المفتوحة».

وكان السيّد نصرالله خلال المراسم قد توعّد بالانتقام والثأر، مقسماً على ذلك بأغلظ الأيمان وأشدّها، حيث يقول: «من حرب تموز 2006، إلى دمّ الحاج عماد في شباط 2008، يجب أن نؤرّخ بدء سقوط دولة إسرائيل (...) إنّ دمّ الشهيد عماد مغنية سيخرجهم من الوجود إنْ شاء الله».

كانت منصات السيد نصر الله الصاروخية التي أطلق منها عيارته النارية الثقيلة عشية تشييع وتوديع الحاج رضوان(373)؛ إنما تعمل وفق إحداثيات منضبطة الإيقاع والوجهة. فما كان له أن يفرغ من إلقاء خطابه، حتى عُقد اجتماع أمني على أعلى المستويات القيادية في إسرائيل، وفق ما نقلته صحيفة هآرتس في عددها الصادر في الخامس عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2008؛ عكف على تحليل الخطاب وتفكيك حمولاته وشفراته للوقوف على ما يباطنه من رسائل: رئيس الموساد- آنذاك- مائير دغان ركز على دليل صارخ لديه بأنّ نصر الله سينتقم. وعندما سُئل عن ماهية هذا الدليل الذي بحوزته؟. قال: «لنلاحظ أنه أقسم بكسر الهاء. وفي الفقه الإسلامي هذا يمين يلزم المؤمن بأنْ يفي بعهده مهما طال الزمن».

والحال هذه، فإنّ السؤال الذي بقي معلقاً دون إجابة شافية عنه، هو: كيف سينتقم نصر الله؟، ومتى؟، وأين؟، و....ما أدخل اسرائيل في حالة من الانتظار السلبي «بإنتظار ذلك علينا الحذر» وفقا لتقدير الشاباك. وصار نوع من الروتين أن تبقي إسرائيل على أجهزتها الأمنية في حالة من الجهوزية والاستعداد والاستنفار والترقب والتيقظ، وأن تفعّل وتنشّط من هذه الإجراءات الإحترازية والوقائية مع حلول شهر شباط من كل عام. وأن يسود الاستنفار، ليس في داخل الكيان الإسرائيلي وحسب، بل في كل مكان من العالم لإسرائيل فيه مؤسّسات ومصالح حيوية.

وهكذا أفصح السيد نصر الله- وبمنتهى الوضوح- في خطابه المعلن على الملأ عن توسّله انتقاماً مدوّياً ومزلزلاً؛ لكنه أبقى على شكل الانتقام وزمانه ومكانه ووسيلته وطبيعته وحجمه... تخمينات وافتراضات وتكهّنات يلفها الغموض على نحو يُشغل مخيلة القادة الإسرائيليين، ويؤرّق مضاجعهم، وينال من راحتهم، حتى ذهب غير مصدر إسرائيلي إلى القول: «إنّ قسم نصر الله بالردّ على قتل مغنية أدخل إسرائيل في حرب استنزاف أمنية». وهذا هو الثمن الأول الذي كان على الكيان العبري أن يدفعه ردّاً على اغتيال القائد العسكري للمقاومة.

ثمّة أكلاف أخرى يتعيّن على الإسرائيلي تكبّدها، في قبالة مكاسب يتوافر عليها حزب الله!

تؤشر غير دراسة مختصّة إلى أنّ نصر الله أحكم إدارة ملف الثأر لمغنية، وأجاد توظيف الغموض البنّاء في إطار حرب نفسية من طبيعة مركبة: فهو من ناحية أولى، استمرّ بإبقاء هذه المناسبة حيّة، لغرض التركيز على موقع شهادة القادة في سلوكيات الحزب الجهادية. وهذا أمر يفيد الحزب في مجالات التحشيد وشدّ العصب التنظيمي والتعبئة الداخلية، حيث يقدّم قادته على هيئة أيقونات خالدة، ويمنحهم الصورة الجهادية المثلى والمقدامة التي لا تدعو الآخرين إلى القتال ومهاجمة الأعداء وحسب؛ بل تتقدّمهم في ذلك. ومن ناحية ثانية، أراد السيد نصر الله من خلال ترداد مقولة

عزمه على الثأر والانتقام، دونما تقديم إيضاحات لترجمة أقواله وإيحاءاته؛ أن يراكم القلق لدى الجمهور الإسرائيلي، ليس في داخل الكيان العبري فقط، بل وفي الخارج أيضاً. فاليهود في أوروبا وأميركا على وجه الخصوص، كما في سائر أقطار العالم، يشعرون مع تعاظم العزف على وتيرة قلقهم الأمني، أنهم مدعوون لدفع فاتورة قرار إتخذه قادة إسرائيل، على الرغم من أنّهم لم يشاركوا يوماً في تسمية هؤلاء أو في انتخابهم، كما لم يكن لهم رأي في ما يتبنونه من سياسات وبرامج.
فضلاً عن ذلك، أراد السيد نصر الله شلّ قدرة الأجهزة الأمنية الإسرائيلية عن المبادرة والفعل، وإشغالها عبر جعل تفكيرها مركزاً على التخطيط لصدّ الهجوم الأمني المرتقب والمتوقع من حزب الله.

وليس بعيداً من سياسة التسريب والإظهار المفضي إلى مزيد من الغموض والإبهام؛ ما كان قد أقدم عليه حزب الله- في خطوة غير مسبوقة وصادمة في دلالاتها- من إطلاق طائرة استطلاعية «مرصاد1»، جابت فضاء الكيان العبري، وقامت بعملية مسح شاملة لمنطقة الشمال الفلسطيني المحتل(374). وقد تأتت أهمية الحدث، إلى جانب أنّ الطائرة مثلت ردّ فعل طبيعياً على الخروق والانتهاكات الإسرائيلية المتكرّرة للسيادة اللبنانية، وأسلوباً غير متوقع في عمليات الردّ؛ أنّها زادت من مأزم الإسرائيلي وتخبّطه، بعدما أضافت إلى مجالات انشغال عقله العسكري والأمني الغارق في البحث عن القدرات الصاروخية لحزب الله، مجالاً آخر قد يستحوذ بدوره على قوّة تدميرية أيضاً(375)، فضلاً عن ما يمكن أن يتوافر عليه من قدرات استطلاعية ومعلوماتية(376).

وكي يُؤتي حدث الإعلان عن الطائرة- على النحو الذي صير فيه إلى الإعلان عنها- كما حدث إطلاقها وتحليقها في فضاء الكيان الإسرائيلي، أكله، ويحظى بمزيد من جرعات الغموض البنّاء والفاعل؛ أرسل الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله رزمة من الإشارات والرسائل ذات الصلة، التي أدّت بدورها وظيفة إحداث تشوّش أرهق العقل الإسرائيلي لدى ذوي القرار من المستويين السياسي والعسكري، ودفعت به إلى افتراض سيناريوات وتوقعات تخييلية فاقمت من بلبلة هذا العقل، كما من حال إضطرابه وإرباكه، وذلك حين أعلن خلال الإحتفال السنوي الذي أقيم بمناسبة يوم الشهيد في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2004، أي بعد أربعة أيّام فقط على حادث إطلاق الطائرة، أنّ هذه الأخيرة ليست يتيمة أو وحيدة، وإنّما هي تتناسل من عائلة كبيرة «الحزب يملك عدة طائرات استطلاع (مرصاد1)»(377) والكلام للسيد نصر الله، وهي- إلى جانب قدرتها على الاضطلاع بمهام استطلاعية واستكشافية، وتأديتها لأدوار في استكمال المنظومة المعلوماتية لديه «قادرة على ضرب أهداف مدنية أو عسكرية»(378)، ليس في المستوطنات والمستعمرات والمدن الإسرائيلية الكائنة على الحدود مع لبنان فحسب، وإنّما أيضاً في «عمق العمق»(379) الإسرائيلي، بوصفها تستطيع «حمل متفجرات زنة أربعين إلى خمسين كيلوغراما»(380). ولذلك قد لا يقتصر استخدام الطائرة فقط- كما يؤكد السيد نصر الله- على النحو الذي استخدمت فيه حتى الآن أي وفق «معادلة الخرق الجوي»(381).. ما يترك الباب مشرعاً على تكهّنات واحتمالات وسيناريوات ترهق الذات الإسرائيلية، وتلهب مخيالها، وتذهب بها مذاهب تؤرّقها، وتستنزف قواها النفسية، وتصيبها بحال من الضياع والتشتت، وتبقيها مشدودة على نحو يلجم اندفاعتها ويكبح وعيها. ولم ينس السيد نصر الله في غمرة بعثه ونشره للرسائل ذات الحمولات والدلالات الهادفة، أن يحرّر منها ما يزعج الإسرائيلي الذي يحاول دائماً توهين الذات العربية وتصغيرها، والإساءة الى ذكائها وقدراتها وإمكاناتها، وذلك حين أفصح عن

أنّ طائرة الاستطلاع (مرصاد1) هي من صنيعة «مهندسي المقاومة الإسلامية»، وأنّها «طائرة إستطلاع كاملة الأوصاف والطاقات والقدرات من أنواع التكنولوجيا المتوافرة التي يمكن شراؤها من المعارض»(382).

ثالثاً - اجتناب السقوط في شباك الإستدراج

لا يستقيم نجاح إستراتيجية «الغموض البنّاء» دون توافر عنصر فاعل آخر، هو الحرص الملحّ على عدم الانزلاق إلى استفزازات وانفعالات لاواعية، من شأنها أن تقود بالضرورة إلى عملية استدراج واستنطاق واستصراح، يحيك الإسرائيلي- بجودةٍ- حبائلها وشباكها لأغراض استخبارية، لاسيما بعد فشل أجهزته الأمنية وشبكاته التجسّسية في الحصول على المعلومات اللازمة حول قدرات حزب الله العسكرية والتسليحية .

لطالما لجأت إسرائيل إلى توسّل حيل خادعة، وأساليب ملتوية، وأطروحات مراوغة كي تستثير حفيظة وانفعال حزب الله، وتستظهر ردّ فعله اللاواعي كمقدّمة لاستدراجه على نحوٍ يُخرجه من تحرّجه وعقلانيته، ويدفع به إلى الكشف عن ترسانته العسكرية وعن منظومته الصاروخية والتسليحية، وعن قدراته وتكتيكاته واستحكاماته وأساليب قتاله الحربية، حيث كانت تعكف دوائرها المختصّة على فبركة وإشاعة أخبار ذات صلة، وعلى بثّ تقارير ونشر دراسات وإطلاق تصريحات مكثفة حول ما يتوافر عليه الحزب من قدرات صاروخية(383)؛ كأن تشير- تصريحاً أو إلماحاً- إلى أعداد الصواريخ، ونوعيتها، ووجهات استخدامها، وطرائق إطلاقها، ومدياتها، وقوتها التدميرية، ومصدرها، وسبل نقلها، وأماكن تخزينها ... علها تستجرّ معلومات من هنا أو من هناك، يفرج عنها حزب الله بلسان قادته ومصادره في معرض تصويبه، أو تصحيحه، أو تأكيده، أو تكذيبه، أو تسفيهه للمزاعم والادعاءات الإسرائيلية. إلا أنّ كلّ تلك المحاولات الماكرة والخادعة والخبيثة لاقتحام ولاختراق صروح وجدران الغموض التي يحيط حزب الله بها عمله وسلاحه ومخططاته ونواياه، مُنيت بالفشل وكانت غير ذات جدوى وقيمة واعتبار.

وفي هذا السياق يأتي خبر تزوّد حزب الله بصواريخ جديدة من نوع «سكود»، وقد صاحب تسرّب الخبر المشبوه عبر صحيفة «الرأي العام» الكويتية(384) في الثالث عشر من نيسان من العام 2010، صخب إعلامي إسرائيلي حادّ وعالي النبرة، ثم تلاه صخب أميركي مماثل، دون أن ينبث حزب الله ببنت شفة ، ودون أن يُستدرج وأن يُدفع للخروج من صمته. بل جرياً على عادته في محطات مماثلة؛ لزم حزب الله صمتاً قاتلاً وتعاطى مع الخبر ببرودة لافتة، وتعمّد ترك الإسرائيليين والأميركيين في عراء تساؤلاتهم، أسرى اجتهاداتهم، ورهائن تكهّناتهم وتخميناتهم، من دون أن يمنّ عليهم بما يشفي الغليل، أو يفرج الأسارير، ومن دون أن يعتقهم، أو يفكّ قيودهم بالخبر اليقين. لقد تصدّر هذا الصخب الإسرائيلي والأميركي واجهة المشهد السياسي، على الرغم من أنّ العقل العسكري الإسرائيلي لا يرى إلى صواريخ «سكود» أنّها من طبيعة الأسلحة كاسرة التوازن(385)، بسبب من أن هذا العقل يدرك تمام الإدراك أن الحزب يمتلك من القدرات الصاروخية ما هو أفعل بما لا يقاس من سكود(386)؛ فمجرد ذهاب أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله(387)– في معرض ردّه على التهديدات والتصريحات العنترية الإسرائيلية- بعيداً في اصطناع قواعد جديدة للعبة، وفي إرساء معادلة قوامها قصف مطار بن غوريون الإسرائيلي بما يحمله من رمزية، إذا ضُرب مطار رفيق الحريري الدولي، وبتدمير مبنى في تل أبيب عاصمة الكيان العبري، مقابل إقدام الأخير على تدمير مبنى في الضاحية الجنوبية(388)، إنّما يؤشر بالضرورة إلى تطوّر ملحوظ في القدرات التسليحية لحزب الله(389)، قياساً إلى ما كانت عليه في

العام 2006 (390): «في لبنان بنية تحتية وفي فلسطين أيضا» والكلام للسيد نصر الله «ونحن لدينا مطار ونصف، وهم لديهم مطارات. نحن لدينا بعض محطات الكهرباء، وهم لديهم محطات كبرى. لديهم مصاف للنفط، ونحن بعض المصافي. البنية التحتية في إسرائيل أهمّ من البنية التحتية لدينا. أقول اليوم ما يلي، ويمكنكم التأكد من هذه المعطيات: إذا ضربتم مطار الشهيد رفيق الحريري الدولي في بيروت، سنضرب مطار بن غريون في تل أبيب. إذا ضربتم موانئنا سنقصف موانئكم. وإذا ضربتم مصافي النفط عندنا أو قصفتم مصانعنا، سنقصف مصانعكم ومصافي نفطكم»(391).

أمّا طبيعة هذا التطوّر الذي استجدّ على القدرات التسليحية لحزب الله، وإلى أيّ حدّ تناهى، وإلى أيّ مستوى بلغ؛ فهو- وهنا بيت القصيد- ما يقع في الدائرة المغلقة، وعلى نحو لا يجعله بإطلاق مادة للاستهلاك الإعلامي والدعائي، بل يبقى من الأسرار المقفلة بإحكام التي لا يملك مفاتيح أقفالها إلا قلة قليلة من المستوى القيادي في الحزب. ففي معرض إجابته عن سؤال حول ماهية الصواريخ التي تزوّد بها حزب الله، وذلك بعد موجة الصخب الإعلامي التي أثيرت بحدّة حول أزمة السكود، يقول السيد نصر الله: «أنا لم أقل إنّ الصواريخ التي بحوزتنا هي أدهى من السكود أو غير أدهى. وإنّما نقول إنّنا سنردّ على بناهم التحتية. نحن قادرون على أن نفي بهذه الوعود والالتزامات... لكن ما هي أنواع هذه الصواريخ، وما هي تفاصيلها، فهذه أمور لا نتحدث عنها في وسائل الإعلام»(392).

الجدير بنظر الاهتمام، أنّ مثل هذه الأحابيل والتلفيقات الإسرائيلية الخادعة، قد تتمظهر بغير صورة ومشهد وهيئة وشكل، وتتلوّن بغير صبغة ولون؛ بعضها ينحو باتجاه الإغواء، يتعمّد النظر إلى حزب الله من خلال مرايا محدّبة، فيتوسّل المبالغة والغلو في تصويره على نحو يبدو معه كمن أضحى قوّة عالمية أو دولية أو إقليمية عظمى وفاعلة، عله يصيب هذا الحزب بالغرور والتشاوف، فيندفع الأخير- كمن أصابه مسّ وفقد صوابه- إلى الانعتاق من إسار تعقله ورصانته، وإلى التحرّر من هدوئه واتزانه. وبعضها الآخر وجد في التهوين من قدرات الحزب، وفي توهينه والتقليل من شأنيته سبيلاً للاستفزاز، وفخاً محكماً للاستدراج، فنظر بدوره إلى الحزب ولكن من مرايا مقعّرة، عله يدفع به إلى الإحباط. المفارقة هنا، أنّ كلا الأمرين لم يؤتيا أكلاً، ولم يجديا نفعاً مع حزب الله: لا الإغواء والإطراء، ولا التهوين والتوهين، بل على خلاف ذلك، تعامل حزب الله- على غير ما تتمنّى الدولة العبرية- مع هذه التسريبات بسياسة إدارة الأذن الصمّاء؛ لم يعلق، ولم يعقب، ولم يوضّح، ولم يصدر منه ما ينفي أو يؤكد، مطلقاً بذلك العنان للقلق الإسرائيلي كي يبلغ منسوبه الأعلى، وليُدخل إسرائيل في مصيدة أحابيلها، وفي الشراك الذي كانت قد أعدّته للإيقاع به.

لقد شاء الإسرائيلي- من خلال مراوغاته- أن يستدرج حزب الله للإفصاح عن مكنوناته ومخبّاءاته، وللإدلاء بمعلومات حول قدراته وإمكاناته، إلا أنّه أصيب بخيبة قاتلة، وحلّ به ما حلّ بصانع الأكاذيب في المأثور الشعبي؛ أطلق بعض المزاعم والتكهّنات والفرضيات، وفبرك بعض التصوّرات والسيناريوهات، وأشاع بعض الأخبار التي لم تودِ بسواه، ولم تُردِ غيره، ولم تمارس تأثيرها إلا عليه، فوقع ضحيتها، من دون أن يقع على من يطمئنه ويهدّئ من روعه، ويقف على هواجسه. ما يعني أنّ حزب الله- وقد وُهب قصب السبق في هذا المجال- توافر على إمكانية صياغة الجهل الإسرائيلي لقدراته ضمن منظومة مفاهيمية برع في تطبيق مندرجاتها حدّ الاتقان،

وأجاد تجسيدها على نحو عملي، بكيفية حاذقة لم يكن بمقدور إسرائيل أن تجاريها في تطبيق ما صاغته وبلورته من النظريات الإستراتيجية على مدى حروبها مع العرب.

لكن توسّل الغموض البنّاء كإستراتيجية فاعلة في الحروب والنزاعات، لا يمكن له أن يستقيم بإطلاق، وأن يستوي صحيّاً في مجالات وفضاءات خادعة- زائفة ومضللة- تفتقر إلى الصدقية والمنطق والمعقولية؛ على نحو اختلاق أخبار ومرويات وأكاذيب، وحياكة تهويمات سرابية، واصطناع بطولات وقدرات وهمية، وتوهّم إمكانات وعناصر قوّة لغايات دعائية وتهويلية. فهذه سرعان ما تتكشّف وتتبدّد وتتهافت عند أول محكّ، وعند أول اختبار، وترتب مفاعيل سلبية خطيرة، هي بالضرورة أشدّ وطأة على وعي ومخيال وعقل الجهة الراعية والمدبّرة. والحال هذه، فإنّ حزب الله في توسّله للغموض البنّاء، لم يكن لينتمي إلى هذه البيئة الديماغوجية(393)؛ فهو لا يدّعي قدرات تقع في باب العنتريات، وفي معرض التهويل الفارغ الأجوف، وفي إطار الترويج الإعلاني والدعائي الذي لا يُسمن ولا يغني، بل يتكتم على قدرات حقيقية فاعلة، بالمقدور القبض عليها، وتنشيطها، وجعلها في حال من الجهوزية الدائمة.

في المحصلة، لقد تأدّى تبنّي حزب الله لإستراتيجية الغموض البنّاء، كمركب وكمكوّن أصيل ومتجذر من مركبات منظومته الأمنية والعسكرية، إلى نجاحات باهرة وملحوظة في إدارة الصراع مع إسرائيل؛ من اليسير معاينة كيف وظف حزب الله- خلال الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز- آب من العام 2006 - الجهل الإسرائيلي بحقيقة قدراته وإمكاناته، وكيف استثمر «الغموض البنآء» في حرب مفاجآت غير معهودة إسرائيلياً(394)، أضافت إلى قوّة الحزب رصيد قوّة، ومنحته التفوّق والنصر المؤزّر، على الرغم من الاختلال الحادّ في موازين القوّة لغير مصلحته(395). وذلك بعد أن وفرت في جعبته أوراق لعب رئيسة: كمباغتة العدو، ومفاجأته، وصدم أفق التوقع لديه. وجعلت- بالتالي- الإسرائيلي في وضع لا يُحسد عليه: يعيش حالاً من التوتر الدائم، والترقب الانتظاري الدائم، وحالاً من انهزام الوعي، والاهتراء النفسي الداخلي، وانعدام الرؤية، وجهلاً بما قد يُفرج عنه حزب الله من مفاجآت. لم يكن الإسرائيلي يتوقع شيئاً مما حدث، بل كان من المُحال أن يخطر في باله أصلا، وهذا ما يفسّر هول الصدمة التي أصيب بها؛ سواء على مستوى بناء شبكات الأنفاق والاستحكامات ومناطق القتل التي أقامها حزب الله، أو على مستوى استخدام مقاتلي الحزب- وبمهارة عالية- صواريخ مضادة للدروع متطوّرة فاجأت الدبابة الإسرائيلية، دمرتها، وأودت بسمعتها إلى الدرك الأسفل من السوء، والأهم والأخطر أن يُنكّل بدرة سلاح البحرية الإسرائيلية (ساعر - 5)(396) بعد تعرضها للقصف بنسخة متطوّرة من صاروخ أرض- بحر، طراز (سي- 802)(397) ، وفقاً للتحديد الإسرائيلي(398)، حيث أنّ حزب الله، وإمعاناً منه في تفعيل سياسة التعتيم والتكتم والغموض، تعفف عن تقديم أيّة شروح، أو إيضاحات، أو تعليقات على ماهية ونوعية الصواريخ التي استخدمت في الحرب، على الرغم من عظيم الإنجازات التي وُفقت إلى صناعتها(399).

ويبقى للغموض غاية أخرى، ولعلها لا تقلّ أهمية وخطراً وشأناً عن سائر وظائفه وغاياته وأدواره، وقد أجاد حزب الله أيضاً الإفادة منها إلى أقصى الحدود، كما برع في تثمير مفاعيلها غاية البراعة. وهذه الغاية «هي الردع»(400)، وفقا لما جاء في أطروحة نائب وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق إفرايم سنيه معللاً سياسة الغموض التي تتوسّلها إسرائيل «نحن لا نقول شيئاً عما لدينا» يقول سنيه «والتكهّن هو ما يردع أعداءنا»(401). وبناء عليه، يخلص سنيه مقاربته

مدللاً على أهمية الغموض وفاعليته «فليكن العالم شفافاً ونحن سنبقى مع الشاشة القاتمة»(402). لكنّ الأمر انتهى مع حزب الله على غير ما تشتهي إسرائيل وترجوه، وعلى غير حسابات بيدرها وحقلها، إذ شربت حتى الثمالة من ذات الكأس التي لطالما جرّعتها لأعدائها وخصومها وحلفائها على حدّ سواء. تشفّ القراءة الفاحصة لمشهدية الصراع بين إسرائيل وحزب الله إلى أنّ حالة الارتداع والإحجام والتعقل التي كبحت الوعي الإسرائيلي، وقيدته، وفرملت اندفاعته، ولجمت نزوعه وجنوحه ووحشيته؛ إنّما تأسّست بنحو كبير، واستوى معمارها على جهل إسرائيلي مدقع بقدرات حزب الله ومخططاته وتكتيكاته ونواياه، بسبب من إحاطة هذا الأخير لنفسه بمدارات من الغموض والتكتم والسرية والانضباط، الأمر الذي يحول دون انسراب وانسلال معلومات وازنة من داخل أسوار هذه المنظمة الحديدية الحصينة، وبالتالي دخول الإسرائيلي في دائرة التكهّن والتخمين والتنبؤ، المفضية -لا محالة- إلى إرباك وحيرة وضياع وتوتر واضطراب وبلبلة وتشوّش، وأخيراً إلى خوف وهلع من ردود فعل غير محسوبة وغير منظورة.

لنقف- استدلالاً- على ما ورد في كلام السيد حسن نصر الله، خلال الاحتفال بالذكرى السنوية الرابعة لنصر (تموز- آب 2006)، حيث اختار بحكمة في معرض الإجابة عن حقيقة امتلاك حزب الله لأسلحة دفاع جوي- وهو التساؤل الذي لطالما شغل أجهزة الاستخبارات ومراكز البحث والإستراتيجيا بعامة، والإسرائيلية بخاصة- أن يلتزم الاستمرار بسياسة الغموض البنّاء: «لا، هنا لا نستطيع أن نتحدّث عن معادلة» يقول السيد نصر الله «بل نكمل في سياسة الغموض البنّاء. في موضوع الجو، سنترك الإسرائيلي ضائعاً يعتقد ما يريده. فإنْ أراد الاعتقاد أنّ لا دفاع جوياً لدينا، فليعتقد. وإنْ أراد الاعتقاد أنّ لدينا دفاعاً جوياً، فليعتقد.. هنا قوّة المقاومة في عدم كشف كلّ شيء؛ ثمّة أمور نكشفها لحماية البلد، وهناك أمور يجب أن لا نكشفها لحماية البلد»(403). ذلك أنّ بقاء إسرائيل في حيرة من أمرها حيال امتلاك حزب الله لقوّة دفاع جوي فاعلة أو عدمه؛ من شأنه أن يردعها عن ارتكاب حماقة، وعن الخوض في مغامرة شنّ حرب جديدة هي مكلفة بكلّ المعايير.

كما في ساحة القتال، فعّل حزب الله إستراتيجية الغموض البنّاء في الحلبة السياسية، بوصف الأخيرة لم تكن إلا شكلاً آخر من أشكال المواجهة المفتوحة مع المشروع الاستعماري الأميركي- الإسرائيلي في الشرق الأوسط؛ ففي عملية الرصاص المسكوب التي استهدفت حكومة حماس في كانون الأول- كانون الثاني من العام 2008 - 2009، أبقى حزب الله على قواته في حالة من الجهوزية والاستعداد، دون أن يؤكد نيته الاشتراك في النزاع أو ينكرها، ودونما إلتزام علني بسياسة الامتناع عن التحرّك، رافضاً إعطاء إسرائيل تطمينات مجانية، بعد أن تبرّع غير وسيط دولي وإقليمي ومحلي للوقوف على وجهة ونية حزب الله بشأن تسخين ما يسمّى «جبهة إسرائيل الشمالية»(404). ما أوقع الدولة العبرية بحالة من الإرباك الممزوج بالتوثب والتوتر الشديد، مع ما يتطلب ذلك من استنفاد للطاقات والقدرات والأعصاب، وجعلها تتوجّس من انفلات الأمر، وتترقب في أيّة لحظة هبوب أعاصير الشرّ الذي لا بدّ آت من الشمال وفقاً للاعتقاد التلمودي.

كذلك ما كان عليه واقع الحال بشأن المحكمة الدولية الخاصة بلبنان(405)؛ لقد ترك حزب الله كلّ المراهنين داخلياً وخارجياً- على قرار ظني تتهم بموجبه المحكمة عناصر حزبية غير منضبطة بجريمة اغتيال رفيق الحريري(406)- تركهم يتخبطون في آتون من التكهّنات والتخمينات والافتراضات بشأن الكيفية التي سيتعاطى فيها مع القرار المذكور، كما بشأن السيناريوهات والخطط المعدّة لمواجهته وإسقاطه(407).

إستراتيجية المفاجآت

لا شكّ أنّ العمل بإستراتيجية «الغموض الفاعل والبنّاء» على النحو الذي ألمعنا إليه أعلاه، يقود- بالضرورة- إلى ما يسمّى «إستراتيجية المفاجآت»، التي تشكل بدورها مركباً من مركبات منظومة حزب الله العسكرية والأمنية. وتنطلق هذه الإستراتيجية من بداهة جهل العدو وانعدام معرفته بحقيقة ما يتوافر لدى الحزب من تجارب وخبرات ومهارات وقدرات وإمكانات، قتالية وعسكرية ولوجستية وأمنية وتقنية، واستهدافه بها في توقيت ملائم، ومن حيث لا يحتسب ... الأمر الذي يُحدث لديه صدمة، ويُولد ذهولاً وإرباكاً، ويحفر آثاراً وندوباً نفسية حادّة وخطيرة في وعيه، فضلاً عن الآثار المادية الجسيمة التي يتسبّب بها: «كان كلّ يوم يمر» يفيد تقرير إسرائيلي في معرض متابعاته اليومية لمجريات حرب تموز- آب من العام 2006 «هو مفاجأة ضخمة للاستخبارات ولقيادة الجيش الإسرائيلية، اللتين تعيشان أجواء من الضبابية، والارتباك، وعدم وضوح، وعدم قدرة على توقع خطوات حزب الله القادمة»(408). ما يعني أنّ «إستراتيجية المفاجآت» لا يستقيم عودها أيضاً، إلا إذا جاءت هي الأخرى معطوفة على حال من التكتم، والسرية، والإطباق، والقبض، والضبط، والتحكم بمسارب المعلومات منعاً لفوضاها أو تسيّبها أو انكشافها. كما جاءت صادرة من معرفة دقيقة بمَقاتل العدو ومواجعه ونقاط ضعفه، وبما يتوافر عليه من أساليب تفكير، ومنهجيات عمل، ومنظومات، وعقائد، وحيّزات انتشار وتموضع، ومساحات اشتغال، وعناصر قوّة وتهديد وإمكانات وقدرات.

لقد شغلت «إستراتيجية المفاجآت» عناية حزب الله، وكانت محط اهتمامه ورعايته ومتابعته، لاسيما بعد أن أثبتت جدوائيتها وفعاليتها وتأثيرها غير مرة، حيث دلفت إلى منظومته الأمنية وتوضّعت هناك على ركن وثير ورئيس بعيداً من المنافسة والمزاحمة. وفي هذا يقول السيد حسن نصر الله من خطبة له في السادس عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2009: «نحن لا نخوض صراعنا مع هذا العدو لا على قاعدة العنتريات ولا على قاعدة المزايدات؛ بل على قاعدة المفاجآت»(409). والحال، توسّل حزب الله إستراتيجية المفاجآت في إدارة الصراع والحرب، واتخذ منها عضداً في غير مواجهة ونزاع مع إسرائيل، كما في معرض ردّه على الخروق الإسرائيلية المتواصلة للسيادة اللبنانية، وعلى النحو الذي أطلق فيه الطائرة الاستطلاعية خاصته «مرصاد1»، حيث فجّر في حينه مفاجأة صادمة لكلّ من الحلفاء والأصدقاء والخصوم والأعداء على حدّ سواء. لكن أكثر ما تجلت إستراتيجية المفاجآت في حرب تموز- آب من العام 2006: بها فتحت أبواب الحرب وشرّعت نوافذها ومغاليقها على مهبّ انتظارات، يضبط حزب الله وحده إيقاعاتها بعناية وحذق بالغين «نحن جاهزون للمواجهة وإلى أبعد حدّ» يقول السيد حسن نصر الله «وإذا إختاروا المواجهة عليهم أن يتوقعوا المفاجآت»(410). ومعها أيضاً استوت فصول الحرب، بل إنّها أسّست لمراحل تطوّرها ولانعطافاتها الحادّة، وصاحبت سيرورة تخلقاتها على نحو تصاعدي، حتى ألقت الحرب أوزارها- دون أن تنتهي- على أوراق وعناصر قوّة صير إلى الاحتفاظ بها، ولم يصر إلى الكشف عنها. ما رفع من وتيرة القلق الإسرائيلي وزاد من منسوب الإرباك لديه، وأبقى المبادرة بيد حزب الله، ودفع بالتالي غير باحث ومراقب إلى القول: إنّ حزب

الله أستطاع تحقيق ما يطلق عليه خبراء العلوم العسكرية والإستراتيجية العامة اسم «المفاجأة الإستراتيجية».

والحال هذه، كانت حرب تموز- آب من العام 2006، حرب مفاجآت بكل ما بمقدور الكلمة أن تحتزنه من دلالات وحمولات، وذلك وفقاً لأواليات وميكانيزمات إدارتها من قبل حزب الله. ما نقع على تمثلاته وترجماته في غير موقعة كانت لها فضيلة اختزال مشهديات الحرب:

أ ـ مفاجأة ضرب البارجة الإسرائيلية(411)

إنّ استهداف وضرب البارجة الحربية آحي حانيت (ساعر-5)، التي تعدّ درّة سلاح البحرية الإسرائيلية، بصاروخ سي- 802 (412)، خلال مرابضتها في قبالة شواطئ بيروت(413)، وبعد ساعات معدودات على تفجّر القتال واندلاع شراراته الأولى(414)؛ شكل أولى مفاجآت الحرب(415)، وربما أشدّها صدمة وهولاً على الوعي الإسرائيلي(416). وقد زاد من روعتها وتأثيرها الكيفيةُ التي قدّمت فيها، والوقت الذي حصلت فيه، وبراعة الآداء التي تجاوزت كلّ براعة تمخضت عنها الأعمال العسكرية الإبداعية طيلة زمن الحرب. فهي تزامنت مع إعلان أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله عنها مباشرة على الأثير، وفي رسالة صوتية عبر قناة المنار(417)، بحيث بدت كلوحة مشهدية هي أقرب إلى سينمائية تخييلية هوليودية منها إلى عالم الواقع، وتفتقت عن إبداعية خلاقة وغير مسبوقة في إدارة الحروب(418)، وتأدّت إلى تثوير الوعي العربي بعامة، وإلى شحذ همم وإرادات المقاومين وجمهورهم استعداداً لمنازلة كبرى قد تطول، ودفعاً للإحباط والخوف الذي ربما قد أصاب بعضاً منهم بعد النبرة الإسرائيلية العالية التي صاحبت لحظات نشوب الحرب «إنّها المفاجأة الأولى» يقول الإعلامي علي هاشم في يومياته كمراسل حربي موصّفاً ردات الفعل الشعبية العفوية إزاء ما حدث «التي أسهمت في إعلاء الروح المعنوية لدى المواطنين بشكل ساعدهم على تلقي الصدمات المقبلة بصدورهم، وشجعتهم على الصمود أكثر، أو ربما إلى الحدّ الذي يقدرون عليه»(419).

كما كان لهذا التزامن- في قبالة ذلك- أثر سياسي ومعنوي بالغ الخطورة على الوعي الإسرائيلي(420)؛ فقد رمزت «الرحلة البطيئة للزورق المتفحّم- والمصاب بثقب مفتوح بجانبه الخلفي- إلى الشاطئ الإسرائيلي، إلى نسف الأوهام التي تحدثت عن انتصار إسرائيلي براق»(421). تأدّت المفاجأة إلى كبح جماح هذا الوعي الذي خرج إلى الحرب متعالياً، منتشياً بزهو نصر أكيد، متشاوفاً، مستخفاً بقدرات حزب الله، بحيث استمهل رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي دان حالوتس قادته من المستوى السياسي ساعات قليلة ليس إلا(422)، ليصار إلى إنجاز المهمة والقضاء على حزب الله، قبل أن يعكف فيما بعد على استجرار المهل الزمنية كلّ حين، وبشكل دوري، دون أن يقوى على فعل شيء. ما دفع بعوفر شيلح إلى التعليق قائلاً: «من الصعب أن نصف التأثير الذي كان أحدثه الصاروخ» والكلام لعوفر «فيما كان لا يزال في وعي الكثيرين من مواطني إسرائيل ناهيك عن زعمائها، أنّ الحرب ليست أكثر من مصادمة تستغرق عدة أيّام من المعارك»(423). والحال، فإنّ «الضرر الأكبر المتمثل بضرب حانيت» يضيف شيلح «كان ذلك الذي أصاب وعي القادة(...)، فالغطرسة التي أظهرها كلّ من أولمرت وبيرتس وحلوتس قبل بضع ساعات من ظهور نصرالله لم تختف. بل أضيف إليها الحنق والإحباط نتيجة التأثير الذي خلفه هذا الظهور والإهانة التي سبّبها قصف (حانيت)»(424).

من جهتها، أوردت القناة العاشرة في التلفزيون الإسرائيلي- في معرض توصيفها لوقع الصدمة التي أحدثتها المفاجأة الأولى للحرب- تعليقاً يرصد التداعيات والمفاعيل ذات الأبعاد الإستراتيجية لحقيقة ما جرى، حيث تقول: «إنّ الصاروخ المضاد للسفن الحربية الذي أطلقته المقاومة اللبنانية،

على البارجة الإسرائيلية آحي حانيت (من طراز ساعر-5) في بداية الحرب على لبنان، لم يغرقها، إلا أنّه يهدد بإغراق مستقبل سلاح البحرية»(425).

وفي سياق متصل يقول عمير رابابورت من محاضرة بعنوان (الجيش الإسرائيلي ودروس حرب لبنان الثانية)، كان مركز بيغن- السادات قد نظمها في شهر تموز/ يوليو من العام 2007، لمناسبة مرور سنة على الحرب: «تضرّرت مكانة سلاح البحرية بشدّة أثناء حرب لبنان الثانية» والكلام لرابابورت «فسلسلة الإخفاقات التي تبدّت فيه كانت طويلة إلى أن أثيرت علامات استفهام كبيرة بشأن مستواه المهني وثقافته التنظيمية. وبعد الحرب، إجتاز السلاح هزة شديدة؛ فقد استقال قائد السلاح في الحرب الجنرال دافيد بن بعشاط من منصبه في شهر تشرين الأول من العام 2007. وانسحب معه سلسلة من كبار الضباط في قيادة السلاح».

وهكذا كان أنْ أخرجت المفاجأة الأولى سلاح البحرية الإسرائيلية من الحرب باكراً، وحيّدته جانباً، وقيّدته، وأعاقت حركته، وجعلته عديم الفعالية والتأثير. فبعد اكتشاف وجود صاروخ (أرض- بحر) بحوزة حزب الله على إثر استهدف البارجة؛ أجبرت جميع القطع البحرية على التقهقر والتراجع، وعلى الابتعاد في عرض البحر إلى مدى ينأى بها عن فعالية الصاروخ وتأثيره. ما فرض بدوره- إسرائيلياً- سلسلة من التدابير الاحترازية ذات الطبيعة الوقائية التي تؤثر سلباً على منظومة المراقبة والنار، بحيث تفضي إلى مراقبة أقلّ دقة وتركيز، كما إلى انخفاض في مستوى فعالية النيران. هذا فضلاً عن مفاعيل معنوية خلّفها بالضرورة استهداف البارجة؛ إذ إنّ حالة الحذر والترقب التي تستلب- عادة- أفراد سلاح البحرية في حال وجود خطر يتهدّدهم، يجعل مستوى آدائهم العسكري رديئاً وسيئاً.

المفارقة هنا، أنّ مفاجأة استهداف البارجة تأتت كسواها من فشل استخباراتي وعملياتي إسرائيلي(426)، جعل عنصر المبادرة بيد حزب الله، ما دفع بقائد سلاح البحرية الإسرائيلية ديفيد بن بعشاط إلى الاعتراف قائلا: «كنّا أسرى الفهم الخاطئ»(427). فقد أشّرت حصائل التحقيقات التي أجرتها غير لجنة مختصّة حول إخفاقات الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز- آب من العام 2006، إلى أنّ الصعوبات التي واجهت الجيش الإسرائيلي، وحالت دون قيامه بمهامه على نحو موجب؛ لم تكن وحسب ذات صلة بالناحية اللوجستية، وإنّما اتسعت دائرتها لتظهر- بكيفية أعمّ- إخفاقاً استخبارياً إسرائيلياً شاملاً في فهم الواقع اللبناني، بل في إدراك قوّة حزب الله، كما جهوزيته وجاهزيته وقدرته على التصدّي لآلة الحرب الإسرائيلية.

ب- مفاجأة الصواريخ المنحنية المسار

لم يكن إعطاب البارجة (ساعر- 5)، وإخراجها من ساحة المواجهة، وبالتالي تحييد سلاح البحرية الإسرائيلية، إلا البداية. وبعدها كرّت سبحة المفاجآت تباعاً، وانفرط عقدها؛ فكانت المفاجأة الثانية منظومة صاروخية من سلالات وعائلات مختلفة(428) قوامها صواريخ أرض- أرض المنحنية ذات المديات المتعدّدة، التي جاوزت حيفا وما بعد حيفا إلى العفولة والخضيرة...، ووضعت للمرة الأولى في تاريخ الصراع، العمق الإسرائيلي بمجمله في دائرة الاستهداف والتصويب(429)، وجعلته- على غير ما يرغب الإسرائيلي، وعلى خلاف ما يرجو- جزءاً رئيساً من ساحة المعركة(430).

كانت مفاعيل المفاجأة الثانية صادمة، ومروعة، ومضاعفة الأثر على الوعي الإسرائيلي، فهي إلى جانب إدخالها العمق الحيوي للكيان العبري إلى آتون ميدان القتال كما أسلفنا؛ فإنها جاءت بعد احتفالية وانتصارية وهمية إسرائيلية(431) عمّت المستوى السياسي والعسكري احتفاء بالقضاء على الترسانة الصاروخية لحزب الله، في أعقاب ما يسمّى بعملية «الوزن النوعي»(432) التي نفذتها المقاتلات الإسرائيلية خلال الساعات الأولى على بدء الحرب. ولكنّ هذه الإنتصارية الاسرائيلية المزعومة كانت أضغاث أحلام، فبعد وصول الطلائع الأولى من صليات الصواريخ إلى أهدافها في العمق الإسرائيلي(433)، تبيّن أنّ «الوزن النوعي» كانت لا تستأهل مسمّاها، فهي في موازين التثقيل دون وزن الريشة، وأقلّ من فقاعة صوتية فارغة.

امتدّت مفاعيل الصواريخ المنحنية- وفق الوجهة التي أخذت إليها عنوة من قبل حزب الله- لتصبح أكثر إضراراً ومسّاً بالوعي الإسرائيلي، وأشد فتكاً بروافعه وحوامله وعناصر القوة لديه.. ما ضاعف من وقع المفاجأة وفاقم من هول تأثيراتها الصادمة، حتى قيل إنّ «الترسانة الصاروخية لحزب الله، كانت بمثابة العمود الفقري للمفاجأة العسكرية في الحرب العربية الإسرائلية السادسة»، وفقاً لما ذهب إليه غير تقدير عسكري وغير دراسة غربية متخصّصة. ذلك أنّ نجاح حزب الله في شل الجبهة الداخلية الإسرائيلية، والإضرار بها على نحو غير مسبوق، من خلال إطلاق وجبات يومية من صواريخ الكاتيوشا القصيرة المدى غير الموجّهة، وسواها من الصواريخ ذات المديات المختلفة، التي أفلتت من رقابة نظام الاعتراض الصاروخي الذي يتوافر من ما بحوزة إسرائيل من منصّات دروع الدفاع الصاروخية العالية التقنية؛ قد مكن الحزب من استخراج «قيمة إستراتيجية كبيرة من هذا السلاح غير المجدي تكتيكيا»(434).

فالصواريخ المنحنية، من جهة أولى، واصلت عملية انهمارها وتساقطها كزخات من مطر فوق الداخل الإسرائيلي، دونما قطيعة أو انقطاع أو تكاسل، بل إنّها في أحايين كثيرة كانت تسلك منحى تصاعدياً «إنّ متوسط الإطلاقات، الذي بلغ في الأسبوعين الأولين 75 صاروخا» يقول عمير رابابورت «ضاعف نفسه في الأسبوع التالي»(435)، إلى أن استقرّ الأمر في صبيحة الرابع عشر من شهر آب من العام 2006، أي في اللحظة السابقة على وقف الأعمال الحربية كما جاء في نص القرار 1701، على أعلى معدّل إطلاق يومي: «حافظ حزب الله في أثناء أيّام القتال كلها على إيقاع إطلاق بمعدل نحو من 130 صاروخاً كل يوم» يقول أمير كوليك الباحث في معهد

أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي، من دراسة له بعنوان (الاستخبارات الصهيونية وتحدّيات إطلاق النار منحني المسار)، لكنه «أطلق في آخر يوم نحو 253 صاروخا»(436). ليفيض بذلك المجموع الإجمالي المكوّر من الصواريخ التي انهمرت على فلسطين المحتلة طيلة زمن الحرب على أربعة آلاف صاروخ، في «أطول فترة قصف تعرّضت له إسرائيل منذ إنشائها»، وفقاً لاعترافات الصحافيين الإسرائيليين آموس هاربل وآفي إزاشاروف في كتابهما المعنون (34 يوماً: إسرائيل وحزب الله والحرب في لبنان).

وهي من جهة ثانية، وقفت– أي الصواريخ المنحنية- على نحو من الندية والضدية في مواجهة سلاح الجو الإسرائيلي؛ فعطلت تفوقه وفعاليته، وفرملة جموحه واندفاعته في استباحة الجبهة الداخلية اللبنانية، وأرغمته على إعادة التموضع عبر أرسائها معادلاً معيارياً وموضوعياً قوامه: الردع المتبادل، والتدمير الكلي المتبادل في سابقة لم تألفها الآلة العسكرية الإسرائيلية في حروبها: «قد نجد أنفسنا في وضع توجد فيه الجبهة الداخلية في المواجهة، وليست الحدود» يقول قائد الجبهة الداخلية الإسرائيلية الجنرال أيال آيزنبرغ خلال ندوة نظمها مركز دراسات الأمن القومي في جامعة تل أبيب في الخامس من شهر أيلول/ سبتمبر من العام 2011 «يطلقون علينا صواريخ ونحن نردّ بالطائرات. إنّ المنعة الداخلية ستحسم نتائج الحرب المقبلة»(437).

الجدير بالإلفات وبنظر الاهتمام، في مقاربة أطروحة «الردع المتبادل» هنا، أنّ حزب الله قد توسّل خلال مصاداته ومواجهته للعدوان الإسرائيلي الأخير بصواريخ من مديات أبعد- بما لا يقاس- من المدى الذي كانت عليه الكاتيوشا في المواجهات السابقة(438). لعلمه أنّ إسرائيل قد تجاوزت نفسياً وميدانياً آثار الصواريخ القريبة المدى، وأنّ الأمر كي يستقيم على نحو وازن، لا بدّ من التدرّج تصاعدياً في ضخّ المزيد من جرعات القوّة إلى حين الوصول إلى عامل ردعي يجبر إسرائيل على الانكفاء والتراجع، ويلجم لها اندفاعتها وتهوّرها، ويكبح نزوعها الشيطاني، ويحقق ارتداعها عن ممارسة مزيد من الاعتداءات.

وبعد، كان للصواريخ المنحنية غير فضيلة وغير أثر سايكولوجي(439) بالغ خلال الحرب الإسرائيلية على لبنان في صيف العام 2006؛ فهي أولاً- عطلت مركباً فاعلاً من مركبات المنظومة الأمنية الإسرائيلية، إذ أخفقت الأخيرة- على غير عادتها- في نقل المعركة إلى أرض العدو، حيث «واجه الكيان الصهيوني» كما يقول محمد خواجة «معضلة الصواريخ ذات المسار المنحني التي أصابت عمقه بضرر إستراتيجي، عطّل أحد مركبات عقيدته الأمنية القائمة على تحييد الداخل، وحصر النيران بأرض الخصم»(440). وبالتالي، أثبتت «المطاردة الفاشلة لصواريخ الكاتيوشا» على حدّ تعبير لامبث أنّ القوات الإسرائيلية المزوّدة بالآلة العسكرية الجبارة «لم تستطع في أي وقت من الأوقات وقف وابل الصواريخ اليومية التي كان حزب الله يطلقها على شمال إسرائيل»(441). وأنّ الجيش «الأقوى في الشرق الأوسط» الذي يحظى بـ«تفوّق جوي مطلق ومزايا في الحجم والتكنولوجيا»، كما جاء في توصيات لجنة فينوغراد، لم يستطع أن «يوفر ردّاً فاعلاً»(442) على إطلاقها.

ثانياً - دعمَ سيلُ تساقط الصواريخ وانهمارها كمتواليات متلاحقة ومستمرّة على الداخل الإسرائيلي إدعاءات حزب الله بأنّه أحرز نصرا بيّنا في هذه الحرب. «أمّا حزب الله» كي يبدو منتصراً، يقول لامبث ناقلاً إفادة الجنرال احتياط شلومو بروم «فكان عليه فقط، أن يواصل إطلاق الكاتيوشا بمعدل قياسي قبل بدء تنفيذ وقف إطلاق النار»(443). وذلك في مقابل تسخيف إدعاءات الحكومة

الإسرائيلية، وتوهين مزاعمها بوصفها المنتصرة، وبأنّها أنزلت بهذا الحزب هزيمة منكرة أتت فيها على أسباب قوّته، كما على بنيته وقدراته التسلحية والصاروخية.

ثالثاً ـ كشف تساقط الصواريخ حساسية الانتظام المجتمعي الإسرائيلي إزاء الخسارة البشرية، وأظهرته على حقيقته عاجزاً عن تحمل أكلافها أو على امتصاص جرعات زائدة منها. كما ظهر ضعيفاً تعوزه الحيلة على التماسك اتجاه نزف مواردها، بنحو بدا أنّ البطن الرخوة «والحلقة الأضعف في الدفاع الوطني الإسرائيلي» هي ليست إلا «الافتقار للثبات الشعبي»(444) على حدّ تعبير الجنرال موشيه يعلون.

رابعاً ـ أثار استعمال الترسانة الصاروخية انتباه أعداء إسرائيل إلى ضرورة الأخذ بها، وإلى توسّلها كسلاح إستراتيجي فاعل(445)، واستطراداً فتحت عيونهم كما يقول محمد خواجة «على جبهتها الداخلية التي يبدو أنّها ستصبح هدفاً رئيساً في الحروب اللاحقة»(446).

ففي لقاء مطوّل، صير إلى عقده في السادس من شهر حزيران/ يونيو من العام 2011، مع ذوي رؤوس الأموال وأرباب التجارة والصناعة ورجال الأعمال في المجتمع الإسرائيلي؛ رسم وزير الجبهة الداخلية في الحكومة الإسرائيلية ـ حينذاك ـ الجنرال متان فيلنائي، سيناريو الرعب المتوقع في أيّة حروب مستقبلية، حيث يقول على طريقته في مقاربة الأمر: «ستسقط الآف الصواريخ يوميا على إسرائيل وسترتفع آلسنة اللهب من مواقع استخراج الغاز(...) السوريون ليسوا بحاجة لإطلاق عشرات الصواريخ على تلك المواقع، فلديهم منظومات دقيقة، ويكفي بضعة صواريخ لإحراق كلّ شيء(...) سيطلقون علينا آلاف الصواريخ والقذائف، وستسقط مئات الصواريخ في منطقة المركز، وسيستمرّ شهرا على الأقلّ دون توقف».

وفي مقالة بعنوان «ربما لا يوجد خيار عسكري»، نشرتها صحيفة هآرتس في عددها الصادر في الثاني عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام 2010؛ كتب جدعون ليفي مقارباً أطروحة الحرب القادمة على إسرائيل، في محاولة منه لمصارحة مواطني الدولة العبرية بحقيقة الوضع المستجدّ. وذلك لغرض تهيئتهم نفسياً، وتحضيرهم بنحو مسبق، كي تتوافر لديهم القدرة- في حال اندلاع مواجهات جديدة- على توقع ما ستؤول إليه الأمور من نتائج كارثية، وعلى تقبّل ما يترتب على ذلك من ويلات ومصائب: «ستكون الحروب الآتية» والكلام لجدعون ليفي «هي حروب الجبهة الداخلية(...) وهذه المرة ستتضرر الأخيرة على نحو لم نعرفه من قبل».

خامساً- توسلَ التساقطُ اليومي للصواريخ المنحنية لاسيما تلك ذات المسافات البعيدة وذات الحمولات التفجيرية الكبيرة، «إرهاب المستوطنين وضعضعة الإستعداد للقتال»(447)؛ إذ إنّها تمنح حزب الله قدرة الإضرار وإلحاق الدمار بالبنى التحتية والمصالح الحيوية لدولة إسرائيل، كما «المسّ بقوات الجيش الإسرائيلي قبل ومع دخولها إلى لبنان»(448).

والحال هذه، أُخذت إسرائيل بفوبيا الصواريخ المنحنية(449)، واستبدّ بها خوف مرضي عام من أن تكون قد فقدت تفوقها العسكري الذي لطالما كان مدعاة تمايزها وإنفرادها، والكفة الراجحة في موازين التثقيل لديها، كما تملكتها الخشية من فقدان القدرة على المبادرة والفعل والتأثير. وذلك بعد أن وقفت على عتبة وعي صحيح بأنّ «الأوضاع الراهنة» وفقاً لسمير كرم «تختلف الآن عما كانت قبل أن تحدث الإستراتيجية الصاروخية تأثيراتها، وتقيم توازناً»(450)، وتعادلاً نسبياً– بالأقلّ– مع ترسانة القوة الإسرائيلية.

لقد تبيّن حزب الله بعد توقف الأعمال الحربية- وفق ما تكشّفت عنه التجربة الحيّة وأشّرت إليه الوقائع الميدانية- نجاح نظريته العملانية، وصلاح مركباتها. تلك النظرية التي تتوسّل نيراناً منحنية المسار، وتنهض على جملة من المبادئ والمرتكزات الحاكمة:

أ ـ تحديد جبهة العدو المدنية الداخلية كهدف مركزي

تقع فكرة المسّ بالجبهة الداخلية المدنية للعدو، وإحداث تهديد ناري مهم لها، في قلب تصور استعمال السلاح المنحني المسار. لكنّ ذلك يستوجب إلزامات وفروضاً عديدة؛ كحسن تخيّر أهداف الإطلاق (مدنية، بلدية، بنى تحتية، منشآت ومرافق حيوية، قطاعات إنتاجية، تجمعات سكانية...)، والشروع في عملية تخزين واسعة النطاق، وكذلك تخيّر وانتقاء الرؤوس المتفجّرة التي تُزوّد الصواريخ بها. ذلك أنّ التطوير الحاصل في نوعية القذائف الصاروخية، يعتبر «الأكثر دقة وإيلاماً وتأثيراً على صعيد الجبهة الداخلية الإسرائيلية»(451).

وكان حزب الله- في ترجمته لهذا المبدأ الحاكم- قد تلمّس وتحسّس إغراء الجبهة الداخلية الإسرائيلية(452)، وأدرك هشاشة بنيانها، واستشعر ضعف مكوّنات انتظامها، ووقف على مَقاتلها وأسباب اعتلالها، فاتخذ منها هدفاً رئيساً للتصويب، وعكف على إدارة حرب استنزاف ضد العمق الإسرائيلي، بعد أن تموضع في مركز مفهومه القتالي الذي صير إلى بلورته، الحاجة إلى خلق وإنتاج نار داخل حدود الكيان العبري في فلسطين المحتلة بنحو معياري: أعمق ما يمكن، وطيلة المدّة التي يستغرقها القتال، فـ«بالنظر إلى قصر المدة المتوقعة للقتال» يقول شلومو بروم «يستطيع المرء أن يفترض أنّ الجبهة الداخلية الإسرائيلية كانت ستحمل هذا النوع من الإرباك للحياة اليومية الروتينية. إلا أنّ طول المدّة الزمنية للحرب غيّر الأطر الأساسية للوضع. فالدولة لا تستطيع أن تحتمل وضعاً تضطرب أو تتوقف فيه الحياة اليومية لسكانها على مساحة واسعة، ولفترة زمنية مديدة»(453).

وللغاية، بلور حزب الله منظومات قتال صاروخي رئيسة: واحدة من المدى القصير؛ تتكئ بنحو فاعل على ترسانة معتبرة كمياً ونوعياً من صواريخ الكاتيوشا. وتضطلع بمسؤولية حمل جوهر العبء، وخلق الحدّ الأقصى من النار داخل دولة إسرائيل المزعومة وعلى تخومها. ومنظومة أخرى ذات مدى بعيد؛ تضطلع بدورها بمسؤولية وضع كلّ شبر من هذا الكيان المصطنع داخل دائرة الاستهداف والتصويب والخطر. وتنزع هاتان المنظومتان إلى بناء تعادل ردعي إستراتيجي، وإلى تمكين حزب الله من إحكام النيل من الكيان العبري، ومن الضرب بوجبات متغيّرة ومختلفة في البطن الرخوة له. ذلك أنّ تواصل إطلاق القذائف الصاروخية إلى داخل عمق التجمّعات السكانية الإسرائيلية، يؤشّر- على نحو ما تكشّفت عنه حرب العام 2006 - إلى نجاح حزب الله وانتصاره، في قبالة إخفاق الجيش الإسرائيلي وفشله وانهزامه(454)، واستطراداً وفقاً لغيئورا روم «سيكون المعيار لمعرفة من انتصر في الحملة»(455).

كما إنّ المسّ بالجبهة المدنية على نحو مؤلم من شأنه الإضرار بالروح المعنوية لجيش الاحتياط الإسرائيلي، وإضعاف حافزيته ودافعيته: كأن يضع استهداف منطقة الساحل، ومنطقة غوش دان، عموم الأفراد المنخرطين في صفوف الاحتياط على محكّ تساؤل خطير وداهم: «هل من المعقولية في شيء»، يتساءل واحدهم، «أن يشدّ المجند من الاحتياط أحزمة الالتحاق بساحة المعركة في

لبنان، فيما البيت مهدّد بالسقوط والإنهيار من قبل صواريخ حزب الله؟. أم من الأفضل بمكان أن يركن إلى جانب العائلة في محنتها؟». فضلاً عن أن الأمر- أي التعرّض للجبهة الداخلية- يتيح لحزب الله أن يرسّب في الوعي الإسرائيلي قناعة مفادها: «أنّ المواطنين الإسرائيليين لن تكون حالهم مختلفة عن حال نظرائهم اللبنانيين، وحال تل أبيب ستشبه- إلى حدّ بعيد- حال بيروت، والقصف الصاروخي الإسرائيلي للبنان سيقابله إطلاق قذائف ثقيلة ومتفجرّة وبكميات كبيرة من قبل حزب الله»(456).

ب ـ الإقلال من الانكشاف المادي لقواعد الإطلاق

يعدّ مبدأ الإقلال من الانكشاف والظهور المادي لقواعد الإطلاق غاية في الأهمية والضرورة والإلحاح، بوصفه يتقصّد جعل اكتشاف هذه الأخيرة متعسراً(457). وهو ينطلق من وعي بقدرات العدو التسليحية والتكنولوجية، كما من فهم تقني وعسكري عملاني قوامه: أنّ نافذة الوقت التي تتيح للعدو مهاجمة قاعدة الإطلاق قصيرة جداً، وقد تنحصر أحياناً في لحظات معدودات. تبدأ نافذة الوقت هذه بالتضاؤل والانكماش والضمور بمجرد إفصاح قاعدة الإطلاق عن نفسها، وذلك من خلال إزالة تنكيرها، أو من خلال إخراجها من مخبئها الذي كانت تتوارى فيه. وهي تستمرّ طيلة زمن الإطلاق الذي قد يستغرق ثواني عديدة فحسب، يشتعل في أثنائها الصاروخ- ما يسمح بتحديد موقعه عبر وسائط تحديد إلكترونية- وتنتهي مع إعادة إخفاء قاعدة الإطلاق من جديد، أو نقلها على وجه السرعة إلى حيث تتوضّع بأمان في مخبأ سري أعدّ لهذه الغاية: « كان العديد من مواقع الإطلاق» يقول غيئورا روم «معدّاً وفقاً لخطط وحسابات مسبقة؛ وبعضها كان مموّهاً ومخفياً (...) لكي يتسنّى استخدام معدات الإطلاق بصورة متكرّرة»(458).

وكان غير تقرير أمني وعسكري وإعلامي متخصّص- وفقاً لأمير كوليك- قد أشار إلى أنّ حزب الله توسّل أسلوب الحركة في عملية الإطلاق الصاروخي؛ إذ سُجّل أنّ «غالبية الصواريخ التي أطلقت لمسافات متوسطة: حيفا، العفولة، بيسان...»، قد صير إليها من «قواذف متحركة»، على نحو منصة إطلاق مركّبة على شاحنة. وذلك لغرض تمكين مقاتلي هذا التنظيم من تنفيذ مهامهم، و«الإختفاء قبل أن توجّه إليهم النيران الجوية أو المدفعية»(459).

ج- إشغال أوسع مساحة جغرافية كي تتوضّع عليها قواعد الإطلاق

إنّ إشغال مساحة جغرافية واسعة ومترامية الأبعاد بقواعد إطلاق صاروخية تنتشر وتتوزّع في غير مكان وجهة، وعلى نحو يكون من العسير ضبطه وكشفه من قبل العدو؛ من شأنه أن يتسبّب باستنزاف هذا الأخير، واستنفاد قدراته وطاقاته، في عمليات بحث وتحرٍّ واستقصاء، وفي نشر وسائط رصد ومراقبة وتجميع معلومات استخبارية، لغرض تحديد أماكن توضّع المنصّات ووجهتها. كما من شأنه أن يوفر لهذه المنصّات الحماية؛ إذ يقلل من احتمال اكتشافها والكشف عنها، بنحو يتأدّى- استطراداً- إلى استطالة عمرها وبقائها، وإلى ازدياد مقدرتها على الديمومة والصمود والاستمرار.

د- التزوّد بعدد كبير من أنابيب الإطلاق

يتوسّل مبدأ الإكثار من التزوّد بأنابيب الإطلاق، ومضاعفة عديد القواعد المخصّصة لعملها واشتغالها، إنتاج نار منحنية المسار لزمن يتدحرج ويتمدّد ويطول. وهو يصدر من وعي عام بقدرات سلاح الجو التي يتوافر عليها العدو. مع الإلفات هنا، إلى أنّ الإكثار من أنابيب الإطلاق يفضي استتباعا إلى الإقلال من الوزن النوعي للقاعدة الواحدة، حيث أنّ تضخّم أعداد القواعد والمنصّات، يجعل القيمة الاعتبارية للواحدة منها أقلّ شأنية بالقياس لنشاط سائر نظام النار... ما يعني أنّ إقدام العدو على الإضرار بعدد من أنابيب الإطلاق؛ لا يؤثر بتاتاً في إيقاع إنتاج النار، كما في تعطيل حركية اندفاعة الصواريخ إلى عمق جبهته الداخلية.

وفي معرض مقاربة هذا الأمر، يذهب أمير كوليك إلى أنّ حزب الله تبنّى خلال مواجهته للحرب الإسرائيلية في صيف العام 2006، سياسة «إغراق المنطقة بصواريخ من ذات المديات القصيرة»(460)؛ حيث كان أنْ راكم في السنوات السابقة «احتياطياً من آلاف قاذفات الكاتيوشا»(461). وذلك لأجل خلق واقع «لن يضرّ معه تفجير قواذف محدودة او حتى عشرات القواذف على الاستمرار بمواصلة جهده الناري»(462). والحال، صير إلى «توزيع هذه القاذفات في القرى أو في المناطق المفتوحة»(463). ما مكّن «هذا التنظيم» والكلام لكوليك «من المحافظة على بقاء المنظومة، ومواصلة إيجاد نيران كثيفة داخل اسرائيل، بمتوسط بلغ أكثر من مئة صاروخ يومياً، طوال أيّام القتال»(464). فعلى الرغم من نجاح سلاح الجو الإسرائيلي في «تدمير 93 منصة صغيرة من منصات صواريخ حزب الله»(465)؛ فإنّ الأمر لم يحل دون استقرار معدل الإطلاق اليومي، بل إنّ مقاتلي الحزب أطلقوا في اليوم الأخير من الحرب «253 قذيفة صاروخية»(466).

كما إنّ هذا المنطق الذي وجّه حزب الله لإقامة منظومته الصاورخية القصيرة المدى- فضلاً عن نزوعه إلى إغراق الكيان الإسرائيلي بالمقذوفات والصواريخ- كان يهدف إلى إرغام سلاح الجو الإسرائيلي على العمل في عدد أكبر من القطاعات، وبالتالي التسبّب له بالإرهاق والإرباك والتشتيت لقدراته والاستنفاد لفاعليته... ما يفضي في نهاية الأمر إلى تعزّز صمود هذه المنظومة، وإلى استبقائها حيّة تفيض بالقدرة على آداء وظائفها في استنزاف الجبهة الداخلية الإسرائيلية على نحو مروّع ومتواصل ومستديم.

هـ- اصطناع منظومة دفاعية أرضية فاعلة

لا تستقيم منظومة النار المنحنية المسار بذاتها، ولا تؤتي أكلها على نحو موجب وفاعل، دون أن تصحبها منظومة دفاع أرضي توفر لها صنوف الحماية والسلامة والاحتضان، وتكفل بقاءها ووجودها واستمرارها بما تدرؤه عنها من مخاطر التدمير والإبادة والإعطاب، كما تؤمن لها حاضنة عمل، بنحو يدفع إلى الاعتقاد بتلازم المنظومتين وتماهيهما؛ إذ تكمل الأخيرة تصوّر الاستعمال المنحني المسار، بحيث يصحّ القول إنّ وجودها هو شرط موضوعي ومعياري لازم وحاسم لامتلاك القدرة على إحداث تهديد ناري جدّي وذي شأن- خلال مدّة مستطيلة ومستديمة من الزمن- لجبهة العدو الداخلية. ذلك أنّ هدف المنظومة الدفاعية الأرضية؛ هو منع جيش العدو من

التوغل والتقدّم بعيداً، وصدّ قواته عن المناورة، وفرملة اندفاعة جنوده، و«تأخير وإعاقة جهده البري»(467)، وإبطاء حركيته والمسّ بإرادته ووعيه(468)...، وسوى ذلك من تمثلات سيكولوجية وعملياتية تتسبّب بها الأنفاق، والاستحكامات، والملاجئ، والكمائن، والأشراك، ومناطق القتل، وحقول الألغام، والأسلحة المضادة للدروع... ما بالمقدور أن نقع عليه في منظومة حزب الله الدفاعية التي «أثبتت» وفقاً لغاي أفيعاد من دراسة له حول نتائج حرب لبنان الثانية «فعالية كبيرة في وقف تقدّم الهجوم الإسرائيلي في أرض المعركة»(469).

وفي سياق مقاربة اصطناع حزب الله لمنظومته الدفاعية والغاية المرجوّة من ذلك، يقول الباحث أمير كوليك، وفق ما أفصحت عنه نشرة التقدير الإستراتيجي الصادرة عن معهد أبحاث الأمن القومي التابع لجامعة تل أبيب في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2006: «أقيمت إلى الجنوب من نهر الليطاني» والكلام لكوليك «منظومة برية استندت إلى الأنفاق والتحصينات تحت الأرض، ومساحات لعبوّات ومجموعات مضادة للدروع، وهدفت إلى مواجهة القوات البرية بحجم محدود، وتأخير دخول بري وإيقاع خسائر كبيرة قدر الإمكان، وذلك بغية استنزاف قوات الجيش، وإبطاء تقدّمه، والتمكين من مواصلة إطلاق الصواريخ إلى داخل إسرائيل»(470).

والحال هذه، كانت الإستراتيجية الرئيسة التي أخذ بها حزب الله في الحرب، تقوم على تفعيل المنظومة البرية لديه، وعلى استخدام المقاتلين للحؤول دون وصول قوات الجيش الإسرائيلي إلى منصّات الإطلاق الصاروخي. وبالتالي الإضرار بهذه الأخيرة وإسكاتها وتدميرها، أو مضاءلة حممها ومقذوفاتها والتقليل من خطرها وتأثيرها على الداخل الإسرائيلي. ولما كانت فرضية المنع والصدّ والحؤول لا يمكن لها أن تستقيم على نحو كلي مطلق وتام، بسبب من تفوّق القوات البرية الإسرائيلية في العدد والعتاد والقدرة؛ كان الهدف الذي حكم العقل العسكري لحزب الله أن يقاوم «المدافعون أطول مدّة ممكنة تسمح بإدامة إطلاق الصواريخ، واستمرار القصف على الداخل الإسرائيلي، بهدف إيلامه إيلاماً إكراهياً، والتسبّب بإلحاق أذى متزايد لجمهرة المواطنين هناك»(471). فحزب الله لم يكن بمقدوره أبداً «المحافظة طويلاً على منظومة إطلاق الصواريخ التي(...) من المفترض أن تستخدم تدريجياً لمضاعفة الإيلام الإكراهي، في حال كانت الطريق مفتوحة إلى جنوب لبنان أمام الجيش الإسرائيلي»(472). ذلك أنّ اجتياحاً قصير الأمد «كان يمكن له أن يقوّض كامل قدرة حزب الله الصاروخية الأساسية، وينهي الحملة الإكراهية ضد المدن الإسرائيلية»(473).

وكان حزب الله في سبيل تفعيل منظومته الدفاعية؛ قد توسّل فكرة إبداعية خلاقة، قوامها: إطلاق «السرايا اللبنانية لمقاومة الاحتلال»(474). ما فتح الباب عريضاً، وشرّعه على نحو واسع أمام انضواء شرائح اجتماعية وأحزاب واتجاهات وتيارات ومذاهب وطوائف مختلفة ومتباينة، من صنوف مكوّنات النسيج المجتمعي اللبناني: من السنة والدروز والمسيحيين، فضلاً عن الشيعة من غير المؤمنين بإيديولوجيته، ومن غير مؤيديه التقليديين. كان لأسلوب التجنيد الذي أُخذ به كأداة واسعة لاستقطاب الشباب اللبنانيين، والحصول على تأييدهم، ودفعهم إلى الانخراط في أعمال التدريب والقتال، غير مكرمة كما كان له غير فضيلة وغير فائدة، من حيث أنّه أكسب حزب الله مكاسب عديدة غاية في الأهمية والإلحاح(475)؛ إذ جعل «هذه الشرائح السكانية المختلفة التي سيواجهها الجيش الإسرائيلي (...) قوّة احتياطية لم تكن سابقاً ضمن حساباته»(476). فضلاً عن

أنّه ضاعف من فرص الحزب «الهادفة إلى تعطيل أي مناورة برية يريد الجيش الإسرائيلي القيام بها في العمق اللبناني»(477).

إنّ نجاح نظرية حزب الله تلك، وصلاح مركباتها ومبادئها وعناصرها المكوّنة وآليات عملها واشتغالها؛ حثّ حزب الله على الانشغال في الأعوام التي تلت، بمبنى قوّته، كما بتعزيز قدراته الصاروخية «وصولاً إلى وضع يمكنه فيه» كما يقول اليكس فيشمان «أن ينفذ على مدى فترة طويلة ناراً من مئات المقذوفات الصاروخية والصواريخ في اليوم نحو وسط إسرائيل»(478). ولهذا عكف الحزب على تفعيل امتلاكه لصنوفها المختلفة، وانكبّ على استثمار جهوده وموارده للتسلح بكميات هائلة منها، بحيث أصبح يمتلك وفق التقديرات المختلفة أضعاف ما كان بحوزته من الصواريخ في الثاني عشر من شهر تموز/ يوليو من العام 2006، لحظة اندلاع شرارة الحرب الإسرائيلية على لبنان. «في هذه المرحلة» يقول وزير الدفاع الأميركي روبرت غيتس خلال لقائه نظيره الإسرائيلي إيهود باراك «لدى حزب الله قذائف وصواريخ تفوق ما لدى أغلبية الحكومات في العالم»(479).

مع لحاظ الاعتبار هنا، أنّ هذا التطوير الملحوظ في القدرات الصاروخية لم يقتصر بإطلاق على الكم فحسب(480)؛ بل تجاوز ذلك إلى النوع والمدى والقدرة التدميرية(481). ولأجل فهم هذه الأخيرة بلحاظ قوتها وفعاليتها وتأثيرها «ينبغي ضرب كلّ صاروخ أو مقذوفة صاروخية بـ(250) كلغ من المواد المتفجّرة»(482). ذلك أنّ «حزب الله» بعد حرب العام 2006، وفقاً لما ذهب إليه العميد الركن المتقاعد في الجيش اللبناني نزار عبد القادر، بعد وقوفه على التقديرات والمقاربات الإسرائيلية ذات الصلة «أعاد بناء قدراته العسكرية والصاروخية بقوّة تتعدّى ما كانت عليه الأوضاع السابقة بأضعاف المرات، مع زيادة كبيرة في مدى الصواريخ التي يمتلكها، وفي حجم رؤوسها المتفجرة، وفي قدرتها على إصابة أهدافها»(483).

وكانت صحيفة يديعوت أحرونوت في عددها الصادر يوم الثلاثاء في الرابع عشر من شهر حزيران/ يونيو من العام 2011، قد نقلت عن قائد الجبهة الداخلية الجنرال يائير جولن قوله أمام أعضاء لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست: «إنّ مدّة الحرب خلال أيّة مواجهة مقبلة ستكون طويلة أكثر، وعدد الصواريخ سيكون أكبر، وكذلك مداها سيكون كبيراً، وسيلاحظ تحسّن ودقة في إصابتها للأهداف» ... ما يصحّ معه القول: إنّه لم تعد ثمّة منطقة في الكيان الإسرائيلي الغاصب لفلسطين، لا تقع حالياً تحت سطوة تهديد صواريخ حزب الله. كما لم يعد ثمّة قطاع إنتاجي أو بنية تحتة أو منشأة مدنية أو عسكرية أو مرفق حيوي، ينأى بنفسه عن خطر التصويب والاستهداف والإضرار والتدمير: «على أيّ حال لم يركز الحزب على الكم فقط» يقول غاي أفيعاد «بل عمل بجهد كأحد دروس الحرب، على زيادة مدى هذه الصواريخ من أجل وضع غالبية الداخل الإسرائيلي تحت مرماها وتهديدها(...) فهو حصل كما يبدو على أنواع جديدة من الأسلحة لم يمتلكها من قبل»(484).

وبدوره أشار مراسل الشؤون العسكرية في صحيفة هآرتس عاموس هارئيل، في مقاربة نشرها العدد الصادر في الخامس من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2010، إلى هذه الحقيقة، حيث يقول: «لقد أصبحت المقاومة- أي حزب الله- مرتبطة بالتطوّرات التكنولوجية؛ إذ أصبح السلاح الدقيق في متناول يدها، ومثله القدرة على التحكم في رمايات واسعة النطاق، بحيث صار التهديد أكثر دقة ودماراً، وأبعد مدى ليطاول كلّ أنحاء إسرائيل».

قاد هذا الواقع من الانكشاف الإسرائيلي المرير أمام تهديد صواريخ حزب الله، وزير الدفاع إيهود باراك إلى الإقرار بما آلت إليه موازين القوى فـ«بعد مرور سنتين على حرب العام 2006» اعترف باراك «أنّ معظم سكان إسرائيل يقعون تحت التغطية الصاروخية لحزب الله». وذلك بسبب من امتلاك الأخير «لطرازات متطوّرة من صواريخ زلزال وفاتح 110 التي يبلغ مداها ما بين 250 و 300 كلم»، والتي بمقدورها أن «تحمل رأساً تفجيرياً زنته نصف طن»(485).

إنّ القيمة المضافة في موازين تثقيل هذا الصراخ الإسرائيلي المتعالي: إعلامياً وأمنياً وسياسياً(486)؛ تمثل وتكمن في وصفه لم يتأتَ من فراغ أو عدم، كما لم يتخلق دون مبرّرات أو منطلقات يصدر منها، ودون مرجعيات يتكئ عليها، بل إنّه تزامن وتساوق مع غير تقدير إستراتيجي وقف على طبيعة التطوّر الملحوظ نوعياً، في ترسانة حزب الله الصاروخية، كما مع غير تقرير متخصّص، على نحو التقرير الذي قدّمه رئيس وحدة الأبحاث في الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية (أمان) العميد يوسي بايدنس أمام لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست خلال اجتماعها في الرابع من شهر أيار/مايو من العام 2010، والذي أقرّ فيه بأنّ «حزب الله يقوم ببناء قدراته العسكرية إلى الجنوب من نهر الليطاني»، وأنّه بات يملك ترسانة صاروخية باليستية ذات وظيفة إستراتيجية، وذات مديات بعيدة، تعمل على الوقود الصلب، وبمقدورها ضرب العمق الإسرائيلي من عمق الأراضي اللبنانية. فضلاً عن تمتعها بدقة الإصابة وبقدرات هائلة على التدمير. ما يجعل «نموذج حزب الله 2006» على حدّ تعبير بايدنس «يختلف عن نموذج حزب الله 2010، من ناحية قدراتهم العسكرية المتطوّرة جداً».

ج- مفاجأة الصواريخ المضادة للدروع

ثم جاءت المفاجأة الثالثة للحرب كمثيلاتها صادمة ومذهلة وساحرة؛ سلاح المدرعات الإسرائيلي يُفتك به في مجازر جماعية مروّعة ومهولة(487). كان يُهتك كسرٍ، ويُنحر كنعاج وديعة خانعة، ويُذرّ به كرماد أمام أعاصير الصواريخ المضادة للدروع التي كانت بحوزة حزب الله، والتي تناسلت بدورها من عائلات مختلفة وسلالات متعدّدة، نحو: كورنيت (Kornet AT-14)(488)، ميلان (489) (Milan-3)، فاغوت (490) (Fagot)، سبايغوت (491) (Spigot At-4)، ميتيس-أم (Metis-M)(492)، سبندرال (493) (Spandrel At-5)، ساغر (Sagger AT-3)(494)، دراغون (495) (Dragon)، تاو (496) (Two BGM-71)، آر بي جي 29 (RPG-29)(497)... كانت الدبابات الإسرائيلية تُستدرج إلى مناطق قتلٍ، وإلى أفخاخ وشراك معدّة بعناية بالغة، ثم يُعمل بقسوة على إبادتها وتدميرها(498)، حيث بدا «النقص في استعداد جيش الدفاع الإسرائيلي للصواريخ المضادة للدروع، أحد أخطر أوجه القصور في هذه الحرب»(499) وفقاً لصحيفة يديعوت احرونوت في معرض تعليقها على مفاجأة الصواريخ المضادة للدروع التي أُسقطت من خلالها أسطورة الميركافا بأجيالها الأربعة. ما دفع بالحكومة الإسرائيلية إلى استعجال إرسال وفد عسكري رفيع المستوى إلى روسيا من أجل الوقوف على كيفية وصول هذه الأسلحة إلى حزب الله(500).

كان للصواريخ المضادة للدروع والدبابات- التي توافرعليها حزب الله كما ألمعنا، والتي قيل عنها، وفق ما أشار إليه غير مصدر عسكري إسرائيلي، إنها «الأكثر تطوّراً في العالم»، بعدما أظهرت الحرب على لبنان في صيف العام 2006، فاعليتها وتأثيرها وخطرها على نحو لم يظهر من قبل؛ القدرة على إحداث فجوة هائلة في إستراتيجية الحرب الإسرائيلية، من خلال تحييد سلاح الدبابات، وإفقاده السطوة والروح والمبادرة، وإخراجه ذليلاً من ساحة المعركة، على نحو ما تكشّفت عنه الوقائع الميدانية لفصول الحرب، وخلصت إليه غير دراسة متخصّصة: «لقد عانى الجيش الإسرائيلي» كما يقول محمد خواجة «من صواريخ الجيل الرابع المضادة للدروع، أمثال (كورنيت آي) وأخواته التي لوت إحدى ذراعيّ الحرب الإسرائيلية، المتمثلة بسلاح المدرعات»(501). فعلى الرغم من محدودية العمليات والمواجهات البرية التي توسّلها الإسرائيلي، إن كان بلحاظ فضائها الزمني أم باعتبار إطارها المكاني؛ تعرّض هذا السلاح لهزائم كارثية، ولحقت به خسائر بالغة وجسيمة «قاربت الـ(28 %) من حجم القوات المدرعة- 400 دبابة- المشاركة في الحرب»(502)... ما دفع بالمستويات القيادية في الجيش الإسرائيلي-مكرهين- لاسيما بعد المصائد القاتلة التي أُعدّت بعناية في الخيام ووادي الحجير، إلى اعتماد حلول بديلة تقوم على تقنين استخدام المدرعات، بل تقنين ظهورها، إلا في الحالات الضرورية الملحّة، والاستعاضة عنها برجال المشاة والإبرار الجوي.

الجدير بالإلفات وبنظر الاعتبار والاهتمام، أنّ الصواريخ المضادّة للدروع التي أثبتت فعاليتها وتأثيرها، وفرضت حضورها وسطوتها خلال الحرب؛ لم تكن مجهولة الهوية والكينونة والمصدر والقدرة، على نحو قد يصدم الوعي حين يُرى إليها وهي تتسيّد الميدان، أو قد يثير غير علامة إستفهام وسؤال حول ماهيتها وطبيعتها وكيفية تخلقها. كما لم تكن نادرة الوجود؛ إذ تتوافر

بضاعتها في غير سوق عالمي ومحلي، وتقع صنوفها المختلفة بحوزة غير دولة وجهة وطرف وجماعة. لكن قيمتها المضافة هنا، إنّما تمثلُ في وقوعها بقبضة مقاتلين «من طراز جديد ومختلف»(503) على حد تعبير الكاتب الإسرائيلي أوري بن يوسف، مصممين على القتال، ومتمرّسين باستعمالها على نحو يصل حدّ الإدهاش. فقد بالغ هؤلاء في اصطياد الدبابات الإسرائيلية، إذ استخدموا الصواريخ بكثافة ملحوظة وفق ما يُسمّى بـ«تكتيك السرب»، أي إطلاق أكثر من صاروخ على الدبابة الواحدة لضمان تدميرها على نحو مهين. كما بالغوا في كيفية قنصها حتى أنّ أحدهم، كما أشّرت وسجّلت وقائع الحرب، استطاع إدخــال القذيفة الصاروخية التي أطلق لهـا العنان في فوّهة مدفع الميركافا- 4، فظهرت الأخيرة أمام العدسات العالمية والمحلية، بمظهر بائس خفّت بريقها، وأساء إلى سمعتها العسكرية كواحدة من أهم الدبابات تجهيزاً، ومن أشدّها تدريعاً وتحصيناً.

والحال هذه، لم تتأتَ المفاجأة التي أعدّها حزب الله للإسرائيلي من طريق تكنولوجيا الصواريخ وحسب، إنْ بلحاظ نوعية الصاروخ وفعاليته، أم بلحاظ قدرته التدميرية العالية(504)، فقد كان- أي الإسرائيلي- يتوافر على معلومات استخبارية تفيد بإستحواذ حزب الله على صنوف شتى منها(505). بل تأتت المفاجأة أيضاً من مهارة وكفاءة وبراعة مقاتلي حزب الله، وقدرتهم على الاستهداف والتصويب، كأكثر المقاتلين باعاً وخبرة وتجربة ومرانا. ما أحدث ذهولاً في أوساط المؤسّسة العسكرية الإسرائيلية، وأثار رعباً قاتلاً في نفوس الجنود والضباط على حدّ سواء(506)، بعد أن تحوّلت الدبابات الأكثر تحصيناً وتدريعاً في العالم، والتي كانت إلى أمد قريب ملاذات آمنة للجنود، إلى توابيت متنقلة، وإلى مواكب جنائزية على درب الجحيم.

هكذا أخرجت الصواريخ المضادة للدروع سلاح البرّ الإسرائيلي من المعركة، فارتدّ صاغراً على عقبيه يجر خلفه أذيال الخيبة والخزي والعار والهزيمة. وذلك بعد أن تكبّد خسائر فادحة لم يكن بمقدوره حمل أكلافها وتبعاتها ونتائجها، فناله من الإهانة والهزء ما أصاب رديفه– قبلاً- سلاح البحرية. لتقتصر بذلك صولات الحرب وجولاتها إسرائيلياً على الذراع الجوية دون سواها. فقد بُترت للجيش الإسرائيلي سائر أذرعه(507)، على النحو الذي بدا فيه كسيحاً مقعداً، كمن أصابه شلل عقيم جعله عديم الفعالية والقوّة والتأثير.

د- مفاجأة القدرة على القيادة والتحكم والسيطرة

أمّا المفاجأة الرابعة التي تكشّفت عنها وقائع ومجريات الحرب؛ فكانت ماثلة في القدرة الفائقة لدى حزب الله على التحكم والسيطرة والضبط والقيادة(508)، بما يعكس مدى مأسسة هذا الحزب ونظاميته وجاهزيته وانضباطيته ومناقبيته العالية، كما يعكس هيكلة بنيوية متماسكة على نحو يحول دون الفوضى والتخبّط والتشظي: فبالاتكاء على هرمية تنظيمية صارمة وصلبة؛ كانت صناعة القرار يصار إليها داخل الإطار الناظم للحزب، حيث تخلق وتبلور وتصاغ. وفي هذا نرى إلى موقع الأمين العام يتوضّع على قمة الهرم. ويقف إلى جانبه المجلس الجهادي الذي هو كناية عن ما يمكن توصيفه بـ(هيئة الأركان العليا). وإلى الأسفل منهما تقع وحدات وتشكيلات منظمة، تتوزّع بدورها إلى أقسام وفروع ودوائر...، تمتدّ من القادة العسكريين الميدانيين إلى أصغر جندي- مقاتل في الحزب. ما يعني أنّ القرارات- على سبيل المثال- حين ينعقد أمرها وتُتخذ في أعلى مستويات سلم القيادة، وكذلك التوجيهات والتعليمات؛ فإنّها سرعان ما تجد طريقها جميعاً في مسارب منتظمة إلى الدوائر الدنيا من الوحدات الميدانية العاملة: «كانت هذه السلسلة القيادية» يقول فريدمان «تعمل من مواقع محدّدة، وتستخدم منظومات اتصال سريعة، بما في ذلك الأقلاس (الكابلات) الأرضية وأجهزة التشويش، وتصدر الأوامر، وتغيّر الخطط، وتحرّك وحدات النخبة مسافات طويلة، من المناطق الخلفية، لتعزيز المعركة من أجل حماية شبكات الاتصالات في القطاع الأوسط»(509). لقد ذهل الإسرائيلي وأصيب بمسّ حين أدرك- بالدليل الحسي القاطع- أنّ حزب الله يتقن فن إدارة الحرب بمهارة وحذق بالغين، وأنّه راكم في هذا الصدد من الخبرات والتجارب والقدرات ما لا يقاس، وأنّ تقنياته في إدارة الصراع كانت تعمل بحيوية لافتة تحت وابل من النيران والإغارات والقصف، وفي أوقات تصنف- عادة- ببالغة التعقيد والصعوبة، دون أن يعتورها خلل أو تعطيل، ودون أن يصيبها تعثر أو فشل أو عجز، ودون أن تدبّ الفوضى بين أوصالها.

وإذا حاولنا أن نقع على تعبيرات حيّة أو مصاديق لمثل هذه القدرة على التحكم والسيطرة والضبط، فيكفي أن نعرض لموضوعة الهدنة التي صير إلى التوصل إليها خلال الحرب على لبنان في تموز- آب من العام 2006، وفي اليومين الحادي والثلاثين من شهر تموز/ يوليو والأول من شهر آب/ أغسطس، أي بعد مرور عشرين يوماً على العدوان، والتي كانت تقضي بوقف إطلاق النار لمدة ثمان وأربعين ساعة، بهدف إيصال مساعدات إنسانية إلى المدنيين على ضفتي الصراع؛ فقد سُجّل لحزب الله- وهذا ما كان مدعاة إعجاب كلّ الأوساط المراقبة المحلية منها والدولية- قدرته العالية على ممارسة الضبط والسيطرة على قواعده ووحداته الميدانية العاملة، الأمر الذي أثمر التزاماً كاملاً وتامّاً بوقف إطلاق النار خلال المدّة المحدّدة دون أيّة خروق من جانبه، قبل أن تعاود صليات الصواريخ رقصاتها الصاخبة في عمق الكيان الإسرائيلي: «أمّا القيادة المركزية للصواريخ القصيرة والمتوسطة والطويلة المدى» يقول شموئيل بار من مقاربة ضمن فعاليات مؤتمر هرتزيليا الثامن «فقد دللت على وجودها ظروف الحرب التي دارت صيف العام 2006، عندما تمّ التوصل إلى وقف شامل لإطلاق النار لمدة 48 ساعة (لأسباب إنسانية)، حيث أوقف

حزب الله كل عمليات إطلاق الصواريخ دفعة واحدة، ثمّ عاد واستأنفها دفعة واحدة، بمعدل إطلاق بلغ 250 صاروخاً، بمجرد انتهاء مهلة وقف النار»(510).

كما يُسجّل لحزب الله، في هذا الصدد، قدرته على تنفيذ التزاماته التي قطعها- بدقة متناهية كانت بدورها مثار إعجاب وإدهاش- فقد واصلت منصّات الصواريخ خاصته إطلاق حممها، وبوتيرة أعلى من السابق، حتى الدقيقة الأخيرة من بدء الساعة التي حُدّدت لتكون ساعة صفرٍ توقف الأعمال الحربية، وفقاً لما جاء في نص القرار 1701 الصادر عن مجلس الأمن الدولي. ولكن مع دخول القرار أعلاه حيز التنفيذ ساد سكون مذهل: سكتت المدافع فجأة، وأحجمت الراجمات عن قذف حمولاتها وصلياتها، وعمّ صمت مطبق أرجاء ساحة القتال، على خلاف ما كانت عليه الحال قبل دقيقة واحدة ليس إلا. ما يؤشر إلى فعالية شبكات ووسائط التواصل والاتصال(511) بين القادة والمجموعات الميدانية، تلك التي كانت قد شكلت بدورها أدق الأسرار العسكرية وأخطرها بإطلاق(512).

المفارقة التي تستدعي قدراً من التوقف والتأمل، أنّ عمليات القصف الصاروخي لم تكن بإطلاق- كما قد يُخيل لبعض التبسيطيين– عشوائية، فوضوية، يصار إليها بطريقة وكيفية اعتباطية؛ كان حزب الله يقنّن عمليات القصف تلك، ويحدّد جرعات أعداد الصواريخ المطلوب إطلاقها يومياً، كما يحدّد مواصفات نوعيتها وفعاليتها وقدراتها التدميرية، ومواقيت الإطلاق، ومواقيت الصمت الصاروخي. فضلاً عن أنّه كان يتخيّر بدقة وبعناية بالغة أماكن انطلاقها، ومواضع سقوطها واستهدافاتها(513). والأدهى أنّ حزب الله- في هذا كله- كان بارعاً وخبيراً ومجرباً وذا باع وحيلة، وكان مناوراً ومراوغاً بإمتياز، بحيث بدا كمايسترو مقتدر يضبط إيقاعات فرقة موسيقية: كان يُحجم، ثم لا يلبث أن يكرّ ويندفع، كان يبطّئ عمليات القصف، ثم يعود إلى تسريع وتيرتها وتزخيمها وتنشيطها وفق ما ترتأيه القيادة، ويقتضيه الميدان، وتتطلبه التطوّرات الحاصلة(514)، ووفق ما يتناسب مع اللعب بأعصاب العدو حدّ الإنهاك، وحدّ كيّ الوعي، في توظيفٍ متقنٍ لحرب نفسية ولا أروع(515). فخلافاً للمفهوم الأولي الذي كان سائداً فيما يخصّ منظومة الحزب الصاروخية، بلحاظ عشوائية القصف من حيث التوقيت والمناطق الجغرافية المستهدفة، فضلاً عن أنّ الإطلاق كان يتمّ يدوياً؛ بدا «عمل هذه المنظومة» يقول غيئورا روم «منسقاً بإحكام أثناء الحرب، معدّا على النحو الذي يضمن إطلاق الصليات بالطريقة المعهودة لدى الجيوش النظامية»(516).

لكن كيف قيّض لحزب الله تفعيل منظومة القيادة والسيطرة لديه على هذا النحو، الذي أتاح له تقديم أنموذج فارق ومائز في فن إدارة الحرب، كما في التنسيق بين أذرعه ووحداته العاملة على الأرض، وفي التماسك والصمود في ظروف بالغة التعقيد، وأخيراً في تحييد واحدة من أضخم التكنولوجيات وأكثرها تطوراً على هذا الصعيد ؟.

سنكتفي في مقاربة هذا الأمر بتشفيف عوامل ثلاثة مساعدة، كان لها إلى جانب أخواتها فضيلة صناعة حزب الله لإنجاز نوعي، صدم الوعي العسكري العالمي، ووضعه على عتبة مرحلة جديدة في دنيا الحروب، حيث أبطل مقولات وأطروحات ونظريات ذات صلة، ورفع من شأن أخرى:

لا شكّ أنّ الحروب الحديثة والمعاصرة بمسمياتها المختلفة، لاسيما بعد القفزات الهائلة من التطوّر الملحوظ الذي طرأ على تكنولوجيا الاتصال ووسائطه، كما على تكنولوجيا التسلح والصناعات

العسكرية وفق ما أصطلح عليه بـ«الثورة في الشؤون العسكرية»؛ قد أخذت منحى آخر، وتوسّلت وجهة أخرى، وتوافرت على حمولات مفاهيمية جديدة، بحيث أنّ النظر إليها لم يعد بإطلاق، مقصوراً على أهدافها ووقائعها، وما قد تخلص إليه من نتائج عسكرية وسياسية، بل صير إلى إقحام الوجه المعلوماتي للحرب، ليغدو مكوّناً أصيلاً من مكوّناتها، وجزءاً حيوياً لا يمكن لمشهديتها العامة أن تكتمل بدونه[(517)]. وبالتالي أصبحت قواعد البيانات والمعلومات والبرمجيات والحاسبات وما شاكل ذلك، من أواليات إدارة الحرب، ومن ضروريات ولزوميات عملها واشتغالها، كما من أدواتها الفاعلة والمؤثرة. وذلك بوصفها الوقود اللازم لتشغيل أيّة بنية معلوماتية عسكرية أو غير عسكرية. فجلاء الأمر ووضوحه على هذا الصعيد، يعدّ بحق المقابل المعياري والموضوعي لغموض الحرب وضبابيتها، والمنظومات المعلوماتية بما تشتمل عليه من وسائط ونظم وأدوات وأسلحة ووسائل تكنولوجية، لا وزن لها ولا فعالية، بدون تغذيتها وشحنها على نحو دائم بالمستجدّ والمستحدث من المعلومات[(518)].

وبالعودة إلى المواجهة الساخنة بين إسرائيل وحزب الله في صيف العام 2006؛ نجد أنّها كانت ذات وجه معلوماتي بامتياز، على نحو يصح معه القول إنّها كانت اشتباكاً حادّاً وصداماً غير مسبوق بين طرفي النزاع والمواجهة: إسرائيل؛ توسّلت من جهتها إستراتيجية «التوظيف العسكري الكثيف لمنظومة معلوماتية ذات طابع هجومي»[(519)]، صير إلى العمل بموجبها في الفصول المختلفة للمعركة؛ وقد حوت بين طياتها وتضاعيفها ما توافرت عليه التكنولوجيا والميديا الأكثر تقدّماً وحداثة على صعيد المعلومات والاتصالات[(520)]. في حين توسّل حزب الله على حدّ تعبير جمال محمد غيطاس «منظومة معلوماتية دفاعية قائمة على التوظيف العسكري الكثيف لأدوات ومفاهيم أمن المعلومات بصورها التقليدية والحديثة، وبشكل تلاحمت فيه البساطة مع البراعة»[(521)]، بحيث تميّزت عقيدة (الحرب اللامتناظرة) لديه بخصائص فارقة؛ كالذي نقع عليه في «المستوى العالي من التنسيق التكتيّ، مع تخفيف البصمة (الظهور أمام العدو)، واعتماد اللامركزية على صعيد منظومة القيادة والسيطرة والاتصالات والحوسبة [C4] (استخدام وسيلة الاتصال المادي)»[(522)].

ففي مجال الحرب الإلكترونية- على سبيل المثال لا الحصر- شلّ «حزب الله تفوّق إسرائيل التكنولوجي بـ(البساطة)»[(523)] تقول أمل سعد، وأصابه بالإعطاب والعقم. وذلك عندما أقام لهذه الغاية «شبكات إتصالات سرية متقدّمة، بهدف تفعيل التنسيق الميداني بين مختلف وحداته القتالية وأذرعه الأمنية، وقيادات مناطقه المنتشرة»[(524)]، بحيث قُدّر له من خلال تفعيل الاعتماد على الخطوط الأرضية المصنوعة من الألياف البصرية كوسائط اتصالية، تحلّ بدلاً من الإشارات اللاسلكية الأكثر تطوّراً وتعقيداً؛ أن يحصّن هذه الشبكة من محاولات إسرائيل القيام بأعمال قرصنة، أو أعمال تشويش وتعطيل إلكتروني. ما كان له بالغ الأثر في توافر القدرة لدى الحزب على المناورة والمراوغة والتنصّل والإفلات من الرقابة والتنصّت، وأتاح له أن «يلتفّ على النظام الحربي الإلكتروني الذي تمتلكه إسرائيل وتتبجح به عاليا»[(525)]، وأن يحافظ- بالتالي- طوال مدّة الحرب «على منظومته، منظومة القيادة والسيطرة»[(526)].

وللغاية، تصدّر قائمة أولويات حزب الله، بلحاظ العبء المعلوماتي الذي أثقل كاهله، وشغل مدار اهتمامه، ليس جمع المعلومات ذات الصلة بالمؤسّسة العسكرية الإسرائيلية وفق طبيعة هجومية، بل كانت أولوياته تتركز على تبنّي إدارة فعّالة للمعلومات بنحو دفاعي من شأنه أن يكفل صدّاً

للهجمات العدوانية، ثم ممارسة ردّ الفعل عليها. ما يعني أنّ قطب الرحى الذي تمحورت حوله إستراتيجية الحزب المعلوماتية؛ كان يتمثل في إغراق العدو- وعلى نحو دائم- في حال من الفقر المعلوماتي المدقع، وفي حرمانه من الحصول ومن الاستحواذ على أيّة معلومات أو بيانات أو معطيات أولية من شأن تثميرها وتوظيفها أن يمنحه مزيداً من أسباب القوّة، وأن يساعده على تنظيم هجمات مؤثرة وفاعلة. ولترجمة ذلك إلى حقائق ووقائع ممنهجة؛ عكف حزب الله على إعداد برامج وخطط، وعلى تطوير سياسات، وفرض قيود وإجراءات، تكفل مجتمعة ضبط حركة المعلومات وتقنينها وإدارتها، للحؤول دون فوضى انفلاتها وتسرّبها؛ كأن تغدو ذات منعة واستعصاء، وتقوى على مقاومة، وعلى اعتراض التكتيكات والأساليب والأدوات التي يأخذ بها العدو في أعمال التعقب، والرصد، والمراقبة، والتنصّت، والنفوذ، والاختراق، والتجنيد، وجمع المعلومات... لكنّ الأخطر- وهنا مربط القصد- أنّ حزب الله استطاع بدهائه وذكائه وتيقظه، أن يحوّل ذلك كله إلى ثقافة وسلوك وممارسة، وإلى عقيدة أمنية راسخة ومتأصلة في وعي جميع كوادره وناشطيه وأنصاره ومحازبيه.

وفي سياق متصل، أفصح الباحث أنطوني جوردزمان عن مفاجآت تكنولوجية تكشّفت عنها حرب تموز- آب من العام 2006، حيث يقول في معرض مقاربته لحقيقة هذا الأمر إنّ خبراء أميركيين في الحرب الإلكترونية، قد زاروا إسرائيل مراراً للوقوف على الكيفية التي سمحت للأنظمة الإيرانية- التي كان حزب الله قد استحوذ عليها- بتحييد إجراءات الحرب الإلكترونية الإسرائيلية(527). وكيف أنّ هؤلاء اهتموا على نحو بالغ بمسائل عديدة منها فشل «أنظمة الحرب الإلكترونية الإسرائيلية في التشويش على اتصالات حزب الله»، وكذلك الحؤول دون تنصّت هذا الأخير على شبكات الاتصالات الإسرائيلية والهواتف النقالة بما في ذلك مكالمات الجنود في جنوب لبنان(528). وكيف تمكنت تجهيزات إيرانية من التشويش على نظام (برق) المضاد للصواريخ على متن البارجة الإسرائيلية (آحي حانيت) مما مكن الحزب من إصابتها»(529).

تأدّت إستراتيجية «إفقار العدو معلوماتياً» التي أخذ حزب الله بناصيتها، إلى إصابة أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية المختلفة بنوع من داء التصحّر على هذا الصعيد، وبتضاؤل ملحوظ في قدرتها على التزوّد بما هو ضروري من المعلومات؛ فقد عانت هذه الأجهزة- وفق ما أشّرت إليه الوقائع الميدانية في حرب تموز- آب من العام 2006 - ضموراً حادّاً ونقصاً بيّناً في المعلومات والبيانات والمعطيات اللازمة ذات الصلة بحزب الله: قدراته العسكرية والصاروخية، طبيعة عمله، انتشار قواته، خططه، عديد أفراده،... لكنّ المأزم الحقيقي الذي استبدّ بها، وأنهكها، وأفضى بالتالي إلى تضخّم مآزقها على نحو مفارق؛ إنّما تمثل في سلسلة التدابير والإجراءات والسياسات الوقائية التي كان يأخذ بها حزب الله في كلّ حراكه، والتي كانت كفيلة بتحويل المعلومات الضئيلة المجمّعة لدى الاستخبارات الإسرائيلية إلى قيمة منخفضة الأثر ومحدودة، وغير ذات جدوى. وكانت لجنة فينوغراد قد وقفت- في سياق بحثها عن أسباب الإخفاق في الحرب- على هذه الحقيقة التي أفسدت أولى مبادئ قيادة العمليات، تلك التي تفترض معرفة مسبقة بالبيئة العملياتية وبطبيعة العدو. كما ألحقت بها أضراراً بالغة بعد إصابتها بخلل فاضح تأدّى إلى إعطابها وتحييدها، حيث تقول في خلاصة التوصيات التي أقرتها: إنّ «قرار توجيه ضربة عسكرية مكثفة» والكلام لفينوغراد «لم يكن مستنداً إلى خطة شاملة ومعتمدة على الدراسة بعناية للخصائص المعقدة لساحة النزال اللبنانية».

لكن، ما كانت النتيجة العامة التي أفضت إليها المواجهة بين الإستراتيجتين؟. وما هي المآلات التي تناهت إليها؟. وهل نجح حزب الله في منع الإسرائيلي من تفكيك منظومة القيادة والسيطرة لديه، أو من التشويش عليها؟.

لقد تكشّف التصادم المحموم والحادّ خلال حرب تموز- آب من العام 2006، بين الإستراتيجية المعلوماتية التابعة لحزب الله ومثيلتها الإسرائيلية، عن تحييد الأخيرة، وشلّ قدراتها وكبح تأثيرها وفاعليتها، ليس بالتدمير والاستهداف المباشر، وإنّما بحرمانها- بنحو نسبي مرتفع- من أن تتغذى وتنمو على بيانات ومعلومات ومعطيات أولية مستقاة من ميدان المعركة قبل وإبّان نشوب الحرب، ما بمقدور أي مراقب أن يقع على تمثلاته وتجلياته في حالة الضياع والبلبلة والاضطراب التي كانت عليها تكنولوجيا المعلومات المعقدة لدى إسرائيل: قواعد البيانات، والصواريخ، والأسلحة الذكية، والقنابل الموجّهة، والحاسبات العملاقة، ونظم المعلومات القتالية في البر والبحر والجو... كانت جميعها متعثرة، متردّدة، جاهلة لا تعرف طبيعة خصمها وقدراته وأسباب قوّته وعناصر ضعفه. كما أنّها كانت مصابة بالعمى، لا تدرك طريقاً إلى الأهداف التي يؤدّي تدميرها والإضرار بها إلى تحقيق نصر عسكري إسرائيلي بيّن لا لبس فيه، ولا نقاش في هوية صاحبه.

وفي سياق متصل، نقع على عامل آخر مساعد من عوامل استقرار منظومة القيادة والسيطرة لدى حزب الله؛ وهو النسق الذي تبناه الحزب ناظماً لبنيته التي تهيكل عليها معماره، واستوى جسمه التنظيمي والجهادي، حيث استقام وفقاً «لهيكلية تستدمج كلّ مجالات الأنشطة التي يمارسها: العسكرية والسياسية والاجتماعية... ويجري اتخاذ القرارات على كلّ هذه الأصعدة بطريقة متكاملة»(530). كانت بنية الحزب من طبيعة «مركبة» وفقاً لغير دراسة ومقاربة بحثية ذات صلة « تقاوم بشكل تلقائي أيّة محاولات لتعطيل نظام القيادة والسيطرة من خلال الاعتماد على خلاياها التي تعمل بشكل مستقل عن المركز متى استدعت الحاجة»(531). ولهذا نرى إلى حزب الله، كيف أخذ- على خلاف الجيوش الكلاسيكية- بتكنيك الحركة المنظمة غير النظامية، من حيث انتشار قواته، وتوزّعها، وطبيعة حركتها، وأساليب القتال والمراوغة والمناورة لديها(532). فقد تبنّى- على سبيل المثال- ما يمكن تسميته اصطلاحاً بـ«خطة الخلد»، وهذه تتطلب قدراً كبيراً من الاستقلالية واللامركزية، وتعكف على نقل المعركة من فوق الأرض إلى باطنها، بعد أن يصار الى أعمال حفر وتجويف متقن، وإلى إعمال شبكات متصلة من الأنفاق والمحميات(533)، حيث تتحوّل من خلالها ساحات المواجهة، وعلى نحو بالغ التطوّر، إلى ما هو أدهى من أنفاق مترو ات لندن وباريس. واستطراداً، يكون بمقدور حزب الله أن يُبقي المبادرة طوع بنانه، وأن يحتفظ بعنصر المفاجأة في الحرب، وأن يوظف هذه الأخيرة لمصلحته، بعد انتزاعها من قبضة الجيش الإسرائيلي الذي يكون قد أصبح عاجزاً عن رؤية ما تحت الأرض، وعن ترصّد عناصر حزب الله في الميدان المستجدّ للمعركة.

وكانت غير دراسة عسكرية أميركية، قد قاربت موضوعة الأنفاق التي أبدعها حزب الله في جنوب لبنان(534)؛ حيث أشارت إلى أنّ هذا الأخير أنشأ- متأثراً بالفيتكونغ(535)- في وقت سابق على اندلاع شرارة الحرب الإسرائيلية على لبنان في الثاني عشر من شهر تموز/ يوليو من العام 2006، «بنية واسعة النطاق من التحصينات والعناصر اللوجستية(...) دعماً لقدرته على الصمود تحت الضربات الجوية الإسرائيلية»(536)، وتوفر له إمكانية مواصلة شنّ الهجمات. وكذلك إنشاء شبكة معقدة من المخابئ والأنفاق التي تتوافر على مداخل ومخارج متعدّدة، صير إلى

تمويهها تمويها بالغ الإحكام والدقة، كما صير إلى تحصينها على نحو جُعلت فيه قادرة على تحمل شتى صنوف القصف بالمدفعية الثقيلة، وبالقنابل الذكية المضادة للمخابئ. هذا فضلاً عن توافر خزائنها على كلّ ما يمكن أن يحتاجه المقاتل في حال نشوب حرب طويلة الأمد مع إسرائيل من مواد غذائية، ومواد طبية، وذخائر، وأسلحة. والأخطر أنّ ثمّة أنفاقاً جُهّزت- وعلى نحو إبداعي خلاق- براجمات صواريخ تعمل بنظام مفارق، إذ يصار إلى رفع وخفض منصة الإطلاق هيدرولوجياً. وكان الكاتبان أليستر كروك ومارك بيري قد قاربا وصفياً في دراسة مشتركة بعنوان (كيف هزم حزب الله إسرائيل) منظومة الأنفاق هذه، حيث يقولا: «حفرت مخابئ القيادة ومخابئ الذخائر في تلال لبنان الصخرية على عمق أربعين متراً تحت الأرض. ثمّة ما يقارب ستمائة مخبأ متفرّق للأسلحة والذخائر، وُزّعت إستراتيجياً في جنوب نهر الليطاني. وخُصّص لكلّ وحدة قتال ثلاثة مخابئ: للسلاح والذخائر والمؤن. واحد منها أصيل، والآخران احتياطيان في حال تعرّض الأول للتدمير والإبادة»(537).

وكذلك فعل المحلل العسكري الأميركي أنطوني جوردزمان، حين نقل عن الباحث آندرو إكسوم من معهد (واشنطن لسياسات الشرق الأدنى)، وصفه لنظام المخابئ الذي أعدّه حزب الله، حيث يقول من دراسة بعنوان (دروس الـ2006 لحرب إسرائيل حزب الله)، مسجّلاً انطباعاته حيال ما رأى: «رغم أنّ هذه المواقع قد نسفها الإسرائيليون قبل وصولي إلى جنوب لبنان في نوفمبر 2006» والكلام لإكسوم «إلا أنّ قطع الخرسانة الكبيرة دلت على نظام مخابئ معقد بُني في مدّة محدّدة. أحد المخابئ جنوب الناقورة قريباً من البحر ومن الحدود مع إسرائيل، كان سمك سقفه 18 بوصة من الخرسانة، وكان على بعد عشرين متراً فقط من أحد مواقع القوّة الدولية، ومئة متر من أحد المواقع الإسرائيلية»(538). ثمّ يورد جوردزمان تعليقاً طريفاً لأحد مراقبي القوّة الدولية، يعكس هول الصدمة التي أصيب بها هؤلاء، وذلك في معرض إجابة الأخير عن سؤال حول المخابئ والأنفاق المكتشفة: «لم نرهم يبنون شيئاً» يقول المراقب الدولي «لا بدّ أنّهم قد جلبوا الإسمنت بالملعقة»(539).

من جهتها، كشفت الوثيقة (08TELAVIV224) الصاردة عن السفارة الأميركية في تل أبيب، وقائع الاجتماع الذي عقدته لجنة (الحوار المشتركة بين إسرائيل والولايات المتحدة) في منتصف العام 2008، برئاسة- نائب وزيرة الخارجية الأميركية لشؤون الشرق الأدنى- جيفري فيلتمان، والذي كان قد أشار فيه رئيس مركز الأبحاث السياسية في وزارة الخارجية الإسرائيلية نمرود باركان، في معرض مقاربة التهديد الذي يمثله حزب الله، إلى ما أنجزه الأخير من تحضيرات واستعدادات لوجستية وتسلحية وقتالية لمواجهة أيّة حرب افتراضية مقبلة، حيث تحدّث عن توافر «معلومات جيدة جداً(...) تفيد أنّ حزب الله بنى مدناً تحت الأرض ضمن نطاق منطقة عمل اليونيفيل، بما في ذلك مراكز قيادة وسيطرة، وثكنات ومواقع إطلاق النار».

وفي السياق عينه، كشفت نشرة التقدير الإستراتيجي الصادرة عن معهد أبحاث الأمن القومي التابع لجامعة تل أبيب لشهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2006، عن إعداد مسبق ومتقن لبنى تحتية لوجستية وبرية، جهد إليها حزب الله لغرض إدارة حرب طويلة ومستديمة. وضمّت هذه البنى بين تضاعيفها ومنطوياتها «مستودعات وسائل قتالية كثيرة جنوبي الليطاني، وإلى جانبها أبنية تحت الأرض متفرّعة من التحصينات والمخابئ. وقد هدفت إلى المحافظة على صمود المقاتلين أمام الهجمات الجوية والمدفعية، وتمكينهم من العمل طيلة الوقت»(540).

كما كانت البنية التي أخذ بها حزب الله من طبيعة زئبقية متذبذبة، ليس بالمقدور التقاطها، أو احتواؤها، أو الإحاطة بها، أو القبض عليها. فضلاً عن كونها بنية مبعثرة ومتشظية، ومتمتعة بلامركزية، وباستقلالية عالية، وبقدر كبير من المرونة وحرية الحركة، وتدار من قبل القيادات الميدانية. ذلك أنّ «مبدأ وحدة القيادة والخطة والتنفيذ لا يعني المركزية المطلقة» كما يقول الإستراتيجيون العسكريون «وإنّما يعني جعل جماع العمل متماسكاً متناغماً موحّداً ولكن ضمن مرونة»[541]. والحال، ابتدع حزب الله أنموذجاً فريداً ومائزاً في القيادة والإدارة والتحكم، من شأنه أن يكفل ضمان استمرار نشاطه وحراكه واشتغاله في ظروف بالغة التعقيد والصعوبة، وفي أوضاع قتالية قد يُمنى فيها بخسائر ويصاب بانتكاسات، أو يصار فيها إلى استشهاد قيادات مؤثرة بين صفوفه. فعلى سبيل المثال، منحت منظومة القتال البري حرية عمل كبيرة، بسبب من توافر أفرادها وكوادرها على الكفاءة القتالية العالية، التي تجعل كلّ واحد منهم أشبه بقائد عسكري قادر على التكيف والتعامل مع المستجدات داخل المعركة. ما يعني أنّ هرمية الجناح العسكري لحزب الله، هي ليست إلا هرمية ديناميكية، قد تسمح لأصغر تفريعاتها وتقسيماتها ودوائرها، باتخاذ القرارات المناسبة في اللحظات الحاسمة، مهما كان حجم القرار ومقدار حساسيته وخطورته. كأن تفاجئ إحدى المجموعات القتالية قيادتها العليا بإقدامها على القيام بعمل ما، على غرار عملية الوعد الصادق في الثاني عشر من شهر تموز/ يوليو من العام 2006، إذا ما توافرت لذلك الظروف الموضوعية والميدانية المساعدة، وإذا ما كانت القيادة العليا قد منحتها- على نحو مسبق- جواز وحرية العمل، بحيث لا تكون المجموعة مضطرة للعودة إلى هيئات أعلى لاتخاذ القرار، وللحصول على ضوء أخضر بهذا الشأن.

وبنية الحزب أيضاً من طبيعة مسطحة نسبياً[542]؛ تتوزّعها شبكة قطاعات فاعلة تتداخل وتتخارج وتتفارق في آن معاً، وتعمل بنحو توزيعي- إستقلالي- شبه لامركزي، دونما حاجة ملحة إلى تحريك قوات أو نقل تموين أو تذخير[543]. ذلك أنّ هذه جميعها تنشر وتخزّن على نحو مسبق في الأماكن المخصّصة لاستعمالها، وفي المخابئ المعدّة لاحتضانها، كما في المحميات الطبيعية[544]. وبالتالي، فإنّها ليست ذات بؤر مركزية كتلك التي يوكل إليها عادة الإشراف على إدارة الحروب النظامية، والتي إن قدّر لها أن تدمّر من قبل العدو، فإنّها تستتبع- بالضرورة- شلّ الوحدات القتالية المرتبطة بها. أي أنّها ليست ذات نقطة ارتكاز وتموضع عملياتية- بنيوية، بالمقدور أن يقود التعرّض لها بالتدمير والإضرار إلى تقهقر وانهيار باقي منظومة الجسم- كامتداداته وأذرعه وأعضائه- من غير حاجة إلى تدميره بشكل منهجي مفصّل[545]. ما قد نقع على ترجمات له ومصاديق في الإخفاق الذي منيت به آلة الحرب الإسرائيلية في صيف العام 2006، على الرغم من توسلها لمنظومات قتالية ذكية ودقيقة، ومن توافرها على قوّة جوية وبرية وبحرية فاعلة. ذلك أنّ عقلها الأمني كان يتخيّل العدو على هيئة قطعة من البورسلان، لا يحتاج تفتيتها وتشتيتها وبعثرتها إلى غير ضربة إزميل واحدة كي تتطاير وتتوزّع أشلاء، وتتحوّل أجزاؤها إلى شظايا متناثرة. لكنّ تسييل هذا الاعتقاد عملانياً كان يقتضي فحسب، المسّ بأهداف موضعية: كاستهداف قيادات العدو، وتفكيك المنظومة القتالية لديه وشلها عن الحركة. إذ تقوم الفرضية القتالية لهذا المفهوم «على أساس أنّ قوات العدو تعمل في منظومة مركزية تراتبية ومنظمة، وهو ما كان غير صحيح بالنسبة لحزب الله في حالة حرب لبنان الثانية، فقد عمل حزب الله كمنظمة عصابات بالتسيير الذاتي، المنبسط والموزّع»[546]، حيث أنّ كلّ منظومة فيه، كما

يقول اليكس فيشمان «كانت مبنية بهدف تنفيذ إطلاق للصواريخ بشكل مستقل، حتى لو انقطعت عن كلّ النطاقات الأخرى»(547).

امّا العامل الثالث المساعد الذي يستأهل بدوره نشر إضاءة حوله وبيان عظيم مآتيه وفضائله؛ فهو وضوح المصطلحات والمهام والأهداف: تتكشّف فصول المعارك ووقائع المواجهات الدامية التي دارت رحاها في صيف العام 2006، عن أنّ حزب الله قد دخل حرباً تحضّر لها جيداً؛ كان واضح الرؤية، بيّن الهدف والغاية والوسيلة، مدركاً لخصوصية البيئة التي يعمل فيها ولظروفها، كما لعدوه بلحاظ أسباب قوّة الأخير وضعفه، ومتزوّداً بالأسلحة والعتاد الملائم لطبيعة هذا العدو ولطبيعة المواجهة أيضاً.

عكف حزب الله في السنوات السابقة للحرب على توقع كلّ سيناريواتها وبدائلها المحتملة، واستعدّ لأسوئها وأخطرها: أعدّ لذلك الخطط، وصاغ السياسات والأهداف والمفاهيم التشغيلية المتماسكة والواضحة(548)، ومارس تأهيلاً وتدريباً عسكرياً واسعاً لكوادره وعناصره وناشطيه، بالتلازم مع تثقيف عسكري واسع أيضاً، لأجل خلق ما يحلو لعالِم الاجتماع جانوبيتش أن يسمّيه بـ«الجنود المفكرين»(549) الذين تتوافر القدرة لديهم على بلورة «المفاهيم التشغيلية الأمثل إزاء التحدّيات والحالات الاضطرارية» وفقاً لتعبير الخبراء العسكريين. كما تتوافر القدرة لديهم- في المحكات الصعبة والمآزم الحرجة وفي الأزمات المستعصية- على اجتراح الحلول، وابتداع المخارج، وإيجاد العلاجات الملائمة لكلّ الأوضاع المستجدة، ولكلّ المشكلات والأمور الطارئة وغير المحسوبة. والحال هذه، كان المقاتل من حزب الله يدخل إلى ساحة القتال والمواجهة مشبعاً بالحافزية، وبالقدرة على الفعل والمبادرة، وغير محتاج إلى مرشد يأخذ بيده ويهديه سواء السبيل. كلّ شيء قد استوى أمامه وانفرج كأرض منبسطة لا نتوء فيها ولا تضاريس: لغة الحرب(550)، أهدافها، فنون خوض غمارها، المهام المنوطة به ... وذلك على خلاف الجندي الإسرائيلي(551) الذي دخل الى الحرب مثقلاً بأزمة معان ومصطلحات «تسللت إلى المستويات التنفيذية والتكتيكية(...) وكانت بلغة عالية، مجردة، ملتبسة، عديمة الغاية العملياتية (...) لاسيما تلك الخاضعة لتفسيرات بطرق مختلفة، وحتى متناقضة»(552).

يُسجّل لحزب الله في سياق المراجعات الدائمة والمطردة التي أجراها ويجريها لكلّ موضوعة الحرب الإسرائيلية على لبنان في صيف العام 2006، لغرض أخذ العبر منها والإفادة من مكاسبها، والوقوف على الأخطاء والثغرات التي تسبّبت بمشكلات، وحالت دونما صناعة مزيد من الفتوح على غير صعيد؛ أنّه لم ينم على مجد ما تحقق من إنجازات ولم يستسلم لخدر نشوة النصر، بل انكبّ منذ توقف الأعمال الحربية في الرابع عشر من شهر آب/ أغسطس من العام 2006، على بناء تصوّرات جديدة تلحظ تطوّراً عاماً على غير مستوى، وبخاصة ما يقيم منها علاقة بتكيكات «الإطلاق الصاروخي» حيث أعاد ترسيم خرائط توزّعها وتوضّعها واشتغالها، على نحو يصار فيه إلى تجاوز ما قد يكون الإسرائيلي قد تجاوز آثاره ومفاعيله نفسياً وميدانياً. وقد أشّرت غير دراسة أمنية وعسكرية إلى نية حزب الله في أيّة حرب مقبلة تنفيذ نار صاروخية منسقة نحو هدف واحد: «في الحرب التالية» يقول اليكس فيشمان «ستكون لحزب الله- إلى جانب الصليات المعروفة- إمكانية أن يطلق في آن واحد عشرات الصواريخ الدقيقة أيضاً، من عشرات النقاط الواقعة إلى الشمال والجنوب من نهر الليطاني، نحو هدف واحد محدّد ومنسق»(553)... ما يضع الإسرائيلي في موقف لا يُحسد عليه بإطلاق، ذلك أنّ «اعتراض وتدمير عشرات الصواريخ

المنفردة التي ستنطلق دفعة واحدة من أماكن مختلفة»(554)، هو بالضرورة أمر أعقد بما لا يقاس «من الردّ بالنار على منطقة كاملة يطلق منها وابل الصواريخ»(555).

لكن كيف يمكن لمشهدية الإطلاق الصاروخي المفترضة أن تنتظم وأن تستقيم على نحو وازن ؟.

يجيب أليكس فيشمان عن هذه الإشكالية في مقالة له نشرتها صحيفة يديعوت أحرونوت، في عددها الصادر في السادس عشر من شهر أيّار/ مايو من العام 2010 بالقول: إنّه «من أجل تنفيذ نار منسّقة نحو هدف واحد؛ ثمّة حاجة إلى منظومة قيادة وتحكم» أكثر تطوّراً وفعالية من تلك التي كانت بحوزة حزب الله في العام 2006. والحال هذه، نرى إلى حزب الله كيف انكبّ على تفعيل- وكجزء من عملية التطوير المنشودة- منظومة إتصالاته الأرضية على نحو يتيح لها العمل في أكثر الظروف تعقيداً وصعوبة(556). ما أثار مخاوف الإسرائيلي ومن خلفه الأميركي؛ فسارع الأخير إلى الطلب من الحكومة اللبنانية- آنذاك- برئاسة فؤاد السنيورة، أن تتبنّى مواقف عدائية من شبكة الاتصالات المذكورة، وأن تتخذ كلّ الإجراءات الكفيلة بوقف العمل بهذه الشبكة وتعطيلها، وإخراجها من الخدمة، وبالتالي تحييدها- على نحو مسبق- من دائرة الصراع. فكان القرار المشؤوم في الخامس من شهر أيّار/ مايو من العام 2008 (557)، واستطراداً كانت العملية الموضعية التي نفذها حزب الله بنجاح(558) في السابع من شهر آيّار/ مايو من العام نفسه حماية لاتصالاته.

هـ- مفاجأة المواجهات البرية

أمّا خامس مفاجآت حزب الله وفق ما تكشّفت عنه فصول الحرب، والتي كانت من طبيعة صادمة وخارج حدود التوقع؛ فكان في المواجهات البرية الحيّة التي خاض مقاتلو الحزب غمارها في قبالة الجيش الإسرائيلي، حيث أظهروا قدرات ومهارات قتالية عالية، واعتمدوا تكتيكات مرنة وغير مسبوقة، وأفادوا من تراكم التجارب والخبرات، وكانوا على قدر كبير من الحرفية والتمرّس والمران والكفاءة والاقتدار، وأقبلوا على حرب انتظروها طويلاً، واستعدّوا لها جيداً، ووفروا كلّ مستلزماتها من عتاد وسلاح وتدريب وإعداد وجاهزية، فضلاً عن بناء التحصينات والإنشاءات، وإقامة المحميات والاستحكامات وشبكات الأنفاق، واصطناع مناطق موتٍ وقتلٍ. هذا إلى جانب صدورهم من عقيدة قتالية تزاوج بين مدارس متعدّدة، وبين ضروب وفنون متنوّعة ونظريات مختلفة، بحيث يمكن القول إنّهم- في هذا المجال- قد أقاموا المداميك لمدرسة عسكرية من طبيعة جديدة ومفارقة(559)، وشرّعوا لخيار قتالي غير مسبوق لناحية مزاوجته بين خصائص المواجهات الكلاسيكية لجهة الاحتفاظ بالجغرافيا، والثبات في الأرض، والقتال في مواقع محضّرة مسبقاً، وبين أساليب حرب العصابات، على نحو أصبحت معه «تكتيكات حزب الله» وفقاً للجنرال الأميركي روبرت سيكلس «تمثل ثورة جديدة في المعارك»(560)... ما جعلنا بحق نقف أمام «جماعة من طراز مختلف» وفقاً لمقولة أوري بن يوسف، و«أمام مقاتلين» وفقاً لسامي كليب من مقاربة له بعنوان (الانتصار النفسي لحزب الله): «استندوا إلى دينهم، وإلى إيمانهم بأرضهم، وبأنّ معركتهم مصيرية، وجرى دعم الإيمان بتدريب عسكري وقدرات ومفهوم جديد من القتال عزّ طويلاً على معظم الجيوش والمنظمات العربية»(561).

الجدير بالإلفات وبالعناية هنا، أنّ ابتداع حزب الله نمطاً حربياً جديداً قوامه التوليف بين التقليدي وسواه من أنواع القتال غير التقليدي سواء على مستوى الإستراتيجيا أو على مستوى التكتيكات والتنظيم والأسلحة، لم يكن بأيّة حال من الأحوال محض انتقاء قادت إليه رغبة مرتجلة، كما لم يكن نتاج تخيّر عشوائي، أو نتاج إسقاط هجين- وعلى نحو اعتباطي- لبعض المفاهيم والمقولات والنظريات العسكرية؛ وإنّما كان وليداً شرعياً لمخاض طبيعي وموضوعي صاحب سيرورة نمو حزب الله تجربة وتخطيطاً وقدرات «لقد خضعت المقاومة» يقول السيد حسن نصر الله في معرض إشارته إلى هذا التحوّل في الأنموذج لعملية تطوير تألفت من مراحل ثلاث: بدءاً بـ«المقاومة المسلحة» التي حاربت إلى جانب حراك شعبي عفوي كبير، مروراً بـ«النهج المقاوم المسلح المنظم والمركز» الذي تناهى إلى مرحلة أخيرة، قادت بدورها إلى «مدرسة قتالية جديدة لم يسبق لها مثيل، تقع ما بين الجيش النظامي وحرب العصابات»(562).

فعلى الصعيد الإستراتيجي، بالمقدور ملاحظة كيف صير إلى تحويل قوات حزب الله من «حركة مقاومة إلى جيش مقاومة»(563) وفق ما يقول السيد نصر الله، أي من مجموعة كلاسيكية تولت خوض حرب عصابات تسبّبت في دفع إسرائيل إلى الانسحاب القسري والقهري من جنوب لبنان في شهر أيّار من العام 2000، بعد حرب استنزاف طويلة ودامية، إلى «قوّة قتالية شبه تقليدية» حالت دون تمكن القوات الإسرائيلية من إعادة احتلال الأرض في عدوان تموز- آب من العام 2006: «ألفت إلى الفارق الإستراتيجي» يقول السيد نصر الله موصّفاً ومعيّناً الفروق المعيارية

«بين مقاومة تقاتل جيشاً نظامياً يحتل الأرض، فتشنّ عليه عمليات من داخل الأرض في حرب عصابات استنزافية، وبين مقاومة تقف في وجه عدوان يريد أن يحتل الأرض فتمنعه من الاحتلال، وتلحق به الهزيمة (...) المقاومات تحرّر الأرض، ولكن مقاومات تمنع عدواناً على بلد فهذا أمر جديد»(564).

ما يعني أنّ المقاومة كمفهوم، قد شهدت تبدّلاً وتحوّلاً جوهرياً طاول منظومة مركباتها، وذلك بعد مراجعات عديدة أجراها حزب الله في أعقاب العام 2000، تاريخ الانسحاب الإسرائيلي، وأفضت إلى إعماله معاول التغيير في معمار عقيدته الحربية والقتالية، حيث صير إلى تحويلها من عقيدة قوامها العمل على تحرير الأرض إلى أخرى تجهد للحيلولة دون تمكين إسرائيل من مهاجمة لبنان، ومن الاعتداء عليه واستباحته، أي إنّ مفهوم المقاومة اغتنى واتسع- بما لا يقاس- ليحوي بين طياته سبل مواجهة أي عدوان، وصدّ أي اجتياح، وجبه أي توغل واختراق... وهكذا يكون حزب الله قد منح نفسه حق تولي مهمة الدفاع عن كامل أراضي الوطن وسيادته وموارده المائية والنفطية، وهي مهمة مقدسة تؤدّيها بنحو تقليدي جيوش الدول.

والحال هذه، تبنّى حزب الله تخطيطاً وتحضيراً متطورين ومائزين، ينهضان على الجمع والمزاوجة بين ما هو مألوف لدى الجيوش التقليدية، وبين عقائد حرب العصابات وتكتيكاتها: فمن ناحية أولى، عكف جاهداً على إعداد أعمال دفاعية يشيع وجودها ضمن التحضيرات التي يقوم بها جيش نظامي لغرض جبه وصدّ اجتياح ما، أكثر مما يشيع ضمن خطط حرب العصابات الهادفة الى الإعداد لهجوم، أو إلى الاستعداد لإحتواء الهجوم المضاد المتوقع؛ نحو ما صير إلى الكشف عنه خلال حرب (تموز- آب 2006)، من بناء لشبكات من الأنفاق والاستحكامات والغرف المحصّنة التي صُمّمت تصميماً هندسياً معقداً، والتي تمتدّ عميقاً تحت الأرض، كما منصّات الإطلاق الصاروخي المموّهة على نحو بالغ من التخفي والاستتار، ومواقع إطلاق النار المنيعة، ووسائل الاتصال التي بالمقدور الذود عنها وتوفير الحماية لها.. كلّ ذلك كوّن بنية عسكرية تحتية مذهلة، شيّدت من أجل هدف محدّد واضح قوامه الحفاظ على حملة دفاع مستدامة. وهو من ناحية ثانية أبقى على منظومة حرب العصابات كإستراتيجية قتالية حاكمة وفاعلة ونشطة، لاسيما منها ما يوفر قدرة أكبر على المناورة والحيلة والحركة. ما يعني استطراداً، أنّ حزب الله اعتمد تنظيماً(565) وتكتيكات وأسلحة تقليدية وغير تقليدية(566) في آن معاً ضمن الحدود التي تفرضها طبيعة النزاع غير المتماثلة، وبما يتفارق مع إستراتيجية التحرير التي كانت موضع اعتمادٍ سابق، والتي قامت على تكتيكات حرب العصابات المعيارية المصمّمة لإنهاك عدو على امتدادٍ متطاولٍ من الزمن. وما يعني أيضاً، أنّ الحزب كان بمقدوره أن يستخدم جزئياً الوسائل والأساليب التي تأخذ بها الجيوش التقليدية في تطبيقاتها للإستراتيجية الدفاعية، وأن يعتمد- في الوقت عينه- على وسائل غير تقليدية، صُمّمت أساساً من أجل حرب استنزاف ضد قوات غازية على نمط حرب العصابات.

وبالعودة إلى مفاجأة حزب الله في المواجهات البرية؛ فإنّها تقع بلحاظ خطرها وأهميتها وإلحاحها، في صدارة قائمة المفاجآت التي شفّ عنها غبار الحرب، وانجلت عنها الوقائع والصولات التي أفضت إليها. فعندما «بدأت المعركة البرية» يقول غيئورا روم «دارت أحداثها وفقاً للقواعد التي أملاها حزب الله»(567). وأثناء التقدّم البري- طبق ما كان الخبراء العسكريون قد أجمعوا عليه- حدثت أكبر المفاجآت بإطلاق، بل أكثرها أهمية وأشدّها تأثيراً، بلحاظ ما يمكن أن تنطوي عليه من

مفاعيل ونتائج على الصعيد الإستراتيجي. وذلك بعد أن «هوت حرب (تموز- آب من العام 2006) بالصنم التنكولوجي عمليا»(568)، ووضعت سدنته و«عبدته في مأزق نظري»(569)؛ إذ لم يتمكن القصف الجوي- بالنحو الذي توسّلته «الثورة في الشؤون العسكرية R.M.A»(570)، كما بالنحو الذي نادت به نظرية المؤثرات(571)، ونظرية القتال بعد البطولي(572)، ومقولة الحروب النظيفة(573)- على ضراوته ووحشيته وعنفه، من كسر واستلاب إرادة مقاتلي حزب الله، والدفع بهم إلى الانهزام النفسي، وتحويلهم إلى طرائد سهلة المنال، وإلى شراذم تائهة طيعة للاستسلام أو القتل(574). ما أصاب منظومة المركبات التي استوت عليها الإستراتيجية الإسرائيلية الجديدة في مقتل؛ حيث أعيد مجدّداً الاعتبار والتقدير للمقاتل الفرد، وعادت الحرب لتصبح معركة مواجهة بين البشر، وبالتالي عادت للظهور على نحو فاعل عناصر الإيمان، وعدالة القضية، والقوّة الأخلاقية، والشجاعة، والحيلة، والمناورة، وإرادة القتال...، بعد أن ساد الاعتقاد طويلاً بتحييدها كنتيجة للمبالغة والإفراط في اتكاء النظريات المعاصرة على التكنولوجية العسكرية، «بالنسبة لي» يقول آندرو إكسوم الباحث في معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى «كان عناد حزب الله في القرى أكبر مفاجآت الحرب»(575)، وأشدّها هولاً على الوعي الإسرائيلي الجمعي بعامة، كما على الجيش الإسرائيلي الذي ما لبث أن وجد نفسه وجهاً لوجه، أمام «قوّة مرعبة»(576) تتبنّى تكتيك حرب العصابات وفقاً لمقولة الواشنطن بوست، والذي أدرك باكراً- فور شروعه بتنفيذ سلسلة من التوغلات والاختراقات البرية عند الحدود مع لبنان، في السابع عشر من شهر تموز/ يوليو من العام 2006 - أنّ «خصومه من حزب الله كانوا متخندقين وقادرين على الدفاع»(577) ومستعدّين تمام «الاستعداد لمثل هذه المواجهات»(578) والمنازالات، وأنّ موقعة مارون الراس الأسطورية، لم تكن في الواقع إلا «علامة على ما سيواجهه الإسرائيليون في جنوب لبنان»(579) الذي صير إلى تحويله إلى مصائد قتل وموت. والحال، كان أداء «وحدات القرى استثنائيا»(580) كما يحلو لأنطوني جوردزمان أن يقول في توصيف الأمر. وكان هدفها «إبطاء تقدم الجيش الإسرائيلي واستنزافه»(581)، على نحو جعل الإسرائيليين يتكبّدون- بشرياً ومادياً ومعنوياً- خسائر فادحة، وبالتالي «يدفعون ثمن كلّ بوصة يسيطرون عليها»(582).

وفي سياق متصل، توقف محللون عسكريون إستراتيجيون في غير دراسة ومقاربة وبحث- لدى معاينتهم للوقائع الميدانية، وما تمخض عنها من نتائج وحصائل- عند استثمار حزب الله الفاعل لموارده البشرية(583)، على نحو أعاد الاعتبار لقدرات المقاتل الفرد ولدوره الوازن في المعركة، بعد أن كانت نظريات الحرب الحديثة أو ما يسمّى بـ«الثورة في الشؤون العسكرية»، المتكئة على التكنولوجيا، وعلى منظومات التفعيل المفرط للقوّة، قد غيبته، وأناطت به وظائف ثانوية وفرعية لا تستقيم مع ما يمكن أن يضطلع به على غير صعيد. وهكذا صير إلى اعتبار «القدرة القتالية لحزب الله من أهم المفاجآت التي اكتشفها الإسرائيلي في لبنان»(584) خلال حربه في تموز- آب من العام 2006، وأعيد النقاش مجدّدا حول دور الأخصام من الكيانات غير الدول في التخطيط الدفاعي، وقدّمت حملة حزب الله العسكرية بوصفها مدخلاً إلى «نمط العمل الحربي الذي يكتسب موقعية مركزية ذات أهمية متزايدة بالنسبة إلى التخطيط الدفاعي في الولايات المتحدة»(585)، بعدما كانت قد ألحّت على العقل العسكري الأميركي والغربي بعامة، لإعادة نظر في المباني التي استوت عليها علومه العسكرية، وحثته على إجراء مراجعات لنظرياته ومفاهيمه ومقولاته التي لطالما استغرقه التنظير لها باعتبارها صفوة خلاصات تجاربه الغنية في

هذا المضمار، كما باعتبارها نتائج حتمية هي أقرب إلى قوانين حاكمة، أو أقرب إلى بداهات لا تطالها مغالطة، أو ينال منها شكّ. ذلك أنّ «التفوّق النوعي والكمّي في العدّة والعتاد العسكري وكفاءة المقاتل الإسرائيلي»، كما تكنولوجيا السلاح المعقدة، وما شاكل من منظومات اقتدار ومفاخر كان يصار- دوماً- إلى الاعتداد بها؛ قد أحيلت جميعها «إلى فشل وعطب وبكاء، بعد أن عرفوا على أيدي حزب الله كيف تكون الحرب»(586).

إنّ ما قدّمه مقاتلو حزب الله في ساحة المعركة(587)- خلال المواجهات البرية مع الجندي الإسرائيلي المدجّج بالأساطير، وبأحدث الترسانات والتكنولوجيات- من ملاحم بطولية، ومن صور ومشهديات بانورامية مؤثرة، وما اصطنعوه من فتوح، وحققوه من إنجازات وانتصارات أسطورية، وما أظهروه من بسالة، وشجاعة، وبأس، وذكاء، وتخطيط، وحيلة، وحسن تدبرٍ، وقدرة على المناورة والتحمّل في بيئة قاسية، وفي ظروف بالغة الصعوبة والتعقيد، وضمن ميزانٍ للقوّة مختل- على نحو حادّ- كمّياً وعددياً لمصلحة العدو؛ كسر «فعليا الحاجز النفسي» كما يقول سامي كليب «وهذا هو الانتصار الأهم»(588)، وصدم الوعي الإسرائيلي، وأرهقه، وخلخل نمطية الصورة التي ترسّبت طويلاً في طبقات هذا الوعي ومحمولاته عن المقاتل العربي، بوصفه مقاتلاً ضعيفاً، خاملاً، عديم الحيلة والقوّة والذكاء، منهزماً داخلياً، لا يقوى على صناعة أي نصر، أو إحراز أي فوز وكسب: «أجرؤ على القول استناداً إلى ما شهدناه حتى الآن» يقول يوسي ألفر، المسؤول السابق في جهاز الموساد الإسرائيلي، والرئيس السابق لمعهد جافي للدراسات الإستراتيجية في جامعة تل أبيب، من مقابلة مع صحيفة الواشنطن بوست الأميركية «إنّ حزب الله قد يكون أفضل قوّة مسلحة عربية واجهناها في تاريخنا»(589).

وليس بعيداً من يوسي ألفر ما كان مراسل صحيفة هآرتس عاموس هرئيل، قد خلص إليه في معرض مقاربته لنتائج الحرب على لبنان، حيث يقول بدوره إنّه «لا يملك جيش كبير ونظامي مثل الجيش الإسرائيلي أيّة أفضلية أو تفوّق أمام مقاتلي حزب الله»(590).

والحال هذه، نرى إلى الإسرائيلي كيف نزع في تعليل عجزه، وفي تبرير فشله وإخفاقه، على استبعاد العنصر العربي، كي لا تصاب الصورة المنمّطة لهذا الأخير- وفق ما حفظته الذاكرة الإسرائيلية- بالإختلال والتبدّل، وكيف ألحّ على القول همساً وإفصاحاً بأنه كان- ليس في قبالة فصيل قتالي محارب يمثله حزب الله- بل في مواجهة لواء إيراني متخصّص من قوات النخبة المدربة جيداً على أحدث تكتيكات الحروب وفنون القتال.

الجدير بنظر الاعتبار والاهتمام، أنّ الحرب غير المتماثلة التي خاضها مقاتلو حزب الله في تموز- آب من العام 2006، وإن كان لها من المشتركات والجوامع ما لا يعدّ ويحصى، مع أنموذج حرب العصابات بمفهومها التقليدي(591)، إلا أنّها اختلفت وتفارقت عن هذه الأخيرة في مواطن وخصائص كثيرة، يضيق المقام عن ذكرها هنا، فضلاً عن تعدادها وحصرها. ولذا سنكتفي بنشر إضاءات كاشفة حول بعض ما كان منها له دخالة بمقاربة أطروحة المفاجأة التي تفتقت عنها إبداعات مقاتلي حزب الله:

اولاً- طول مدّة الإشتباكات والتشبث بالمواقع

تصدر حروب العصابات بمعناها التقليدي من اعتقاد مفهومي قوامه: إنّ احتلال المواقع أو الدفاع عنها، والتشبث بها، والاستبسال في سبيل الإبقاء عليها؛ ليس هو الهدف المنشود الذي تستثمر في سبيله الطاقات والقدرات والموارد، وإنّما يتمثل هدفها الرئيس في العمل على استنزاف العدو، ومشاغلته، وإضعافه، وإرهاقه، والحيلولة دون إفادته من الفرص المتاحة أمامه، فضلاً عن إحاطته ببيئة من التهديدات المتواصلة التي تتناسل على نحو لا ينقطع. والحال، لا يتردد مقاتلو حرب العصابات في التخلي عن مساحات واسعة من الأرض، وفي الانتقال دوماً من مكان إلى مكان سعياً وراء قوات العدو، أو طلباً لاستدراجها إلى مناطق قتل واشتباك، على أنّ ذلك كله ينبغي أن يكون مشروطاً ومقروناً بامتلاك زمام المبادأة والمفاجأة وخفة الحركة، بكلّ ما تنطوي عليه هذه الأخيرة من مقاصد وحمولات ذات دخالة بمفهومي السرعة والتوقيت. ما يعني أنّ المدّة الزمنية التي يستغرقها الاشتباك ينبغي أن تكون كثيفة النشاط بالغة القصر بسبب من اختلال حادّ في موازين القوّة لمصلحة العدو.

لكنّ هذا لم نكن لنقع على ترجماته في تكتيكات وأساليب حزب الله القتالية خلال حرب العام 2006؛ إذ تخلّق نوع قتالي مفارق فيه يتشبث المقاتلون بمواقعهم حدّ الاستماتة والاستشهاد، ويشتبكون مع قوات النخبة في الجيش الإسرائيلي (اشتباكات حاسمة)(592)، ولمدد زمنية تتطاول وتتدحرج لتصبح معارك وجولات من الصراع. فإذا كانت المقاربة العصابية تستدعي توظيف القوّة البرية وتفعيل قدراتها على نحو (إكراهي)، بحيث يكون دورها (التسبّب بالألم) من خلال إيقاع الخسائر البشرية في صفوف القوات الغازية، بدل مقارعتها للحيلولة دون تمكينها، ودون سيطرتها على الأرض؛ فإنّ حزب الله- ولا شكّ في ذلك- رحب بالمكاسب الإكراهية المترتبة على قتل الجنود الإسرائيليين؛ إلا أنّ سلوكه الملحوظ، وهنا وجه المفارقة، لم يكن لينسجم بإطلاق «مع الاستنتاج القائل بأنّ تلك المهمة الرئيسة لقواته البرية»(593). ذلك أنّ التكتيكات التي توسّلها واستخدمها «كانت أكثر إنسجاماً مع فرضية أنّه كان ينوي التمسّك بالأرض، منها مع الفرضية القائلة بأنّ السيطرة الترابية لم تكن مهمة، وأنّ هدف الحزب كان هدفاً عصابياً كلاسيكياً يتمثل في الاستنزاف حصراً»(594).

لقد اعتمد حزب الله، وفقاً لأمل سعد «تكتيكات تستخدمها عادة الجيوش التقليدية»(595)، بنحو يتناقض مع العمليات التي تقوم بها العصابات مستخدمة معادلة (الضرب والهرب)، ولعله «لم يكن أقلّ دربة من بعض الجيوش الأوروبية في القرن العشرين لجهة التمسّك بالأرض (مقارنة- على سبيل المثال- بفرنسا عام 1940، وإيطاليا عام 1941)»(596). ما يضعه بلحاظ أدائه وسلوكه في تموز- آب من العام 2006 «ضمن مجموعة تشمل العديد من الجيوش النظامية التي خاضت حروباً بين الدول»(597)؛ إذ خاض مقاتلوه «حرب مواقع: صمدوا في مواقعهم فترات طويلة، ورفضوا تسليم الأرض لقوات إسرائيل المتقدمة»(598). وقد سُجّل في هذا الصدد مشهديات ملحمية تمثلت في المواجهات الكلاسيكية التي جرت بين الجيش الإسرائيلي ومقاتلي حزب الله في بلدات مارون الراس(599)، وبنت جبيل، وعيتا الشعب، والغندورية، وعيثرون، وعيناثا، وبيت ياحون، ودير سريان، والطيبة، ومركبا، والقنطرة ...، وسواها من المواجهات البطولية: ففي موقع جبل الباط(600) المتاخم للحدود مع فلسطين المحتلة، والذي يقع في الطريق إلى بلدة مارون الراس؛ خاض مقاتلو حزب الله- رغم الفروق الحادّة في العدد والعتاد لغير مصلحتهم- معركة مع الدبابات والمشاة الإسرائيليين لنحو يزيد على اثنتي عشرة ساعة. وبكيفية مماثلة، كان الأمر في

مدينة بنت جبيل(601)، إذ خيضت معارك عديدة لمدّة أربعة أيّام، على نحو من التوالي والتواصل، بينها معارك استمرّت قرابة الثماني ساعات. أمّا القتال في بلدة الغندورية(602)؛ فقد استدام بدوره يومين متتاليين، تخللتهما مواجهات ومعارك، كانت الواحدة منها تستغرق زهاء السبع ساعات... وهذه ليست إلا عيّنات للاستدلال، حيث أنّ قائمة الشواهد والوقائع تطول على نحو يضيق معه المقام عن التعداد والذكر.

ثانياً ـ القتال عن قرب

لم يكن مقاتلو حزب الله في كثير من المواجهات وجولات الصراع والمنازلة، يعتمدون أساليب وتكتيات استهداف العدو عن بعد، وفق ما يصار إليه عادة في حروب العصابات، بل إنّهم ألحّوا- وهذه خصيصة فارقة لطالما اتسم بها أسلوب القتال لديهم– على السماح لقوات النخبة في الجيش الإسرائيلي بالاقتراب جداً من أماكن تموضعهم وانتشارهم، قبل أن يُعملوا أسلحتهم في الرؤوس والصدور، ويطلقون لنيران رصاصهم العنان، ويخوضون التحامات ومواجهات مباشرة، كالنحو الذي نقع عليه في بلدة مارون الراس أو في مدينة بنت جبيل، حيث تشبث حزب الله بمواقعه، وأتاح للاسرائيلي التوغل والاقتراب إلى مسافات متفاوتة تتراوح بين الـ 10 و100 متر، دون أن يقدم على فضّ الاشتباك أو الانسحاب والتراجع؛ فقد صير إلى ترك الدبابات الإسرائيلية تمرّ إلى الأسفل من الشرفات والنوافذ التي كان مقاتلو الحزب قد شغلوها واتخذوا منها مواضع قتالية، ليصار بعدها إلى إمطارها نارا من مسافة قد لا تتجاوز حدود العشرين متراً في أفضل تقدير. وعلى نحو مماثل سارت الأمور في بلدة الغندورية؛ فبعد يوم من احتدام المعارك واستعار لهبها، ومن القتال الصعب والمضني الذي خيض ندياً ووجها لوجه، لم يتمكن الإسرائيلي من التقدّم إلى ما لا يتجاوز الـ 600 متر، وفق ما تكشّفت عنه الوقائع الميدانية(603).

ثالثاً- الهجمات المضادة

لم يكتف مقاتلو حزب الله بالاشتباك والمواجهة والصمود، والتشبث بالمواقع، وتسجيل الملاحم على هذا الصعيد؛ بل كانوا كثيراً ما يبادرون إلى شنّ الإغارات، وتنظيم الهجمات المضادة لإخراج الجنود الإسرائيليين من المواقع التي كانوا قد أقدموا على احتلالها خلال جولات الصراع: فقد شنّت مجموعة قتالية قوامها خمسة عشر عنصراً هجوماً مضاداً استهدف جنوداً إسرائيليين، بعد إحكام هؤلاء السيطرة على بيوت تقع على إحدى تلال بلدة مارون الراس. وكذلك فعل قرابة أربعين مقاتلاً مزوّدين بالأسلحة الصاروخية المضادة للدروع كما بقذائف الهاون، عندما اقتحموا مواقع تموضع الجيش الإسرائيلي على أطراف مدينة بنت جبيل. وفي بلدة محيبيب أيضاً، نظمت مجموعات صغيرة لا يتجاوز عديد أفراد الواحدة منها أربعة مقاتلين(604)، الهجمات التي استهدفت- من غير جهة ومكان- المواقع الإسرائيلية المستحدثة. وكذلك الأمر في بلدة الغندورية، حيث هاجمت مجموعات صغيرة مماثلة مواقع أقام فيها الإسرائيليون نقاط تموضعهم.

رابعاً ـ القيادة والسيطرة

لقد أدار حزب الله الحرب على نحو بالغ الإلفات، ولعلّ أبرز الوجوه الفارقة على هذا الصعيد، كان مستوى القيادة والتحكم والسيطرة الذي أبداه، والذي صير إلى ممارسته على الوحدات العاملة، لاسيما في مناطق القتال الرئيسة والساخنة. حيث كان بمقدور القيادة العليا ضبط كلّ إيقاعات فصول الحرب ومجرياتها ووقائعها حتى في اللحظات الأكثر حراجة، والأشدّ خطورة وإلحاحا. وذلك بفعل توفرها على الوسائط والوسائل والمراكز ذات الصلة، نحو: الكابلات الأرضية، أجهزة اللاسلكي المشفرة، أجهزة التشويش والتنصّت، أجهزة البثّ والاتصال المحوسبة...

خامساً ـ حسن تخيّر وإنتقاء المواقع وحسن تمويهها

لقد أجاد حزب الله تخيّر مواقعه، وأبدع رسم خارطة توزّعها وإنتشارها، فضلا عن العناية البالغة بحسن تمويهها وأساليب تزييفها. وذلك كي لا تفصح عن هويتها وحقيقتها، ولا تتبدّى أمام أعين المترصدين، ولا تكون سهلة المنال لصائديها، وأخيرا كي تقوم بالوظائف، وتؤدّي المهام التي أنيطت بها على أكمل وجه. فالوقائع الميدانية خلال حرب تموز- آب من العام 2006، لم تتكشّف عن أنّ الإسرائيلي إستطاع التنبؤ بمواقع حزب الله، أو أنّه إستطاع إكتشافها والكشف عنها حتى من مسافات قصيرة، قبل أن يصار إلى إستهدافه وإطلاق النار عليه منها. ويذكر أنّ الانضباط الناري الذي كان عليه مقاتلو الحزب، والذي اتسم دوما بالقوّة والثبات، كان له- من بين عوامل كثيرة مؤسّسة- فضيلة الحفاظ على سرية هذه المواقع بعيدا من أعين الإسرائيليين؛ فالمعارك كانت تبدأ عادة بمبادرة من مقاتلي الحزب، ولم يحدث قط أن كشف هؤلاء عن مواقعهم عبر عراضات عنترية للقوّة لا تسمنُ ولا تغني، أو عبر إطلاق نار قبل الأوان بسبب من إنفعال أو توتر عصبي أو ما شاكل ذلك.

الجدير بنظر الاعتبار، أنّ حزب الله لم يتخلّ عن الأخذ بإستراتيجية المفاجآت طيلة زمن الحرب، بل هي شكلت بين مركبات نظريته الأمنية والعسكرية قطب الرحى، وبين تقنيات إدارته للحرب نقطة الارتكاز والتموضع «في حرب تموز- يوليو 2006» يقول السيد حسن نصر الله في مقابلة مع تلفزيون الرأي الكويتي «أثبتت المقاومة أنّ لديها قدرات جيّدة على أكثر من صعيد وفاجأت العدو الإسرائيلي. وأقول إنّ الإسرائيليين لم يفاجأوا فقط ببعض التفاصيل كوجود صاروخ أرض- بحر، وصواريخ استهدفت ما بعد حيفا أو ما شاكل، هم فوجئوا بكامل المشهد»(605)؛ فلم تفلح كثافة النيران، ولا كثافة الغارات والقصف، ولا قتل واستهداف المدنيين من الأطفال والنساء والشيوخ، ولا تدمير البنى التحتية على نحو من الوحشية والبربرية التي صير إليها خلال العدوان، في دفع حزب الله إلى رمي أوراقه دفعة واحدة، وإلى إلقاء ما بحوزته، وإلى الكشف عن ما يخبئه أو يضمره من نيّات ومخططات وقدرات. ويُنقل في هذا الصدد عن وسائل الإعلام العبرية، خبر إقدام الجيش الإسرائيلي- من وراء الكواليس- على إدارة معارك استخبارية تكتيكية، كانت تهدف إلى استدراج السيد حسن نصر الله لكي يعطي قواته أوامر باستخدام ما بحوزتهم من أسلحة متطوّرة ومن قدرات وإمكانات، لكنّ هذه المعارك أخفقت، ولم تفلح في الدفع باتجاه الكشف عما يخبئه حزب الله، الذي بقي يحتفظ بزمام المبادرة في مفاجأة العدو .

إستراتيجية الردع

تشفّ القراءة التاريخية الحفرية لمشهدية الصراع العربي الإسرائيلي بعامة، وللجبهة اللبنانية منه على وجه أخصّ، بوصفها ميدان البحث وموضوعه في مقاربة إستراتيجيات حزب الله؛ عن تحلل الإسرائيلي، وانفلات عقاله من كلّ ضابطة أو قيد، وعن استخفافه بكلّ المواثيق والشرائع والقرارات الدولية والأممية، فضلاً عن عدم ارتداعه عن استباحة العرض والأرض والسيادة والزرع والضرع على النحو الذي لا يُبقي فيه ولا يذر: كان يصول، ويجول، وينتهك، ويقتل، ويحرق، ويأسر، ويسبي، ويصادر، ويشيع الرعب والفزع في النفوس، ويدمّر البيوت والجسور، ويرتكب المجازر، ويثير القلاقل، ويفتعل كلّ ما يخرج من حدود الوصف دون أن يرفّ له جفن، أو يساوره شعور بالرهبة والخوف والوجل والإحجام... وليست مرايا التاريخ غير البعيد، وخزائنه المثقلة بصنوف الأعمال الوحشية والبربرية والعدوانية، ويومياته التي تضجّ بالوقائع والشواهد والصور؛ سوى مصاديق حيّة لصحة هذه المزاعم والدعاوى، وسوى إضاءات كاشفة عن طبيعة هذا العدو المتربص، والمتوثب على نحو دائم، والقابع بين ظهرانينا كغدة سرطانية خبيثة لا تني عن التوسّع والتمدّد والانتشار والتشظي كتفشي وانفلاش مدارات قاتلة من بقع الزيت الأسود، أو قطع الليل المظلم. ويكفي في هذا الصدد استحضار بعض التواريخ الدالة والشاهدة: كعملية الليطاني في آذار من العام 1978، والسلام للجليل في حزيران من العام 1982، وتصفية الحساب في تموز من العام 1993، وعناقيد الغضب في نيسان من العام 1996، وحرب لبنان الثانية في تموز- آب من العام 2006، وما قبلها، وما بينها، وما بعدها، من شريط درامي حافل بالتقتيل والإجرام والإبادة والحروب.

والحال هذه، كان لأي فصيل يعتنق العمل المقاوم- وهذا ما يقتضيه التفكير الصحي والمنطق السليم- أن يجدّ في طلب البحث عن أواليات ردعية(606) من شأنها أن تكبح جماح اندفاعة الإسرائيلي ووحشيته، وهو ما كان ديدن حزب الله الذي عكف يبحث بدأب منقطع النظير عن مَقاتل هذا العدو ومَواجعه ونقاط ضعفه، وعن مواضع الهشاشة في تركيبته وبنيانه؛ فكان أن وقع على أشدّها حساسية وانكشافا: الإنسان الإسرائيلي(607)، والوعي الإسرائيلي(608)، والعمق الحيوي(609) أي ما يعرف بالجبهة الداخلية لدولة إسرائيل. ثم ذهب إلى استهدافها والتصويب عليها، والى إعمال كلّ معاول الهدم والتنكيل فيها، وإلى تجويفها وإفراغها وإهلاك كلّ مقومات المنعة لديها. ما أفضى إلى الإصابة بفقدان توازن وإلى اختلال حادّ اعتور العقل والشخصية والوعي والمخيال الإسرائيلي العام، وتأدّى بالتالي إلى إنكفاءٍ وإحجامٍ وتقهقرٍ وارتداع.

وإذا أردنا أن نتمثّل تعبيرات وترجمات مفاعيل عناية حزب الله بالجانب الردعي ، وإيلائه كبير اهتمام ورعاية؛ فإنّه بالمقدور لنا أن نتلمّس، وأن نقع على تجليات ذلك في كلّ حراك الحزب وممارساته. لكنّها أكثر ما تتبدّى وتتظهّر فيما أفضت إليه وأرسته واقعتا تموز ونيسان(610) من تفاهمات قضت بتجنيب المدنيين، وحيّدت المنشآت والمصالح والبنى التحتية، وقيّدت حرية عمل الإسرائيلي الذي بات يخشى رد الفعل والعقاب بعد أن أصبح مدنيّوه وساحته الداخلية جزءاً رئيساً لا يتجزأ من ساحة المعركة. وقد صير إلى اختبار هذه القوّة الرادعة التي توافر عليها حزب الله- والتي تكرّست واقعاً ونصاً في تفاهمي تموز(611) ونيسان(612)- في أعقاب الانسحاب

الإسرائيلي القسري والقهري في الخامس والعشرين من أيّار/ مايو من العام 2000، حيث أثبتت نجاعتها وفعاليتها وتأثيرها، وشكلت مركّب التوازن الإستراتيجي الرادع الذي استقام ضمن ما عرف بمعادلة «توازن الرعب»، للحيلولة دون استباحة الأرض والعرض والقرى والمدن والمنشآت والمصالح الحيوية اللبنانية، حتى قيل إنّ السنوات التي تلت تحرير لبنان من دنس الاحتلال، كانت- نسبياً- الأكثر هدوءا واستقراراً وصخباً. هذا فضلاً عن أنّها – أي القوّة الرادعة- وفرت للجانب اللبناني نصراً حاسماً مؤزراً، وكفلت حماية حقه المائي في المعركة التي نشبت سياسياً ودبلوماسياً وإعلامياً حول نهر الوزاني(613)، وكادت أن تتحوّل إلى مواجهات ساخنة ونارية(614).

هكذا دلفت إستراتيجية الردع(615) إلى منظومة حزب الله الأمنية والعسكرية، وشغلت هناك بين مركباتها ومكوّناتها موقعاً مفارقاً وبالغ الحساسية والأهمية. وذلك لما توافرت عليه من قدرة فائقة على رأب الاختلال الحادّ القائم في موازين القوّة لمصلحة الترسانة العسكرية والتكنولوجية الإسرائيلية الجبّارة، كما القدرة على كبح سياسة الاستخدام المفرط للقوّة التي تتوسّلها وتصدر منها النظرية العسكرية الإسرائيلية(616)، وعلى قمع الاعتداءات البربرية المتوحشة في مهدها، وإخماد أوارها قبل أن تطلق ألسنتها في غير اتجاه. وقد ألحّ حزب الله- والحال هذه- على تفعيل هذه الإستراتيجية، وتنشيطها، وتثميرها، والإفادة القصوى منها، حيث دأب على توفير وتوظيف كل المعطيات والموارد العسكرية والأمنية والجغرافية والسياسية والديموغرافية الضرورية اللازمة لبنائها واستوائها، ولرسم معادلاتها الدقيقة، ولتحديد خطوط عملها ومساحات اشتغالها، بما يؤدّي إلى كيّ الوعي الإسرائيلي الجمعي واستنزافه، وإلى تجريده من دافعيته(617) وحافزيته، وإلى الحؤول دون اغتنامه للفرص التي قد تتكشّف عنها البيئة المحيطة، هذا في قبالة تنشيط الوعي العربي الذاتي بأسباب القوّة والاقتدار لديه.

وإذا كان مركب الردع يصدر من نظرية مفهومية ترى أنّ أفضل الحروب هي الحرب التي لا تقع أبداً، بحيث يستجلب الردع المكاسب والمغانم، ويحقق الأهداف الموضوعة، ويتوافر على النتائج المرجوّة من دون حاجة إلى افتعال حروب، أو إلى نشوب نزاعات دموية(618). كأن يصبح الردع صمّام أمان واستقرار، وعنصر تهدئة وروية؛ ينزع إلى المحافظة على ميزان الصراعات القائمة، ويلحّ على ابتراد سخونة اندفاعتها، وعلى الذهاب بتشنجاتها وتوتراتها، لجهة عدم تحوّلها إلى صراعات من طبيعة عسكرية مدمّرة(619)، وبما يحول دون اشتعال فتائلها، أو انفجار صواعقها أو تشظي شراراتها ونيرانها. إلا أنّ وظيفة الردع(620)، وفق ما يفصح عنه معجم حزب الله العسكري، ليس اجتناب الحروب(621)- لأنّ لحزب الله وظيفة تحريرية، وهي وظيفة مركزية تضطلع بمهام استكمال تحرير ما تبقى من أرض محتلة- وإنّما هي أولاً لتجنيب المدنيين مخاطر ردّ الفعل الإسرائيلي المنهزم في الميدان، والذي لطالما توسّل ارتكاب المجازر وتدمير البنى التحتية المدنية سبيلاً للضغط على حزب الله ولتعديل نتائج المواجهات المباشرة المختلة لغير مصلحته أمام مقاتلي الحزب في ساحة المعركة(622).

وهي- أي وظيفة الردع- من ناحية ثانية، لإرجاء الحروب إلى حين استكمال الجاهزية العسكرية واللوجستية بما يمنح الحزب صلاحية اختيار الزمان الملائم، ويجنبه مخاطر الانزلاقات غير المحسوبة. وهي ثالثاً لتعطيل التفوّق العسكري والتكنولوجي الذي يتمتع به الإسرائيلي كميزة تفاضلية وترجيحية، بما يحرمه الإفادة من هذا التفوّق، ويقيّد حرية عمله وحراكه، وقدرته على

المبادرة والفعل والتأثير. والحال، فإنّ الوظيفة الردعية كما توسلها حزب الله، هي وظيفة دفاعية تستبطن التماس كلّ ما من شأنه حماية لبنان من المخاطر والتهديدات، وتوفير كلّ أسباب المنعة لديه، بعد أن كان هذا الوطن الضعيف- الذي كان يختطف ويؤخذ من يده- قد شكل تاريخياً، وبصورة دائمة، ساحة اقتصاص إسرائيلي، واستخدام مفرط للقوّة فيها لأسباب ذرائعية بحتة.

وبالعودة إلى إستراتيجية الردع، يُسجّل لحزب الله فضيلة تأسيس توازن ردعي مرعب مع الإسرائيلي في إطار معادلة الصراع القائم بلا هوادة بين الجانبين. ولعلها المرة الأولى- كما تشفّ وقائع الصراع العربي الإسرائيلي- التي يُقام فيها توازن ردعي على هذا النحو من الحزم والجدّة والثقة والفعالية(623)؛ حيث تخلق هذا التوازن في العقد الأخير من القرن العشرين، ونما واستوى بكيفية خلاقة فاعلة، وبلغ أشدّه في العقد الأول من الألفية الثالثة، وبالأخص في أعقاب حرب تموز- آب من العام 2006، بعد أن أخذ منحى آخر، أكثر دينامية، وأشدّ فعالية وجرأة وتأثيراً. واستطراداً، بعد أن فشل صانع «القرار الإسرائيلي» يقول ندير تسور من دراسة أصدرها معهد دراسات الأمن القومي التابع لجامعة تل أبيب في العام 2010، لمناسبة مرور أربع سنوات على حرب لبنان الثانية «في حسم المعضلة المتصلة بكيفية العمل على إجهاض التهديد الذي يراكمه حزب الله». وقد وجدت حالة الارتداع ترجماتها في التغيّر الجوهري الذي طرأ واستجدّ على المقاربة الإسرائيلية لأطروحة الحرب، بحيث أصبح منعها والحيلولة دونها، أو ترحيلها ما أمكن، مصلحة عليا بالنسبة إلى تل أبيب(624)، وفقاً لما كان قد أفصح عنه، غير مرة، وفي غير مناسبة، قادة المستويين السياسي والعسكري في الكيان العبري(625): «إنّ إسرائيل لن تنتصر في حالة النزاع مع حزب الله» يقول اللواء غيورا إيلاند من مقابلة مع صحيفة هآرتس في عددها الصادر بتاريخ 11 آب/ أغسطس من العام 2011، ذلك أنّ «أيّ حرب أخرى ستسبّب ضرراً لا يطاق على الجبهة الداخلية بغضون أسبوعين، ما سيؤدّي إلى هزيمة إسرائيل».

كما وجد هذا التوازن الردعي المرعب ترجماته ومصاديقه في رسائل ساخنة وأخرى مفخخة، كان حزب الله يتقصّد إرسالها وبثها في غير وقت: «نحن بإمكاننا صنع أمور قادرون أن نعملها» وفقاً لتعبير السيد حسن نصر الله «ويجب أن نعلن عنها لنقول للإسرائيليين خافوا»(626). فالقدرات النوعية التي صير- بين حين وآخر، وبمنهجية وازنة- إلى تظهيرها وتحريرها والكشف عنها، وهي قدرات من طبيعة إستراتيجية، وبوصفها كذلك، فهي «تفرض بالضرورة تحوّلاً من الوزن الإستراتيجي على التفكير الإسرائيلي في مقاربة الحرب»(627)، بحيث أنّ سؤال الجهوزية لغرض خوض الحرب والانتصار فيها إسرائيلياً، بات يستدعي ارتباطاً وثوقياً بالإجابة عن سؤال آخر- أكثر إلحاحاً- يتعلق بسرعة تراكم وتضخم القدرة العسكرية لدى حزب الله، وحجم ترسانته التسلحية، وأساليب تفعيلها. والحال هذه، سرعان ما كانت هذه الرسائل تؤتي أكلها، وتتبدّى مفاعيلها على نحو بيّن في تراجعات مذلة عن تهديدات دأب الإسرائيلي على إطلاقها(628)، وفي تعليقات (إيضاحية- نافية) على تسريبات سبق له أن مرّرها، وفي إرجاءٍ مستمرٍ لحروب(629) كان يعدّها ويهيئ مدخلاتها ومقدماتها ويصيغ سيناريواتها وأعمالها. فقد أشار غير مراقب ومتابع، كما أشارت غير دراسة ذات صلة، إلى أنّ رسائل حزب الله، قد أدّت وظائفها الردعية على نحو مفارق(630)، وحسمت سلباً في غير مرة ومناسبة واستحقاق، أمر هجوم وعدوان كانت إسرائيل بصدد شنّه على لبنان، وإلا فـ«ما معنى» يتساءل يحيى دبوق «عدم شنّ الحرب، إلى الآن، في ظل الحافزية المرتفعة وغير المسبوقة لدى تل أبيب»(631).

فمنذ شهر آب/أغسطس من العام 2006، لا تنفكّ عمليات إرجاء الحروب الإسرائيلية تتوالى، من خريف إلى ربيع ومن ربيع إلى خريف، وفي إثر كلّ رسالة يُقدم حزب الله على توجيهها:
كالإعلان- وبنحو غير مسبوق- عن مناورات حيّة(632) يجريها على طول الجبهة مع الكيان الإسرائيلي في محاكاة لحرب افتراضية معه. أو الإعلان عن مفاجأة كبرى(633) غير متوقعة، وغير منتظرة، ومن شأنها أن تغيّر وجه الشرق الأوسط، سوف يفرج حزب الله عنها عند أي نزاع ينشب. أو إطلاق التهديدات التي يدرك الإسرائيلي تمام الإدراك صدقية الحزب وقدرته على الإيفاء بالتزاماته الدفاعية. أو إطلاق الوعود بتدمير الفرق الإسرائيلية المهاجمة في أي مواجهات برية مرتقبة تستهدف احتلال لبنان(634). أو الإعلان عن استنان قواعد جديدة للعبة، تحرم الإسرائيلي حق التفرّد بالقرار في نتائج الحرب، على النحو الذي كان يصار إليه سابقاً، وتضع في معادل موضوعي أهدافاً حيوية إسرائيلية في دائرة النار والتدمير في قبالة نظيراتها من الأهداف الحيوية اللبنانية(635)، وفق ما يصطلح عليه بنظرية ضرب «أهداف القيمة المضادة: Counter-Value Targets»(636)، أو تسريب أخبار والكشف عن وثائق ومعلومات(637)، والإعلان مواربة عن نشر منظومات صاروخية جديدة بقدرات تدميرية عالية(638) وبمديات تسمح لها بافتراش كلّ شبر من أرض فلسطين المحتلة، وبالتالي وضع كامل العمق الإسرائيلي الحيوي في دائرة الاستهداف(639)، حتى تلك المناطق الواقعة إلى الجنوب من ديمونا(640)، كمدينة بئر السبع(641) التي تسمّى بـ«عاصمة النقب». كلّ ذلك من خلال وسائط- مرئية وغير مرئية- لا يتبناها حزب الله ولا تلزمه.

ويحضرنا في هذا المضمار مقاربة السيد حسن نصر الله لمشهدية التهديدات الإسرائيلية المتذبذبة بين التعالي والضمور؛ حيث تأخذها- ابتداء- الاندفاعة المتهوّرة والصخب وعلو النبرة والانفلات من كلّ عقال، وتجنح بها عرضات القوّة والعنتريات ومعاني التشاوف والإعتداد والتفوّق، ولكنها سرعان ما تخبو، فلا تلبث أن تصاب بالإحجام والتقهقر والتراجع، لتصل حدّ الأدب واللياقة والتهذيب والكلام الناعم المنمنم المعسول، عندما يصدّها كلام من الوزن الثقيل يطلقه حزب الله- المقلّ عادة– من منصة إطلاق أشدّ تأثيراً على الوعي، وأشدّ فتكاً بالإرادة والمخيال والروح القتالية من وقع الصواريخ ذات القوّة التدميرية العالية. والحال هذه، يؤتي سلاح حزب الله أكله وثماره في سياق نظرية الردع، حتى وهو في حالات كمونه واسترخائه: «قبل أشهر عدّة» يقول السيد نصر الله في مقابلة مع تلفزيون الرأي الكويتي «بقينا في لبنان لنحو ثلاثة أشهر متواصلة نسمع تهديدات إسرائيلية بالحرب على لبنان، إلى أن أعلنت موقفاً واضحاً، وبعدها هدأت التهديدات، أو فلنقل إنّها هبطت إلى أدنى مستوى لها»(642).

وليس بعيداً من هذا السياق الذي تظهر فيه ردعية الترسانة التسلحية لحزب الله، وفاعليتها في لجم الاندفاعة الإسرائيلية؛ ما كان قد أعرب عنه المراسل العسكري لصحيفة هآرتس عاموس هارئيل، لدى تعليقه على التسريبات الإعلامية حول نشر حزب الله لمنظومات صاروخية جديدة بمديات بعيدة «إنّ نشر المعلومات السرية حول الصواريخ» يقول هارئيل «هو أمر يقصد به تحديداً إبعاد الحرب وليس تقريبها»(643).

وفي سياق متصل، كشف حلمي موسى بدوره عن حالة ارتداعية غير مسبوقة وطأت الوعي الإسرائيلي، وعصفت به، وأحدثت فيه ثقوباً وندوباً وقروحاً حادّة، بسبب من قدرة حزب الله على تفعيل القوّة، ومراكمة أسبابها، وتنشيط روافعها. ما جعل من فرضية نشوب حرب جديدة يبادر

إليها الإسرائيلي عملاً ليس يسيراً، كما جعل من إطلاق اليد في عمليات موضعية، أو القيام بخروق استفزازية عملاً ليس محموداً. « ليس صدفة» يقول حلمي موسى من مقالة بعنوان (إسرائيل تعضّ أصابعها ندماً بعد عشر سنوات على هروبها من لبنان)، أنّ القادة والمعلقين الإسرائيليين «يدورون ويحومون حول رقم الأربعين ألف صاروخ التي يقولون إنّ حزب الله يمتلكها، والتي بتعزيزها بصواريخ نوعية ودقيقة، غدت ردعاً يردع الردع الإسرائيلي المعهود. ولم يعد الخوف من الحرب سمة يمكن أن تعثر عليها في أحد جانبي الجبهة فقط، بل بات بديهياً أن تراه في الجانبين، مما يجعل وقوعها أكثر صعوبة من أي وقت مضى»(644). فبينما كانت إسرائيل لا تتوانى ولا تتردّد في السابق عن اجتياح الأراضي اللبنانية واستباحتها متى تشاء، ولا ترعوي عن تعريضها لشتى أنواع القصف والتدمير والتقتيل والإبادة لأقلّ الأسباب وأتفهها حتى المختلقة منها؛ أصبحت بقدرة قادر اليوم، محكومة بتعقل مقدور عليها، تتجنب الأعمال الاستفزازية على الحدود، حتى عراضات القوّة التي كانت تقدم عليها مؤخراً بين حين وآخر لدواع داخلية بالدرجة الأولى، كانت تأتي مصحوبة ومعطوفة برسائل تطمين وتهدئة خواطر عبر وسائط متعدّدة، معترفة بشكل ضمني بأنّ أرض لبنان لم تعد ممراً لنزهاتها العسكرية، وأنّ أي حرب جديدة ستكون مكلفة بما لا يطاق، بل ستكون أشبه بعملية انتحار طوعي.

لقد أسّست- بما لا يقبل الشكّ- تلك الرسائل ذات الطبيعة الردعية التي وجّهها حزب الله في غير اتجاه، لمراجعات ذهنية فكرية إستراتيجية، عكف عليها الإسرائيلي صاغراً، وألزمته بتراجعات وانكفاءات وإحجامات، وفرملت اندفاعته وجموحه، وذهبت ببريق عنترياته وتشاوفه، وبهتت مزاعمه وادعاءاته وحضوره، وفرضت عليه إعادة النظر في حساباته ورهاناته وخياراته العسكرية المستقبلية، على نحو ما نستطيع تمثله في التغيّر الحاصل في مقاربة قائد المنطقة الشمالية في الجيش الإسرائيلي غادي آيزنكوت، الذي انعطف نصف استدارة؛ فتحوّل من تبني إستراتيجية ما أسماه «عقيدة الضاحية»، التي رأى إليها الحلّ الأمثل لمعضلة حزب الله، بوصفها تنادي بضرب البنى التحتية، وتتوسّل تفعيل استخدام القوة، واستخدام العنف والتقتيل حيال المدنيين اللبنانيين، إلى ضرورة التكيّف مع المستجدات الطارئة على موازين القوى. ذلك أنّ المعادلات التي عكف السيد حسن نصر الله على إطلاقها، والتي صير فيها إلى الكشف عن جزء يسير مما يتوافر عليه الحزب من قدرات؛ قد دفعت بصاحب «عقيدة الضاحية»، وفقاً لمقولته الشهيرة في صحيفة يديعوت أحرونوت في الرابع من شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2008، إلى الإقرار- بعد مضي قرابة عامين، أي في الرابع والعشرين من شهر أيّار/ مايو من العام 2010 - بالردع المتبادل، موصّفاً الواقع الذي بات يحكم جانبي الصراع، بأنّه ليس إلا «حرباً باردة تشبه تلك التي كانت سائدة في أوروبا».

كما نستطيع تمثل هذه الانكفاءة الردعية في المراجعة التي أجراها، الرئيس السابق لشعبة العمليات في الجيش الإسرائيلي اللواء غيورا إيلاند، لأطروحة الحرب المقبلة؛ حيث أفاد- وفق ما أوردته نشرة التقدير الإستراتيجي لشهر آب/ أغسطس من العام 2010، الصادرة عن مركز دراسات الأمن القومي في جامعة تل أبيب- بأنّ الحرب لن تكون حتماً لمصلحة الدولة العبرية: «لا إمكان للانتصار» يقول إيلاند «مزايا إسرائيل على المستوى التكتيكي تتضاءل قياساً بمزايا حزب الله. فما كان بالإمكان أن ينجح في حرب لبنان الثانية، لن يكون بالإمكان أن ينجح في حرب لبنان الثالثة».

إلا أنّ أكثر رسائل حزب الله سخونة وتأثيراً ووقعاً على الوعي الإسرائيلي الجمعي؛ هي تلك التي تمثلت في الصورة الجامعة المانعة التي تظهرت عن لقاء القمّة في دمشق في الخامس والعشرين من شهر شباط/ فبراير من العام 2010 (645)، والتي ضمّت إلى جانب الرئيس السوري بشار الأسد، كلّا من الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد وأمين عام حزب الله سماحة السيد حسن نصر الله. وقد شفت الصورة بانعكاساتها عن مسكوتات، وعن حمولات ناطقة(646)؛ فضّت سراً- ليس خافياً- عن جاهزية أطراف اللقاء للحرب، بل وذهابهم بعيداً في هذا الخيار، وتكشّفت عن تبنيهم لأطروحة الدفاع بالتكافل والتضامن، وأفصحت عن أفول عصر التفرّد الإسرائيلي بأحد أركان محور المقاومة على النحو الذي كان يصار إليه منذ العام 1973، وأذنت ببدء الولوج إلى عصر الحروب الشاملة التي تعتمد عقيدة عسكرية قوامها «التوازن الردعي والتقابل التدميري للأهداف المتكافئة»(647). ما يعني أنّ ساحات المواجهة المفترضة في كلّ من لبنان وسوريا وإيران وسواها...، باتت مترابطة بنحو عضوي، أو بالأقلّ بكيفية متداخلة، إذ يفترض غير تقدير أنّ تسخين واحدة منها، أو إشعالها سيؤدّي إلى ارتفاع حرارة الأخريات تناسبياً.

كما أنّ التلفيقات والمزاعم بشأن قدرات حزب الله ونيّاته، التي تعكف على فبركتها- لأهداف مشبوهة- بعض الدوائر الإسرائيلية والغربية، وبعض العربية من تلك المنضوية ضمن محور الاعتدال، وفقا للتسمية الأميركية؛ كانت تخدم على غير ما يرغب هؤلاء، السياسة الردعية لحزب الله، إذ يحسن الأخير توظيفها واستثمارها على نحو موجب، من خلال اعتناقه لعقيدة الغموض البنّاء: فلا ينفيها، ولا يؤكدها، ولا يمنحها تعليقاً أو إيضاحاً، فتعود- والحال- أدراجها لتؤتي فعلها في الوعي الإسرائيلي الجمعي، وتلحق به ضرراً بالغاً.

ويندرج طيّ قائمة التدابير والإجراءات والسياسات التي عزّزت من فعالية الإستراتيجية الدفاعية لحزب الله، وراكمت فوق أرصدتها ومفاعيلها قيماً مضافة ورساميل ضخمة؛ ما أقيم- على طول تخوم الحدود مع الكيان العبري- مقام المستوطنات المسلحة الدفاعية والرادعة من قرى ذات حصانة ومنعة، لجبه محاولات الاختراق الإسرائيلي الدائبة للأمن اللبناني، في محاكاة تمثيلية ضدّية وعكسية لما حوته بين تضاعيفها الأدبيات الإسرائيلية الإستراتيجية المبكرة من مقاصد وحمولات، كانت تلحّ وتشدّد على أهمية المستوطنات المسلحة في وجه أيّة محاولات لاختراق الأمن الإسرائيلي، هذا قبل أن يصار إلى تحوّلات جذرية وانعطافات حادّة طرأت على مفهوم الأمن الإستراتيجي الإسرائيلي، الذي تحلل من قيمة هذه المستوطنات على الصعيد الأمني، بعدما أسقط حزب الله الدور الذي كانت تضطلع به، وحوّلها إلى نقطة ضعف قاتلة ومميتة لليّ العنق والذراع الإسرائيليتين، كما صيّرها رهينة دائمة في حبائل وشراك إستراتيجيته النقيضة.

والجدير بنظر الاعتبار والاهتمام، أنّ توسّل حزب الله لإستراتيجية الردع في معادلة الصراع مع الإسرائيلي، قد أخذ من منظومته العسكرية ومن عقيدته الأمنية كلّ مأخذ، لاسيما في المرحلة التي تلت الانسحاب الإسرائيلي القهري من الجزء الأكبر من الأراضي اللبنانية في الخامس والعشرين من أيار من العام 2000، بحيث أصبح الردع كمركب أمني هو من يرسم أطر المواجهات والردود، ويحدّد لها سقوفها، ووجهتها، وتوقيتاتها، وقائمة أهدافها، ومسرح عملياتها. ويكفي في هذا الصدد، أن يصار إلى استحضار واستعادة شريط المواجهات التي دارت رحاها غير مرة بين حزب الله والجنود الإسرائيليين، طيلة المرحلة الفاصلة بين التحرير في العام 2000 وحرب تموز- آب من العام 2006، وإخضاع معطياتها وظروفها المحايثة للمراجعة والفحص والمعاينة،

وللتحليل العلمي الدقيق؛ حتى يبدو على نحو قاطع، لا لبس فيه، أنّ السلوك العسكري لحزب الله- خارج إطار العمليات التذكيرية في مزارع شبعا- لم يكن بإطلاق إلا في موضع ردّ الفعل العقابي على محاولات نزوع الإسرائيلي للتفلت من إلزامات معادلة مزارع شبعا، أو تعديلها وإعادة صياغة قواعدها، وأنّ حجم الردّ وطبيعته كانا يندرجان بنحو دائم في سياق التناسب والتلاؤم مع ما يقوم به الإسرائيلي من انتهاكات وأفعال عدوانية.

ولما كان الردع- كمفهوم- لا يستوي، ولا يستقيم بنيانه ومعماره دون تداخلِ وتشابك وتضافر عوامل ثلاثة، بوصفها مرتكزات مؤسّسة: توافر القوّة أو القدرة على العقاب، وامتلاك الإرادة والعزيمة لاستخدامها(648)، وتصديق العدو لهذين العاملين الآنفي الذكر، أي أنْ يوقن العدو أنّ تهديده سوف يقابل بردّ عنيف حاسم؛ فقد أجاد حزب الله تصليب ردعه ورعايته، وحرص بنحو ملحّ على تمتينه وشدّ أواصر مرتكزاته تلك، للحؤول دون تفارقها وتباعدها أو حدوث فجوة بينها، لأنّ قيام فجوة فاصلة بين عامل امتلاك القوة على سبيل المثال، وعامل امتلاك الإرادة لاستخدامها، من شأنه أن يتأدّى بالضرورة إلى سقوط وتهافت العامل الثالث المؤسّس أي تصديق العدو، وبالتالي تصدّع الردع واختلاله. ولذلك، كان دأب حزب الله وديدنه- طيلة مراحل الصراع المختلفة– العمل على توافر القوّة، من أسلحة وتجهيز وتأهيل وإعداد وتدريب وتطوير ومعرفة، ومراكمة أسبابها، وتحشيد عناصرها، والاستحواذ على مفاتيحها(649)، كما امتلاك الإرادة والعزيمة الصلبة لاستخدامها، والتحلي بالجرأة والشجاعة والإقدام، وأخيراً دفع الإسرائيلي دفعاً للإقرار بحقيقة ذلك كله، وتصديقه من خلال الممارسة والتجربة والدليل الحسي القطعي(650)، ومن خلال إعمال معاول الهدم والتوهين في مرتكزات وعيه، ومباني وتصوّرات مخياله وعقله.

وهذا العامل الأخير أي دفع الإسرائيلي إلى التصديق بامتلاك حزب الله أسباب القوّة، وقدرته على الفعل والتأثير؛ إنّما يتأتى من خلال جملة من الممارسات والسلوكات والسياسات: كأن يكون التهديد بالردع صادقاً، فلا يصحّ أن يصدر التهديد من عدم، أو من وهم، أو من فراغ، أو من وهن وضعف، إذ لا مكان هنا للعنتريات والحماسيات والزجليات والشعارات الفارغة الجوفاء، ولا يوضع في الميزان كلّ الكلام الانفعالي والانشائي والاحتفالي والخطابي: «عندما أقول إنّنا جاهزون لأن نقاتل في كلّ قرية ووادٍ وتلة» يقول السيد حسن نصر الله مقارباً فعالية الردع، ووجوب توافره على الصدق واليقين «أنا لا أستطيع أن أخدع الإسرائيلي، لأنّ إسرائيل لديها إمكانية جمع معلومات كبيرة، وكلّ يوم يظهر هذا الموضوع بوضوح أكثر. إذا هدّدنا إسرائيل بشيء، ولم تكن لدينا معطيات حقيقية، فلا معنى لهذا التهديد. لكنّه- أي الإسرائيلي- يعتني بالتهديد، لأنّ لديه معطياته أيضاً، قد لا تكون هذه المعطيات مكتملة، لكن لديه شيء»(651).

وكأن يصار- ثانياً- إلى إقناع الإسرائيلي بامتلاك الحزب العزيمة الصادقة لجبه المخاطر والتهديدات والضغوط، كما امتلاكه الإرادة والإصرار والروح القتالية العالية والشجاعة والإقدام لمنع أي عدوان، وللردّ على أي خرق أو انتهاك للسيادة الوطنية، أو أي استباحة للأرض والعرض(652). وكأن يصار أيضاً إلى إشعار الإسرائيلي أنّ محصلات ونتائج أعماله سوف تكون على غير ما يشتهي ويتمنى؛ إذ إنّ كفة المغانم والأرباح والمكتسبات التي قد تجنى وتتحقق من جراء اعتداءاته، لن تعدل أو لن تزن بإطلاق كفة الخسائر التي سيتكبّدها، أو الأثمان والأكلاف التي سيدفعها، أو الأضرار التي ستلحق به(653). وأخيرا وليس آخراً، أن يكون بمقدور حزب الله استيعاب واحتواء الضربة الأولى، وهضم تداعياتها ومفاعيلها، على أن يُحكم ذلك بقدرة الحزب

على الإمساك بزمام المبادرة لتوجيه الضربة الثانية التي يُراد لها أن تكون ثقيلة، ومركزة، وكثيفة، ووازنة، ومؤثرة، وشديدة الوطأة، بحيث تدفع الإسرائيلي إلى إجراء مراجعات، والى إعادة النظر في حساباته ورهاناته وخياراته، وتجبره على التقهقر والتراجع والانكفاء، بنحو تكون النتيجة بالغة الإقناع له بعدم جدوائية استمراره بعدوانه.

لقد أدرك حزب الله باكراً، أنّ صيرورة اكتمال العملية الردعية، وتصالبها، وتمام فعاليتها وتأثيرها، ليس من مندوحة لها بإطلاق، غير تضخّم أسباب القوّة والقدرات الذاتية لديه، وتراكم روافع ومحمولات ذلك. فهذه الأخيرة هي قوام الردع ومرتكزه وعماده، وهي العمود الفقري لتهيكله واستوائه، إذ من غير الجائز أن يُصطنع الردع ويتخلق من خلال الاعتماد والاتكال على الضمانات الخارجية التي تعد بتقديمها الهيئات الدولية والأممية، أو من خلال الاستسلام للتطمينات الديماغوجية التي تتشدّق بالإنعام بها بعض دوائر القرار، أو من خلال الاحتماء في كنف دولة عظمى بحيث يصبح الردع المفترض أسير خياراتها ورهن تبدّلات مصالحها. ولهذا نرى إلى حزب الله كيف استنفر كلّ طاقاته وإمكاناته وعلاقاته، وكيف ثمّرها ووظفها ونشّطها في سبيل تطوير وتفعيل قدراته العسكرية والأمنية. كما نرى إليه كيف جدّ في بناء شبكات الأمان والحصانة والمنعة الداخلية، وكيف عكف على حيازة ما يتيح له «روادع عاجلة»، وما يردم مساحة التوتر الماثلة في الفجوة الناجمة من اختلال ميزان القوّة بنحو حادّ لمصلحة الإسرائيلي. الأمر الذي بالمقدور أن نقع على تعبيراته ومصاديقه الواقعية في إلحاح الحزب وحرصه وإصراره على بناء ترسانة صاروخية كبيرة وفعّالة وذات مديات بعيدة وذات رؤوس تدميرية هائلة، لتعديل الاختلال الحاصل في الموازين القائمة، ولتقليص الفارق الكائن في القوّة النارية، ولتحقيق الردّ المتوازن والمتناسب، بنحو يجعل من حيثية امتلاك «القدرة على ضرب المجتمع المدني في تل أبيب» كما يقول العميد المتقاعد في الجيش اللبناني وليد سكرية «بمثابة عامل رادع لإسرائيل، بالرغم من استعداداتها وإجراءاتها الوقائية لحماية هذا الداخل»(654).

في مقابل الجهود الإسرائيلية التي عكفت على إصلاح ما تكشّفت عنه حرب (تموز- آب 2006)، من إخفاقات وتعثرات وأخطاء، وعلى ترميم ما ظهر من عيوب في جهوزية الجيش واستعداداته، ومن خلل في بنيته، كما في شبكات أمان الجبهة الداخلية، وعوامل حمايتها، ومقومات صمودها، وذلك قبل أن تنطلق عجلات قطار البحث المضني عن معالجات وحلول مفترضة لمفاجآت حزب الله غير السارة، على نحو ما نقع عليه في القبة الفولاذية(655)، والعصا السحرية(656)، وصاروخ حيتس3- (657)، التي صير إلى اجتراحها كحلول لتأمين الجبهة الداخلية عبر مظلة اعتراض صاروخي متعدّدة الطبقات، أو في (معطف الريح)(658) الذي خصّص لحماية الدبابات من الصواريخ المضادة للدروع، أو في (باراك)(659) محدّث الذي خصّص لتزويد السفن بأنظمة مضادة للصواريخ...في قبالة هذه الجهود والأنشطة التي تجهد للنيل من جهوزية حزب الله، كان الأخير يراكم أسباب قوّته الذاتية، ويطوي مراحل بناء جهوزيته بوتيرة تصاعدية نوعية فارقة: سواء على صعيد المورد البشري وعديد الأفراد، حيث ارتقت أعداد المقاتلين والناشطين الفاعلين من مئات أو آلاف في أحسن الأحوال، ليصبح العدد عشرات الآلاف، وفق ما أعلن عنه السيد نصر الله في غير مناسبة، أم على صعيد التسلح والتجهيز، حيث سُجّل نقلة نوعية ملحوظة من التزوّد بسلاح ميلشياوي عادي وشعبي، إلى تجهيز يضاهي ما تمتلكه الجيوش الحديثة في غير

مجال واختصاص، فضلا عن أنّ الترسانة الصاروخية تضخمت وتضاعفت بما لا يقاس، وباتت قادرة على استهداف كلّ شبر من أرض فلسطين المحتلة.

إلا أنّ تفعيل القوّة الذاتية وتنشيطها على جري ما ألمعنا إليه، لا يتنافى مع حقيقة إقامة تفاهمات وتحالفات، يصار فيها إلى تشبيك القدرات، وتجسير علاقات دفاعية مع أطراف وجهات أخرى، كما لا ينبغي أن يساء فهمه وتفسيره بنحو يتعارض مع بناء شبكات أمان خارجية تستدعي الانخراط في محاور وأحلاف إقليمية ودولية ممانعة ومقاومة للمشروع الأميركي- الإسرائيلي، وبكيفية تزيد من فعالية الردع وألقه وتأثيره، ومن قدرته على الكبح والعقاب. وهذا ما كان قد أقدم عليه حزب الله منذ سيرته الأولى، والذي بالمقدور أن نقع على آخر تجلياته وتعبيراته في اعتناقه- ضمن إطار تموضعه إلى جانب إيران وسوريا- عقيدة «الحرب الشاملة»، وفق ما رشحت عنه وأفضت إليه قمة دمشق آنفة الذكر.

لكن هل استقرّ حزب الله على حيازة ما هو نسبي من روافع الردع، واكتفى منها بالأدنى والأقلّ فعالية وتأثيراً، وتوافر على قناعة الاستحصال على النذر اليسير؟.

لا شكّ أنّ حزب الله قد قفز قفزات نوعية وقياسية فارقة في حقل ومدار تعاظم القدرات العسكرية والأمنية والتسليحية واللوجستية، حيث دأب على تنكب وتوسّل كلّ ما من شأنه أن يشكل إضافة بالغة إلى قدراته وإمكاناته، وأن يتأدّى إلى إفاضة ملحوظة في مفاعيل وانعكاسات ردعه، وأن يفضي إلى تضخم في منسوب القوّة لديه، كي يصل في معادلة الصراع مع الإسرائيلي إلى إرساء ما يصحّ أن يطلق عليه «الردع المؤكد المتبادل»، والذي يتأتى من طريق القدرة على «التدمير المؤكد المتبادل»، أي قدرة كلّ طرف من أطراف الصراع على تدمير الآخر (660). وقد نجح الحزب في إقامة وتشييد وتثبيت مثل هذا التوازن أو المعادل الردعي المرعب(661)، في حين أخفقت أنظمة ورسميات عربية تناوبت– خلال عقود متطاولة- على إدارة الصراع الذي يمتدّ منذ النصف الثاني من أربعينيات القرن العشرين: «إنّ التهيؤ والاستعداد للحرب» يقول السيد حسن نصر الله معيّناً فضيلة التوازن الردعي القائم «أهم وسيلة من وسائل منع وقوعها وحصولها، هذا ما يُسمّى بتوازن الرعب والردع. وهذا التوازن هو الذي حمى لبنان من عام 2000 إلى عام 2006»(662). ما يعني أنّ «الهدوء السائد على الحدود» والكلام لنصر الله، لم يكن منّة من إسرائيل، أو نتاج تسويات استدعته، أو واقعاً كفلته منظمات المجتمع الدولي؛ وإنّما هو هدوء «فرضته المقاومة بانتصارها من خلال توازن الردع والرعب»(663).

لكن لم يشأ حزب الله أن يَبقى ميزان الردع والرعب الحاكم لمعادلة الصراع مع الإسرائيلي كما نشأ في سيرته الأولى، أي أن يعمل ضمن مساحة اشتغال واحدة هي ساحة المواجهات البرية، بنحو يسمح للإسرائيلي أن يُبقي على فرادة وفعالية أسباب القوّة لديه في مجالي البحر والجو. بل أراد- وهنا وجه الإبداعية الخلاقة على هذا الصعيد- أن تتمدّد مفاعيل التوازن القائم إلى حيّزات اشتغال أخرى، وبنحو يجعلها تتناسل من البر إلى البحر إلى الجو(664). وللغاية عكف الحزب على تطوير قدراته، بما يرقى بها إلى مصافي التأثير والفعالية في غير مجال من مجالات الصراع، على أن يكون الإعلان عن هذه القدرات مقنّناً وفي متواليات منتظمة، توظف بنحو ردعي أيضاً، وتتناسب مع توقيتات بعث الرسائل الساخنة، وفعالية ذلك، كما مع الظروف الحاكمة في تشكل وتغيّر وتحوّل البيئة الإستراتيجية المحيطة. نقع في ترجمة ذلك على أطروحة تعزيز القدرات الصاروخية والتسليحية، والإعلان عن تضخمّها كمّاً ونوعاً وفعالية ومدى، بما يحسم كل

الجدل بشأنها: «اليوم أقول» والكلام لنصر الله «إنّ المقاومة تملك أكثر من عشرين ألف صاروخ. وخلال أيّام قليلة وهي خارجة من حرب ضروس استعادت كامل بنيتها العسكرية والتنظيمية والتسليحية»(665)، و«أقول لكم أكثر» يضيف نصر الله بعد مرور خمس ونيف من السنوات «نحن يوما بعد يوم نزداد تسليحاً، وإذا أحد يراهن على أنّ سلاحنا يصدأ، فالسلاح الذي يصدأ نأتي بجديد غيره»(666).

ونقع أيضاً في هذا السياق، على أطروحة «تدمير الفرق» العسكرية الإسرائيلية(667) في حال إقدام الأخيرة على توغلات برية في عمق الأراضي اللبنانية: «نحن جاهزون» يقول السيد نصر الله «أرسلوا ما شئتم، خمس فرق أو سبع وإن شئتم أُرسلوا كلّ الجيش الإسرائيلي فسندمره ونحطمه في تلالنا ووديانا وجبالنا. هذا هو التحوّل الكبير الذي أتحدّث عنه في المنطقة لو حصلت حرب من هذا النوع»(668). كما نقع- في سياق مماثل- على أطروحة التدمير الكلي المتبادل(669). وأخيرا، نقع على موضوعة الانتقال من نزعة الدفاع إلى نزعة الهجوم-الدفاعي(670)، على نحو ما نجد ترجمته في أطروحة التهديد بتحرير الجليل في شمال فلسطين(671). بما يؤشّر إلى رفع سقف التوازن القائم(672)، وإلى تحوّل نوعي وازن في قواعد اللعبة والصراع المفتوح بين حزب الله والكيان الإسرائيلي: «أقول لمجاهدي المقاومة الإسلامية» والكلام للسيد حسن نصر الله «كونوا مستعدّين ليوم إذا فرضت فيه الحرب على لبنان، قد تطلب منكم قيادة المقاومة السيطرة على الجليل»(673).

ينبغي الإلفات إلى أنّ معادلة «السيطرة على الجليل» تكتسب أهميتها وخطرها وإلحاحها، ليس فقط من دلالتها العسكرية المتصلة بقدرة حزب الله على إحداث تحوّل وتغيير في قواعد اللعبة عند اندلاع الحرب، وإنّما أيضاً من دلالتها الاستباقية- الوقائية التي تحول دون حصول الحرب فتعطلها وتمنع حدوثها، أو- بالأقل- ترجئها وتؤخر نشوبها واندلاعها. لاسيما أنّ هذه المعادلة الجديدة، جاءت بعد يوم واحد على طلب وزير الحرب الإسرائيلي ايهود باراك من جنوده أن يكونوا على أهبّة الاستعداد للعودة إلى لبنان(674). ما يعني أنّه بالمقدور وضع دعوة السيد نصرالله مقاتليه إلى التحضّر لتحرير الجليل «إذا فرضت الحرب على لبنان» وفقاً لتعبيره، في مواجهة كلام باراك الاستعلائي، وفي سياق تعزيز وتفعيل مفهوم قوّة الردع(675). ذلك أنّه يصدر من خلفية فعل كلّ ما بالوسع فعله، للحيلولة دون قيام الجيش الإسرائيلي بشن عدوان جديد، وليس انتظار حصول ذلك، طالما أنّ التهديد بالسيطرة على الجليل يؤتي فوائده وأكله من طريق الإسهام في لجم النيات العدوانية، وكبح الاندفاعات المتهوّرة.

وفي سياق موازٍ لكلّ تمظهرات معادلة الردع البري وتمثلاتها على غير صعيد؛ مدّد السيد نصر الله مفاعيل توازن «الرعب والردع» من البرّ إلى البحر(676)، إذ أطلق للغاية معادلة جديدة قوامها: «حصار الشواطئ اللبنانية، يستدعي بالضرورة حصاراً مماثلاً لكلّ الشاطئ الفلسطيني»، معتبراً إيّاها إضافة واستكمالاً لمعادلة الردع البري، حيث يقول من خطاب في الذكرى العاشرة لتحرير العام 2000: «إنّ السفن التي ستتوجّه إلى أيّ ميناء على الشاطئ الفلسطيني من الشمال إلى أقصى الجنوب، نحن قادرون على استهدافها إن شاء الله، وعلى ضربها، وعلى إصابتها إن شاء الله، ومصمّمون على أن ندخل هذا الميدان الجديد في المواجهة إذا حاصروا ساحلنا(...) عندما سيشاهد العالم كيف تدمّر هذه السفن في المياه الإقليمية لفلسطين المحتلة، لن يجرؤ أحد على الذهاب إلى هناك، كما سيمنع أي أحد من الوصول إلى شواطئنا»(677).

لقد أصابت هذه المعادلة الردعية الجديدة من إسرائيل مَقاتل ومَواجع، وحركت لديها هواجس الخوف والإرتياب بنحو وصل حدّ التفكير الجهري بتوسّل النجدة والمعونة من الأسطول السادس التابع لسلاح البحرية الأميركية، لغرض كبح حزب الله وردعه بحراً. في حين تعالت أصوات قادة كبار من سلاح البحرية الإسرائيلية(678) للمطالبة بإعادة تعريف دور هذا السلاح، وتعيين وظائفه، وتحديد مهامه المستجدّة، كما إعادة تفعيله وتشكيل قواته بناء للتحدّيات الراهنة والتهديدات الداهمة(679)، لاسيما بعد أن صير إلى إخفاق وفشل موصوف في بلورة ردود فاعلة على إشكاليات الردع المتأتي من جبهة جديدة، لم تكن إلى الأمس- أقله في النزاع مع حزب الله- ضمن حسابات الجيش الإسرائيلي وأولوياته.

يذكر أنّ الخشية الإسرائيلية من أيّ حصار بحري قد يفرض على شواطئها وموانئها وسواحلها، سواء من ناحية البحر الأبيض المتوسط، أم من ناحية البحر الأحمر، هي ذات جذور ضاربة تعود إلى حرب تشرين/ أكتوبر من العام 1973، وذلك حين أحكم العرب الحصار عليها، وغلّقوا الأبواب في وجه حركة الملاحة والتجارة لديها، بفعل إقدامهم على اغلاق مضيق باب المندب(680). ومنذ تلك الواقعة، لا تنفكّ إسرائيل في كلّ تقديراتها وتصوّراتها الإستراتيجية، تجعل من فرضية أن يشكل البحر تهديداً إستراتيجياً فرضية قائمة وماثلة بقوّة، ما يستلزم منها العمل على اجتنابه وتحييده ودرء مخاطره، وذلك بسبب من أنّه قد يضعها في شبه عزلة في اللحظة التي تهمّ الشرارات الأولى لأيّ حرب بالانطلاق. واستطراداً، فإنّ الأمر من شأنه أن يُلزم قادتها وذوي القرار فيها- بعد إطلاق السيد نصر الله لمعادلته البحرية- بإجراء مراجعات دائمة لخياراتهم العسكرية والأمنية، كما يدفع بهم دفعاً إلى إعادة نظر في كلّ تقديراتهم، وإلى احتساب كلّ خطواتهم، وإلى التفكير ملياً قبل إقحام أنفسهم في أيّة مغامرة متسرّعة وغير مدروسة بعناية، لاسيما وأنّ مشهد انفجار البارجة الحربية حانيت (ساعر- 5)(681) قبالة شاطئ بيروت في الرابع عشر من شهر تموز/ يوليو من العام 2006، لا يزال ماثلاً في الأذهان، وضاغطاً على الوعي الإسرائيلي، بكلّ ما ترتب على ذلك- وقتئذ- من تحييد لسلاح البحرية، ومن انكفاء لكلّ قطعه الحربية إلى خارج المياه الإقليمية اللبنانية.

وكانت العقيدة الأمنية والعسكرية الإسرائيلية، قد نظرت إلى البحر من حول فلسطين بوصفه قيداً(682)، ذلك أنّ المسالك والممرات المائية والملاحية التي يوفرها كلّ من البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر(683)، تعدّ طرقاً ملزمة لاستقرار نشاط إسرائيل التجاري مع أسيا وأوروبا وافريقيا، لاسيما في مجال استيراد مصادر الطاقة، وبنحو أخصّ البترول الذي يعتبر العصب الحيوي الرئيس للحياة، كما للصناعات المدنية والعسكرية فيها(684).

والحال هذه، تنطوي المعادلة القائلة بحصار إسرائيل بحرياً اذا ما أقدمت الأخيرة على حصار الشواطئ اللبنانية في حال إندلاع الحرب، على شفرات ورسائل ذات دلالات إستراتيجية وعسكرية بالغة الأهمية. ذلك أنّ إطلاق السيد حسن نصر الله لوعيده ولتهديده بضرب أي هدف بحري على امتداد البحر المتوسط، وصولاً إلى البحر الأحمر، يعني فيما يعنيه، إستراتيجياً وتكتيكياً: أنّ كلّ الممرات البحرية والمسارات الملاحية التي تتوسّلها السفن والقطع الحربية الإسرائيلية وغير الإسرائيلية باتت جميعها تحظى برقابة حزب الله على نحو من الدقة والصرامة، وتقع ضمن دائرة الإستهداف الصاروخي.

كما يعني- من جهة ثانية- أنّ حزب الله بات بحوزته تكنولوجيا معقدة على صعيد التسلح البحري: رادارات متطوّرة(685)، وترسانة صاروخية دقيقة(686)، ووسائل إلكترو-بصرية، وسوى ذلك من قدرات تتيح له أن يتوافر على معلومات استخبارية دقيقة عن أي هدف ثابت أو متحرّك، عسكري أو مدني، يتواجد في البحر المتوسط أو البحر الأحمر، وتمكنه من تحديد هويته ووجهته، وبالتالي تحديد السفن المتجهة إلى الموانئ الإسرائيلية، وتمييزها عن سواها، وتحديد طبيعة حمولتها سواء أكانت مدنية أم عسكرية، واستطراداً التصويب عليها واستهدافها.

ثمّ طوّر السيد نصر الله هذه المعادلة البحرية الجديدة، ووسّع مروحة اشتغالها ومدار عملها وتأثيرها، بعد الكلام الإسرائيلي المتعالي عن استباحة لحقول النفط المكتشفة في المياه الإقليمية اللبنانية، وعن ممارسات ترهيبية بهذا الشأن على الشركات ذات الصلة، للحيلولة دون قبولها بعروض قد تنظمها وتحرّرها الحكومة اللبنانية لغرض استثمار هذه الحقول؛ إذ استكملت المعادلة الأولى واستتبعت بمعادلة «المنشآت النفطية الإسرائيلية، في قبالة منشآت لبنان المستقبلية»، حيث ضاعف السيد نصرالله من التهديد الإستراتيجي بإضافة المنصّات النفطية التي تعدّها إسرائيل إلى بنك الأهداف البحرية لحزبه، وتقصّد أن تصل رسائل المنع والردع إلى من يعنيه الأمر مباشرة، وذلك في معرض طمأنة الشركات العالمية، من أنّها سوف تكون في مأمن متى قرّرت المباشرة والشروع بأعمال التنقيب: «من يمسّ بالمنشآت المستقبلية في المياه الإقليمية اللبنانية» والكلام لنصر الله «فسنمسّ منشآته، وهو يعلم أنّ لبنان قادر على ذلك»(687).

لكن ما هو مستوى الردع الذي بمقدور حزب الله أن يوفره لصون سيادة لبنان البحرية، ولحماية ثرواته النفطية والطبيعية، في مواجهة القدرات الإسرائيلية على هذا الصعيد، وفي هذا الميدان من ميادين الصراع؟. وفي المقابل، ما هي حدود القدرة الإسرائيلية على حماية منشآتها النفطية ومنصّات التنقيب وخطوط نقل الغاز(688)، التي صير إلى توصيفها بأنّها «البطن الرخوة لإسرائيل»، على حدّ تعبير وزير الجبهة الداخلية اللواء ميتان فلنائي.

ينبغي الإلفات إلى أنّ إطلاق السيد حسن نصر الله تهديداً ووعيداً بفرض حصار على حركة السفن والملاحة والتجارة والموانئ الإسرائيلية، كما على القطع البحرية العسكرية؛ يجد سبيله إلى الترجمة والتحقق- وفق ما يشير إليه الخبراء- في حال توافر منظومة متكاملة قوامها:

أ ـ القدرة على الاستعلام والاستخبار والاستطلاع: تتحقق من خلال توافر وسائل وتقنيات فنية ذات صلة؛ كالرادارات البحرية المتطوّرة، وما شاكلها من وسائل وتكنولوجيات وأجهزة تتيح أعمال التنصّت، والمراقبة، والرصد، وتحديد الأهداف، وتحليلها، والوقوف على طبيعتها، وهويتها، ونوعيتها، ووجهتها، وحمولتها، ومسافات توضعها، وسرعة انتقالها...

ب- القدرة العسكرية على التصويب والاستهداف والضرب، كما على الإضرار والإعطاب والتدمير: تتحقق من خلال توافر كفاءات قتالية، مدرّبة تدريباً جيداً، ومؤهلة للاضطلاع بهذه المهام. فضلاً عن امتلاك منظومة صاروخية بحرية دقيقة، وفاعلة، وذات مديات متعدّدة (قصيرة وبعيدة). ذلك أنّ تهديد السفن والقطع الحربية والموانئ الإسرائيلية، يتطلب من حزب الله نماذج متقدّمة ومتطوّرة من صواريخ كوسر، وصواريخ C-802 الصينية، ونور الإيرانية، وياخونت الروسية، وصواريخ باليستية لاستهداف ميناء أشدود بالقرب من عسقلان، ولاستهداف الملاحة في

البحر الأحمر، لاسيما مرفأ إيلات، وصواريخ متوسّطة؛ كـ(الغراد) و(الكاتيوشا) لضرب منشآت الموانئ البحرية في حيفا وعكا(689).

ج- القدرة على الديمومة والاستمرار في إحكام الحصار، وفي الإبقاء على إيقاع النار المتمثل في قصف وضرب الأهداف البحرية المحدّدة : تتحقق من خلال امتلاك ترسانة صاروخية هائلة، تلحظ بعين الاعتبار تدحرج الحرب، واستطالتها، وتطوّر أعمالها، واتخاذها وجهات تصعيدية. فضلاً عن توافر الحافزية والدافعية لدى المقاتلين.

ما يعني أنّ إطلاق السيد حسن نصر الله لمعادلته البحرية الجديدة، وإعلانه عنها على هذا النحو، ما كان له أن يستقيم بإطلاق- وهذا ما يدركه العارفون بطبيعة اشتغال العقل العسكري والأمني لحزب الله- لولا اكتمال جهوزية الحزب واستعداداته على هذا الصعيد، وبالتالي فإنّ «على السفن الإسرائيلية» يقول- محلل الشؤون العسكرية في مركز (التقويم الإستراتيجي) في واشنطن- روبرت وورك «تشغيل جميع أنظمة الدفاع والإنذار، والافتراض أنّها واقعة تحت تهديد متعدّد الأبعاد في أيّة لحظة».

وفي مرحلة لاحقة، تمدّدت مفاعيل التوازن الردعي القائم لتلامس مخاوف الإسرائيلي، ولتثير هواجس القلق لديه: هل امتلك حزب الله سلاحاً كاسراً للتوازن؟. والمراد بـ«كاسر التوازن» هنا، هو توافر الحزب على منظومات دفاع جوي متطوّرة، وعلى أسلحة صاروخية مضادة للطائرات ذات فعالية كبيرة، من شأنها أن تمثل تحدّياً جدّياً لقدرة سلاح الجو الإسرائيلي المطلقة، وأن تعطل تفوّقه، وأن تصيب حركته بالشلل، وبالتالي أن تحول دون استباحته للأجواء اللبنانية.

ينبغي التنبّه هنا، إلى أنّ الكلام الإسرائيلي عن سعي حزب الله إلى الإخلال بالستاتيكو الناظم لحركة الصراع من طريق (كسر التوازن)؛ ينطوي ضمنياً على إقرار إسرائيلي بأنّ قوام المعادلة التي استقرت بين الطرفين المتنازعين، هو ليس إلا حالة من التوازن. فالحديث عن أنّ توافر منظومات دفاعية جوية فاعلة بحوزة حزب الله، من شأنها أن تودي بهذه الحالة من التوازن القائم إلى التصدّع والتداعي والانهيار؛ يعني فيما يعنيه أنّ إسرائيل تنظر إلى تفوّقها الجوي بوصفه مثقال التوازن، وأنّ تعطيله أو كسره سوف يرتب آثاراً إستراتيجية بالغة الخطورة على معادلات القوّة حيال لبنان والمنطقة. ما يفقد الدولة العبرية حجر الزاوية في تفعيل قدرتها على الهجوم والدفاع، فضلاً عن قدرتها على الردع.

وبالعودة إلى الإجابة عن سؤال امتلاك حزب الله للمنظومات الدفاعية الجوية؛ نقول إنّ السيد حسن نصر الله يحرص- وهذا ديدنه- على أن لا يطمئن الإسرائيليين بنحو مجاني، وعلى تغليف إجاباته بمسحة من الغموض الفاعل والبنّاء، لا سيما إذا كان الأمر ذا دخالة وعلاقة بموضوعة الردع والدفاع الجوي. ولذلك نرى إليه كيف غمز من هذه القناة، وكيف تقصّد إمرار الإشارة إلى أنّ حزب الله أصبح يتوافر على إمكانات دفاعية جوية، من خلال الحديث العام عن قدرات حزب الله التسلحية وعن محاولات داخلية وخارجية مغرضة لنزع هذه القدرات تحت شعارات ودعوات وعناوين زائفة ومخاتلة يرتدي بعضها لباس حواري ووطني: «أمّا من يريد أن ينزع، أو يفكر أن ينزع صاروخ الزلزال، أو الصواريخ البعيدة، أو راجمات الصواريخ، أو إمكانيات الدفاع البحري، أو إمكانيات الدفاع الجوي» يقول السيد نصرالله من خطبة العاشر من محرم «فهذا الأمر لن يتحقق ولن يحصل»(690).

وهكذا يكون السيد حسن نصر الله قد نجح- من جهة- في إرساء معادلة «التكافؤ المتقابل بالأهداف»(691)، وقد أحكم- من جهة ثانية- إغلاق معادلات الردع، وضبطها، وتقنينها، بما يقيّد عمل الأذرع العسكرية للجيش الإسرائيلي في كلّ من البر والبحر والجو، ويحول دون تفرّدها في قرار الحرب، ودون إطلاق يدها في استباحة الأرض والعرض والسيادة، وهذا غير مسبوق في تاريخ الصراع العربي- الإسرائيلي، وله مدخلات عديدة:

فإذا كانت حرب تموز- آب من العام 2006، قد «أضعفت صورة الردع الإسرائيلي» على ما يقول موشيه يعلون من محاضرة نظمها المركز الإسرائيلي للتدريب والتأهيل بتاريخ التاسع عشر من شهر آذار/ مارس من العام 2007، وأضرّت بها، ووهنتها، وسفهتها، وأساءت إلى سمعتها؛ فممّا لا شكّ فيه ولا ريب، أنّ تعاظم القدرات الذاتية لحزب الله في أعقاب الحرب مباشرة، وتناميها بوتيرة تصاعدية إلى حدّ أنّها فاقت قدرات دول بعينها(692)، إلى جانب إنخراطه– أي الحزب- في أحلاف إقليمية تعتنق بالتكافل والتضامن إستراتيجية «الحرب الشاملة»، فضلاً عن تكريسه وإرسائه لمعادلات «الردع المؤكد المتبادل»؛ قد أذهبت جميعها بهيبة الردع الإسرائيلي إلى غير رجعة، وأودت بسلطته وعصاه الغليظة- التي لطالما تغنّى وتشاوف بها- إلى تآكل وقضم حادّ، وإلى مهاوٍ سحيقة، ليس بمقدور كلّ ورش الترميم وإعادة الهيكلة والبناء والإنعاش وبثّ الروح التي عكف الإسرائيلي عليها أخيراً، أن تعيد لها بعض ألقها وعافيتها وحضورها.

السؤال الذي يطلّ برأسه شافا عن قلق وشكّ نقدي وعقلي يقع في مكانه السليم، وذلك بلحاظ النظر إلى ميزان القوّة المختل بحدّة لغير مصلحة حزب الله: هل يمكن للرادع الأقلّ تأثيراً وفعالية ردع الرادع الأكبر تأثيراً وكبحه؟.

لا تتأخر كثيراً الإجابة الموجبة، إذا صير إلى قراءة حفرية واعية تستحضر تاريخ الحروب والصراعات، لاسيما تلك المعاصرة منها، حيث يتكشّف الأمر عن حقائق وإنجازات وانتصارات ومكاسب وفتوح عظيمة، كان يُوفق إليها الطرف ذو الردع الأقلّ دون الأقوى، عندما يجيد ويحسن استخدام واستعمال وتوظيف الرادع، وعندما يتوافر على مصداقية عالية بهذا الخصوص لجهة الإرادة والعزيمة والقدرة على الفعل.

أمّا إذا قيّض لنا أن نقف على طبيعة وكنه الأهداف التي ينشدها الردع، بل يجعلها طريدة يجدّ في طلبها، كما يجعلها منتهى السعي والمآل؛ لأمكننا أن نقع على خارطة توزّعها إلى حساسيتين:

الأولى منها يطلق عليها اصطلاحاً «أهداف القوّة المضادة: Counter Force Targets». وهي أهداف من طبيعة عسكرية خالصة، أو أنّها أهداف ذات صفة عسكرية؛ عكف حزب الله على رصدها، وتحديدها، وتشخيصها بدقة بالغة، من خلال عمل استخباري دائب وغايةٍ في التعقيد، لتلج بعد تنضجها واستوائها إلى بنك الأهداف خاصته، وكي يصار لاحقاً إلى استهدافها والتصويب عليها، على النحو الذي كانت عليه الحال في حرب تموز- آب من العام 2006. وتضم هذه القائمة من جملة حمولاتها: المنشآت النووية والكيمائية والبيولوجية وسواها، كما تضم تجمّعات الجنود، والثكنات، ومراكز القيادات، وأماكن الحشد، ومعسكرات التدريب، ومصانع التكنولوجيا العسكرية، وخطوط الدعم اللوجستي، وعقد المواصلات، وأنظمة الإشارة والبثّ والإنذار، والمطارات، والموانئ، والقواعد البحرية والجوية والأرضية، ومنظومات الدفاع، ومستودعات الذخيرة والأسلحة وتخزين الوقود... وما إلى ذلك من أهداف ذات صلة.

أمّا الطائفة الثانية من الأهداف، فيطلق عليها اصطلاحاً تسمية «أهداف القيمة المضادة: Counter Value Targets». وهي أهداف حيوية كبيرة الحجم، بالغة التأثير، من شأن التعرّض لها بالإضرار والتدمير أن يتسبّب بخسائر جسيمة على غير صعيد، وأن يتأدّى إلى نتائج كارثية قد لا يكون من اليسير على أيّة دولة حمل أكلافها وتبعاتها. وقد ألحّ حزب الله على إلحاق هذه الأهداف في دائرة استهدافاته، وعلى موضعتها في مرمى نيرانه المركزة، كردٍ فاعل على إمعان الإسرائيلي في التعرّض لمثيلاتها من الأهداف في الساحة اللبنانية، ولاسيما بعدما كثر التهويل بما سمّي إسرائيلياً «عقيدة الضاحية». وكان السيد حسن نصر الله قد أشار غير مرة إلى هذا التطوّر، لكنه في السادس عشر من شباط من العام 2010، كان أكثر وضوحا في الإعلان عن إدراج كلّ الأهداف الإسرائيلية ذات القيمة المضادة في حقل الرماية الصاروخية الدقيقة والمركزة لحزب الله(693). وتضمّ هذه القائمة بدورها من جملة ما تحويه وتنطوي عليه: التجمّعات السكانية ذات الكثافة العالية والاكتظاظ الشديد، كما تضم المنشآت الصناعية، ومراكز الاستثمار الكبرى، والمعالم السياحية، ووسائل النقل، وإهراءات تخزين المواد الغذائية، وموارد الطاقة؛ حقول إنتاج النفط، ومعامل توليد الطاقة الكهربائية، ومصالح المياه... وما إلى ذلك من أهداف ذات صلة تصنف ضمن سلالات الأهداف الحيوية.

وفي معرض إيجاد ترجمات دالة لمقولة «اندراج جملة الأهداف الحيوية في الكيان الإسرائيلي»- سواء منها ذات القوّة المضادة، أم تلك ذات القيمة المضادة- على قوائم بيانات وإحداثيات حزب الله، وأثر ذلك بنحو مباشر في الإرادة الإسرائيلية، بلحاظ التسبّب في ارتداعها، وإنكماش اندفاعتها المتهوّرة، وفرملة جنوحاتها نحو المبادرة إلى استفزازات، أو إلى افتعال حروب وأزمات؛ نقع على دراسة بعنوان (الاستخبارات الصهيونية وتحدّيات إطلاق النار منحني المسار)، أعدّها الباحث الإسرائيلي أمير كوليك، وفيها تمّت الإشارة إلى أنّ طابع الصراع بين حزب الله وإسرائيل قد شهد انعطافة وتحوّلاً ملحوظاً، من حيث أنّه اكتسب بعد حرب تموز 2006 بعداً آخر، مع «شروع الحزب في جمع معلومات ذات طابع جغرافي دقيق، تتعلق بأهداف إسرائيلية مركزية وأساسية، سعياً منه لبناء قاعدة من الوثائق والمعطيات ذات الصلة بالمنشآت والمصالح، وبالبنى التحتية الإسرائيلية، المدنية منها والعسكرية». ذلك أنّ هدف الحصول على «قاعدة البيانات والمعلومات هذه» يقول كوليك «هو إيجاد (بنك للأهداف)، لغرض استخدامه في الحرب المقبلة»(694)، حيث من المتوقع أن تكون الجبهة الداخلية الإسرائيلية العميقة، لاسيما حيفا(695) وتل أبيب(696) أو ما يعرف بمنطقة غوش دان(697)، أكثر انكشافاً أمام صواريخ حزب الله البعيدة المدى.

ونقع في سياق مماثل، على ما كان الصحافي جورج مالبرينو قد نشره في صحيفة (لو فيغارو) الفرنسية في عددها الصادر بتاريخ السادس والعشرين من شهر تشرين الأول/ اكتوبر من العام 2010: «في حربه الباردة مع الدولة العبرية» يقول مالبرينو «يبحث حزب الله عن أسلحة فعّالة ومقنعة لمواجهة القوات العسكرية الإسرائيلية. ولا يُخفي الأمين العام للحزب السيد حسن نصر الله هذا التوجّه في تهديده في شباط الماضي: (إذا قصفتنا إسرائيل، فسنقصف بناها التحتية، كالمرافئ والمطارات) . ففي النهاية، تلك هي أهداف حيازة الصواريخ البعيدة والمتوسطة المدى من (زلزال) و(فاتح)، والـ(أم600-)، التي لم يكذبها يوماً مسؤولو الحزب. بعد نصف الهزيمة التي

منيت بها القوات الإسرائيلية في العام 2006، فإنّها ترى نفسها مجبرة على التفكير مرتين قبل إطلاقها مغامرة عسكرية أخرى في لبنان».

كما نجد تمثل ذلك طيّ ما كان اللواء احتياط غيورا ايلاند(698) قد أثاره في محاضرته التي ألقاها بدعوة من مركز أبحاث الأمن القومي في جامعة تل أبيب، وذلك في الخامس من شهر أيلول/ سبتمبر من العام 2011، حيث تبدّت جرأة لافتة في المطالبة ليس بتقصير مدّة الحرب المقبلة في حال وقوعها وحسب، بل «بمنع وقوعها إذا أمكن» يقول إيلاند فـ«إسرائيل غير جاهزة لخوض حرب مع حزب الله وصواريخه النوعية»(699). ويعلل ايلاند مذهبه بالقول، إنّ صاروخاً واحداً على سبيل المثال، يسقط على محطة الخضيرة للكهرباء «سيبقي إسرائيل في عتمة طوال ستة أشهر» بالأقل، وهي نتيجة ليس بمقدور إسرائيل حملها أو التكيّف معها.

وكي لا تبقى أطروحة ايلاند خارج مدار العلمية والواقعية، أو مجرد ترف كلامي وفكري يحكمه الافتراض والتخمين؛ عكف على تشفيف الخلفيات التي صدر منها، وحشد المبرّرات والمسوّغات المقنعة، حيث يقول: «من الواضح لنا ، تماماً، وجود تغيير في تهديد الصواريخ لإسرائيل في السنوات الأخيرة، ولا ترتبط المسألة بكميات الصواريخ وأحجامها، والتي تراكمت وإزدادت، ولا بمداها ولا برؤوسها الحربية التي كبرت أيضاً، بل إنّ التغيير الأكثر أهمية وتأثيراً، هو أنّ دقة إصابتها قد ازدادت. وما إنْ تزداد دقة الصواريخ، حتى تتحوّل من سلاح عشوائي إلى سلاح دقيق الإصابة. وأنْ تتحوّل الصواريخ إلى سلاح دقيق الإصابة، فهذا يعني أنّهم لن يطلقوها على هدف كبير بحجم مدينة تل أبيب، بل سيطلقونها على أهداف نقطوية ومحدّدة، سواء أكانت محطة طاقة كهربائية، أو مستشفى، أو محطة قطار، أو مقرّ قيادة وسيطرة عسكرية، أو مطاراً مدنياً. هذه هي الأهداف في الحرب المقبلة»(700).

يذكر أنّ مواقف غيورا ايلاند جاءت معطوفة على طائفة من الدراسات والمتون البحثية ذات الصلة، التي قاربت موضوعة التهديد الصاروخي الذي باتت تمثله ترسانة حزب الله على هذا الصعيد؛ فقد أظهرت مجلة (افييشن ويك) الأميركية المتخصّصة بشؤون الطيران، في عددها الصادر في شهر آب/ أغسطس من العام 2010، حجم الخطر الفعلي الذي يتهدّد المنشآت الإستراتيجية والمصالح الحيوية الإسرائيلية، وذلك من جراء تعاظم الخطر الصاروخي. وقد نقلت المجلة عن جهات أمنية إسرائيلية قولها إنّه في أعقاب تزايد أعداد الصواريخ التي تتهدّد الدولة العبرية، كما أمديتها وحمولاتها التفجيرية، تتزايد المخاوف من أنّ الحرب المقبلة ستشهد تعرّض كلّ المنشآت الإستراتيجية فيها للإصابة(701).

من جهته، قارب- المدير السابق لوكالة الاستخبارات في وزارة الدفاع الأميركية، والباحث في (معهد واشنطن)- جيفري وايت، جهوزية حزب الله، والقدرات العسكرية والصاروخية التي باتت بحوزته، والتي من شأنها أن تتهدّد- على نحو غير مسبوق- وجودية الكيان العبري، وأن تنال بالإضرار والتدمير من كلّ منشآته ومصالحه وأهدافه الحيوية: «إنّ بمقدور حزب الله الآن» يقول وايت في تقرير مطوّل نشرته دورية (ذا أميركان انترست) الأميركية في عددها الصادر في تموز– آب من العام 2010 «أن يضرب أهدافاً في كامل أرجاء إسرائيل. وصواريخه من الدقة بحيث أنّها تكفي لضرب المنشآت العسكرية، وغيرها من المنشآت المهمة، وبمقدوره أن يطلق نحو 500 إلى 600 صاروخ يومياً. كما يتوافر حزب الله على القدرة اللازمة لتنفيذ عمليات خاصة ضد أهداف عسكرية ومدنية، وضد البنى التحتية خارج نطاق الحرب».

الجديد بنظر الاعتبار، أنّ إرساء معادلة «الردع المؤكد المتبادل» كحاكم مرجعي، من خلال القدرة على الاستهداف المتبادل والتدمير المتبادل لمصفوفات الأهداف ذات القوّة المضادة، وذات القيمة المضادة؛ لن يكون بأيّة حال من الأحوال لمصلحة السمعة العسكرية للدولة العبرية، التي لطالما تباهت باليد الطولى، وبالقدرة على الفعل والتأثير، لترى نفسها اليوم في مواجهة حزب الله مقيدة، مذعنة، تتجرّع الخيبات والهزائم والانكسارات، وتلعق جراحات كبريائها المزعوم. كما لن يكون ذلك في مصلحتها أيضاً، إذا صير إلى تثقيل معياري تقابلي لقيمة الأهداف الفعلية على ضفتي الصراع، وإذا نظر إلى هشاشة الجبهة الداخلية الإسرائيلية، وإلى انكشاف العمق الحيوي فيها للمرة الأولى، فضلاً عن صغر مساحتها، وضعف القدرة على امتصاص الخسائر، وتحمّل الأكلاف والتبعات، ودفع الأثمان المفترضة في أيّة مواجهة مرتقبة مع حزب الله.

الأمر الذي دفع بالجيش الإسرائيلي إلى الانكباب على بلورة رؤية دفاعية جديدة، علها تلائم- أولاً- ما استجدّ من تطوّر ملحوظ على القدرات التسليحية لحزب الله. وتنطلق- ثانياً- من نظرة جديدة حاكمة للمخاطر التي تحدّق بالجبهة الداخلية الإسرائيلية(702)، بسبب من دخول سلاح الصواريخ في أيّة حرب افتراضية كسلاح وازن، من شأنه أن يجعل العمق الإستراتيجي والحيوي لدولة إسرائيل جزءاً لا يتجزأ من أرض المعركة(703)، ومن «ميدان القتال في أيّ حرب مستقبلية، مع ما يترتب على ذلك من انعاكاسات على صعيد قدرة الصمود الشعبي والاقتصادي»(704). وتقضي- ثالثاً- على خلاف ما كان يعمل بموجبه في السابق، بإعادة توزيع مخازن الطوارئ من العتاد والسلاح والذخائر والوقود وقطع الغيار، وما إلى ذلك من معدات أخرى للجيش، فضلاً عن الغذاء والتموين ... على مناطق مختلفة، وعدم تخزينها في مكان واحد. وذلك عملاً بتوصيات دراسات أركانية ذات صلة، رأت أنّه «بدلاً من حماية هذه المواد» بحسب موقع يديعوت أحرونوت الإلكتروني «يمكن توزيعها على نقاط مختلفة. الأمر الذي يشوّش قدرة العدو على المساس بها» . ما يعني أنّ الإسرائيلي لم يعد في صدد وضع «كلّ البيض في سلة واحدة»(705) وفقاً لتعبير قائد دائرة الإمداد في المؤسّسة العسكرية الإسرائيلية العميد نسيم بيرتس، وبالتالي إقرار إسرائيلي بالعجز عن توفير الحماية للمستوطنين، وعن إرخاء مظلة من الأمن فوق العمق الإسرائيلي المستهدف، ثم انسحابه إلى اعتماد سياسة أكثر واقعية وبراغماتية تنشد التحوّط، والإقلال من الخسائر، والاعتراف بقدرات الحزب الردعية والتدميرية، في قبالة إدراك الإسرائيلي لمحدودية القدرة لديه على الفعل والتأثير والإضرار، بالكيفية التي كان يصار إليها في الحروب السابقة.

لكنّ ذلك دونه أكلاف وأثمان من شأنها أن تتسبّب في إرهاق الخزانة الإسرائيلية، وأن تستنفد وتستهلك مواردها وقدراتها وإمكاناتها، حيث أنّ «حماية مخزن باهظة جداً» يقول العميد نسيم بيرتس ساخراً «لدرجة أنّنا لو عرضنا هذا المبلغ على العدو مقابل عدم إطلاقه الصواريخ، فإنه سيقبله راضيا»(706). والحال هذه، وُضع الإسرائيلي- كاستجابة حتمية لتفعيل إستراتيجية الردع من جانب حزب الله- في عنق الزجاجة، وفي وضع دوني لا يُحسد، ولا يغبط عليه أبداً.

قصارى القول، إنّ مركب الردع قد شغل حيّزاً مهماً من حيّزات اشتغال منظومة حزب الله الأمنية والعسكرية، حتى قدّر له أن يتفتق إبداعاً عن «توازن رعب» غير مسبوق، حكم معادلة الصراع بين حزب الله وإسرائيل، وضبط إيقاعاتها على النحو الذي لم يعد فيه بمقدور إسرائيل أن تستبيح، وأن تنتهك، وأن تقتل وتدمّر وتروّع، دون أن يحضر في ذهنها ردّ قاسٍ ومؤلم يفوق قدرتها على

حمل أكلافه وتبعاته، ودون أن تشرّع الأمور والحدود على حرب مفتوحة شاملة، تتدحرج وتستطيل من غير أن تمتلك القدرة على إيقاف عجلاتها، أو بالأقل أن تمتلك إمكانية التحكم بوجهتها ومساراتها ونتائجها. ما يعني، أنّ ثمّة انقلاباً مفاهيمياً استجدّ على العقل الأمني والعسكري الإسرائيلي؛ معه تداعت وتقوّضت مقولة: إنّ «ما لا يمكن تحقيقه من خلال تفعيل استخدام القوّة، سيكون بالمقدور تحقيقه من خلال مزيد من تفعيل استخدام القوّة»، لتتوضع مكانها وتشغل حيّزاتها مقولة أخرى بديلة، ترى أنّ عهد توسّل القوّة في سبيل إملاء الإرادة السياسية، وفرض الشروط، ودفع التهديدات والمخاطر، وإختلاق الفرص، وإحداث التغييرات والتحوّلات في البيئة الإستراتيجية لإسرائيل قد ولى، أو يوشك، وأنّ وظيفة الحروب لم تعد بالنسبة إلى الدولة العبرية- كما كانت في سابق عهدها- ذات نفع وجدوائية لتحقيق مآرب وأهداف سياسية، بل أصبح حالها اليوم لضمان البقاء والوجود، كما للدفاع عن الأمن والحدود.

وإذا كان ثمّة من يلحّ على إغفال أو تجاهل الوظيفة الردعية لسلاح حزب الله، أو تخفيت بريقها وتبهيت حضورها، أو التقليل من شأنيتها؛ فإنّه ليس بالمقدور إيجاد فهم أو تفسير لذلك خارج إطار التشويش على المهمة التي يضطلع بها الحزب في هذا المجال، وخارج إطار الإساءة المتعمّدة إلى الدور الريادي الذي ينهض به على هذا الصعيد، كما ليس بالمقدور موضعته خارج نسق الهروب إلى السياقات الملتبسة في جدلية الصراع الدائر مع إسرائيل على مرّ عقود من الزمن.

إستراتيجية تثوير الوعي

لا تستكمل مفاعيل الحرب النفسية، ولا يمكن لها أن تؤتي أكلها على نحو موجب، دونما عملية جراحية معقدّة ودقيقة تستبطن تثوير الوعي العربي الجمعي العام، واستنهاضه، وتنشيط روافعه وحوامله، من خلال إعادة تخليق وإنتاج الصورة التي يحملها الإنسان العربي عن إسرائيل (الأسطورة، الفزاعة، القدر المحتوم، اللعنة الأبدية التي لا تردّ ولا تبدّل ولا تزول، الجيش الذي لا يقهر...)، وبالتالي إعادة إنتاج الصورة التي يحملها العربي عن نفسه، وعن حقيقة قدراته وإمكاناته وأسباب القوّة لديه. إلا أنّ ذلك لا يستقيم، ولا يستوي بإطلاق، دونما إعمال معاول الهدم والكيّ في روائز الوعي الإسرائيلي، وإفساد مبانيه وحوامله، مع ما يترتب على ذلك- بالضرورة- من دفع إسرائيل إلى تعقل حقيقة قدرتها، وقوّتها، وتعقل حدود الفعل والتأثير لديها، بعدما يصار إلى تشذيب أغصانها المتطاولة في غير مكانها، وإلى تنفيس وتفريج الاحتقان، أو التورّم والتضخم المصطنع في مقدار سطوتها وبأسها، وفي حجم إمكاناتها ونفوذها. كما كسر الصورة النمطية المكوّنة والمترسّبة في الوعي الإسرائيلي عن المقاتل العربي، بوصفه مقاتلاً جباناً، لا يقوى على المواجهة والمناورة، ولا يمتلك الشجاعة والإقدام، وليست لديه حيلة في الحرب أو دراية في فنونها.

والحال هذه، عكف حزب الله على تفعيل الاشتغال والعمل- على نحو متواز ومتسق- في سياسيتين إستراتيجيتين: الأولى تدأب على توفير العناية والاهتمام بكلّ ما من شأنه تثوير الوعي العربي العام، وتقديم المنشّطات اللازمة لفعل الاستنهاض والجاهزية والتوثب والتحفيز والحضور الفاعل. وفي قبالة ذلك، تعنى الثانية بكيّ الوعي الإسرائيلي العام، كما بتوهينه وتثبيطه وانكفائه، وفرملة اندفاعته وانطلاقه، وكبح جماحه، والنيل من عزيمته وإرادته: «لقد تغيّرت المعادلات والحسابات» يقول السيد حسن نصر الله «والعدو هو الذي يجب أن يبقى خائفاً وقلقاً وهو خائف وقلق، ولكن إضافة إلى إيجاد حالة الخوف عند العدو يجب أن يكون لدينا ليس حالة عدم الخوف فقط، بل حالة

الاستعداد واليقين والإيمان والثقة بالنصر، بأنّه نعم الحرب المقبلة سنواجهها وننتصر، وسنغيّر وجه المنطقة»(707).

هذه البراعة المتقنة في احتساب الخطوات، وهذا الدفع المتوازي في كلا الاتجاهين الداخلي والخارجي؛ إنّما يأتي صدوراً من اعتقاد وميقونية، بأنّ المواجهة الدائرة هي بين عقلين، وبين وعيين، بما يختزن كليهما من ثقافة وقيم وإرادة ودافعية وموروث حضاري، وبما يتوافران عليه من منعة واستعصاء، حيث تغدو الآلة العسكرية مجرد آداة تتوقف فعاليتها، ويتعيّن تأثيرها، ومدى الإفادة منها، كما قدرة تحقيقها للهدف، على العقل الفاعل والمشغّل، الكامن خلفها، والقائم عليها.

لا شكّ أنّ إنعام النظر النقدي الفاحص في مشهدية الصراع المرير بين إسرائيل وحزب الله، يكشف كيف كان الأخير يوظف ويثمر أيّ إنجاز أو فتح أو نصر يتوافر عليه في ساحة المواجهة، مهما كان ضئيلاً أو متواضعاً- مستعيناً في سبيل ذلك بغير وسيلة وأسلوب- في خدمة شدّ عصب شارعه، والشارع العربي والإسلامي بعامة، وفي شحذ همم جماهيره وأنصاره، ورفع وتعزيز روحهم المعنوية، وفي تعميق ثقتهم بمشروعه ومسيرته ونهضته، كما في إعداد إنسانه إعداداً صارماً على نحو يجعل منه إنساناً مبادراً، متوثباً، مستعدّاً للتضحية والفداء، حاضراً في الساحات، متبنياً ومناصراً للقضايا الوطنية والقومية الكبرى. ولم تكن ثمّة حاجة لحزب الله في سبيل غايته تلك، أن يتبنّى خطاباً تحريضياً، أو يختلق عناوين ولافتات استنهاضية من طبيعة ديماغوجية، ولا أن يصدر من شعارات ومواقف زائفة مضللة؛ لأنّ قضيته المركزية الأم وأطروحته للصراع هي عينها قضية وأطروحة عموم العرب والمسلمين، بل كان يكفي له أن يجلب نصراً مؤزّراً بائناً، في قبالة همجية الآلة العسكرية الإسرائيلية المتغطرسة، بعد سلسلة طويلة من النكسات والهزائم والانكسارات والإخفاقات التي منيت بها الرسميات والحكومات والأنظمة العربية، كي يحرّك سواكن الأمة، ويعتقها من إسار خدرها وتحنطها وركودها، وكي يعيد تثقيلها بعد انعدام وزنها وفعاليتها وتأثيرها.

يكفي في بيان ما ألمعنا إليه، ملاحظة كيف أنّ انتصارات حزب الله الميمونة، قد حرّرت رسالة مضادة مفادها: «نحن قادرون». وذلك بعد أن زلزلت العقل العربي، على نحو دفع باتجاه تحريره من ذلك الوعي الزائف الذي عملت إسرائيل طوال ستة عقود ونيف على إيجاده وترسيبه، والقاضي بعجز العرب وتخلفهم في قبالة تفوّق العقل الإسرائيلي وتعاليه؛ فإنّ الرسالة التي استبطنتها انتصارات حزب الله قد نسخت وجبّت هذه الجهود، وأصابت هذا الوعي الزائف- الذي صير إلى نشره وضخه- بالإعطاب والتعطيل والعقم، بعد أن أثبتت بالتجربة الواقعية الحيّة إمكانية إلحاق الهزيمة بإسرائيل، كما الإضرار بها، وأكدت بما لا يقبل الشكّ أنّ العقل العربي قادر على منازلة العقل الإسرائيلي، بل قادر على مزاحمته والتفوّق عليه في غير مجال وصعيد. واستطراداً، ثوّرت باقة انتصارات حزب الله الوعي العربي بعامة، وشكلت محرّضات دافعة حفزت الآلاف من الشباب اللبنانيين- بخاصة- على الانخراط في صفوفه، والانتظام تحت رايته وولايته، وبالتالي على الخضوع لدورات عسكرية مكثفة استعداداً للمواجهة المقبلة مع الجيش الإسرائيلي. وقد بلغ التدافع حدّاً تسبّب بداء التخمة، بحيث أصبحت وحدات الحزب وتشكيلاته وأطره عاجزة عن استقبال المزيد من المقاتلين الراغبين طوعاً في الإنضمام إليه(708).

وهكذا نرى إنّ أهم ما تكشّفت عنه الحرب الإسرائيلية على حزب الله في تموز- آب من العام 2006، وكان مثار ومدعاة اندهاش واستغراب الصديق والعدو، القريب والبعيد على حدّ سواء؛

هو صناعة الإنسان وفق ما أفضى إليه مختبر حزب الله: الإنسان - المقاتل بصلابته، وإرادته، وشجاعته، وتضحيته، وبطولته، وحيلته، وذكائه، وقدرته على الصمود والمواجهة والمناورة، فضلاً عن تمايز ملحوظ في إدارة الحرب وصولاً إلى استجلاب وتحقيق النصر. والإنسان- المواطن بقدرته على تحمل الصعاب، وركوب موج المخاطر والشرور، والاستهانة بالموت، والاستخفاف بالحروب، وتكبّد ويلاتها، وما قد تسفر عنه من دمار وقتل ومجازر وتهجير، هذا فضلاً عن اطمئنانه، وسكينته، وعميق ثقته بقادته كما بالنصر المؤزّر، فـ«قبل السلاح ومع السلاح وبعد السلاح» يقول السيد نصر الله مقارباً أطروحة النصر والغلبة «عنصر القوّة الحقيقي هو هذا الشعب وهؤلاء الأهل وهؤلاء الرجال والنساء والكبار والصغار، هذه العقول المؤمنة، والقلوب الشجاعة، والإرادات الصلبة، والعزائم التي لا تلين، والأنفس المستعدّة للتضحية، قيمة هذا السلاح أنّه في يد هؤلاء الرجال، وقيمة هؤلاء الرجال أنّهم من أصلاب هذا الشعب وأرحامه، وقيمة هذا السلاح وهؤلاء الرجال أنّ هناك من يحتضنهم، ويدافع عنهم، ويحميهم، ويثق بهم ويراهن عليهم(...)، هذا السلاح الرهان فيه على القبضة التي تمسك به، على القدم الثابتة في الأرض»(709).

وللغاية، عكف حزب الله، كما تشفّ المقاربات السوسيولوجية للحالة التي يمثلها، وبقصد إعادة صياغة الوعي العربي الجمعي، والوعي الإسلامي العام، على إعادة إنتاج، أو إعادة تشكيل ثوري لكلّ من المشروع الإسلامي والثقافة العربية، من خلال تخيّر دقيق ووازن- وبعناية بالغة- للمفاهيم الإسلامية المستمدّة من القرآن الكريم(710)، ومن السير النبوية الشريفة، ومن الوقائع الجليلة في التاريخ العربي والإسلامي، وذلك كتعبير ضمني وصريح عن إدراك الخزين الثوري الهائل الكامن والماثل في المشروع الإسلامي(711)، كما تأصّل الميل المناهض والممانع للاستعمار في الثقافة العربية، ما بالمقدور أن نقع على مصاديقه وترجماته في استحضار السيد حسن نصرالله بين تضاعيف خطابه وأدبياته لآيات قرانية بعينها(712)، ولأحاديث نبوية بعينها، ولمواقف محدّدة ذات دلالة(713)، ولشخصيات تاريخية إسلامية على قدر من الأهمية(714)، إلى جانب التأكيد الملحّ على هوية الحزب العربية والإسلامية، بكلّ ما يمثله من مقاومة فاعلة للمشاريع الإستعمارية الأميركية والغربية والإسرائيلية؛ وإسقاطها جميعاً على أطروحة الصراع، بحيث بدا أنّ حزب الله قد أدخل- وبمهارة فائقة- كلّ التاريخ العربي والتاريخ الإسلامي في المعركة مع إسرائيل، ووظفهما خير توظيف: ففي توصيفه لإسرائيل بأنّها «أوهن من بيت العنكبوت»(715)، لا يكون السيد حسن نصرالله قد اختار مفهوماً إسلامياً قرآنياً(716) لغرض صياغة فكرة وصورة جديدتين لإسرائيل، وبالتالي إنتاج صورة جديدة للعربي عن نفسه وحسب؛ بل يكون قد «أبطل مرة وإلى الأبد» يقول سيف دعنا «مفعول حرب 1967، وكلّ ما ترتب عليها من استدخال للهزيمة في الوعي العربي، والإقرار العاجز بوجود إسرائيل واستدامتها»(717).

كما إنّ إنعام نظر نقدي مماثل لمشهدية الصراع عينها، ولكن بلحاظ تثمير حزب الله لإنجازاته وانتصاراته وفتوحه ومكاسبه في عملية هدم حيوي منظم للوعي الإسرائيلي العام؛ يكشف هو أيضاً عن الدرك الذي آل إليه الأخير، إذ أجاد حزب الله تجويف الوعي الإسرائيلي وكيّه، والإضرار بمخياله، والتعرّض لمحفزاته ومنشّطاته وروافعه وحوامله...حتى صير به إلى حال من النكوص والارتكاس، وإلى احتفار ندوب غير محمودة في طبقاته، وإلى أن يتوزّعه- بنحو مرضي- الخوف والقلق والهلع واليأس والإحباط، بسبب من انعاكاسات وتأثيرات التشكل النمطي لصورة حزب الله

لديه، الأمر الذي انعكس عزوفاً عن الإلتحاق بالخدمة العسكرية(718)، واختلاق الأعذار في سبيل ذلك(719)، كما انعكس فراراً من أرض المعركة، وتحاشياً وتجنباً لكلّ أشكال الاحتكاك والالتحام المباشر مع مقاتلي حزب الله. ذلك أنّ حبل الصرّة والصلة القائم سوسيولوجيا- وعلى نحو جدلي- بين كلا المستويين العسكري والاجتماعي ضمن الانتظام المجتمعي العام للكيان الإسرائيلي؛ يسمح بتسرّب مشاعر الانهزام والاحباطات وحالات الوهن واليأس والخوف التي يعايشها الجنود ويكابدونها، من داخل ثكناتهم وتشكيلاتهم العسكرية، إلى داخل الأطر والأنساق الاجتماعية التي يقيمون فيها، ويأتون منها. ما كان يفضي إلى تفعيل إعادة انتاج الصور المتشكلة من مصدر الخوف والهلع والوهن والقلق والإحباط- أي حزب الله، بالتساوق مع مقدار الانفعال المتأتي كاستجابات لما يجري من مخاطر وتهديدات على الجبهة اللبنانية، لاسيما حين «يعود الإولاد إلى البيت» كما يردّد الجنود وفقاً للأغنية الإسرائيلية، ولكن «نعود داخل توابيت»(720).

تقود المعاينة الفاحصة للتهديد الذي طالما مثله حزب الله على صعيد الصراع مع إسرائيل الدولة والجيش والكيان، إلى الوقوف على عتبة وعي صحيح بكلّ المسالك والمسارب المفهومية التي تسلل عبرها هذا الحزب إلى المخيال والذاكرة والعقل، كما إلى الوعي الإسرائيلي الجمعي العام. ذلك أنّ السنوات العجاف من المواجهة الدائرة بين طرفيّ الصراع، فاقمت- بنحو دراماتيكي- من استشعار المزاج الإسرائيلي بوجود حالة من التكافؤ القتالي أو من «المجاراة القتالية»(721) لدى محاربي حزب الله وناشطيه، في قبالة جنود الجيش الإسرائيلي. ما يعني- نسبياً- إقراراً وتسليماً بقدرة حزب الله، كما باقتداره وتعاليه وتفوّقه، وتوفره على أسباب القوّة والغلبة والبأس. أمّا مسوّغ هذا الإدعاء، فمردّه إلى أنّ العقل الجمعي الإسرائيلي الذي استقام على مقولة: أنّ جيشهم هو الجيش الذي لا يُقهر؛ هو نفسه العقل الذي أقرّ صاغراً بأنّ حزب الله- على الرغم من اختلال ميزان القدرات العسكرية لغير مصلحته، ورجحان الكفة بما لا يقاس لمصلحة الإسرائيلي- قد استطاع أن يُلحق بهذا الجيش الهزائم النكراء، وأن يتسبّب له بالإخفاق والفشل والتعثر في غير موقعة وحرب، وبنحو باتت معه أطروحة عدم القدرة على جلب النصر، من البداهات الحاكمة لدى الرأي العام الإسرائيلي، وذلك بعد أن استوطنت الوعي الجمعي هناك إشكالية بديلة قوامها: كيف ندرء شرّ حزب الله، ونسلم من إحكام قبضته علينا؟.

لقد أحدث حزب الله تحوّلاً مفصلياً في مشهدية الصراع العربي مع إسرائيل، وأجرى منعطفاً حادّاً وخطيراً في تاريخ هذا الصراع ووقائعه، وأقام قطيعة مع كلّ ما صاحبه من حمولات دالة وطأت الوعي العربي بالذل والهوان والتصاغر والدونية، وحقنت في المقابل الوعي الإسرائيلي بمحفزات وبروافع الاقتدار والقوّة؛ إذ غيّرت حرب تموز- آب من العام 2006، كامل تفاصيل الصورة المنمّطة على غير صعيد، وبدّلت عموم مكوّنات الحدث، حيث أبدلت النتائج الميدانية التي تمخضت عنها الحرب «نظرة إسرائيل إلى نفسها على النطاق العسكري»(722)، وخلفت «آثاراً بعيدة المدى بنظرنا» وفقاً للتقرير النهائي للجنة فينوغراد «مثلما هو بنظر أعدائنا وجيراننا وأصدقائنا في المنطقة والعالم»، ووسمت على حدّ تعبير آري شبيط «الوعي الإسرائيلي كإخفاق»(723)، بل كفشل أودى إلى نتائج كارثية على المستوى الإستراتيجي. ذلك أنّ الإسرائيلي لم يتمكن على جري عادته «من تحقيق أهدافه في ميادين القتال» يقول ميشيل كيلو «أو من تقديم جيشه في الصورة الدعائية التقليدية، التي كرستها حروبه السابقة كجيش منتصر لا يقوى أحد على الصمود أمامه، يبدأ الحرب متى شاء، ويوقفها عندما يقرّر، بينما يفرّ العرب ويهزمون». تبدّلت

الصورة، والكلام لكيلو؛ فـ«رأى العالم دبابات إسرائيلية، قيل إنّها غير قابلة للتدمير، تحترق أو تفرّ من أرض المعركة، وشاهد جنوداً يبكون أو يهيمون في البراري والذهول باد على وجوههم، وراقب أفواجاً عسكرية كاملة في حالة فوضى ظاهرة، وهي تعاني الانكسار والخوف، بينما اعترف عدد كبير من صحافيي إسرائيل بحجم المرارة التي غمرت الجنود والضباط المهزومين، وقال جنرالات كبار إنّ جيشهم لم يكن مستعدّاً للحرب، أو مؤهّلاً لخوضها، وإنّه كان مترهّلاً كفريق من الكشافة»(724).

الحق يقال إنّ الجيش الإسرائيلي كان خلال حرب تموز- آب من العام 2006، يتوافر على كلّ أسباب القوّة، وعلى أحدث وأعقد البرامج والتراسانات ومنظومات القتال والتكنولوجيات التسلحية والعسكرية والمعلوماتية، إلا أنّه- وهنا موطن الخلل وموضع العلة والعيب- دخل إلى الحرب مأزوماً ومهزوماً ومسلوباً على نحو مسبق(725)، أراد هذه الحرب ودخل إليها طوعاً، وهي «حرب خيار»(726)، كما صير إلى توصيفها إسرائيلياً، ينشد ويبتغي ترميم الوعي قبل ترميم الردع المصدوع أو الردع المفقود، فـ«معركة الوعي التي هزمنا فيها» يقول عامير رابابورت ساخرا «كانت تحديداً الحلبة التي ركز الجيش الإسرائيلي جهده فيها خلال حرب لبنان الثانية، حين كان التصوّر الإسرائيلي يفيد أنّ الانتصار في معركة الوعي أهم من هزيمة العدو في ميدان القتال»(727). وللغاية، عكف الإسرائيلي على البحث عن مرموزات اعتبارية بمقدورها أن تحفر بصماتها عميقاً في الوعي الجمعي لحزب الله، وأن تعيد- ولو زيفاً وخداعاً- للذات الإسرائيلية، كما للذاكرة والمخيال هناك، بعض ألق الإحساس المفقود بالعزّة والغلبة، فـ«بدل احتلال المناطق التي تطلق منها صواريخ الكاتيوشا» والكلام لرابابورت «أرسلت خيرة القوات لرفع العلم في بنت جبيل وإظهاره صورة النصر. وعندما لم تنجح المهمة، اجتمع قادة الجيش لبحث كيفية تزييف النصر، الذي لم يحرز في ميدان القتال»(728).

أخذت معركة الوعي- والحال هذه- تعمِل معاول الهدم والتنكيل في الذات الإسرائيلية المختلة والمنهزمة داخلياً، لاسيما بعد أن نجح حزب الله في نقل مسرح الحرب النفسية إلى أرض الكيان الإسرائيلي؛ ذلك أنّ الهواجس والمخاوف من اندلاع الحرب، وإن كان يتوزّعها طرفا النزاع، إلا أنّ السيد حسن نصر الله، في كلّ إطلالة له يقارب فيها أطروحة الحرب، كان يبرع- بنحو من المهارة والدقة والإبداع- في تعيين الأهوال والمخاطر التي تنتظر الإسرائيليين(729)، كما يبرع في توصيف اللعنات التي ستحلّ عليهم، في حال تورّطت حكومتهم في مغامرة جديدة مع حزبه(730). كذلك كان عليه الأمر، في كل ما توسّله الحزب من نشاط وحراك وسلوك وممارسة؛ كمآل عملية تبادل الأسرى في العام 2008 (731)، التي صير فيها إلى إعادة الجنديين الإسرائيليين الأسيرين، بعد الكشف عن مصيرهما بكيفية أضرّت بالوعي الإسرائيلي(732). ما دفع بالمراسل العسكري لصحيفة معاريف عمير رابابورت إلى القول: إنّ السيد «نصر الله نجح في إخراج حفلة منظمة بشكل دقيق، تظهره أمام العالم العربي، وأمام العالم، كمن انتصر في حرب لبنان الثانية»(733). ذلك أنّ الصور التي بثت عكست «هزيمة إسرائيلية راسخة في المعركة على الوعي»(734)، ففي قبالة الكآبة وتمظهرات الأسى والحزن والخيبة والإحباط على الجانب الإسرائيلي، شهدت بيروت احتفاليات النصر ومشاهد الفرح الهائلة.

قصارى ما يمكن قوله في محصلة القراءة الفاحصة للإستراتيجيات المتبعة لدى حزب الله في إطار الحرب النفسية، إنّه إذا كان مفهوم الإستراتيجيا بمعناه الأعمّ والأشمل يقتضي- فيما يقتضيه- توزيع

مختلف الوسائط، والتنسيق في ما بينها، واستخدامها على نحو فاعل وخلاق لتحقيق هدف السياسة، بما هي- أي الإستراتيجيا- علاقة بين الوسائط والأغراض، وبما هي تثمير وتوظيف للوسائل المتاحة، وللموارد والإمكانات البشرية منها، والمادية والفنية والمعنوية، واستخدامها جميعاً لبلوغ الأهداف المرجوّة والمأمولة؛ فإنّ مركبات المنظومة التي تبانى عليها الحزب في حربه المشروعة ضد إسرائيل، والتي- وفق ما ألمعنا إليه- نقع على ترجماتها وتمثلاتها في تفعيل الغموض البنّاء، كما تفعيل الردع، وفي توسّل المفاجآت، واستنهاض الوعي العربي في قبالة كيّ الوعي الإسرائيلي، كلها مركبات وازنة أثبتت صلاحها ونجاحها وفعاليتها، فالوقوع دليل الإمكان، وأفضت- وهنا مكمن خطرها وإلحاحها- ليس إلى إلحاق الهزيمة المادية والنفسية بالذات الإسرائيلية وحسب، وهي لا شكّ فضيلة غير مسبوقة في تاريخ الصراع العربي-الإسرائيلي، بل إلى التنكيل بهذه الذات، وإلى إعطابها وإصابتها بالعجز والشلل والتصحّر، وإلى الإضرار بروحها المعنوية، بنحو لا تستقيم معه إعادة الترميم مجدداً. ما دفع بغير دولة وجهة وجهاز ومختبر بحثي إلى الأخذ بمكوّنات ومركبات هذه المنظومة، ودفع أيضاً بحزب الله إلى إدامة العمل بها، لتشكل قواعد ومرتكزات مواجهاته الافتراضية المقبلة.

الخاتمة

بقيت أطروحة الحرب النفسية- على رغم الوفرة البالغة في البحوث والمتون والدراسات- تتسم بالتعقيد بنحو كبير، وبقيت التعابير اللغوية والأدبية والمفهومية والإصطلاحية قاصرة، تضرب على غير هدى، وتتخبط حول إيجاد تعريف دقيق لها. ذلك أنّ تعريفها، ومقاربتها مقاربة جادّة ووازنة؛ هو أمر شائك، وهو من الصعوبة بمكان بحيث نقع على انعدام تبلور فهم جامع مانع لها، يمكن الاستناد إليه، والإتكاء عليه، لبناء تصوّر علمي حولها، لا تعوزه الإحاطة، ولا تنقصه الحجج والأدلة. والحال، يطالعنا تعدّد الآراء، وتنوّع المقاربات، وتباين وتفاوت الأفهام، واختلاف زوايا النظر حيال موضوعة الحرب النفسية. إلا أنّ هذا التباين والإختلاف والتنوّع والتفارق، كما أنّ توسيع حمولات التدليل هنا، وتقليصها هناك، وتغيير الإستخدام المصطلحي هنا، وتعديله أو تثبيته هناك؛ لم يكن بأيّة حال من الأحوال ليقلل من أهميتها، ومن شأنيتها وفعاليتها وتأثيرها، ومن مقدار خطرها وضرورتها وإلحاحها.

لقد قدّر للحرب النفسية أن تلج إلى فضاءات ومدارات كلّ الأمم والكيانات والأطر والمجتمعات، وإنْ كان ذلك بنحو معياري ونسبي. وأن تتشظى وتتمدّد إلى ميادين مختلفة، لتتوفر على مروحة واسعة من توضّعات الاشتغال والعمل والتأثير، بحيث إنّها- على خلاف النشأة- اكتسبت أهمية بالغة خارج أطر الصراعات العسكرية المباشرة، وإنّ ممارستها لم تعد قاصرة على هذا المجال وحسب؛ وإنّما طاولت صعد الحياة العصرية: السياسية، والاقتصادية، والدبلوماسية، والثقافية، والفكرية، والعقيدية، والإيديولوجية... فضلا عن أنّها جاوزت إعمال التأثير في السلوك الاجتماعي للفرد أو للجماعة، إلى التأثير في سلوك الدول، وإحداث تغييرات وتحوّلات في مواقفها وتصوّراتها وإيديولوجيتها. ذلك أنّ التقدّم الكبير الذي صير إليه في دنيا العلوم على اختلافها، لاسيما تلك التي تتوفر على معرفة بالسلوك الإنساني، كما التطوّر الهائل في تكنولوجيا المعلومات والبرمجيات، وفي وسائط الإعلام وميديا الاتصال، معطوفا على التطوّر الحاصل في أساليب التحليل النفسي، ودراسة الرأي العام وكيفية صناعته، والتنبؤ بالسلوك الجماهيري...؛ كان له كبير شأن في تعظيمها، وتضخيم دورها، وتوسيع هوامش ومساحات حركتها واهتماماتها واشتغالاتها، بنحو أصبح من غير اليسير على أيّ طرف تجاوزها، أو الاستغناء عنها في أي صراع مسلح أو غير مسلح، كما من المتعذر على أيّة جهة خوض غمار النزاعات والحروب والمشاغلات والمناكفات السياسية، أو توفير القدرة الحمائية لنفسها، أو تحقيق الردع والحصانة والمناعة الداخلية، دونما الإستعانة والاستنجاد بها. وبنحو أعمّ، أصبح الكائن البشري في هذا العصر- بعدما فرضت العمليات النفسية حضورها كحاجة ضرورية من حاجاته العصرية الحيوية الملحة- يتنفس المؤثرات النفسية والدعائية والإعلانية، كما يتنفس الهواء، ويغتذي من نتاجها ويقتات، كما يقتات من سائر صنوف الأغذية والأطعمة. وإن كان في تنفسّه للعمليات النفسية، هو غالبا غير قادر على الانتقاء والتخيّر والفرز والتمييز. ما يجعله عرضة للتوعّك النفسي، وللإصابة بالعلة التي قد تقتل فيه الروح والإرادة والإيجابية والاندفاع والقوّة الرمزية والمعنوية.

والحال هذه، نرى إلى الحرب النفسية كيف تحوّلت إلى ركن ركين وفاعل في منظومات الحروب المعاصرة والحديثة، من حيث إنّها أعطيت مجد كسب المعارك، وتحقيق الإنتصارات، وصناعة الإنجازات، وإحداث الفتوح على غير جهة وصعيد؛ فبعد أن كان يُفصح عنها– تعريفا- بوصفها مكوّنا استكماليا وفرعيا يتوضّع في جعبة الحرب العسكرية، ويستمدّ حضوره وإلحاحه منها، أصبحت بفعل اتجاهها نحو التمركز والتمأسّس والتقعيد، وإكتسابها شيئا من التنسيق والتخطيط المدروس والتوجيه النفسي، كما بفعل مراكمتها للخبرات والتجارب الغنية، ذات كيانية فريدة تطوي في تضاعيفها كلّ أشكال وتمظهرات وتمثلات الحروب: الصلبة منها والناعمة، الساخنة والباردة، الإستباقية والبعدية، النظيفة أو تلك ذات البعد البطولي... هذا قبل أن تتفتق عن آخر إبداعاتها وصرعاتها وكشوفها في ما سمّي اصطلاحا بمنظومة الحرب على الإرهاب (حروب الخليج الثانية والثالثة، غزو أفغانستان، حرب لبنان في صيف العام 2006، العدوان على غزة ... وما صاحبها جميعا من فصول وضروب وتمثلات)، كذلك في الكيفية التي صير فيها إلى احتواء ما أطلق عليه بـ(الربيع العربي) في كلّ من تونس ومصر واليمن وليبيا، أو في الكيفية التي صير فيها إلى تشجيع التمردات كما في إيران، أو إلى اختلاق ثورات على النحو الذي صير إليه في سوريا.

يقود ما تقدم إلى القول، إنّ الحرب النفسية لم تعد كسابق عهدها تابعة وقاصرة وذيلية تلحق بسواها من الحروب، وتستكمل ما يتوسله غيرها من أهداف وغايات وأغراض، وتستدعى بنحو ظرفي وآني وعابر؛ بل إنّها وجدت سبيلها، بفعل ما توفرت عليه من وسائط وبرمجيات وأدوات وأساليب وطرائق، إلى الهيمنة والسطوة على العقل البشري، كما على الوعي والذاكرة والمخيال والإرادة، وغدت من الدهاء والحيلة والخطورة على نحو يصحّ فيه الإفتراض القائل: «إنك أيّها الإنسان أنّى تولِّ وجهك؛ فثمّة حرب نفسية تخاض، وتأتيك مراوغة ومخاتلة من حيث تحذر وتحتسب، أو من حيث لا تحتسب»، ذلك أنّها تتخلق بغير خلاق، وأنّها على غير حمولة ووجه وهيئة؛ فهي: حرب ناعمة قوامها برمجة الوعي، وهي حرب أفكار تستبطن الاستحواذ على العقول والألباب، كما تستبطن استلاب الإرادات والعزائم والذاكرة. وهي حرب إيديولوجية- عقائدية- فكرية. وهي حرب المساس بالمرجعيات والبداهات والقيم الحاكمة. وهي أيضا حرب باردة، وحرب الدعاية والإعلان، وحرب أعصاب، وحرب سياسة، وحرب الكلمات والشائعات. وهي حرب بناء الاتجاهات، وصناعة المواقف، وتكوين التصوّرات، وتغيير السلوك. وهي أخيرا- وهنا مكمن خطرها- حرب إخراج الإنسان من ذاتيته، ومن نفسه، ومن عفويته، ومن قيمه؛ ليكون صنيعة أخرى: هجينة ومشوّهة.

لا شكّ أنّ هذا القدر من الإرهاب النفسي والفكري والجسدي، ومن المخاطر والتهديدات، ومن المخاتلة والمراوغة والتزييف والخداع والتضليل، وسوى ذلك من سياسات وممارسات وأساليب تندرج في إطار ما يُسمّى اصطلاحا بـ(المفهوم الشامل للعمليات النفسية)، بما هي عمليات تتوسّلها الحرب النفسية، وتجهد من خلالها في نزوع شيطاني لتحقيق مقاصدها ومآربها بنحو يجعلها أشدّ فتكا وفعالية وتأثيرا من المواجهات العسكرية؛ لا شكّ هو محرض يضع القيّمين والمعنيين من ذوي القرار على عتبة وعي صحيح بمهام ومسؤوليات من شأنها أن توفر- بالأقل- قدرا مماثلا، بل أشدّ وأدهى من التحصين الذاتي الفردي والجمعي، كما من التسوير والمنعة، وسوى ذلك من سياسات وإجراءات مضادة تستهدف تفعيل شبكات الأمان الداخلية. ذلك أنّ الحرب النفسية ليست

من نوع الحروب التي يستهان بمواجهتها، كما بنتائجها ومفاعيلها، أو يصار إلى التعاطي معها بتعالٍ وخفة؛ وإنّما تتطلب مواجهتها قدرا كبيرا من الحكمة واليقظة والحذر والوعي، إلى جانب تفعيل وتوظيف- ما لا يقاس- من ما يُصطلح عليه بـ(أساليب التأمين النفسي)؛ نحو: مكافحة الجماعات المعادية في الداخل، تفعيل دور الإعلام بأجهزته وأدواته ووسائطه المختلفة والمتعدّدة، تنشيط فعاليات ما يمكن إعتباره حربا نفسية مضادة، تعرية العدو أمام الرأي العام الداخلي بالأخصّ، والخارجي بعامة، توعية جمهرة المواطنين وتنمية الشعور بالمسؤولية لديهم، وتفعيل أطر التواصل والتفاعل البناء معهم، كما تمتين جسور الثقة بينهم وبين المستوى القيادي، وتثقيفهم تثقيفا يتيح لهم، ليس تلقي المعلومات والأخبار تلقيا سلبيا؛ وإنّما ذلك التلقي الموجب والفاعل...، بحيث يصار إلى درء مخاطر الاختراقات المعادية، وتعطيل فعاليتها وتأثيرها.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ثلاثة وثلاثون يوما أحدثت بركانا في إسرائيل، ط1، بيروت: مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، العام 2006.

حرب كسر الإرادة، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم- ناشرون، العام 2007.

مدخل إلى الإستراتيجية العسكرية؛ تعريب أكرم ديري والهيثم الأيوبي، ط1، بيروت: دار الطليعة، العام 1978.

الحرب الحديثة: دراسة تحليلية للرجال والأسلحة والنظريات؛ ترجمة مصطفى درويش، ط1، بيروت: المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، العام 1985.

أسرى في لبنان: الحقيقة عن حرب لبنان الثانية؛ ترجمة جواد سليمان الجعبري، ط1، رام الله: مدار– المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، العام 2011 .

الشرق الأوسط الجديد؛ ترجمة محمد حلمي عبد الحافظ، ط1، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، العام 1994.

حرب الظلال، لا. مكان.، وزارة الدفاع الإسرائيلية، العام 2008.

9- جوردزمان، أنطوني، الدروس المستقاة من الحرب الإسرائيلية في لبنان، ط1، واشنطن: معهد الدراسات الإستراتيجية والدولية، العام 2008.

10- دانيال، جان جورج، موسوعة الصراع العربي الإسرائيلي، ط1، بيروت: دار نوبليس، العام 2010، ج19.

11- الهويدي، أمين، الصراع العربي- الإسرائيلي بين الرادع التقليدي والرادع النووي، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، العام 1983.

12- هنتنغتون، صموئيل، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ط1، ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، العام 1999.

13- هتلر، أدولف، كفاحي؛ تعريب أميمة سعد، لا.ط.، بيروت: دار الأنوار، لا.ت.

14- ويلز، هـ. ج.، موجز تاريخ العالم؛ ترجمة وتحقيق عبد العزيز توفيق جاويد، ط1، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، العام 1958.

15- كروك، أليستر، وبيري، ماري، كيف هزم حزب الله إسرائيل، ط1، لا.ن.، لا.ت.

16- لامبث، بنيامين، العمليات العسكرية الجوية لحرب إسرائيل ضد حزب الله؛ دراسة تقع في 444 صفحة أعدّها معهد (راند) لمصلحة وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون).

17- لوبون، غوستاف، سيكولوجية الجماهير؛ ترجمة هاشم صالح، ط3، بيروت: دار الساقي، العام 2011.

الحرب النفسية؛ ط1، لامكان، العام 1954 .

– لوك، تقنيات الإرهاب؛ تعريب يوسف ضومط، ط1، بيروت: المكتبة الثقافية للنشر والطباعة والتوزيع، العام 2004.

ميزان الصناعة والأمن القومي (23-20 كانون الثاني/ 2008)؛ ترجمة باحث للدراسات، ط1، بيروت: باحث للدراسات، العام 2009.

لقد أخذنا على حين غرة: حرب العام 2006 بين حزب الله وإسرائيل، ط1، دراسة أعدّت لمصلحة معهد الفنون القتالية في الجيش الأميركي، العام 2008.

أسطورة هرمجدون والصهيونية المسيحية؛ عرض وتوثيق هشام القطيط، ط1، بيروت: دار المحجة البيضاء، العام 2003.

إسرائيل وتجربة حرب لبنان: تقويمات خبراء إسرائيليين؛ إعداد رضى سلمان ورندة شرارة ويولا البطل، ط1، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سلسلة الدراسات رقم 75، العام 1986.

33 يوم حرب على لبنان؛ ترجمة أحمد أبو هدبة، ط1، بيروت: مركز الدراسات الفلسطينية، العام 2007.

ثلاثة وثلاثون يوما من الحرب في لبنان؛ ترجمة هيثم الأمين، اشراف فرانك ميرميه وإليزابيت بيكار، ط1، بيروت: المكتبة الشرقية، العام 2007.

المعجم الوسيط، لا.ط.، اسطنبول: المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، لا.ت.

لسان العرب، ط1، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، العام 2005.

صورة العرب في صحافة ألمانيا الإتحادية، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، العام 1985.

حرب لبنان الثانية: قراءات إسرائيلية في هزيمة الكيان الأولى؛ تحرير شلومو بروم ومئير إلران، ترجمة باحث للدراسات، بيروت: باحث للدراسات، العام 2009.

-30 مصطفى، أمين، الإعصار، ط1، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، العام 2007.

الحرب الثامنة، ط1، بيروت: المركز الإستشاري للدراسات والتوثيق، العام 1996.

32- النابلسي، عباس، رعب السلاح: أسرار القدرة العسكرية لحزب الله، ط1، بيروت: دار إيوان للطباعة والنشر والتوزيع، العام 2007.

33- ناي، جوزيف .اس، القوة الناعمة: وسيلة النجاح في السياسة الدولية؛ ترجمة محمد البجيرمي، ط1، الرياض: مكتبة العبيكان، العام 2003 .

34- نوفل، أحمد، الحرب النفسية، ط3، عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع، العام 1989، ج4.

35- نعمة، علي، خطوط المواجهة في الإستراتيجية القومية، ط1، بيروت: دار النوال، العام 1993.

36- نصر الله، يوسف، تداعي الأسطورة: مقاربات نقدية لمشهدية الحرب السادسة، ط1، بيروت: دار الفارابي، العام 2011.

37- نتنياهو، بنيامين، استئصال الإرهاب؛ ترجمة محمد عبد السلام، لا.ط، بيروت : دار الندى للطباعة والنشر والتوزيع، لا.ت.

38- ساري، حلمي، صورة العرب في الصحافة البريطانية، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، العام 1988.

39- سويد، محمود، الجنوب اللبناني في مواجهة إسرائيل، ط1، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، العام 1998.

40- سيبوني، غابرييل وآخرون، الإستراتيجية العسكرية ضد حماس وحزب الله؛ ترجمة عدنان أبو عامر، ط1، بيروت: باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية، العام 2011.

الصراع على الشرق الأوسط، لا.ط.، بيروت: المؤسّسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع، العام 1988.

حزب الله في العقل الإسرائيلي: دراسة أكاديمية حول تأثير حزب الله والمقاومة على العدو الصهيوني، ط1، بيروت: مركز الإستشارات والبحوث ، العام 2006.

43- عبد القادر، نزار، وطن بلا سياج: الإستراتيجية الدفاعية اللبنانية، ط1، بيروت: المؤلف نفسه، العام 2009.

44- عليوه، السيد، إستراتيجية الإعلام العربي، ط1، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، العام 1978.

45- عمار، عبد المجيد، توازن الرعب: في الحرب المفتوحة، ط1، بيروت: مؤسسة دار الكتاب الحديث، العام 2002.

46- عنباري، بنحاس، إسرائيل وتجربة حرب لبنان، ط1، قبرص: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سلسلة دراسات رقم 76، العام 1986.

47- العساف، سوسن، إستراتيجية الردع: العقيدة العسكرية الأميركية الجديدة والإستقرار الدولي، ط1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، العام 2008.

48- فوريسون روبير، وميمي، ماري بول، الأكذوبة التاريخية؛ ترجمة ماجد حلاوي، ط1، لا.ن.، العام 1987.

49- فرجي، موشي، إسرائيل وحركة تحرير جنوب السودان، ط1، مركز ديان لابحاث الشرق الأوسط وافريقيا، العام 2003 .

50- صالح محسن، المقاومة والأعلام– مقاربة سوسيولوجية، من مجموعة بحوث في كتاب: صورة المقاومة في الإعلام– حزب الله وتحرير الجنوب؛ تحرير محمد محسن وعباس مزنر،

ط1، بيروت: مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث، العام 2001.

الحرب السادسة، ط1، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، العام 2007.

احتلال ما بعد الإستقلال: التداعيات الإستراتيجية للحرب الأميركية على العراق، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، العام 2007.

أسرى في لبنان: الحقيقة عن حرب لبنان الثانية؛ ترجمة جواد سليمان الجعبري، ط1، رام الله: مدار- المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، العام 2011.

الإستراتيجية والتكتيك في فن الحرب، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم-ناشرون، العام 2008.

الإعلام الإسرائيلي ومواجهته، ط1، لا.ن.، العام 1999.

الشرق الأوسط: تحولات إستراتيجية، ط1، بيروت: دار الفارابي، العام 2009.

سلسلة المعاجم العلمية؛ معجم المصطلحات السياسية والدبلوماسية، ط1، بيروت: دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، العام 1999.

حزب الله: السياسة والدين، ط1، بيروت: دار نوفل، العام 2002.

الإنحياز: علاقات أميركا السرية بإسرائيل، ط1، قبرص: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، العام 1985.

1، بيروت: مجد المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، العام 2011.

المجلات والجرائد والدوريات والوسائط المسموعة والمرئية:

– مركز يافيه .

NTV

باللغة العربية: www.ArabYnet.com ، وباللغة الإنكليزية: www.Ynetnews.com .

www.js.pentagon,mil/doctrine/jel/doddict/data/d/01536.html

arabtimes.com

ghietas @ ahram 0505.net

الهوامش

(1) لم تكن الحرب النفسية بوصفها أداة صراعية، بعيدة من استعمالات واستخدامات الإنسان البدائي في صراعه مع الآخرين؛ فقد دأب على تمثلها وترجمتها والإفصاح عنها بطرائق متعدّدة: الصراخ، والتمويه، والتهويل، وتلوين جلده، واستخدام الأقنعة المخيفة...

(2) تطالعنا القراءات التاريخية الحفرية بمثالات حية ووقائع كثيرة، تؤشر إلى توسل الطبقات - التي كانت تمسك حينئذ بالقرار السياسي وبالمقدرات الاقتصادية، وتهيمن على مقاليد السلطة- بممارسات من شأنها التأثير في وعي الناس وسلوكهم، وكسب ثقتهم، واستلاب إرادتهم، والسيطرة على عقولهم. بما يكفل ديمومة الحكم واستمراريته، واستبقاء هذه الطبقات تتنعم لآماد طويلة بالتربّع على عروش الوعي قبل سواها من العروش.

وفي الاستدلال تاريخياً على فعالية الحرب النفسية، وأثرها الكبير ليس في تغيير المعادلات القائمة وحسب، بل في تغيير مجرى الحرب على نحو كلي؛ ينقل السيد حسن نصر الله واقعة كربلاء فيقول: «كان عبيد الله بن زياد من كبارالخبراء بالحرب النفسية، وكان يوصف بالدهاء. عندما أتى إلى الكوفة التي كانت تقريباً في يد مسلم بن عقيل وكان والي يزيد النعمان ضعيفاً ومهادناً، وأهل الكوفة بايعوا الحسين (ع) من خلال مسلم، وينتظرون اللحظة التي يأمرهم فيها بالسيطرة على قصر الإمارة. عمل عبيد الله بن زياد بالحرب النفسية لكي يغيّر مجرى الحرب، فعندما وصل الكوفة وصلها دون جيش مع عشرات المقاتلين، يومها كانت الأزياء تميّز أهل البيت والإمام الحسين (ع)، فلبس زياً مشابهاً لزي الحسين، وألبس مرافقيه، ودخل الكوفة ملثماً، فظن أهل الكوفة أنّ الحسين وصل واستقبلوه، فدخل قصر الإمارة. ثم أتى بالنخب والخواص من أهل الكوفة، وقال لهم إنّ جيشاً قوامه ما يزيد عن مئة ألف آت من الشام، وسيصل خلال أيام. هددهم مباشرة وتوعّدهم بالجيش المقبل، فخرجوا من عنده منهم يقول ما لنا والدخول بين السلاطين، ومنهم من يثبط عن القتال، إلى أن انتهى الأمر بمسلم بن عقيل وحيداً في الكوفة. انهارت جبهة الكوفة، والجيش لم يأت، بل تحوّلت الكوفة إلى الجيش الذي صنع المأساة في كربلاء». أنظر: مجلة بقية الله، السنة التاسعة عشرة، العدد 226 ، تموز من العام 2010 ، ص26.

(3) أخذت مبادئ الحرب النفسية الحديثة بالتبلور والتشكل والتمأسس في أعقاب الحرب العالمية الأولى، حيث تحوّلت إلى مادة علمية ذات قواعد وضوابط وفنون واختصاصات متعدّدة الأوجه؛ ففي العام 1917 صير- بناء على قرار أصدره الرئيس الأميركي وودرو ويلسون (تولى الحكم بين عامي 1913-1921)– إلى تشكيل (لجنة الدعاية والنشر). وفي العام 1918 عرفت بريطانيا ما أصطلح على تسميته قسم (الدعاية ضد العدو) . وكان المحلل العسكري البريطاني ج. ف. س. فوللر في العام 1920، أوّل من استخدم مصطلح (الحرب النفسية Psychological Warfare) في معرض حديثه عن توظيف المؤثرات النفسية في الحرب العالمية الأولى. ليشاع بعد ذلك استعمال هذا الاصطلاح المفهومي على نحو فاعل، إلا أنه لم يصر إلى التداول به في الولايات المتحدة الأميركية إلا في العام 1940، قبل أن يعطيه الأميركيون في الحرب العالمية الثانية مفهوماً جديداً انطلاقاً من فكرة التبشير، فأصبحت الحرب النفسية والحال هذه، تعرف باسم

الدعاية (Propaganda) ؛ ويراد بها نشر الأفكار والأخبار والمعلومات والإشاعات بغرض مساعدة القوات الصديقة أو الإضرار بالقوات المعادية. وكان معسكر الحلفاء خلال الحرب المذكورة قد أفرد قسماً خاصاً بالحرب النفسية لإدارة شؤونها في المستويين الإستراتيجي والتكتيكي. وفي قبالة ذلك، لم تكن ألمانيا أقل شأناً في إيلاء الحرب النفسية الاهتمام اللازم، فقد خصّتها بوزارة أطلقت عليها اسم وزارة الدعاية والتنوير والإرشاد (The Ministry of popular Enlightement and propaganda)، وعُيّن جوزيف غوبلز (Joseph Goebbels) وزيراً عليها. وخلال الحرب الكورية في العام (1950-1953)، أدركت الولايات المتحدة الأميركية خطورة الحرب النفسية وفعاليتها، فأنشأت قسماً خاصاً بها أطلقت عليه اسم مكتب رئيس الحرب النفسية (The office of The chief of Psychological Warfare).

(4) ثمّة معادلة لاستعمال القوّة تشفّ عنها الإستراتيجيات الأميركية؛ قوامها: «إنّه عندما تفشل الوسائل الدبلوماسية، كما الوسائل العسكرية التقنية والمادية في إخضاع العدو وتطويع إرادته؛ ينبغي- والحال هذه- استعمال مواطن القوّة الكامنة في الحرب النفسية– الناعمة، وتثميرها، كما توظيفها على نحو موجب». بلحاظ أنّ هذه الأخيرة تستوي على منظومات وبرامج من شأنها الإضرار بالوعي من طريق تزييفه وتضليله، وزعزعة العقائد والمسلمات، وتسميم إيمان الجماهير بنظمها، ونزع ثقتها بقادتها وبقدراتها...، على نحو يتأدّى إلى إرباكها بصراعات ونزاعات وأزمات داخلية، تنهك قواها، وتحدث بها شرخا عظيما أو حالة من التآكل والتجويف والاهتراء تمهّد لإسقاطها.

(5) لقد أطلق وايز كلاين أطروحة «قوى الدولة الشاملة»، وجعلها تشتمل على العمليات النفسية كذراع فاعل إلى جانب سائر الأذرع التقليدية لقوى الدولة العسكرية: البرية، والبحرية، والجوية. حيث وضع معادلة شارحة تدلل على قياس قوى الدولة الشاملة، وقد صدرت عن مركز جورج تاون للدراسات الإستراتيجية في العام1981، ومؤداها:

قوى الدولة الشاملة = الكتلة الحرجة (جغرافية– ديموغرافية) + (القوى الاقتصادية– القوى السياسية– القوى العسكرية) × (الأهداف الإستراتيجية + الإرادة الوطنية).

ما يتقصّده كلاين من هذه المعادلة، أنّه إذا كان مستوى المعنويات- أي مستوى النواحي النفسية- يساوي صفراً؛ فإنّ القوى الإجمالية للدولة تتدنّى لتصبح بدورها صفرا. ففي غياب الروح المعنوية العالية والطليعية والوعي والإرادة الصلبة والعزيمة الصادقة؛ لن يكون بمقدور نصر أن يتحقق، ولا بمقدور فوز أن يُجلب، ولا بمقدور غلبة أن يتناهى إليها الصراع، وأن تشكل مسك خاتمته.

(6) تتوافر الحرب النفسية-الدعائية الحديثة على مروحة واسعة من ميادين وتوضّعات الاشتغال والعمل، بحيث أنّ ممارستها لم تعد تقتصر على المجال العسكري وحسب؛ وإنّما طاولت صعد الحياة العصرية ومجالاتها كافة: السياسية، والاقتصادية، والدبلوماسية، والثقافية، والفكرية، والعقائدية، والإيديولوجية...

(7) تتوسّل الحرب النفسية في سبيل تحقيق مآربها أساليب شتى: بلبلة الأفكار وتشويشها، إثارة الفتن والقلاقل والحساسيات، خلق الأقاويل، بثّ السموم والشائعات المغرضة، تسميم الفكر، توليد مشاعر الفرقة والتنابذ والتباغض والتحاسد، ممارسة الإرهاب النفسي والجسدي، إتباع وسائل

الترغيب والترهيب... وسوى ذلك من سياسات وممارسات تجعلها بحق أشد فتكاً وفعالية وتأثيراً من المواجهات العسكرية.

(8) ليس من شكّ بإطلاق، أنّ وسائط الإعلام وميديا الاتصال قد أضحت- بفعل ما داخلها من تطوّر وتحديث وتعقيد– الأداة الرئيسة التي يتكئ عليها عموم الجمهور في تلقيه المعرفي والثقافي والترفيهي، وهذا ما لا يحتاج إلى كبير عناء واستدلال. فقد أظهرت الدراسات ذات الصلة إلى تعرّض الجمهور لسطوتها وتأثيرها بما لا يقلّ عن ثلاث ساعات يومياً أي ما يعادل سنويا مقدار الألف ساعة. ما من شأنه أن يجعل للإعلام اليد الطولى في صوغ أذهان الناس، وتشكيل وعيهم، وتحديد ميولهم، وبناء مواقفهم وتصوّراتهم، وبخاصة الشرائح الرخوة من الأطفال والمراهقين والشباب الأكثر عرضة للتأثير والتفاعل والاستلاب.

وكان هذا التطور الملحوظ في وسائط الإعلام قد ساعد الأجهزة الناظمة للحروب النفسية، ووفر لها القدرة على تطوير الوسائل والأدوات التي تستعمل في عمليات التأثير الناعم وبرمجة الوعي وتضليل الرأي العام...

(9) شهد القرن العشرون، كما العقد الأول من الألفية الثالثة طفرات وثورات تكنولوجية هائلة على غير صعيد: في مجال المعلوماتية، والاتصال، والبرمجيات، والإعلام، ونظم التسليح. وقد واكب ذلك تطوّرات بالغة الأهمية والخطورة في حقل العلوم الإنسانية وبخاصة ما يتعالق منها بالظواهر السلوكية؛ اجتماعية، نفسية، سياسية. ما صير إلى استغلال نتائج هذه الثورات والطفرات والتطورات، وتفعيل مخرجاتها، وتوظيف تقنياتها وأساليبها ووسائلها، وتثمير طاقاتها وقدراتها ومواردها في ما اصطلح على تسميته: المفهوم الشامل للعمليات النفسية.

(10) لقد تقدّمت وسائل الإعلام والدعاية والنشر والاتصال وتطوّرت أدواتها واتسعت مروحة اشتغالاتها، على نحو اختزلت فيه المسافات المتباعدة، وضاقت بل انعدمت معه الفواصل والحدود الفارقة بين أجزاء العالم المترامية؛ فإذا كان بمقدور الدولة إغلاق حدودها ومنافذها المؤدّية إلى داخلها، وكان بمقدور الفرد التشرنق والانغلاق على نفسه، وإقفال باب داره ونوافذه... فإنّ ـ ممّا لا شكّ فيه ـ أنّ الدولة، كما المواطنين ليس بمقدورهم الحؤول دون أن تحمل أجواؤهم ما تبثه وتنشره موجات الأثير من صور الدعاية المختلفة التي تتسلل إلى وجداننا ووعينا.

(11) أخذت الحرب النفسية تنحو باتجاه التمركز والتمأسس والتقعيد، واكتسبت شيئاً من التنسيق والتخطيط المدروس والتوجيه النفسي، بفعل مراكمتها- خلال قرون مديدة من الحروب والنزاعات- للخبرات والتجارب الغنية على غير صعيد. ومع التطوّر الملحوظ في تكنولوجيا العلوم ووسائط الإعلام والاتصال، وتزايد القدرة على بثّ المعلومة ونشرها وإيصالها من طريق الأثير والفضاء الإذاعي، فضلاً عن تطور أساليب التحليل النفسي، ودراسة الرأي العام وكيفية صناعته، والتنبؤ بالسلوك الجماهيري؛ أصبحت الحرب النفسية ذات تقانات وأصول ومبادئ... ما بوأها مكانة عظيمة ليس من اليسير تجاوزها، أو الاستغناء عنها في أي صراع مسلح أو غير مسلح.

(12) هي عملية عاصفة الصحراء (Operation Desert Storm) وفقاً للتسمية الأميركية، بدأت في الثاني من شهر أغسطس – أب من العام 1990 بعدما شنت قوات التحالف المكونة من أربع وثلاثين دولة بقيادة الولايات المتحدة هجوماً واسعاً استهدف العراق كمبرّر لتحرير الكويت

التي كانت قد تعرّضت لغزو مباشر من القوات العراقية، وانتهت في الثامن والعشرين من شهر فبراير – شباط من العام 1991.

(13) هي عملية (الحربة المستديمة) وفقاً للتسمية الأميركية، وقد انطلقت شرارتها الأولى في السابع من شهر أكتوبر- تشرين الأول من العام 2001.

(14) المقصود الحرب على العراق، وغزوه في التاسع عشر من شهر مارس/ آذار من العام 2003، من قبل ائتلاف دولي أنشأته وتزعمته الولايات المتحدة الأميركية. تسمّى في الأدبيات الأميركية عملية حرية العراق. انتهت بعد ثلاثة أسابيع على بدئها بسقوط بغداد وخلع صدام حسين في التاسع من شهر ابريل/ نيسان من العام 2003.

(15) هي (حرب لبنان الثانية) وفقاً للتسمية الإسرائيلية. اندلعت في الثاني عشر من شهر تموز من العام 2006، على اثر عملية أسر ناجحة نفذتها المقاومة اللبنانية ممثلة بحزب الله، وانتهت في الرابع عشر من شهر آب من العام نفسه على هزيمة منكرة للجيش الإسرائيلي.

(16) يحرص كلّ طرف من أطراف الصراع على أن يُنشئ في وعي خصمه الحالة العقلية التي تحقق له أهدافه وتمنحه الانتصار عليه. من هنا تتأتى أهمية الحرب النفسية– وفق ما يجمع الخبراء والعارفون– بوصفها أكثر أسلحة الصراع فعالية في جلب وصناعة النصر، وبأزهد الأكلاف والأثمان.

(17) الوعي (Conscience): يرتبط الوعي فيزيولوجياً وبيولوجياً بالدماغ والجهاز العصبي. هو، في المجال المفهومي والاصطلاحي، هوية الشخص، وجوهر تفكيره وتعقله، ومحدّد مواقفه، وناظم تصوراته، وفاعليته النفسية– الاجتماعية، كما حساسياته ومزاجه ومخياله وميله القلبي والاعتقادي. وهو المعرفة القائمة على إدراك الذات للآخر، للشيء، للمحيط، للعالم. والوعي بوصفه الأداء المعرفي للعقل البشري، ووظيفة من وظائف نظامه الإدراكي؛ يتلقى بياناته ومعلوماته من العالمين الخارجي والداخلي. لذا فهو يتأثر بالغ التأثير بالبصريات والمسموعات والمقروءات من طريق عمليات تفاعلية معقدّة: فكرياً ونفسياً وشعورياً وانفعالياً.

(18) لا شكّ أنّ للمعارك وللحروب سيكولوجيتها الخاصة التي تستوجب على نحو دائم فداء المقاتل وتفانيه وتضحيته وإخلاصه، وصبر المواطنين من المدنيين وسكينتهم وارتفاع معنوياتهم، وإيمان الجميع بعدالة القضية ونبلها وبالأهداف التي قامت الحرب لأجلها ... والحال، فمن الضرورة بمكان أن يكون فعل التعبئة النفسية سابقاً للحرب، أي قبل لحظة اندلاعها ونشوبها، لا متزامناً ومتساوقاً معها وحسب؛ كي يستحوذ الجماعة والأفراد على اليقين، وعلى صلابة الإرادة وصدق العزيمة، وكي يصار إلى إكسابهم المناعة ضداً على أشكال الدعاية والإشاعة بتثقيفهم الثقافة التي تحصنهم من آثارها.

(19) بول لينبارجز (paul Linebarger): مؤلف كتاب (الحرب النفسية Psychological Warfare، طبع 1954). هو باحث عمل في مكتب المعلومات الحربية الأميركي خلال الحرب العالمية الثانية، وشارك في نشر الدعاية الأميركية بين المدنيين والعسكريين في مسارح العمليات العسكرية في أوروبا والباسفيك. كان مستشاراً للحرب النفسية في وزارة الدفاع الأميركية، وأستاذاً للدراسات الدولية في جامعة واشنطن.

(20) أحمد نوفل، الحرب النفسية، ط3، عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع، العام 1989، ج4، ص 40.

(21) تتحدّد الحرب النفسية– في بعض تعريفاتها– بأنّها «الاستخدام المبرمج للإعلام وأدواته للنفوذ في خصوصيات العدو الفكرية، بالطرائق التي تضمن تحقيق الأهداف القومية».

(22) يذكر أنّ تردّي الأوضاع السياسية والاقتصادية والأمنية والاجتماعية، كما النقص في الحاجات الرئيسة للحياة، وتعاظم الظلم، وسيادة العنف، وفقدان العدالة والأمن، وإخفاء المعلومات، وعدم إظهار الحقائق... وسوى ذلك من مظاهر، تسهم على نحو بالغ في نجاح الحرب النفسية، وفي مضاعفة فعاليتها وقدرتها على التأثير.

(23) لعل أدهى ما في الحرب النفسية ـ الناعمة وأشده فتكاً؛ أنها تحدث بنحو سلحفاتي، وبكيفية تراكمية بطيئة وخفية وإنسيابية وسلسة، وبتوسّل طرائق وأساليب خادعة وماكرة ومضللة، ما يجعلها تستحوذ على دخائل النفس ومداخل اللاشعور واللاوعي، وتحفر بصماتها عميقاً في القلب والعقل والوجدان، كأن يصار إلى توظيف وسائط إعلامية محدّدة تحرص على تقديم الترفيه والتسلية وأفلام الحركة...، على أن يباطن ذلك مقاصد الحرب وأهدافها. وبعدها يُعمل على إقحام هذه الأخيرة من طريق تكرار التعرّض لها، في مسارب العقل وتوضّعات عمله واشتغاله، فتترسّب فيه وتتأصّل وتعلق بين منطوياته وتلافيفه الدماغية والعصبية، ويتماهى هو بها ومعها وفيها ، ثم تتناهى العملية في كليتها إلى إعادة تفريغ اللاشعور وبناء لاشعور مفارق، واستطراداً إلى تفريغ الشعور والوعي وبناء وعي وشعور جديد.

(24) مصطلح مفهومي يعدّ من المصطلحات المحدثة في مجال الحقل الأكاديمي والخطاب السياسي والإعلامي، أطلقه المفكر الأميركي جوزيف اس. ناي لأوّل مرة في العام 1990، قبل أن يشهد انتشاراً عالمياً واسعاً بعد نشر ناي مقالة في فصلية «فورين افيرز» حول فكرة القوة الناعمة على أساس انها سبب القوة الأميركية في عالم اليوم، ثمّ عمل ناي على تأصيل المفهوم، ومقاربة أطروحته وفق إطار نظري– تفسيري يضعه في سياقه التاريخي والسياسي، وذلك من خلال كتاب بعنوان «القوة الناعمة: وسيلة النجاح في السياسة الدولية»، صير إلى إصداره في العام 2003. والقوّة الناعمة- وفقاً لجوزيف اس. ناي- هي خلاف القوة الصلبة المكوّنة من العتاد العسكري أو الثراء الاقتصادي، واستعمالها من خلال التهديد بالعقوبات أو الاستمالة بالمساعدات؛ فهي امتلاك القدرة والاحتواء الخفي، والجذب اللين، والتأثير في سلوك الآخرين وصياغة رغباتهم وتوجيه خياراتهم، ودفعهم للقيام بعمل ما يتفق مع ما تريد الحصول والاستحواذ عليه، وذلك من طريق الجاذبية، أي جاذبية النظام الاجتماعي والثقافي والسياسي، كما منظومة القيم والمؤسّسات، بدلاً من توسّل الإرغام والإكراه أو الإغراء بالأموال. وهذه الجاذبية بالمقدور تعميمها ونشرها بغير طريقة ووسيلة؛ كالثقافة الشعبية، والدبلوماسية الخاصة والعامة، والمنظمات الدولية، ومجمل الشركات والمؤسّسات التجارية العاملة... والحال، أن تمتلك قوة ناعمة يعني أن تجعل الآخرين يعجبون بك، فيتخذونك قدوة لهم ومثالاً: يتبنون قيمك ومثلك وأسلوب حياتك، ويتطلعون إلى ما تقوم به، ويكون لهم موقف ايجابي من سلوكك وأفكارك، على نحو يتأدّى في المحصلة إلى تماهي رغباتهم مع رغباتك، وإلى اتفاق إرادتهم مع إرادتك.

ويحاول جوزيف اس. ناي أن يشفف أطروحته، وأن يقدمها، ويحرّرها على نحو من التبسيط، فيذهب إلى أنّه قد يكون بمقدور بلد ما الحصول على النتائج التي يريدها في السياسة العالمية، بسبب من أنّ ثمّة بلداناً أخرى معجبة بمثله، وتتطلع إلى أن تحذو حذوه وتطمع في تمثله واستنساخه، وفي إعادة إنتاج تجربته، كما تصبو إلى مستواه من الرقي والازدهار والإنفتاح والمدنية والتطور. ما يعني أنّه من الضرورة ومن الأهمية بمكان، وضع الخطط والتصورات والإستراتيجيات لاجتذاب الآخرين في السياسة العالمية، واستمالتهم، واحتوائهم، واستقطابهم، وجعلهم يريدون ما يراد لهم، وليس فقط الأخذ بأسباب القوّة الصلبة سبيلاً لتحقيق الأهداف، وتوسّل الضغط والعنف والإرغام على التغيير من خلال التهديد بالقوّة العسكرية أو العقوبات الاقتصادية.

(25) كان شمعون بيريس، قد أشار إلى أهمية الحرب النفسية في معرض مقاربته للتحوّل الذي طرأ على مفهوم القوّة؛ حيث يقول: «القوّة الحقيقية، بل وحتى القوّة العسكرية لم تعد توجد في المعسكرات، بل في حرم الجامعة، وأصبح يترتب على السياسات أن تمهّد الطريق بعيداً عن الإستراتيجية العسكرية إلى الذخيرة السياسية والاقتصادية المخصبة». انظر: شمعون بيريس، الشرق الأوسط الجديد؛ ترجمة محمد حلمي عبد الحافظ، ط1، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، العام 1994، ص 35 .

(26) تتوافر الهيكليات التنظيمية في الدول الحديثة، كما في الأطر والأحزاب التنظيمية على وحدات متخصّصة عالية التدريب والتجهيز، تعنى بمهام وشؤون الحرب النفسية في أوقات الحرب كما في أوقات السلم.

تعكف هذه الوحدات على توفير مختلف أشكال وتمثلات الدعم والحماية والمؤازرة ذات الصلة للأجهزة المختلفة؛ كأن تقوم بمساندة أجهزة الاستخبارات، واستكمال أعمالها. فضلاً عن أنها تتولى تحليل ما يبثه العدو، وما يذيعه من تلفيقات وفبركات وأخبار، وما ينشره من أعمال دعائية، وما يقوم به من نشاط وحراك على غير صعيد، إلى جانب دراسة طبيعة الدعاية الصديقة والوقوف على مدى فاعليتها وتأثيرها، ومستوى منافستها ومواجهتها للدعاية المعادية، واستعلام مسارها العام، ودرجة تقبلها من الجماهير الموجّهة إليها، وملاحظة شتى الدقائق والتفاصيل التي تتفتق عنها.

(27) نستحضر هنا للتدليل على هذه الحقيقة، ما أشار إليه صحافي ألماني من أنّ قوة الولايات المتحدة الأمريكية الناعمة هي أعظم بما لا يقاس- بلحاظ تأثيراتها وفعاليتها- حتى من أصولها وموجوداتها الاقتصادية والعسكرية. وفي سياق متصل، يذهب جوزيف اس. ناي في تسويغ أطروحة «القوة الناعمة»، إلى أنّه في السنوات الأخيرة قبل انتهاء الحرب الباردة كانت القوّة الناعمة هي السلاح الأهم؛ فجاذبية النموذج الاجتماعي والثقافي والسياسي الأميركي هي التي أنهت الاتحاد السوفياتي، وفتحت أبواب أوروبا الشرقية أمام التأثير الأميركي. كما أنّ الولايات المتحدة اليوم تغزو الصين بمقاهي ستارباكس وماكدونالدز وأفلام هوليوود، وهذه الأسلحة أقوى في تغيير السلوك الصيني من التهديد بعقوبات اقتصادية.

(28) يذكر على سبيل الاستدلال والمثال لا الحصر، كيف كان القائد اليوناني الكبير الإسكندر المقدوني في فتوحه ومعاركه، يخلف وراءه الدروع والخوذ الضخمة- التي توافر على صناعتها خصيصاً لهذه الغاية– وذلك لغرض دبّ الذعر والخوف والهلع في صفوف الأعداء، بعد إيهامهم

أنّ جنوده عمالقة ومن قامات كبيرة، وبالتالي من الصعوبة بمكان مقاومتهم وردعهم ومواجهتهم. كما يذكر في سياق متصل كيف توسّل القائد الألماني أروين روميل الحيلة والخداع في الحرب العالمية الثانية، حين لجأ إلى تعليق أغصان الشجر خلف الآلات العسكرية، كي يتسبّب ذلك بتصاعد الغبار الكثيف، لغرض إيهام الأعداء– إخافة وترهيباً- بضخامة القوة المهاجمة.

(29) تؤكد النظريات العلمية التي تعنى بالنزوعات والميول الإنسانية، أنّ إرادة القتال والمقاومة والمنعة والصمود، وأن الطليعية والاندفاع والحماسة والإيجابية في العمل وروح الإبداع والابتكار، كما أنّ الوهن والهزيمة والاستسلام واليأس والسلبية؛ هي كلها حالات عقلية تنشأ في عقل الإنسان بتأثير ظروف معينة، فتولد لديه الدوافع النفسية التي تأخذ به إلى توسّل السلوك الذي يعبر عن تلك الحالات.

(30) إنّ العامل السايكولوجي وفق ما تكشفت عنه التجارب والبحوث ذات الصلة، له كبير الفعل وشديد الأثر وعظيمه في السلوك، وفي الإدراك والتفكير، كما في مجمل العمليات الذهنية والنفسية للذات البشرية: قد يُعمل معاول الهدم لديه في الإرادة والعزم والتصميم، على نحو يصبح معه المتلقي واهن القوى، مرتهناً ومستتبعاً على نحو ذيلي، قليل الحيلة والجهد، سليب الإرادة وضعيف القدرة على التصميم والفعل. وقد يمارس سطوته وألاعيبه على الإدارك والوعي والمخيال؛ فيُحدث فيها تشوّهات وتخثرات غير حميدة، بكيفية تجعل المتلقي ينظر إلى الموجودات والوقائع من حوله نظرة شوهاء، ويدركها إدراكاً مختلاً، كأن يرى أشياء لا وجود لها إلا في خياله، ويتعامى- في قبالة ذلك- عن إدراك أشياء لها وجودها الموضوعي وتحيّزها الفيزيائي. وقد يكون بمقدوره النفاذ إلى أواليات التفكير؛ فيلحق بها أضراراً بالغة: يعبث بها، ويفسدها، ويحدث فيها خراباً، ويصيبها بالعقم والشلل. ما يجعل المتلقي غير قادر على التفكير السوي والسليم، بل قد يجعله- في أحايين كثيرة- عاجزاً عن التفكير تماماً.

(31) السير ونستون ليونارد سبنسر تشرشل، ولد في قصر بلنهايم في محافظة اكسفورد شاير في انجلترا، في الثلاثين من شهر نوفمبر/تشرين الثاني من العام 1874. يعدّ من الزعماء والقادة التاريخيين في بريطانيا، وصانع مجدها الحديث. شغل منصب رئيس وزرائها في العام 1940، على إثر استقالة تشامبرلين، وقادها خلال الحرب العالمية الثانية. رجل دولة ومؤلف وخطيب مفوّه، تمكن من استنهاض شعبه ورفع روحه المعنوية خلال الحرب المذكورة، حيث كانت خطاباته مصدر إلهام لعموم قوات الحلفاء. كان أول من أشار بعلامة النصر بواسطة الإصبعتين(السبابة والوسطى) في تمثيل إيحائي لترسيمة الحرف v، من كلمة Victor. أصبح بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية زعيماً للمعارضة في أعقاب تعرضه للخسارة في انتخابات العام 1945، لكنه ما لبث أن عاد سريعاً ليتبوّأ مجدّداً موقع رئاسة الوزراء في العام 1951، قبل أن يتقاعد ويعتزل السياسة في العام 1955.

كان لتشرشل إلى جانب السياسة اهتمامات أدبية؛ فقد حصل على جائزة نوبل للآداب في العام 1953، تقديراً لمؤلفاته العديدة في التاريخ الإنجليزي والعالمي. توفي في الرابع والعشرين من شهر يناير/ كانون الثاني من العام 1965، عن عمرٍ واحد وتسعين عاماً.

(32) جوزيف فيساريونوفيتش ستالين، كنيته الأصلية (جوغاشغيلي)، ولد في مدينة غوري في الثامن عشر من شهر ديسمبر/ كانون الأول من العام 1878. هو القائد الثاني للاتحاد السوفياتي

بعد فلاديمير إيليش لينين؛ بل إنّ بعض الباحثين يذهب إلى اعتباره المؤسّس الحقيقي للاتحاد، بعدما قاد أوسع عملية تحوّل وتغيير نقلته من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي، ومكنته من الانتصار على دول المحور، والارتقاء إلى مكانة القوى العظمى. شغل في العام 1912 منصب عضو في اللجنة المركزية للحزب البلشفي، وحظي في العام 1913 بلقب (ستالين) وتسمّى به، فصار كنيته التي اشتهر بها، وتعني الرجل الفولاذي، وذلك بعد أن عرف بقسوته وبأسه وقوّته وجبروته. تقلد في العام 1922 منصب الأمين العام للحزب الشيوعي. توفي في الخامس من شهر مارس/ آذار من العام 1953.

(33) أروين روميل (1891 - 1944م)، هو قائد ألماني بارز لمع أسمه إبان الحرب العالمية الثانية. تولى غير مهمة عسكرية؛ عمل ضابط مشاة، ومديراً لأكاديمية الحرب، وكان قائد الحرس الخاص لأدولف هتلر، وقائد فرقة مدرعة (فرقة الأشباح) خلال الهجوم على فرنسا، كما كان قائد جيش البانزر في إفريقيا، وأخيراً قائد جبهة للقوات الألمانية في فرنسا في العام 1944. توفي منتحراً. صنع انتصارات أسطورية وحقق انجازات رائعة في كل حروبه ومعاركه. كان أبرع من طبق إستراتيجية الاقتراب غير المباشر، وإستراتيجية الحرب الخاطفة. ويسجّل له أنه كان صاحب نظرية حرب الألغام على الشواطئ الفرنسية. حفر بصمة عميقة في العلوم العسكرية، وخلف آثاراً جليلة لها عظيم الفضل في تطور نظريات القتال وفن الحرب.

(34) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، لا.ط.، اسطنبول :المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، لا. ت.، مادة (دعا)، ص 286.

(35) مجمع اللغة العربية، م. ن.، ص 287.

(36) خليل أحمد خليل، سلسلة المعاجم العلمية؛ معجم المصطلحات السياسية والدبلوماسية، ط1، بيروت: دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، 1999، ص 86.

(37) يذهب بعض العلماء من ذوي الخبرة والاختصاص والشأن إلى أنّ استهلاك أساليب الإقناع، وتكرارها على نحو ممجوج، واستنفادها واستعمالها بكيفيات استعادية؛ قد صلّب وعي المتلقين من جهة، وأفقد هذه الأساليب سطوتها وفعاليتها وتأثيرها من جهة ثانية، حتى أصبح الناس- بالأعم الأغلب- لا يتأثرون ولا ينفعلون بها، أو يتفاعلون معها على نحو موجب وسلس، بل أصبح الأمر في أحايين كثيرة يحتاج إلى تحايلات والتفافات ومواربات وتفتقات إبداعية كي تستقيم عملية الإقناع. ونحو ذلك على سبيل المثال؛ عدم إنشداد الناس إلى الدعاية الانتخابية، وعزوفهم عن التوجّه إلى صناديق الانتخابات، مهما سمعوا من دعاية عن أهمية هذه العملية ونزاهة المرشحين وفضيلة برامجهم. أو تلك الدعاية التي تحضّ على دفع الأموال وجمع التبرعات والمساعدات لمصلحة بعض المؤسّسات الخيرية. أو سوى ذلك من أعمال دعائية تصمّ آذان المتلقين بشكل يومي؛ وفيها إعلانات عن منتجات بأسعار مشجّعة وخيالية، وعن سلع بجودة فائقة، وعن أبنية وشقق بمواصفات فاخرة... إنّ كثرة الإعلانات المخاتلة والخادعة والمضللة، كما كثرة توسّل الأواليات والأساليب الإقناعية على نحو اجتراري استعادي؛ أكسب المتلقي حصانة ومنعة واستعصاء على قبول الدعايات والرسائل المكرورة. والحال، لا بدّ من البحث عن أساليب ومناهج ومهارات وطرائق أكثر إبداعية، وأكثر إثارة وتشويق، وأكثر مصداقية ... لاجتذاب الناس واستمالتهم وإقناعهم.

(38) تنزع الدعاية السياسية إلى التأثير في اتجاهات الآخرين، كما في آرائهم وميولهم وتصوراتهم وأفكارهم. إلا أنّ نجاح هذا التأثير وفعاليته يتوقفان على العديد من العوامل المساعدة؛ كأن يكون مصدرها موضع ثقة المجتمع المستهدف واحترامه وتقديره، أو تكون الدعاية المضادة- التي تعكف على دحضها ومعارضتها وإبطال حججها وتفنيد مزاعمها وبيان تهافتها وفساد مقولاتها وتنزيه عدالة القضية ومشروعيتها- هي غير ذات شأن، وغير ذات جدوى.

(39) حسين ظاهر، معجم المصطلحات السياسية والدولية، ط1، بيروت: المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2011، ص157.

(40) حسين ظاهر، معجم المصطلحات السياسية والدولية، ط1، بيروت: المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2011، 156.

(41) خليل أحمد خليل، سلسلة المعاجم العلمية؛ معجم المصطلحات السياسية والدبلوماسية، ط1، بيروت: دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، 1999، ص 87.

(42) يرى السيد عليوه في مؤلفه (إستراتيجية الإعلام العربي): «أنّ الدعاية تستخدم للترويج لوجهة نظر معينة بغرض اكتساب الأنصار لها، وهي ليست إلا تسلطاً على الأفراد بوصفهم أعضاء في مجتمع ابتغاء السيطرة على أفكارهم وأفعالهم، وتوجيهها وجهة معينة (...) والدعاية لا تقول الحقيقة دوماً، ولا تجري على وتيرة واحدة، بل تتنوّع، وقد تؤثر بطريقة لاشعورية». أنظر السيد عليوه، إستراتيجية الإعلام العربي، ط1، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، العام 1978، ص 169، 172.

(43) تحرص الدعاية- في رحاب عملها واشتغالها- على تظهير وإبراز وجهة نظر واحدة حيال الموضوع المطروق والقضية المثارة، وهي الوجهة التي تأخذ بها الجهة الناظمة للدعاية، وبالتالي فإنها تلحّ على مجانبة عرض وجهات النظر المفارِقة والمعارضة.

(44) ينظر في هذا السياق، كيف أنّ التهديدات الأميركية - الإسرائيلية لإيران بشأن ملفها النووي، التي نيّفت عن عقد من الزمن، ومثلها التهديدات الإسرائيلية لحزب الله في أعقاب الفشل الإسرائيلي في الحرب على لبنان، في تموز/ آب من العام 2006؛ أصبحت جميعها مجرد فقاعات فارغة لا جدوى منها، ولا فعالية لها، ولا أثر . فقد أصيبت مصداقيتها بمقتل، وتراجعت بمعدل واحد مع تصاعدها: تراجع نسبة الذين يأخذونها على محمل الجدّ، وتراجع التأثير النفسي والعصبي الذي تحدثه في المتلقين... أما السبب في ذلك؛ فهو توافر الرغبة مع عدم توافر القدرة، فضلاً من أن الزمن مضى طويلاً منذ بدء إطلاقها في حرب نفسية مفتوحة ضد حزب الله والجمهورية الإسلامية في إيران.

(45) شيلفورد بيدويل، الحرب الحديثة، دراسة تحليلية للرجال والأسلحة والنظريات؛ ترجمة مصطفى درويش، ط1، بيروت: المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، 1985، ص 64، 65.

(46) يُسجّل للأميركي قدرته على الإبداع في هذا المجال؛ فهو أول من وعى ضرورة اختلاف نوع الدعاية باختلاف حساسيات المتلقين، فتتلبّس الدعاية الواحدة– والحال هذه- أكثر من لبوس، وتتخلق بأكثر من خلاق وهيئة وشكل. كما إنه أول من أدرك ضرورة تقديم الدعاية على أطباق

متنوعة ومتفارقة تبعاً لطبيعة الناس الذين تُوجّه إليهم؛ فكانت الدعاية التي يصار إلى توجيهها إلى شعوب أسيا، هي بالضرورة خلاف تلك الموجّهة إلى شعوب أوروبا.

(47) تكاد الدعاية التكتيكية ذات الطابع العسكري أن تقتصر على الارتباط المباشر بالعمليات الحربية، بحيث يكون هدفها المباشر إكراه العدو، ودفعه إلى الاستسلام وإلقاء السلاح بطريقة أو بأخرى، وكذلك توفير الحماية لمؤخرات القوات المتقدّمة وخطوط مواصلاتها وإمدادها وأماكن تموضعها وانتشارها، من طريق بث ونشر رسائل تحضّ على شرعنة وجود القوات المسلحة، وتهيئة السكان المستهدفين لقبول الإدارة العسكرية الجديدة، وتسهيل عمليات إدارة المناطق المحتلة أو المحرّرة...

(48) كانت العصابات الصهيونية تنظم أعمالاً عدائية تستهدف الجماعات اليهودية في غير قطر عربي، لغرض إثارة هلعها، ودفعها دفعاً كي تلجأ نازحة إلى الكيان الإسرائيلي؛ يأتي في هذا السياق على سبيل المثال ما عُرف بعملية كنيس (مسعودة شم - طوف) في بغداد، التي وقعت في العام 1949، حيث أنّ الرواية الشائعة– وفقاً للمؤرخ الإسرائيلي توم سيغف– تشير إلى إنّ عملاء الموساد هم من قام بتنفيذها، ليشجعوا يهود العراق على مغادرة بلادهم والهجرة إلى الدولة العبرية المصطنعة. كذلك كان واقع الحال في العمليات العدائية التي ذهب ضحيتها مواطنون يهود في كل من مصر والمغرب.

(49) يحضرنا في هذا الصدد مثالات كثيرة، لاسيما ما صير إلى كشفه عبر برقيات دبلوماسية أميركية نشرتها صحيفة «أفتنبوستن» النروجية، في عددها الصادر بتاريخ الخامس من كانون الثاني من العام 2011؛ أنّ إسرائيل سعت إلى تشويه صورة المقاومة اللبنانية، والإساءة إلى سمعتها، وتقذير طهرانيتها الثورية، من خلال ربط مصادر تمويل حزب الله بتجارة المخدرات وغسيل الأموال، وسوى ذلك من عمليات مشبوهة. فقد كشفت برقية دبلوماسية سُربت عبر موقع ويكيليكس الإلكتروني نشرتها الصحيفة المذكورة أعلاه عن مضمون اجتماع عقد في الثاني عشر من تموز من العام 2008 بين مساعد الرئيس الأميركي لشؤون الأمن القومي ومكافحة الإرهاب فرانسيس فراغوس تاونسند ومسؤولين في مجلس الأمن القومي الإسرائيلي. وقد قدّم الإسرائيليون- وفق ما افادت به البرقية ـ للمسؤول الأميركي تقريراً حول الجهود المضنية التي بذلتها وتبذلها إسرائيل في سعيها للربط بين الإرهاب والنشاط الإجرامي، بما يؤدّي إلى تسفيه فكرة المقاومة التي يتوسّلها حزب الله، ومسخها وتقزيمها ونسخها، عبر الحديث عن ضلوع الأخير بالاتجار بالمخدرات، والعمل بتبييض الأموال، كما تورّطه بأعمال مخلة بالأعراف والقوانين.

(50) تحظى البرامج السياسية ذات الطابع الكوميدي الساخر في الولايات المتحدة الأميركية بعناية واهتمام بالغين، قد لا تتوافر عليهما سائر البرامج. وذلك بوصفها تستخدم كمؤثرات أو كعمليات نفسية فعالة يصار إلى تثميرها وتوظيفها في سياق الانتخابات: الرئاسية، والحزبية وسواها، كما حدث في برنامج (ساتر داي نايت) الكوميدي مع سارة بيلين مرشحة الرئاسة الأميركية في انتخابات العشرين من شهر يناير– كانون الثاني من العام 2009؛ حيث استطاعت الممثلة الكوميدية تينا فاي أن تقدّم بيلين بمظهر الغبية، الحمقاء، الساذجة ... ما أدّى إلى تدني التأييد لها، وانخفاض شعبيتها، وبالتالي خروجها من السباق الرئاسي.

وقد ذهب بعض الباحثين في توصيف تأثير هذا النوع من البرامج الساخرة إلى القول: «دعكم من استطلاعات الرأي، وارموا جانباً التحليلات والتنبؤءات. لا تأبهوا بعدد المقالات التي تعظم أحدهم وتذمّ آخر... سنعرف من سيفوز بتسمية المرشح لخوض الانتخابات الرئاسية في النهاية، من عدد النوادر التي تتناوله. فكلما أوحى المرشح للبرامج الساخرة التي تعرض على الشاشات الأميركية بالنكات؛ كان الأقلّ حظاً». ذلك أنّه «من الصعب التصويت لشخص تسخر منه» وفقاً لروبرت ليشتر مدير (مركز الإعلام والشؤون العامة).

أما أشهر تلك البرامج الأميركية الساخرة على الإطلاق: برنامج (ذا تونايت شو)، وبرنامج (لايت شو)، وبرنامج (لايت نايت)، وبرنامج (كولبير ريبورت).

(51) في السابع من شهر كانون الأول/ديسمبر من العام 1941، قامت القوات الجوية اليابانية بتنفيذ إغارة تاريخية استهدفت الأسطول الأميركي الرابض في قاعدة بيرل هاربور في المحيط الهندي. وحطمت قطعه كافة على نحو مروّع ومهول. ولم يحدث في تاريخ الحروب أن حطم طيران دولة أسطول دولة معادية بأكمله. ما جعل الولايات المتحدة في شهر كانون الثاني/يناير من العام 1942، وبعد انكشاف هول الواقعة وقسوتها، ساحة تتوافر فيها قابلية الاستجابة لأية دعاية، كما قابلية القدرة على الامتصاص، حيث تناهبتها صنوف الأعمال الدعائية والنفسية؛ سواء الموصّفة للحدث، والمضخمة له، أم تلك التي تصيب الناس بألوان الرعب والهلع والخوف، فضلاً عن المبالغة في تصوير القوّة اليابانية، والتقليل من فعالية القوّة الأميركية.

(52) تنقل كلير شكر عن بعض أقطاب فريق 14 آذار في لبنان القول إنّ نجاح حملاتهم الدعائية والاستقطابية كان بسبب «ضخ إعلامي يومي، لتحسين صورة الذات، وضرب صورة الآخرين، على طريقة «التكرار»، إحدى وسائل التأثير في الرأي العام التي أتى على ذكرها، غوستاف لوبون في كتابه «سيكولوجية الجماهير». أنظر: كلير شكر، 14 آذار وخطابها السياسي: صورة منمقة لممارسات متناقضة؛ مطبخ إعلامي يوزّع كلمات السرّ ويرصد الخصوم. من مقالة منشورة في صحيفة السفير اللبنانية، السنة السابعة والثلاثون، العدد 11739، الثلاثاء في 9 تشرين الثاني، العام 2010، ص 4.

(53) غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير؛ ترجمة وتقديم هاشم صالح، ط3، بيروت: دار الساقي، العام 2011، ص133.

(54) أدولف هتلر، كفاحي؛ تعريب أميمة سعد،لا.ط.، بيروت: دار الأنوار، لا .ت.، ص 56.

(55) شيلفورد بيدويل، الحرب الحديثة، دراسة تحليلية للرجال والأسلحة والنظريات؛ ترجمة مصطفى درويش، ط1، بيروت: المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، 1985، ص 64.

(56) الشعارات (Slogans): هي عبارات موجزة وكثيفة ومثيرة، تتضمن مبادئ ومعتقدات أو آراء حزب سياسي، ترفع في مناسبات قومية ومهرجانات وأعياد رسمية ... وقد تكون الشعارات رمزاً لمطالب معينة أو عناوين لسياسات ولإستراتيجيات محدّدة.

كثيراً ما تستخدم في الأدبيات السياسية مقولة «حرب الشعارات» عند الإشارة إلى حالة من التنافس أو التنازع بين أطراف سياسية؛ ويتمثل ذلك بإطلاق حملة من الإعلانات والخطب، أو الملصقات واللافتات، أو البيانات الصحفية التي تعبّر عن آراء ومطالب كل طرف. أنظر: حسين

ظاهر، معجم المصطلحات السياسية والدولية، ط1، بيروت: المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، العام 2011، ص 222.

(57) يقرّ إعلاميون من جماعة ما يصطلح على تسميته في لبنان بـ(14 آذار)، بأنّ شعبوية الشعارات التي استخدمها فريقهم فضلاً عن عفويتها وبساطتها؛ هي التي سهلت عملية تناقلها على ألسن الناس، ويسرت تلقفها من قبلهم، وتداولها فيما بينهم، كما سهلت مهمة اختراقها للوعي والعقل والأذهان. أنظر: كلير شكر، 14 آذار وخطابها السياسي: صورة منمقة لممارسات متناقضة؛ مطبخ إعلامي يوزّع كلمات السرّ ويرصد الخصوم. من مقالة منشورة في صحيفة السفير اللبنانية، السنة السابعة والثلاثون، العدد 11739، الثلاثاء في 9 تشرين الثاني، العام 2010، ص 4.

(58) يحضرنا هنا الأسلوب الاستعطافي الذي صير إلى العمل به من قبل الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة الأميركية، كما في سائر أوروبا، لنشر دعاياتها ضد الدول والأنظمة العربية، حيث انطوى على عبارات بالغة التأثير في النفوس، نحو شعار (أعطونا لنعيش) مقروناً برسم لطفل صغير يبحث عن طعام فلا يجده.

(59) نقع هنا على الأسلوب الاستعطافي الذي خاطبت به ثورة الأرز اللبنانية (ما يسمّى بقوى 14 آذار)، الرأي العام الداخلي والخارجي، والذي تمثل في شعار مؤثر (بدنا نعيش).

(60) يطالعنا في هذا الصدد، الكيفية التي يجري فيها تعامل الإعلام الرسمي العربي مع الكيان الصهيوني، بوصفه دولة لها وجودها الموضوعي وحضورها الطبيعي على أرض الواقع، وتتوافر على كل مقومات الوجود، دون التعرّض لحقيقة الولادة الغصبية، والنشأة الهجينة، والقيام المصطنع. ما تأدّى إلى تقبّل بعض الرأي العام العربي لوجود دولة صهيونية على أرض فلسطين، وفي قلب العالم العربي– الإسلامي، دونما مفاعيل وآثار سلبية، ودونما ندوب أو تداعيات وتبعات نفسية وفكرية عميقة.

(61) يحضرنا في هذا الصدد، كيف أنّ الولايات المتحدة الأميركية خلال حقبة الاحتلال الروسي لأفغانستان، كانت ـ إلى جانب تقديم كلّ أشكال الدعم للمقاومة الأفغانية ـ تلحّ على تسمية المقاتلين بلقب (المجاهدين الأفغان). والحال، كانت كلمة السرّ تعطى لوسائل الإعلام العالمية ولوكالات الأنباء الرئيسة كي يصار إلى تعميم واستعمال عبارات: المجاهدين الأفغان والاحتلال الروسي، وذلك للتأثير على الرأي العام. إلا أنّ المفارقة سرعان ما تتبدّى عند تحوّل هؤلاء المقاتلين إلى عبء على الإدارة الأميركية. ما دفع الأخيرة إلى الاستعاضة عن لقب المجاهدين بلقب الإرهابين، ليصبح المجاهدون ـ وبلمح بالبصر ـ إرهابيين يتهدّدون الأمن والسلام العالميين.

(62) يُعتبر (اللواء) النواة الرئيسة في الجيش الإسرائيلي، وهو يرتبط في العادة بفرق محدّدة. أمّا في أيام الحروب والنزاعات، فيصار إلى تبني هيكلة للجيش تنسجم مع مقتضى الواقع والحال، حيث تعزّز الفرق بألوية أو بكتائب من صنوف أخرى. ويستعمل الإسرائيلي وفق لأدبياته المستخدمة كلمة «أوغدا» للدلالة على هذا التنظيم المؤقت الذي جرى ابتداعه لغرض محدّد، ويقابل «الأوغدا» في الجيوش الغربية قوة المهمة (Task Force).

(63) مع انفجار الحرب الأهلية اللبنانية، انشغل المستوى السياسي الإسرائيلي بالوضع اللبناني إلى جانب انشغال مستواه العسكري المتمثل بإعتداءات متكرّرة، حيث حفلت الصحف الإسرائيلية بنقاشات واسعة ومستفيضة حول مفاعيل الحرب المذكورة على مستقبل لبنان، كما على مصير

السلطة المسيحية فيه. ليصار لاحقاً إلى ترجمة هذه الهواجس بإعلان وزير الدفاع الإسرائيلي- حينذاك- شمعون بيرس في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني/ يناير من العام 1976، قرار فتح الحدود أمام اللاجئين اللبنانيين المسيحيين. أنظر: محمود سويد، الجنوب اللبناني في مواجهة إسرائيل، ط1، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1998، ص 10.

(64) كانت اسرائيل قد تذرعت لشن عدوانها على لبنان في حزيران من العام 1982، بأنه يندرج في سياق رد الفعل الطبيعي على محاولة اغتيال سفيرها في لندن «شلومو أرغوف» في الثالث من حزيران من العام 1982. أمّا الغطاء السياسي الذي ظللت به هذه العملية؛ فكان العمل الإعلامي والاستخباري الموجّه، الذي استمرّ طويلاً، والذي كان يلحّ على تصوير لبنان بأنه مرتع للعصابات المسلحة، كما على تظهيره كبؤرة للإرهاب الدولي.

(65) إنّ سائر الاعتداءات الإسرائيلية على لبنان، كالتي وقعت في آذار من العام 1978، أو التي وقعت في تموز من العام 1993، أو تلك التي وقعت في نيسان من العام 1996، أو ما شاكلها من سلسلة الاعتداءات الطويلة، المتلاحقة والمتواصلة؛ فإنّ الإسرائيلي لم يصنفها حروباً، بل أدرجها في إطار عمليات عسكرية موضعية.

(66) يوسف نصر الله، تداعي الاسطورة: مقاربات نقدية لمشهدية الحرب السادسة، ط1، بيروت: دار الفارابي، 2011، ص 11.

(67) لمّا استقرت للولايات المتحدة الأميركية الحال، واستقام لها الأمر على تسيّد العالم وتزعمه بعد انهيار وتحلل المنظومة الاشتراكية وتفكك الاتحاد السوفياتي، والاتجاه نحو واحدية قطبية ليس لها في حلبات التنافس والاشتباك من ندٍ أو خصم أو عدو؛ بدأت رحلة تثبيت انفراديتها. لكنّ ذلك دونه مخاطر وشرور؛ إذ إنّ عجلات الرأسمالية ومحركاتها لا تدور ولا تقلع من غير عدو، ولو كان وهمياً مختلقاً، أو كان نمراً من ورق. والحال هذه، كانت ثمّة حاجة أميركية ملحّة تنزع إلى تصنيع إيديولوجي لعدو، أو اختلاق «نموذج عدو»، يكون بمقدور القطب الواحد للعالم عبر الصراع معه إحكام السيطرة على مناطق قلقة، أو متفلتة من إسار السيطرة، أو مضطربة، أو مناطق يُخشى- بحكم تجربة تاريخية عريقة، ومن خلال منابع ثقافية حضارية- أن تضطلع بمهمة وضع رؤية مضادة للعالم، على نسق المهمة التي كان يضطلع بها الاتحاد السوفياتي في زمن الحرب الباردة.

من هذه الخلفية صدرت مقولة «صدام الحضارات» لصموئيل هنتنغتون، التي صير إلى نشرها في مجلة فورين أفيرز (Foreign affairs) في تموز من العام 1993، قبل أن يعاد تظهيرها في العام 1996 طيّ كتابه الحامل للعنوان نفسه. وقد جاء في مقدمة الكتاب ما يبرر ادعاءنا: «لا يهدف هذا الكتاب لأن يكون عملاً في علم الاجتماع» يقول هنتنغتون «وإنما لأن يكون تفسيراً لتطوّر السياسة الكونية بعد الحرب الباردة». أنظر: صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي؛ ترجمة مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف، ط1، ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، العام 1999، ص64.

وفي سياق متصل، تندرج أطروحة أمين عام حلف الناتو، عن «حلول الخطر الأخضر محل الخطر الأحمر»، والتي كان قد أدلى بها في العام 1994؛ لتؤكد بما لا يقبل الشكّ على أنّ مقولة هنتنغتون ليست مجرد استعارة فكرية جلبها من أوزوالد اشبنغلر(فلسفة التاريخ)، وأوفرنان

بروديل(تاريخ قواعد الحضارات)، وإنما هي تعبير عن حاجة إلى تصنيع وتخليق إيديولوجي لعدو، يتيح لواشنطن من خلال مواجهته والصراع معه تحقيق أجندات محددة. وهو ما نقع على ترجماته وتمثلاته في التوظيف الأميركي لحادثة تفجير برجي التجارة العالمية في كل من نيويورك وواشنطن في الحادي عشر من أيلول من العام 2001؛ فلم تمض أيام معدودات على الحادثة المذكورة، حتى أعلن الرئيس الأميركي- حينئذ- جورج بوش الابن، أنّه في «حملة صليبية» ضد «الفاشية الإسلامية». لتبدأ والحال هذه، سلسلة غزواته المتتالية: غزو أفغانستان 2001، ثم غزو العراق 2003 ... كمقدمات حتمية لإعادة تشكيل الشرق الأوسط إستراتيجيا، أو لإعادة «صياغة المنطقة»، على حدّ تعبير وزير الخارجية الأميركي كولن باول عشية بدء عملية الغزو الأميركي لبلاد الرافدين.

(68) الفكر الإستراتيجي العربي، السنة العاشرة، بيروت: معهد الإنماء العربي، العدد 38، اكتوبر/ تشرين الأول، 1991، ص 10.

(69) نذكر على سبيل الاستدلال ما كان الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، قد أقدموا عليه في تزييفهم لصحف إيطالية صير إلى تقليدها واستنساخها تحريراً وإخراجاً وطباعة وإعلاناً. لتوزّع لاحقاً على الجنود الإيطاليين بعد أن حوت بين طياتها وتضاعيفها أخباراً كاذبة عن انهيار قوات دول المحور في الجبهة الغربية من القتال، وأخباراً صحيحة عن اضرابات عمالية تعمّ المدن الصناعية الكبرى في إيطاليا. ما كان له أثر بالغ السلبية على روحية الجنود الإيطاليين ومعنوياتهم، وقد أفضى إلى تصدّعات هائلة في صفوفهم.

أمّا الخلفية التي صير إلى الصدور منها لتزييف الصحف بعد ملئها بالأخبار المهجّنة والملفقة؛ فهي لضمان إقبال الجنود الإيطاليين على قراءتها، وعلى إيلائها بالغ الرعاية والاهتمام. لاسيما أنّ مثل هذه الصحف لم يكن يوفرها لهم الجيش الإيطالي.

(70) لقد أماط أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله، في إطلالة إعلامية متلفزة من على أثير المجموعة اللبنانية للإعلام (المنار) في الرابع والعشرين من شهر حزيران من العام 2011، اللثام عن فشل محاولة اختراق نفذتها المخابرات المركزية الأميركية لجسم حزب الله من خلال تجنيدها لثلاثة من كوادره. وقد كان من أولى أهداف إطلالة السيد تلك، قطع الطريق على الحرب النفسية التي يخوضها غير جهاز استخباري مثمّراً الحادثة. وذلك لوضع حدّ للغط الذي أحاط بكشف مجموعة التجسّس المجندة، ولوضع الخرق الأمني في حجمه الطبيعي قاطعاً بذلك دابر استغلاله عبر الشائعات والسيناريوهات والروايات البوليسية التخييلية التي توالدت بوتيرة غير مسبوقة بهدف ارباك الحزب وجمهوره. وأخيراً لوضع جمهور المقاومة وحلفائها أمام حقيقة ما جرى... ما يحول دون تمكن العدو من النفاذ إلى وعيهم، والتأثير سلباً على معنوياتهم.

(71) لقد نشرت غير صحيفة خليجية أخباراً مفادها: أنّ عدد الكوادر الذين صير إلى تجنيدهم داخل تنظيم حزب الله قد تجاوز المئة.

(72) يرى Guy Durandin أنّ الطريقة التي تتصرف بها «الدعاية السياسية في مجال معيّن ترتبط بالطريقة التي ندرك ونقيّم بواسطتها مختلف معالم هذا المجال؛ فالوسيلة التي تلجأ إليها الدعاية السياسية لتغيير تصرفاتنا تكمن أولاً في تعديل إدراكاتنا وأحكامنا التقويمية».

(73) من الأمثلة الواقعية الحيّة التي تشفف هذا الأمر، لجوء الإذاعة البريطانية في الحرب العالمية الثانية إلى وسيلة غاية في الدهاء والموارية والاحتيال والتضليل. فقد أفردت بين برامجها– وعلى نحو ساعتين يومياً- برنامجاً خاصاً معدّاً باللغة الألمانية، وموجّهاً إلى الشعب الألماني. وكانت الإذاعة قد حرصت خلال العرض على ألا تقحم أية مواد سياسية أو إخبارية، وإنّما تعمّدت إنتخاب المواد المقدّمة من النوع الذي يروق للشعب الألماني، ويستميله، ويستهويه سماعه دونما كلل أو ملل: كبرامج الترفيه والأغاني الشعبية، والتمثيليات الكلاسيكية... وذلك لم يأت من عدم أو فراغ، بل في إثر غير دراسة علمية سبرت نفسية الشعب الألماني، وصير فيها إلى الوقوف على الاهتمامات والانفعالات، وعلى طريقة التفكير والآراء والميول والهوايات، كما جوانب النبذ والكره. وقد وُظف ما ينجذب إليه الألمان من طريق استصراحات ومواقف أدلى بها مواطنون بريطانيون، إدراكاً من الإذاعة أنّ الأفراد لديهم ميل للتعاطف والتجاذب مع من يتبادل معهم وجهات النظر ذاتها، والميول والهوايات والانفعالات ذاتها.

(74) يذهب جوزف ناي صاحب كتاب (القوة الناعمة)، إلى أنّ الجرعة الإعلامية السامّة لا تؤتي أكلها- على نحو فاعل- إلا من طريق الخداع والسرية. ولذلك، ينصح أن تأتي الدعاية من شخصيات أو جهات أو مؤسّسات تتلبّس اللبوس الوطني والقومي والديني، وتبتعد ظاهرياً من الارتباط بالخارج المعادي.

(75) تذكر كتب التاريخ أنّ القائد جنكيزخان، كان يتخذ من جواسيس عدوه وسيلة لإرهاب هذا العدو، وذلك من طريق إيهام هؤلاء بامتلاك جيشه لكل أسباب القوّة والاقتدار والبأس. فما إن يُلقى القبض على أحد الجواسيس، حتى يُعرض عليه صور مذهلة لجبروت الجيش كما لتفوقه بلحاظ العديد والعتاد والمهارات القتالية في الحرب، ليصار بعدها إلى إطلاق سراحه، فيعود أدراجه من حيث أتى، ناقلاً إلى مشغليه ما أراد جنكيز إيصاله من ضروب الحرب النفسية وصنوفها.

(76) يحدّد العلماء والمختصون للدعاية عتبات، ينبغي مراعاتها والتقيّد بها: في المرحلة الأولى تثمر الدعاية، وتعطي نتائج إيجابية تتصاعد على نحو تدريجي ومتسلسل، إلى أن تبلغ العتبة الأولى التي تمثل قمة التأثير الدعائي، والتي لا يكون الاستمرار بعدها مجدياً بإطلاق. أمّا إذا ما قدّر حصوله، فإنّه قد يوصل موضوع الدعاية إلى العتبة الثانية. وهنا تصبح آثار الدعاية سلبية، ومفاعيلها ارتدادية، حيث تؤدّي إلى النفور، وتعطي نتائج عكسية على خلاف المرجوّة والمأمولة منها.

(77) ان نجاح الدعاية وصلاحها كثيراً ما يتأتيان من مقدار تمثلها بكيفية غير مباشرة، ومن مقدار توسّلها لطرائق موارية ولأساليب ملتوية مخاتلة، على نحو تظهر فيه بعيدة من هدفها المنشود وغايتها المرجوة. ما يجعل أمر اكتشافها واكتناه مقاصدها عسيراً ومتعذراً، كما يجعلها بلحاظ تمظهرها التفارقي مع أهداف العدو، ذات قيمة استثنائية وقدرات مضافة؛ إذ تغدو أقوى تأثيراً، وأشدّ فعالية، وأكثر مقبولية وموثوقية وتصديقاً.

(78) النازية (Nazisme) : هي نظام من طبيعة ديكتاتورية ساد في ألمانيا بين العامين (1933-1945)، وكان بزعامة (الفوهرر) أدولف هتلر. والحزب النازي هو اختصار مصطلحي لمسمّى الحزب الوطني الإشتراكي للعمال الألمان الذي تأسّس في العام 1919، واستمرّ في مزاولة نشاطه على غير صعيد، قبل أن يصار إلى حله في أعقاب الهزيمة التي منيت بها ألمانيا

في الحرب العالمية الثانية. أمّا المبادئ التي تستوي عليها النازية ويستقيم بناؤها، فبالمقدور الوقوع عليها عامة طيّ الموضوعات التي ضمنها أدولف هتلر كتابه (كفاحي) في العام 1923؛ كسيادة الجنس الآري، وإنشاء الرايخ الثالث، والقضاء على أعداء ألمانيا من اليهود والشيوعيين...

(79) أولت النازية الدعاية السياسية شأناً عظيماً واهتماماً بالغاً؛ فقد أنشأ أدولف هتلر (Adolf Hitler) وزارة خاصة تعنى بالدعاية والتنوير والإرشاد (The Ministry of popular Enlightement and propaganda)، وعيّن لها وزيرا هو جوزيف جوبلز (Joseph Goebbels).

(80) أدولف هتلر، كفاحي ؛ تعريب ومراجعة أميمة سعد، لا.ط.، بيروت: دار الأنوار، لا.ت.، ص57 .

(81) أدولف هتلر، م.ن.، ص 24 .

(82) أدولف هتلر، م. ن.، ص 188.

(83) يشير بنحاس عنباري إلى ما كانت تتوسّله إسرائيل من أساليب دعائية مغرضة خلال نزاعها مع الفلسطيني، بحيث يصار فيها إلى تظهير هذا الأخير كمسخ نازي، في عملية ربط محكم بين خلفيات وممارسات ودوافع كل من الثورة الفلسطينية والحركة النازية: «كانت النظرة إلى منظمة التحرير الفلسطينية» يقول عنباري «هي أنها استمرار للنازية، أي أسوأ أعدائنا في العصور جميعاً. وبذلك أراد الليكود أن يحوّل مشاعر الانتقام، التي تراود الشعب اليهودي، عما فعل به الشرير النازي، وبمقابلة عرفات بهتلر». أنظر: بنحاس عنباري، إسرائيل وتجربة حرب لبنان، ط1، قبرص: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سلسلة الدراسات رقم 76، العام 1986، ص 309، 310.

(84) تقي الدين التنير، الإعلام الإسرائيلي ومواجهته، ط1، لا. ن.، العام 1999، ص 127.

(85) انطلقت الدعاية الصهيونية من الادعاء «بأنّه لا يحق لأي دولة أن تتدخل ضد إرادة الله في تحديد عدد اليهود الذين يسمح لهم بالعودة إلى فلسطين، أو في تحديد مساحة تملكهم في أرض الميعاد، فالله يريد عودة كلّ اليهود إلى كلّ فلسطين، والله منحهم صكاً أبدياً بملكية الأرض المقدسة لإقامة صهيون عليها، وبالتالي ليس مقبولاً من أي قوّة على الأرض أن تتحدّى إرادة الله أو أن تعرقل تنفيذها». أنظر: مجموعة من المؤلفين، أسطورة هرمجدون والصهيونية المسيحية؛ عرض وتوثيق هشام آل قطيط، ط1، بيروت: دار المحجة البيضاء، العام 2003، ص 154.

(86) عكفت الدعاية الصهيونية على توظيف ما صير إلى اصطناعه من ظلم تاريخي لحق باليهود، في خدمة انتزاع اعتراف دولي بوطن يهودي في فلسطين. وفي هذا السياق، أقرّت محاكمة «نيورمبرغ» في أعقاب الحرب العالمية الثانية– ودون إعطاء أية بداية لإثبات– بأنّ «عدد الضحايا اليهود قد بلغ ستة ملايين. إزاء مجزرة مماثلة كان لها أن تكون استثنائية تماماً في التاريخ، تمّ التقرير بأنّ لليهود الحق بتعويض يكون فعلاً استثنائياً تماماً أيضاً في التاريخ: وعليه فقد أعطوا أرضاً تخصّ شعباً آخر. وهكذا أنشئت في العام 1948 دولة إسرائيل». ما دفع بعدد من باحثي (معهد المراجعة التاريخية) في كاليفورنيا إلى القول «إنّ السلاح رقم1 لدولة إسرائيل، ليس قنبلتها النووية، لكنه ما تشيعه هذه الدولة حول مجزرة الهولوكوست المزعومة». أنظر:

روبير فوريسون وماري بول ميمي، الأكذوبة التاريخية؛ ترجمة ماجد حلاوي، ط1، لا.ن ، العام 1987، ص24، 25.

(87) إلى جانب المبالغة في تصوير الاضطهاد ؛ ارتكزت الدعاية الصهيونية على ما يسمى اصطلاحاً (الإفشاء السياسي) . وهذا الأخير يستوي على المبدأ القائل بضرورة جعل الاضطهاد الواقع على البشر من قبل الظالمين أكثر طهرانية وقداسة ، وذلك بإضافة عامل الوعي – أي وعي الاضطهاد – وتبيانه للرأي العام .

(88) الهولوكوست (Holocauste) : في فضائها اللغوي ودلالتها التاريخية تعني : المُحرَقة ؛ تحرق بأكملها على سبيل العبادة عند اليهود. وهي الأضحية والذبيحة والقربان . وجلاء هذا الطقس الديني ؛ أن اليهود كانوا يقدمون – تقرباً لله - قرابين على هيئة أضاحي تحرق تماماً بالنار. وكان هذا التقليد قد أخذ بمرور الزمن والوقت طابعاً رمزانياً أصبحت معه الأضحية عبارة عن «عجل»، قبل أن تكتسب كلمة «هولوكوست» قيمة مضافة فتأخذ معنى «الحرق التام النهائي كتضحية وفداء وتكفير». أما في القاموس السياسي؛ فالهولوكوست تشير إلى الإبادة والموت والرعب الذي صاحب اليهود إبان الحكم النازي في ألمانيا. وكانت آلاف الأساطير والقصص قد حيكت ، كما صيغت آلاف المتون والكتب، فضلاً عن آلاف الأفلام والبرامج والمسلسلات التلفزيونية والإذاعية والمجلات والنشرات والدوريات ،التي جعلت ديدنها- وعلى نحو من الغلو والمبالغة والتخييل- تمجيد المحرقة الجماعية المزعومة. فلا تكاد تمر سانحة في السينما الغربية، كما في التلفزة، وأجهزة الإعلام، دون التذكير بالهولوكوست وبمأساة اليهود وآلامهم، ما جعل الهوكولوست حديثاً، ذا حمولات ومعان ورموز مفارقة : اليهود (كبش الفداء) الأبديين في محرقة العنصرية ومعاداة السامية .

(89) يقول البروفيسور روبير فوريسون– أحد باحثي ما يسمى بمدرسة المراجعة التاريخية–في معرض إفادته عن تثمير الدعاية الصهيونية لقضية الهولوكوست المختلقة: «إنّ غرف الغاز الهتلرية المزعومة والإبادة الجماعية المزعومة لليهود تشكل كذبة تاريخية واحدة قد سمحت بحصول احتيال سياسي- مالي كبير، كان المستفيدان الأساسيان منه دولة إسرائيل والصهيونية العالمية، وكانت الضحيتان الرئيسيتان له هما الشعب الألماني– لكن ليس حكامه – والشعب الفلسطيني بأكمله». أنظر: روبير فوريسون وماري بول ميمي، الأكذوبة التاريخية؛ ترجمة ماجد حلاوي، ط1، لا. ن.، 1987، ص 119.

وكانت برقية دبلومسية صادرة من السفارة الأميركية في تل أبيب، بتاريخ الرابع من شهر كانون الثاني/ يناير من العام 2005، سرّبها موقع ويكيليكس، قد أظهرت استغلال إسرائيل للجان المطالبة بتعويضات الهلوكوست بغية الحصول على غواصات ألمانية، حيث أفادت بأن رئيس مكتب الشؤون اليهودية العالمية في وزارة الخارجية الإسرائيلية آنذاك نمرود بركان، كُلف في أواخر العام 2003، بتقديم خطة عمل خماسية الأعوام للحكومة في مجال المطالبات الإسرائيلية الممكنة بـ(الاستردادات) و(التعويضات) المرتبطة بفترة المحرقة النازية.

وجاء في البرقية أنّ إسرائيل ستطالب بالحصول على هذا التعويض على شكل غواصتي دولفين بقيمة 500 مليون دولار من ألمانيا، وأنّ بولندا وفقاً لما أكده المسؤول الإسرائيلي «ستكون على الأرجح منطقة التركيز المقبلة لجهود الحكومة الإسرائيلية في مجال مطالبات فترة المحرقة»، وأنّ

ذلك كله «يضاف إلى جهود اللجان الوزارية المتواصلة في مجال توسيع المطالبة باسترداد الأملاك والأصول اليهودية من الأراضي العربية».

(90) تعتبر الولايات المتحدة الأميركية- منذ لحظة خروجها من عزلتها وانكفائها الطوعي إلى العالم خلال الحرب العالمية الثانية، بعد انتصارها للحلفاء في مواجهة كلّ من ألمانيا واليابان- اللاعب الرئيس على المسرح الدولي، ليس فقط بسبب من توسّلها الحدّ الأقصى من القوّة العسكرية بإلقاء قنبلتين نوويتين على مدينتي هيروشيما ونغازاكي اليابانيتين في شهر أغسطس/ آب من العام 1945، أو توسّل حدّاً أقل تمثل باستخدام أسلحة تقليدية كالمدافع والدبابات والأساطيل الحربية، كما فعلت كلّ الأمبراطوريات السابقة في حروبها ونزاعاتها؛ بل بوصفها خرجت إلى جانب ذلك كله، متسلحة بأدوات كانت جديدة تماماً على مسرح العلاقات الدولية في ذلك الوقت، نحو: المساعدات الاقتصادية، والقروض المالية، والمؤسّسات الدولية التي روجت لفكرة الاعتماد المتبادل عبر التجارة. فضلاً عن أن خروجها المذكور، كان مصحوباً بإشاعة الأفكار الليبرالية، سياسياً واقتصادياً، عبر مؤسّسات المجتمع المدني، والأحزاب، وشركات النفط، والأفلام، والكوكاكولا، وسيارات فورد، وسجائر مارلبورو...

(91) سلسلة من الأفلام السينمائية- ضمّت أربعة أجزاء– من بطولة سلفستر ستالون، شغلت على الطريقة الهووليودية المؤثرة، وصير فيها إلى تقديم وتسويق صورة المقاتل الأميركي بوصفه مقاتلاً أسطورياً، صانعاً للمعجزات، لا تدركه الهزيمة، ولا يعرف الوهن والضعف إليه سبيلاً.

(92) المارينز: تسمية اصطلاحية لقوات مشاة البحرية الأميركية، وهي أحد الفروع الأربعة للقوات العسكرية الأميركية، التي تخضع جزئياً لقيادة القوات البحرية.

يقدر عدد الجنود العاملين في المارينز بـ 190 ألف جندي في الخدمة الفعلية، إضافة إلى 40 ألف جندي في الاحتياط. ويقع مركز قيادتها في أرلينغتون بولاية فيرجينيا حيث مكاتب القيادة والتحكم . أمّا المهام المنوطة بها؛ فهي التعامل والتنسيق مع سلاح البحرية الأميركية، وتقديم الدعم وإيصال المعونات اللوجستية والأسلحة في الأزمات العالمية، والمشاركة في العمليات المائية والاقتحام الساحلي والتنقل بواسطة البحرية الأميركية، إلى جانب حراسة القواعد البحرية داخل وخارج الولايات المتحدة.

تتسم هذه القوّة – كما صير إلى تسويقها وتقديمها كمثال للجبروت الأميركي- بامتلاك القدرة الفائقة على الانتقال بحراً وبراً وجواً، وعلى العمل في غير ميدان ومجال وصعيد.

(93) جورج واشنطن: هو أول رئيس للولايات المتحدة الأميركية، ولد في ولاية فيرجينيا في الثاني والعشرين من شباط/ فبراير من العام 1732. كان من قادة الحزب الإتحادي، تولى حكم الولايات المتحدة خلال فترتين متتاليتين؛ بدءاً من 30 نيسان/ إبريل من العام 1789 حتى الثالث من شهر آذار/ مارس من العام 1797، وذلك بعد أن قاد التمرّد الذي انتهى إلى إعلان انفصال الولايات المتحدة عن بريطانيا في الرابع من تموز/ يوليو من العام 1776.

يتصدّر جورج واشنطن قائمة الرؤساء الأميركيين، حيث يصنف الأعظم بينهم على الإطلاق، لذا يطلق عليه في أحايين كثيرة لقب (أب البلاد)اعترافاً بفضله وبدوره. توفي في الرابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر من العام 1799 ، وقد خلفه في رئاسة الولايات المتحدة جون آدامز.

(94) الجينوم (Genome) : هو أحد التخصّصات الفرعية من علم الوراثة. يعنى بدراسة كامل المعلومات الوراثية في الكائن الحي المشفرة ضمن الدنا وأحياناً ضمن الرنا في بعض الفيروسات. تمّ صياغة هذا المصطلح ونحته في العام 1920 من قبل هانس وينكار (Hans Winkler) - وهو بروفسور علم النبات في جامعة هامبورغ في ألمانيا - كدمج لكلمات (Gene and). وقد صير إلى تطوير هذا العلم على نحو أصبح يقف على المجموعة الكاملة من الجينات البشرية، أو على ما يصطلح عليه تجوزاً السيرة الذاتية للنوع البشري.

(95) تمثال الحرية (Statue of Liberty): هو عمل فني نحتي قدمته فرنسا إلى الولايات المتحدة الأميركية في الثامن والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر من العام 1886، كهدية تذكارية هادفة إلى توثيق وتمتين عرى وأواصر الصداقة بين البلدين بمناسبة حلول الذكرى المئوية للثورة الأميركية (1775-1783). والحال، حمل التمثال اسماً رسمياً هو (Liberty Enlightening The World)، وأصبح رمزاً وعنواناً للديموقراطية كما للفكر الليبرالي الحرّ (Liberal Thought)، واستقرّ بعد أن صير إلى شحنه على متن الباخرة الفرنسية إيزري، على جزيرة الحرية التي كانت تعرف إلى العام 1956 باسم جزيرة بدلو (Bedloe)، والتي تشغل موقعاً مائزاً في خليج نيويورك وسط ولاية نيويورك الأميركية.

قام بتصميم التمثال فريدريك بارتولدي (Frederic Auguste Bartholdi)، أمّا الهيكل الإنشائي فعمل عليه ابتداء المهندس الفرنسي يوجيني لودوك (Eugene viollet-le-duc)، إلا أنّه توفي قبل الانتهاء من التصميم ، فصير إلى تكليف غوستاف إيفل (Gustave Eiffel) باستكمال المهمة على هذا الصعيد.

يرمز التمثال إلى سيدة تحرّرت من الأغلال، ومن قيود الاستبداد التي ألقيت عند إحدى قدميها، فيما تمسك بيدها اليمنى مشعلاً يرمز إلى الحرية، وتحمل بيدها اليسرى كتاباً نقش عليه بأحرف رومانية عبارة (4 يوليو 1776)، وهو تاريخ إعلان استقلال الولايات المتحدة الأميركية، أمّا رأس السيدة فقد كلل بتاج مكوّن من سبعة أسنة تمثل مروحة من الإشعاعات الوضاءة التي ترمز بدورها إلى البحار السبعة، أو القارات السبع الموجودة في العالم.

يرتكز التمثال على قاعدة إسمنتية جرانيتية يبلغ عرضها 47 متراً، وتقدّر مساحته الإجمالية بـ 49000 متراً مربعاً، ويبلغ طوله من القدم إلى أعلى المشعل 46 متراً، بينما يبلغ الطول الكلي (مضافاً إليه القاعدة) 93 متراً. ويزن إجمالا 125 طناً. تمّ بناؤه في العام 1812 كجزء من حصن وود (Fort Wood) الذي استخدم للدفاع عن مدينة نيويورك أثناء الحرب الأهلية (1861-1865). وقد قام الرئيس الأميركي جروفر كليفلاند (Grover Cleveland) بإزاحة الستار عنه في 28 تشرين الأول/ أكتوبر من العام 1886 في احتفالية خاصة بهذه المناسبة.

في الخامس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر من العام 1924، صير إلى تصنيف التمثال كما الجزيرة الحاضنة له أثراً قومياً أميركياً، قبل أن يصار في العام 1984 إلى إدراجه ضمن قائمة مواقع التراث العالمي التي تقوم بتصنيفها منظمة اليونسكو.

وكدلالة على تحوّل التمثال إلى رمز عالمي وكوني تستلهمه الأمم والشعوب- بعد أن صير إلى تسويقه على هذا النحو– تمّ اصطناع نسخ مشابهة له قدمت كمرموزات للحرية في غير مكان من العالم؛ كباريس، والنمسا، وألمانيا، وايطاليا، واليابان، والصين، وفيتنام ...

(96) يحرص الأميركيون على أن يقدّموا أنفسهم كـ(محبي سلام)، و(دعاة احترام حقوق الإنسان)، و(الحرية)، و(سيادة القانون)، و(المواطنة)... كما ينظرون إلى أنفسهم، ويتصرفون كذلك، بوصفهم خير الأمم وأفضلها بإطلاق. وهذا الاعتقاد يعتبر من الأساطير المؤسّسة لما يطلقون عليه بـ(الاستثنائية الأميركية). لكنّ العودة الحفرية الفاحصة إلى قراءة وتصفح السجل التاريخي للولايات المتحدة ولذاتها المتعالية؛ تكفي لبيان تهافت مزاعمها حول تفوّقها على الصعيد الأخلاقي، بل يتكشّف الأمر عن أنها كانت الأكثر وحشية وبربرية، والأكثر انتهاكاً لكلّ المنظومات القيمية والأخلاقية الحاكمة. وذلك بلحاظ نشأتها؛ فهي قد بدأت في 13 ولاية، واستولت لاحقاً على معظم الولايات المتبقية، وتخلصت بقسوة من سكانها الأصليين. وبلحاظ قائمة حروبها الطويلة؛ بدءاً بالحرب على الفيليبين بين (1899 و1902)، مروراً بالحرب على نيكارغوا، والحرب على كوريا، والحرب على فيتنام، والحرب على أفغانستان، وليس انتهاء بالحرب على العراق...(وهذه مثالات فقط وليست شواهد حصرية). وبلحاظ مقدار انتهاكها لكرامة الإنسان وحريته؛ ليست سجون أبو غريب وغوانتانامو إلا عينة صغيرة نستحضرها للاستدلال بوصفها الأشد راهنية. وبلحاظ هيمنتها كقطب أحادي على العالم وانتهاك سيادات الدول والشعوب. للاستزادة أنظر: ستيفن والت، من أساطير أميركا المدمرة: نحن الاستثناء الإلهي والأخلاقي؛ ترجمة هيفاء زعيتر، مقال منشور في صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون، العدد 12014، الاثنين في 17 تشرين الأول، العام 2011، ص19.

(97) كثيرة هي المنظمات والجمعيات الدولية والأممية والحقوقية والإنسانية التي اتخذت من الولايات المتحدة الأميركية مقراً دائماً لها؛ نحو:

أ- صندوق النقد الدولي: مقره واشنطن، تأسّس في العام 1945.

ب- صندوق الأمم المتحدة الدولي لرعاية الطفولة (اليونسيف): مقره نيويورك، تأسّس في العام 1946.

ج- منظمة الأمم المتحدة: مقرها نيويورك، تأسّست في العام 1945.

د- مجلس الأمن الدولي: هو فرع من فروع هيئة الأمم المتحدة، يعقد اجتماعاته الدورية عادة في مقر الهيئة (نيويورك).

هـ- مجموعة البنك الدولي؛ تضم ثلاث مؤسّسات رئيسة:

- البنك الدولي للإنشاء والتعمير (تأسّس 1945).

- المؤسّسة المالية الدولية – لتشجيع الاستثمار (تأسّست في العام 1956).

- المؤسّسة الدولية للتنمية – قروض ميسّرة للدول النامية (تأسّست في العام 1960) .

وسوى ذلك من منظمات وجمعيات اتخذت الولايات المتحدة الأميركية من وجودها مظلة للإيحاء بأخلاقية سياستها وإنسانيتها ونبلها، وللاستتار – من جهة ثانية- خلف هذه العناوين بغية تمرير أهدافها، وتحقيق مصالحها، وإملاء إرادتها وشروطها، وفرض أجندتها الخاصة.

(98) جوزيف اس. ناي، القوة الناعمة: وسيلة النجاح في السياسة الدولية؛ ترجمة محمد البجيرمي، ط1، الرياض: مكتبة العبيكان، 2003، ص 69.

(99) الحرب الاستباقية (Guerre preemptive): هي الحرب التي تصدر من قناعة راسخة بأنّ ثمّة عدواناً مفترضاً، يتوقع حصوله بشكل وشيك وحتمي. وتأتي في سياق المبادرة للحيلولة دون وقوعه والعمل على احتوائه عسكرياً. ولهذا تجد من يضعها في إطار الدفاع المشروع عن النفس، بوصفها تحاسب العدو على أفعال وليس على نيّات .

فالحرب الاستباقية- بهذا المعنى- هي العمل العسكري الذي تتمّ المبادرة إليه بغتة ضد قوات العدو، للحؤول دون استكمال الأخيرة لتحضيرات الحرب التي تنوي شنها في أية لحظة. وهي تتضمن عنصري المفاجأة والمبادأة، كما تنطوي على مفهوم (الضربة الإجهاضية) التي تنال من القوات المعادية وهي في أوضاع هجومية، حيث يكون قد صير إلى نشرها استعداداً لهجوم فعلي، فتأتي هذه الضربة بقصد تعطيل القدرة على الفعل.

(100) الحرب الوقائية (Guerre preventive): هي الحرب التي تقام وتشنّ من قبل دولة قوية مقتدرة ضداً على دولة أخرى، اعتقاداً منها أنّ هذه الأخيرة قد تشكل خطراً داهماً عليها في المستقبل، حيث يصار إلى توسّل أدوات القوة والعنف للحؤول دون خطر ما حتى لو لم يكن وشيكاً. ما يعني أنّ الحرب الوقائية تستبطن محاسبة العدو على نيّاته وليس على أفعاله، وفي هذا مخالفة بيّنة لمنطوق القانون الدولي. والحال، يحاول مطلق شرارة هذا النوع من الحروب إخفاء الأهداف الحقيقية لعدوانه، مغلفاً إياها بعناوين إنسانية نبيلة؛ نحو الإيحاء أنّها قامت دفاعاً عن الحرية والديمقراطية، أو أنّها قامت بغرض التصدّي لجرائم الحرب ضد الإنسانية التي تمارسها الأنظمة الديكتاتورية.

والحرب الوقائية تعني من وجهة النظر الأميركية التحوّل في مفهوم الحرب؛ من الردّ على هجوم فعلي إلى المبادرة بالهجوم لمنع هجوم متوقع محتمل، وذلك بعد أن تتمكن أجهزة المخابرات من اكتشاف مبكر لنيّات الخصم في القيام بأعمال عدائية.

(101) ثمّة معايير خمسة يصار من خلالها إلى تعريف الحرب العادلة:

أ-سيادة مشروعة.

ب-أهداف مشروعة.

ج-وسائل ملائمة.

د-الحرب كملاذ أخير.

هـ-توافر فرص معقولة للنجاح.

(102) أصدر البيت الأبيض قرار الهجوم على الجماهيرية الليبية في التاسع من شهر نيسان من العام 1986، وبدأ تنفيذ العمليات جوياً وبحرياً في الخامس عشر من نيسان من العام نفسه في إطار ما أصطلح عليه أميركياً بعملية «وادي الدورادو»، ثم أعقبت الإدارة الأميركية ذلك بسلسلة من العقوبات الدبلوماسية والاقتصادية.

(103) بدأ الغزو الأميركي للعراق، أو ما أطلق عليه (حرب الخليج الثالثة) كتسمية اصطلاحية لوصف العمليات العسكرية، في العشرين من شهر آذار/ مارس من العام 2003. استهلت العمليات في تمام الساعة الثانية والنصف بتوقيت غرانيتش، بتوجيه ضربة جوية اصطلح عليها

بـ(ضربة الفرصة). كُشف لاحقاً أنها كانت تستهدف منزلاً يعتقد أن الرئيس العراقي صدام حسين متواجد فيه.

أنشأت الولايات الأميركية ائتلافاً دولياً لخوض الحرب، تزعمته وقادته وأطلقت عليه اسم (ائتلاف الراغبين)، وقد حظيت لإضفاء المشروعية عليه بتأييد ودعم تسع وأربعين دولة. وعلى خلاف حروبها السابقة لم تبدأ الولايات المتحدة بالعملية الجوية- كما كانت تجري العادة- ليعقبها لاحقاً الهجوم البري؛ وإنما أخذت بأسلوب المفاجأة وصدم أفق التوقع عند الجيش العراقي، فبدأت العمليتان الجوية والبرية في آن معاً، وفي تزامن ملحوظ، وبصورة خاطفة وسريعة أذهلت الجنود العراقيين، وكانت قد أطلقت عليها تسمية (الصدمة والترويع Shock and Awe). وفي التاسع من شهر ابريل- نيسان من العام نفسه، أي بعد انقضاء أسابيع ثلاثة على بدء الحرب، أعلنت القوات الأميركية سقوط العاصمة بغداد، واستطراداً السيطرة على سائر المدن والمناطق المختلفة.

(104) بدأت الحرب على أفغانستان، أو ما أطلق عليها اصطلاحاً وفقاً لتوصيفات الجيش الأميركي بعملية (الحربة المستديمة)، وعملية (هرك) وفقا لتوصيفات الجيش البريطاني، في السابع من شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2001. وقد أسندت هذه العملية العسكرية بأخرى قامت بها القوّة الدولية الأمنية المساعدة ISFA، التي أسّست من قبل الأمم المتحدة في نهاية شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام 2001، لتتولى مهمة تأمين العاصمة كابول والمناطق المحيطة بها، قبل أن يتولى حلف الناتو الإشراف والسيطرة على ISFA في العام 2003.

(105) لقد جرت عملية اغتيال رئيس الحكومة اللبنانية السابق رفيق بهاء الدين الحريري في الرابع عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2005 .

(106) بدأ سيناريو الاتهام محاولة توجيه إصبع الإدانة نحو سوريا على خلفية سياسية، فأدينت تلفيقاً وجرّمت سياسياً وشعبياً، إلا أنّ الأمر أريد له أن يتأدّى إلى خواتيم تستهدف حزب الله كشريك في الجريمة، لغرض إلحاق الأذى به، والإضرار بسمعته، والإساءة إلى دوره في تحرير الأرض، ووسمه بالإرهاب، والتخفيف من وهجه وهالته لبنانياً وعربياً وإسلامياً. ما يعني أنّ سيناريو التحقيق كان معدّاً كي يبدأ بسوريا وينتهي بحزب الله. ولكن بعد إخفاق المحاولة مراراً بسبب من صلابة سوريا وممانعتها، لجأ الأميركي إلى تغيير في التكتيك مع الحفاظ على روحية الهدف، فأراد للقرار الاتهامي أن يستهدف حزب الله كمقدمة لاستهداف سوريا. وهكذا سلّم وفد من المحكمة الدولية في الثلاثين من شهر حزيران/ يونيو من العام 2011 المدعي العام التمييزي سعيد ميرزا نسخة عن نصّ القرار الاتهامي ومذكرات التوقيف بحق أربعة من قياديي وكوادر المقاومة في حزب الله.

(107) بدأت التحضيرات للانتقام من سوريا وحزب الله دولياً وعلى نحو واسع، لاسيما بعدما أفضت عمليات التنسيق والتعاون بين الفرنسي (جاك شيراك) والأميركي (جورج بوش) إلى انضاج صياغة أممية، واستصدار قرار من مجلس الأمن الدولي في الثاني من أيلول من العام 2004، حمل الرقم 1559. وقد نصّ الأخير صراحة على دعوة الجيش السوري إلى الانسحاب من لبنان، كما دعا إلى نزع السلاح غير الشرعي والمقصود هنا (سلاح حزب الله).

(108) لقد أنشئت لجنة التحقيق الدولية بموجب قرار صادر عن مجلس الأمن الدولي، حمل الرقم 1595.

(109) المحكمة الدولية الخاصة بلبنان، هي محكمة جنائية ذات طابع دولي، مقرّها مدينة لاهاي في هولندا. أقترحت وأقرّت من قبل مجلس الأمن الدولي بموجب قرار صادر عنه بتاريخ الثلاثين من أيار/ مايو من العام 2007، يقضي بإنشائها، ويحمل الرقم 1757. وذلك للنظر في نتائج التحقيق التي تقوم به لجنة التحقيق الدولية الخاصة باغتيال رئيس مجلس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري. بدأت المحكمة أعمالها في الواحد من شهر أذار/ مارس من العام 2009 .

(110) توالت تسريبات القرار الاتهامي في قضية اغتيال رفيق الحريري الصادر عن المحكمة الدولية الخاصة بلبنان عبر غير وسيلة إعلامية؛ نحو: صحيفة «دير شبيغل» الألمانية، صحيفة «لو فيغارو» الفرنسية، التلفزيون الكندي سي بي سي (cbc)، صحيفة «السياسة» الكويتية، كتاب جيرار دوفيليه «قائمة الحريري La Liste Hariri»، التلفزيون الإسرائيلي، تسريب أسماء المتهمين من حزب الله من قبل وسائل إعلامية لبنانية: تلفزيون LBC، تلفزيون المستقبل. ما أفقد القرار الصدقية، والمهنية، وجعله مسيّساً بامتياز؛ إذ تزامنت التسريبات مع استحقاقات ومحطّات سياسية حرجة.

(111) لقد أفضت الاستشارات النيابية الملزمة التي قام بها رئيس الجمهورية اللبنانية ميشال سليمان في الرابع والعشرين والخامس والعشرين من شهر كانون الثاني/ يناير من العام 2011، إلى تكليف نجيب ميقاتي بتأليف الحكومة، بعدما حصل على غالبية ثمانية وستين صوتاً في قبالة ستين صوتاً لمنافسه سعد الحريري. وبعد مشاورات التأليف التي قام بها ميقاتي، والتي استمرّت مئة وتسعة وثلاثين يوماً، انتهى الأمر إلى صدور مرسوم التشكيل بتاريخ الثالث عشر من شهر حزيران/ يونيو من العام 2011.

(112) كانت الحكومة اللبنانية الجديدة برئاسة نجيب ميقاتي، قد أنهت صياغة بيانها الوزاري في التاسع والعشرين من شهر حزيران/ يونيو من العام 2011 .

(113) لقد صير إلى إسقاط حكومة سعد الحريري في الثاني عشر من كانون الثاني/ يناير من العام 2011، أثناء اجتماعه بالرئيس الأميركي باراك أوباما في البيت الأبيض. وذلك عندما قدّم أحد عشر وزيراً منها استقالته. فإذا بالرجل الذي دخل البيت الأبيض مفاوضاً كرئيس حكومة؛ قد فقد شرعية التفاوض وبات رئيساً لحكومة تصريف أعمال. وأكثر ما يتبدّى وجه الإهانة هنا أنّ الحريري وأوباما قد تبلغا سوية ما حصل خلال اجتماعهما، فذهلا وصدما، ونزل عليهما خبر الإطاحة بالحكومة اللبنانية، دونما سابق إنذار، وخارج مدار التوقع والاحتمال.

(114) أطروحة فكرية سياسية للباحث الأميركي من أصل ياباني «فرنسيس فوكوياما»، صير ابتداء إلى تظهيرها عبر محاضرة ألقيت في جامعة شيكاغو، ثم صير إلى عرضها في مقالة شهيرة بعنوان «نهاية التاريخ»، بعد أن نُشرت في دورية ناشيونال إنترست (National Interes) في العام 1989م، ثم صير إلى شرحها لاحقاً في كتاب أصدره في العام 1992 بعنوان «نهاية التاريخ والإنسان الأخير».

وتزعم هذه النظرية السياسية الحديثة أنّ نهاية تاريخ الاستبداد والاضطهاد والنظم الشمولية قد ولى إلى غير رجعة بالتزامن مع انتهاء الحرب الباردة، وتفكك المنظومة الاشتراكية، وانهيار الاتحاد السوفياتي، وسقوط جدار برلين. ما تأدّى إلى تكريس أحادية قطبية مثلتها– على نحو حصري– الولايات المتحدة الأميركية، لتتسيّد الليبرالية كخلاصة لمخاضات سيرورات التحوّل في الانتظام

المجتمعي الإنساني، ولتعمّ قيم الديمقراطية الغربية. والحال، فإنّ نهاية التاريخ تعني في ما تعنيه وضعَ حدّ للأفكار الإيديولوجية في تاريخ الصنف البشري. لقد أفضى المنطق الاقتصادي الحديث– وفقاً لفوكوياما- الذي أخذت به الولايات المتحدة وتوسّلته سبيلاً؛ ليس إلى انهيار النظم الاستبدادية على اختلاف طبائعها فحسب، بل إقامة الديمقراطيات الرأسمالية الليبرالية باعتبارها نهاية التاريخ.

(115) لقد استعيرت مقولة هيغل التي ضمنها طي كتابه «محاضرات في فلسفة التاريخ» حول «أوروبا بوصفها هي نهاية التاريخ»، لكي يصار إلى توظيفها منذ مطلع تسعينيات القرن العشرين لمصلحة الأنموذج الرأسمالي– الليبرالي الأميركي في لحظة انتصاره على المنظومة الاشتراكية بعد تحلل وتفكك الاتحاد السوفياتي، الذي لطالما شكل منذ انتهاء الحرب الكونية الثانية في العام 1945، القطب الآخر للثنائية الحاكمة في العالم.

وللغاية، جيء بمقولة فرانسيس فوكوياما «نهاية التاريخ» على نحو استعاري، لتكون بداية عملية التسويغ الإيديولوجي للإنتصار الأميركي- التسويغ المتعلق بوضعية الذات المنتصرة- وتحوّل واشنطن إلى قطب واحد للعالم. ما يجعلها تجوزاً عبارة عن بيان أو(مانيفست) إستراتيجي للنظام العالمي الجديد بطبعته الأميركية .

(116) يذكر أنّ الأقليات هي ذات هوية أكثر شوفينية، ذلك أن إثبات حضورها غير الفاعل عادة، وتأكيد وجودها الصغير والضعيف، يستدعي منها انغلاقاً ذاتياً وتعصباً مرضياً أعمى .

(117) أيقظ الاحتلال الأميركي للعراق كلّ الهويات النائمة في هذا البلد؛ الإثنية، والدين، والطائفة، والعائلة، والمنطقة... وسواها من أشكال الهويات السائدة والمتناقضة، والتي تحمل خطاباً إيديولوجياً مبرّراً لكل هوية. كما شحذ بعض الهويات المتيقظة ، وحرّك الإحساس الأقلوي، وأثار العصبيات والمذهبيات والنعرات، وفعّل ونشّط القيل الإيديولوجي ... ما جعل من العراق مسرحاً لصراعات هويات إيديولوجية زائفة.

(118) ينقل جوزيف اس. ناي عن وزير الخارجية الأميركي السابق كولن باول، قوله: «لا أستطيع أن أفكر في رصيد لبلدنا أثمن من صداقة قادة عالم المستقبل الذين تلقوا تعليمهم هنا». وذلك بسبب من أنّ الطلبة الدوليين يعودون إلى أوطانهم في الغالب بانطباع إيجابي، وفي العادة بتقدير أكبر للقيم والمؤسّسات الأمريكية. والحال، فهم يشكلون خزاناً رائعاً للنوايا الحسنة حيال البلد الذي تلقوا دراستهم فيه. فضلاً عن أنّ عدداً منهم قد ينتهي به المطاف إلى تولي مقاليد الحكم وسلطة القرار في بلده الأمّ.

(119) يرى جوزيف اس. ناي أنّ الهجرة كانت ولا تزال من أهم مصادر القوّة الأميركية بسبب من اجتذابها للسكان وللكفاءات والعقول ورؤوس الأموال والاستثمارات. وإن كان استيعاب المهاجرين، ودمجهم في المجتمع الأميركي، وصهرهم في ثقافة واحدة مشتركة، يشكل على الدوام محكاً وتحدياً.

(120) جوزيف س. ناي، القوة الناعمة: وسيلة النجاح في السياسة الدولية؛ ترجمة محمد البجيري، ط1، مكتبة العبيكان، 2007، ص 68.

(121) معجم اللغة العربية، المعجم الوسيط، لا.ط.، اسطنبول: المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، لا.ت.، مادة (شايع)، ص 503.

(122) ابن منظور، لسان العرب، ط1، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، العام 2005، مادة (شيع)، ص 2134.

(123) خليل أحمد خليل، سلسلة المعاجم العلمية؛ معجم المصطلحات السياسية والدبلوماسية، ط1، بيروت: دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، العام 1999، ص 115.

(124) روبير فوريسون وماري بول ميمي، الأكذوبة التاريخية؛ ترجمة ماجد حلاوي، ط1، لا. ن.، العام 1987، ص 72 .

(125) خليل أحمد خليل، م. س.، ص 115 .

(126) لا شكّ أنّ الطفرة التكنولوجية والمعلوماتية، كما التطوّر الهائل في وسائل ووسائط الإعلام: المقروء، والمسموع والمرئي؛ قد تسبّب بتفعيل عمل الشائعات وبنشرها على نطاق واسع. فقد أسهمت– على سبيل المثال– الإذاعة والتلفاز والفاكس والبريد الالكتروني والانترنت، إلى جانب المنشورات والصحف والملصقات وأجهزة الاتصال الخلوية ... في منح الشائعة قيماً مضافة على صعيد الدينامية والحيوية والفعالية والتأثير.

(127) للشائعة آثار سلبية مدمّرة وكارثية. أمّا الحديث عن آثار إيجابية؛ فهذا ما لا يمكن ملاحظته بعيداً من مصلحة منظمها ومطلقها ومصدرها، وبعيداً من الغاية التي أطلقت من أجلها.

(128) ثمّة غير طريقة لانتشار الشائعة: قد يوجّهها العدو نحو هدف محدّد منشود، أو نحو أهداف مختلفة. وقد تنتشر تلقائياً؛ يبدأها أحد أفراد الشعب نفسه، فلا تلبث أن تذاع وتنتشر وتعمّ، مخلفة آثاراً جسيمة في نفوس مستقبليها، تبعا لما تحمله من إحياء لأمل أو توليد ليأس.

(129) تلقى الشائعات قبولاً، وتجد سبيلها إلى التفاعل والانفلاش والنمو والانتشار؛ إذا ما قيّض لها أن تشبع حاجات الناس إلى المعرفة بحقائق الأمور وبواطنها، وبأسباب الأحداث والوقائع، وأن ترضي فضولهم. ولذلك نرى إليها كيف تشيع وتعمّ وتنتشر في أجواء ضبابية ورمادية، وفي مناخات يكتنفها الغموض، ويسوّرها التعتيم الإعلامي بسبب من الانصراف الرسمي عن تفسير الأحداث الجارية وشرحها وتعليلها.

(130) يحضرنا هنا الإطلالة الإعلامية لأمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله في الرابع والعشرين من شهر حزيران من العام 2011، متوجّهاً إلى جمهور المقاومة بخاصة، كما إلى مناصريها وحلفائها، في مكاشفة صريحة، وذلك على خلفية أنّ الساحتين اللبنانية والدولية تناهبتهما أخبار مضخمة وتلفيقات وأكاذيب وفبركات وشائعات عن حالات اختراق عديدة لجسم حزب الله ولبنيته التنظيمية والجهادية؛ فقد حرص السيد نصر الله- بما يمتلكه من مصداقية وموثوقية- على تعرية مزاعم مروجي هذه الشائعات من غير جهاز استخباري، وعلى تقديم الرواية شفيفة، واضحة، لا لبس فيها، ولا مغالطة، ما تأدّى إلى تعطيل الغاية المنشودة من إطلاق تلك الشائعة على النحو الذي صير فيها الى إطلاقها، وإلى فرملة اندفاعتها، وفي المقابل إلى رفع المناعة الداخلية للبيئة الحاضنة للمقاومة؛ إذ اقرّ– في سابقة غير معهودة لدى التنظيمات والأحزاب- بنجاح محاولات قامت بها الاستخبارات الأميركية (سي.آي.ايه.) من خلال السفارة الأميركية في عوكر لتجنيد ثلاثة من كوادر الحزب في غير موقع قيادي. واضعاً بذلك حدّاً للتكنهات وللمخيلات، ومصيباً العقل القصصي والبوليسي الذي عكف على تضخيم الرواية بالشلل والإعاقة والعقم.

(131) إنّ الشائعات بوصفها أحد الأسلحة النفسية الفاعلة، هي ذات مفاعيل وآثار بالغة سواء توضّعت في أوقات الحرب أو في أوقات السلم. إلا أنّ أثرها وفاعليتها في الحرب أشدّ بما لا يقاس، وأدهى وأكثر إضراراً.

(132) لطالما توسلت إسرائيل- لتجديد عصبيتها الإيديولوجية، وتثوير وعي أبنائها وتصليب وحدتهم وإرادتهم، وضخ الحماس في الجيل الجديد- بإشاعة سيكولوجيا الخوف من الآخر والبحث عن الأمن، وذلك عبر التذكير الدائم بالأسلاف، والمنفى، ومعسكرات الاعتقال النازية، والظلم التاريخي، والمحرقة (الهولوكوست)...، وعبر تنمية الشعور الدائم بالاستهداف .

(133) لقد انطلقت عملية الغزو الأميركي للعراق في شهر آذار من العام 2003 مسبوقة بحرب نفسية ممهّدة قوامها عمل دعائي موجّه، وشائعات تفيد من نزوع الشعب العراقي إلى التحرّر والانعتاق من إسار الحاكم المستبدّ والظالم، لتضفي على العدوان بعداً خلاصياً، إنسانياً وأخلاقياً، ولتجرّد الأميركي من أطماعه الكولونيولية الاستعمارية، مقدمة إياه على هيئة المنقذ والمحرر، ناشر الديمقراطية والعدالة الاجتماعية. وقد حفلت الأدبيات الأميركية بالحديث عن عراق ينعم بالحريات، ويتخلق كأنموذج فريد بين مثيلاته من الرسميات العربية الحاكمة.

(134) تشير التقارير البحثية والأمنية ذات الصلة إلى أنّ ثمّة أحداثاً جساماً ومروّعة شهدها العراق، كانت وراءها الشائعة على نحو مباشر؛ فحادثة جسر الأئمة– على سبيل المثال- التي ذهب ضحيتها مئات الشهداء والجرحى، لم تكن إلا نتيجة لشائعة مغرضة مسمومة، بثت شرورها بين الناس المحتشدين، وتسبّبت في ذعرهم وخوفهم.

(135) قد يصار إلى اعتماد مادة الشائعة لحرف انتباه وتركيز المتلقين في سبيل تمرير صفقة أو مشروع ، أو للتقليل من أهمية حدث داخلي أو خارجي، أو في سبيل أي إجراء آخر يحتاج إلى مشاغلة العقل الجمعي ...

(136) تتحدّد الأهمية بمقدار ارتباط الشائعة بالناس وشواغلهم واهتماماتهم وحساسياتهم. كأن تجيب عن تساؤلاتهم، واستفساراتهم، وهواجسهم، ورغباتهم. وكأن تشبع فضولهم، وتتسبّب في طمأنتهم. فما دام الناس في تجدّد مطرد، فإنّ اهتماماتهم متجدّدة ، وبالتالي فإنّ الشائعة لا تعرف نضوباً، ولا خفوتاً، ولا مواتاً.

(137) ينشأ الغموض عادة من عدم ثقة الناس بالأخبار الواردة إليهم، أو من ندرة الأخبار، أو انعدامها. وفي عموم هذه الحالات تكون الأجواء خصبة لاستنبات الشائعات وظهورها.

(138) العقوبات الاقتصادية (Sanctions economiques): هي إجراءات تتضمن وقف العلاقات الاقتصادية والمالية مع الطرف المستهدف من أجل حمله على تغيير أو تعديل سلوكه في مجال من المجالات؛ نحو: قطع العلاقات الدبلوماسية، ووقف الصلات الاقتصادية والمواصلات الحديدية والبحرية والجوية والبرية والبريدية والبرقية واللاسلكية، وغيرها من وسائل المواصلات وقفاً جزئياً أو كلياً. أنظر: حسين ظاهر، معجم المصطلحات السياسية والدولية، ط1، بيروت: المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، العام 2011، ص 264.

يذكر في هذا المجال، كيف أنّ الولايات المتحدة الأميركية قد تمكنت- بعد انهيار المنظومة الاشتراكية وتخلق أحادية قطبية تمارس هيمنتها على النظام العالمي الجديد- من تحويل مجلس

الأمن الدولي إلى أداة طيّعة بيد سياستها الخارجية، حيث وظفته في استصدار قرارات دولية مكنتها من فرض عقوبات اقتصادية على كل من العراق (القرار رقم 661 - العام 1990)، ويوغوسلافيا السابقة (القرار رقم 713 - العام 1991)، والصومال (القرار رقم 733 - العام 1992)، وليبيا (القرار رقم 748 - العام 1992)، وهاييتي (القرار رقم 841 – العام 1993)، وأنغولا ضد مجموعة يونيتا (القرار رقم 864 - العام 1996)، والسودان (القرار رقم 1044 - العام 1996)...

(139) كانت الإدارة الأمريكية قد وضعت الاتحاد السوفياتي أمام خيارين إستراتيجيين كلاهما مرّ: أولهما الاضطرار إلى مواكبة سباق التسلح الأميركي بعد إطلاق ما أصطلح عليه بـ«برنامج حرب النجوم»، وذلك للحفاظ على التوازن الإستراتيجي القائم. الأمر الذي ينهك الاقتصاد السوفياتي، ويستنزف موارده، ويعطل خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية لديه وفق ما أقرت به اصلاحات البيريسترويكا. وثانيهما التخلف عن مواكبة السباق المحموم، بما يضع الاتحاد السوفياتي على عتبة حال بائسة لا تسمح له بفرض إرادته، وبالتالي برفض رزمة الشروط السياسية الأميركية، في ظل اختلال التوازن الإستراتيجي لغير مصلحته. أما مبعث هذه الوجهة الأميركية؛ فمردّه تولد قناعة لديها بأنّ الاتحاد السوفياتي لن يكون بمقدوره- في نهاية المطاف- تحمّل العبء الاقتصادي الناجم عن سباق التسلح...ما يدفعه مرغماً إلى الخضوع للمشيئة السياسية الأميركية، كما إلى الاملاءات التي تشترطها أجندة مصالحها وأمنها القومي.

(140) الفكر الإستراتيجي العربي، السنة العاشرة، بيروت: معهد الإنماء العربي، العدد الثامن والثلاثون، أكتوبر/ تشرين الأول، 1991، ص26.

(141) تعدّ معاهدة «ستارت» المؤشر الأول على ظهور معالم النظام الدولي الجديد في مجال ميزان القوى الإستراتيجي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وعلى تبدي بواكير تخلقاته بنحو تتكرس فيه– على خلاف السابق- واحدية قطبية، تطلق يد أميركا، وتتيح لها تزعم العالم والتسيّد عليه. فقد اضطلعت «ستارت» بإرساء وضع دولي جديد يشف عن تغيّر حادّ وملحوظ في الميزان الإستراتيجي: عسكرياً وسياسياً وإقتصادياً ومعنوياً لمصلحة الولايات المتحدة، بحيث باتت الأخيرة تتحرّك على المسرح الدولي باعتبارها الدولة العظمى الوحيدة التي ما تزال قائمة في العالم، وذلك بعد أن أصيب الاتحاد السوفياتي بانتكاسات دراماتيكية على غير صعيد، وأصبح من منظورها مجرد قوة عسكرية كبرى، تتعامل معه باعتباره (متعاوناً مقبولاً) وليس (متعادلاً أساسياً).

(142) الفكر الإستراتيجي العربي، السنة العاشرة، بيروت: معهد الإنماء العربي، العدد الثامن والثلاثون، أكتوبر/ تشرين الأول، 1991، ص14.

(143) أنظر: توصيات مجلس الأمن القومي الإسرائيلي في شهر كانون الثاني/ يناير من العام 2012،وذلك خلال عملية تقديره للوضع بعد المستجدات في البيئة الإستراتيجية المحيطة بإسرائيل.

(144) قد تنتظم جماعات الضغط حول غير المصالح الاقتصادية المشتركة بين أعضائها؛ بل حول بعض الأهداف والقضايا العامة. وتعرف حينئذ باسم «جماعات الصالح العام». وقد يطلق

عليها تسميات مختلفة كـ«جماعات المواطنين Citizens groups»، أو «جماعات القضايا Cause groups». لكنها ليست موضع عنايتنا واهتمامنا في هذا المقام.

(145) يذكر أنّ جماعات الضغط في الولايات المتحدة الأميركية قد تخلقت كنتيجة للجمود النسبي الذي عليه النظام البرلماني الأميركي، وبسبب من استواء الأخير على ثنائية حزبية؛ قوامها الحزب الديموقراطي والحزب الجمهوري. ما حرم العديد من الجماعات التي قد لا تتفق أو تختلف مع توجّهات الحزبين الرئيسين، من القدرة على تشكيل أحزابها السياسية الخاصة. وبالتالي تكوّنت تلك الجماعات واستوت بغرض التأثير على سياسات الحزبين فيما يتفق وينسجم مع مصالحها المباشرة وغير المباشرة، وذلك من طريق احتضان مرشحي الرئاسة والالتفاف حولهم، وكذلك مرشحي مجلس الشيوخ والكونغرس الموالين لتلك المصالح، وتوفير مقومات وعناصر نجاحهم في الإنتخابات؛ نحو: تجنيد الأصوات، تمويل الحملات الانتخابية، العمل على إلحاق الهزيمة بالمرشحين المناوئين أو المعارضين لمصالح جماعات الضغط... وقد ازدادت أهمية جماعات الضغط مع ازياد وتيرة اهتمام الحكومة بالجانب الاقتصادي، وإيلائه العناية البالغة، بحيث أصبح العمل على النفاذ مباشرة إلى قلب النظام السياسي الأميركي ضرورة ملحّة لتحقيق مصالح اجتماعية ومكاسب سياسية مختلفة.

(146) يحضرنا هنا مشهد الرئيس الأميركي باراك أوباما في التاسع عشر من شهر أيار/ مايو من العام 2011، حين أدلى في وزارة الخارجية الأميركية خطاباً ثورياً مفارقاً، موجّها للعالمين العربي والإسلامي، ومخصّصاً للحديث عن فضيلة الثورات العربية؛ أيّد أوباما صراحة إعلان دولة فلسطينية ضمن الحدود الـ67، مع إمكانية إجراء عملية تبادل للأراضي في إشارة إلى القدس الشرقية. فور انتهاء أوباما من إلقاء خطابه، سارع رموز اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة إلى إبداء استيائهم، وإظهار امتعاضهم، وإلى إعلانهم عن إعادة نظر في دعمهم لحملته الرئاسية في الانتخابات المقرّرة في العام 2012. إسرائيل بدورها، وعلى لسان رئيس حكومتها بنيامين نتنياهو، رفضت الخطاب على خلفية أمرين: الأول أنّ حدود العام 1967 من شأنها أن تجعل إسرائيل غير آمنة. والثاني: أنّ تسوية ملف اللاجئين الفلسطينيين لن يصار إلى إتمامها إلا داخل دولة فلسطينية، وبالتالي لا إمكانية لعودة هؤلاء اللاجئين إلى أراضي فلسطين التاريخية المحتلة في العام 1948. لم يطل الأمر كثيراً، فبعد مرور ثلاثة أيام فقط على خطاب أوباما الأول، أي في الثاني والعشرين من شهر أيار/مايو، أدلى الأخير بخطاب ثان أمام مؤتمر لجنة الشؤون العامة الإسرائيلية- الأميركية (Aipac) ، المنعقد آنذاك في واشنطن. وبشجاعة يحسد عليها نكث أوباما بالتزاماته الثورية، ونكص على عقبيه متراجعا عن كلّ ما طرحه، حيث أدعى: «أنّ كلامه عن حدود الـ 67 تمّ تحريفه»، وأنّ دعوته لإقامة دولة فلسطينية على أساس حدود العام 1967، هي مشروطة بأن تأخذ بنظر الاعتبار ما أسماه بـ«الواقع السكاني الجديد»، في إشارة إلى عمليات الاستيطان الواسعة التي اجتاحت أراضي الـ67.

(147) لا تتعدّى أصوات الناخبين اليهود في الولايات المتحدة الأميركية الـ 4 % من مجموع الأصوات الانتخابية.

(148) ويسمى أيضا بـ«مؤتمر المنظمات اليهودية الأميركية»، بوصفه مظلة تشتمل على نحو خمس وثلاثين مؤسسة يهودية تدين جميعها بالولاء لإسرائيل. تشكل على نحو غير رسمي في العام 1955، قبل أن يتقرر تحويله في العام 1960 إلى منظمة دائمة، وذلك لغرض الدفاع عن

المصالح الإسرائيلية في داخل الولايات المتحدة، ولربط سياسات هذه الأخيرة باهتمامات المجتمع اليهودي هناك. فضلاً عن العمل الدائب على تقريب تلك الأهداف من صانع القرار في عموم مؤسساتها السياسية والتنفيذية. كما توسل المؤتمر تفعيل وسائل الضغط المباشر وغير المباشر على أجهزة الحكومة الأميركية، وتكتيل الرأي العام اليهودي والأميركي لمصلحة متطلبات السياسة الإسرائيلية ولمستلزمات احتياجاتها الأمنية.

(149) الأيباك: لقد صير إلى تسجيل لجنة الشؤون العامة الإسرائيلية-الأميركية المعروفة بـ«الإيباك» في الكونغرس الأميركي- رسمياً- في العام 1954، بوصفها جماعة مصالح قانونية «لوبي». ما يكفل لها قانوناً حق الدفاع عما يسمّى بالمصالح والأهداف الخاصة باليهود الأميركيين. كما حق إدراج سياساتها وبرامجها وخططها ورؤاها، طي برامج وسياسات وخطط ورؤى الأحزاب السياسية سواء على الصعيد الفيدرالي أم على الصعيد المحلي، على نحو تصبح فيه السياسات، كما الوجهات الإسرائيلية العامة جزءاً لا يتجزأ من أجندة الأحزاب الأميركية، دونما فارق بين الحزب الديموقراطي والحزب الجمهوري.

(150) أندريه بوفر، مدخل إلى الإستراتيجية العسكرية؛ تعريب أكرم ديري والهيثم الأيوبي، ط1، بيروت: دار الطليعة، العام 1978، ص 43، 95، 96.

(151) نقع في هذا المجال على تاريخ طويل من الاغتيالات، التي لطالما شكلت وسيلة فضلى ومثلى يتوسّل بها الإسرائيلي للتخلص من خصومه، ولإضعاف القوى المقاومة والممانعة له، ولإحداث حالة من الإحباط والتوهين والتثبيط والتخذيل في صفوفهم؛ ففي هذا السياق يكشف كتاب «حرب الظلال» للباحث والصحافي الإسرائيلي يوسف برغمان الصادر في مطلع العام 2008 عن وزارة الدفاع الإسرائيلية، عن خمس وعشرين قضية أمنية استخبارية، كانت تستهدف في جملتها اغتيال زعماء وشخصيات بارزة في العالم العربي. فالكتاب يعرض- على سبيل المثال- لقرار إسرائيلي يقضي باغتيال رئيس الحكومة اللبناني رياض الصلح في العام 1949، وذلك خلال توجهه من بيته إلى مكتبه صباحاً، بواسطة إلقاء جثة كلب متعفنة محشوّة بالمتفجرات في طريقه. قبل أن يصار لاحقاً إلى إلغاء العملية بقرار من المستوى السياسي في إسرائيل لأسباب فنية.

وفي سياق متصل، كشف الصحافي الإسرائيلي يوسي ملمان في تقرير أعدته صحيفة هآرتس في عددها الصادر بتاريخ السابع والعشرين من أيلول من العام 2007، النقاب عن محاولة اغتيال رئيس المكتب السياسي لحركة حماس خالد مشعل، من طريق نوع من السم- ذي مواصفات خطيرة- حضّر في المعهد البيولوجي في مدينة «نس تسيونا». وقد قام بتنفيذها أفراد من وحدة قيسارية النخبوية. اتخذت العملية مسرحاً لها المملكة الأردنية في الخامس والعشرين من شهر أيلول من العام 1997، بعد أن كان رئيس الموساد آنذاك داني ياتوم قد اتخذ قرار التنفيذ، وصدّق عليه رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو. لكنّ الإسرائيلي اضطر إلى إرسال طبيب إلى الأردن لإبطال مفعول السم، في تسوية يتسلم بموجبها عملاء الموساد الذين نفذوا العملية، بعد أن استطاع مرافقو مشعل إلقاء القبض عليهم.

كذلك عكف محلل الشؤون العسكرية في صحيفة معاريف الإسرائيلية في تقرير مطوّل صدر في ملحق الصحيفة بتاريخ الثالث من نيسان من العام 2008، على إماطة اللثام عن عملية اغتيال

القيادي الفلسطيني خليل الوزير(أبو جهاد) في تونس، في السادس عشر من نيسان من العام 1988، على أيدي وحدة (سييرت متكال) بقيادة موشيه يعلون.

وكانت صحيفة يديعوت احرونوت قد نشرت في التاسع عشر من شهر نيسان من العام 2007، تفاصيل اغتيال- أمين عام حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين- فتحي الشقاقي، في عملية معقدة نفذتها وحدة قيسارية في جزيرة مالطا الإيطالية، وذلك بعد عودة الشقاقي من ليبيا في أعقاب مشاركته في ندوة «تجمع رؤساء تنظيمات حرب العصابات»، في شهر تشرين الأول من العام 1995.

ويحضرنا في هذا المقام هنا ما كان- المستشار الخاص للرئيس الراحل ياسر عرفات- بسام أبو شريف، قد أعلنه عن اغتيال إسرائيلي لياسر عرفات من طريق نوع من السم «ثاليوم»، وهو سمّ غريب، وغير متداول، ويصعب اكتشافه، أو اكتشاف آثاره، أو مقدماته. وهو من طبيعة سائلة «لا لون ولا رائحة ولا طعم له، يستخرج من عشبة بحرية نادرة، ويمكن وضعه من دون ملاحظته في الماء، وفي الأكل، أو حقنه من خلال إبرة في شريان وعروق أو جلد إنسان». أنظر: صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون، العدد 11785، الثلاثاء في 11 كانون الثاني، العام 2011، ص 13.

وتطول قائمة الاغتيالات دون أن تنتهي لتشمل قادة المقاومة اللبنانية والفلسطينية: الشيخ راغب حرب(16 فبراير/ شباط من العام 1984)، السيد عباس الموسوي(16 فبراير/شباط من العام 1992)، صلاح شحادة (2002)، الشيخ خليل ياسين(25 مارس/ أذار من العام 2004)، عبد العزيز الرنتيسي (17 ابريل/ نيسان من العام 2004)، والقائد الجهادي الحاج عماد مغنية (12 فبراير/شباط من العام 2008)، والعشرات العشرات من كوادر المقاومة الذين يضيق المقام عن تعدادهم. وهي عمليات تؤشر إلى المكانة البارزة التي تحتلها هذه السياسة غير المشروعة وفق كل المواثيق الدولية والإنسانية، ضمن الإستراتيجية الإسرائيلية العامة، للقضاء على أسباب القوة لدى العرب والمسلمين.

(152) بالمقدور هنا ملاحظة الجهود الدائبة التي وظفت من غير جهة للحؤول دون تبوّء حزب الله مكانة وطنية، أو احتلاله موقعاً ثورياً يصار إلى استلهامه واستنساخه، من قبل الشعوب العربية والإسلامية في نزوعها نحو التحرّر. فليس من شكّ بإطلاق، أنّ بروباغندا الدعاية السياسية للرسميات العربية المنضوية في ما يسمّى أميركيا بـ«محور الإعتدال»، كان لها آثار بالغة الخطورة على تبديد نتائج نصر حزب الله عربياً في حرب العام 2006، كما على تمييعه، وإهلاك مفاعيله على غير صعيد. وأنّ حيل هذه الدعاية وأحابيلها وآلاعيبها، انطلت على جمهور عريض من الشارع العربي الذي سبق له أن محض حزب الله بيعة وتأييداً مطلقاً عز لهما نظير.

لقد أخذ بعض المزاج العربي بأسباب الرواية الدارجة تلفيقاً، وبكيفية مغرضة، عن اتصال «حرب لبنان الثانية» وفقاً لتسميتها الإسرائيلية، بأجندة خارجية وبجدول أعمال إيراني في الشرق الأوسط، حتى صير إلى تجهيل صانع النصر في لبنان، والتنكر له، على النحو الذي بات فيه اسم حزب الله مجرد اسم كودي لإيران: فحرب لبنان لم تكن حرباً تحرّرية من منظور الدعاية الإعلامية المضللة، قدر ما كانت حرباً وقائية خاضها حزب الله الوكيل نيابة عن الإيراني الأصيل، في دفاع

استباقي عن برنامج طهران النووي من جهة، وفي نزوع هجومي للإمساك بأوراق الحضور الإقليمي من جهة ثانية.

وكانت عواصم القرار فيما يسمّى المجتمع الدولي، قد سارعت- على إثر نجاح حزب الله في أسر جنديين إسرائيليين في الثاني عشر من شهر تموز من العام 2006 - إلى ربط خبيث للحادثة المذكورة بأجندة الإستثمار الإيراني في المنطقة، كي لا يصار إلى تسويقها إنجازاً بطولياً للمقاومة اللبنانية. يقول بنيامين لامبث: «العواصم الغربية رأت أنّ توقيت عملية أسر الجنديين، كان من اختيار إيران لتشتيت الانتباه عن طموحاتها النووية». أنظر: دراسة مطولة للباحث بنيامين لامبث، بعنوان «العمليات العسكرية الجوية لحرب إسرائيل ضد حزب الله»، أعدّها معهد (راند) لمصلحة وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون).

(153) جان– لوك ماريه، تقنيات الإرهاب؛ تعريب يوسف ضومط، ط1، بيروت: المكتبة الثقافية للنشر والطباعة والتوزيع، العام 2004، ص 108.

(154) كان خبراء عسكريون أميركيون، قد دعوا خلال جلسة استماع أمام لجنة الأمن الداخلي في مجلس النواب، انعقدت في السابع والعشرين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2011، الولايات المتحدة إلى اغتيال كبار مسؤولي الحكومة الإيرانية؛ فقد تساءل الرئيس الأسبق لأركان سلاح البرّ الأميركي: «لماذا لا نقتلهم؟ (...) لماذا لا نعمد إلى اغتيالهم؟ لا أقترح عملاً عسكرياً، أقترح عمليات سرية». من جهته، قال العميل السابق في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (سي آي إيه) رويل مارك غريشت، الذي يعمل حالياً مع (مؤسسة الدفاع عن الديمقراطيات): «لا أعتقد أنّ باستطاعتكم فعلاً ترهيبهم، أو إثارة انتباههم إلا إذا قتلت أحدهم». أنظر: صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون، العدد 12024، الجمعة في 28 تشرين الأول، العام 2011، ص15.

(155) إنّ ما يلفت انتباه الباحث واهتمام المراقب، هو ارتباط عدد من الاغتيالات التي تلت اغتيال رفيق الحريري، بتواريخ ذات صلة بسيرورة المراحل التي قطعها بحث موضوع المحكمة الدولية الخاصة بلبنان. فبعد إجماع أولي حظي به إنشاء المحكمة الدولية من قبل جميع القوى والتيارات السياسية الفاعلة في لبنان، احتدم نقاش داخل الحكومة، وبينها وبين الأطراف السياسية المعنية، حول تحقيق أفضل كيفية لتخليق المحكمة ولتوليدها على النحو الذي يخدم العدالة المنشودة التي يبتغيها لبنان من إنشائها. وقد تزامن هذا النقاش، كما تقديم ديتليف ميليس تقريره الثاني إلى مجلس الأمن الدولي في الثاني عشر من شهر كانون الثاني/ يناير من العام 2005، مع حدث اغتيال جبران تويني الذي أريد له أن يكون رافعة التصويت على إنشاء المحكمة: وصلت أصداء الاستنكار- وفق السيناريو المرسوم- إلى طاولة اجتماع مجلس الأمن، واجتمعت الحكومة اللبنانية في الليلة ذاتها بنحو مفاجئ، واتخذت قراراً أرسلته إلى مجلس الأمن تلتمس فيه طلب إنشاء المحكمة. ما يعني، اجتماع طلب إنشاء المحكمة مع تقرير ميليس على طاولة مجلس الأمن ليتمّ النظر فيهما معاً. وكان لمصرع جبران فضل فرملة أية اندفاعة اعتراضية كان يمكن أن يحدثها القرار الحكومي المستعجل، أو أن يثيرها تعليق وزراء المعارضة لعضويتهم، أو أن يسعّر أوارها صدور قرار مجلس الأمن بالموافقة على طلب حكومة لبنان. وعشية إقرار مجلس الأمن لمشروع المحكمة في الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2006، صير إلى إرسال نسخة عن المشروع المذكور إلى الحكومة اللبنانية لإبداء النظر فيه والموافقة عليه؛ لكنّ الأخيرة لم

تستمهل نفسها الوقت الكافي لذلك، فقد صادف حينذاك اغتيال الوزير بيار الجميل الذي وفر لرئيس الحكومة فؤاد السنيورة دفعاً جديداً، لاستكمال إمرار مشروع المحكمة وتشريعه، حيث بادر في الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2006، إلى دعوة مجلس الوزراء للانعقاد في جلسة مستعجلة، أقرّ خلالها المشروع على عجل، وفي غيبة للمعارضة التي لم تعط الوقت كي يتسنى لها دراسة المشروع، فآثرت الانسحاب وتعليق عضويتها في الحكومة. وهكذا وُظّف الاغتيال السياسي مرة جديدة لمصلحة تهريب المحكمة، دونما أن يكون بمقدور أحد إيقاف ما حصل، أو بالأقل إعلاء الصوت اعتراضاً، بسبب من حرارة الدم المسفوك في الطريق.

(156) تجمع سياسي استوى على هيئة خليط هجين من القوى والاتجاهات والتيارات التي لا يجمع بينها سوى قاسم مشترك هو العداء لسوريا. بعضهم كان يعادي سوريا من موقع الانعزالية التاريخية كاليمين المسيحي المتطرف، وبعضهم الآخر تخلق على غير نحو وخلاق؛ كتيار المستقبل الذي اتكأ على قاعدة اجتماعية ربطت مصالحها بعجلة الرأسمال التجاري الريعي المتداخل على نحو وثوقي بحركة الرأسمال الإقليمي الدولي. ما جعله عاجزاً بحكم ارتباطاته ومصالحه عن التعارض مع التوجّهات الأمريكية في المنطقة. أو كوليد جنبلاط المنقلب على تحالفه السابق مع سوريا بسبب من قراءة سياسية خاطئة راهنت على الخيل الأمريكية في حلبة الاشتباك الأمريكي- السوري، قبل أن ينقلب على عقبيه ويعود أدراجه حاسراً. كما نقع هنا على بعض الشخصيات والفاعليات ذات الحيثيات التمثيلية المتواضعة التي ما فتئت تبحث عن أدوار لها تتجاوز أحجامها الواقعية. والحال، ما كان لهذا الاصطفاف السياسي الهجين أن يتخلق لولا حادثة اغتيال رفيق الحريري، وتوجيه إصبع الاتهام والإدانة إلى سوريا. وهو عرف منذ ولادته غير قليل من حالات المدّ السياسي والانكماش والتشظي عند غير محك ومفترق، بسبب من كونه مرتهناً بحكم طبيعته إلى الإرادة الامريكية - الفرنسية من جهة ، ومكشوفاً على التناقض في ما بين أركانه، حيث تتعارض الطموحات على مستوى الأدوار التي يسعى كل منهم إلى تأديتها، ما جعله إلى جانب إصابته بشيخوخة مبكرة، ليس عاجزاً عن تكوين تصوّر جامع وحسب، بل مرشح للانفجار عند أول منعطف طرق يفصل بين التوجّهات المتباينة.

(157) يقصد بالمتمرّد هنا: الثائر الآني؛ الثوري العجول الذي ينقض على العمل الثوري، ويسهم غالباً في إجهاض الثورة، وتقويض الدولة بتوافق أو تآمر مع جهات حاكمة أو أجنبية. أنظر : خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات السياسية والدبلوماسية، ط1، بيروت : دار الفكر اللبناني، العام 1999، ص 54، 55.

(158) يصدر المتمرّد في حراكه ونشاطه من خلفية اعتقادية وسياسية يرى فيها إلى نفسه كصاحب حق طبيعي في قبالة آخرين أصحاب حق وضعي في المجتمع ذاته.

(159) غسل الدماغ (Lavage du cerveau) : هو اصطلاح مفهومي ظهر للتدليل على كل محاولة من شأنها السيطرة على العقل البشري، وتوجيهه إلى غايات مرسومة ومحدّدة بعد تجريده من ذخيرته المعلوماتية السابقة وأفكاره ومبادئه. أنظر: حسين ظاهر، معجم المصطلحات السياسية والدولية، ط1، بيروت: المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2011، ص 289 .

(160) اندلعت الحرب الكورية في الخامس والعشرين من شهر يونيو/ حزيران من العام 1950، واستمرّت إلى العام 1953. بدأت كحرب أهلية دارت رحاها بين شطري شبه الجزيرة الكورية؛

الشمالي الذي كان يقع تحت سيطرة الاتحاد السوفياتي، والجنوبي الذي كان خاضعاً لسيطرة الأمم المتحدة بقيادة الولايات المتحدة الأميركية، وذلك قبل أن يتوسّع نطاقها ومدارها بدخول هذه الأخيرة الحرب تحت مظلة الأمم المتحدة كطرف في النزاع، ودخول جمهورية الصين الشعبية كطرف مقابل. انتهت فصول الحرب، وتوقفت العمليات العسكرية، بعدما صير إلى إبرام اتفاق لوقف النار في السابع والعشرين من شهر يوليو/ تموز من العام 1953.

تعدّدت تسميات هذه الحرب؛ أطلق عليها في كوريا الجنوبية اسم (الحرب الكورية)، وهي التسمية الرسمية التي تبنتها الدولة، أما شعبياً فتعرف باسم (حرب 25/6)، وهو تاريخ اليوم الذي اندلعت فيه شرارة الحرب. وفي كوريا الشمالية تسمّى رسميا باسم (حرب تحرير الأرض). أما الولايات المتحدة، فإنها عزفت عن تصنيفها كحرب- لتجنب إلحاح اللجوء إلى الكونغرس طلباً لإعلان الحرب- واكتفت بتوصيفها عملاً عسكرياً أطلقت عليه تسمية (النزاع الكوري). وفي الصين عرفت باسم (حرب مقاومة أميركا ومساعدة كوريا). ويحلو- في قبالة ذلك- لبعض المؤرخين والباحثين تسميتها بـ(الحرب المنسية)، بسبب من أنها لم تحظ بالاهتمام والمتابعة الكافيين، وبوصفها لم تجذب الانتباه بالقياس والمقارنة مع ما توافرت عليه الحرب العالمية الثانية التي سبقتها، وحرب فيتنام التي جاءت بعدها.

(161) الأقليات (Les Minorites): هم جماعة من مواطني دولة ما ورعاياها، يتفارقون ويختلفون عن أغلبية المواطنين في انتمائهم الإثني أو القومي أو الديني ...، وغالباً ما يشعرون بالاضطهاد والحرمان، وبالحاجة الماسة إلى تشريعات وقوانين تضمن حمايتهم، وتكفل لهم حرياتهم واعتقاداتهم الدينية والثقافية، كما مساواتهم مع الأكثرية في التمتع بجميع الحقوق المدنية والسياسية.

(162) تشفّ مراجعة الإستراتيجية الإسرائيلية إزاء المنطقة العربية– وفق ما يقع عليه الباحث طي كتاب «إسرائيل وحركة تحرير جنوب السودان»، الذي صدر في العام 2003 عن مركز ديان لأبحاث الشرق الأوسط وأفريقيا، للعميد المتقاعد في الجيش الإسرائيلي موشي فرجي- عن نزوع إسرائيلي حاد لاستغلال الأقليات في غير قطر، وتوظيف حركاتها المطلبية في خدمة مشروعاته الاحتلالية، والإفادة من ذلك في تجويف الوطن العربي، وتجزيئه، وإضعافه، وتفتيته من خلال خلق واصطناع كيانات انفصالية في داخله، بغرض إعادة رسم مشهدية المنطقة على القياس الإسرائيلي، كما إعادة موضعة وتوزيع القوى فيها على نحو يجعل منها مجموعة من الدول الهامشية المتنافرة المفتقدة لوحدتها وسيادتها ولأسباب القوة لديها. ما يسهّل استطراداً على إسرائيل مهمة استتباعها وإحكام السيطرة عليها؛ فقد وعى قادة الحركة الصهيونية أهمية الالتفات إلى الأقليات، وأدركوا باكراً للغاية أنها تمثل حليفاً طبيعياً لإسرائيل. والحال، صير إلى مدّ جسور الثقة والتواصل والتعاون مع الأكراد في العراق، ومع السودانيين الانفصاليين من أهل الجنوب، ومع الموارنة في لبنان، والأقباط في مصر ...، ووفروا لهذه الجماعات صنوف المساعدة وأشكال العون والتأييد والدعم والمؤازرة والنصرة. ومصداق ذلك أنّ جميع حركات التمرّد والانفصال التي قادتها الجماعات الإثنية والطائفية في الوطن العربي، حظيت برعاية الأجهزة الإسرائيلية، على نحو ما حدث مع الأكراد في العراق، والانفصاليين في جنوب السودان، والاتجاهات المسيحية الانفصالية في لبنان...

ولتعزيز ما ألمعنا إليه، سننقل بعض ما ورد في اعترافات أدلى بها– وزير الخارجية الإسرائيلية السابق- يغال ألون، لم تسمح الرقابة العسكرية بالكشف عن بعضها، سوى بعد مرور قرابة ثلاثة عقود من الزمن، وهي تصل إلى نحو ألف صفحة، يقول ألون: «هناك أربع أقليات شغلت أفكاري طيلة الوقت، حتى قبل أن أصبح وزيراً للخارجية: الأكراد في العراق، الدروز في سوريا، المسيحيون في لبنان، والقبائل الإفريقية في جنوب السودان (...) لقد كان هذا بمثابة جنوني الخاص».

كما سننقل- في سياق مماثل- بعض ما ورد في شهادة وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي الأسبق آفي ايختر، من محاضرة له ألقاها في العام 2008، أمام معهد أبحاث الأمن القومي الصهيوني، وفيها تطرق إلى موضوعة الدعوة الانفصالية السودانية؛ حيث يقول: «كانت هناك تقديرات إسرائيلية منذ استقلال السودان في منتصف الخمسينيات، أنه لا يجب أن يُسمح لهذا البلد رغم بعده عنا بأن يصبح قوّة مضافة إلى قوّة العالم العربي، لأنّ موارده إذا ما استمرّت في ظل أوضاع مستقرّة، ستجعل منه قوّة معتبرة يحسب لها ألف حساب. وعلى هدي هذه التقديرات كان على إسرائيل بمختلف أجهزتها وأذرعها، أن تتجه إلى الساحة السودانية، لكي تفاقم وتراكم من مآزمها، وتسهم في إنتاج وتوليد أزمات جديدة، بحيث يكن حاصل تلك الأزمات معضلة يصعب معالجتها في ما بعد. وذلك بسبب من أنّ السودان يشكل عمقاً إستراتيجياً حيوياً لمصر. كما هو عنصر تجلى بعد حرب العام 1967، حين تحوّل إلى معسكرات تدريب وإيواء للقوّة الجوية المصرية كما للقوات البرية. لهذين السببين- يختم ديختر- كان لا بدّ أن تعمل إسرائيل على إضعاف السودان وانتزاع المبادرة منه، للحيلولة دون تمكينه من بناء دولة قوية موحّدة. وهذا المنظور الإستراتيجي، يشكل أحد ضرورات دعم وتنظيم الأمن القومي الإسرائيلي».

(163) لقد وقّع المدير العام لقوى الأمن الداخلي اللواء أشرف ريفي والسفير الأميركي السابق في لبنان جيفري فيلتمان إتفاقية أمنية، تفصح عن هبات مالية أميركية لتعزيز قدرات القوى الأمنية اللبنانية، في قبالة ربط هذه الأخيرة بعجلة المصالح الاميركية. تتكشّف القراءة الزمنية عن لادستورية تسم الاتفاقية المذكورة من غير جهة؛ إذ وقعها ريفي في الخامس من شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2007، فور حضور الوفد الأميركي إلى لبنان دونما حصوله على أي تفويض رسمي، بل صير إلى استحصاله على هذا التفويض لاحقاً- وفي عجالة- بعدما توجّه بطلب إلى الحكومة اللبنانية، حيث سُجل طلب وزارة الداخلية في قلم الأمانة العامة لرئاسة مجلس الوزراء لعرض الموضوع على مجلس الوزراء تمهيداً لنيل الموافقة في السادس من شهر تشرين الأول من العام 2007، أي بعد يوم واحد على توقيع ريفي. في حين أنّ قرار الحكومة اللبنانية الذي حمل الرقم 35، متوسّلاً منح ريفي التفويض اللازم بهذا الشأن، قد صدر في الجلسة المنعقدة برئاسة فؤاد السنيورة في التاسع من شهر تشرين الأول من العام 2007 أي بعد أربعة أيام على التوقيع المذكور. ما يعني أنّ تفويض ريفي توقيع الاتفاقية، لم يصبح نافذاً حكماً كما ورد في الجريدة الرسمية إلا في السابع والعشرين من شهر تشرين الأول من العام 2007. وقد تمّ تعديل الإتفاقية، وصير إلى التوقيع على هذا التعديل من قبل كل من أشرف ريفي أيضاً، والسفيرة الأميركية السابقة ميشيل سيسون في الثاني عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2009، بزيادة «مبلغ 12 مليون دولار مقدّمة من الولايات المتحدة لتعزيز قدرات قوى الأمن»، وفق ما أفصح عنه ارشيف البيانات على موقع السفارة الاميركية.

(164) يذكر أنّ السفارة الأميركية في لبنان، كانت تعكف على صياغة وفبركة المصطلحات والعناوين والموضوعات والمانشيتات...، ثم توزّعها بعد ذلك على الجهات ذات الصلة، ليصار إلى تبنيها وتظهيرها ونشرها وتسويقها. وقد استحدثت الولايات المتحدة لهذه الغاية مكتباً للتواصل والتنسيق صير إلى أنشائه في العاصمة الإمارتية «أبو ظبي»، وقد بدأ بمزاولة نشاطه في بيروت منذ العام 2006، بعد أن قام بشراء مساحات من الهواء على بعض المحطات التلفزيونية، فضلاً عن توافره على وسائط اتصالية بالغة التعقيد.

(165) تعتبر– على سبيل المثال- إستراتيجيات EBO أي العمليات المبنية على التأثير، وهي عقيدة قتالية للقوات المسلحة الجوية الأميركية؛ من إستراتيجيات الحروب المشنونة نفسياً، بوصفها ترفض فكرة الصدام الكامل مع العدو، على أن يصار– كبديل من ذلك– إلى توسّل التأثير على عقول جمهور العدو، من خلال توجيه سلسلة ضربات عنيفة تطال، وعلى نحو دقيق ومركز، طائفة من الأهداف الرئيسة- الحيوية. وذلك صدوراً من الاعتقاد القائل، بأنّ تدمير هذه الأهداف الرئيسة، سيتسبّب– وفقاً للدومينو- برد فعل تسلسلي ينتهي بانهيار العدو.

(166) بعد تمكن حزب الله من تنفيذ عملية أسر ناجحة في صبيحة 12 تموز من العام 2006، سارع قائد فرقة الجليل (الفرقة 91) في الجيش الإسرائيلي غال هيرش إلى إصدار أمر «هنيبعل»، الذي تتركز فكرته على تدارك الأسر قبل انتهائه، أي قبل تمكن المهاجمين من تذويب الأسرى في عمق الأراضي اللبنانية. وتنطوي الخطة على إجراءات أولية تتوسّل من خلالها تطويق مكان العملية وعزله، والنأي به للحيلولة دون خروج الآسرين منه. تأمل هيرش منطقة الحدث على الخريطة، وأوعز إلى دبابة ميركافا لتجتاز السياج الحدودي إلى أطراف قرية عيتا الشعب الواقعة إلى الشمال الشرقي لمستعمرة زرعيت على مسافة مئات الأمتار داخل الأراضي اللبنانية، عند منطقة تعرف باسم «الراهب»، علها توفق في اعتراض الآسرين. لم تسلك الميركافا الطريق العادية، تحسباً منها لعبوات وتشريكات، بل توسّلت مساراً التفافياً غير معدّ أصلاً لعبور الآليات. ولكن مع وصول الدبابة إلى محاذاة المكان المنشود لتموضعها، استهدفها أفراد وحدة الهندسة التابعة لحزب الله بعبوّة ناسفة كبيرة، حوّلت الميركافا- التي يفاخر الجيش الإسرائيلي بأنّها الأكثر تحصيناً في العالم- إلى أشلاء ممزقة بعد أن تشظت في غير اتجاه؛ صُرِع أفراد طاقمها الأربعة، وكان قدر برجها أن يُدفع به إلى مسافة 130 متراً بعيداً من مكان الانفجار. إنّ مشهد انفجار الدبابة على هذا النحو المهول، كان له أثار نفسية بالغة على لجم الوعي الإسرائيلي ودفعه إلى التردّد، بعد أن صير إلى نقله وبثه حياً عبر كاميرات طائرات الاستطلاع التي كانت تجوب أجواء منطقة العملية حينئذ. وشاهده من على شاشات التلفزة كلّ من وزير الدفاع عمير بيرتس في مكتبه ورئيس الأركان دان حالوتس في غرفة حرب هيئة الأركان العامة، وأودي آدم وغال هيرش في مقر قيادة المنطقة الشمالية. فقد وصف الجنرال أودي شيني- في تقرير حرّره بعد ترؤسه لإحدى لجان التحقيق في الحرب- أودي أدم، قائد الجبهة الشمالية خلال الحرب وضابط المدرعات السابق، بأنه «دخل الحرب مصدوماً، مصعوقاً ومتألماً» من حادثة تفجير الدبابة. وفي سياق متصل، أشار معلقون إسرائيليون إلى أنّ مشهد التفجير بقي يطارد أدم طيلة الحرب، ويلاحقه ككابوس يؤرّقه، فقد دأب على التساؤل الهذياني «هل تدرك ماذا يعني طنّ من المواد المتفجرة». ما انعكس إحجاماً وتردّداً تملك آدم لدى اتخاذه أي قرار يتطلب إدخال قوات إلى الأراضي اللبنانية، وصير إلى ترجمته في قيادة المنطقة الشمالية تسويفاً وتلكؤاً في تنفيذ أمر «حلاقة» وإزالة خط

النقاط الأمامية لتوضّعات حزب الله على الحدود الفاصلة مع فلسطين، كي « لا يبقى أصفر أمام الأعين» وفقاً لتعبير حالوتس، إلا بعد مضي نحو شهر من صدور القرار المذكور.

(167) نقع- استدلالا- عل اتباع الولايات المتحدة الأميركية لنموذج إستراتيجي فارق، قوامه ما يسمّى بـ(إستراتيجية المجنون)، التي تقضي بظهورها– أي الولايات المتحدة- بمظهر القوّة الجامحة غير المسؤولة لترهيب الخصوم المحتملين . أنظر: ايمانويل تود، ما بعد الأمبرطورية، من مقال منشور في ملحق صحيفة السفير اللبنانية، السنة التاسعة والعشرون، العدد 9398، الأربعاء في 15 كانون الثاني، العام 2003، ص 28.

(168) مجموعة من المؤلفين، ثلاثة وثلاثون يوماً من الحرب في لبنان؛ ترجمة هيثم الأمين، إشراف فرانك ميرميه وإليزابيت بيكار، ط1، بيروت: المكتبة الشرقية، العام 2007 ، ص 248.

(169) من دراسة مطولة بعنوان «العمليات العسكرية الجوية لحرب إسرائيل ضد حزب الله»، أعدّها معهد (راند) لمصلحة وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون).

(170) بعد فشل الجيش الإسرائيلي خلال مواجهات حرب تموز من العام 2006 عن صناعة أي انجاز عسكري، كما عجزه عن تحقيق نجاحات في ميدان القتال بسبب من تصلب إرادة مقاتلي حزب الله، ومهاراتهم القتالية، وكفاءتهم العالية، واقتدارهم؛ حاول الإسرائيلي– في نزوعه الدائب للبحث عن وهم نصر– المساس بالروح المعنوية لمقاتلي الحزب، وإضعاف إرادتهم، وإصابتهم بما يسمّى «انهيار إدراكي»، وذلك من طريق العمل خلف خطوط العدو، حيث نفذ عمليات عدة كان أبرزها:

- عملية بعلبك: صير إلى تنفيذها في الأول من آب في تمام الساعة الحادية عشر ليلاً، إذ اقتحم 200 جندي من أفراد سرية قيادة الأركان (سييرت متكال)، ومن الوحدة النخبوية (شلداغ) التابعة لسلاح الجو الإسرائيلي، مستشفى في مدينة بعلبك، وحياً سكنياً شرقي المدينة.

– عملية صور: وقد صير إلى تنفيذها في الرابع من آب، حيث اقتحم أفراد من الكوماندو البحري (شييطت 13) مبنى سكنياً لاعتقال أحد كوادر حزب الله.

وقد باءت العمليتان- فضلاً عن أربع وعشرين عملية أخرى نفذت خلف خطوط العدو وفقاً لمصادر الجيش الإسرائيلي- بفشل وإخفاق كبيرين.

والجدير بنظر الاهتمام، أنّ العمل خلف خطوط العدو من شأنه إلى جانب ما تقدم، أن يرغم العدو على القتال في مناطق لا تلائمه بلحاظ إمداداته وباعتبار حجم قوته... كما أنّه يحقق عنصري المباغتة والإرباك، لاسيما إذا صير إلى توسّله على نحو تزامني في أكثر من مكان وفي وقت واحد.

وكان الإسرائيلي قد درج على توسّل مثل هذا التكتيك الحربي في صراعه المديد مع العرب؛ ففي العدوان الثلاثي على مصر في العام 1956، تمّ انزال نحو 400 مظلي إسرائيلي بواسطة سلاح الجو وراء خطوط الجيش المصري في صحراء سيناء.

وفي سياق تفعيل مثل هذه القدرات الحربية، أجرى الجيش الإسرائيلي في السادس عشر من شهر كانون الثاني/ يناير من العام 2012، مناورات عسكرية شارك فيها أكثر من ألفي مظلي، وتضمنت قفزاً بالمظلات في صحراء النقب في جنوب فلسطين المحتلة. وكان الهدف منها- وفقاً

للمصادر الإسرائيلية- اختبار قدرات الجيش على إنزال نحو ألف جندي، خلال أقل من 70 دقيقة وراء خطوط العدو بواسطة طائرات من نوع (هيركوليز). أنظر: صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون، العدد 12088، 19 كانون الثاني، العام 2012، ص15.

(171) يشير الجنرال غادي آيزنكوت– قائد الجبهة الشمالية– في مقالة بعنوان (ما الذي تغيّر من صيف 2006 حتى شتاء 2010)، نشرتها مجلة الجيش والإستراتيجيا في عددها الصادر في حزيران من العام 2010، إلى حقيقة وخلفية الاستخدام المفرط للقوة من جانب إسرائيل في حربها على لبنان في 12 تموز من العام 2006، حيث يقول إنّ الجمهور الشيعي في لبنان مرّ بتجربة قاسية جداً في حرب لبنان الثانية، ويمكن «التقدير أنّ قادة حزب الله سيزنون الأمور جيدا قبل أن يفتحوا النار (...) هم يفهمون معنى مواجهة إضافية». ويضيف آيزنكوت بعد إعلانه عن 7800 غارة شنتها المقاتلات الحربية، أنّ «الجيش الإسرائيلي أطلق نحو لبنان 200 ألف قذيفة. وربما أنّه ليس لذلك معنى لدى المواطن الإسرائيلي، لكنّ حزب الله عدّ القذائف جيداً». أنظر: صحيفة السفير اللبنانية، السنة السابعة والثلاثون، العدد 11621، الاثنين في 21 حزيران، العام 2010، ص 13 .

يذكر أنّ الجنرال غادي آيزنكوت هو أول من دعا إلى تبني إستراتيجية (عقيدة الضاحية) في مقابلة مع صحيفة يديعوت أحرونوت في عددها الصادر في 4-10-2008، وذلك نسبة إلى التدمير الذي ألحقته الآلة العسكرية الإسرائيلية بالضاحية الجنوبية لبيروت خلال حرب تموز- آب من العام 2006؛ حيث رأى إليها الحل الأمثل لمعضلة حزب الله «حينما تندلع الحرب يجب حسمها بسرعة وبقوة» يقول آيزنكوت «من دون ايلاء أهمية للرأي العام العالمي. كلّ القرى سيجري التعامل معها باعتبارها قواعد عسكرية». وتتطلب (عقيدة الضاحية)- وفقاً لدان شيفنون- زرع دمار غير قياسي في النقاط والبؤر الحساسة لمطلقي الصواريخ على إسرائيل. فالهدف ليس اصطياد الصاروخ، وإنّما فرض تغيير جوهري في معادلة الكلفة والجدوى للمقاومة من طريق رفع عنصر الكلفة بشكل دراماتيكي. وكان الخبير بالشؤون الإسرائيلية انطوان شلحت قد أشار في مقاربة حفرية لـ(عقيدة الضاحية) إلى انبثاقها وتناسلها من عقيدة (الجدار الحديدي) التي صاغها زئيف جابوتنسكي زعيم التيار التنقيحي في الحركة الصهيونية في العشرينيات من القرن الفائت، ثم تبناها بعده بن غوريون، ومفادها خلق قناعة لدى الفلسطينيين بعدم جدوى التجرؤ على إسرائيل، من خلال ترويعهم وجعلهم يدفعون ثمناً باهظاً يحجمون بعده عن تهديدها ومهاجمتها والإضرار بها، وهذه هي أسطورة الردع الإسرائيلية.

(172) يحضر في هذا الموضع مثال استقدام الولايات المتحدة الأميركية للبارجة الحربية (يو. اس. اس. كول) في التاسع والعشرين من شهر شباط من العام 2008، استباقاً لما قد يقدم عليه حزب الله. وقد توسّلت (كول) في عراضاتها الكرنفالية ذهاباً وإياباً على الشواطئ اللبنانية تلمّس وتحقيق هدفين اثنين بنحو مباشر: التهويل على حزب الله وإرعابه ودفعه إلى التراجع، ومنعه من القيام بعملية عسكرية موضعية خاطفة تجبر حلفاء أميركا من قوى الرابع عشر من آذار على التقهقر، وبالتالي نجاح الحزب في الإخلال بالتوازنات القائمة لغير مصلحة هذه القوى. في قبالة شدّ عصب الحلفاء من قوى الرابع عشر من آذار، وطمأنتهم وإشعارهم أنها حاضرة لاستنقاذهم استبقاء لبعض تماسكهم وانسجامهم، وحؤولاً دون انهيارهم سريعاً أمام ضغط حزب الله الميداني، على نحو قد يتأدّى إلى انفراط عقدهم وتقديمهم مجتمعين أو بعض منهم تنازلات معينة.

كما يحضر في هذا السياق، مثال استقدام الأسطول الروسي وغير قطعة بحرية حربية في التاسع من شهر كانون الثاني/ يناير من العام 2012، إلى ميناء طرطوس على الشواطئ السورية إبّان تصاعد الحديث عن خيارات عسكرية قد يتوسّلها حلف الأطلسي ضد نظام بشار الأسد. ما كان عاملاً كابحاً، دفع بالعديد من الدول المعنية إلى التراجع عن تهديدات كانت قد أطلقتها على هذا الصعيد، كما كان عاملاً مساعداً على تغيير مسار الأزمة السورية لتنحو باتجاه البحث عن تسوية سياسية تحت سقف النظام القائم.

(173) يمكن الاستدلال بما أقدم عليه الجيش الإسرائيلي، منذ انتهاء حربه على لبنان في الرابع عشر من شهر آب من العام 2006 على هزيمة منكرة وعجز ملحوظ؛ فلا يكاد شهر واحد يمر دون إجراء مناورة، أو دون الإعلان عن أخرى سيجريها، أو دون التحضّر لمناورة مستقبلية. ما يلحّ على التساؤل عن سرّ هذا التكثيف غير الصحي في إجراء سلسلة من المناورات الكبرى والعملاقة ولعلها الأكبر والأضخم في تاريخه (نقطة تحول1، تحول2، تحول3، تحول4، تحول5،...). لكنّ هذه الحيرة لا تلبث أن تنجلي، عندما يشاح النظر إلى حجم التغطيات الإعلامية المصاحبة. فقد شهدت المناورات استثماراً إعلامياً لافتاً وكبيراً، إذا ما صير إلى مقايسته ومقارنته باستثمارات إعلامية منخفضة كانت تحظى بها التدريبات العسكرية سابقاً. لقد شاء القادة الإسرائيليون أن تمتدّ فوائد مناوراتهم إلى وعي أعدائهم مباشرة أملاً في تعزيز وترميم القدرات الردعية المترهّلة، بعد أصابتها بانتكاسة حادّة في الحرب على لبنان. والحال، فالمناورات العسكرية الإسرائيلية لم تخرج- على الرغم من كثافتها وجديتها- من الإطار الدعائي، بوصفها تستبطن توجيه رسائل ردعية تستهدف الخصوم والأعداء، كما تستهدف الأصدقاء والحلفاء. وذلك بغرض إعادة تنميط صورة للجيش الإسرائيلي تفيض بالقوّة والجبروت على خلاف الصورة التي تظهّرت له في الحرب الأخيرة على لبنان، وللإيحاء من جهة ثانية بأنّ إسرائيل قد أعادت ترميم قدراتها التي صدعتها الحرب، وأعادت تفعيل قوتها وباتت جاهزة لأية منازلة، ولأي استحقاق داهم ومستجدّ. وبالتالي على من يفكر بالإضرار بها أن يحترس، وأن يرتدع، وأن ترتعد فرائصه خوفاً وفزعاً.

كذلك يمكن الاستدلال بالمناورات العسكرية الإيرانية؛ الصاروخية والبحرية والبرية، التي صير إليها، وعلى نحو كثيف، في العامين 2010، و2011، وفي مطلع العام 2012، والتي كانت تتزامن وتتساوق مع تصاعد التهديدات بشأن ضربة عسكرية لمفاعلها النووي... ما كان يتأدّى في كلّ مرة إلى تراجع هذه التهديدات وانكفائها.

كما إنّ إجراء المناورات يعتبر رسائل رادعة وكابحة، فإنّ إلغاءها أو تأجيلها يعتبر بدوره رسائل تهدئة؛ فقد أعلنت الولايات المتحدة الأميركية في الخامس عشر من شهر كانون الثاني/ يناير من العام 2012، عن تأجيل المناورة العسكرية الأكبر للدفاع الجوي المسماة (التحدي الأكبر 12: AC12)، والتي كان إجراؤها مقرراً في شهر نيسان/ ابريل من العام 2012. وهي مناورة معدّة لتحسين أداء منظومات الدفاع الجوي، وتنظم بنحو مشترك بين الجيش الأميركي والجيش الإسرائيلي، كبديل من مناورة (جونيفر كوبرا) التي كانت تجري بين الجيشين في الماضي. أمّا قرار التأجيل فتمّ تبريره برغبة الولايات المتحدة في تخفيض حدّة التوتر مع إيران. وكان المراسل العسكري للقناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي، قد اعتبر المناورة المشتركة أول ضحية لمحاولات أميركا خلق أجواء للحوار مع الحكومة الإيرانية.

(174) بالمقدور الاستدلال هنا بالحال التي آل إليها القادة الإسرائيليون في أعقاب الهزيمة في لبنان في تموز- آب من العام 2006، فقد أخذوا بنظرية التأثيرات القائمة على مفهوم تفعيل الرافعات وإحداث التغييرات غير المباشرة، والصادرة من اعتقاد بأنّ تغيير الواقع لا يمكن أن يتأتى من استعمال صنوف القوّة المادية المفعّلة مباشرة ضد العدو، بل من التأثير غير المباشر على وعي قادته عبر إطلاق رسائل التحذير والتهديد والترهيب على نحو متواصل. لذلك عكفوا وبنحو من التجاوز التعويضي على إطلاق سلسلة من التهديدات ومن الرسائل الحافلة بألوان الوعيد، ودأبوا على إرسالها يومياً سواء بمناسبة أم من غير مناسبة، ودون أن يقدر خروجها من الإطار الدعائي ومن غايتها الإعلانية، بحيث تستحيل إلى محاولات ردعية يراد لها أن تكبح الطرف الآخر عن محاولة الإضرار بإسرائيل وبمصالحها الحيوية.

(175) قد تتخذ صفقات الأسلحة بلحاظ توقيتها وموضوعها ومتلقيها وكيفية الإعلان عنها، طابع الرسائل الردعية الكابحة، على نحو ما نقع عليه في صفقة الأسلحة الأميركية- السعودية التي صير إلى الإعلان عنها في شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام 2011، والتي كانت قيمتها قد بلغت قرابة 30 مليار دولار. تعدّدت المقاربات والتحليلات بشأن هذه الصفقة، وكثرت التساؤلات حولها؛ إلا أنّ المشترك الجامع بين المقاربات والتحليلات والتساؤلات على اختلافها وتباينها، كان القول في توصيفها بأنّها «صفقة الرسائل السياسية والأمنية بامتياز.. الرسائل الموجهة إلى جبهات مختلفة تبقى أولاها بلا منازع العدو الإيراني المشترك». للاستزادة أنظر: السلاح الأميركي إلى السعودية.. صفقة مالية ورسائل، مقال منشور في صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون، العدد 12074، السبت في 31 كانون الأول، العام 2011، ص14.

(176) إن نزوع الدول إلى الإعلان– على نحو دعائي- عن وجود اختراعات وكشوف وبرامج تسليحية لديها، أو هي في طور الإنجاز، وفي المرحلة الأخيرة من الابتكار والتصنيع والتطوير، فضلاً عن أنّها قادرة على مواجهة مواضع ومكامن وأسباب القوّة والبأس التي تسجّل للأعداء، حيث يكون بمقدور كلّ اختراع من هذه الإختراعات وفقا للإعلانات والتصريحات ووسائل الدعاية المقدّمة والمروّجة له، أن يمثل فتحاً في دنيا المعارك والحروب؛ إنّما يستبطن رسائل ومؤثرات نفسية على غير صعيد:

أ-يستبطن المسّ بوعي الأعداء والخصوم المفترضين، نحو: تفعيل قدرة الردع وصورته، حيث يصار إلى إيجاد حالة من الردع المفقود حيال هؤلاء الأعداء والخصوم، أو ترميمه إن كان مشوّهاً ومصدّعاً ومتداعياً، أو تعزيزه إن كان موجوداً. كأن يقال بلسان الحال، إنّ على الأعداء أن يأخذوا علما بوجود مثل هذه الاختراعات الحديثة، وهذه الإمكانات المدهشة والخارقة، كما عليهم أيضاً أن يخافوا كثيراً من القدرات الجديدة التي باتت بحوزة الجيش، وبالتالي عليهم أن يفكروا ملياً وجدياً قبل الإقدام على أية مغامرة غير محسوبة، وقبل القيام بأي عمل معاد من شأنه الإضرار بالمصالح الحيوية الكبرى.

ب- يستبطن- مثل هذا الاستعراض الدعائي والإعلاني الموجّه والنازع إلى تظهير صورة الدولة القوية والمقتدرة والحصينة، والكاشف عن القدرات التسليحية الجديدة وعن سائر الفتوحات والكشوف ذات الصلة- استنهاض الجمهور الداخلي، وإعادة ثقة الجندي بنفسه وبإمكاناته وقدراته الذاتية، وبتفوّقه وتعاليه وفرادته وتمايزه، فضلاً عن تصليب إرادته، والنفخ في وعيه وروحه

وحافزيته ودافعيته. كما يستبطن في سياق متصل تعزيز ثقة الحلفاء بقدرات هذه الدولة، وبقوّتها ومكانتها وحضورها.

(177) لنقف على استعمال بعض المصطلحات التي صير إلى تفعيلها وتسويقها من قبل الدعاية الإعلامية الإسرائيلية، أو مثيلتها الأميركية، أو الغربية على وجه أعم :

- مصطلح الاستعمار: كلمة استعمار مترجمة عن (IMPRYALISM)، وهي- على خلاف واقعها وتجسّدها- تنطوي على دلالات التعمير، وترقية الشعوب ، وتطويرها، وتأمين رفاهيتها وازدهارها. وذلك للتمويه على حقيقة النيّات والخلفيات التي يأتي بها المحتل. والمفارق أنّها دخلت القاموس العربي والإسلامي .

- مصطلح الشرق الأوسط : يكاد يجمع الباحثون والمؤرخون على أن مصطلح الشرق الاوسط (The Middle East) ظهر في كتابات المؤرخ العسكري الأميركي الفرد ثاييت ماهان، حيث دعا في مقال له- نشرته مجلة (National Review) الصادرة في لندن في أيلول من العام 1902 – إلى إطلاق هذا التسمية اصطلاحاً على المنطقة الفاصلة بين الهند والجزيرة العربية . لكنّ السؤال الذي يتبادر إلى الذهن ؛ أنّ الشرق هنا يتحدّد بلحاظ النسبة لمن؟ .

تتكشّف القراءة الحفرية الفاحصة عن أنّ مصطلح الشرق الأوسط يعكس وجهة نظر غربية ترى أنّ أوروبا هي قطب رحى العالم ونقطة تمركزه، وأنّ الأقاليم الأخرى تتجمّع حوله. والحال نظر الأوروبيون إلى التحدّي العثماني قديماً بوصفه مسألة شرقية. لكنّ المفارق أنّ هذا المصطلح مارس سطوته، وفرض حضوره على نحو عالمي؛ استعمله الهنود على الرغم من أنّ منطقة الشرق الأوسط تقع بالنسبة إليهم غرباً، واستعمله الروس أيضاً رغم أنّ منطقة الشرق الأوسط تقع بالنسبة إليهم جنوباً، والأدهى أنّ سكان منطقة الشرق الأوسط أنفسهم استعملوا هذا المصطلح.

- مصطلح عرب إسرائيل: وهو مصطلح من الخطورة، بحيث كان بمقدوره تشويش الوعي وتزييفه، على نحو جعل بعض الإعلام العربي، والإعلام الإسلامي، والإعلام العالمي يردّده دونما تعقل لمدلولاته؛ أطلقته الماكينة الإعلامية الإسرائيلية على المواطنين الفلسطينيين في الأراضي التي صير إلى احتلالها في العام 1948 من قبل العصابات الصهيونية، وذلك بغرض إيهام المتلقي أنّ هؤلاء ليسوا سوى أقلية قومية ضمن الدولة اليهودية المسمّاة إسرائيل.

- مصطلح «المستوطنون» والمستوطنات: وهو مصطلح بالغ الخطورة أيضاً، يراد به إيهام المتلقي أنّ هؤلاء القادمين من أصقاع الأرض، ليسوا غرباء أو دخلاء؛ بل هم أبناء هذا الوطن الذين كانوا في اغتراب قسري وقهري، وها قد عادوا إلى بلدهم الأم .

وتطول قائمة المصطلحات التي يعكف الأميركي والإسرائيلي والغرب الأوروبي على استبدالها بمصطلحات جديدة، كمقدّمة حتمية لتغيير المفاهيم؛ وهو بلا شك يملك في هذا المجال القدرة على الإبداع، كما القدرة على التسويق. لذلك ينبغي العمل الجادّ على تصليب مصطلحاتنا، ومحاذرة الترداد الآلي لمصطلحات وافدة من شأنها أن تمكن العدو من رقابنا؛ تسهّل له مهمة اختراقنا وتشويش مفاهيمنا.

(178) إنّ المصطلحات المعيارية تتعيّن حمولاتها ودلالاتها عبر علاقات القوة؛ بحيث يستطيع الطرف القوي تحديد ما هو الشرعي وما هو غير الشرعي، ما هو مقبول وما هو مرفوض، بنحو

يمكنه من محاصرة الضعيف في ممنوعات قانونية تخدم في عملية إخضاعه واستلابه وتقييده. وفي تحرير ذلك، نرى كيف يخترع- على سبيل المثال- مفهوماً كالإرهاب، ويستعمله معيارياً وكأن محكمة محايدة قد ابتدعته، لا القامع نفسه. أنظر: نير روزن، منطق الاستعمار، صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثالثة، العدد 712، العام 2009، ص33.

(179) يرى المفكر الأميركي جوزيف س. ناي ضرورة توظيف المجال الدبلوماسي العام في إطار تفعيل القوّة الناعمة وتثميرها، ويقترح- في هذا الصدد- توسّل أبعاداً ثلاثة:

أ- تفعيل الاتصالات اليومية: بنحو يتأدّى إلى إيضاح السياسات المحلية والخارجية عبر وسائل الإعلام.

ب- تفعيل الاتصال الإستراتيجي: بنحو يمكن تمثله وترجمته عبر الحملات السياسية الدعائية المركزة.

ج- تفعيل العلاقات الدائمة مع الشخصيات: وذلك عبر تقديمات وهبات من شأنها أن تعكس انطباعات إيجابية؛ نحو: المنح الدراسية، والمبادلات الأكاديمية، والتدريب، والمؤتمرات...

لكنّ العمل بهذه الأبعاد الثلاثة- وفقا لجوزيف ناي- ينبغي له كي يستقيم على نحو وازن، أن لا يتفارق مع السياسة العامة للدولة الناظمة للحرب؛ بل أن يتماهى بها ومعها وفيها. بما يفضي إلى ترسيم صورة ايجابية فاضلة. أنظر :جوزيف س. ناي، القوة الناعمة: وسيلة النجاح في السياسة الدولية؛ ترجمة محمد البجيري، ط1، مكتبة العبيكان، 2004، ص 102.

(180) في الاستدلال على هذا الوجه من وجوه الحرب النفسية، يحضرنا تحوّل الكنسيت الإسرائيلية إلى دفيئة لتربية واستصدار القوانين العنصرية التي تطال الذاكرة الفلسطينية الجماعية؛ نحو: قانون النكبة الذي بادر إليه عضو الكنسيت أليكس ميلر من حزب «إسرائيل بيتنا»، والذي حظي بالإقرار والتصديق في الثالث والعشرين من شهر آذار من العام 2011. ويقضي القرار المذكور بمنح الحكومة الإسرائيلية صلاحية سحب التمويل الحكومي من الهيئات والمنظمات والسلطات المحلية التي تحيي ذكرى النكبة، وذلك إدعاء أنّ إحياء هذه الذكرى من شأنه أن يضرّ بأمن الدولة. وقانون المواطنة الذي وافقت عليه المحكمة العليا الإسرائيلية في 11 كانون الثاني من العام 2012، والذي يمنع لمّ الشمل الفلسطيني تعزيزا لشتاتهم؛ فيحظر لمّ شمل العائلات إذا كان أحد الزوجين من الأراضي الفلسطينية المحتلة، ويحظر دخول فلسطينيين من سكان المناطق إلى دولة إسرائيل. وما شاكل من قوانين عنصرية تستهدف الذاكرة والوعي. وكانت الكنيست الإسرائيلية قد وافقت في جلستها المنعقدة في 3/8/2009، ولأول مرة منذ العام 1948، على مشروع لبيع أراضي اللاجئين إلى أفراد وجهات يهودية من أي بلد. وللغاية، أصدر قاضي محكمة الرملة حكماً، أشارت إليه صحيفة هآرتس في عددها الصادر بتاريخ 2/8/2009،، يقضي بتطبيق قانون (أملاك الغائبين) على الضفة الغربية، بعد أن صير إلى اعتبار إسرائيل مالكا لأراضي الغائبين، في انتهاك لقرارات الأمم المتحدة (52/62)، والتي جاءت بعنوان (ممتلكات اللاجئين والحق في الدخل الناشئ عنها)، والتي فرضت على إسرائيل المحافظة على أراضي اللاجئين، وأكدّت حقهم في الدخل المستوفى منها منذ العام 1948.

وكذلك صير إسرائيلياً إلى تبني تراسانة من القوانين القومية المتطرّفة؛ كـ(قانون عزمي بشارة)، الذي حرم النائب العربي السابق عزمي بشارة من حقوقه التقاعدية في البرلمان، بعد إدانته بتهمة

التجسّس لمصلحة حزب الله. وأخيراً القانون الذي أقرّته الكنيست الإسرائيلية، والذي يقضي بمعاقبة كلّ من يدعو إلى مقاطعة المستوطنات.

وفي سياق متصل، يعكف الكونغرس الأميركي على صياغة قوانين وإصدار أخرى، يمارس من خلالها حروباً نفسية على كل من لا يقدّم فروض الطاعة والولاء للإدارة الأميركية، كما على كل من يقف في طريق تنفيذ أجنداتها ومشاريعها الكولونيولية، على نحو القانون الذي يصار إلى تحضيره داخل أروقة الكونغرس في العام 2011، والذي يصطلح عليه بـ«قانون حزب الله لمكافحة الإرهاب لعام 2011: The Hezbollah Anti-Terrorism Act of 2011».

(181) لقد أتقن الإسرائيلي الأساليب السرية في الحرب، وبرع في اختراق صفوف الخصوم والحلفاء على حدّ سواء، من خلال تفعيل شبكات التجسّس وغرس جيوش من العملاء. وربما يُسجّل له ضداً على أعدائه فضيلة قصب السبق والتفوّق في هذا المجال. ويحضرنا هنا على سبيل المثال لا الحصر، ما عرف بقضية «لافون»، وهي التسمية الاصطلاحية التي أطلقت في إثر الكشف عن عملية تجسّس قامت بها مجموعة من الجواسيس الإسرائيليين في مصر، وأتهم بالتورط فيها وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك بنحاس لافون. وكانت السلطات المصرية قد ألقت القبض على أفراد شبكة التجسس في العام 1954، ونفذت حكما بالإعدام في حق اثنين منهم. ولقد اضطر لافون إلى تقديم استقالته في أعقاب التحقيق الذي قامت به لجنة خاصة. أنظر: ستيفن غرين، الانحياز: علاقات أميركا السرية بإسرائيل، ط1، قبرص: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1985، سلسلة الدراسات رقم 70، ص 92، 93،94، 95، 99.

ويذكر أنّ آخر صفقات إسرائيل للإفراج عن جواسيسها، كان ما عرف بـ(صفقة غرابيل)؛ فقد أقرّ المجلس الوزاري الإسرائيلي المصغر بالإجماع خلال جلسته المنعقدة بتاريخ الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2011، صفقة تبادل مع مصر، يتمّ بموجبها الإفراج عن الإسرائيلي– الأميركي إيلان غرابيل المدان مصرياً بتهمة التجسّس، في مقابل إطلاق سراح 25 مصرياً محكومين في السجون الإسرائيلية، بينهم ثلاثة أطفال لم تكن السلطات الإسرائيلية قد أصدرت أحكاماً بحقهم.

وفي قبالة ذلك، أدرك حزب الله خطورة كشف جبهة العدو من الداخل، وأفاد من هذه المهارات والأساليب السرية، وتمرّس بها على نحو مدهش؛ فجرّع الإسرائيلي من الكأس عينها، حيث عكف على أوسع عمليات التجنيد والاختراق التي ربما لم تعرف إسرائيل مثيلاً لها في تاريخ صراعها المديد مع العرب. وقد رصد جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي (الشاباك) منذ الخامس والعشرين من شهر أيار من العام 2000، تاريخ انسحاب القوات الإسرائيلية من الجنوب اللبناني، زيادة وتطوّراً ملحوظاً في معدّلات تجنيد العملاء من قبل حزب الله. وتشير التقارير ذات الصلة من غير مصدر إسرائيلي، أنه منذ ذلك التاريخ قد صير إلى الكشف عن ما يفوق العشرين من شبكات التجسّس العاملة لمصلحة حزب الله. ويذكر أنّ جهود حزب الله في هذا المجال، لم تتركز وحسب على تجنيد العملاء من العرب في داخل الكيان الإسرائيلي؛ إنما شملت السياح والإسرائيليين أيضاً. فقد أعلنت السلطات الإسرائيلية غير مرة القبض على غير مصدر بتهمة إرساله من قبل الحزب لجمع معلومات عن أهداف داخل إسرائيل.

(182) يذهب مديرا (منتدى النزاعات) إليستر كروك، المسؤول السابق في المخابرات البريطانية، ومارك بيري الكاتب والمحلل المتخصّص في السياسة الخارجية، كما في الشؤون العسكرية والاستخباراتية، من دراسة إستراتيجية نشرت في مجلة آسيا تايمز في عددها الصادر بتاريخ 14-10-2006، بعنوان «كيف هزم حزب الله إسرائيل»، أعدّت عن حرب إسرائيل على لبنان في تموز- آب من العام 2006؛ إلى أنّ بحوزة حزب الله قدرات ذات كفاءة عالية للتنصت في مجال الإشارات اللاسلكية والاعتراض ومكافحة التجسّس. ما جعله قادراً طوال مدّة الحرب على التنبؤ الصحيح بالزمان والمكان الذين ستهاجم فيهما المقاتلات والقاذفات الإسرائيلية. وكان لهذا أيضاً بالغ الأثر على الحرب البرية من خلال اعتراض وقراءة التحركات الإسرائيلية المتوقعة. والحال، امتلك حزب الله تقنيات مضادة للتقنيات الإسرائيلية الفائقة التطوّر والقائمة على نظام بالغ التعقيد يسمّى «القفز بالتردّد»، أي التحوّل المستمرّ من تردّد إلى آخر ضمن تقنية معقدة لمنع التنصت على المحادثات. كما أتقن القدرة على التجسّس على الإشارات بنحو مكنه من اعتراض الاتصالات الأرضية بين القادة العسكريين الإسرائيليين، وسهّل عليه التنصت الهاتفي على مكالمات الجنود، وفق ما صير إلى كشفه من قبل وحدة من لواء النخبة «غولاني»، عندما عثرت في قرية مارون الراس الحدودية خلال الحرب المذكورة، ومن طريق المصادفة على مركز للتنصت غاية في التعقيد. كانت المعدات التي صير إلى الكشف عنها مفاجئة بلحاظ نوعيتها وتطورها. ما أتاح لحزب الله التنصت على الجيش الإسرائيلي بمعدل أربع وعشرين ساعة يومياً، لا على شبكات الاتصال وهواتف الوحدات في الحدود الشمالية وحسب، بل على القوات التي عملت في المناطق أيضاً. فالأحاديث التي تمّ التداول بها ولو همساً على مسافة مئات الكيلومترات التقطت هناك وسُجّلت. كان بحوزة حزب الله ملفات مفصلة عن المنطقة وعن قادة الجيش الإسرائيلي. وفي قبالة ذلك، أنشأ الحزب جهاز اتصالات خاص به بعيداً من شبكات الاتصالات العائدة للدولة اللبنانية، كما من الرقابة الإسرائيلية. ما دفع بقيادة الجيش الإسرائيلي إلى تبني قرار برفع حجم ميزانية شعبة الاستخبارات العسكرية في الجيش، في محاولة للتغلب على التقنية المتقدّمة التي بحوزة حزب الله. وذلك بعدما نقل عن غير مصدر إسرائيلي قوله باستحالة «التنصت على حزب الله بالأكلاف نفسها التي يتكبّدها للتنصت علينا، فالمطلوب هنا تحويل جدي كبير».

(183) نقدم في هذا الصدد مثالاً على قيام ما أطلقت عليه صحيفة «تايم أون لاين» البريطانية تسمية «الهاكرز» المؤيدين لحركة حماس بإغلاق مئات المواقع الإسرائيلية الإلكترونية، وذلك خلال عملية «الرصاص المسكوب» التي شنتها اسرائيل على قطاع غزة في شهر كانون الأول من العام 2008. وذكرت الصحيفة أنّ زهاء ثلاثمئة موقع إسرائيلي اطيح بها بالكامل من الشبكة الإكترونية. وفي قبالة ذلك، أقدم الجيش الإسرائيلي على اختراق موجة البث الخاصة بإذاعتي «الأقصى» و«القدس» المحليتين، ليذيع عبر أثيريهما بيانات موجّهة تنال من عزيمة المواطنين، وتؤثر على معنوياتهم.

(184) نعرض على سبيل المثال لحادثة المدير الإداري السابق لصندوق النقد الدولي «دومينيك ستراوس– كان»، الذي صير إلى اتهامه بجريمة الاعتداء الجنسي على المدعوة نفيساتو ديالو. والأخيرة هي عاملة تنظيف من التابعية الغينية تعمل في فندق «سوفيتيل» في وسط العاصمة الأميركية نيويورك. وذلك على خلفية إصرار «ستراوس-كان»، على خوض غمار الانتخابات الرئاسية الفرنسية في مواجهة الرئيس الحالي نيكولا ساركوزي المدعوم أميركياً. وفي التفاصيل:

أنّ عناصر من الشرطة الأميركية أقدمت في الرابع عشر من شهر أيار من العام 2011، على إنزال «ستراوس– كان» من على متن رحلة لشركة الخطوط الجوية الفرنسية (اير فرانس) خلال توجّهها إلى باريس، وذلك قبل دقائق من مغادرتها مطار جون كنيدي في نيويورك. وكانت عملية الاعتقال وكيفية سوق المتهم إلى السجن قد أثارت تسؤلات مريبة وكبيرة، حول إن كان ما جرى على دخالة في التجاذبات الحاصلة بموضوعة الانتخابات الفرنسية. لاسيما وأنّ الاعتقال صير إلى تنفيذه على نحو من السرعة الملحوظة وغير المسبوقة، ودونما انتظار لنتائج التحقيق، أو لما قد تتكشف عنه أدلته ومجرياته. إلا أنّ مسارعة المدعي العام النيويوركي سيروس فانس، إلى تسريب أنباء الخديعة التي أوقع فيها عند تبنيه لقضية نفيساتو؛ أدّى إلى انكشاف الجانب المظلم لملاك فندق «سوفيتيل» التي صير إلى تقديمها بوصفها ضحية، وأدّى إلى الكشف عن التحويلات النقدية التي ترحّلت الى حسابها المصرفي، حيث ظهر تقاضيها لمبلغ مالي بقيمة مئة الف دولار كثمن لتورّطها في مؤامرة مدبرة لإقصاء «ستراوس- كان» عن الإليزيه، وإخراجه من السباق الرئاسي.

(185) تكثر ابداعات الحرب النفسية، وتتعدّد وجوهها على نحو يصبح من العسير تقعيدها أو تقنينها ضمن أطر محدّدة. يحضرنا هنا على سبيل المثال والاستدلال، كيف أفاد الجيش الإسرائيلي خلال اجتياحه للبنان في العام 1982 فيما سمّي بعملية «سلامة الجليل»، من بعض المواطنين المصابين بإعاقات عقلية (الجنون) من الذين يحظون بمعرفة واسعة في أوساطهم الاجتماعية، لضرب معنويات اللبنانيين والفلسطينيين، وإصابتهم بحالة من الانهزام والضعف والإحباط واختلال الثقة بقدراتهم، في قبالة قدرات الاستخبارات الإسرائيلية. وفي تفاصيل الأمر: كان الجيش الإسرائيلي يُصعد في بعض آلياته العسكرية المكشوفة والمخصّصة عادة لأفراد ضباط الجيش، أحد المواطنين اللبنانيين والفلسطينيين المشهورين بالإصابة بالجنون والاضطرابات العقلية، للقيام بدوريات سيّارة أمام جمهرة الناس في محاولة لإيهامهم، أنه لم يكن مريضا عقلياً؛ وإنما كان يدّعي ذلك إدعاء كجزء من عمله الأمني والتجسّسي مع الاستخبارات الإسرائيلية، وذلك بالتزامن مع بثّ شائعات انه ضابط برتبة عالية، قبل أن يصار لاحقاً إلى قتله وإخفاء جثته، كي لا يتم افتضاح الأمر.

وفي سياق مماثل، كانت الاستخبارات الإسرائيلية تقحم بعض ضباطها- وأمام أعين المواطنين اللبنانيين أو الفلسطينيين- في زيارات نهارية تنظم داخل القرى أو المدن اللبنانية المحتلة، لعلماء دين أجلاء، أو مخاتير ورؤساء بلدية، أو فعاليات اجتماعية مشهود لها بالمصداقية والسمعة الحسنة...، لإيهام سائر المواطنين أنّ هؤلاء يستقبلون الإسرائيلي، ويرحبون به، ويتعاملون معه. وبالتالي لا يشعر لاحقاً أي مواطن عادي بالتحرّج إذا ما طلب منه التعاون وتقديم المعلومات عن أبناء جلدته. بما يعني، أنّ هذا الأخير يستمدّ شرعية عمله الخياني مع العدو من هذا المظهر المفبرك الذي هندسته بعناية الاستخبارات الإسرائيلية .

(186) شيلفورد بيدويل، الحرب الحديثة، دراسة تحليلية للرجال والأسلحة والنظريات؛ ترجمة مصطفى درويش، ط1، بيروت: المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، 1985، ص 73.

(187) يوسف نصر الله، تداعي الاسطورة، مقاربات نقدية لمشهدية الحرب السادسة، ط1، بيروت: دار الفاربي، 2011، ص 137.

(188) يوسف نصر الله، م. ن. ، ص 137.

(189) يوسف نصر الله، م. ن.، ص 138 .

(190) يحضرنا هنا كيف أفاد الجنرال ايزنهاور خلال الحرب العالمية الثانية من تناهي المعارك لغير مصلحة دول المحور؛ فكعف على صياغة المنشور الآتي: «هذا جواز مرور شرعي يتيح لحامله أيا كانت جنسيته المرور في خطوط الحلفاء، ويعطيه الحق في الأمن، وكل ما يفعله هو أن يبرزه لمن يطلب منه ذلك». وأمر ايزنهاور بإلقاء المنشور فوق معسكرات الجنود الإيطاليين والألمان في شمال إفريقيا. وذلك بعد أن وقف على الحالة النفسية لهؤلاء الجنود، حيث تكشّف الأمر عن انخفاض مرضي ملحوظ وحادّ في الروح المعنوية، على نحو يجعلهم أكثر تقبلاً واستجابة لأساليب الحرب النفسية، فتحدث عندئذ هذه الأخيرة أثرها المنشود والمأمول. وكان هذا المنشور قد راعى شروط السلامة والأمان، حيث صير إلى إعداده بحجم صغير كي يتمكن حامله من إخفائه، كما طُبع على ورق مقوّى حتى يستطيع أن يحتفظ به أطول قدر ممكن من الزمن. ويذكر التاريخ أنه بعد إلقاء المنشور بمدة زمنية وجيزة، تقاطر إلى معسكرات الحلفاء عدد من الجنود الألمان والإيطاليين لتسليم أنفسهم.

(191) بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان في الخامس من حزيران من العام 1982؛ نفذ الجيش الإسرائيلي مكرهاً- بفعل عمليات المقاومة- سلسلة انسحابات، بدأت من ضواحي بيروت ومنطقة الشوف في شهر أيلول/ سبتمبر من العام 1983، ليليه انسحاب آخر من منطقتي صيدا والزهراني في شهر شباط/ فبراير من العام 1985، ثم انسحاب ثالث من البقاع وجبل الباروك وجزين والنبطية وصور، كما مناطق أخرى من القطاعين الشرقي والأوسط، وذلك في شهر نيسان/ إبريل من العام 1985. ليبقي على ما أطلق عليه تسمية «الحزام الأمني»: شغل الأخير في البداية مساحة 850 كلم، أي 8 % من مساحة الأراضي اللبنانية، حيث ضم 85 مدينة وبلدة وقرية ومزرعة في أقضية مرجعيون والنبطية وحاصبيا وبنت جبيل وصور. وذلك قبل أن تضيف إليه الحكومة الإسرائيلية منطقة جزين حتى كفر فالوس، ليستوي بذلك على مساحة 1100 كلم، أي ما يعادل10 % من مساحة لبنان. اتصل «الحزام الأمني» الذي بلغ طوله 79 كلم، وتراوح عرضه بين (7) و(17) كلم، بالكيان الإسرائيلي الغاصب من خلال بوابات عبور: رأس الناقورة، وبيرانيت، والمطلة، وعدد آخر من البوابات الفرعية. كما اتصل بالداخل الللبناني عبر بوابات البياضة وبيت ياحون، وكفرتبنيت، وزمريا، وكفر فالوس، وباتر ...

(192) في العاشر من شهر آذار/مارس من العام 1976، شرعت إسرائيل بتقديم مساعدات تسليحية وتدريبية، فضلاً عن التمويل، لمجموعات مسيحية تضم في الأعمّ الأغلب، جنوداً وضباطاً أنشقوا عن الجيش اللبناني في منطقة الجنوب. وكانت هذه المجموعات تخضع لإمرة كل من الرائد سامي الشدياق والرائد سعد حداد. وقد تسمّت ابتداء باسم قرى المنشأ؛ نحو: تجمّع عسكريي القليعة، تجمّع عسكريي رميش...، وتمركزت في المناطق الحدودية المتاخمة للكيان الإسرائيلي الغاصب لفلسطين، واستولت على أسلحة صادرتها من الجيش اللبناني، بعد أن أقدمت على احتلال بعض ثكنه العسكرية. وفي الثالث عشر من شهر حزيران/ يونيو من العام 1978، تولى الرائد سعد حداد مسؤولية «الحزام الأمني» الذي أنشأته إسرائيل، كما مسؤولية المجموعات المسلحة فيه، وذلك بعد أن انفصل عنه الرائد سامي الشدياق وانضم الى القوات اللبنانية بقيادة بشير الجميل، ليعلن- أي حداد- في السابع عشر من شهر أيار/ مايو من العام 1980، دمج القوات المسلحة في ما أطلقَ عليه «جيش لبنان الحر». وبعد وفاة حداد في الخامس عشر من شهر كانون الثاني/ يناير

من العام 1984؛ أوكلت إسرائيل أمر الحزام الأمني إلى اللواء المتقاعد في الجيش اللبناني انطوان لحد، الذي تولى قيادة «جيش لبنان الحر» في شهر نيسان/ ابريل من العام 1984، مطلقا عليه اسم «جيش لبنان الجنوبي».

(193) كان الامين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله، قد عكف في غير مناسبة على إطلاق التهديدات وبثّ الرسائل النفسية التي استهدفت أفراد ميليشيا لحد المتعاملة مع العدو الإسرائيلي، لاسيما في الأشهر السابقة على الانسحاب القهري من لبنان في الخامس والعشرين من شهر أيار من العام 2000 . ما كان له بالغ الأثر على روحهم المعنوية والقتالية، وتأدّى بالتالي إلى إصابتهم بانهيار إدراكي. أنظر على سبيل المثال خطب السيد نصرالله في شهر محرم الحرام من العام 2000.

(194) الفكر الإستراتيجي العربي، السنة الخامسة، بيروت: معهد الإنماء العربي، العددان 17-18، تموز/ يوليو - تشرين الأول/ أكتوبر، 1986، ص 55.

(195) يذكر باتريك سيل كيف نجحت إسرائيل من خلال أخذها بضروب الحرب النفسية في تهيئة الرأي العام، على نحو أصبح يبرّر حروبها ويشرعن اعتداءاتها: «كانت حرب إسرائيل النفسية في موضوع الإرهاب المضاد» يقول باتريك سيل «قد هيأت الرأي العام الغربي لتقبل معاقبة الأسد كما فعلت من قبل بالنسبة لعرفات والقذافي» .. ما جعلها تلقى «قبولاً واسعاً لوجهة نظرها في الصراع العربي الإسرائيلي، فعنف خصومها كان يسمّى إرهاباً. أمّا عنفها هي فيسمّى دفاعاً عن النفس» . أنظر: باتريك سيل، الأسد: الصراع على الشرق الأوسط، لا.ط، بيروت: المؤسّسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع، العام 1988، ص 765، 767.

(196) كان القسّ الأميركي تيري جونز في العشرين من شهر مارس/ آذار من العام 2011، ومن داخل كنيسته الكائنة في مدينة جيترفيل بولاية فلوريدا؛ قد أقدم- في خطوة استفزازية نقلت على الأثير إلى أربع جهات الأرض- على إجراء محاكمة تمثيلية للقرآن الكريم. وقد انتهت المحاكمة إلى إصدار حكم بتجريمه وإحراقه.

(197) لقد دشن الغرب الأوروبي بعنوان صيانة حرية التعبير، حرباً دعائية ناعمة؛ قوامها رسوم مسيئة تطاولت على مقام النبي محمد (ص)، وأساءت إليه، وأهانته. كانت شرارتها الأولى الرسوم الدانمركية ذات الصلة، التي تولى رئيس الوزراء الدانمركي الدفاع عنها حينئذ ومنحها المشروعية. قبل أن تتبعها رسوم مماثلة من دول وعواصم أخرى، على نحو ما أقدمت عليه أخيراً مجلة (شارلي إيبدو Charlie Hebdo) الفرنسية الأسبوعية الساخرة، حين أعلنت عن استضافتها للرسول (ص) رئيساً لتحرير عددها الصادر في الثاني من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2011، وذلك لمناسبة فوز حركة النهضة الإسلامية في انتخابات تونس، مانحة غلافها لرسم كاريكاتوري يمثل النبي (ص) وهو يقول: «مئة جلدة إن لم تموتوا من الضحك»، وافتتاحية متخيلة تحمل توقيع الرسول (ص)، إضافة إلى قصة بعنوان (مشروب حلال)، وسوى ذلك من ممارسات بغيضة تنمّ عن شوفينية مقيتة وبغض وكيدية، لا عن حرية تعبير.

وإلى جانب الرسوم المسيئة، صدرت بيانات ومنشورات مغرضة عن شخصيات إنجيلية أميركية تجرأت على النبي (ص)، ووصفته بأسوأ مما وصفته به الرسوم الكاريكاتورية، على النحو الذي صدر عن القساوسة: جيري فولويل، وبات روبرتسون، وفرانكلين غراهام. حتى أن البابا

بنديكتوس السادس عشر أدلى هو الآخر بسلسلة مواقف اعتبر فيها الإسلام ديانة تحضّ على العنف. هذا فضلاً عن تنظيم وإطلاق حملة واسعة من التصريحات والمواقف المعادية للإسلام والمندّدة به، على نحو ما أطلقه القيادي الهولندي والنائب اليميني جيرت فيلدر، الذي قاد الوجهة الداعية لتوحيد جهود اليمين الأوروبي المطالبة بإخلاء أوروبا من المسلمين. وفي سياق متصل، صير إلى إنتاج لعبة على الانترنت باسم «وداعا للمسجد»، يلهو بها الأطفال، وفيها يهدم اللاعبون مساجد ومآذن، ويتخلصون من مؤذّن ملتح يحثّ المسلمين على الصلاة.

(198) تحرص وسائل الدعاية الغربية والأميركية منها بخاصة بالتعاون مع مثيلتها الصهيونية على تقديم جانب مظلم وسوداوي مفترض للشخصية العربية، وعلى تظهير وجه سلبي مقيت لها. وذلك لغرض توهين الإنسان العربي، واستتباعه، واستلابه، وتشريره، وتجريمه، وإلغاء هويته، وإفساد ذاكرته، والإضرار بوعيه، وتفريغه من خصوصيته التاريخية والثقافية. لاسيما إذا قدّر لهذه الأدوات- وفق ما تشير إليه آخر الإحصائيات الحديثة- أن تضع يدها على 80 % من التدفق الإعلامي والمعلوماتي الصادر عن وسائل الإعلام في السوق العالمي، وأن تخضعه لسيطرتها وتوجيهها. والحال، بدت صورة العربي مهمّشة، ممزقة، متفلتة، مشوّهة، وحشية، عدوانية، مجنونة، حيوانية، غرائزية، شيطانية، إرهابية، متعطشة للدم، غيبية فقدت توازنها الذهني والعقلي، متخلفة، جاهلة، تحركها الشهوات وتتناهبها النزوات، حاقدة تسعى إلى الإضرار بالحضارة الحديثة، ديكتاتورية، متسلطة، تصادر الفكر، وتمنع الرأي الآخر، وترفض الحوار والنقاش...ما يعني أنّ صورة الإنسان العربي كما ترسّمتها ريشة الإعلام الغربي المغرض؛ هي من طبيعة سيميائية، تعلن عن نفسها في تفاصيل مكوّنات صوته، ولحيته، وشاربيه، وقامته، وقسمات وجهه، وردائه الملفوف على جسده المترهل، وأمامه طاولة من خمر ونساء.

(199) لقد تفشت ظاهرة الإسلامفوبيا على نحو مهول في عموم الغرب الأوروبي والأمريكي. يشير استطلاع للرأي صير إلى تنظيمه في مطلع شهر أيلول من العام 2010، إلى أنّ أكثر من 60 % من الأميركيين يعارضون بناء «مركز قرطبة» في موقعه الحالي، وهو الذي قيل عنه إنه مسجد أريد له أن يُبنى بالقرب من موقع البرجين اللذين تمّ تفجيرهما في هجمات الحادي عشر من شهر سبتمبر/ أيلول من العام 2001، ما أثار حفيظة الأميركيين وغضبهم، واستفزّ مشاعرهم. كما أنّ 10 % من الأميركيين عارضوا مبدأ بناء المساجد في أميركا، وعبّر 50 % من المستطلعين عن نظرتهم السلبية إلى الإسلام، في حين ذهب 33 % إلى أنّ الإسلام يشجّع على العنف ضد غير المسلمين. وهذه النسب- إذا ما صير إلى مقارنتها ومقايستها باستطلاعات سابقة- تعادل ضعف الذين تبنوا الآراء ذاتها قبل ثماني سنوات. الأمر الذي يؤشر إلى تنامي دوافع الربط بين الإسلام والعنف.

وتشير استطلاعات مماثلة ومتزامنة، أجراها معهد «ديماب» في ألمانيا، إلى تزايد مؤشرات الخوف من الإسلام والمسلمين، حيث شفّت النتائج عن أنّ 70 % من الألمان يستشعرون ذلك القلق. وتفشت هذه العدوى المرضية في سائر القارة الأوروبية، حيث أخذ التخويف من أسلمة القارة وتحوّلها إلى أورابيا (نحت اصطلاحي لأوروبا العربية) منحى بالغ الخطورة؛ فقد قاد الحزب اليمني في سويسرا حملة واسعة لحظر مآذن المساجد، ونظمت فرنسا حملة مماثلة لحظر الحجاب والنقاب...

(200) لطالما أخذ الجيش الإسرائيلي في حروبه وعملياته العسكرية خلال اجتياحاته واحتلالاته المتعدّدة لأراضي غير دولة عربية، بتوجيه الإنذارات المسبقة لغرض إرعاب المواطنين وترهيبهم، وقتل الروح المعنوية لدى من أراد المواجهة والمقاومة منهم ... ما كان يتأدّى إلى حركة نزوح وإخلاء واسعة من شأنها أن تسهّل على الإسرائيلي احتلال المدن والقرى. وفي ذلك إيحاء بأخلاقية العملية العسكرية بوصفها لا تستهدف المدنيين، ولا تفاجئهم على حين غرة، بل إنّها تعلمهم على نحو مسبق، وتترك المجال لهم لتجنب خطر الموت والهلاك.

وكان حزب الله بدوره قد أخذ بسياسة توجيه الإنذار المسبق خلال قصفه الصاروخي للمستعمرات الصهيونية، حيث كان يحدّد، على نحو قبلي، وبلغة عبرية واضحة، أسماء المستعمرات والتجمّعات التي سيصار إلى قصفها. ما كان يتأدّى إلى حركة نزوح واسعة تتسبّب بإرباكات واحراجات داخلية للحكومة الإسرائيلية، فضلاً عن أنّها تصيب مصداقية الجيش الإسرائيلي بمقتل.

(201) بمقدور وسائط الإعلام على اختلافها أن تقدّم لجمهور المتلقين صوراً خاطئة ومغلوطة عن بعض القضايا التي تقاربها، كأن تظهر- على خلاف الحقيقة والواقع- مجتمعاً بنحو عنفي، وآخر محباً للعدالة والسلام، وثالثاً يصار إلى تظهيره غارقاً في الترف والرخاء... وآية ذلك الكيفية التي قارب ويقارب بها الإعلام الغربي صورة الإسلام فيما يمكن الاصطلاح عليه بـ(فوبيا الإسلام)، أو الإسلامفوبيا. كما الكيفية التي صير فيها إلى تقديم ومقاربة القضية الفلسطينية، والصراع العربي-الإسرائيلي، وصور المقاومات والحركات التحرّرية العربية: حزب الله، حماس، الجهاد الإسلامي، وسائر فصائل المقاومة للمشروع الأميركي- الإسرائيلي في منطقة الشرق الأوسط. ما يستوجب على متلقي الرسالة أن لا يكون متلقياً سلبياً، ولا متلقياً انفعالياً؛ بل عليه إعمال العقل، والنظر بعين المنطق والفحص والتمحيص والتدقيق قبل القبول أو عدمه.

(202) وظفت الولايات المتحدة الأميركية هذه الوسيلة في إطار حروبها النفسية في غير بقعة من العالم؛ كالنحو الذي نقع عليه في رعايتها لبثّ برامج باللغة الشيشانية على موجات إذاعة أوروبا الحرّة لغرض استفزاز روسيا.

(203) في عملية سلامة الجليل التي تمكنت من خلالها إسرائيل في العام 1982 من اجتياح لبنان وصولاً إلى بيروت، شغلت مكبّرات الصوت إحدى أدوات الحرب النفسية؛ فقد حملت طائرات الهيلوكبتر الإسرائيلية مكبّرات صوت تبثّ أصواتاً مضخمة للدبابات والطائرات، وذلك لغرض دبّ الذعر والخوف والهلع في صفوف المقاتلين، وتيئيسهم، ودفعهم إلى الإحباط من خلال تضليلهم، وإيهامهم بعدم إمكانية الصمود، وبأنّ الهزيمة محققة لا محال.

(204) إنّ الكاسيت- بعدما صير إلى إطلاقه من قبل الشركة الهولندية فيليبس في مطلع العقد السابع من القرن العشرين مؤذنة ببدء طفرة جديدة في مجال التسجيل والاستماع- تحوّل إلى أداة تواصل عصرية فاعلة شاقاً طريقه إلى ركن كلّ بيت، وتمكن من إحداث ثورة في العمل السياسي. كان له دور بارز في انتصار الثورة الإسلامية في إيران في الحادي عشر من شهر فبراير/ شباط من العام 1979؛ فقد سُجّل للأمام الخميني(قدس) الإفادة منه على نحو موجب، إذ توسّل به خلال تواجده القسري في العراق، كما خلال إقامته في منفاه الباريسي لتأمين التواصل مع كوادر الثورة وجمهورها. شكل الكاسيت الأداة الأكثر نفعاً في نقل نداءات الأمام إلى الشعب الإيراني، حيث كانت بواسطته تصل إرشاداته وتوجيهاته ونصائحه، وتعمّم خطبه ومواقفه... حتى يحلو لبعض

الباحثين أن يطلق على الثورة الإسلامية في إيران تسمية «ثورة الكاسيت»، كتدليل على دور هذه التقانة فيها. هذا فضلاً عن فوائد جمّة توافر عليها الكاسيت، فأثارت دوافع مباشرة لتوسّل استخدامه؛ فأولاً يكتفي ناقله بتهريب نسخة واحدة منه، ثم تقوم لاحقاً أجهزة النسخ ذات الصلة بالبقية. وثانياً يستطيع الشريط أن يخاطب جمهرة غفيرة من المواطنين الأميين وغير المتعلمين. وثالثاً إنّ الشريط بريء المظهر على عكس الصحف والكتب التي تفضح حاملها. ينضاف إلى ذلك جملة من المميزات الفارقة– وفقاً لمقاييس السبعينيات من القرن العشرين– لعل أبرزها: سهولة حمله، ومتانته النسبية، ورخص ثمنه. وذلك قبل أن يتعرّض من قبل الأسطوانة الرقمية المضغوطة (سي.دي) لمنافسة شديدة تسببت بإزاحته عن عرشه ومكانته. ويذكر أنّ زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن، والرئيس العراقي المخلوع صدام حسين، قد أخذا- خلال مرحلة التواري والتخفي والاختباء عن أعين أجهزة المخابرات الأميركية والغربية- بتقنية الكاسيت كوسيلة لإبلاغ رسائلهما إلى الإعلام.

(205) تؤدي الأزياء دوراً مؤثراً في وعي المتلقين؛ فقد شكل توظيفها- غير مرة- كمؤثر نفسي مع ما يصاحب ذلك من حركات حسية وإيمائية معبّرة، أداة فاعلة ونشطة في اجتذاب الناس، واستمالتهم، واستقطابهم، كما في استدرار انفعالاتهم، وتحشيدهم، ونيل إعجابهم... وقد برع على هذا الصعيد خبراء ومختصون وعارفون عكفوا على العناية بإكساب غير رئيس وقائد وزعيم مهارات وقدرات ذات صلة. بالمقدور هنا الاستدلال بالكيفية التي خلع بها الرئيس الأميركي باراك أوباما سترته في الرابع عشر من شهر اكتوبر– تشرين الأول من العام 2008، بعد وصوله إلى مدينة سوانتون في ولاية أهايو، وأمام حشد من المؤيدين خلال حفل انتخابي قاده إلى البيت الأبيض في الانتخابات الرئاسية في العشرين من شهر يناير– كانون الثاني من العام 2009؛ كانت هذه الحركة الكرنفالية مصحوبة بأمارات موحية معبّرة ارتسمت على وجهه، وإشارات أفصحت عنها يداه لتدلّ مجتمعة على معنى التحدّي والعنجهية والعنفوان. الأمر الذي أثار اندفاعة الجمهور المحتشد، وولد لديه ردات فعل حماسية وهياج انفعالي مفارق. وعلى هدي أوباما سار نائبه جون بايدن في احتفال مماثل، فخلع هو الآخر سترته في مشهدية تبعث على تحدّي الخصوم. وفي نسخة مكرّرة على نحو ممجوج، أقدم النائب اللبناني سعد الحريري في الثالث عشر من شهر آذار من العام 2011، وأمام حشد جماهيري، على نزع سترته وربطة عنقه في ما يشبه عروض الأزياء الاحتفالية، كما شمّر عن ساعديه، معلنا بدء مرحلة تحدّي سلاح المقاومة اللبنانية.

(206) لطالما وُظف التلفاز- بوصفه الأداة الإعلامية الأوسع انتشاراً والأكثر تأثيراً- في مجال الدعاية والحرب النفسية. ولنا كبير برهان ودليل في ما أقدمت عليه قناة الجزيرة القطرية حيال ما صير إلى تظهيره حراكاً شعبياً سورياً، وهو في حقيقته ليس إلا تدبيراً خارجياً بعناوين إصلاحية، يُراد به إسقاط النظام القائم، أو احتواؤه، أو إجراء تعديل في سلوكياته. فقد توسّلت الجزيرة منذ شهر نيسان من العام 2011، سياسة إعلامية معادية ومكشوفة على نحو سافر ضد النظام السوري، ومارست دوراً في تصعيد الموقف السياسي بوجه الرئيس بشار الأسد: خصّصت شاشتها ونشراتها الإخبارية وبرامجها الحوارية للحدث السوري فلم ينافسه حدث آخر. جعلت أثيرها منصة لرموز المعارضة يطلقون من خلاله حملاتهم الممنهجة لاستهداف النظام. نشرت تقارير يصار فيها إلى تضخيم أعداد المتظاهرين، كما أعداد الضحايا من المدنيين. أظهرت النظام السوري على هيئة نظام يواجه غالبية شعبية تريد إلغاءه، وتسعى إلى إسقاطه. أثارت الفرقة المذهبية بين

المواطنين، وحرضتهم على النزول إلى الشوارع، ودفعتهم إلى العصيان والتمرّد. أبرزت الشأن السوري بنحو يظهر النظام وكأنه فقد السيطرة على الشارع وأنّ التظاهرات باتت على مقربة من القصر الرئاسي في العاصمة دمشق. استقبلت اتصالات ومكالمات هاتفية لما بات يعرف بـ «شهود عيان»، حيث يعكف هؤلاء المجهولو الهوية- الذين يتحدثون بالصوت دون الصورة- على نقل مشاهد مغرضة لتظاهرات، ولرجال أمن يطلقون الرصاص على المحتجين العزل، دونما وجود ما يثبت أنّ اتصالاتهم ومكالماتهم جارية من داخل سوريا، وفبركت ومنتجت في سبيل ذلك العديد من الأفلام والمشاهد والوثائق...

ونظراً لأهمية الدور الذي اضطلعت به الجزيرة على صعيد ما يصطلح عليه بـ(الثورات العربية)، فقد قيل توصيفاً (إنّ بمقدور قناة الجزيرة أن تسقط أنظمة، وأن تقيم وتحفظ أخرى)، حتى بات بعض الرسميات والحكام العرب يحابونها، ويتجنبون معاداتها.

وكانت إسرائيل قد التفت مؤخراً إلى تأثير التلفزة، وأهمية تفعيلها كأداة؛ فعكفت على تطوير صناعتها التلفزيونية لغرض توثيق علاقتها بالمجتمع الأميركي، والترويج لثقافتها العبرية هناك. هذا ما أشارت إليه صحيفة (لوس انجلس تايمز) الأميركية في كانون الأول من العام 2011، حيث تقول: «في أحدث مساعيها، بدا وكأن إسرائيل تجتاح منازل الأميركيين انطلاقاً من شاشاتهم الصغيرة، مستعينة بشبكة منتجين تلفزيونيين لإنتاج مسلسلات عبرية صير إلى تكييفها لتلائم أذواق الأميركيين»؛ نحو مسلسل (هاتوفيم)، الذي أصبح مسلسلاً أميركياً يحمل عنوان (هوملاند) أو (الوطن) ، وسوى ذلك من مسلسلات. وتنقل الصحيفة أن الأميركيين استساغوا (الطبق العبري).

(207) لطالما شكلت هوليوود أداة فاعلة من أدوات قوة أميركا الناعمة، وأدّت دوراً مائزاً في تظهير وجه أميركا الحضاري وفي تقديم صورة إيجابية لها، كما في التأثير بوعي الآخرين من الخصوم والحلفاء على حدّ سواء. وفي هذا السياق، يقول المفكر الأميركي جوزيف ناي: «لا يمكننا أبداً التقليل من تأثير هوليوود، فالصور كثيراً ما تنقل القيم بصورة أقوى مما تفعل الكلمات، وهوليوود هي أكبر مروّج ومصدّر للرموز البصرية». ويتعرّض ناي لذكر مكتب الخدمات الإستراتيجية في الولايات المتحدة، بوصفه يعنى «بنشر المعلومات المضللة... كما في تشكيل منتجات هوليوود لتصبح أدوات دعاية فاعلة، وفي اقتراح إضافة أشياء، وحرمان أفلام أخرى من الرخصة». أنظر: جوزيف أس.ناي، القوة الناعمة: وسيلة النجاح في السياسة الدولية؛ ترجمة محمد البجيري، ط1، مكتبة العبيكان ، 2004، ص82، 153.

(208) شهد العصر متغيرات عديدة وجوهرية وسريعة في عالمي الإعلام والاتصالات، وكان لهذه المتغيّرات آثارها ومفاعيلها وانعكاساتها المستقبلية، ولعلّ بروز الهاتف النقال يندرج في صدارة تلك المتغيّرات، بوصفه أهم وسائل مرتكز اختزال الجغرافيا وذوبان الحدود الذي استوت عليه العولمة واستقامت، كما باعتباره أهم وسائل انتقال المعلومة والخبر، بحيث صار بمقدور كلّ فرد أن يكون مصدراً للأخبار أو ناقلاً لها ومراسلاً، وذلك بعد أن كانت وكالات الأنباء تشكل المصادر الوثيقة والوحيدة للمعلومات، التي كانت حصرا بيد الحكومات تسيطر عليها، أو بالأقلّ تهيمن هذه الأخيرة على شكل الخبر وصياغته وفقاً لما تقتضيه مصالحها وأهدافها. فلم يكن مع الهاتف النقال ثمة أدوار مستورة وغير مرئية؛ بل أصبح كل شيء بيناً شفيفاً، طالما أنّ عدسة الموبايل قادرة- خلال ثوان معدودات- على تسجيلها وبثها عبر الانترنت إلى عموم أرجاء الكرة الأرضية.

وكانت تكنولوجيا الاتصالات الإسرائيلية، قد استحدثت برامج عديدة يتزوّد بها الهاتف المحمول؛ نحو: (جاجاه)، و(فرينغ)، و(سبيكو)، و(آي سكوت)، وكان آخرها برنامج (فايبر)، وغيرها من البرامج التي يجري تحميلها على الهواتف والأجهزة المحمولة، ويمكن من خلالها تعقب الاتصالات والرسائل النصية، ومتابعتها، والتجسّس عليها. وفايبر، هو برنامج اتصالات يجري تنزيله من شبكة الانترنت، يتيح المكالمات المجانية، ويمكن تحميله على هاتفي (آي فون)، و(بلاكبيري) بشكل رئيس، وكذلك على أجهزة الـ(آي باد)، وعموم الأجهزة التي تعمل بنظام التشغيل (اندرويد). وطالما أنّ (فايبر) موجود على الهاتف المحمول؛ فهو يتيح إجراء عمليات الاتصال الصوتي المحلي والدولي، بين مستخدمي الأجهزة التي يعمل عليها مباشرة، وذلك من خلال التعرّف على عناوين الهواتف التي تستخدم برنامج الاتصال نفسه، وبالتالي يساعد على استمرار عمليات التجسّس والتنصّت والتعقب.

(209) تتجه إسرائيل إلى تثمير العمل بالانترنت وتفعيل الإفادة منه في إطار الحرب النفسية؛ فقد اقترح الدكتور رون شلايفر– وهو من كبار الخبراء والعارفين بشؤون الحرب النفسية– استحداث موقع على الانترنت يصار فيه إلى التوليف والتأليف والتهجين بكيفية جاذبة بين رسائل الحرب النفسية وتحيات من أسرى فلسطينيين سجناء في إسرائيل إلى أقربائهم: «سيكون لهذا انتشار إعلامي واسع» يقول شلايفر- وفق ما أوردته صحيفة معاريف الإسرائيلية من تحقيق للباحثين يوني شدمي وباراك ربيد بعنوان (الحرب النفسية وسلب العقول)– إذ سيتدافع إلى الموقع «ما لا يقل عن خمسين ألف زائر في اليوم».

(210) إنّ انفجار ثورة النيوميديا تأدّى بنحو كبير، إلى كسر احتكار الأنظمة السياسية للصورة واللقطة المعبّرة والمونتاج السياسي، وإلى سقوط سردية الإعلام الموجّه. كما تأدّى إلى إزاحة الفضائيات عن عرشها، بعدما كانت هذه الأخيرة قد أزاحت بدورها- قبل مدة غير بعيدة من الزمن- القنوات الأرضية عن كرسي تسيّدها. وذلك بالأقل في المناحي المعتمة التي لا تستطيع الفضائيات ووسائل الإعلام التقليدية تظليلها والوصول إليها، أو مطاردة التطوّرات والأحداث التي تحيق بها. والنيوميديا كثورة إعلامية تواصلية، غدت علامة فارقة بلحاظ عنايتها بالإعلام الفردي الذي أصبح بمقدوره أن ينشر ويحرّر ما لا تستطيع المؤسّسات الإعلامية التقليدية نشره وإعلانه من خلال توسّل تقنية التحميل بكاميرات الديجتال، وكاميرات المحمول التي تلتقط الأحداث في وقتها وحينها، مع قيمة ترجيحية مضافة تتيح لصاحب الكاميرا أن يصبح، ليس متلقياً سلبياً أو مجرد ناقل وحسب، بل يغدو مشاركاً في صناعة الحدث، ما يمنح هذا الأخير مقبولية واستحساناً ومصداقية أعلى وموثوقية أشدّ.

(211) توافر موقع يوتيوب على أهمية بالغة في السعودية؛ بحيث أصبح أحد أهم المواقع التي يتوسّلها الناشطون المعارضون للنظام الملكي هناك. فقد قدّر للمواطنين الشيعة الذين يعيشون مظلومية وحصاراً وتضييقاً خانقاً- بفعل تقانة اليوتيوب- نقل احتجاجاتهم واعتراضاتهم، التي ليس من اليسير بإطلاق رؤيتها على أية قناة فضائية؛ نحو: احتجاج البقيع، حيث تم تنزيل فيديوهات كاملة للإحتجاج على موقع اليوتيوب، أعقبها تحميل فيلم وثائقي كامل باسم «المعاناة».

وفي سياق متصل، كان القادة الإسرائيليون خلال عدوانهم على غزة في السابع والعشرين من شهر كانون الأول من العام 2008؛ قد أفادوا من الوسائط الإلكترونية الحديثة في إيصال رسائلهم لكلّ مستخدمي الإنترنت. وذلك وفقاً لصحيفة «تايم أون لاين» البريطانية في عددها الصادر آنذاك،

حيث أشارت إلى أن الجيش الإسرائيلي استحدث صفحة له على قناة اليوتيوب، وقد انضم إليها أكثر من أربعة آلاف شخص بعد يومين فقط على إنطلاق عجلة الحرب.

(212) الفيس بوك: ويعني- وفق الترجمة الحرفية إلى العربية- كتاب الوجه. صاحب هذه الفكرة الخلاقة هو مارك جوكربيرغ، عندما كان طالباً بجامعة هارفارد الأميركية في العام 2004، وذلك بغرض تسهيل التواصل بين طلبة جامعته، ثم سرعان ما تحوّل موقعه إلى واحد من أهم المواقع الاجتماعية عبر شبكة الانترنت على مستوى العالم حيث ينضم إليه مئات الملايين من الرواد حول العالم. أدّى الفيس بوك دوراً طليعياً رائداً في الثورات الحديثة، لاسيما المتأخرة منها– تونس في العام 2011، ومصر في الخامس والعشرين من شهر يناير 2011؛ كان حاضراً بنحو فاعل في كلتا الثورتين، إذ تُعدّ كل منها بحق ابنة خالصة لهذا العالم الحداثي الجديد بكل أدواته وآلياته ووسائله. وقد شغل وظيفياً ما كانت تشغله الأحزاب التقليدية على غير صعيد: بدءاً من تفعيل استقطاب الأعضاء بكيفية تصل حدّ الخرافة، مروراً بفكرة الحشد والتحشيد بوصفها أساساً فكرة نيوميدية. وإلى جانب عمليات التوعية والترشيد والتوجيه التي تضطلع بها، هناك أيضاً عمليات التنسيق والتنظيم والتخطيط وتحديد مواعيد التظاهرات والاعتصامات والتجمعات. أمّا موضوعة البيانات والمنشورات؛ فقد أخذت بدورها- بفعل ثورة التقانة- إلى التلاشي والتضاؤل والاضمحلال بعد أن صير إلى الاستعاضة عنها بوسائل نقل غاية في السرعة؛ نحو: الشات، وصفحات الإعلان عن مناسبة ما (Event Page)، والرسائل القصيرة، والفيديوهات على موقعي التويتر واليوتيوب. وانتهاء بعملية الترابط العضوي الجمعي بين الأفراد، والانتماء لمنظومة قيمية سياسية كما كان العهد مع الأدوار التي تؤديها الأحزاب؛ فقد صير إلى التعويض عنها بفكرة الأصدقاء والمجموعات (Grops)، بل إنها أخذت تنحو باتجاه خلق مساحات تواصل مع العالم الخارجي من خلال ما يؤديه الفضاء الإنترنتي الواسع بما يختزنه من مواقع افتراضية.

وإذا أردنا أن نتمثل فضيلة الفيس بوك على صعيد تثوير الشباب وتنظيمه على النحو كانت تضطلع به الأحزاب؛ فلنا في ثورة 25 يناير المصرية خير مثال: فقد أحدثت هذه التقانة انعطافة حادّة في مسيرة الصراع مع السلطة السياسية القائمة، تمثلت في انتظام الشباب في صفوف متراصّة على صفحات العالم الافتراضي على شبكة الانترنت ومواقع الفيس بوك، وليس على أرض الواقع، ولا في كواليس وأروقة الغرف المظلمة والاجتماعات السرية، بحيث كانت الثورة تعلن عن نفسها، وتكشف عن هويتها، وتتبدّى أمام العالم كله خطوة خطوة، ولحظة لحظة... وقد كان بمقدور هؤلاء الشباب الذين انضووا تحت شعارات ولافتات، وفي مواقع ومدونات صير إلى صناعتها بنحو شفيف واضح على صفحات الشبكة العنكبوتية، كموقع (شباب 6 ابريل)، وموقع (كلنا خالد سعيد)...؛ من استنهاض الناس، وتثويرهم، وتوحيدهم، وتحشيدهم، ونزع الخوف من أفئدتهم وقلوبهم، واستدراكاً إخراجهم بأعداد غفيرة إلى الشوارع في أوقات وأماكن محدّدة، ليعلنوا رفضهم للنظام السياسي القائم، على النحو الذي أصبح عليه التجمع الشعبي الكبير في ميدان التحرير وسط العاصمة المصرية، والذي دعا إليه الشباب المصري عبر الفيس بوك في الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني من العام 2011، ليقوّض مع مصاحباته أركان النظام السياسي الحاكم.

(213) شكل التويتر على حداثة عهده أداة فاعلة وظفها المعارضون الإيرانيون في تمرّدهم على النظام، بعد أن أصبح وسيلتهم الإعلامية الفضلى والمثلى للتواصل مع العالم. وبعد أن صير إلى توصيفه كمصدر رئيس للحصول على الأخبار الإيرانية الداخلية التي تُعدّ وتفبرك لخدمة أغراض

الخارج وبعض الداخل، لاسيما وأنّ مهمة تحديث هذه الفبركات والتلفيقات على نحو متدرّج وممنهج، كما هندستها وإعدادها، قد أنيطت بفريق متخصّص يُقدّم بوصفه من الرواد الهواة المستخدمين لهذه التقانة. ولهذا نرى كيف اندفعت وسائل الإعلام العربية والأجنبية ذات الاتجاهات المغرضة في تغطيتها للاضطرابات الإيرانية الداخلية المفتعلة، على الأخذ بما يبثه التويتر معتبرة أنه المصدر الموثوق للأخبار هناك؛ فقد سُجّل اقتباس شبكات إعلامية عالمية، مثل: «سي ان ان»، و«فوكس نيوز»، وصحيفة «نيويورك تايمز»... عن تويتر، باعتباره الإطار المرجعي للأخبار والمعلومات ذات العلاقة بالداخل الإيراني، في حين جعلته مجلة «تايم» الأميركية موضوع غلافها احتفالاً به وتعظيما لشأنيته في هذا المجال.

(214) لطالما شكلت المنشورات أداة رئيسة من أدوات الحرب النفسية ؛ ففي عملية سلامة الجليل في العام 1982، كما في حرب لبنان الثانية في العام 2006، (وفقاً لتسمياتها الإسرائيلية)، ألقت الطائرات الإسرائيلية آلاف المنشورات فوق لبنان، دعت فيها المقاتلين إلى الاستسلام، وعدم القتال، وإلقاء السلاح، في قبالة السلامة الشخصية، والعودة إلى الأهل والزوج والأبناء (قف وفكر، سلم تسلم)، كما طلبت من المواطنين المدنيين التعاون، والعمل على طرد المقاتلين من بينهم. وفي سياق متصل، جاء في المنشورات التي ألقتها الطائرات الإسرائيلية عشية المحاولة الجريئة التي قام بها حزب الله لأسر جنود إسرائيليين في قرية الغجر المحتلة: «من يحميكم؟ يا مواطني لبنان؟ (...) من يكذب عليكم؟ من يرسل أبناءكم إلى المعارك التي لا يستعدّون للخروج إليها بأنفسهم؟ من ذا يأمل عودة الدمار؟ من الذي يخدم أسياده السوريين والإيرانيين ؟» . ليخلص المنشور وبحروف سميكة مضخمة «حزب الله يتسبّب بضرر بالغ للبنان».

ومثل ذلك فعل الجيش الأميركي عند هجومه على بغداد في العام 2003، حيث ألقت طائراته قرابة المليون من المنشورات على هيئات مختلفة، أحدها اتخذ شكل دينار عراقي، لتسهيل إخفائه في محفظة الجيب، بعدما أشار المنشور إلى أنّ حامله سيجد ملاذاً آمناً.

وكان الجيش المصري قد توسّل هو أيضاً بالمنشورات في إطار الحرب النفسية بوصفها مؤثراً من مؤثراتها؛ فقد ألقت طائراته في حرب العام 1948 العديد من المنشورات فوق مستوطنات تقع إلى الجنوب من كئير عام وياد مردخاي، إلا أنّ ما عيب على المنشورات المصرية في حينها، وتأدّى بالتالي إلى فشل ما يتوخى منها من مفاعيل على الوعي الإسرائيلي، أنها كانت تفتقر إلى الأقلّ من المقبولية: كانت مصوغة بعدم فصاحة كبيرة، فضلاً عن اشتمالها على اقتباسات توراتية بالغة التشوّه والتشوّش.

(215) تعدّ اللافتات وسيلة من وسائل الدعاية السياسية، إذا ما صير إلى توظيفها على نحو فاعل في إطار الحرب النفسية. ولذلك نرى إلى المنظمات والجيوش كيف تتوسّلها في الأعمال ذات الصلة؛ فعندما أغلق الجيش الإسرائيلي معبري كارني ورفح على إثر عمليات عسكرية استهدفت جنوده، حرص أفراد الوحدة المختصّة بالحرب النفسية (مالات – مركز عمليات الوعي) على أن يضعوا على الأبواب الموصدة لكلا المعبرين لافتات ضخمة، اهتموا بجعلها في قبالة أعين العمال والتجار الفلسطينيين وعلى مرأى من أبصارهم، وقد كتب عليها بلغة عفوية وبخط واضح بيّن : «مغلق– بسبب حماس».

(216) يعرض العقيد شاؤول نورتال- رئيس الإدارة المدنية في الجيش الإسرائيلي إبان مرحلة إحتلال هذا الأخير لجنوب لبنان- في مقابلة حول الجدار الطيب أجراها معه حاييم رفيف، للعناية البالغة التي كانت تحظى بها وسائل وأنشطة الترفيه والإستقطاب والرحلات، وما تستبطنه من غايات وأهداف دعائية مقنعة: «إننا نبذل جهدنا» يقول نورتال «لنظهر للسكان، وخصوصاً للشبان، وجه إسرائيل الجميل. وقد نظمت في السنة الأخيرة، وبتشجيع من الإدارة، 40 زيارة ودية (...) كذلك نظمت زيارات ودية بين تلاميذ المدارس، ورحلات اشترك فيها لبنانيون (...) وكذلك نقيم مخيماً صيفياً لأولاد الجنوب اللبناني مرة كلّ سنة. ويتمّ الإعداد لمخيم صيفي لهذا الصيف، سيشترك فيه تلاميذ من كل الطوائف– مسيحيون وشيعة ودروز (...) إنّ هذه الأعمال مثلها مثل أعمال أخرى للإدارة، هي من قبيل (إلق برغيفك على سطح الماء لأنك ستجده مع مرور الأيام). وإنني في الواقع، أؤمن بأنّ هذا هو استثمار يحمل ربحه معه». انظر: إسرائيل وتجربة حرب لبنان؛ تقويمات خبراء إسرائيليين، إعداد رضى سلمان، رندة شرارة، يولا البطل، ط1، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سلسلة الدراسات رقم 75، 1986، ص 247، 248.

(217) يأتي في هذا السياق ما كان الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله، قد كشف عنه في 25 أيار من العام 2010، حيث أشار من خطبة له إلى امتلاك المقاومة لقدرات عسكرية جديدة، بمقدورها ضرب الموانئ البحرية الإسرائيلية على نحو مباشر ومركز ودقيق، كما فرض حصار عليها. فقد رأى الخبراء أنّ المفاجأة لم تكن في الإعلان عن إضافات نوعية وجديدة في معادلة الردع مع العدو، لجهة الردّ المتناسب على أي حصار بحري قد تفرضه إسرائيل على لبنان بحصار مضاد ستفرضه المقاومة على موانئها وشواطئها؛ إنّما المفاجأة الحقيقية تمثلت في ما شفّ وأفصح عنه الخطاب حول الطريقة الفعّالة والناجحة التي تدير بها المقاومة الحرب النفسية مع هذا العدو، وكيف استطاعت أن تربكه غير مرة وفي غير مكان، وأن تشوّش عليه خططه وأهدافه، وأن تفرمل اندفاعته، وأن تحدّ من تهوّره، وأن تعدّل من موازين القوى لمصلحتها في كسب هذه الحرب، بحيث تكشّف كلام السيد بما لا يقبل الشكّ، أنّ المبادرة في هذه الحرب تكرّس انتزاعها من يد الإسرائيلي، وأصبحت طوع يد المقاومة.

(218) بازل هـ. ليدل هارت (Basil Liddell Hart): كاتب عسكري ومؤرخ ومنظر إستراتيجي بريطاني، ولد في العاصمة الفرنسية «باريس» لوالدين إنكليزيين، وذلك في العام 1895. له واحد وثلاثون مؤلَف عسكري قارب فيها جميع النواحي العسكرية، بدءاً من مستوى التكتيكات الصغرى حتى الحرب النووية. كان له الفضل العميم في ابتداع نظريات وبلورة مفاهيم عسكرية عديدة؛ نحو : نظرية الرجل في الظلام، نظرية السيل المنتشر، نظرية الاقتراب غير المباشر، نظرية الطاقة العسكرية المحدودة. فضلاً عن أنه كان من المبشّرين بالحرب الميكانيكية... وسوى ذلك من نظريات ومفاهيم وأطروحات أثرت وأغنت الفكر العسكري والعلوم العسكرية المعاصرة. توفي في العام 1970 على عمر يناهز الخمسة والسبعين عاماً.

(219) قد تكون التلفيقات الدعائية المندرجة في إطار الحرب النفسية المثبّطة لهمّة العدو من طبيعة أخرى، كأن تذيع الجهة الناظمة لها– على سبيل المثال- لبعض الوحدات والفرق المقاتلة من جيش العدو في مكان ما من الجبهة، بأنّ سواها من الوحدات والفرق في الأمكنة الأخرى قد استسلمت، وألقت سلاحها، وبالتالي انتهت حالة الحرب معها.

(220) ينقل المعلق السياسي في صحيفة معاريف بن كسبيت حواراً، كان قد دار آنذاك بين المدير العام لوزارة الدفاع غابي اشكنازي ونائب رئيس الأركان في الجيش موشيه كابلنسكي، خلال المداولات التي أجريت قبل اتخاذ القرار بشأن «تغيير الاتجاه 11»؛ حيث سأل اشكنازي كابلنسكي: «من أجل ماذا نحن بحاجة لهذه العملية العسكرية؟ هل من أجل الكرامة؟».

(221) يدرج رون شليفر ما كانت صحيفة الأخبار اللبنانية قد أماطت اللثام عنه في كشفها مصير أحد الجنديين الإسرائيليين الذين أسرهما حزب الله على إثر عملية الوعد الصادق في 12 تموز من العام 2006، في سياق الحرب النفسية المضادة التي يشنها الأخير، والتي يديرها بعناية بالغة السيد حسن نصر الله في مواجهة إسرائيل. ففي أعقاب هذا النبأ، يقول شليفر «ثارت موجة هائلة من الشائعات». لأنّ الخبر كان يرمي إلى تقويض المجتمع الإسرائيلي، وإلى دقّ إسفين بين الشعب وقيادته.

(222) يلجأ منظم الحرب النفسية ومطلقها خلال اندلاع الحرب إلى محاولة استهداف الجبهة الداخلية- بوصفها تضطلع بحماية ظهر القوات المسلحة لعدوه- على نحو يصيبها بالتصدّع والتآكل والانهيار، حتى يسهل عليه تحقيق ما يريده. إذ إنّ الدولة التي تنهار الروح المعنوية للمدنيين فيها، فإنّها خاسرة للحرب لا محالة.

(223) يعرض رون شليفر لكيفية استهداف جبهة العدو الداخلية وإحداث الشقاق فيها، حيث يقول: «هناك مسائل من نوع دق إسفين في التجانس الاجتماعي للعدو من طريق إثارة التوترات المجتمعية، توسيع الانقسامات الموجودة سابقاً، وخلق إنقسامات جديدة. وهذا الأمر يمكن تحقيقه بطرائق عدة: خلق احتكاك بين القطاعين السياسي والعسكري، أو باستهداف الجيش نفسه وإثارة النقمة في صفوفه. ويمكن للعداوة الطبقية أن تكون وسيلة فعّالة بلفت الانتباه إلى الكيفية التي يحارب فيها الفقراء ويموتون على الجبهة، في حين ينهمك الأغنياء في المتع واللهو في الداخل. كما إنّ الأقليات الدينية والإثنية هي أيضاً، أهداف طبيعية لرسائل تقسيمية اجتماعياً».

(224) لقد انطلت حيل بروباغندا الدعاية السياسية للرسميات العربية المنضوية في ما يسمّى أميركيا بـ«محور الاعتدال»، كما أحابيلها ومراوغتها وأضاليلها وآلاعيبها، على جمهور عريض وواسع من الشارع العربي الذي سبق له أن محض حزب الله بيعة وتأييداً ومناصرة؛ فقد أخذ بعض المزاج العربي بالدعاية الرسمية المضللة، في استثارتها المغرضة والمقيتة للنزاعات والحساسيات المذهبية بين السنة والشيعة، وفي إلحاحها على بثّ الفرقة والاختلاف، وعلى تحريك الغرائز والميول والعصبيات، حيث صير إلى تقديم انعطافة حزب الله إلى الداخل اللبناني في محاولة لتحصين هذا الداخل، وللحيلولة دون ارتباطه بالأجندة الأميركية في المنطقة، وإلى تصوير استدارته لمعالجة الاختلال القائم في السلطة؛ بأنّه انعطافة واستدارة لاقتناص الامتيازات السياسية التي كفلها الدستور اللبناني للطائفة السنية، وللسطو على مكتسبات هذه الطائفة التي ضمنتها الديمقراطية التوافقية اللبنانية. كما صير إلى تقديم نزوله إلى معترك السلطة للمشاركة في العمل الحكومي، ونزول قواعده إلى الساحات العامة احتجاجا على انخراط الحكومة اللبنانية في التآمر على المقاومة؛ كأنّه محاولة لإستثمار نتائج انتصاره على إسرائيل في الداخل اللبناني قصد تغيير التوازن السياسي والطائفي، والقضم من مركز السنة في لبنان.

[(225)](#) نقتبس هنا– للتدليل على ذلك- ما ورد حرفياً في رسالة وزير الخارجية الأميركية السابق هنري كيسنجر إلى العميد ريمون إده إبّان الحرب الأهلية اللبنانية، والمؤرّخة في 14/ 6/ 1976، يقول كيسنجر: «... ثق بأننا حاولنا مراراً وتكراراً أن نتآمر على أنظمة عديدة في العالم العربي ولا نزال. وباءت محاولاتنا بالفشل لأننا اصطدمنا بمقاومة وطنية وقناعة داخلية حيث الزلازل لا تحدث إلا في الأرض المشقوقة. ويبقى لبنان بلداً مثالياً لتحقيق المؤامرات، ليس ضده فقط، وإنّما أيضاً ضد العالم العربي. وذلك لأنّ في تناقضاته عناصر لنصب فخ كبير للعرب جميعاً... وأنا شخصياً ما كنت أتوقع هذا القدر من النجاح (إشارة إلى استعار الحرب الأهلية في لبنان). صحيح أنّ وجود إسرائيل وسّع حجم العمل، لكنّ التناقضات اللبنانية هي التي كانت تؤمّن لنا استمرار الخطة وسلامتها». أنظر: صحيفة النهار اللبنانية، السنة الثامنة والسبعون، العدد 23920، الأحد في 3 كانون الثاني، العام 2010، ص 8.

[(226)](#) نعرض هنا للكيفية التي صير فيها إلى تخيّر وانتقاء تسمية العملية العسكرية الإسرائيلية التي استهدفت لبنان في الحادي عشر من شهر نيسان من العام 1996، والتي كان قد أصطلح عليها إسرائيلياً بـ«عناقيد الغضب»؛ إذ ينقل غير باحث ومصدر مختصّ أنّه مع انطلاقة هذه العملية «تولد انطباع عند المراقبين أنّها سوف تكون نظيفة ودقيقة، لاسيما وقد تمت دراستها من كلّ جوانبها: العسكرية في المقام الأول، والنفسية السوسيولوجية، حتى اسمها (عناقيد الغضب الإلهي)، جرى اختياره بدقة ملحوظة، حيث راعى الجوانب الروحية لليهود من ناحية، والجوانب التاريخية للشعب الأميركي من ناحية ثانية». أنظر: المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، الحرب الثامنة، ط1، بيروت: المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، 1996، ص 22، 23.

[(227)](#) تشفّ العلاقات الدولية عن حقيقة مفادها أنّ كلّ دولة من دول العالم هي في حقيقتها ليست إلا جميعة أوصاف ثلاثة؛ معادية، ومحايدة، وصديقة. فالغالب أن يكون لدولة ما أصدقاء وأحلاف، في قبالة أعداء وخصوم، فضلاً عن أطراف وجهات تتوسّل موقف الحياد في مواجهة بعض قضاياها ونزاعاتها. ولذلك عكفت الحرب النفسية على نشر مروحة اهتماماتها على كامل دائرة توضّعات الدول، وعلى الإحاطة الشاملة بمجمل مشهدية العلاقات وتوصيفاتها؛ فلم تستهدف التصويب على الجهات المعادية فقط، ولم تتحدّد رشقاتها بحدود نطاق ومدار الصراع بين الدول المتحاربة أو المتنافسة وحسب، بل هي تفتقت عن إبداعات وسياسات واهتمامات، لتشمل استهدافاتها أيضاً كل من الدول الصديقة والدول المحايدة. ولعلّ هذا ما أثار توجّس بعض الخبراء والباحثين، فحاذروا إطلاق تسمية «الحرب النفسية» على هذا النوع من الحروب، مستعيضين عنها باستخدام لفظ «الدعاية» كإصطلاح مفهومي أكثر دلالة ومنطقاً.

[(228)](#) ظهر هذا التعبير الاصطلاحي لأول مرة ، وخرج إلى التداول خلال الحرب الأهلية الإسبانية، عندما قال الجنرال مولا، وهو أحد قادة فرونكو: «إنّ أربعة أرتال تتقدّم على مدريد للاستيلاء عليها، ولكن هناك رتلاً خامساً كاملاً داخل المدينة له القابلية على إنجاز ما لا يستطيع أي رتل إنجازه». ما يعني أنّ الرتل الخامس هو سلاح فعال، مدمر، مهمته تجويف كيان الأمم وتحطيمه من الداخل، وذلك بالعمل على إضعافها، وتشتيت شملها، وشرذمة وحدتها، وبثّ السموم والشائعات والأراجيف لإثارة الفزع والهلع بين صفوف المواطنين، وإحداث الفرقة بينهم. كما إثارة العصبيات والنعرات القومية والمناطقية والطائفية والعرقية، والقيام بأعمال الشغب والتخريب والتحريض والفوضى.

(229) للتوجيه – وفق ما ذهب إليه علم النفس العسكري– فضيلة كبرى في صناعة المحارب، وفي إعداد المقاتل والارتقاء بمعنوياته، وتحصين دفاعاته النفسية، وتفعيل منعته الداخلية، ورفد استعداداته للمضي قدماً بثبات دونما تعثر أو وقوع في الهنات والثغرات والأخطاء، ودون أن يساوره شكّ أو ارتياب بما ينبغي القيام به، ومن غير أن تتنازعه الميول والأهواء المثبّطة التي تتزّين له على غير صعيد، والتي تأتيه من حيث يحتسب أو لا يحتسب..ما يجعله بمنأى عن الاهتزازات والانزلاقات النفسية والسيكولوجية، وذا إرادة صلبة لا تعوزها القدرة على الاستجابة لنداء الواجب أنّى يأتي، ومن أين أتى. والحال، يكون بمقدور القائد عزل الحرب النفسية التي يشنها الخصم ضد قضيته، ومحاصرتها، وإفشالها، وإعطاب أدواتها، وتعطيل مفاعيلها، وإبعاد شبحها وكأسها المرة من أن تتخذ من مقاتليه ومناصريه وعموم جمهوره طرائد وأهدافاً سهلة المنال.

(230) لا شكّ أنّ ترشيد المواطنين، وتثقيفهم، وإعدادهم، والعمل على توعيتهم، وتوسيع مداركهم، بما يتأدّى إلى تمتعهم بالعافية والصحة النفسية والعقلية؛ من شأنه إعلاء الروح المعنوية وارتقائها وتساميها، وتصليب العزم والإرادة والتصميم والصمود، وتحقيق التساند والتآزر والتناصر والتلاحم والاتحاد والتماسك، ليس في مواجهة المخاطر والمحن والأزمات والشدائد التي يتعرّض لها المجتمع فحسب، بل من شأنه أيضا تحقيق الحصانة والمناعة في قبالة الدعاية المغرضة.

(231) يصار هنا إلى الاستعانة بنموذج التواصل الكلاسيكي (Lasswell)، الذي يستوي على تظهير وتقديم إجابات عن انطراح جملة من الأسئلة: من الذي يقول؟، ماذا يقول؟، لمن يقول؟، بأية قناة؟، ولأي تأثير؟. وذلك من خلال النظر إلى المرسِل (مطلق الحرب النفسية)، والمتلقي (الجمهور المستهدف)، والرسالة (المحتوى أو الموضوع المراد إيصاله)، ووسائط الإيصال (قنوات التسليم)، وأخيراً تقييم التأثير .

(232) يندرج في هذا الإطار ما يسمّى بـ(الرسائل النفسية الضجيجية)، التي يصار فيها إلى توظيف المؤثرات الصوتية على نحو يتأدّى إلى الإضرار بالروح المعنوية للأعداء. وهذا ما نقع على مصاديقه وترجماته في وقائع كثيرة، كتلك التي حظي بها– وبنحو تكراري متواصل– الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات خلال محاصرته في مقره الرئاسي في مقاطعة رام الله من قبل الجيش الإسرائيلي، إذ كان يحرص الأخير على إسماعه أصوات إطلاق النيران ودوّي الانفجارات والمفرقعات تحت شرفته؛ لإقلاق راحته، وللتسبّب بتفاقم وزيادة إحساسه بالحصار. ولكي تؤتي المؤثرات الصوتية أكلها على نحو فاعل، كان لا بدّ من أن تصاحب الانفجارات بأضواء زرقاء وخضراء من طبيعة راقصة ورجراجة، كانت ترسل بعناية، وبكيفية مقننة مدروسة، ما يجعل من عموم المشهد أقرب إلى عرض صوتي– ضوئي كبير التأثير والوطأة على المحاصرين .

وفي سياق متصل ، يندرج ما يسمى اصطلاحاً بـ(خرق حاجز الصوت) في مدارج الرسائل النفسية الضجيجية، بوصفه عملية صوتية تتولد من تحليق طائرة في ارتفاع منخفض فوق مناطق آهلة، ثم انطلاقها إلى سرعة تتجاوز سرعة الصوت، محدثة بذلك ضجيجاً مرعباً، هو ليس إلا صوت الحرب في أبشع وأعنف أشكاله وتمظهراته. والحال هذه، يصار– وفق هذه التقنية- إلى توظيف أصوات الطائرات وما تصدره من مفرقعات وهمية للإضرار بالروح المعنوية للأعداء. لكنّ هذا التوظيف لا يكون بإطلاق اعتباطياً وفوضوياً وعشوائياً؛ بل يصدر من قاعدة بيانات، وعلى نحو مدروس ومقنّن بعناية بالغة. وفي تفصيل ذلك، يحرّر قسم العمليات التنفيذية قائمة

أهداف محدّدة، يتلقاها سلاح الجو، وتكون عادة مصحوبة بمانيفست من الفروض والضوابط والمحدّدات؛ كأن يحدّد على أي ارتفاع ينبغي أن تحلق الطائرات، ومتى ستخترق حاجز الصوت، وتقدير مستوى الضرر المتوقع من جراء ذلك على السكان المستهدفين من المفرقعات والانفجارات الصوتية. على أن تنظم بهذا الشأن خريطة عمل: في موضع أول سيكون الدوي صاخباً ومرعباً إلى حدّ انّه سيتسبّب بانهيارات لجدران وانزلاقات لمبان مختلفة. وفي موضع آخر سيُكتفى فقط بتهشم النوافذ والشرفات والأبواب وببعض التصدّعات. وفي موضع ثالث يتسبّب الدوي بإرعاب الناس وإخافتهم. وفي موضع مختلف ستطلق أجهزة الإنذار في السيارات العنان لأصواتها بسبب من قوّة الدوي والضجيج المحدث.

والجدير بالذكر، أنّ توسّل أصوات الطائرات في إطار الحرب النفسية ليس جديداً؛ ففي العام 1956 استعان الكوريون الشماليون خلال الليل بطائرات خشبية من مخلفات الحرب العالمية الأولى، تصدر ضجيجاً عنيفاً حينما تطير، من أجل إقلاق الجنود الأميركيين ومنعهم من الراحة والنوم .

كما بالمقدور تلمّس تمثلات الرسائل النفسية الضجيجية في ممارسات الجيش الإسرائيلي خلال غزواته المتعدّدة للبنان. بدءاً بالأسلوب التقليدي الممجوج حيث كانت جماعة من الجنود تصرخ، وتطلق النار في الهواء بنحو عشوائي وجنوني، مصدرة جلبة وصخباً عنيفين، لإخافة الناس، وإرعابهم، والإضرار بروحهم المعنوية، كما التأثير على اندفاعتهم وإرادتهم واستلاب عزيمتهم ووعيهم. وانتهاء بطرائق أكثر تطوّراً وحداثة قوامها الاعتماد على تكنولوجيات، وعلى أجهزة صوتية حداثية متطوّرة لتضخيم الصوت وتكبيره وانفلاشه وتشظيه، وفق ما صير إلى العمل به خلال محاصرة كنيسة المهد في بيت لحم في ما سمّي بعملية «السور الواقي».

(233) لقد وفرت الطفرة النوعية في تطوّر تكنولوجية الاتصال وسائط بالغة الأهمية، بمقدور رسائل الحروب النفسية أن تتوسّل بها، سواء استهدفت المتلقي الخارجي أم الداخلي:

على صعيد المتلقي الخارجي: نذكر كيف أقدم الإسرائيلي غير مرة لاسيما خلال عدوانه على لبنان في صيف العام 2006، على اختراق شبكة الخطوط الهاتفية اللبنانية لبثّ رسائل تؤلب اللبنانيين على حزب الله، من خلال تحميل الأخير مسؤولية الحرب، ومسؤولية ما حلّ بهم من قتل وخراب ودمار. وفي التفاصيل: كان يرنّ هاتف المنزل، وعندما ترفع آلة الاستماع فيه لمعرفة من المتصل، كانت تصل رسالة بلغة عربية واضحة مصدرها الجيش الإسرائيلي، ومضمونها دعوة تحريضية لإثارة الفرقة بين الناس والمقاومة.

على صعيد المتلقي الداخلي: نذكر كيف وظف الإسرائيلي خدمة الرسائل الالكترونية (SMs) على الهواتف المحمولة، في عملية بث الإنذار المبكر لحوالى خمسة ملايين يهودي، وذلك خلال مناورة (تحول -5)، التي صير إلى إجرائها في التاسع عشر من شهر حزيران من العام 2011، واستمرّت لغاية الثالث والعشرين منه، والتي تحاكي حرباً افتراضية على جبهات أربع، تستهدف الجبهة الداخلية الإسرائيلية بوابل من الصواريخ.

(234) بالمقدور هنا تمثل ما حاولت الدعاية الأميركية القيام به بعد غزو العراق، كالإيحاء بأنّ هذا الأخير في تحوّله إلى الديمقراطية- وفق ما أرادت له الولايات المتحدة- سوف يصبح الأنموذج الأمثل الذي تقتديه سائر الرسميات والأنظمة الحاكمة في منطقة الشرق الأوسط. كما بالمقدور

استحضار مقولة «سلام الشجعان» التي قيلت- توصيفاً – في أعقاب توقيع اتفاقية «أوسلو» المذلة في مدينة واشنطن الأميركية في الثالث عشر من شهر سبتمبر/ أيلول من العام 1993، برعاية وحضور الرئيس الأميركي بيل كلينتون. ويذكر أنّ أوسلو هي أول اتفاقية رسمية مباشرة صير إلى إبرامها بين الكيان الإسرائيلي ممثلاً بوزير خارجيته شمعون بيريز، ومنظمة التحرير الفلسطينية ممثلة بأمين سر لجنتها التنفيذية محمود عباس. وقد نسبت تسمية الاتفاقية إلى مدينة أوسلو النرويجية حيث تمّت المحادثات السرية- التي مهدت لتظهيرها وإخراجها- في العام 1991. وكان من أولى إفرازات أوسلو ما عرف بـ(مؤتمر مدريد).

(235) تعكف الدولة الناظمة للحرب النفسية على إجراء مراقبة مستمرّة ودائبة لسلوك الأفراد من المواطنين، وتعمل على فهم هذا السلوك وتفسيره في محاولة للتنبؤ به، والوقوف على نزوعاته وميوله، ومن ثم توجيهه والتحكم فيه والسيطرة عليه تحقيقاً لغاياتها، كما لأهدافها القومية ومصالحها الإستراتيجية.

(236) يستبطن العمل على تغيير المشاعر والميول والاتجاهات والآراء والمعتقدات والأفكار؛ تغييراً في السلوك. وهو الهدف الرئيس الذي لطالما تنكبته هذه العملية ونزعت إلى تحقيقه، كي يصار إلى اقتناع العدو بأنّ لا فائدة ولا جدوائية من الاستمرار في الحرب، وأنّ الاستسلام هو الحلّ الوحيد.

(237) تشفّ القراءة الفاحصة عن أنّ إسرائيل لم تتحمّس في بادئ الأمر إلى موضوعة الحرب النفسية، وذلك انطلاقاً من فهم مفاده: أنّها لا تحسم حروباً، ولكنها تكون أداة إضافية في جعبة القيادة العسكرية. وأنّ الأمور تجد طريقها إلى الحلّ من خلال تفعيل استخدام القوّة، وأنّ ما لا يتحقق من خلال ذلك؛ فإنّه سوف يتحقق بالضرورة من خلال مزيد من تفعيل استخدام القوّة. وقد عكس عدم حماسة إسرائيل لموضوعة الحرب النفسية تشوّشاً في المأسسة والهيكلة والصلاحيات والسيطرة على بثّ ونشر المعلومات؛ فتوزّع الأمر ثلاثة أجهزة: مكتب وزارة الخارجية كان مسؤولاً عن الدعاية الخارجية. الوكالة اليهودية أنيط بها الدعاية لليهود في جميع أنحاء العالم. وقسم جديد هو مركز الاستعلامات كان مسؤولا عن الدعاية لسكان الدولة. في فترة لاحقة أنيط الأمر في المجال العسكري بوحدة صغيرة من شعب الاستخبارات، والقطاع المدني من الاستخبارات العامة.

ويذكر أنّ إسرائيل كانت- ابتداء- قد ألحّت على استخدم مصطلح (الاستعلام)، كبديل من مصطلح (الحرب النفسية)، في معرض تحديد النشاطات التي لها علاقة بخدمة المصالح ضمن المجالات العسكرية في زمن الحرب. وذلك أنّ مصطلح (الحرب النفسية)، كما مصطلح (الدعاية)؛ قد ارتبطا خلال الحرب العالمية الثانية بألمانيا النازية، ما من شأنه أن يسيئ إلى الأطروحة الإسرائيلية. وبقي موقف إسرائيل من فعالية الحرب النفسية وضرورتها وأهميتها ماثلاً وقائماً في العقل الإسرائيلي، حتى أواخر التسعينيات من القرن العشرين، حين حدث تحوّل لافت في التفكير العسكري لديها. وذلك عندما بدأ رئيس هيئة الأركان آنذاك شاؤول موفاز بإيلاء مسألة (استهداف عقل العدو وإقناعه بقبول وجهة نظر محدّدة) اهتماماً متزايداً؛ ليتابعه خلفاه موشيه يعلون ودان حالوتس اللذان ابتكرا أثناء الانتفاضة الثانية (2000-2005) عبارة (الاحتراق في وعي العدو) أو (اختراق وعي العدو)، أو عبارة (كي الوعي) وهي العبارة التي اصبحت جزءاً لا يتجزأ من

أدبيات الجيش الإسرائيلي. والحال، صير إلى مأسّسة (الحرب النفسية) في إسرائيل، وأنيط أمرها إلى هيئة مسؤولة عن إدارتها تدعى (مالات).

(238) إنّ الهيئة المسؤولة عن إدارة الحرب النفسية في الجيش الإسرائيلي، تدعى مالات - MALAT (مركز عمليات الوعي/ الفهم) ، وهي تعدّ حالياً جزءاً من دائرة عملياتGHQ للجيش . وقد صير إلى تأسيسها في العام 2005 ، على إثر حلّ وإعفاء الأطر السابقة التي كانت تتعهّد الحرب النفسية الإسرائيلية.

(239) دأبت إسرائيل في حروبها النفسية والدعائية على الإفراط في تظهير «الجبن العربي» إعلامياً، من خلال الإيحاء أنّ انتصاراتها وإنجازاتها العسكرية في قبالة العرب، لم تكن بسبب من النقص في المهارة الفنية، والكفاءة القتالية، كما في الخبرات والمكتسبات عند هؤلاء، بل بسبب من جبنهم وضعف إرادتهم وحيلتهم، وذلك بغرض كيّ هذا الوعي وتوهينه واستلابه وإشعاره بالدونية والتصاغر والإذلال، ولتنميط صورة وضيعة للمقاتل العربي ترسب في هذا الوعي الممسوخ ولا تنفك تلازمه كظله. والحال، تلقفت إسرائيل كلّ الفرص السانحة ووظفتها لتقديم العرب– والجيوش العربية بخاصة– في وضع مهين، على النحو الذي صير فيه إلى تصوير مئات الفلسطينيين في طولكرم وهم يرفعون أيديهم كما الرايات البيضاء، ويلقون أسلحتهم في أعقاب عملية «السور الواقي» في شهر نيسان من العام 2002. أو النحو الذي صير فيه إلى تصوير المئات بل الآلاف من جنود الجيش المصري وهم يستسلمون، أو الكيفية التي تمّ فيها عرض صور لهؤلاء الأسرى وهم في ملابسهم الداخلية، أو في أوضاع أخرى غير بطولية، أو عرض مشاهد دفنهم أحياء مكبلين بعد استسلامهم في صحراء سيناء إثر حرب العام 1967. أو الطريقة الكوميدية الساخرة التي تمّ فيها تشييد هرم كبير من الأحذية العسكرية التي كان ينتعلها الجنود الأسرى والجنود القتلى من الجيش المصري. والجدير بالذكر إن إسرائيل وفقت في هذه الصناعة، وحققت نجاحات باهرة على هذا الصعيد، بما يصحّ معه الإدعاء والزعم: أنّ الإنسان العربي في كثير من الصولات والجولات الصراعية، هزم على مستوى الوعي والإرادة والروح قبل أن يهزم في ميدان المعركة.

(240) سامي مسلم، صورة العرب في صحافة ألمانيا الاتحادية، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1985، ص 75.

(241) حلمي ساري، صورة العرب في الصحافة البريطانية، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1988، ص 278 .

(242) المستقبل العربي، السنة الثامنة عشرة، العدد 1911، أيار 1995، ص 26.

(243) بالمقدور أن نتمثل هنا ما نقلته صحيفة «صنداي تايمز» البريطانية– في تحقيق عن مجريات حرب تموز – آب من العام 2006، في الجانب الإسرائيلي– عن أحد الجنود الإسرائيليين قوله : «من الواضح أنّ مقاتلي حزب الله لم يسمعوا أبداً أنّ على الجندي العربي الفرار عندما يواجه الإسرائيليين. لقد كنا نتوقع أن نلقى خيمة وثلاثة رشاشات كلاشنكوف. هذا ما أخبرتنا به الاستخبارات الإسرائيلية، ولكن بدلاً من ذلك، وجدنا أنفسنا أمام باب فولاذي يقود إلى شبكات من الأنفاق المجهّزة جيداً». أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، ملحق خاص، السنة الأولى، العدد 283، السبت في 21 تموز، العام 2007 ، ص8.

(244) لقد حدّد ميخائيل ميلشتاين- الباحث في مركز دراسات الأمن القومي الإسرائيلي- خارطة طريق الحرب النفسية التي ينبغي على إسرائيل الأخذ بها لإحراز النصر على قوى المقاومة والممانعة في العالمين العربي والإسلامي، حيث يقول في أطروحته: «إنّ تفوّق إسرائيل يحتاج إلى معركة صبورة، استنزافية، مديدة السنين، لا ترتكز فقط على كسر القوة العسكرية لقوى المقاومة، وإنّما تسعى أيضاً لتقويض المراكز التي تتبلوّر فيها الأفكار ومنها تنغرس في وعي الجمهور الواسع. وفي هذا الإطار يبرز على وجه الخصوص دور أجهزة الإعلام والتعليم والمراكز الدينية في المنطقة الحاضنة للمقاومة. ويبدو أنّه فقط بعد أن نحدث التغيير الجوهري والطويل الأجل في أنماط عمل هذه المدارس والجامعات ووسائل الإعلام والمساجد والمؤسّسات الدينية في العالم الإسلامي يمكن أن نلغي فكرة المقاومة من الوعي ونهزمها».

(245) أدار الجيش الإسرائيلي عملية الحرب النفسية الأكبر في تاريخه وكانت بعنوان «كي الوعي» أو «الاحتراق في الوعي»، وفقاً لما صكه اصطلاحاً رئيس هيئة الأركان العامة السابق الجنرال موشيه يعالون.

(246) هو موشيه دافيد سلوميانسكي، غيّر اسم عائلته لاحقاً ليصبح «موشيه يعلون»، لقب بـ (بوغي) وتعني باللغة العبرية حجم الدبابة. ولد في الرابع والعشرين من شهر حزيران من العام 1960 في مستعمرة كريات حاييم داخل الكيان الصهيوني الغاصب. ليكودي السياسة والهوى. حائز على درجة بكالوريوس في العلوم السياسية. التحق بالجيش الإسرائيلي في العام 1968، حيث شارك في عمليات الوحدة الخاصة بسلاح المظليين التي تعرف بـ«سييرت هتسانحنيم». بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان في العام 1982 وفق ما سُمّي اصطلاحاً بعملية «سلامة الجليل»؛ أصبح يعلون قائداً للواء المظليين، وقد تعرّض في صيف العام 1985، لإصابة متوسطة بعد مواجهة ضارية مع مقاتلي حزب الله أسفرت عن مصرع ثلاثة من جنوده. في العام 1987 عُيّن قائداً لـ «سييرت متكال» اي سرية الأركان، وهي أكثر وحدات الجيش الإسرائيلي نخبوية وشهرة، حيث قاد بنجاح في العام 1988 عملية اغتيال خليل الوزير (أبو جهاد) في تونس. في العام 1990 رُقي إلى رتبة عميد، وعُيّن قائداً لقوات الجيش في الضفة الغربية، قبل أن يُعيّن في العام 1996 رئيساً لشعبة الاستخبارات العسكرية (أمان) حيث رُقي إلى رتبة لواء. في العام 1998 عُيّن قائداً للمنطقة الوسطى. وفي العام 2000 أصبح نائباً لرئيس هيئة الأركان العامة في الجيش، قبل أن يشغل منصب الرئاسة فيها من العام 2002 إلى العام 2005 .

(247) توسّلت إسرائيل عند الحديث عن جيشها، إطلاق وصف «الجيش الذي لا يُقهر» كمعادل قيمي حاكم ولازم. وذلك للإعلاء من شأن قدراتها العسكرية والأمنية، ولإضفاء هالة من القوّة والجبروت والاقتدار والبأس حولها. بما يؤدّي إلى تحقيق وتعميق حالة من الردع إزاء المعسكر الآخر. وبما يفضي لدى هذا الأخير إلى تخليق وتوليد حالة من الإحباط والتخاذل والإذعان للأمر الواقع، كما إلى استلابه، وإضعافه، وكيّ وعيه، وتدمير معنوياته، وانغراس ثقافة الانهزام في وجدانه، وتيئيسه ودفعه إلى عدم الشعور بجدوى المقاومة.

(248) مجموعة من المؤلفين، أسطورة هرمجدون؛ عرض وتوثيق هشام آل قطيط، ط1، بيروت: دار المحجة البيضاء، 2003، ص 160.

(249) هـ. ج. ويلز، موجز تاريخ العالم؛ ترجمة وتحقيق عبد العزيز توفيق جاويد، ط1، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1958، ص 84 .

(250) نحيل القارئ- في بيان ما ألمعنا إليه- إلى كتاب (استئصال الإرهاب) لرئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو؛ حيث يقول: «بعد أعوام من الدعاية العربية الموجّهة ضد الصهيونية التي كانت موجّهة إلى الغرب أيضاً، لم يكن من الصعب تقبّل وجهة النظر العربية التي مفادها أنّه لولا قيام دولة إسرائيل، لكانت العلاقات بين العرب والمسلمين من ناحية والغرب من ناحية أخرى علاقات ممتازة. ولكن في الحقيقة إنّ عداء العالم الإسلامي للغرب قد ازداد على مدار ألف عام قبل أن يتمّ إدراج اسم إسرائيل ضمن قائمة أعداء العالم الإسلامي. إنّ أنصار الإسلام المتطرّف ومؤيدي المذهب العربي، لا يضمرون الكراهية للغرب بسبب إسرائيل، بل يضمرون الكراهية لإسرائيل بسبب الغرب. لقد اعتبر كثيرون في العالم العربي منذ بداية استئناف الاستيطان اليهودي في فلسطين، أنّ الصهيونية هي مبعث الحضارة الغربية، هذا الغرس الغربي الذي قسّم مملكة الإسلام من منتصفها. وحقاً فإنّ النغمة السائدة في الدعاية العربية الإيرانية هي أنّ الصهاينة ما هم إلا صليبيون جدد، وهي مسألة وقت فقط، ويتحد المسلمون تحت زعامة (صلاح الدين) جديد، ويقذفون دولة (الصليبيين) الحديثة في البحر». أنظر: بنيامين نتنياهو، استئصال الإرهاب؛ ترجمة محمد عبد السلام، لا.ط، بيروت: دار الندى للطباعة والنشر والتوزيع، لا.ت، ص 91.

(251) الخطير أنّ غداة إقامة الكيان العبري صير إلى رفع شعار مفارق خادع، مفاده أنّ « إسرائيل واحة الديموقراطية في الشرق الأوسط»، وذلك بلحاظ نشر إضاءات كاشفة وكثيفة حول مؤسّسات النظام الليبرالي القائمة فيها وأواليات عملها؛ حيث تعدّدت الأحزاب، وتنوّعت الصحف، كما وسائل الإعلام المختلفة، وانتظمت العمليات الانتخابية وفق المعايير الديموقراطية، وتوالت على نحو صحي، وصير إلى تداول السلطة، وجرت مساءلة صناع القرار عن تقصيرهم، ومحاسبتهم لسوء إدارتهم، ومحاكمتهم عند إخلالهم الوظيفي بالمسؤوليات المنوطة بهم ...، بما لا يكاد يتفارق عما هو ماثل وقائم في أعرق الديموقراطيات الأوروبية والأميركية، فضلاً عن أنه متمايز كيفياً عما هو شائع وسائد في الرسميات العربية الحاكمة. لكنّ ثمّة ما يحضر بإلحاح هنا، وهو مشروعية التساؤل عن النشأة الغصبية لهذا الكيان الهجين المولود سفاحاً. كما التساؤل عما يباطن هذا التمظهر الديموقراطي المخاتل: هل أنّ ما هو قائم هو تعبير حقيقي عن واقع ديموقراطي، وهو انعكاس شفيف لعدالة اجتماعية وسياسية؛ أم أنه ليبرالية صهيونية ذات بعد أحادي تجسّد أحدث أساطير التفوّق والتعالي الصهيوني المدعى بها، وليس ترويجها وتسويقها على هذا النحو، إلا من قبيل تظهير الصورة الخادعة لكيان استعماري غصبي استيطاني عنصري، محكوم منذ نشأته بعقيدة تلمودية مناقضة لأبسط أسس ومعايير الديموقراطية؟.

(252) صحيفة «تلغراف» البريطانية، العدد الصادر في 26 يناير من العام 2011.

(253) إذا كانت ظاهرة السرقة من الأعداء في الحرب– وهي لا شكّ ظاهرة منبوذة- معروفة في تاريخ كلّ دولة شاركت في الحروب، فإنّ ظاهرة السلب والسرقة في صفوف الجنود أنفسهم أمر مرذول ومقزّز، وهي ظاهرة غريبة، وليست مألوفة أو شائعة في تاريخ الحروب. هذا ما خلصت إليه وثيقة نشرتها صحيفة هآرتس في 28 من شهر تشرين الثاني من العام 2011، بعد أن أظهرت كيف مارس الجنود الإسرائيليون خلال حرب تشرين الأول/ أكتوبر من العام 1973، عمليات نهب وسلب، ليس لأعدائهم من العرب، وإنّما لرفاقهم من الجنود الإسرائيليين الذين سقطوا

في تلك الحرب. وهذا الرواية الموثقة تناقض الصورة التي دأب الجيش الإسرائيلي على تظهيرها داخلياً وخارجياً حول أخلاقيات جنوده الرفيعة وطهارة سلاحهم، كما تناقض شائعة التضامن اليهودي.

ويذكر أنّ الوثيقة المنشورة ليست سوى محضر مداولات لاجتماع عقده رئيس شعبة القوى البشرية في الجيش الإسرائيلي حينذاك، الجنرال هرتسل شافير مع عدد من الجنرالات في هيئة الأركان العامة للجيش في شهر كانون الثاني/ يناير من العام 1974، أي بعد أشهر معدودات على انتهاء الحرب: «رأيت ما جرى في سيناء» يقول شافير وفقاً للوثيقة، موجّهاً كلامه إلى جنرالات الجيش «وأنا ملزم بالقول أنّ تخريباً كهذا لم أشهده في حياتي (...) ولكن هذا هو شعب إسرائيل وهؤلاء أبناؤه. لقد خربوا كلّ شيء».

(254) علي نعمة، خطوط المواجهة في الإستراتيجية القومية، ط1، بيروت: دار النوال، 1993، ص 315، 316.

(255) راحيلا مزراحي، إبادة منهجية للحضارتين العربية والإسلامية تحت مظلة خطاب العلمانية والتقدّم، مقال منشور في صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثانية، العدد 750، الأربعاء في 18 شباط، العام 2009، ص 33.

(256) المرشد الروحي لحركة شاس هو الحاخام عوفاديا يوسف، وشاس هي حركة دينية - سياسية لليهود الشرقيين، تتمتع بنفوذ كبير في الحلبة السياسية الإسرائيلية.

(257) عنصرية قطرية توسّل بها الرئيس المصري أنور السادات في السبعينيات من القرن العشرين، في محاولة منه لخلق مناخ مفهومي ممهّد ومشرّع ومبرّر لنزوع مصر إلى تبني خيار الصلح مع إسرائيل. وذلك بعد أن صير إلى تحميل الشعار حمولات مضللة وخادعة، تزيّف الوعي وتجوفه؛ كأن يقال إنّ الاهتمامات المصرية تتقدّم وتعلو على الاهتمامات العربية، وإنّ مصر دولة رائدة تقود العالم العربي ولا تنقاد إليه، وإنّ ذلك يرسّخ الثقافة الوطنية، كما يركز على الشأن الداخلي ويخدم مصالح البلاد ...

(258) شعار قطري أطلقه الملك الأردني عبد الله بن الحسين في الثلاثين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2002. بعد أن ضمّنه رسالة ملكية، وجّهها إلى رئيس الحكومة في المملكة الأردنية آنذاك، حيث حدّد ملامح هذا المفهوم وغاياته.

(259) دعوة قطرية مشبوهة بدأت تباشيرها بالظهور منذ أواخر شهر حزيران/ يونيو من العام 1996، أي بعد وصول بنيامين نتنياهو إلى رئاسة الحكومة الإسرائيلية، وذلك عندما كشفت الصحافة الإسرائيلية عن جهود لبلورة خطة جديدة حيال لبنان، أصطلح عليها باسم «لبنان أولاً». وتنصّ الخطة المذكورة، التي أشار الرئيس المصري المخلوع حسني مبارك في حديث أجرته معه صحيفة الحياة في عددها الصادر بتاريخ 18/ 9/1996، إلى أنّ «نتنياهو طلب إليه نقلها كمقترح إلى الرئيس حافظ الأسد»، والتي كان إيهود يعري قد عرض لمندرجاتها في صحيفة معاريف في عددها الصادر بتاريخ 28/ 7/ 1996، على انسحاب الجيش الإسرائيلي من الجنوب في قبالة تحقيق الأمور الآتية:

أ-يتحمل الجيش اللبناني مسؤولية الأمن ومنع عمليات المقاومة في المنطقة الأمنية.

ب-يتعهّد حزب الله عدم مطاردة الجيش الإسرائيلي إلى ما وراء الحدود.

ج-يتمّ حل جيش لبنان الجنوبي واستيعاب بعض أفراده من غير الضباط في الجيش اللبناني.

أمّا صحيفة هآرتس؛ فقد أشارت في عددها الصادر بتاريخ 1-8-1996، إلى أنّ «لبنان أولاً» تقوم على الانسحاب من لبنان مقابل حلّ حزب الله، وتجريده من السلاح، والحصول على ضمانات أمنية من الحكومتين اللبنانية والسورية.

وكانت صحيفة الحياة في عددها الصادر بتاريخ 24-11-1996، قد أوردت بدورها تصريحاً لوزير الدفاع الإسرائيلي حينذاك يتسحاق موردخاي، يقترح فيه: «أن نبدأ بلبنان أولاً» والكلام لموردخاي «إنّ من المصلحة العليا للبنان أن يكون بلداً حراً خالياً من أي قوات اجنبية (...) يمكننا أن نتوصل إلى اتفاق مع لبنان خلال أسبوعين إذا سمحت سورية له بذلك، وسنوقع مع لبنان اتفاقا يجعله مسؤولاً عن منع انطلاق أي عمليات إرهابية من جنوبه ضد إسرائيل، وضمان حقوق السكان المدنيين من المنطقة وجيش لبنان الجنوبي». أنظر: محمود سويد، الجنوب اللبناني في مواجهة إسرائيل، ط1، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1998، ص 45، 46.

(260) أنظر : الصفحتين الثالثة واالرابعة من دراسة لعبد المجيد زراقط بعنوان (الرؤية إلى الآخر في الأدب القصصي الصهيوني)، على الرابط www.mghareeb.com/maqalat/Yahood60.htm:

(261) عبد المجيد زراقط، م. ن. ، ص3 ،4.

(262) تقي الدين التنير، الاعلام الاسرائيلي ومواجهته، ط1، لا. ن.، 1999، ص 130.

(263) كارل ماركس، هو مفكر وفيلسوف وسياسي وصحافي ومنظر اجتماعي. يهودي الديانة. ولد في مدينة «ترير» في الخامس من شهر مايو/ أيار من العام 1818، الواقعة ضمن ولاية «رينانيا» الألمانية، وتوفي في الرابع عشر من شهر مارس/ آذار من العام 1883. ألف كتاب «رأس المال»، وأحدث فتوحاً علمية لها بالغ الأثر في مجالات الفكر والفلسفة والسياسة والاجتماع. كان له مع صديقه فريدريك إنجلز فضيلة صياغة وتقديم ما يصطلح عليه اليوم بالاشتراكية العلمية «الشيوعية المعاصرة»، حيث يعتبران المنظرين الرسميين للفكر الشيوعي.

(264) سيغموند فرويد ، هو طبيب نمساوي. يهودي الديانة. ولد في بلدة مورافيا في السادس من شهر مايو/ أيار من العام 1856، وتوفي في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر/ أيلول من العام 1939. يعتبر مؤسّس التحليل النفسي، وعلم النفس الحديث. اشتهر بنظريات العقل، واللاوعي، وآليات الدفاع عن القمع، وخلق الممارسة السريرية في التحليل النفسي لعلاج الأمراض النفسية من طريق الحوار بين المريض والمحلل النفسي.

(265) ألبرت آنشتاين، من اليهود الأشكناز. عالم فيزيائي كبير. ولد في الرابع عشر من شهر مارس/ آذار من العام 1879، وتوفي في الثامن عشر من شهر ابريل/ نيسان من العام 1955. أغنى المكتبة العلمية بنظرياته، لاسيما تلك التي تسببت بشهرته الواسعة؛ نحو: نظرية النسبية العامة، ونظرية النسبية الخاصة، المفعول الكهروضوئي... حاز على جوائز وتقديرات وتنويهات علمية عديدة، ونال جائزة نوبل في الفيزياء في العام 1921. وصنف بين أهم مئة شخصية في تاريخ البشرية في القرن العشرين.

(266) يُسجل هنا في إطار الإضاءة الكاشفة، خبر إعلان وزارة العدل الإسرائيلية في الثالث من شهر كانون الثاني/ يناير من العام 2012، أنّ وزير الخارجية افيغدور ليبرمان سيحضر جلسة استماع لمجموعة من التهم الموجّهة إليه في 17 و18 من شهر كانون الثاني من العام 2012. وكان مدعي عام الحكومة يهودا فاينشتاين، قد أعلن في شهر نيسان/ ابريل من العام 2011، عن أنه بصدد تقديم لائحة اتهام جنائية ضد ليبرمان، تتضمن- وفق ما جاء في بيان لوزارة العدل حينذاك- الاحتيال، وخيانة الثقة، والحصول على شيء بالخداع، وغسيل الأموال، والتلاعب بشاهد... وسوى ذلك من ادعاءات تصل قيمتها إلى ملايين الدولارات، وتعود إلى الفترة ما بين 2001 و2008، عندما كان ليبرمان عضواً في الكنيست ووزيراً للشؤون الخارجية.

وكذلك يأتي خبر إتصال رئيس هيئة الأركان العامة للجيش الإسرائيلي دان حالوتس عشية الحرب على لبنان في الثاني عشر من شهر تموز/ يوليو من العام 2006، وبعد مضي ساعتين فقط على أسر الجنديين الإسرائيليين وقتل ثمانية جنود آخرين، بمستشاره المالي حيث طلب منه بيع أسهمه في البورصة، دون أن يقيم أي اعتبار أو وزن لما حدث.

وفي سياق مماثل، يندرج، وفقاً لما كشفت عنه صحيفة معاريف في عددها الصادر في الخامس عشر من شهر آب/ أغسطس من العام 2006؛ خبر انشغال عضو الكنيست ووزير العدل- آنذاك- في الحكومة الإسرائيلية حاييم رامون في إشباع غرائزه ونزواته مع مجندة في الجيش برتبة ملازم تعمل في السكرتيريا العسكرية. وذلك في الوقت القصير الفاصل بين المداولات الأمنية، وبين انعقاد جلسة مجلس الوزراء التي كانت مقرّرة في الساعة الثامنة مساء عشية الحرب على لبنان. وكانت المحكمة الإسرائيلية قد أدانت رامون بتهمة ارتكاب (فعل شائن).

وتمتد قائمة الاتهامات التي طاولت غير مسؤول في إسرائيل على نحو مخيف؛ فرئيس الدولة موشي كتساف كان متهماً أيضاً بالتحرّش الجنسي. ورئيس الحكومة آنذاك إيهود أولمرت؛ كان متهماً بالفساد والرشوة ومخالفة القوانين. أمّا رئيس لجنة الخارجية في الكنيست؛ فكان هو الآخر متهماً بالفساد الإداري. وهذا ليس إلا غيضاً من فيض فساد القيادة الإسرائيلية.

(267) استندت إسرائيل في كثير من مزاعمها حول ما كان عليه السيد حسن نصر الله من سوء تقدير للوضع، إلى التصريح الذي أدلى به الأخير عبر تلفزيون الجديد NTV في شهر آب من العام 2006، والذي أشار فيه إلى أنه لو علم ولو حتى باحتمال نسبته 1 %، لأن تردّ إسرائيل كما فعلت خلال الحرب، لما كان أمر بخطف الجنديين الإسرائيليين.

(268) كانت صحيفة «واشنطن تايمز» قد نقلت في عددها الصادر في الرابع عشر من شهر كانون الثاني من العام 2011، عن الخبير في «مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية» آرام نيرغيزيان قوله إنه «من بين كلّ اللاعبين الجيوسياسيين في المشرق، فإنّ حزب الله هو أكثرهم نجاحاً في توليف رسائله وطرق إيصالها».

(269) يذكر رون شليفر، من مقالة له بعنوان (حملات الحرب النفسية خلال حرب لبنان 2006)، نشرتها مجلة الإرهاب والعنف السياسي؛ أنّ حزب الله « شرع بحرب طويلة الأمد تجمع ما بين حرب العصابات والحرب النفسية، وبعد 15 عاماً حقق هدفه ، مقنعاً إسرائيل بأنّ ليس أمامها الكثير لتكسبه، بل الكثير لتخسره ببقائها في البلد».

(270) أخذت نظرية العمليات المرتكزة على المؤثرات (Effects based operations EBO)، بالعقل العسكري الإسرائيلي نحو أمركة كبيرة في تبنٍ متحمس لمنطق تكنولوجي في تفعيل استخدام القوّة على حساب أحكام الحيلة. كما تبنّى الجيش الإسرائيلي إلى جانب ذلك نمطاً قتالياً جديداً يستوجب أيضاً عدم الاحتكاك المباشر مع العدو، وفقاً لما أسماه ادوارد لوتفيك «القتال ما بعد البطولي». ويتمثل هذا النوع من القتال في إدارة الحرب عن بعد من خلال نيران دقيقة وكثيفة، للحيلولة دون وقوع خسائر في صفوف الجيش، ما تأدّى في نهاية المطاف إلى ضمور منطق الحيلة، وتدني أهمية المناورة البرية في عمق العدو، وافتقار المقاتل الفرد الى الطليعية، والمبادرة، والقدرة على الاقتحام والالتحام والإقدام... أنظر: يوسف نصر الله، تداعي الاسطورة؛ مقاربات نقدية لمشهدية الحرب السادسة، ط1، بيروت: دار الفارابي، العام 2011، ص 35.

(271) مجموعة من المؤلفين، ثلاثة وثلاثون يوماً من الحرب على لبنان؛ ترجمة هيثم الأمين، إشراف فرانك ميرميه وإليزابيت بيكار، ط1، بيروت: المكتبة الشرقية، العام 2007، ص 250.

(272) علي نعمة، خطوط المواجهة في الإستراتيجية القومية، ط1، بيروت: دار النوال، العام 1993، ص317.

(273) استوى قيام إسرائيل واستقامت نشأتها– وفق ما تكشّفت عنه القراءات الحفرية لنشوء النزعة العسكرية الإسرائيلية، وارتقائها، وتسيّدها- على معادلة فارقة؛ فهي «جيش له دولة وليست دولة لها جيش». بما يعني أن محور الحياة العامة في الكيان العبري هو المؤسّسة العسكرية؛ فعمل هذه الأخيرة يتجاوز الميدان العسكري إلى الميدان الاجتماعي- الثقافي – الطائفي المتنوّع، بوصفها بوتقة صهر، تسهم على نحو رئيس في عملية بناء الأمة وتوحيد الهوية. والحال، فإنّ مكانة الجيش الإسرائيلي بخلاف مكانة أي جيش آخر، ووظيفته غير تلك التقليدية، ودوره على غير الأدوار التي تناط عادة بالجيوش، من حيث أنه لا يقف بإطلاق– كما الجيوش– خارج الحياة السياسية بانتظار أوامر المستوى السياسي، ولا يتموضع كصندوق يودع فيه من الرسائل ما ينبغي عليه تنفيذه، وإنّما يأخذ مكانه في قلب الممارسة السياسية على نحو بنيوي وجذري أصيل، وفي مركز صناعة القرار واتخاذه. فهو بأخلاقياته وثقافته وقيمه جزء من الديموقراطية اليهودية المزعومة.

وكان مراسل صحيفة معاريف بن كسبيت قد كشف في مقالة له بعنوان (حتى الحرب المقبلة) عن حساسية موقع الجيش في المعادلة الإسرائيلية، وعن فرادته بين جيوش الأرض، من حيث اضطلاعه– دون سواه من العناصر المؤسّسة- بالوظيفة الوجودية للدولة «إنّ إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم» والكلام لبن كسبيت «التي لا يمكنها أن تحافظ على وجودها ثانية واحدة، من دون جيش قوي جبار وماهر». ولعلّ هذه الوظيفة الوجودية التي كفلتها المؤسّسة العسكرية، ليست غريبة على دولة انبنى معمارها على مقولة مفادها: «كان فيها الجيش نحن، وكنا جميعا الجيش». وذلك بوصفها دولة احتلالية لا يمكن لها أن تتذوق طعم الراحة والاستقرار، أو تستشعر ملذة الشعور بالأمان والبقاء إلا في كنف جيش قوي مقتدر، يبعد منها كأس الموت والفناء «فالجيش هو ضمان وجود إسرائيل واستمرارها» وفق ما يشير إليه غابي أشكنازي- رئيس أركان الجيش الإسرائيلي السابق- خلال كلمة ألقاها في ختام أعمال مناورة عسكرية نفذها الجيش في الرابع عشر من شهر تشرين الأول من العام 2009، «وقوته» على حدّ تعبير الباحث افرايم عنبار «هي الضمانة لنجاة إسرائيل».

(274) تعاني المؤسّسة العسكرية الإسرائيلية- ومنذ انتهاء حربها على لبنان في الرابع عشر من شهر آب من العام 2006 على هزيمة منكرة– من إحجام الشباب الإسرائيلي عن التجنّد، حيث يُسجّل امتناعهم عن الخدمة الإجبارية التي يفرضها القانون، ويسلكون كلّ مسلك ممكن للتهرّب من الالتحاق بالمؤسّسة العسكرية؛ كالتذرع بالتدين الأصولي للحصول على الإعفاء، أو التعلل بأسباب صحية ونفسية، أو المكوث في خارج البلاد، أو ما شاكل ذلك من ذرائع وحجج. هذا ما أكدته صحيفة معاريف الصادرة في 18-7-2007، خلال نقلها لمضمون تقرير شعبة القوى البشرية، الذي أفصح عن تراجع حادّ للمتطوعين الإسرائيليين الملتحقين بالخدمة العسكرية بلغ نسبة 25 %. وكانت صحيفة واشنطن تايمز في عددها الصادر في 26 – 7 – 2007، قد عرضت بدورها لموضوعة تفاقم ظاهرة عزوف الإسرائيليين عن الالتحاق بالخدمة العسكرية الإلزامية، وعلى نحو لا قبل لإسرائيل به، حيث تشير إلى أنّ «الجيش الإسرائيلي يواجه مشكلة لم يسبق له أن واجهها من قبل، وهي أنّ نسبة كبيرة من الشباب والشابات يفتشون عن حجة رسمية كي لا يخدموا الجندية».

(275) يعاب على الجندي الإسرائيلي- منذ تاريخ وقف الأعمال الحربية كنتيجة لفشل الحرب على لبنان، أي منذ الرابع عشر من شهر آب من العام 2006 ـ تجنبه الانخراط في كل الوحدات القتالية التي تستدعي إلتحاماً مباشراً مع العدو؛ بل أكثر من ذلك، فقد سُجّل امتناع الجنود الإسرائيليين عن الالتحاق بسلاح المدرعات (الميركافا) التي كانت تعدّ حتى الأمس القريب حصناً منيعاً وملاذاً آمناً للجنود. وذلك بسبب من استحالتها إلى توابيت متنقلة، كنتيجة لتراجع الأمان فيها بعد انكشاف مقاتلها، حيث صير- وفق ما تكشفت عنه فصول الحرب ومجرياتها- إلى الفتك والتنكيل بها على أيدي مقاتلي حزب الله في تراجيديا أشبه بالمجازر الجماعية. وكانت تقارير ودراسات بحثية صادرة من غير جهة أمنية ودولية مختصّة، قد أشارت إلى أنّ الحرب الإسرائيلية الأخيرة على لبنان أسفرت عن (مجزرة دبابات)، تعرّض بموجبها ما يعادل لواء مدرعات بأكمله- أي ما يزيد على 143 دبابة– للتدمير والإعطاب والإبادة.

(276) يقارب- قائد المنطقة الشمالية في الجيش الإسرائيلي- الجنرال غادي آيزنكوت موضوعة اندلاع الانتفاضة الفلسطينية في أعقاب الانسحاب من جنوب لبنان في أيار من العام 2000، حيث يقول من مطالعة نشرتها مجلة «الجيش والإستراتيجيا»، الصادرة عن مركز دراسات الأمن القومي، في عدد حزيران من العام 2010: «بدأت انتفاضة فلسطينية» والكلام لآيزنكوت «استلهمت ما رآه الفلسطينيون في لبنان، مقتنعين بأنهم باستخدام القوّة يمكن أن يحققوا مكاسب (...) لقد جبت هذه الانتفاضة أرواح 1170 إسرائيليا، منهم 138 في شهر آذار الأسود من العام 2000».

(277) يوسف نصر الله، تداعي الأسطورة، مقاربات نقدية لمشهدية الحرب السادسة، ط1، بيروت: دار الفارابي، 2011 ، ص 169، 170،181، 182، 183، 184.

(278) يذكر في هذا السياق، أنّ الأميركي استدرج الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين إلى غزو الكويت في 3 آب من العام 1990، عبر جاذبية الخيار الخاطئ. ثم وظف لاحقاً هذا الاعتداء على الكويت في خدمة مشاريعه الشرق أوسطية؛ إذ وفر له مظلة سياسية لعملية عسكرية واسعة استهدفت العراق في عمل تدشيني وتأسيسي ينبئ بتحوّل العالم من الثنائية إلى الواحدية القطبية، بعد تفكك الاتحاد السوفياتي وانهيار المنظومة الاشتراكية. كما وفر- هذا الانزلاق العراقي–

للولايات المتحدة تفعيل حضورها العسكري في منطقة الشرق الأوسط، وإضعاف العراق، فضلاً عن أنّه أتاح لها فرصة تسويق نفسها عالمياً كمدافعة عن الحريات وعن سيادات الدول واستقلالها.

(279) تعدّ وادي الحجير ممراً إلزامياً ومعبراً ضرورياً لأي عدوان إسرائيلي بري على جنوب لبنان ، بوصفه يسهّل عملية الوصول إلى منطقة صور وقراها ، وإلى كامل المنطقة الواقعة جنوب نهر الليطاني ؛ فلقد استفاد العدو من هذا المعبر في اجتياح العام 1978 ، واجتياح العام 1982 ، كما في العملية العسكرية المحدودة في العام 1986 . ففي اجتياح العام 1982 على سبيل المثال، اي ما عرف بعملية «سلامة الجليل»؛ أسندت (للقوة ج) مهمة التقدم على محور الطيبة –القنطرة – الغندورية- فرون – جسر القعقعية على ضفاف نهر الليطاني، حيث تحركت الوحدات الإسرائيلية المدرعة (ج3)، والمشاة الميكانيكية (ج2)، وسيطرت على هذا المحور .

(280) بعد استطالة الحرب وتدحرجها على نحو غير مسبوق في تاريخ الحروب الإسرائيلية، وبعد تآكل كلّ المساحات الزمنية التي مُنحت تباعاً من الراعي الإقليمي (الولايات المتحدة) لكي يقوم الجيش الإسرائيلي المتعثر ميدانياً بما ينبغي القيام به على نحو يمكن تسويقه وتثميره سياسياً لتعديل قواعد اللعبة وإملاء الشروط، ولكن دون جدوى، بات واضحاً أنّ ثمّة ميلاً دولياً آخذاً بالتشكل والتبلوّر يرى أنّ لعبة الميدان لم تعد ذات صلة، واستطراداً فهو يتجه لاستصدار قرار بوقف إطلاق النار، أو وقف العمليات العسكرية كما صير إلى الاصطلاح عليه فيما بعد. فمع تصرّم وانقضاء الأسبوع الأول من شهر آب من العام 2006؛ زجّ الإسرائيلي بنخبه العسكرية في عملية برية واسعة أطلق عليها تسمية «تغيير اتجاه 11»، حيث أراد أن يصدر هذا القرار وقواته على الضفة الجنوبية لنهر الليطاني، علّ ذلك يفيده تعويضياً في خلق صورة أنصع لنتائج الحرب. صدرت الأوامر إلى اللواء المدرع 401 المزوّد بأحدث طراز (ميركافا4)، كما إلى اللواء الناحل 162 بالتقدّم نحو نهر الليطاني عبر وادي الحجير، وكانت مهمة الناحل تنظيف الطريق، في حين كلف رتل من الدبابات- طراز ميركافا 4 بالتقدّم لأخذ المواضع المطلوبة عبر (بوابة الليطاني)، كما أسمته صحيفة الجروزاليم بوست، أو (وادي الموت) كما أسمته صحيفة يديعوت أحرونوت في عددها الصادر في 16 /8/ 2006.

(281) جمال الخطيب ؛ من دراسة مطولة بعنوان حرب تموز 2006 في الإستراتيجية والتكتيك تقييم عسكري وتقني

(282) تعدّ الدبابة الإسرائيلية (ميركافا 4)، وهي الجيل الرابع من سلالة ميركافا، الأكثر تطوراً في إسرائيل، وربما كانت الأهم تدريعاً والأكثر حماية في العالم. حتى قيل في وصفها إنّها درّة الصناعة العسكرية الإسرائيلية. وكان الإعلام الإسرائيلي، ثم تبعه الإعلام الغربي، لأسباب سايكولوجية لها علاقة بوعي الخصم، كما لأسباب تجارية تسويقية؛ قد نسج روايات أسطورية عن فضيلة هذه الدبابة، وعن أهميتها وتطوّرها وريادتها، وجرى كلام كثير عن سماكة درعها، وعن نظام الاطفاء الآلي فيها، الذي وفرته شركة سبكترونيكس (Spectronnix) الإسرائيلية، والذي يعتمد على غاز «فريون 1301» بما له من خصيصة التبديل والاطفاء، وخصيصة الانتشار والانفلاش والتشظي بسرعة 60/1000 من الثانية بمجرد تعرّض الدبابة لإصابة بقذيفة مضادة للدروع.

(283) تكشّفت معركة وادي الحجير التي دارت رحاها بين الجيش الإسرائيلي وحزب الله في الثاني عشر من شهر آب من العام 2006 - وهي آخر فصول القتال والمواجهات في (حرب لبنان الثانية) وفقاً للتسمية الإسرائيلية- عن نتائج كارثية إسرائيلياً، حيث أسفرت عن خسائر عسكرية بشرية جسيمة تكبّدها الجيش الذي لا يُقهر؛ سُجل فيها مصرع 24 من نخبة ضباطه وجنوده.

(284) عملية أمنية معقدة حملت اسم «قصيدة الصفصاف»، نفذتها وحدة الكوموندو في سلاح البحرية الإسرائيلية «شييطت 13»، في الخامس من أيلول من العام 1997، بهدف اعتقال أحد كوادر المقاومة.

(285) بقيت عملية أنصارية من الأسرار الاستخبارية التي أطبق عليها حزب الله، فأربك الأعداء، وحيّر الحلفاء، وأثار فضول الباحثين، إلى أن كشف السيد حسن نصر الله عن سرّ اختراق المقاومة للبنية العسكرية الجوية الإسرائيلية (التمكن من التقاط بثّ طائرة الـ(أم.كا))، وذلك في مؤتمر صحفي عقد في التاسع من آب من العام 2010.

(286) يجري تصنيف وحدة شييطت 13 التابعة لسلاح البحرية الإسرائيلية في طليعة وحدات الكوماندوس البحري في العالم. وتستحوذ- دون سائر الوحدات العاملة– على عناية الإسرائيليين وفخرهم، بوصفها تمتاز بالكفاءة والقدرة على المناورة والحركة، كما القدرة على التسلل للوصول إلى الهدف وضربه، ومن ثم الانسحاب من دون أيّة مساعدة من سائر وحدات الجيش. أمّا تاريخ إنشاء هذه الوحدة، فيعود إلى ما قبل الولادة الهجينة للكيان العبري في العام 1948؛ فقد شرعت عصابات (الهاغانا) الصهيونية، مع إطلالة العام 1945، في تأسيس وحدة نخبوية خاصة سميت (PALYAM)، وأنيط بها مهام تفجير السفن العربية والبريطانية، بهدف خلق حالة من البلبلة والإرباك لدى الجنود البريطانيين في إبّان فترة إحتلالهم لفلسطين وانتدابهم عليها. وعند قيام الكيان الإسرائيلي، صير إلى تقدير أهمية هذه الوحدة، وتفعيل عملها، وتطوير قدراتها وامكاناتها، بعد أن كان قد أطلق عليها اسم «شييطت 13»، حيث اتخذت في العام 1950 من قاعدة عتليت البحرية في قضاء حيفا مقرّاً رئيساً لها. وبقيت تزاول نشاطها بنحو ملتبس، ودون أي توصيف رسمي، إلى أن أعلنت حكومة إسرائيل رسمياً في العام 1960، عن وجود هذه الوحدة ضمن تشكيلات وحداتها المقاتلة.

مُنيت هذه الوحدة بادئ الأمر بإخفاقات عديدة بسبب من قلة التأهيل والإعداد، وعدم الخبرة العسكرية الكافية التي كانت تتوافر عليها، على الرغم من كثافة البرامج التدريبية التي كان يخضع لها أفراد الوحدة، فضلاً عن إجرائها عدداً من المناورات البحرية المشتركة إلى جانب القوات الخاصة البريطانية والفرنسية، ما دفع بالقيادة العسكرية الإسرائيلية في العام 1970، إلى البدء بإعادة تنظيم لها وتفعيل لقدراتها. وذلك قبل أن تشهد تطوراً ملحوظاً على يد عامي أيالون بعد أن صير إلى تعيينه قائداً للوحدة في العام 1980؛ فقد عمل على إحداث تغييرات هيكلية جوهرية في بنيتها، فتوزّعتها أقسام ثلاثة: مشاة الوحدة، الضفادع البشرية، والزوارق القتالية. كما عمل أيالون على زيادة فترات التدريب التي يقدر لأفراد الوحدة أن يخضعوا لها، لتصبح سنة وثمانية أشهر من التدريب القاسي والمضني والمكثف، والمتضمّن على وجه الخصوص: دروساً في عمليات التفجير، كيفية استخدام الأسلحة تحت الماء، مهارة القيام بمناورات إنزال من خلال الغوص، مهارة السيطرة على البواخر والسفن، تفجير غواصات... وكانت هذه التدريبات والمناورات تجري بالتنسيق الكامل مع وحدات (فقمات البحرية الأميركية). أمّا أبرز عملياتها:

- عملية (ربيع الشباب) وفقاً للتسمية الإسرائيلية أو ما عرف بعملية فردان في العام 1973؛ حيث تمّت الإغارة- بالتعاون مع الوحدة 707، ومع القوات الخاصة (سرية الأركان)- على منطقة فردان في بيروت. لينجلي الأمر عن مصرع: كمال ناصر، وكمال عدوان، وأبي يوسف النجار، من القادة الفلسطينيين.

- استهداف مقرّ للجبهة الديموقراطية وآخر للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين– القيادة العامة؛ وذلك في عملية مزدوجة نفذت في العام 1980 في مدينة طرابلس الواقعة في الشمال اللبناني.

- تدمير المقرّ العام لجبهة التحرير العربية، ومقتل خمسة عشر من أفراده، على إثر عملية تسلل ناجحة قام بها عناصر الوحدة في العام 1982، إلى منطقة رأس الشيخ على مقربة من شواطئ مدينة طرابلس في الشمال اللبناني.

- اغتيال خليل الوزير المعروف بأبي جهاد، في تونس في شهر نيسان من العام 1988، وكان حينئذ يشغل منصب نائب القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية.

والجدير بالذكر، أنّ وحدة شييطت 13 كانت قد تلقت ضربة قاسية من حزب الله، بعد إخفاقها في محاولة الإنزال التي نفذتها عبر البحر خلال عدوان تموز من العام 2006 على أحد الأبنية قرب مدينة صور لاعتقال أحد كوادر الحزب. وقد قتل وأصيب عدد من عناصر الوحدة بعد مواجهات ساخنة دامت قرابة ساعتين .

(287) كان شعار ايهود باراك في الحملة الانتخابية: «افحصوني في تموز العام 2000؛ سوف نكون مع أبنائنا عائدين من لبنان».

(288) شغل حاييم رامون مناصب وزارية عديدة في حكومات حزب العمل وكديما.

(289) حلمي موسى، قرار الخروج في أيار 2000 تمّ اضطراراً وليس اختياراً. أنظر: صحيفة السفير اللبنانية، السنة السابعة والثلاثون، العدد 11625، الجمعة في 25 حزيران، العام 2010، ص 4 .

(290) يذكر رون شليفر من مقالة له بعنوان (حملات الحرب النفسية خلال حرب لبنان 2006)، كيف توسّل حزب الله تقنية بثّ الإيحاءات التطمينية الخادعة، ونجح في تضليل وخداع الإسرائيليين، كما في حرف انتباههم، وتشتيت قدرتهم على التركيز، ودفعهم إلى الاستسلام والخدر، حيث يقول: «انخرط حزب الله في حرب مؤثرة، خادعة، وناجحة في النهاية، معطياً الانطباع بأنّ إمداداته الصاروخية الضئيلة الحجم كان يتآكلها الصدأ على منصات إطلاق مهجورة. إلا أنه في ذلك الحين كان مشغولاً ببناء مراكز عسكرية سرية هائلة تحت الأرض، قادرة على إطلاق هجوم صاروخي مطوّل ضد إسرائيل. وللتمويه أكثر على إمكاناته الحقيقية، أدار حزب الله حملة صراخ ولعنات ضد الجنود الإسرائيليين عبر الحدود، معطياً الانطباع بأنّ قدرات المنظمة محدودة بموقف عبثي لا أكثر».

(291) بعد بدء العدوان الإسرائيلي على غزة، تعالت الأصوات المندّدة بسياسة النظام المصري، وكيلت الاتهامات للعديد من المسؤولين المصريين بالتواطؤ والتآمر مع إسرائيل في التخطيط للعدوان. حيث أقدم النائب المعارض حسين ابراهيم على توجيه اتهام للحكومة المصرية في السابع

والعشرين من شهر كانون الأول/ ديسمبر، خلال انعقاد جلسة برلمانية، بـ«التآمر مع إسرائيل على ضرب غزة».

(292) اسفرت الغارات التي شنها سلاح الجو الإسرائيلي في بداية العدوان على غزة، والتي استهدفت المقار الأمنية لحركة حماس، خلال احتفال الأخيرة بتخريج دفعة من عناصر شرطتها، عن استشهاد ما يزيد عن مئة شهيد من قوات الشرطة الفلسطينية وأجهزتها الأمنية. كان من بينهم مدير شرطة غزة اللواء توفيق جبر، ومسؤول الأمن والحماية في قطاع غزة العقيد إسماعيل الجعبري، ومحافظ الوسطى أبو أحمد عاشور...

(293) عملية عسكرية ممتدة شنتها إسرائيل مستهدفة قطاع غزة في فلسطين، وقد أصطلح على تسميتها إسرائيلياً بـ«الرصاص المسكوب». بدأت هذه العملية العدوانية في يوم السبت الواقع فيه السابع والعشرون من شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام 2008، وانتهت في الثامن عشر من شهر كانون الثاني/ يناير من العام 2009، موقعة 1417 شهيداً فلسطينياً، و 4336 جريحاً، دونما تمييز بين أطفال وشيوخ ونساء.

وفيها توسّل الإسرائيلي شتى ضروب الحرب النفسية للنيل من روح الصمود والقتال لدى الفلسطينيين؛ فإلى جانب الحرب الإعلامية، والحرب الإلكترونية التي استعرت على نحو غير مسبوق، أقدم الإسرائيلي على إلقاء منشورات فوق قطاع غزة تطالب المواطنين حيناً بالإخلاء والنزوح، وحيناً آخر بضرورة الاتصال على هاتف معيّن للإبلاغ عن المقاومين. كما أقدم على اختراق الخطوط والمكالمات الهاتفية الخاصة بالمواطنين، وذلك لإطلاق التهديد والوعيد، ولإرعابهم، ودبّ الذعر في صفوفهم ، ولإشعارهم أنّ الإسرائيلي هو أقرب إليهم من أنفسهم، وبمقدوره الاقتصاص منهم ساعة يشاء.

(294) عبد الوهاب القصاب، احتلال ما بعد الاستقلال: التداعيات الإستراتيجية للحرب الأميركية على العراق، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007، ص 267.

(295) إجراء عسكري إسرائيلي قوامه تدارك الأسر قبل تمامه، أي قبل تمكن المهاجمين من تذويب الأسرى في عمق الأراضي اللبنانية. فهو ينطوي على سلسلة من الإجراءات الأولية التي من شأنها تسوير مكان الحدث وإحاطته وعزله للحيلولة دون تسرّب الآسرين منه. ثم يصار إلى وضعه تحت السيطرة الرقابية والنارية، إلى حين استقدام القوات والتعزيزات الميدانية المؤهّلة لدخول ساحة المواجهة والالتحام مع قوات العدو وتصفيته. الأولوية في تدبير هنيبعل، هي- ليست الحرص على حياة الجنود، ولا تحريرهم وإطلاقهم- وإنّما لإحباط عملية الأسر وإفشالها.

(296) رجّح غير مصدر غربي، أنّ حزب الله قام- منذ العام 2000 - بعملية بناء واسعة للاستحكامات والتحصينات. لكنّ الأمر المثير أنّ هذه العملية كانت مشتملة على عملية خداع كبرى، حيث بُني جزء منها تحت الرقابة الإسرائيلية وسربت عنه معلومات عبر الأهالي، في حين بُني الجزء الأهم بسرية تامة. وفي هذا السياق يشير الخبيران البريطانيان من دراسة بعنوان «كيف هزم حزب الله إسرائيل»، صير إلى نشرها في مجلة آسيا تايمز في عددها الصادر في 14-10-2006؛ إلى أنّ حزب الله عكف في السنوات التي تلت الانسحاب الإسرائيلي القهري من لبنان في الخامس والعشرين من شهر أيار من العام 2000 على حفر خنادق ترسانات أسلحته وفق برنامج تمويه معقد، حيث كانت بعض الخنادق تحفر أمام أنظار طائرات التجسّس الإسرائيلية، قبل أن

يضاف إليها وسائل تمويه أخرى، لتصبح أهدافاً زائفة. وفي الوقت عينه، كان يتمّ بنحو بالغ السرية حفر الخنادق الأخرى الحقيقية في مناطق بعيدة ومخفية عن الأنظار، يصل بعضها إلى عمق أربعين متراً.

(297) يقول رون شليفر بشأن الماكينة الإعلامية لحزب الله، من مقالة بعنوان (حملات الحرب النفسية خلال حرب لبنان 2006): «لطالما أدرك حزب الله أهمية الحرب النفسية، مطلقاً الصحف، المجلات، وشبكات الإذاعة والتلفزيون، وكلها مغذاة بوحدة أبحاث كبيرة مسؤولة عن جمع، فحص ومقارنة معلومات استخبارية تقليدية، سياسية وثقافية، وتقييمها، مجهّزة بفريق عمل من الناطقين باللغة العبرية. تراقب وحدة الأبحاث الإعلام الإسرائيلي، تحضر مادة لبثها على التلفزيون، أو نشرها على مواقع المقاومة المختلفة على شبكة الانترنت. أمّا أشهر القنوات الإعلامية لمنظمة حزب الله فهي محطة تلفزيون المنار. فبالنسبة للمشاهدين الإسرائيليين، تقدّم المحطة شريط فيديو لأحداث ساخنة من المعركة، كما تقدّم برامج إخبارية، مسلسلات درامية، والفيديو كليبات. وبداية، وقبل انسحاب إسرائيل من لبنان، لم يكن بالإمكان مشاهدة تلفزيون المنار إلا من قبل الجنود الإسرائيليين الموجودين في لبنان. في كلّ الأحوال، وفي الوقت المناسب، غطى بثّ المحطة مناطق بعيدة جنوباً وصولاً إلى حيفا، ولاحقاً إلى كلّ إسرائيل، حيث أصبحت محطة شعبية في أوساط مواطني البلاد العربية بشكل خاص. ولمكافحة هذا التهديد، حاول سلاح الجو الإسرائيلي تدمير قدرات بثّ المنار. وقد فشلت هذه الجهود لأنّ حزب الله كان قد جهّز مقدّماً محطات مرحّلة (تسيطر أو تعيد البثّ بواسطة أدوات أخرى) لضمان استمرار البثّ».

(298) البرافد: ومعناها الحقيقة. لم تكن بالنسبة للمواطن السوفياتي مجرّد صحيفة، أو مجرّد وسيلة إعلامية وحسب؛ وإنّما توضّعت في الوعي العام كعلامة تاريخية مميزة، بوصفها كانت السلاح الإعلامي الفعّال لزعيم ثورة أكتوبر الاشتراكية فلاديمير لينين، وأصبحت بعد الثورة لسان حال الحزب الشيوعي السوفياتي، قبل أن تتحوّل- ولعقود مديدة من الزمن- إلى إطار مرجعي حاكم يصنع ويوجّه الوعي الجمعي للمواطنين على غير صعيد.

(299) نافا تسوريئيل، شهيد مع ميكروفون. أنظر: صحيفة معارف الإسرائيلية، ملحق (زمان تل أبيب)، العدد الصادر في 25/ 5/ 2001.

(300) استحالت الحرب النفسية بفعل التقدّم المطرد والهائل في تكنولوجيا إرسال الأخبار والمعلومات إلى حرب إعلامية شاملة قوامها؛ الفضائيات، وأجهزة التلفزة، والإذاعة، والأفلام السينمائية، والانترنت بكلّ مصاحباته: الفيسبوك، واليوتيوب، والتويتر... ما حفّز الجيوش الحديثة إلى إجراء تعديلات جوهرية على هيكلياتها، وإلى استدخال وحدات إذاعية، ووحدات بثّ تلفزيونية خاصة ضمنها، بما يتيح لهذه الأخيرة أن تقدّم البرامج والأخبار الموجّهة التي تخدم أغراضها النفسية في المعركة. والحال، وعى حزب الله بدوره أهمية الإعلام وضرورته ومكانته وإلحاحه في إطار حربه المفتوحة على الكيان الإسرائيلي، فأولاه بالغ الرعاية والعناية، وشكلت المنار أداته الرئيسة في هذا المجال، بحيث صير إلى تصنيفها وحدة لا تقل أهمية عن وحداته الجهادية والأركانية في المعركة.

(301) بعد التوازن الردعي الجديد الذي كان السيد حسن نصر الله قد أرسى معادلاته في خطبة احتفالية له بذكرى (القادة الشهداء) في السادس عشر من شهر شباط من العام 2010؛ عكفت قناة

المنار على إعداد وعرض تقرير مفصل عن منطقة غوش دان (تشمل كامل منطقة تل أبيب وما جاورها من مدن وبلدات، نحو: هرتسيليا، اللد، يهودا ... فيها تتركز الموارد الجوهرية المختلفة، وتشكل عصب الحياة الاقتصادية والمركز التجاري والصناعي والثقافي لدولة إسرائيل، إذ إنها تحوي البنوك والشركات العالمية الكبرى والسوق المالي الإسرائيلي، فضلاً عن وجود مطار بن غوريون الدولي ومطارين صغيرين بمحاذاته في الوسط، ومحطات القطار الرئيسة. وتضم أكبر تجمع سكاني في الوسط، حيث يبلغ عدد سكانها قرابة 3,198 نسمة، على مساحة لا تتجاوز ألف وخمسمائة كيلومتر مربع. تضم المنطقة الإدارية (لتل أبيب) وحدها حوالى ثلاثمائة وتسعين ألف نسمة، في مساحة صغيرة جداً لا تتعدّى الواحد والخمسين كيلومتراً مربعاً، حيث تبلغ الكثافة السكانية فيها سبعة آلاف وثلاثمائة نسمة في الكيلومتر المربع الواحد). ما دفع بوسائل الإعلام الإسرائيلية إلى إدراج ما أقدمت عليه المنار في سياق الحرب الإعلامية النفسية المعدّة ببراعة وإتقان، والموجّهة إلى أكثر توضّعات الجبهة الداخلية الإسرائيلية رخاوة وهشاشة وضعفاً؛ فقد أشارت القناة العاشرة الإسرائيلية– خلال نشرتها المسائية بتاريخ 18/2 /2010 - في معرض تعليقها على ما حدث بالقول: «إن حرب التلفزيون من قبل حزب الله ظهرت أيضاً، فبعد أن تعهّد حسن نصر الله بأنّه إذا قصفت إسرائيل الضاحية الجنوبية سيقصف تل أبيب، انضمت قناة المنار إلى التوصيف الغرافيكي»، حيث قامت بترجمة تهديدات السيد نصر الله في تقرير إعلامي مغلف بالحرب النفسية والدعاية المتطوّرة.

(302) يذكر أن اقتحام المقاومين لموقع الدبشة، وسقوطه بقبضة المقاومين، وتقهقر القوّة الإسرائيلية الغازية التي كانت تشغله؛ هو أول العمليات المصورة. وقد صير إلى عرض الفيلم واستثمار الصورة في حرب نفسية، بعدما أنكر الإسرائيلي الحادث. فما كان أمام الأخير من مجال إلا الإقرار بحقيقة سقوط الموقع. يومها أسرّ السيد حسن نصر الله في أحد لقاءاته- في معرض الإشارة إلى أهمية إدخال الكاميرا إلى ساحة الحرب كسلاح من أسلحتها- إلى أننا، وان كنا ملء الثقة بأقوال المقاومين وإدعاءاتهم، إلا أنّ الإنسان من جمهور المقاومة قد تأخذ به الريبة، ويساوره الشكّ، فيظن أنّ المقاومين قد يبالغون بعض الشيء في توصيف الحدث؛ فتأتي الكاميرا لتزرع الثقة والطمأنينة في قدرتنا وإمكاناتنا، قبل أن تعمل على كشف زيف إدعاءات الإسرائيليين وضعفهم .

(303) إنّ استعمال حزب الله لتقنية زرع المراسل داخل صفوف المقاتلين، كان في عملية اقتحام موقع الدبشة في العام 1993، في حين أنّ الجيش الأميركي، توسّل هذا الأسلوب لأول مرة في غزوه للعراق في نيسان من العام 2003، فيما عرف بحرب الخليج الثانية.

(304) لقد ردّ حزب الله على الإعلام الإسرائيلي المفبرك، بإعلام موضوعي مدروس ومتزن، صيغ بدون مبالغة ولا تضخيم، وخاصة عندما كان يصار إلى نقل الوقائع بالصوت والصورة، وبلا تدخل مباشر بالحدث، ما أشاع مزيداً من الثقة بأقواله، وأكسبه المصداقية والمهنية، ومنحه المرجعية والقبول. أنظر: محسن صالح، المقاومة والأعلام– مقاربة سوسيولوجية، من مجموعة بحوث في كتاب: صورة المقاومة في الإعلام– حزب الله وتحرير الجنوب؛ تحرير محمد محسن وعباس مزنر، ط1، بيروت: مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث، العام 2001، ص66.

(305) ينقل علي شعيب- مراسل إذاعة «النور» وقناة «المنار»- في مذكراته عن حرب تموز – آب من العام 2006، كيف كانت الفضائيات والإخباريات ووكالات الأنباء العالمية والمحلية على حدّ سواء، تتواصل معه لتنهل منه الأخبار ولتضطلع على حقائق الأحداث، بوصفه المراسل الذي

يعاين المجريات والوقائع عن قرب، وينقلها بأمانة كما تحدث في عالم الواقع دونما مبالغة، أو غلو، أو فبركات وتلفيقات وتزييف.

(306) رفيق نصر الله، الإعلام والمقاومة، من مقابلة في مجلة بقية الله، السنة العشرون، العدد 235، نيسان 2001 ، ص 39 .

(307) رفيق نصر الله، م. ن.، ص 39.

(308) كان الإسرائيلي قد حجز لنفسه مكاناً متقدماً ومرموقاً على الساحة الإعلامية، وذلك بعد أن خاض غير تجربة إعلامية ناجحة، كشفت عن قدرات مهنية وتقنية بالغة التطور، وأكسبته- عن جدارة- غير قضية مفاهيمية مرتبطة بالصراع العربي الإسرائيلي، لاسيما إذا ما صير إلى مقارنتها وموازنتها بتجارب الإعلام العربي الذي كان محل تندّر دائم من قبل القادة الصهاينة. أنظر: حسين سلامة، حزب الله في العقل الإسرائيلي؛ دراسة أكاديمية حول تأثير حزب الله والمقاومة على العدو الصهيوني، ط1، بيروت: مركز الاستشارات والبحوث، العام 2006، ص 112.

(309) عوديد غرانوت، إرهاب وحرب نفسية. أنظر: صحيفة معاريف الإسرائيلية، العدد الصادر في 25/5/2001.

(310) عوديد غرانوت، م. ن.

(311) حسين سلامة، م.س.، ص 113.

(312) يعرض منير شفيق لبالغ العناية التي أولاها حزب الله للعملية الإعلامية خلال الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز- آب من العام 2006، حيث يقول: «إنّ القدرة في جبهة حزب الله، على مواصلة الإعلام؛ كانت لا تقل أهمية في الحرب عن الحفاظ على أمن مواقع الصواريخ، أو القوات، ومراكز القيادة». أنظر منير شفيق، الإستراتيجية والتكتيك في فن علم الحرب، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008، ص 241.

(313) منير شفيق، الإستراتيجية والتكتيك في فن علم الحرب، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008، ص234.

(314) جمال الخطيب ، من دراسة بعنوان (حرب تموز 2006 في الإستراتيجية والتكتيك ؛ تقييم عسكري وتقني).

(315) تشير الوقائع والمعطيات إلى أنّ الحرب الاكترونية التي دارت رحاها على غير صعيد بين حزب الله وإسرائيل؛ لم تبق أسيرة واقعها الضيّق والمحدود، بل امتدت واتسعت مروحة اشتغالها وعملها لتشمل المتعاطفين مع القضايا الوطنية والتحرّرية والإنسانية من غير جنسية وقطر. فقد نظم الهاكرز من العرب والأتراك والإيرانيين، ومن ناشطي الحركات التحرّرية والقضايا العادلة في العالم، هجمات استهدفت الإضرار بمواقع إسرائيلية؛ كالفريق التركي الذي يدعى «إيلديز»، وكالمجموعة المغربية التي أطلقت على نفسها «فريق الشر»... حيث صير إلى الاستيلاء مراراً على مئات المواقع الشخصية والرسمية التابعة لشركات عالمية وإسرائيلية منها موقع «سيارو» الإسرائيلي. كانت هذه الجماعات المنظمة تعكف على عرض صور تظهر وحشية

إسرائيل وبربريتها. كما تستبدل الصفحات الرئيسة للمواقع المستهدفة بمقالات وكتابات تدين إسرائيل وتجرّمها.

(316) عوفر شيلح، لغز نصر الله. مقال منشور في صحيفة يديعوت أحرونوت، في عددها الصادر بتاريخ 8/6/2000.

(317) لجنة فينوغراد هي لجنة إسرائيلية متخصّصة، كلفت النظر بأسباب الإخفاق والهزيمة التي مُني بها الجيش الإسرائيلي في حرب لبنان الثانية (وفقاً للتسمية الإسرائيلية). وكانت قد عينت بتاريخ السابع عشر من شهر أيلول من العام 2006 ، وحملت رسمياً مسمى: «اللجنة لفحص أحداث المعركة في لبنان 2006». وتألفت اللجنة من: د. ألياهو فينوغراد (رئيساً) ، وعضوية كل من: البروفيسور روت غبيزون ، البروفيسور يحزقيل درور، العميد احتياط د. حاييم ندل، العميد احتياط مناحيم عينان. وفوضت اللجنة مهام الفحص والمعاينة، والتوصّل إلى توصيات وخلاصات واستنتاجات على المستويين السياسي والعسكري في كلّ ما خصّ الحرب على لبنان التي كان الإسرائيلي قد بادر إليها في الثاني عشر من شهر تموز من العام 2006. عكفت اللجنة على إصدار تقريرها الجزئي في الثلاثين من شهر نيسان من العام 2007، كما وأصدرت تقريرها النهائي في الثلاثين من شهر كانون الثاني من العام 2008، والذي يقع في 621 صفحة من القطع الوسط، موزّعة على جزءين، وخمسة أبواب، وثمانية عشر فصلاً.

(318) عقد الأمين العام لحزب الله مؤتمراً صحافياً، بعد عملية الأسر الناجحة التي نفذتها المقاومة الإسلامية، وذلك في الرابعة من عصر يوم الأربعاء الواقع فيه 12 تموز من العام 2006، في مسجد الإمامين الحسنين (ع) في حارة حريك في الضاحية الجنوبية لمدينة بيروت.

(319) يقول عوفر شيلح في كتابه (أسرى في لبنان): «من الصعب معرفة إذا ما كان نصر الله أدرك فعلاً روح الإسرائيليين، لكن لا شكّ في أنه عرف كيف يهين زعماء الإسرائيليين. ففي المؤتمر الصحفي الذي عقده بعد عملية الأسر، أوصى نصر الله أولمرت وبيرتس (الجديدين في منصبيهما) بأن يتعلما من تجربة القدامى والأكثر خبرة منهما، باراك وشارون، اللذين فضلا عدم الدخول في مواجهة مع حزب الله ... أولمرت وبيرتس شعرا حتماً بأنّ نصر الله لا يعبّر فقط عن رأيه الشخصي، بل أيضاً عن رأي كثيرين من مواطني إسرائيل».

(320) كان رئيس الحكومة الإسرائيلية إيهود أولمرت، قد مَثل للإدلاء بشهادته وإفادته أمام لجنة التحقيق المختصّة (فينوغراد)، في الأول من شباط من العام 2007 .

(321) مشهد حيّ بثه التلفزيون الإسرائيلي مباشرة خلال تغطيته ونقله لوقائع زيارة ميدانية تفقدية قام بها وزير الدفاع الإسرائيلي عمير بيرتس إلى الجبهة، لغرض رفع معنويات جنوده المنهارة في أعقاب فشل الحرب على لبنان . إلا أن ما انطوى عليه المشهد من دلالات، تأدّى إلى رسائل عكسية ضارة، أساءت إلى سمعة المؤسّسة العسكرية الإسرائيلية؛ فقد ظهر وزير الدفاع، وهو يحمل منظاراً مغلق العدسات– في مشهدية ساخرة معبّرة لا تحصل حتى في أفلام الكرتون، كما في الأعمال المسرحية الكوميدية– كان يراقب بجدية بالغة من خلاله مناورة عسكرية وأعمال تدريب، يجريها الجيش الإسرائيلي على الحدود مع لبنان.

(322) من خطاب عرف بـ«خطاب التحرير» ألقاه سماحة السيد حسن نصر الله في مدينة بنت جبيل في الخامس والعشرين من أيار من العام 2000، على إثر اندحار الجيش الإسرائيلي من

جنوب لبنان، خلا مزارع شبعا المحتلة . ثم عرف لاحقاً لرمزيته بـ«خطاب العنكبوت».

(323) يعلق رون شليفر على محاولة حزب الله تصوير إسرائيل بأنها (أوهن من بيت العنكبوت) في مقالة بعنوان «حملات الحرب النفسية خلال حرب لبنان 2006»، حيث يقول: «كانت رسالة حزب الله إبراز إسرائيل كدولة ضعيفة ومريضة، يسكنها مجموعة من الناس المنحطين، مثيراً صورة لبيت عنكبوت ممزق متطاير».

(324) بدأت عملية خيوط الفولاذ في يوم الثلاثاء الواقع فيه 25 تموز من العام 2006، وكان هدفها الأول احتلال المدينة بوصفها عاصمة حزب الله. ولكن بعد الإخفاق والفشل تحوّلت وجهة الإسرائيلي إلى مجرد الاستحواذ على صورة للنصر، يظهر فيها العلم الإسرائيلي، وهو يرفرف خافقاً فوق المكان الذي اعتلاه السيد حسن نصر الله في الخامس والعشرين من أيار من العام 2000، وألقى منه ما عرف بخطاب العنكبوت، وقد أنيطت هذه المهمة- أي رفع العلم وتصوير العملية كانتصار- إلى الكتيبة 890 التابعة للواء المظليين. إلا أنّ إرادة المقاومين من حزب الله حالت دون ذلك.

(325) يعرض بنيامين لامبث من دراسة بعنوان (العمليات العسكرية الجوية لحرب إسرائيل ضد حزب الله)، أعدّها معهد (راند) لمصلحة وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون)، اعجاب الجمهور الاسرائيلي بكاريزما السيد حسن نصر الله وقيادته، وافتنان مزاجهم العام بموهبته وفصاحة لسانه، وقدراته التواصلية. وينقل في هذا الصدد عن السفير الإسرائيلي في واشنطن داني أيالون قوله: إنّ السيد حسن نصر الله كان «السياسي اللبناني الأبرز والأكثر شعبية (...) وأكثر القادة العرب ذكاء، وأكثرهم خطورة».

(326) يعلق رون شليفر على محاولة إسرائيل دفع مفاعيل (بيت العنكبوت) بالقول: «أغرقت إسرائيل لبنان بحمام من القصاصات الورقية يظهر فيها نصر الله مسجوناً خلف شبكة من القضبان الفولاذية. أمّا العنوان فكان: «لقد أكدّ لكم (نصر الله) بأنّ إسرائيل بيت عنكبوت ... لكنه واجه شبكة من الفولاذ بدلا من ذلك. هذا الكاريكاتور كان أحد الرسائل النفسية العديدة المصمّمة لإقناع اللبنانيين عموماً، وإقناع مؤيدي حزب الله الشيعة بطريقة ما، بأنّ إسرائيل لا تزال قوّة يُحسب لها حساب. في كلّ الأحوال، لقد «تضرّرت هذه الصورة بشدّة عندما فرّ آلاف الإسرائيليين من بيوتهم في شمال إسرائيل في أعقاب هجمات حزب الله الصاروخية».

(327) كان لوقع خطابات السيد حسن نصر الله ولمهاراته التواصلية، كما لمصداقيته ولموثوقية نصه، ولقدراته السحرية المائزة على الاستنهاض والتحشيد، وعلى استمالة الرأي العام، وكسب تأييده وثقته؛ ما يعادل– خلال الحرب- فرقاً عسكرية أو يعوّض عنها. ويحضرنا هنا كمثال بالمقدور الاستدلال به، إقدام القيادة العسكرية الألمانية في الحرب العالمية الثانية، على تقويم وتثقيل مقالات «إيليا اهرنبورغ» في صحيفة «البرافدا» السوفياتية اليومية بفرقة عسكرية، أضافتها على عديد فرقها وقواتها حين قرّرت غزو الاتحاد السوفياتي.

(328) كان الباحث المحاضر في علم النفس السياسي في جامعة بن غوريون في بئر السبع الدكتور أودي ليفل، قد أعدّ بحثاً معمّقاً حول علاقة الجمهور الإسرائيلي بالسيد حسن نصر الله، خلص في محصلته إلى نشوء وضع إشكالي على نحو مفارق؛ فبدلاً «من أن يعتمد الجمهور الإسرائيلي على مرجعية قومية تطلعه وتبين له مجريات الأحداث يومياً، أصبح الجمهور يولي ثقته

في هذا الصدد لزعيم العدو الذي نحاربه». وكان ليفل قد أجرى استطلاعاً في أعقاب ما اصطلح عليه إسرائيلياً (حرب لبنان الثانية) في تموز-آب من صيف العام 2006؛ وقف فيه على حساسيات الجمهور الإسرائيلي كما على اهتماماته وموضع عنايته. سُئل المستطلعون عن المرجعية التي توفر لهم الخبر اليقين بشأن مجريات القتال والأعمال العسكرية، ومن هو الشخص الذي حظي بثقتهم المطلقة وكان على صدقية عالية. وقد جاءت النتائج قاطعة ومثيرة، أشار خلالها المستطلعون إلى السيد حسن نصر الله باعتباره أكثر صدقية وأكثر موثوقية من سائر المتحدثين والقادة الإسرائيليين.

(329) إنّ مصطلح «الغموض البناء» هو وليد الماكينة الدعائية الأميركية التي أصبحت عملية نحت وصكّ المصطلحات السياسية غير المألوفة حرفتها الخالصة، وحكر مجال اشتغالها المحجوز الذي ليس من اليسير على أحد الدخول إلى حلبة المنافسة فيه. وقد صير إلى صكّ هذا المصطلح في نهاية عقد التسعينيات من القرن العشرين، وذلك لتبديد القلق من الغموض الذي اكتنف اتفاقات أوسلو خصوصاً بعد بداية تعثر تنفيذها على أرض الواقع. وقد حاول المروّجون له الإيحاء بأنّ الغموض الكامن في اتفاقات أوسلو هو متعمّد ومقصود لغرض التغلب على عقبات إجرائية وشكلية ليس إلا، وأنّه سيُوظف في نهاية المطاف لمصلحة التسوية المزعومة. والجدير بالإلفات، أنّ مصطلح الغموض البناء هو من المصطلحات المخاتلة، المتقنة والمعدّة بعناية بالغة، بفعل ما تنطوي عليه من قصد تضليلي حيث يُناط بها أداء وظائف ومقاصد محدّدة للتضليل؛ إخفاء حقيقة النيّات، وامتصاص الجهود، وتحسين الصورة، وتجميل العيوب الظاهرة في المواقف والسياسات، وإرباك الخصم وتشويش خياراته ...

(330) لقد تقرّرت سياسة الغموض لدى إسرائيل بشأن ملفها النووي في عهد رئيس وزرائها الأسبق ومؤسّس الكيان بن غوريون. ما يعني أنّه صير إلى تبنيها– سياسة الغموض- واعتناقها والأخذ بها منذ نشأة هذا الملف، حيث أحيط الأمر بالكتمان الشديد والسرية التامة، ومنع على أيّة جهة رسمية داخل الدولة أن تصرّح، أو تقول، أو تعلن، أو توحي، أو تعترف، أو تفصح أنّ بحوزة إسرائيل قنبلة، وأنّ لديها منشآت ومفاعل. وقد أشار صاحب كتاب «إسرائيل والقنبلة» البروفيسور أفنير كوهين، إلى فضيلة الغموض وأثره البالغ في نجاح التجربة الإسرائيلية، حيث يقول: «إنّ الغموض تكلل بالنجاح وشكل حالة إدراك إستراتيجي عميقة»، كما بفضله، وفقاً للبروفيسور عوزي إيفن من دائرة الكيمياء في جامعة تل أبيب «وقع الرئيس المصري أنور السادات على معاهدة السلام مع دولة إسرائيل. فالغموض ضمن وجودنا هنا» . ويذكر أنّ مصر، كانت قد حاولت أن تشترط قبل الإقدام على توقيع اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل في آذار من العام 1979، أن تذهب الأخيرة إلى التوقيع على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية التي أبرمت في تموز من العام 1968، إلا أنّ الأمر باء بالفشل، بعد أن قوبل برفض شديد من مناحيم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك. ويذكر أن معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية قد دخلت حيز التطبيق الفعلي في العام 1970، وقد صادقت عليها 189 دولة. وحدها إسرائيل والهند وباكستان لم توقع، في حين وقعت كوريا الشمالية قبل أن تعلن عن انسحابها منها في العام 2003.

(331) تقوم السياسة النووية الإسرائيلية على تفاهم صير إليه في العام 1969 بين الحكومتين الأميركية والإسرائيلية؛ يبيح للأخيرة توسّل الغموض النووي كسياسة وإستراتيجيا، في حين تمتنع الإدارة الأميركية عن ممارسة أي ضغط يهدف لحمل إسرائيل على التوقيع على معاهدة منع

انتشار الأسلحة النووية. وكانت الإدارات الأميركية المتعاقبة قد التزمت بذلك التفاهم الودّي، غير المكتوب، حيث مارست- في هذا الصدد- سياسة (لا تسأل ... لا تقل). وأكثر من ذلك فقد وفرّت الولايات المتحدة الأميركية للغموض النووي الإسرائيلي مظلة سياسية، ليس آخر تمثلاتها ما صير إلى ممارسته من تصعيد وتهويل وضغوط، خلال اجتماع مجلس حكام الوكالة الدولية للطاقة الذرية في فيينا في أيلول من العام 2010؛ إذ بذلت واشنطن إرهاباً دبلوماسياً وسياسياً موصوفاً لحضّ الدول العربية على الرجوع عن مشروع قرار هدفه كشف القدرات النووية الإسرائيلية، والضغط على الدولة العبرية لتوقيع معاهدة حظر الانتشار النووي والالتزام بها.

(332) يشير عوزي عيلام – رئيس لجنة الطاقة النووية في إسرائيل – إلى هذه الحقيقة بقوله: «إنّ سياسة الغموض لا تزال تخدم إسرائيل بشكل أفضل، ولذلك لا مجال للتنازل عنها، ولن أشرح أكثر من ذلك». أنظر : سارة ليفوفيتش، جبهة الغموض النووي والسرّ الذائع، من مقال منشور في صحيفة معاريف في عددها الصادر بتاريخ 21/ 5/ 2010.

لكنّ هذا الاحتفاء الإسرائيلي بسياسة الغموض حيال الملف النووي كان دونه بعض الأصوات الاعتراضية؛ فموشيه ديان كان يظن أنّ على إسرائيل إشهار وإعلان خيارها النووي، ولكنّ دعوته لم تلق آذاناً صاغية، فبقيت إسرائيل الرسمية تصر على موقفها. وفي هذا السياق يجمل الدكتور يوئيل كوهين في كتابه (المنذر من ديمونا) سلسلة طويلة من المحاولات الإسرائيلية الفاشلة لاقتحام جدار الغموض.

(333) إنّ السعي إلى امتلاك القدرات النووية، لطالما كان هدفاً ومصلحة إسرائيلية عليا. ذلك أنّ إسرائيل كانت تدرك تماماً أن ضيق عمقها الحيوي، وصغر مساحتها، وقلة مواردها البشرية، ونشأتها الغصبية، وانغراسها في إقليم جغرافي لا تمّت إليه بصلة، لا حضارياً ولا ثقافياً ولا لغوياً، وبنحو يحول دون اندماجها وتطبّعها أياً تكن المبرّرات والذرائع التي تقدّم، ومهما كانت صيغ السلام المزعوم التي تطرح وتسوّق... كانت إسرائيل تدرك أنّ كلّ ذلك يحتّم عليها اقتناء السلاح النووي. كما يحتّم عليها بالقدر نفسه انتهاج سياسة الغموض البناء حيال هذا الأمر. وقد بدأت الملامح الأولى لهذه السياسة بالتبلور والتشكل، وفق ما تفصح عنه عملية البحث عن الجذور، في تصريح ديفيد بن غوريون– أول رئيس حكومة إسرائيلية- لدى تعليقه على ما أثير من صخب حول أمر مفاعل ديمونا، في شهر كانون الأول /ديسمبر من العام 1960، حيث نفى الطابع العسكري بالقول: «إن مركز ديمونا أقيم لأغراض سلمية».

وبعد ذلك صار الغموض النووي ديدن إسرائيل ودينها؛ ففي العام 1963 أعلن البروفيسور شمعون يفتاح المدير العلمي لبرامج التطوير في وزارة الدفاع أنّ إسرائيل لن تقيم معمل فصل كيميائياً لإعداد البلوتونيوم الذي ينتجه مفاعل ديمونا. وفي العام 1965، أشار وزير العمل يغئال آيالون إلى أنّ إسرائيل لن تبدأ السباق النووي في المنطقة.

واستمرّ الأمر على هذا النحو، وتنافست فيه كل الحكومات التي تعاقبت؛ فقد كشفت صحيفة هآرتس الإسرائيلية في عددها الصادر في 28 تموز من العام 2010، من مقال بعنوان (تكليس قانوني)، عن قيام رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو في 11 تموز من العام 2010 بالتوقيع على تعليمات تطيل أمد الكشف عن الوثائق السرية في الأرشيف الإسرائيلي ، وتطيل– بالتالي- إمكان إخفاء إسرائيل لأسرارها النووية؛ لقد مدّد نتنياهو سريان قانون السرية على وثائق الدولة العبرية

لعشرين سنة أخرى، على نحو بات معه القانون يفرض سرية لسبعين عاماً، بعد أن كانت سابقا لخمسين عاماً. ما يعني أنّ أولى الوثائق التي ستحرّر لعناية الجمهور ستكون فقط في العام 2018.

(334) تحرص إسرائيل على عدم نفي أو تأكيد حيازتها وامتلاكها لقدرات نووية، وذلك بموجب إستراتيجية (غموض) من شأنها أن تجلب للدولة العبرية قدرات ردعية تكبح اندفاعات الأعداء، وتحول دون تفعيلهم لقدراتهم، وفي الوقت نفسه تجنب الدولة استفزازات علنية يمكن أن تشعل سباق تسلح في الشرق الأوسط. وقد أشارت الدكتورة إميلي لانداو - ترأس مشروع مراقبة التسلح والأمن الإقليمي في مركز دراسات الأمن القومي في جامعة تل أبيب– إلى هذه الحقيقة، حيث تقول إن «تدنّي الإنكشاف يسمح للحروب بأن تجري بعيداً عن الموضوع النووي، ويهدّئ المنطقة، كما أنه يصدّ الضغوط على الدول العربية لامتلاك قدرات نووية». أنظر: سارة ليفوفيتش، جبهة الغموض النووي والسر الذائع، من مقال منشور في صحيفة معاريف الإسرائيلية، في عددها الصادر بتاريخ 21/ 5/ 2010 .

لقد هدفت اسرائيل من خلال توسّل سياسة الغموض في مجال الاستحواذ على القدرات النووية إلى تحقيق غير غاية في آن معاً: فإلى جانب ما لهذه الأخيرة من قيمة ردعية؛ ثمّة سعي إلى تجنيب المنطقة سباق تسلح في هذا المجال، من خلال عدم إثارة شهية الدول الأخرى على تفعيل مثل هذه القدرات، وإعطاب ميولاتها ونزوعاتها على هذا الصعيد. ما يمنح إسرائيل حصرية الاحتفاظ بمساحة التوتر الفارقة في موازين القوّة المختلة أصلاً لمصلحتها. هذا فضلاً عن أنّ الغموض هنا من شأنه أن يمنح إسرائيل- لا سيما مع الدول الصديقة لها- مزيداً من القدرة على الابتزاز والمساومة للحصول على الأسلحة التقليدية الاكثر تطوراً وفعالية، وهو ما أجادت إسرائيل تثميره على نحو موجب.

(335) أتقن حزب الله وبمستوى ممتاز سياسة (التطنيش الإعلامي) إزاء كلّ ما يصدر عن الإسرائيلي من تسريبات وأخبار وفبركات. وبرع- إلى حدّ بعيد- في استخدام إستراتيجية (الغموض البنّاء) التي أسهم توافر شروطها الموضوعية والمعيارية في تحقيق نتائج باهرة. ولعلّ أبرز هذه الشروط «هو السياج الأمني الحديدي حول المعلومات العسكرية والأمنية التي تمسّه». والبعد من «الاستعراض الإعلامي والدعائي». أنظر: غابرييل سيبوني وآخرون، الإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية ضد حماس وحزب الله؛ ترجمة عدنان أبو عامر، ط1، بيروت: باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية، 2011، ص 30.

(336) يوعاز هندل، إخفاقات الاستخبارات التكتيكية في حرب لبنان، انظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، ملحق خاص، السنة الأولى، العدد 292، الأربعاء في 1 آب، العام 2007، ص 8.

(337) كانت فصلية (معرخوت) الإسرائيلية، التي تعنى بالدراسات العسكرية، قد نشرت- بعد مرور ثلاث سنوات على حرب لبنان في صيف العام 2006 - بحثاً لرئيس فرع التطبيقات في سلاح البحرية الإسرائيلي المقدّم روبي سندمان، يُظهر تفوّق حزب الله على الجيش الإسرائيلي في جوانب ميدانية عديدة. وتنهض المنهجية التي توسّلها البحث على طريقة تقويم لأداء كلّ من الجيش الإسرائيلي وحزب الله، قوامها الطلب من أربعةٍ وعشرين ضابطاً رفيع المستوى- من رتبة مقدم وما فوق- وعبر استبيانات توزّع لهذه الغاية، إعطاء علامات تقدير في مجالات ترتبط بالحرب، دون أن يقتصر إهتمام البحث على معاينة نتائج حرب العام 2006، بل تجاوزها إلى دراسة

جهوزية الجيش الإسرائيلي في مواجهة التهديدات المستقبلية. وقد أشرت نتائج البحث ومخرجاته إلى تفوّق حزب الله في مجال الاستخبارات، إذ حصل على سبع نقاط من أصل عشر، في حين حصل الجيش الإسرائيلي على ست نقاط فقط. وفي مجال الإستراتيجية حصل حزب الله على تسع نقاط، بينما حصل الجيش الإسرائيلي على خمس. أمّا في مجال القيادة والسيطرة فحصل الحزب على ثماني نقاط مقابل ست نقاط للجيش الإسرائيلي. كما تفوّق الحزب في مجال السعي إلى الحسم إذ حصل على ثماني نقاط مقابل أربع نقاط للجيش الإسرائيلي. وكذلك في مجال التأهيل والتنظيم حيث حاز حزب الله على ثماني نقاط قي قبالة سبع نقاط حازها الجيش الإسرائيلي.

(338) صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثانية، العدد 521، الاثنين في 12 أيار، العام 2008، ص 14، 15 .

(339) يعرض منير شفيق لتجربة حزب الله في حرب العام 2006 ضداً على الجيش الإسرائيلي؛ فيرى إلى إسباب انتصار حزب الله أنّها تكمن في إتقان الأخير الإخفاء المحكم للقوات، ولمواقع الصواريخ، ولحركة استخدام الصواريخ غير المحمولة، كما الإخفاء الجيّد لمراكز القيادة، والحفاظ على الاتصال بين القيادة وكلّ مواقع الجبهة. ويندرج في هذا السياق، الجهد الطويل الأمد «الذي صير إلى تثميره في الإعداد للدفاع، وبأعلى درجات السرية، وبلا ثرثرة أو مباهاة، والتوزيع المفكر به جيداً والمخفى عن معلومات العدو». أنظر: منير شفيق، الإستراتيجية والتكتيك في فن علم الحرب، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008، ص233، 234.

(340) إسلام أون لاين.نت، حرب كسر الإرادة، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم- ناشرون، 2007، ص 96 .

(341) امل سعد، حرب حزب الله الأخيرة. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثالثة، العدد 896، السبت في 15 آب، العام 2009، ص20.

(342) يذهب الخبير في مجال الحروب النفسية الدكتور رون شليفر إلى «أن إسرائيل هزمت على حلبة الحرب النفسية في مواجهة حزب الله»، معللا ذلك في حديث له إلى القناة السابعة في التلفزيون الإسرائيلي، بأنّ «حزب الله يتحدّث بصوت واحد، صوت نصر الله، وهو ما يسهّل عليه الحرب النفسية– الشعبية ضد إسرائيل»، ويمنحه بالتالي أرجحية تفاضلية عليها.

ولم يكن رئيس حركة شاس إيلي يشاي– وزير الصناعة والتجارة في الحكومة الإسرائيلية، وعضو منتدى السباعية المقلص عشية الحرب على لبنان في تموز من العام 2006 – بعيداً من هذا الإقرار؛ فقد أفاد هو الآخر في شهادته خلال مثوله أمام لجنة فينوغراد، بأنّ : «إسرائيل فشلت في أدائها الإعلامي خلال الحرب، وأبقت المنصة للعدو، فلم يمرّ يوم من دون أن يهبّط (الأمين العام لحزب الله السيد حسن) نصرالله المعنويات قائلاً اليهود يخسرون».

(343) يذكر بنيامين لامبث من دراسة بعنوان (العمليات العسكرية الجوية لحرب إسرائيل ضد حزب الله)، صير فيها إلى مقاربة أسباب الفشل الإسرائيلي في حرب تموز- آب من العام 2006: «أنّ أول غزو بري بقوات تقليدية قام به الجيش الإسرائيلي بدأ في السابع عشر من شهر تموز قرب قرية مارون الراس الحدودية، ليكتشف الإسرائيليون– حينذاك - للمرة الأولى إلى أي مدى تعتبر مواقع حزب الله محصنة، وهو أمر لم يكونوا مدركين له في السابق».

ويشير لامبث إلى أنّ «دفاعات حزب الله المحصنة جيداً أثبتت أنها عصيّة على الهزيمة أكثر بكثير مما تصوّر الإسرائيليون»، في دلالة على تصحّر معرفي وفشل استخباري بالتنبؤ وبتقدير الواقع الذي عليه حزب الله . لتخلص الدراسة إلى تبرير إخفاق إسرائيل ربطاً بـ«فشل قادتها السياسيين والعسكريين بتقييم العدو بشكل صحيح».

(344) تنقل الدراسة التي أعدّها سلاح البحرية في الجيش الأميركي، في معرض الاستدلال على تطبيقات وترجمات منهجية عمل حزب الله القائمة على مبدأ (المعرفة على قدر الحاجة)، كلاماً منسوباً إلى الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله يعرب فيه عن عدم درايته بالأماكن المعدّة لإحتجابه وتخفيّه، حيث صير إلى إخفائه فيها خلال حرب تموز من العام 2006، «حتى أنا» والكلام للسيد «لم أعرف أين كنت». أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثانية ، العدد 521، الاثنين في 12 أيار، العام 2008، ص 14 .

(345) يرى العميد المتقاعد الياس حنا أنّ حرب تموز- آب من العام 2006؛ تكشّفت عن فشل مريع منيت به إسرائيل في مجال الاستعلام التقني. إذ أفصحت مجريات الحرب وفصولها عن فقر وتصحّر معلوماتي كان عليه الإسرائيلي، حيث لا معلومات رئيسة يمتلكها عن حزب الله في الميدان، ولا قاعدة بيانات محكمة بالمقدور الركون إليها لاتخاذ قرار، معتبراً- والكلام لحنا- أنّ إسرائيل «حتى في الميدان الإستراتيجي فشلت».

(346) لقد أخذ سلاح الجو الإسرائيلي خلال عدوانه على لبنان في صيف العام 2006 بأسلوب «مط الهدف»، وذلك بعد أن استنفد بنك أهدافه المعدّة والناجزة. وكان يريد من خلال توسّله بهذا الأسلوب؛ تقطيع الوقت المتبقي للحرب، وملأه بصخب الطائرات وهدير المدافع وضجيج الانفجارات للحفاظ على الأجواء الحربية والقتالية، بانتظار تخريجات وتسويات مشرفة تحفظ ما تبقى من ماء الوجه. وليس أدلّ على بيان هذه الحقيقة من معاينة مشهدية القصف المبعثرة، وملاحظة خريطة توزّعه على نحو فوضوي، بعد ساعات معدودات على نشوب الحرب، حيث يتكشّف الأمر عن استنفاد الطائرات لأهدافها، إذ لم يعد بحوزتها ما تتنكبه بالمعالجة والضرب. بل إنّها كانت تعاود الإغارة مراراً، وفي أوقات متقطعة على الهدف الواحد، بالرغم من كونه قد دمّر بالكامل، واختفت معالمه منذ الاستهداف الأول. ما كان ينبئ بعجز العقل الأمني الإسرائيلي كما بقصوره عن ابتداع أهداف جديدة، فضلاً عن قدرته على تحديث معلوماته وتطويرها بهذا الشأن. «إنّ جزءاً كبيراً من الأهداف التي هوجمت» يقول الجنرال أودي شيني في تقريره النهائي بوصفه رئيساً لطاقم التحقيق الذي أنيطت به مهمة النظر في العلاقة بين الأركان العامة وقيادة المنطقة الشمالية خلال الحرب على لبنان «كانت أهدافاً فارغة اختلقت بين ليلة وضحاها». ولم يكن سلاح المدفعية أحسن حالاً، بل كان هو الآخر يخبط على غير هدى باتجاهات يصار فيها إلى تخمين وجود منصات إطلاق صاروخية «كانت المدفعية الإسرائيلية» وفق ما أفاد تقرير شيني «تطلق قذائفها بناء على تخمينات لا معلومات استخبارية»... ما جعل كلّ الجهود التي بذلت في هذا المجال غير ذات جدوى وغير ذات صلة.

(347) يضيق المقام هنا عن تعداد أسماء العملاء الذين صير إلى الكشف عنهم، وإلقاء القبض عليهم من قبل حزب الله. ولقد أشرّت الوقائع والمعطيات إلى نجاح الأخير في تفكيك أخطر شبكات التجسّس العاملة لمصلحة أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية.

(348) يشير العميد المتقاعد أمين حطيط في مقاربة لموضوعة الحرب السرية بين حزب الله وإسرائيل، إلى أنّ الأخيرة توسّلت الأساليب السرية نفسها التي كانت تمارسها سابقاً في مواجهة حركات المقاومة الأخرى، كما الأنظمة والدول العربية، أي عبر «زرع جيوش من العملاء». إلا أنّ الحزب – والكلام لحطيط - استطاع «إقتلاع عيونها وآذانها من منطقته»؛ إذ أقدم خلال ساعات على انطلاق عجلة الحرب في شهر تموز من العام 2006، على تطهير كامل منطقة العمليات والمواجهات، بأن أخرج «كلّ من كان هناك شكّ في إمكانية تقديمه المعلومات للعدو».

(349) لم يكتف حزب الله بتفكيك شبكات العملاء، بل صيّر- في أحايين كثيرة- عملية التجنيد الإسرائيلي إنجازاً استخبارياً بالغ التعقيد، قوامه تحويل ولاء العديد من العملاء والجواسيس الذين تمّ تشغيلهم من قبل الاستخبارات الإسرائيلية، والذين كانوا يعكفون على إرسال تقارير ومعلومات ذات صلة بحزب الله (مواقع، أفراد، مراكز، أسلحة، استحكامات، مخابئ...). ما مكن حزب الله من تسريب فبركات، وضخ معلومات زائفة، وبث أخبار خادعة ومضللة إلى الأجهزة الأمنية الإسرائيلية. والحال، كثيراً ما كان ينظر إلى الأهداف الناجزة والمعدّة في ما يصطلح عليه إسرائيلياً بـ«بنك الأهداف»، بوصفها أهدافاً غير موجودة.

(350) استطاع حزب الله اختراق المجتمع الإسرائيلي وضمناً مؤسّسة الجيش في غير مستوى، وحقق في ذلك نجاحات عظيمة، لعلها غير مسبوقة في تاريخ الصراع العربي مع الدولة العبرية. فمنذ الانسحاب الإسرائيلي القسري والقهري من لبنان في الخامس والعشرين من شهر أيار من العام 2000، لاحظ جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي (الشاباك) تفعيلاً لمعدلات تجنيد العملاء داخل إسرائيل، من الذين يصار إلى تشغيلهم لمصلحة حزب الله. وقد أفصح غير تقرير أمني إسرائيلي عن عمليات كشف واسعة طاولت أكثر من عشرين شبكة تجسّس. ففي شهر تشرين الثاني من العام 2007؛ أصدرت المحكمة المركزية في حيفا حكماً بالسجن لمدة ثلاث سنوات مع وقف التنفيذ على فتاة من ما يسمّى (عرب- 48)، وذلك بعد اتهامها بالتخابر مع حزب الله، حيث صير إلى تجنيدها عندما كانت تدرس الطب في جامعة أردنية.

وكان من بين الموقوفين الذين تمّ الكشف عنهم المدعو إسماعيل سليمان الذي أدين بتهمة تقديم معلومات لحزب الله عن تحركات وحدات من الجيش الإسرائيلي في المنطقة التي يقطنها والتي تقع إلى الشمال من حدود الكيان الإسرائيلي. وكانت لائحة الاتهام قد ذكرت أن سليمان التقى في شهر أيلول من العام 2008 ناشطاً من حزب الله خلال تأديته لمناسك العمرة، حيث اتفق الاثنان على أن يزوّد الأول الحزب بمعلومات أمنية حسّاسة.

وفي شهر شباط من العام 2008؛ أوقفت إسرائيل جندياً بتهمة التجسّس لمصلحة حزب الله، بعد الاشتباه بنقله معلومات حول قواعد عسكرية. وقبل ذلك تمكنت السلطات الإسرائيلية من كشف شبكات للعملاء من سكان قرية بيت زرزير البدوية، صير إلى تجنيدهم وتشغيلهم من قبل حزب الله. وقد حكم على أحدهم – المدعو عمار رحال- بالسجن لمدة ثماني سنوات بتهمة التجسّس. كما ضبطت من القرية نفسها شبكة أخرى يترأسها ضابط في الجيش الإسرائيلي يحمل رتبة عقيد هو عمر الهيب، الذي حكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً بتهمة التجسّس والعمل لمصلحة عدو خارجي. وكانت السلطات الأمنية الإسرئيلية قد أشارت إلى أنّ الوسيط بين حزب الله وهاتين الشبكتين، يدعى جمال رحال، وهو من مواطني القرية نفسها، وسبق له أن خدم في الجيش

الإسرائيلي كقصّاص للأثر. وقد حكم عليه مؤخراً بالسجن لمدة ثمانية عشر عاماً بتهمة التجسّس والتخابر مع أجنبي.

والجدير بالإلفات، أنّ جهود حزب الله في تجنيد العملاء لم تقتصر على المواطنين العرب من المقيمين في داخل الكيان الإسرائيلي الغاصب لفلسطين فقط ؛ بل توسّع نشاطه الاستخباري ليشمل العديد من السياح والإسرائيليين أيضاً: فقد أعلنت الأجهزة الأمنية الإسرائيلية المختصّة أنّها ألقت القبض على المدعو أحمد الأشوح، وهو سائح دنماركي من أصل فلسطيني، حكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات بتهمة إرساله من قبل حزب الله لجمع معلومات عن أهداف داخل إسرائيل.

وفي سياق متصل، حصل حزب الله في العام 2001، على خرائط ومعلومات خاصة بتحركات قوات الأمن الإسرائيلية على الحدود الشمالية مع لبنان، من خلال الاتصال باثنين من رجال الشرطة اليهود هما شمعون مالكا وايتان رودكو، حيث صير إلى تجنيدهما مقابل حصولهما على مبالغ مالية محدّدة. وقد تعاون الشرطيان الإسرائيليان الى أبعد الحدود وفق ما أفادت به الجهات القضائية المختصّة. هذا فضلاً عن محاولات دؤوبة يبذلها حزب الله على غير صعيد، ويتوسّل من خلالها إقامة علاقات داخل الكيان الإسرائيلي وخارجه مع صحفيين عرب ويهود، كما مع رجال أعمال إسرائيليين، وفق ما يذهب إليه يوسي ميلمان الصحافي في جريدة هآرتس، والمتخصّص في شؤون التجسّس والاستخبارات فيها.

(351) مات ماثيوس، لقد أخذنا على حين غرة: حرب العام 2006 بين حزب الله وإسرائيل، ط1، دراسة أعدّت لمصلحة الفنون القتالية في الجيش الأميركي، العام 2008،ص72.

(352) أنطوني جوردزمان، الدروس المستقاة من الحرب الإسرائيلية في لبنان، ط1، واشنطن: معهد الدراسات الإستراتيجية والدولية، العام 2008، ص37 .

(353) تشترط أساسيات العلم العسكري توافر معرفة مسبقة بالبيئة العملياتية كما بطبيعة العدو. لكنّ الاستخبارات الإسرائيلية لم تفلح على هذا الصعيد حيال حزب الله، إذ كانت تعاني دائماً نقصاً حادّاً في المعلومات والمعطيات اللازمة والضرورية. وقد اعتبرت لجنة فينوغراد هذا الأمر مسبّباً لفشل الحرب على لبنان في تموز-آب من العام 2006. حيث ورد في متن توصياتها وخلاصاتها إلى أنّ «قرار توجيه ضربة عسكرية مكثفة لم يكن مستنداً إلى خطة شاملة ومعتمدة على الدراسة بعناية للخصائص المعقدة لساحة النزال اللبنانية».

(354) يشير الباحث في الشؤون العسكرية يوعاز هندل في مبحث بعنوان (إخفاقات الاستخبارات التكتيكية في حرب لبنان) إلى فجوة استخبارية كبرى تسبّبت بنحو فاعل في إخفاق وفشل إسرائيل في حرب تموز- آب من العام 2006، وقد تمثلت هذه الفجوة في عجز إسرائيل عن رسم الهيكليّات والخرائط التنظيمية، وعن معرفة السلسلة القيادية لحزب الله؛ فقد حافظ الأخير «على الغموض بشأن قادته وصلاحياتهم وانتشارهم الجغرافي. ومن عرف منهم هما أكبرهما، حسن نصر الله وعماد مغنية».

(355) يجمع الخبراء العارفون والباحثون المختصون، أنّ الجيش الإسرائيلي لم يكن لديه- عشية اندلاع الحرب في 12 تموز من العام 2006 - نظرة واضحة إلى ملاك قوات حزب الله: أعدادها، أحجامها، طبيعة أعمالها، ظروف اشتغالها، خبراتها العملية، مهاراتها القتالية، مستوى تدريبها وتثقيفها العسكري...؛ كانت ثمّة اختلافات جذرية وجوهرية في القراءات الإحصائية ذات الصلة

بعديد مقاتلي الحزب: بين قائل بألفي مقاتل، وقائل بثمانية آلاف مقاتل، وثالث، ورابع، وعاشر ... ، لا يجمع بينها سوى كونها قراءات افتراضية تفتقر إلى الدقة والعلمية، وتنبني على التخمين والتوقع والاحتمال .

(356) شكل الغموض البنّاء الذي أحاط وغلف أساليب حزب الله القتالية، وطرائق دفاعه، وتكيتيكاته الحربية، تحدّياً صعباً أمام الجيش الإسرائيلي إبّان حربه على لبنان في العام 2006؛ فقد وجد الأخير نفسه يقاتل في لبنان في مناخ عمل غير معروف (المحميات الطبيعية، منظومة أنفاق واستحكامات وتحصينات مموّهة، منظومات التحصينات الأفقية، وحدات الإطلاق اللاسلكية...)، هذا على الرغم من أن الإسرائيلي دأب طوال المرحلة السابقة على التحضّر والاستعداد، وعلى تنفيذ تدريبات قتالية مستندة إلى معرفة العدو، كما على بناء مراكز تدريبه، وإجراء مناوراته العسكرية العصرية، وفقاً لأنموذج واقعي يحاكي بيئة حزب الله.

(357) يشير عمير رابابورت– محلل الشؤون العسكرية في صحيفة معاريف- في دراسة بحثية بعنوان (الجيش الإسرائيلي ودروس حرب لبنان الثانية)، صادرة عن مركز بيغن - السادات، إلى أنّ «الجيش الإسرائيلي لم يعرف شيئاً عن قسم من المحميات، المواضع تحت أرضية، التي أنشأها حزب الله تحت أنظار فرقة الجليل على طول الحدود الشمالية (...) أثبت الاكتشاف العارض لمنظومة أنفاق وتحصينات مموّهة، أنّ الوحدات البرية عملت في بيئة غير معروفة لها». انظر: صحيفة السفير اللبنانية، السنة السابعة والثلاثون، العدد 11638، الاثنين في 12 تموز، العام 2010، ص 13 .

وفي سياق متصل، تكشّفت الشهادات التي أدلى بها ضباط وجنود الجيش الإسرائيلي على اختلاف رتبهم ومواقعهم، خلال المراجعات التي صير إلى إجرائها إسرائيلياً، للإفادة من عبر الحرب ودروسها المستخلصة، عن انعدام المعرفة لديهم، وضياعهم، وتشتتهم، وتخبطهم، وإصابتهم بالعمى، والسير على غير هدى. فلم «يكن لديهم أيّة فكرة إلى أين هم ذاهبون، وأين هم داخلون، وبأي اتجاه هم سائرون، وماذا كان ينتظرهم...، عندما وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه، في قبالة المنظومة البرية المؤثرة التي شيّدها حزب الله». انظر: يوسف نصر الله، تداعي الأسطورة؛ مقاربات نقدية لمشهدية الحرب السادسة، ط1، بيروت: دار الفارابي،2011 ، ص147، 148.

(358) ينقل أليكس فيشمان –المراسل العسكري لصحيفة يديعوت احرونوت- في مقاربة له بعنوان (صواريخ حزب الله وإستراتيجيات الحروب) حال التخبط والتشوّش المعلوماتي الذي يعتور القيادة الإسرائيلية حيال حزب الله، ويجعلها تسير على غير هدى، بسبب من أنّ المعلومات لديها تستقى– نتيجة لصعوبات معروفة- لا على أسّس علمية، وإنّما على التخمين والتكهن: «كم هو عدد أتباع حزب الله الآن في جنوب لبنان؟» يتساءل فيشمان «هناك اختلاف في الرأي، بعضهم يرى أنّ أتباع حزب الله يصلون إلى سبعة آلاف عنصر، وآخرون يرون أنّهم يصلون إلى عشرين ألفاً، وعلى أي حال، فإنّ عددهم أكبر مما كان عليه عشية الحرب السابقة».

(359) يوعاز هندل، إخفاقات الاستخبارات التكتيكية في حرب لبنان، انظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، ملحق خاص، السنة الأولى، العدد 292، الأربعاء في 1 آب، العام 2007، ص 8 .

(360) بنيامين لامبث، من دراسة تقع في 444 صفحة، بعنوان (العمليات العسكرية الجوية لحرب إسرائيل ضد حزب الله)، أعدّها معهد راند لمصلحة وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون).

أنظر صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون، العدد 11904، الاثنين في 6 حزيران، العام 2011، ص5.

(361) كان من نتائج حصانة المنظومة الأمنية المعلوماتية لدى حزب الله، كما قدرتها الفائقة على الاستعصاء والامتناع؛ أن أصيبت العملية الاستخبارية الإسرائيلية خلال الحرب على لبنان في تموز- آب من العام 2006 بالفشل والتعثر والإخفاق، إذ لم ينفع التقدّم المذهل الذي كانت عليه البنية المعلوماتية الإسرائيلية، في تحقيق الفعّالية المفترضة به سواء خلال مراحل الجمع والتصنيف والتحليل، أم خلال دعم اتخاذ القرار، ودقة التصويب، وانتقاء الأهداف التي يؤدّي تدميرها لتحقيق إنجازات عسكرية مؤثرة. أنظر: جريدة الأهرام المصرية، السنة الثلاثون بعد المئة، العدد الصادر في الثاني والعشرين من آب، العام 2006، ص 3.

(362) كان شمعون بيريز - نائب رئيس وزراء الحكومة الإسرائيلية عشية الحرب على لبنان في تموز من العام 2006 – قد أقرّ في معرض الإدلاء بشهادته أمام لجنة فينوغراد بتفوّق حزب الله في ميدان الحرب النفسية. أنظر: تقرير فينوغراد.

(363) من خطبة للأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله، ألقيت في الخامس والعشرين من شهر أيار من العام 2010، في الذكرى السنوية العاشرة لتحرير الجنوب من الاحتلال الإسرائيلي، وذلك في احتفال أقامه حزب الله في مجمع سيد الشهداء (ع) في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(364) السيد حسن نصر الله ، م.ن.

(365) عملية عسكرية إسرائيلية موسعة استهدفت لبنان في الثالث والعشرين من شهر تموز/يوليو من العام 1993، واستمرّت سبعة أيام، وانتهت إلى إبرام تفاهم غير مكتوب عُرف بـ«تفاهم تموز». وقد صدر التفاهم عن (منظمة الأمن العالمي) على شكل اتفاق شفوي جاء فيه: «إنّه تمّ التوصل إلى اتفاق من طريق الفم بين إسرائيل وحزب الله، وافقت فيه إسرائيل على الامتناع عن مهاجمة أهداف مدنية في لبنان، في حين تعهّد حزب الله بوقف إطلاق الصواريخ على شمال (إسرائيل)».

(366) عملية عسكرية إسرائيلية موسّعة استهدفت لبنان في الحادي عشر من شهر نيسان/إبريل من العام 1996، واستمرّت ستة عشر يوماً، وانتهت إلى إبرام تفاهم مكتوب عُرف بـ«تفاهم نيسان»، الذي قضى بتحييد المدنيين من الطرفين وشرّع عمل المقاومة. وقد أعلن عن التفاهم في تمام الساعة السادسة من عصر السادس والعشرين من شهر نيسان/ ابريل، وأصبح نافذ المفعول في الساعة الرابعة من فجر السابع والعشرين. وشكلت لمراقبة تطبيق مندرجاته لجنة مختصّة اشتملت على ممثلين من الولايات المتحدة الأميركية وفرنسا وسوريا ولبنان وإسرائيل. نفذ سلاح الجو الإسرائيلي خلال العملية أكثر من 1100 غارة، وقامت مدفعيته بقصف شامل جاوز الـ(25132) قذيفة، فيما ردّ حزب الله بشن 639 هجمة صاروخية استهدفت شمال الكيان الإسرائيلي ولاسيما كريات شمونة.

(367) يتبدّى الإرباك الإسرائيلي أكثر ما يتبدّى على هذا الصعيد في المقاربات الإحصائية المتعدّدة للقدرات الصاروخية التي تستحوذ عليها ترسانة حزب الله العسكرية؛ كانت تصريحات القادة من المستويين السياسي والعسكري تعكف- كلازمة يومية- على الإشارة إلى ما أصبحت تتوافر عليه هذه الترسانة، وبكيفية تشفّ عن حال التخبط والضياع واللا توازن التي آل إليها

خطابه ووعيه. وللتدليل على هذه الحقيقة بالمقدور ملاحظة الارتفاع المطرد في أعداد الصواريخ وفق المتواليات التي كانت تفصح عنها الأدبيات الإسرائيلية، حيث نقع على أرقام خيالية: تنامت أعداد الصواريخ من 12 ألف صاروخ قبل الحرب إلى 20 ألفاً بعدها، ثم إلى أربعين ألفاً، ثم إلى ستين ألفاً، ثم قفز العدد إلى أكثر من ثمانين ألفاً كما جاء على لسان شمعون بيريز، قبل أن يعاود العدد أدراجه ويستقرّ على أربعين ألفاً، بعد أن تنبّه الإسرائيلي إلى مخاطر هذا النفخ والتضخيم، وما قد يتسبّب به من إثارة لمشاعر الرعب والهلع والخوف والذعر عند الجمهور الإسرائيلي، بحيث يتأدّى إلى نتائج عكسية غير مرجوّة.

(368) مقتطفات من خطاب النصر الذي ألقاه أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله في الثاني والعشرين من شهر أيلول من العام 2006، في المهرجان الاحتفالي الذي نظم في الضاحية الجنوبية على إثر انتهاء الحرب وتوقف الأعمال الحربية في الرابع عشر من شهر آب من العام 2006، على فشل إسرائيلي، وعلى هزيمة بيّنة، منكرة وغير مسبوقة في تاريخ حروب الدولة العبرية الغاصبة لفلسطين.

(369) مقتطفات من خطاب النصر في الثاني والعشرين من شهر أيلول من العام 2006.

(370) ورد كلام السيد حسن نصرالله في سياق خطبة ألقاها في الذكرى السنوية الأولى للانتصار في الرابع عشر من شهر آب من العام 2007، حيث يقول مهدّداً ومتوعّداً الإسرائيليين: «افهموها حرباً نفسية، ولكن الحرب النفسية الصادقة؛ إذا فكرتم أيها الصهاينة أن تشنوا حرباً على لبنان، فأنا لن أعدكم بمفاجآت كتلك التي حصلت، وإنّما أعدكم بالمفاجأة الكبرى التي يمكن أن تغيّر مصير الحرب ومصير المنطقة إن شاء الله».

(371) إنّ الغموض البنّاء الذي أحاط بالأطروحة التي أطلقها السيد حسن نصر الله متوعّداً إسرائيل بـ«مفاجأة كبرى» يكون بمقدورها أن تغيّر مجرى الحرب، وأن تحقق «الانتصار التاريخي الحاسم»، وأن تعيد رسم خارطة المنطقة على نحو مختلف ووفق موازين جديدة للقوى؛ لم يُربك الإسرائيلي فحسب، وإن كان لهذا الاخير من ذلك نصيبٌ وافرٌ، بوصفه مدار التصويب والاستهداف، بل أفضى هذا الغموض إلى انشغال عموم مراكز البحث والإستراتيجيا، حيث انكبّ الجميع على تحليل الخطاب وتشفيف منطوياته للوقوف على مقاصده وحمولاته: فثمّة من اعتقد أنّ المفاجأة الكبرى هي ليست إلا امتلاك الحزب لمنظومة دفاع جوي بالغة الفعالية والتطوّر. وثمّة من اعتقد أنّ المفاجأة هي توافر الحزب على صواريخ باليستية ذات مديات بعيدة وقدرات تدميرية هائلة. وثمّة من رأى أنّ «المفاجأة التي وعد بها نصر الله في حال اندلاع حرب أخرى، قد تكون هجوماً صاروخياً يستهدف المنشأة النووية في ديمونا»، وفق المطالعة التي أدلى بها ضابط استخبارات إسرائيلي خلال اجتماع (08TELAVIV224) الذي عقدته لجنة (الحوار المشتركة بين إسرائيل والولايات المتحدة حول لبنان) في العام 2008، وكان برئاسة نائب وزيرة الخارجية الأميركية لشؤون الشرق الأدنى جيفري فيلتمان.

وثمّة رأي رابع –وفقاً لأمل سعد- اعتقد أنّ المفاجأة هي توسّل الحزب إستراتيجية وتكتيكات عسكرية جديدة، ليست ذات طابع دفاعي وحسب، كما كان عليه الحال في العام 2006، وإنّما هي من طبيعة هجومية، قد تجعل فصول الحرب المقبلة وجولاتها «تخاض في داخل الكيان الإسرائيلي

أكثر مما تخاض في لبنان». أنظر: امل سعد، حرب حزب الله الأخيرة؛ دراسة بحثية منشورة في صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثالثة، العدد 896، السبت في 15 آب، العام 2009، ص20 .

(372) اغتيل الحاج عماد مغنية في الثاني عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2008، من طريق تفجير عبوّة ناسفة زرعت داخل سيارته الباجيرو في حي كفرسوسة في العاصمة السورية- دمشق، وذلك خلال مشاركته في حفل استقبال أقامه السفير الايراني– آنذاك- في دمشق حجّة الإسلام موسوي بمناسبة الذكرى السنوية التاسعة والعشرين لانتصار الثورة الإسلامية في إيران.

وفي تفاصيل العملية؛ أنّ انفجارا وقع في تمام الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين من مساء الثاني عشر من شباط، عندما همّ الحاج عماد بالصعود إلى سيارته، والجلوس على المقعد المخصّص للسائق. وذلك بعد أن قامت مجموعة من عملاء جهاز الاستخبارات الإسرائيلية- الموساد، باستبدال مسند رأس المقعد إلى يمين السائق في سيارته، بمسند مطابق له تماماً لكنه يحتوي على شحنة متفجّرات شديدة الانفجار.

ويشير غير مصدر أمني مضطلع، إلى أنّ خلية الموساد التي نفذت عملية الاغتيال، بالتعاون مع أجهزة استخبارية عربية أنيط بها مهمة جمع المعلومات عن تحركات مغنية؛ امتنعت عن وضع عبوّة موقوتة تحسباً من حدوث تغيير في التوقيت، وخشية عدم عودة مغنية إلى السيارة في الوقت المناسب. ولذلك آثروا القيام بعملية التفجير عن بعد لدى عودة الهدف إلى السيارة، وبعد أن يتأكد مشغل العبوّة إلى جلوسه في مكانه يضغط على الزر مفجّراً العبوة.

(373) كان للحاج عماد مغنية أسماء وألقاب عديدة، لكنّ «الحاج رضوان»، هو الأسم الكودي أو الحركي الذي عُرف به داخل الجسم التنظيمي والجهادي لحزب الله.

(374) كان حزب الله قد أرسل في صبيحة السابع من شهر تشرين الثاني من العام 2004، طائرة استطلاعية بدون طيار، حملت اسم (مرصاد1)، وجابت أجواء شمال الكيان الإسرائيلي، وحلقت فوق مستعمرة نهاريا منفذة عملية مسح أمني من طبيعة أولية فوق أهداف محدّدة، قبل أن تعاود طائرة ثانية من الطراز نفسه في الحادي عشر من شهر نيسان من العام 2005، التحليق مجدّدا لاستكمال مهام المسح ما بين عكا ونهاريا، وقد عادت إلى قواعدها بسلام.

ويذكر أنّ غير مصدر صحفي غربي، قد أشار- حينذاك- إلى امتلاك حزب الله لثماني طائرات استطلاعية من دون طيار، إيرانية الصنع من نوع (مهاجر- 4)، وقد أطلق عليها حزب الله تسمية (مرصاد- 1). أمّا أمين عام حزب الله فأعلن حينها أنّها صناعة لبنانية محلية، وأنها باكورة الصناعات العسكرية للحزب، وقد صير إلى تخليقها وابتداعها والتوصل إليها بواسطة قدرات المقاومة الفنية والتنفيذية، وذلك على خلاف ما حاول الآخرون اشاعته، حيث ذهبت الدعاية الصهيونية إلى القول إنّها صناعة إيرانية. تحمل هذه الطائرة ثلاث كاميرات ورادارا رقمياً ونظام إرسال إلكترونياً. كما يمكن لها التحليق على ارتفاع ستة آلاف قدم، وبسرعة قصوى قدرها 120 كلم في الساعة. أمّا قوّة محرّكها فهي 10 أحصنة. فضلاً عن ذلك تتمتع الطائرة بالقدرة على ضرب أهداف مدنية أو عسكرية في عمق الكيان الإسرائيلي الغاصب، إذا ما صير إلى استخدامها على نحو انتحاري، بوصفها تتوافر على حمل أربعين إلى خمسين كلغ من المتفجرات. كما تتوافر على مهارة الإفلات من رقابة الدفاعات الجوية، لأنّ الأخيرة ليس بمقدورها رصد طائرات استطلاعية بطيئة، وتطير على علو منخفض.

والجدير بنظر الاعتبار، أنّ هذه الطائرة قد صير إلى إنتاج الجيل الثاني منها في معامل الحزب، وحملت اسم (مرصاد- 2). وهي تعدّ من الأسلحة الإستراتيجية التي تتوافر عليها ترسانة حزب الله، بعد أن تمّ تطوير قدراتها على نحو تجاوزت فيه امكاناتها المهام الاستطلاعية التجسّسية خلف خطوط العدو إلى القدرة على حمل كميات وازنة من المواد المتفجرة، وتوجيهها إلى أبعد نقطة في الكيان الصهيوني. وقد أشار غير مصدر متخصّص إلى أنّ هذا الجيل الجديد من الطائرة يحمل صفة الذكاء، بمعنى امتلاك القدرة على انتقاء الأهداف الحيوية والوصول إليها وتدميرها، بما يتوافر عليه من أجهزة معقدة تمكنه من المراوغة والتفلت من الرقابة، والهروب من الدفاعات الأرضية، كما من المقاتلات الحربية.

(375) حظي حادث تحليق طائرة (مرصاد1) في أجواء شمال الكيان الإسرائيلي الغاصب لفلسطين، باهتمام سياسي وأمني غير مسبوق، وبتغطية إعلامية بارزة وواسعة جدا، حيث احتلّ الحدث العناوين الرئيسة في الصحف العبرية، وسط نشوب جدل إعلامي وسياسي حول توافر حزب الله- في القادم من الأيام- على القدرة والفعالية الممكنة التي تتيح له إرسال طائرة بدون طيار محمّلة بشحنة متفجّرة. والحال، وردت أنباء من داخل الكيان، أفادت أنّ الجيش الإسرائيلي قام في ضوء هذا التطوّر بنصب بطارية صواريخ من نوع (باتريوت) في منطقة حيفا.

وكان حزب الله قد أطلق طائرة بلا طيار لأهداف هجومية خلال الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز- آب من العام 2006، ولكن صير إلى إسقاطها مقابل شواطئ حيفا في السابع من شهر آب، وقد عثر على حطامها في الثالث عشر من آب في منطقة كابري.

(376) لقد وفرت طائرة الاستطلاع (مرصاد1) لحزب الله قاعدة بيانات واسعة عن الشمال الفلسطيني، حيث المستعمرات والمستوطنات والمدن الإسرائيلية، وأتاحت له استكمال منظومته المعلوماتية والاستخبارية التي كانت قد خولته– في ما مضى- اختراق حصون الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، ومعرفة أدق أسرار طبوغرافية المنطقة الشمالية جيداً، حيث أصبح بمقدوره خلال حرب تموز- آب من العام 2006 استغلال كلّ تلك المعلومات والبيانات المتراكمة لديه لإستهداف المواقع العسكرية الإسرائيلية، ولضرب البنى التحتية والمنشآت المدنية، ولإغراق كامل المنطقة الشمالية من الدولة العبرية في الركام والخراب والدمار والظلام الدامس.

(377) من خطاب الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله خلال مراسم الاحتفال السنوي الذي أقامه الحزب بمناسبة «يوم الشهيد»، في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2004، في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(378) السيد حسن نصرالله، م.ن.

(379) السيد حسن نصر الله، م.ن.

(380) السيد حسن نصر الله، م.ن.

(381) السيد حسن نصر الله، م.ن.

(382) السيد حسن نصر الله، م.ن.

(383) يدأب التقرير السنوي الذي تعدّه أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية على وضع تقديرات لحجم الترسانة الصاروخية التي يتوافر عليها حزب الله؛ فقد كشف التقرير السنوي الصادر في العام

2008، أنّ قدرات الحزب الصاروخية تضاعفت بنحو ثلاثة أضعاف عما كانت عليه حالها عند نشوب حرب لبنان الثانية، وأنّ هذا التطوّر لم يقتصر على الناحية العددية وحسب، بل تعدّاه إلى النوعية والمديات والقوة التدميرية وما إلى ذلك. في حين كشفت القناة الثانية للتلفزيون الإسرائيلي في العام نفسه، على لسان مراسلها العسكري روني دانئيل، أنّ صواريخ حزب الله أصبح بمقدورها الوصول- بعد التطوّر المطرد الذي استجد عليها- إلى المنطقة الأكثر إكتظاظاً سكانياً، وهي المنطقة المسمّاة غوش دان والتي تضم تل أبيب والمدن المحيطة بها، كما بمقدورها الوصول إلى مفاعل ديمونة النووي في صحراء النقب.

وكان موقع تيكا ديبكا الإلكتروني الإسرائيلي قد ذكر غير مرة، أنّ إيران قد زوّدت حزب الله بصواريخ من طراز فاتح 110، التي تحمل رأساً متفجرة بزنة 500 كلغ، والتي يصل مداها الى259 كيلومتراً.. ما يجعلها قادرة على استهداف التجمعات السكانية وسط الكيان الإسرائيلي وصولا إلى مدينة بئر السبع جنوباً.

وكانت مصادر عسكرية إسرائيلية قد كشفت- وفقاً لما أوردته مجلة جيروزاليم بوست في عددها الصادر بتاريخ 28 كانون الثاني من العام 2010 - عن قيام حزب الله بنشر صواريخ أرض- أرض متطوّرة من نوع M 600، وهي صواريخ ذات رأس حربية زنة 500 كلغ، وتتميّز بقدرتها العالية على الإصابة الدقيقة للأهداف، فضلاً عن أنها قادرة على إحداث دمار كبير، وبالتالي القدرة على استهداف منشآت عسكرية ومناطق مكتظة بالسكان وسط إسرائيل.

وأشار مركز المعلومات حول الاستخبارات والإرهاب إلى السلالات التي تتناسل منها منظومة حزب الله الصاروخية، وصنفها على الشكل التالي: فجر3- (43 كلم)، فجر5- (75كلم)، زلزال (125– 210 كلم)، نازعات (80-140 كلم) .

(384) صحيفة الرأي العام الكويتية، أزمة سكود تنذر بحرب شاملة بين إسرائيل وحزب الله، السنة التاسعة والعشرون، العدد الصادر في 13 نيسان، العام 2010، ص 2.

(385) يذهب الخبراء العسكريون الإسرائيليون إلى أنّ المقصود بالسلاح «كاسر التوازن»، هو السلاح الفعّال المضاد للطائرات، الذي من شأنه أن يقيّد حرية الحركة والعمل، وأن يقلص من هامش المناورة للذراع الجوية في الجيش الإسرائيلي، لاسيما بعد نجاح حزب الله في تعطيل قدرات سلاح البحرية في أعقاب إصابة البارجة حانيت آحي (ساعر 5)، كما نجاحه في تعطيل سلاح المدرعات بعد مجازر الدبابات التي حلت به في غير مكان، وبخاصة في سهل الخيام ووادي الحجير. فمثل هذا التقييد يحرم إسرائيل من القدرة الاستخبارية لسلاح الجو من ناحية، ومن القدرة العملياتية لهذا السلاح بوصفه القوّة الضاربة بين أذرع الجيش، من ناحية ثانية.

(386) يرى الإسرائيلي أنّ الإضافة التي من شأن صاروخ السكود أن يضيفها على ترسانة حزب الله الصاروخية، هي ليست إلا إضافة كمية ومعنوية. لأنّ ما لدى الحزب من قدرات في هذا المجال، يضاهي أو يفوق صواريخ سكود قوّة وفعّالية ويقوم مقامها، ولكنّ الحديث عن هذه الأخيرة يسمح بالقول، إنّ حزب الله هو التنظيم الوحيد في العالم الذي يملك صواريخ باليستية. فبعض أنواع الصواريخ الثقيلة التي تدخل منظومة حزب الله، هو أخطر بما لا يقاس من السكود، بوصفها أكثر دقة، كما إنّ هذا الأخير– أي السكود- يتطلب زهاء نصف ساعة بالأقلّ كي يصبح جاهزاً للإطلاق، بسبب من كونه يعمل على الوقود السائل. ما يعني أنّ طوال هذا الوقت يكون الصاروخ

مكشوفاً أمام وسائل الجمع الاستخباري الإسرائيلية، وبالتالي فهو عرضة للاستهداف والتصويب بدقة. فهشاشة السكود – كما يؤكد الخبراء العسكريون- تكون في أعلى مستوى لها، عندما يكون في طور التجهيز للإطلاق. وذلك خلافا للصواريخ الثقيلة الأخرى التي يتوافر عليها الحزب، والتي تعمل بالوقود الصلب، والتي يمكن إطلاقها خلال دقائق عدة من دون إعداد تقريباً. لكنّ الفارق الذي يُسجّل لمصلحة السكود - وهنا بعض خشية الإسرائيلي- هو أنّ السكود بسبب مداه الأبعد الذي يبلغه، يمكن نصبه شمال لبنان في المناطق البعيدة عن الحدود مع إسرائيل، ما يتأدّى إلى وضع صعوبات وعراقيل أمام سلاح الجو لاستهدافه.

(387) خطاب ألقاه السيد حسن نصر الله في السادس عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2010، وذلك لمناسبة ذكرى استشهاد قادة المقاومة: السيد عباس الموسوي، والشيخ راغب حرب، والقائد الجهادي عماد مغنية.

(388) لقد أصيب الانتظام المجتمعي الإسرائيلي بالذهول والصدمة على إثر التهديد الذي أطلقه أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله في السادس عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2010، والذي قضى باستهداف تل أبيب ومطار بن غوريون، إذا ما أقدمت إسرائيل على استهداف الضاحية الجنوبية ومطار رفيق الحريري الدولي. وقد صير إلى الاصطلاح على هذا التهديد بـ(عقيدة خراب تل ابيب)، كمقابل معياري لـ(عقيدة الضاحية) التي كان قد أعلن عنها قائد المنطقة الشمالية في الجيش الإسرائيلي الجنرال غادي أيزنكوت، في مقابلة أدلى بها إلى صحيفة يديعوت أحرونوت بتاريخ الثالث من شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2008.

وكانت صحيفة هآرتس في عددها الصادر في التاسع عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2010، أي بعد مرور ثلاثة أيّام على إطلاق السيد نصر الله لتهديده، قد أسمت هذا التهديد إصطلاحاً بـ(عقيدة مطار بن غوريون)، مشيرة إلى أنّ نصر الله أخرج محور الشرّ من التابوت. فقد ذهب معلقها للشؤون العسكرية عاموس هرئيل إلى القول: «إنّ ما قام به نصر الله هو إعلان خطة حزب الله المعدّة للردّ على عقيدة الضاحية، أي استهداف مطار بن غوريون وضرب تل أبيب مباشرة، ردّاً على إستهداف إسرائيل للبنى التحتية في لبنان». ومثله فعل معلقها للشؤون السياسية ألوف بن، عندما أشار إلى أنّ الأمين العام لحزب الله «حدّد موقفه بوضوح حيال عقيدة الضاحية الإسرائيلية التي تنصّ على تدمير البنى التحتية اللبنانية إذا ما تعرضت إسرائيل لهجوم بالصواريخ، وطرح في قبالة ذلك ما يمكن تسميته بـ(عقيدة مطار بن غوريون)».

(389) يبدو أنّ الإسرائيلي على دراية تامّة، وعلى قناعة لا تقبل الشكّ؛ أنّ حزب الله قد تزوّد فعلاً بصواريخ باليستية من طراز السكود، بل إنّه حصل على ما هو أشدّ منها فعالية وتأثيراً. لكنّ المشكلة الحقيقية التي تعترض الكيان الإسرائيلي لأول مرة منذ تاريخ نشأته، تكمن في عدم امتلاكه القدرة على المبادرة والفعل، وفي عجزه عن القيام بعمل وقائي أو استباقي، كما عجزه عن القيام بعمل عقابي .

(390) بالمقدور تلمّس التطوّر الملحوظ الذي طرأ على القدرات التسليحية لحزب الله بعد حرب العام 2006، بما نقع عليه في كلام السيد حسن نصر الله، حيث يعلن دون مواربة: «في الحرب الماضية قلنا إذا ضربتم بيروت، سنضرب تل أبيب. ونقول لهم في المرة المقبلة إذا ضربتم الضاحية، سنضرب تل أبيب (...) قد يفكرون أنّهم إنْ دمروا أبنية في الضاحية أننا سنحدث

أضراراً بجدران فقط (نفخّت حيطان). بل أقول لهم اليوم أنتم تدمرون بناء في الضاحية، ونحن ندّمر أبنية في تل أبيب». انظر: خطاب السيد حسن نصر الله في مهرجان الوفاء للقادة الشهداء، الذي نظم في السادس عشر من شباط/ فبراير من العام 2010.

(391) من خطاب السيد حسن نصر الله في مهرجان الوفاء للقادة الشهداء، الذي أقيم في ضاحية بيروت الجنوبية في السادس عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2010 .

(392) ورد نصّ كلام السيد حسن نصر الله في مقابلة أجراها معه تلفزيون الرأي الكويتي، وقد بثت في العاشرة من ليل التاسع والعشرين من نيسان من العام 2010 .

(393) يلحّ الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله على خوض حرب نفسية، لا تصدر من تلفيقات وتهويمات وأكاذيب، وإنّما من معطيات واقعية تتصف بمصداقية عالية، ولكن يصار إلى تقديمها على نحو مراوغ وخادع، حيث يقول: «قلت مرة إنّ لدينا أكثر من 12 ألف صاروخ. لست أكذب، ولا يحق لي أن أكذب، لكن في الوقت نفسه أعرف كيف أخوض حرباً نفسية (...) قد يكون عدد الصواريخ 13 ألفاً، أو 20 ألفاً، أو 50 ألفاً، وكلّ هذه الأرقام أكبر من 12 ألفاً، لكنني لن أكشف العدد».

وفي سياق متصل يقول السيد حسن نصر الله، من خطبة ألقاها في الذكرى السنوية الأولى للانتصار في الرابع عشر من آب من العام 2007، مهدّداً ومتوعّداً الحكومة الإسرائيلية:
«افهموها حربا نفسية، ولكن الحرب النفسية الصادقة؛ إذا فكرتم أيها الصهاينة أن تشنوا حرباً على لبنان، فأنا لن أعدكم بمفاجآت كتلك التي حصلت، وإنّما أعدكم بالمفاجأة الكبرى التي يمكن أن تغيّر مصير الحرب ومصير المنطقة إن شاء الله».

(394) خلصت اللجان الإسرائيلية الفاحصة لعوامل الإخفاق والهزيمة في حرب لبنان الثانية، إلى أنّ الصفعة التي تلقاها الجيش الأقوى في الشرق الأوسط سببها فشل الأجهزة الاستخباراتية الإسرائيلية كافة في تشخيص القوّة الحقيقية لحزب الله، ومعرفة كلّ نقاط الضعف والقوّة لديه، فضلا عما يخفيه من أوراق إستراتيجية كان يظن الإسرائيلي أنّه قد يرميها دفعة واحدة خلال الساعات والأيّام الأولى للحرب.

(395) لقد ذهب غير باحث إلى القول أنّ الغموض البنّاء الذي توسّله حزب الله كإستراتيجية فاعلة من إستراتيجيات الحرب؛ هو الذي غيّر معادلة انتصار دويلة على دول عربية متعدّدة، إلى انتصار حزب على كيان عسكري يملك من تكنولوجيا التسلح ما هو الأخطر والأعقد، ويلقى دعم ما يسمّى بالمجتمع الدولي.

(396) معناها بالعبرية «المهاجم»، وهي من السفن الحربية المتطوّرة التي يصعب رصدها، فقد صمّمت للإفلات من الرادار، ومن الأشعة ما دون الحمراء. يتألف طاقمها من 61 عنصراً (25 ضابطاً، و36 مجنداً، و10 أفراد طاقم طائرة). يبلغ طولها قرابة 86 متراً، ووزنها 1227 metric Tons، وسرعتها القصوى Knots 33، مزوّدة بأسلحة متنوعة بينها صواريخ أرض – أرض من طراز هاربون (Harpoon) ذات مدى يبلغ 130 كلم، وصواريخ أرض- جو مداها 10 كلم، ومدفع من عيار 76 ملم. تضم في مؤخرتها مهبطاً للمروحيات على نحو يجعلها قادرة على نقل مروحيتين في الوقت نفسه. أنظر: عباس النابلسي، رعب السلاح: أسرار القدرة العسكرية لحزب الله، ط1، بيروت: دار إيوان للطباعة والنشر والتوزيع، العام 2007، ص 157.

(397) صاروخ أرض- بحر. يوجّه عبر الرادار. يتضمن نظام دفع توربيني. يعمل على (البارافين). وهو صاروخ يلامس سرعة الصوت بقياس 9.0 ماك، ويزن 715 كلغ، فيما يبلغ مداه 120 كلم، ويحمل رأساً متفجرة زنة 165 كلغ، كما يتضمّن جهاز رادار صغيراً، وأنظمة مضادة للتشويش تخوّله التفلت من الصواريخ المعترضة بنسبة 98 %، وبمقدوره أن يطوف فوق سطح المياه على ارتفاع يتراوح بين 5 إلى 7 أمتار. بالمقدور إطلاقه من الطائرات والسفن والغواصات والعربات أو من القواعد الثابتة على اليابسة. ويعدّ بحق من أفضل الصواريخ الاعتراضية أو تلك المضادة للسفن. (وفقاً لنشرة غلوبال سيكيورتي).

(398) ينقل في هذا الصدد عن الخبير الإستراتيجي رياض قهوجي لدى مقاربته لأطروحة المعادلة البحرية أنّه «لم يتمّ حتى الآن تحديد نوع الصاروخ (...) ففي حين ادّعت إسرائيل أنّ الصاروخ الذي أصاب (الفرقاطة حانيت) كان صيني الصنع من طراز C-802، والذي تنتجه إيران بترخيص من الصين تحت اسم نور، نفت بكين الأمر وقالت إنّ الصاروخ كان من طراز كوسر، وهو صاروخ مضاد للسفن يطلق من منصات برية». أنظر: علي دربج، ماذا تخبئ المقاومة لإسرائيل من مفاجآت بحرية جديدة، دراسة منشورة في صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون، العدد 11946، الثلاثاء في 26 تموز، 2011، ص 4.

(399) لم يعلن حزب الله على سبيل المثال كيف استهدف البارجة، كما لم يعلن عن مكان الإطلاق، ونوعية السلاح المستخدم. كلّ ما كان قد أعلن في هذا المجال، هو استهداف البارجة، ثم لاحقاً أنّ مقاتلين من حزب الله قاموا بهذه المهمة، بعد أن صير إلى إشاعة أخبار وتلفيقات عن أن ضباطاً من قوات الحرس الثوري الإيراني، هم الذين قاموا بهذا الأمر، في محاولة من الإسرائيلي لتبرير انهزامه من جهة، ولعدم منح حزب الله أيّة انتصارات من جهة ثانية.

وقد أشارت غير دراسة عسكرية متخصّصة إلى أنّ حزب الله، ربما يكون قد توسّل بالمناورة عبر إطلاق صاروخين: أحدهما على مستوى عالٍ، والآخر على مستوى منخفض فوق سطح الماء. وذلك على افتراض عمل منظومة الرادارات، وأنظمة الرصد والمراقبة في البارجة؛ فيقوم– حينئذ- الصاروخ الأول المرتفع بإشغال الدفاعات التابعة للسفينة، في الوقت الذي يكون فيه الصاروخ الثاني المنخفض قد أخذ طريقه إلى إصابة الهدف.

(400) سارة ليفوفيتش، جبهة الغموض النووي والسرّ الذائع، من مقال منشور في صحيفة معاريف الإسرائيلية في عددها الصادر بتاريخ 21 – 5 – 2010 .

(401) سارة ليفوفيتش، م. ن. .

(402) سارة ليفوفيتش، م. ن. .

(403) من خطبة ألقاها الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله في الثالث من شهر آب/ أغسطس من العام 2010، وذلك في المهرجان الاحتفالي الذي أقامه الحزب بمناسبة الذكرى الرابعة للانتصار في حرب تموز- آب 2006.

(404) عندما أعلن زعيم الأكثرية النيابية في البرلمان اللبناني النائب سعد الحريري أنّه تلقى تطمينات من الأمين العام لمجلس الأمن القومي الإيراني سعيد جليلي، خلال زيارته إلى بيروت آنذاك، بأنّ حزب الله لن يقدم على أيّة خطوة تفجيرية، ولن يقوم بردّ فعل على الاستهداف

الإسرائيلي لقطاع غزة؛ لام نصر الله الأخير «على منح تطمينات مجانية لإسرائيل». الأمر الذي دفع بالسفارة الإيرانية في بيروت إلى نفي ما كان قد نقل عن جليلي. أنظر: أمل سعد غريب، حزب الله والنزاع في غزة، من مقال منشور في صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثالثة، العدد 722، الخميس في 15 كانون الثاني، العام 2009، ص32، 33.

(405) أنشئت المحكمة الدولية الخاصة بلبنان بتاريخ 10 حزيران من العام 2007 ، بناء على قرار من مجلس الأمن الدولي يحمل الرقم 1757 .

(406) رفيق بهاء الدين الحريري (من مواليد صيدا في العام 1944)، شغل رئاسة مجلس الوزراء اللبناني في خمس حكومات متقطعة بدءا من 31 تشرين الأول من العام 1992، إلى العام 2004 . كما كان نائباً في البرلمان اللبناني ورئيساً لكتلة نيابية معتبرة منذ انتخابات العام 1996 حتى لحظة اغتياله في 14 شباط من العام 2005، على إثر تعرّض موكبه لعملية تفجير.

(407) كان حامل كلّ الوفود الدولية الرسمية وغير الرسمية– الأميركية والفرنسية والسعودية والمصرية وسواها- التي تقاطرت إلى لبنان، فرداناً وزرافات، في المرحلة التي شهدت تسريبات ممنهجة لمضمون القرار الظني الصادر عن المحكمة الدولية؛ هو استطلاع ردّ فعل حزب الله حيال القرار المذكور، ومعرفة الوجهة التي سيسلكها.

(408) هشام آل قطيط، ثلاثة وثلاثون يوماً أحدثت بركاناً في إسرائيل، ط1، بيروت: مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، العام 2006، ص 84.

(409) من خطاب للأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله، ألقاه في السادس عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2009، في مهرجان الوفاء للقادة الشهداء، وذلك في احتفالية نظمها حزب الله في مجمع سيد الشهداء في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(410) أنظر وقائع المؤتمر الصحفي الذي عقده الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله في مسجد الإمامين الحسنين في حارة حريك، في تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الأربعاء الواقع فيه الثاني عشر من شهر تموز من العام 2006، أي بعد ساعات قليلة على عملية أسر جنديين إسرائيليين نفذها حزب الله.

(411) أراد حزب الله أن تكون أولى مفاجآته- التي كان السيد حسن نصرالله قد وعد بها- من العيار الثقيل، وأن تكون ساحتها خارج مدارات توقع العدو، وخارج إطار افتراضاته، بنحو يكون أثرها النفسي معادلاً بالأقل، أو أشدّ وطأة من مفاعيلها باعتبار المنظور العسكري. والحال، انقسمت المهمة إجرائياً إلى شق معلوماتي يُعنى بتشخيص الأهداف المحتملة، وتحديد إحداثيات تموضعاتها في عرض البحر بكيفية حسابية دقيقة. وآخر عملاني قوامه تزويد الرقائق الإلكترونية الخاصة بأجهزة التوجيه المنصوبة داخل الصواريخ، بكل البيانات والمعطيات ذات الصلة.

(412) يتوافر الصاروخ الصيني C-802 على مواصفات تقنية فارقة تجعله على مستوى بالغ من الفعالية؛ فمقطعه الراداري الصغير، ومسار طيرانه المنخفض بنحو لا يتجاوز السبعة أمتار، وقدراته المضادة للتشويش والعصية على الرصد والالتقاط ، تتيح له امكانية المناورة والتصويب بحيث أنّ القطع البحرية المستهدفة تتضاءل قدراتها على اعتراضه بشكل ملحوظ، ما يجعل مبلغ إصابته للهدف يصل نحو الـ(98 %). فضلاً عن أنّ الصاروخ يحمل رأساً حربية زنة (165

كلغ) من المواد المتفجّرة، الخارقة للدروع، والمضادة للأفراد، ويعتمد على الطاقة الحركية (KINETIC ENERGY) لاختراق متن السفينة، قبل أن يُحدث إنفجاراً هائلاً بداخلها.

(413) كانت إصابة البارجة محكمة ودقيقة؛ أصاب الصاروخ مهبط المروحية المخصّص على متنها لهذه الغاية. ومنه وجد طريقه إلى مهاجع الجنود في الطوابق السفلية. قبل أن يتضح لاحقاً أنّ الضربة الصاروخية أدّت إلى الإضرار بالسفينة على نحو بالغ، فعطلت قدرتها على الحركة، كما على توجيه نفسها، حيث هرعت سفن البحرية الإسرائيلية لاستنقاذها، وقامت طوال أكثر من عشرين ساعة ببذل جهود مضنية وجبارة للمساعدة على جرّها وسحبها وإبعادها من الشواطئ اللبنانية.

(414) استهدفت البارجة في تمام الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين من مساء يوم الجمعة، الواقع فيه الرابع عشر من شهر تموز/ يوليو من العام 2006.

(415) يذكر أنّ آخر بارجة حربية إسرائيلية تعرّضت للقصف الصاروخي، كانت المدمرة (آحي إيلات) في الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول/ اكتوبر من العام 1967، وذلك خلال قيامها بمهام مراقبة دورية في البحر الأحمر قبالة سواحل مدينة (بور سعيد)، حيث صير إلى استهدافها من قبل القوات المصرية بصاروخين من نوع (كومار)، بفارق ثلاث دقائق، قبل أن ينال منها صاروخ ثالث أصاب مستودع الذخائر فيها، وأدّى إلى إغراقها بالكامل.

ويذكر أنّ المدمرة إيلات هي من قطع الأسطول البريطاني التي جرى تصنيعها في العام 1942، وبدأت إبحارها في العام 1944 للمشاركة في الحرب العالمية الثانية ضمن سلاح البحرية. وذلك قبل أن توافق الحكومة البريطانية في العام 1955 على بيع إسرائيل مدمرتين من الطراز ذاته: أطلق على الأولى اسم (آحي إيلات)، وعلى الثانية اسم (آحي يافا). شاركت ايلات بعد اقتنائها مباشرة من قبل سلاح البحرية الإسرائيلية في العدوان الثلاثي على مصر في شهر ايار/مايو من العام 1956، ونجحت حينذاك في اصطياد المدمّرة المصرية (إبراهيم الأول).

(416) شكّل استهداف البارجة واحدة من المفاجآت غير السارة للقيادة الإسرائيلية، ما دفع بالأخيرة إلى الإقرار بالفشل الاستخباري الذي كانت عليه، وإلى الاعتراف بأنها لم تكن على علم باستحواذ حزب الله على مثل هذه القدرات الصاروخية. وحول هذا الإقرار بالقصور الاستخباري يقول عمير رابابورت من محاضرة بعنوان (الجيش الإسرائيلي ودروس حرب لبنان الثانية)، نظمها مركز بيغن- السادات في شهر تموز/ يوليو من العام 2007، لمناسبة مرور عام على الحرب: «في زمن الحرب عندما أصيبت سفينة الصواريخ (آحي حانيت)، وهي من طراز (ساعر5) بصاروخ أرض- بحر من طراز (c-802)، وهو نسخة إيرانية من صاروخ صيني. ولم يتمّ تفعيل معظم منظومات الحماية في السفينة، بما في ذلك منظومة (باراك)، وأصلاً لم تكن معطيات هذا الصاروخ قد غذيت سلفاً في حاسوب السفينة، وكان المبرّر أنّه لم تكن لدى سلاح البحرية معلومات مؤكدة حول امتلاك حزب الله مثل هذا الصاروخ».

كما كان من وجوه المفاجأة ما أظهره حزب الله من ضروب الحيلة والمناورة على نحو صير إلى تجاوز دفاعات البارجة، ومنظومة المراقبة والرصد فيها. مع لحاظ الاعتبار، أنّ تدمير البارجة أحدث منعطفاً حادّاً في الحرب الإعلامية النفسية التي أطلقها حزب الله، والتي تأدّت إلى ترسيب إنعدام الثقة بين الرأي العام الإسرائيلي وقادته.

(417) لقد صير إلى تقديم مشهدية بانورامية ولا أروع؛ عندما تزامن استهداف البارجة الإسرائيلية بصاروخ أرض- بحر من طراز سي 802، مع إعلان السيد حسن نصر الله عن ذلك في رسالة صوتية عبر قناة (المنار) بتاريخ الرابع عشر من تموز من العام 2006، حيث قال في لحظة الانفجار: «المفاجآت التي وعدتكم بها، سوف تبدأ من الآن. الآن في عرض البحر في مقابل بيروت، البارجة العسكرية الإسرائيلية التي اعتدت على بنيتنا التحتية، وعلى بيوت الناس، وعلى المدنيين، أنظروا إليها تحترق، وستغرق ومعها عشرات الجنود الإسرائيليين الصهاينة».

(418) لم يسبق أن شهد تاريخ الحروب تزامنَ استهدف قطعة عسكرية مع الإعلان عنها على النحو الذي صير إليه في مشهدية استهداف البارجة الإسرائيلية. فقد حمل الحدث بين طياته مؤثرات نفسية كان لها مفاعيل بعيدة على سيرورة الحرب: إيجاباً على الجانب اللبناني والعربي، وسلباً على الجانب الإسرائيلي.

(419) علي هاشم، أنظروا إليها تحترق. أنظر: صحيفة السفير اللبنانية، السنة السابعة والثلاثون، العدد 11668، الثلاثاء في 17 آب، العام 2010، ص 6.

(420) حاول الإسرائيلي أن يتجاوز- تعويضيا- صدمة المفاجأة الأولى؛ فسمح في صباح الخامس عشر من شهر تموز من العام 2006، أي بعد يوم واحد على هول الضربة البحرية، لـ(حانيت) بالإبحار بما تبقى لديها من قوّة إلى ميناء أسدود الذي جرى تحصينه على وجه السرعة، لغرض تأمينه وتوفير الحماية له. وقد أراد سلاح البحر والجيش الإسرائيلي أن يبرهنوا بالإبحار الذاتي لـ(حانيت) أنّ حزب الله أخفق ولم ينجح في مهمته. أنظر: عوفر شيلح ويوءاف ليمور، أسرى في لبنان: الحقيقة عن حرب لبنان الثانية؛ ترجمة جواد سليمان الجعبري، ط1، رام الله: مدار- المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، العام 2011، ص 122.

(421) عوفر شيلح ويوءاف ليمور، م.ن.، ص 122 .

(422) كان دان حالوتس يعتقد أنّه بالإمكان الركون إلى قدرة سلاح الجو وحده ليصار إلى حسم المعركة نهائياً مع حزب الله، كما القضاء على التهديد الذي يمثله، وإزالة الخطر الصاروخي دونما حاجة فعلية إلى توغلات برية في عمق العدو، ودون الاحتكاك المباشر به، ودون الخوض في مواجهات دموية أكلافها نزف بشري حادّ ومدمّر. فقد أجاب بـ(لا) طويلة، خلال انعقاد جلسة مجلس الوزراء الإسرائيلي في السادس عشر من شهر تموز من العام 2006، عندما سئل عما إذا كان ثمّة حاجة للدخول البري إلى لبنان من أجل إتمام المهمة؟. قبل أن يردف قائلاً: «نحن سنبذل كلّ الجهود العسكرية كي لا يحصل هذا(...) ولدينا القدرة العسكرية». وانطلاقاً من هذه الخلفية الاعتقادية المستخفة بقدرات حزب الله؛ حدّد حالوتس- في ختام جلسة المشاورات الأولى لهيئة الأركان التي عقدت قبل ساعات على اندلاع شرارة الحرب- وجهة القتال: «نحن ذاهبون إلى حرب نارية»، بما يعنيه مصطلح الحرب النارية في معجم المؤسّسة العسكرية الإسرائيلية من توسّل حرب تتكئ على قدرات سلاح الجو، وتستبعد اللجوء الى الذراع البرية.

(423) عوفر شيلح ويوءاف ليمور، أسرى في لبنان: الحقيقة عن حرب لبنان الثانية؛ ترجمة جواد سليمان الجعبري، ط1، رام الله: مدار- المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، العام 2011، ص 122.

(424) عوفر شيلح ويوءاف ليمور، م. ن.، ص 123 .

(425) ينقل في هذا الصدد عن أحد المعلقين الاسرائيليين قوله: «إنّ حزب الله عندما ضرب هذه السفينة بالذات؛ أسقط سلاح البحرية الإسرائيلية بأكمله».

(426) إنّ تقهقر وانسحاب جميع القطع البحرية الإسرائيلية التي كانت ترابض قبالة الشاطئ اللبناني، بعد استهداف (ساعر 5) بصاروخ سي ـ 802؛ هو مؤشّر على عدم معرفة الإسرائيلي مسبقاً بامتلاك حزب الله لهذا النوع من الأسلحة القادرة على النيل من سلاح البحرية خاصته.

(427) عوفر شيلح ويوءاف ليمور، أسرى في لبنان: الحقيقة عن حرب لبنان الثانية؛ ترجمة جواد سليمان الجعبري، ط1، رام الله: مدار- المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، العام 2011، ص 123.

(428) لقد ضمّت ترسانة حزب الله الصاروخية سلالات متعدّدة من الصواريخ ذات الطبيعة المنحنية (أرض-أرض): كصواريخ رعد، وفجر، وخيبر، وزلزال... وما قد يطول المقام عن حصره وتقنينه وتعداده، بوصفه بقي في إسار المفاجآت التي قد تتكشّف عنها أيّة موجهة مقبلة مع الإسرائيلي.

(429) يقدّم شمعون بيريس مقاربة تلحظ التغيّرات التي استجدّت على العلوم والنظريات والمفاهيم الحربية، كما على الوقائع الميدانية، بفعل التطور الملحوظ على الصواريخ المنحية والصواريخ الباليستية: «المدرسة الدفاعية التقليدية» يقول بيريس «لا تقدّم حلولاً للحقائق الجغرافية الحالية، أو للتهديدات التكنولوجية. وقد برزت القضية الجغرافية مع تطوّر الصواريخ الباليستية. ففي الوقت الحاضر لم تعد الاعتبارات المادية في الإستراتيجية التقليدية مثل العوائق الطبيعية، والاستحكامات الإصطناعية، وحشد القوات، ومواقع العمليات، لم تعد ذات قيمة في مواجهة الهجمات الصاروخية، بل إنّه حتى الصواريخ المضادة للصواريخ أو ما يعرف بالأسلحة الموجّهة لا تجدي تقريباً، إضافة إلى كلفته المالية الباهظة، كلّ ذلك أدّى إلى التقليل، وإلى حدّ كبير من أهمية العمق الإستراتيجي، بعد أن حلت العوامل الباليستية محل العوامل الجغرافية». أنظر: شمعون بيريس، الشرق الأوسط الجديد؛ ترجمة محمد حلمي عبد الحافظ، ط1، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، العام 1994، ص34.

(430) تقتضي العقيدة الأمنية الإسرائيلية، وفق ما تتكشّف عنه منظومة مركباتها وعناصرها، تحييد الجبهة الداخلية والنأي بها عن مفاعيل وتبعات الحرب، كما عن مروحة تأثيراتها وإشعاعاتها السلبية. وذلك من خلال الأخذ بما يسمّى «مركب نقل المعركة إلى أرض العدو»، بوصفه مركباً يمنح الكيان الإسرائيلي- بسبب من ضيق عمقه الجغرافي وصغر مساحاته- مرونة اختلاق وإيجاد عمق إستراتيجي بديل ومصطنع يتيح لجيش هذا الكيان الاضطلاع بحماية مستوطنيه ومنشآته الحيوية من التعرض للهجمات والاعتداءات، ومن تجنيبهم ويلاتها وأهوالها، ومن درء شتى المخاطر عنهم.

(431) انتهت عملية «الوزن النوعي» على خبر أبهج القيادة الإسرائيلية، وأشعرها بالاقتدار وبنشوة النصر: لقد هاتف دان حالوتس بعد دقائق من انتهاء العملية رئيس الحكومة- حينذاك- ايهود أولمرت، ناقلا إليه البشرى «لقد انتصرنا (...) لقد ربحنا هذه الحرب»، وفقاً لما أشارت إليه صحيفة (صنداي تايمز) البريطانية في تحقيق أجرته عن مجريات ووقائع اليوم الأول للحرب في الجانب الإسرائيلي. وقد زعم حالوتس أن الغارات التي دشّن بها سلاح الجو الإسرائيلي الحرب؛

أسفرت عن تدمير كلي طاول المنظومات الصاروخية المتوسطة المدى من أنواع: فجر، ورعد، وخيبر، وزلزال،... التي استحوذ عليها حزب الله، وراكمها خلال سنوات مضت. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، ملحق خاص، السنة الأولى، العدد 283، السبت في 21 تموز، العام 2007، ص 8.

(432) هي عبارة عن ضربة جوية ساحقة وخاطفة، استهل بها الجيش الإسرائيلي حربه على حزب الله في تموز- آب من العام 2006. شارك فيها نحو أربعين مقاتلة حربية من أنواع مختلفة. طاولت بالقصف والتدمير عشرات الأهداف دفعة واحدة في الساعة الثالثة من فجر الثالث عشر من شهر تموز. وقد أرادها رئيس هيئة الأركان- آنذاك- دان حالوتس محاكاة تمثيلية لتجارب الجيش النظيف والمهني، كما أرادها شبيهة بالقصف التمهيدي الذي نفذته الولايات المتحدة في سلسلة حروبها المعاصرة. وقد مثلت العملية صفوة عمل نحو ستة أعوام من الإعداد والتخطيط والتجهيز، ومن الجهود الاستخبارية الضخمة، ومن المناورات والتدريبات التي استثمرت فيها مئات الملايين من الدولارات. وإنّ كلّ ذلك رمت به إسرائيل في ميدان المعركة خلال وقت وجيز قدّر بأربع وثلاثين دقيقة.

(433) لا تملك القيادة الإسرائيلية أيّة تفسيرات مقنعة حيال عملية استمرار القصف الصاروخي طيلة ثلاثة وثلاثين يوماً، وبأمداء تجاوزت حيفا وما بعد حيفا، على الرغم من زعمهم وادّعائهم أنهم نجحوا خلال الساعات الأولى من الحرب في تدمير ترسانة حزب الله الصاروخية ذات المديات المتوسطة والبعيدة. وإذا كانت إشارات السيد حسن نصر الله سبق وأن ألمحت مراراً إلى أنّ عملية الوزن النوعي لم تحقق هدفها، إلا أنّ الأكيد أنّ قيادة حزب الله- كعادتها في مثل هذه المحكات- لا تزال ممتنعة حتى اليوم عن جلاء غموض ما حدث، وعن تقديم شروح لتشفيف ملابسات الأمر. لكن المضطلعين على الوقائع من الذين يدركون مفاتيح وحقائق ما كان يجري، هم على دراية أنّ العدو قد يكون تعرّض لعملية خداع هي الأبرز في حربه مع حزب الله بعد سقوطه في (شراك إنصارية) في أيلول من العام 1998، وأنّ «الوزن النوعي كان في حقيقة الأمر اقل من وزن الريشة».

(434) أمل سعد، حرب حزب الله الأخيرة. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثالثة، العدد 896، السبت في 15 آب، العام 2009، ص 20، 21.

(435) عمير رابابورت، من محاضرة بعنوان (الجيش الإسرائيلي ودروس حرب لبنان الثانية)، خلال لقاء نظمه مركز بيغن-السادات في شهر تموز/ يوليو من العام 2007 . وذلك لمناسبة مرور سنة على الحرب على لبنان في صيف العام 2006 .

(436) كان معدل الإطلاق الوسطي الذي توسلته المقاومة في استهدافها للداخل الإسرائيلي خلال حرب تموز- آب من العام 2006، يتراوح يومياً بين الـ(125) والـ(130) صاروخاً، وفق ما أجمعت عليه غير دراسة عسكرية متخصّصة.

(437) صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون، العدد 11980، الأربعاء في 7 أيلول، العام 2011، ص1، 16.

(438) مواجهة «تصفية الحساب» في الثالث والعشرين من شهر تموز/ يوليو من العام 1993، ومواجهة «عناقيد الغضب» في الحادي عشر من شهر نيسان/ ابريل من العام 1996.

(439) تخلص غير دراسة عسكرية غربية متخصّصة إلى أنّ الترسانة الصاروخية التي يتوافر عليها حزب الله، تمتلك إلى جانب قيمتها التكتيكية أو العملياتية قيمة مضافة، بوصفها تتخلق كأسلحة سيكولوجية وسياسية استخدمها الحزب لتحقيق آثار إستراتيجية. أنظر: أنطوني جوردزمان، الدروس المستقاة من الحرب الإسرائيلية في لبنان، ط1، العام 2008، ص 102.

(440) محمد خواجة، إسرائيل : من «القبة الفولاذية» إلى «معطف الريح». أنظر: صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون، العدد 11789، السبت في 15 كانون الثاني، العام 2011، ص 19.

(441) بنيامين لامبث، العمليات العسكرية الجوية لحرب إسرائيل ضد حزب الله، دراسة تقع في 444 صفحة فوسكاب، أعدّها معهد (راند) لمصلحة وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون). أنظر: صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون، العدد 11904، الإثنين في 6 حزيران، العام 2011، ص 5.

(442) راجع تقرير فينوغراد بنسخته المعربة.

(443) بنيامين لامبث، م.س.، ص 5.

(444) إفرايم عنبار، كيف أساءت إسرائيل إدارة حرب لبنان الثانية؟، مركز بيغن- السادات للدراسات الإستراتيجية، نقلاً عن صحيفة الأخبار اللبنانية، ملحق خاص، السنة الأولى ،العدد 275، الخميس في 12 تموز، العام 2007، ص8.

(445) سُجّل في هذا المضمار- على سبيل المثال- الإفادة السورية من عبر الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز- آب من العام 2006، وعلى نحو أفضى إلى تحوّل جذري في عقيدتها العسكرية؛ لقد أدركت القيادة السورية من خلال المعاينة الحسية والتجربة الملموسة الحيّة، أنّ الطريقة الفضلى والمثلى «لإيلام إسرائيل ودفعها إلى الإنسحاب» يقول زئيف شيف «لا تكمن في حشد الطائرات والدبابات، وإنّما بإطلاق آلاف الصواريخ نحو أراضيها». أنظر: مجموعة من الكتاب والمحللين الإستراتيجيين الإسرائيليين، 33 يوم حرب على لبنان؛ ترجمة أحمد أبو هدبة، ط1، بيروت: مركز الدراسات الفلسطينية، العام 2007، ص 344.

وكان غير مصدر أمني وسياسي إسرائيلي، قد أشار إلى التطوّر الملحوظ الذي استجد على العقلية العسكرية السورية في أعقاب إنتهاء الحرب على لبنان لناحية مقاربة التعاطي مع السلاح الصاروخي، بلحاظ تحوّل هذا الأخير من مجرد أعداد وأرقام جوفاء كانت تراكم وتخزّن على نحو سلبي داخل المستودعات المعدّة لها، إلى سلاح إستراتيجي وازن يمارس مهام ردعية قبل الحرب، ثم ينصرف عند نشوبها إلى أهداف محدّدة له داخل كيان العدو، لتستقيم بذلك لعبة تبادل كرة النار، في قبالة عنجهية سلاح الجو الإسرائيلي وتغطرسه: «إنّ إسرائيل تلحظ وجود مساع سورية حثيثة لتحسين أمداء الصواريخ الموجودة لديها ودقتها» يقول مصدر إسرائيلي «والمشكلة هي أنّ الصواريخ السورية تحوّلت من كونها صواريخ إحصائية عددية، إلى صواريخ دقيقة، ومن الممكن استخدامها لضرب القواعد العسكرية والمطارات ومخازن الطوارئ في إسرائيل، وهي مشكلة مثيرة للقلق». أنظر: صحيفة الأخبار، السنة الثانية، العدد 447، السبت في 9 شباط ، العام2008، ص19.

وفي سياق متصل، يسجل زئيف شيف في تقرير صير إلى نشره في صحيفة هآرتس، انكباب الجيش السوري على تعزيز قدراته النارية وتطوير ترسانته الصاروخية، «فبدل ضرب إسرائيل من الجو» والكلام لشيف «يبني السوريون قوّة نار هائلة بواسطة الصواريخ، ليستطيعوا قصف المدن الإسرائيلية عن بعد على نحو خطير، وتكون إصابة المواقع العسكرية داخل إسرائيل في منتهى الدقة». أنظر: صحيفة الأخبار، تنامي قوّة الجيش السوري يقلق إسرائيل، السنة الأولى، العدد 161، بيروت في 23 شباط، العام 2007، ص1.

(446) محمد خواجة، الشرق الأوسط تحولات إستراتيجية، ط1، بيروت : دار الفارابي، 2009 ، ص 92.

(447) اليكس فيشمان، أنظر: يديعوت احرونوت الإسرائيلية، في عددها الصادر في 16-5-2010.

(448) اليكس فيشمان، م.ن..

(449) تؤشّر المناورات والتدريبات والاستعدادات الحربية التي تنكبّ إسرائيل على إجرائها منذ العام 2006، بدءاً بـ(نقطة تحول -1)، وصولاً- على نحو تسلسلي- إلى (نقطة تحول -5). وذلك لمواجهة احتمالات وسيناريوهات الرعب القادمة إليها على متن الأسلحة الصاروخية التي تستهدف عمقها الحيوي وجبهتها الداخلية. فالمشهد الإسرائيلي على ما يبدو، بات مثقلاً بـ(حرب الصواريخ) التي باتت بدورها تهيمن على الأفكار والخطط والقناعات والمناخات والسيكولوجيا الإسرائيلية. كما بات مثقلاً بـ(نقاط التحول) المقترنة بالقلق الوجودي، وبهواجس البقاء، وبسيكولوجيا الرعب من الحرب، ومن الأكلاف والخسائر البشرية، ومن الهزيمة المحتملة، ومن المستقبل الغارق في الغموض والضبابية، ومن فرضية الانهيار والموت.

(450) سمير كرم، الوجه الآخر للخوف .. الإسرائيلي. أنظر: صحيفة السفير اللبنانية، السنة السابعة والثلاثون، العدد 11590، الجمعة في 14 آيار، العام 2010، ص 19.

(451) غابرييل سيبوني وآخرون، الإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية ضد حماس وحزب الله؛ ترجمة عدنان أبوعامر، ط1، بيروت: مركز باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية، 2011، ص52.

(452) كان الباحث رون بن يشاي قد قارب هشاشة البنية المجتمعية الإسرائيلية، التي انكشف عريها وبانت مَقاتلها، في المواجهات الدامية مع حزب الله في صيف العام 2006، حيث يقول من مداخلة بحثية مطوّلة بعنوان (تغيير الإستراتيجيا من أجل محاربة الإرهاب): «إنّ المعركة شهدت مفاجآت نوعية في مجرياتها الميدانية والعملانية، وجعلت قدرة إسرائيل في مجال المناورة أمام إختبارات صعبة وشكوك متزايدة بفعل تركيز العمليات العسكرية في مناطق قتالية يشكل فيها الشعب الإسرائيلي نسبة الـ(80 %) من مناطق الشمال والجليل الأعلى. هذا إذا أخذنا بالاعتبار فشل البرامج الإسرائيلية في اجتذاب الاستيطان إلى مناطق النقب، وذلك بفعل وجود المنشآت النووية الإسرائيلية، ولاسيما مفاعل ديمونة المشهور. وكذلك بعض المنشآت الكيميائية الحيوية التي تتركز أيضا في الشمال، والتي هي في مرمى صواريخ المقاومة اللبنانية. كما إنّ إسرائيل لا تستطيع تحمّل الخسائر في الأفراد من المدنيين والعسكريين على السواء، والتي سوف يفرضها

سياق الحرب». أنظر: سلسلة إعرف عدوك، إسرائيل والتحدّيات الإستراتيجية المقبلة، معهد باحث للدراسات، مركز يافيه، ص 97.

(453) شلومو بروم، الأهداف السياسية والعسكرية في حرب محدودة ضد منظمة عصابية. أنظر: معهد دراسات الأمن القومي، حرب لبنان الثانية: قراءات إسرائيلية في هزيمة الكيان الأولى؛ ترجمة باحث للدراسات، ط1، بيروت: باحث للدراسات، 2009، ص 62.

(454) يشير الباحث غاي أفيعاد، في مقاربة بعنوان (قراءة في بناء قوّة حزب الله بين 2006-2009)، إلى أنّ «النجاح الذي حققه حزب الله في إسكات منطقة شمال إسرائيل لأكثر من شهر كامل، من خلال إطلاق ما يزيد عن أربعة آلاف قذيفة صاروخية مختلفة الأنواع (...) أعطى صورة انتصاره العسكري الذي حققه». أنظر: غابرييل سيبوني وآخرون، الإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية ضد حماس وحزب الله؛ ترجمة عدنان أبوعامر، ط1، بيروت: مركز باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية، 2011، ص42.

(455) غيئورا روم، اختبار لإستراتيجيات متنافسة: سفينتان تمرّان في الليل. أنظر: معهد دراسات الأمن القومي الإسرائيلي، حرب لبنان الثانية: قراءات إسرائيلية في هزيمة الكيان الأولى؛ تحرير شلومو بروم ومئير إلران، ط1، ترجمة وإصدار باحث للدرسات، 2009، ص 102.

(456) غاي أفيعاد، قراءة في بناء قوّة حزب الله بين (2006-2009)، دراسة متخصّصة صادرة عن مركز دراسات الأمن القومي الإسرائيلي. أنظر: غابرييل سيبوني وآخرون، الإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية ضد حماس وحزب الله؛ ترجمة عدنان أبوعامر، ط1، بيروت: مركز باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية، 2011، ص42.

(457) يقوم الاقلال من الانكشاف المادي لقواعد الإطلاق، يقول أمير كوليك «بتضييق الخناق على سلاح الجو الذي يستهدف هذه المنصّات، بحيث لا يبقى أمامه سوى لحظات معدودة للانقضاض على هذه المنصة أو تلك. فالفرصة الزمنية المذكورة، تبدأ حين يتمّ اكتشاف المنصة، وتبدأ عملية الإطلاق، والتي لا يتجاوز وقتها المحدّد ثواني معدودة، حيث تشتعل القذيفة على الفور، ما يجعل من الصعوبة بمكان العثور عليها، حتى عبر الوسائل التقنية والإلكترونية. وتنتهي العملية إمّا بتدمير المنصة في زمن متأخر، وإمّا بنقلها إلى مكان ومخبأ آخر». أنظر: غابرييل سيبوني وآخرون، الإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية ضد حماس وحزب الله؛ ترجمة عدنان أبوعامر، ط1، بيروت: مركز باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية، 2011، ص53.

(458) غيئورا روم، اختبار لإستراتيجيات متنافسة: سفينتان تمرّان في الليل. أنظر: معهد دراسات الأمن القومي الإسرائيلي، حرب لبنان الثانية: قراءات إسرائيلية في هزيمة الكيان الأولى؛ تحرير شلومو بروم ومئير إلران، ط1، ترجمة وإصدار باحث للدرسات، 2009، ص 102.

(459) أمير كوليك، حزب الله في مواجهة الجيش الإسرائيلي، نشرة التقدير الإستراتيجي الصادرة عن معهد أبحاث الأمن القومي التابع لجامعة تل أبيب لشهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2006. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، ملحق خاص، السنة الأولى، العدد 290، الاثنين في 30 تموز، العام 2007، ص8.

(460) أمير كوليك، حزب الله في مواجهة الجيش الإسرائيلي، نشرة التقدير الإستراتيجي الصادرة عن معهد أبحاث الأمن القومي التابع لجامعة تل أبيب لشهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2006. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، ملحق خاص، السنة الأولى، العدد 290، الإثنين في 30 تموز، العام 2007، ص8.

(461) أمير كوليك، م. ن. ، ص8.

(462) أمير كوليك، م. ن. ، ص8.

(463) أمير كوليك، م. ن. ، ص8.

(464) أمير كوليك، م. ن. ، ص8.

(465) غابرييل سيبوني وآخرون، الإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية ضد حماس وحزب الله؛ ترجمة عدنان أبوعامر، ط1، بيروت: مركز باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية، 2011، ص54.

(466) غابرييل سيبوني وآخرون، م. ن.، ص 54.

(467) أمير كوليك، حزب الله في مواجهة الجيش الإسرائيلي، نشرة التقدير الإستراتيجي الصادرة عن معهد أبحاث الأمن القومي التابع لجامعة تل أبيب لشهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2006. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، ملحق خاص، السنة الأولى، العدد 290، الإثنين في 30 تموز، العام 2007، ص8.

(468) يقول ندير تسور الباحث في معهد دراسات الأمن القومي التابع لجامعة تل أبيب، من دراسة متخصّصة أعدّها بعد مرور أربعة أعوام على الحرب الإسرائيلية على لبنان في صيف العام 2006: «إنّ استمرار حرب لبنان الثانية لمدّة 34 يوماً، وتعرّض العمق الإسرائيلي خلالها للقصف اليومي من جانب حزب الله؛ أديا إلى إفقاد الجيش الإسرائيلي الثقة بالنفس، وإلى التأثير سلباً في وعيه من الناحية النظرية، ومن الناحية العملياتية».

(469) غاي أفيعاد، «قراءة في بناء قوّة حزب الله بين 2006 – 2009، دراسة متخصّصة صادرة عن مركز دراسات الأمن القومي الإسرائيلي. أنظر: غابرييل سيبوني وآخرون، الإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية ضد حماس وحزب الله؛ ترجمة عدنان أبو عامر، ط1، باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية، 2011، ص 32.

(470) أمير كوليك، حزب الله في مواجهة الجيش الإسرائيلي، نشرة التقدير الإستراتيجي الصادرة عن معهد أبحاث الأمن القومي التابع لجامعة تل أبيب لشهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2006. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، ملحق خاص، السنة الأولى، العدد 290، الاثنين في 30 تموز، العام 2007، ص8.

(471) ستيفن بيدل وجيفري ا.فريدمان، حملة لبنان (2006) ومستقبل الحرب: مضامين بالنسبة إلى الجيش وسياسة الدفاع؛ ترجمة باحث للدراسات، ط1، الولايات المتحدة الاميركية: معهد الدراسات الإستراتيجية، 2008، ص 94، 95.

(472) ستيفن بيدل وجيفري ا.فريدمان، م. ن؛ ص 95، 96.

[(473)](#) ستيفن بيدل وجيفري ا. فريدمان، م. ن؛ ص 96 .

[(474)](#) كان الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله، قد أعلن في الثالث من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 1997، عن تشكيل (السرايا اللبنانية لمقاومة الإحتلال)، كإطار عسكري يتيح لكلّ لبناني، مهما كانت هويته السياسية أو الحزبية أو الطائفية، ومهما كانت إمكاناته المادية أو العلمية، المشاركة في أعمال المقاومة وفي الدفاع عن لبنان، شريطة أن يكون المنتسب قادراً عقلياً ونفسياً وجسدياً، على المشاركة الميدانية في القتال، وأنْ لا تكون ثمّة شبهة حول علاقة أو ارتباط له مع العدو الإسرائيلي. وكي لا يتسبّب الأمر في شقاقات وخلافات حزبية، فرض على كلّ شاب حزبي يريد الانضمام إلى صفوف السرايا، أن يحصل ابتداء على موافقة خطية أو شفوية من قيادته.

ويذهب بعض المتابعين لهذا الشأن إلى أنّ فكرة إطلاق السرايا، التي لطالما خامرت عقل السيد حسن نصرالله، قد تولدت أثناء تقديم شبان مسيحيين واجب المباركة له باستشهاد نجله الشهيد هادي في شهر أيلول/ سبتمبر من العام 1997، حيث أعرب هؤلاء عن استعدادهم للانخراط في صفوف المقاومة، لتخرج بعد دراسات وعمليات تقدير وتقييم صيغة سرايا المقاومة. وكانت السرايا قد نفذت باكورة أعمالها العسكرية، في تمام الساعة الخامسة والنصف من فجر الرابع عشر من شهر آذار /مارس من العام 1998، باستهداف مواقع جيش الاحتلال الإسرائيلي وعملائه في برعشيت وحداثا والسويداء.

[(475)](#) لقد أفاد حزب الله من عملية انخراط الشباب اللبناني في أعمال «السرايا اللبنانية لمقاومة الاحتلال»، بعدما وفر له ذلك مكاسب عديدة: فمن جهة أولى، أفضى الأمر إلى تمدّد الحزب جغرافيا، وإلى انتشاره في غير منطقة لبنانية، كانت -إلى أمس قريب- خارج مدار عمله واشتغاله. ومن جهة ثانية، أسهم في تفعيل قواه البشرية العاملة، كما في تفعيل أسباب القوّة لديه. وثالثاً- تأدّى إلى توسعة نفوذه، وإلى إكسابه مكاسب سياسية داخلية وأخرى خارجية. ورابعاً- ألحّ – ولو بنحو ما- على طمس الهوية الشيعية، وعلى تصوير الحزب في المقابل بصورة المدافع عن كلّ لبنان، وبصورة الحزب الوطني الجامع المتعالي على الفروقات المذهبية والطائفية، بدلاً من ظهوره بصورة الميليشيا الطائفية.

[(476)](#) غاي أفيعاد، «قراءة في بناء قوّة حزب الله بين 2006 – 2009، دراسة متخصّصة صادرة عن مركز دراسات الأمن القومي الإسرائيلي. أنظر: غابرييل سيبوني وآخرون، الإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية ضد حماس وحزب الله؛ ترجمة عدنان أبو عامر، ط1، باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية، 2011، ص 31.

[(477)](#) غاي أفيعاد، م.ن.، ص 31.

[(478)](#) صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية، أنظر: عددها الصادر في 16-5-2010 .

[(479)](#) تصريح أدلى به وزير الدفاع الأميركي روبرت غيتس لوسائل الإعلام، بعد لقائه نظيره الإسرائيلي إيهود باراك في واشنطن في الثامن والعشرين من شهر نيسان/ ابريل من العام 2010، وذلك في أعقاب جولة من المباحثات قاربت بالبحث أطروحة التهديد الوجودي الذي أصبحت تمثله القدرات الصاروخية لحزب الله.

(480) في قراءته لسيرورة تضخم وتطوّر الترسانة الصاروخية لدى حزب الله كمياً، يقول الباحث غاي أفيعاد في دراسته (قراءة في بناء قوّة حزب الله بين 2006 – 2009)، الصادرة عن مركز دراسات الأمن القومي الإسرائيلي: «في صيف العام 2006، كان يقدّر عدد الصواريخ لدى الحزب بنحو 12 ألف صاروخ، وفي الثامن والعشرين من شهر آب من العام 2007؛ نقلت صحيفة معاريف عن وزير الدفاع الإسرائيلي إيهود باراك أنّ العدد ارتفع إلى أكثر من 20 ألف صاروخ، ولاحقاً أكدت مصادر استخباراتية- وفق ما نقلته صحيفة معاريف في عددها الصادر بتاريخ 10/7/2008 - أنّ العدد أصبح 42 ألف قذيفة صاروخية».

(481) تضخم هاجس تل أبيب على نحو مرضي، وبلغ حدّا غير مسبوق حيال صواريخ حزب الله، حتى أنّ الأمر آل إلى البحث عما إذا كان يمتلك الأخير أسلحة كاسرة للتوازن، أو أنّه قد أمتلك بالفعل أسلحة كيميائية، وربما تطالعنا الأيّام في المستقبل القريب بثرثرات إسرائيلية حول امتلاك حزب الله لرؤوس نووية. وكان الإسرائيلي قد ترجم هواجسه تلك في غير مناورة تحاكي سقوط هذا النوع من الصواريخ على المدن والمستعمرات الإسرائيلية. وذلك بعدما استشعر أنّ حزب الله تجاوز كلّ السقوف التي كانت إسرائيل قد سقفت بها- على نحو افتراضي- عملية بناء القدرات العسكرية، والصاروخية- النوعية منها بخاصة. ما يعني أنّ قضية صواريخ حزب الله، وما بلغته من دقة، ومن قدرة على التدمير؛ هي حاضرة بكلّ حمولاتها وأثقالها على صدور ذوي القرار والشأن في تل أبيب، وأنّها ذات تأثير بالغ على بلورة أي وجهة أو خيار تتوسّله إسرائيل سواء لناحية إقرار الحرب، أو لناحية مستواها إذا قدّر لها أن تتقرّر. والحال هذه، نقع على سرّ تطوّر المقاربة الإسرائيلية لما تسميه تل أبيب خطوطاً حمراء حيال سلاح حزب الله، بنحو يلجم لها اندفاعتها، ويدفع بها إلى الانكفاء والابتعاد من توسّل الخيار العسكري، على الرغم من مرور ما ينيّف على خمس سنوات على انتهاء الحرب في العام 2006، استثمرها حزب الله– وفق ما تقرّ به إسرائيل - في عمليات معاظمة أسباب القوّة لديه، كما في مراكمة قدراته العسكرية والصاروخية.

(482) اليكس فيشمان ، صحيفة يديعوت أحرونوت، في عددها الصادر في 16-5-2010.

(483) نزار عبد القادر، وطن بلا سياج: الإستراتيجية الدفاعية اللبنانية، ط1، بيروت: المؤلف نفسه، العام 2009، ص93.

(484) غاي أفيعاد، «قراءة في بناء قوّة حزب الله بين 2006 – 2009، دراسة متخصصة صادرة عن مركز دراسات الأمن القومي الإسرائيلي. أنظر: غابرييل سيبوني وآخرون، الإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية ضد حماس وحزب الله؛ ترجمة عدنان أبو عامر، ط1، باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية، 2011، ص 35.

(485) تصريحات وزير الدفاع الإسرائيلي إيهود باراك جاءت بعد سلسلة من التسريبات الإعلامية الغربية والعربية حول تزوّد حزب الله بصواريخ باليستية ذات مديات بعيدة، من شأنها أن تحدث إنقلاباً في ميزان التسلح، وعلى نحو يؤدّي إلى تغيّر في قواعد اللعبة والاشتباك التي كانت قائمة منذ أمد بعيد، بما يلجم الاندفاعة الإسرائيلية، ويحرمها المبادرة، كما حرية العمل والحركة، ويجعلها أكثر انضباطا بما تقتضيه معادلة «التدمير الكلي المتبادل».

(486) إنّ هذا الصراخ الإسرائيلي المتعالي من غير جهة وصعيد، ومن غير منبر إعلامي ودولي وأممي؛ لم يتفعّل ولم يتعاظم على هذا النحو غير المسبوق، إلا بعد استنفاد الخيارات في

مواجهة تنامي قدرات حزب الله الصاروخية الكمية منها والنوعية.

(487) لقد أرخت فصول الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز- آب من العام 2006، أسدالها وأحمالها على نتائج كارثية وخيمة، عصفت بالآلة العسكرية الإسرائيلية، لاسيما المدرعات منها؛ انجلى غبار الساعات الأخيرة من القتال في كلّ من سهل الخيام ووادي الحجير عن ما أصطلح عليه إعلامياً وعسكرياً- في حينه- بـ(مجازر الدبابات)، حيث تكشّف الأمر عن تدمير وإعطاب ما يزيد عن لواء مدرع من دبابة الميركافا- الجيل الرابع مفخرة الصناعة العسكرية الإسرائيلية.

(488) كورنيت (Kornet AT-14): أحد أهم أنواع الصواريخ المضادة للدروع، وأشدّها فتكاً وفعالية. يوجّه بالليزر. بمقدوره اختراق درع سماكته 1200ملم. صنع في روسيا، ودخل الخدمة للمرة الأولى في العام 1994. وهو صاروخ مراوغ يجيد التفلت من الرقابة كأجهزة التشويش وأجهزة الرادارات المضادة. يعمل على الوقود الصلب، وينفجر على مرحلتين: الجزء الأول منه يتولى تفجير الدرع السلبي للدبابة، مفسحاً المجال لجزئه الثاني كي يخترق درعها الواقي، محدثاً بالغ الضرر والإعطاب والتدمير. يبلغ طوله 1,20 متراً، ووزنه 27 كلغ، أمّا قطره فهو 15,2 سنتم. له منصة ثابتة معدّة خصيصاً لإطلاقه. يصل مدى فعاليته ابتداءً من 500 م إلى 10 كلم. أنظر: عباس النابلسي، رعب السلاح: أسرار القدرة العسكرية لحزب الله، ط1، بيروت: دار ايوان للطباعة والنشر والتوزيع، 2007، ص 57، 60، 63.

(489) ميلان (Milan-3): هو صاروخ متوسط المدى من صواريخ الجيل الثاني المضادة للدبابات والدروع. صنع في فرنسا، ودخل الخدمة في العام 1978. أمّا آخر نسخه وهو (ميلان -3)؛ فدخل الخدمة في العام 1992. يتميز بكفاءة عالية ومواصفات بالغة الأهمية على نحو تتعدّد فيه وظائفه ومهامه ضد الأهداف الأرضية المختلفة. كما يتميز بدقة إصابة تبلغ الـ(100 %)، وبمرونة الاستعمال التكتيكي، وبمواصفات فنية مقاومة لأجهزة التشويش، ومضادة لوسائل الإعاقة الإلكترونية، فضلاً عن إستحواذه على رأس حربية مزدوجة تستخدم ضد الدروع التفاعلية الحديثة. يعمل ميلان وفق أنظمة قيادةٍ آلية، ووفق أنظمة توجيهٍ سلكية. تبلغ زنة الصاروخ الـ(11,8) كلغ، وزنة القاذف الـ(17) كلغ، في حين يصل الطول إلى الـ(1,20) م، والقطر إلى الـ(125) ملم. وتبلغ سرعته الـ 200 م /ث. أمّا مداه الفعال فيتراوح بين الـ(25) و (2000) متر. صير في وقت متأخر إلى تطوير القاذف الخاص بالصاروخ عبر تزويده بأجهزة رؤية ليلية تعمل بالإشعاع الحراري... ما ساعد على استخدام الصاروخ في الأعمال القتالية ليلاً، كما في ظروف الرؤية الصعبة والمعقدة.

(490) فاغوت (Fagot): هو صاروخ مضاد للدروع والدبابات. يعتبر نوعاً معدّلاً ومطوّراً من صواريخ ساغر القديمة روسي الصنع. بمقدوره اختراق درع بسماكة 400 ملم. يصل مداه الفعّال إلى 2,5 كلم. يعمل وفق أنظمة توجيه سلكية؛ إذ يرتبط الصاروخ بسلك دقيق يسمح لمطلقه بتوجيهه نحو الهدف. فيه يصار إلى تحديد الهدف المقصود بواسطة شعاع من الليزر يصوّب إليه في تدبير سابق على عملية الإطلاق.

(491) سبايغوت (Spigot At-4) : من صواريخ الجيل الثاني المضادة للدروع التي جرى تصنيعها في روسيا، والتي تعمل وفق أنظمة توجيه سلكية. يتوافر سبايغوت على قاعدة إطلاق

خاصة، كما على منظومة للرؤية والتصويب تتيح للرامي إصابة الهدف بدقة متناهية تبلغ الـ(90 %). وبمقدوره اختراق درع تبلغ سماكته 500 ملم.

(492) ميتيس-أم (Metis-M) : يسمّى غربياً (Saxhorn AT-13)، وهو نظام صاروخي مضاد للدبابات والدروع ذو فعالية وتأثير كبيرين. صنع في روسيا وجرى تطويره من قبل مكتب التصميم (KBP)، ودخل الخدمة للمرة الأولى في العام 1992. يعمل نظام ميتيس–أم وفق أنظمة توجيه نصف آلية حيث يستقبل ويتلقى الأوامر سلكياً، ويتميز بما يتوافر عليه من تحسينات مميزة في المدى والدقة والخطورة، وذلك بلحاظ الأبعاد الصغيرة والوزن الخفيف لمكوّناته... ما يسهّل حمولته واستخدامه من قبل الأفراد (man portable) . تبلغ زنة ميتيس-أم وهو معدّ للإطلاق نحو 13,8 كيلوغراماً، ويتراوح مداه الفعال بين 800 و1500 مترٍ، حيث يكون بمقدور شحنته الحربية- ثنائية الرأس (Tandem Warhead) - اختراق درع مقدار سماكته 850 ملم، بعد تجاوز الدروع التفاعلية. أمّا نسبة قدرته على إطلاق النار فتتراوح بين ثلاث وأربع قذائف بالدقيقة الواحدة.

(493) سبندرال (Spandrel At-5) : من الأنظمة الصاروخية الحديثة المضادة للدروع. جرى تصنيعه في روسيا. صير إلى استنساخه من قبل الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وتسمّى النسخة الإيرانية منه توسان (Towsan). يعمل وفق نظام توجيه سلكي، ويمتلك قاعدة إطلاق خاصة. وهو مزوّد بكاميرا حرارية (Thermal imaging System) تتيح لمنظومة التوجيه والتصويب والسيطرة الرمي ليلاً.

(494) ساغر (Sagger AT-3): صاروخ موجّه مضاد للدروع. يسمّى ماليوتكا (Malyutka)، التي تعني ترجمتها «الصغير» أو «الكتكوت»، وذلك بسبب من صغر حجمه حيث بالمقدور نقله بواسطة حقيبة محمولة. صنع في الاتحاد السوفياتي، وهو يعتبر صاروخاً بدائياً من الجيل الأول. يطلق بأسلوب التوجيه الحراري المباشر، وبواسطة منصة أرضية خاصة، كما بالمقدور إطلاقه من طائرات عمودية أو من الدبابات. يعمل ساغر وفق مبدأ السيطرة والتتابع البصري، على نحو يوجب بقاء الهدف دائماً في مرأى العين حتى يتمكن الرامي من استهدافه وإصابته. كما يعمل من خلال نظام سلكي يتولى نقل الأوامر من نظام التوجيه إلى الصاروخ. وهو يتميز ببطء سرعته، حيث تعتمد دقة الإصابة فيه على مهارة الرامي. كما يتميز بفعاليته وسهولة استعماله، إذ قد يصار الى التحكم برميه وإطلاقه من مسافات بعيدة. والصاروخ مزوّد بأجنحة خلفية تساعد في عملية توجيهه وضبط إيقاع حركته. وهو يزن 10,9 كلغ، أما رأسه المتفجرة فتزن 2,5 كلغ. يبلغ طوله 860 مم، وطول جناحه 363 ملم، في حين يصل قطره إلى 125 م. سرعة الصاروخ القصوى تصل إلى 200 متر /الثانية. ويتراوح مدى فعاليته بين 500 متر و 3 كلم. أنظر: عباس النابلسي، رعب السلاح: أسرار القدرة العسكرية لحزب الله، ط1، بيروت: دار ايوان للطباعة والنشر والتوزيع، 2007، ص 64،65، 66، 67، 68.

(495) دراغون (Dragon): هو من الأنظمة الصاروخية المضادة للدبابات ذات الفعالية الكبيرة والتأثير البالغ. تمّ تصنعيه في الولايات المتحدة الأميركية من قبل شركة مكدونيل دوجلاس. صمم في العام 1966، ودخل الخدمة في العام 1974 بمسمّى عسكري هو: (M47). نقع فيه على غير نوع وصنف: فثمّة نوع ثقيل يحتاج إلى منصة إطلاق خاصة لاستخدامه، وثمّة نوع آخر يطلق من على الكتف مع إمكانية إسناده إلى منصب أمامي خفيف. يبلغ الطول الإجمالي 1,154سم، أمّا

طول الصاروخ منفرداً فهو: 744سم، في حين يصل طول القذيفة فحسب إلى 846 سم. سرعة الصاروخ القصوى تصل إلى مقدار الـ200 متر /الثانية. بمقدوره اختراق درع تصل سماكته إلى 500 ملم، ويتروواح مداه الفعّال بين 65 مترا و 1500 مترا.

(496) تاو (Two BGM-71): صاروخ مضاد للدروع بالغ الفعالية والتأثير. النسخة الإيرانية منه تسمّى طوفان (Toophan). تتسع مروحة عمله واشتغاله حيث يصار إلى استعماله لتدمير العربات المدرعة، ومنصّات إطلاق الصواريخ، كما يستعمل ضد الملاجئ والدشم والاستحكامات. جرى تصنيعه في الولايات المتحدة الأميركية. دخل الخدمة للمرة الاولى في العام 1970، أمّا نسخته المعدلة أي الطراز الجديد منه، فدخلت دائرة الاستعمال في العام 1991. يبلغ طول الصاروخ 1,7 متر. ويبلغ قطره 152 ملم. أمّا وزنه فيصل إلى 18 كلغ. في حين تصل سرعته القصوى إلى 360 متراً /الثانية. ويتراوح مداه الفعّال بين 65 متراً و3750 متراً. يعمل صاروخ تاو وفق نظام تحكم نصف آلي مع ملاحقة بالأشعة تحت الحمراء وإعطاء الأوامر لاسلكياً. بمقدوره اختراق درع بسماكة 600 ملم، وتصل القدرة الاختراقية في النموذج المعدل (تاو 2)- المضاد للدروع المحمية بدروع ارتدادية متفجّرة- إلى 1000 مم، وذلك بوصفه يملك رأساً مزدوجةً يعمل على نحو من التتالي والتتابع.

(497) آر بي جي 29 (RPG-29): يسمّى مصّاص الدماء، وهو قاذف صاروخي من عيار 105، أنبوبي الشكل، مضاد للدروع. صنع في الاتحاد السوفياتي، ودخل الخدمة في العام 1985. صُمّم لتدمير الدبابات والعربات المدرعة والدشم والاستحكامات المختلفة، وبكيفية تتيح حمله واستخدامه من طريق فرد واحد. يتوافر لهذا القاذف نوعان من المقذوفات: الأولى (PG-29V)، وهي عبارة عن مقذوفة قوامها حشوة جوفاء مزدوجة صنّعت للتعامل مع الدروع المتفجّرة النشطة (EAR). أمّا الثانية (TBG-29V)، فهي عبارة عن قذيفة حرارية مضادة للأفراد. وتحظى المقذوفة- أيّاً كان نوعها- بثمانية زعانف تنفرد مباشرة عند خروجها من القاذف لتحافظ على ثبات الصاروخ وإتزانه في الهواء. كما يتوافر لهذا القاذف جهاز للرؤية يصار إلى تركيبه على قمة القاذف بنحو يتيح للرامي القدرة على التصويب والتهديف. هذا فضلاً عن أنظمة توجيه وضبط ذاتية تحول دون إعمال محرّك الصاروخ قبل مغادرة الأخير للقاذف حماية للرامي من الأذى والاحتراق. بمقدور الـ(آر بي جي 29) اختراق درع سماكته 600 ملم، إذ تبلغ سرعة مقذوفه الـ 130م/ث. ويصل معدّل اختراقه للدشم والمباني إلى 1,50 سم. في حين يصل معدل اختراقه للدروع المتجانسة إلى أكثر من 100 سم. أمّا المدى الفعّال المطلوب للتصويب والرامي فهو 500م. يبلغ وزن المقذوفة الـ6,1 كلغ، أمّا وزن القاذف فيبلغ 11,5 كلغ.

(498) صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الأولى، العدد 17، السبت في 1 أيلول، العام 2006، ص6 .

(499) بعد أن صادق المجلس الوزاري المصغر لحكومة إسرائيل ، خلال انعقاد جلساته في التاسع من شهر آب من العام 2006، على ما سمّي بعملية (تغيير اتجاه11)، حيث انطلقت الأخيرة في الثاني عشر منه؛ تصرّفت رئاسة هيئة الأركان في الجيش الإسرائيلي على أساس أنّ سلاح الدبابات قادر على حسم المعركة البرية سريعاً، وأنه سوف يكون بمقدوره الوصول إلى نهر الليطاني في غضون أيّام معدودات. وذلك بعد أن تفتقت عبقرية الجنرالات في سلاح البرّ عن إبداعية فارقة في العلوم العسكرية حيث تقرّر أن تنفذ المدرعات عملية اختراق بنحو عمودي

يصار فيها إلى التوغل بعيداً داخل الأراضي اللبنانية، وصولاً إلى نهر الليطاني. ما جعل خاصرتيّ الجيش الإسرائيلي رخوتين ومكشوفتين أمام الأسحلة المضادة للدروع التي يتوافر عليها حزب الله.

(500) في الثامن عشر من شهر آب/ أغسطس من العام 2006، أي بعد مرور أربعة أيّام فقط على توقف الأعمال الحربية، نقل راديو (إسرائيل اليوم) عن المستشار الإعلامي لرئيس الوزراء الإسرائيلي- حينذاك- إيهود أولمرت قوله إنّ وفداً إسرائيلياً رفيع المستوى، توجّه هذا الاسبوع إلى موسكو لتقديم شكوى بسبب من وصول صواريخ روسية مضادة للدروع والدبابات (إلى منظمة إرهابية) على حدّ تعبيره .

(501) محمد خواجة، إسرائيل : من «القبة الفولاذية» إلى «معطف الريح». أنظر: صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون ، العدد 11789، السبت في 15 كانون الثاني، العام 2011 ، ص 19.

(502) محمد خواجة، إسرائيل : من «القبة الفولاذية» إلى «معطف الريح». أنظر: صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون ، العدد 11789، السبت في 15 كانون الثاني، العام 2011 ، ص 19.

(503) كالت غير دراسة أمنية وعسكرية متخصّصة المديح والثناء للأنموذج الفريد الذي قدّمه مقاتلو حزب الله في حرب العام 2006، وكذلك فعل غير مراقب ومتابع لسيرورة الحرب، وما تكشّفت عنه وقائعها وفصولها؛ فقد اعتبر الجنرال الأميركي روبرت سيكلس « تكتيكات حزب الله تمثل ثورة جديدة في المعارك». أنظر: صحيفة السفير اللبنانية، السنة الخامسة والثلاثون، العدد 10924، الجمعة في 15 شباط/ فبراير، العام 2008، ص5 .

وذهب يوسي آلفر- المسؤول السابق في جهاز الموساد الإسرائيلي، والرئيس السابق لمعهد جافي للدراسات الإستراتيجية في جامعة تل أبيب- إلى القول: «إنّ حزب الله قد يكون أفضل قوّة مسلحة عربية واجهناها في تاريخنا». أنظر: هشام آل قطيط، ثلاثة وثلاثون يوما أحدثت بركانا في إسرائيل، ط1، بيروت: مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، العام 2006، ص89.

(504) يذهب الباحث في معهد يافي للدراسات الإستراتيجية يفتاح شابير إلى: «أنّ صواريخ ميتيس وكورنيت المصنعة في روسيا هي الأكثر فاعلية (...) وأنها مرهوبة لأنها صُمّمت لقهر نظام التصفيح الفاعل في الدبابات الحديثة». انظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الأولى، العدد 17، السبت في 1 ايلول، العام 2006، ص6.

(505) كان التقرير المؤلف من عشر صفحات الذي أعدّته جامعة تل أبيب في الثالث والعشرين من شهر آذار من العام 2006، في إطار سلسلة من دراسات عسكرية تصدر بشكل دوري حول موازين التسلح في دول الشرق الأوسط؛ قد أشار في فقرته الأولى التي أدرجت بعنوان (التغييرات الأساسية)، إلى موضوعة الصواريخ الجديدة التي أصبحت ضمن قبضة حزب الله.

(506) يذكر أنه، منذ تاريخ توقف عجلة الحرب الإسرائيلية على لبنان في الرابع عشر من شهر آب من العام 2006 ـ وفق ما أشارت إليه غير دراسة إسرائيلية متخصّصة- قد سُجّل تهرّب الجنود الإسرائيليين من الخدمة في سلاح المدرعات، بعد ان كان هذا الأخير موضع منافسة فيما بينهم. كما سُجّل امتناعهم عن الالتحاق بدبابة الميركافا، التي كانت فيما مضى حصناً منيعاً وقلعة

حصينة وملاذاً آمناً لهم، وذلك كنتيجة لتراجع الأمان فيها، بعد أن أصبحت طريدة سهلة المنال يتفنن المقاومون في قنصها وإصطيادها.

(507) يتوزع الجيش الإسرائيلي ثلاث أذرع عسكرية، هي: الذراع البرية، والذراع الجوية، والذراع البحرية. وقد تولى قيادة هذه الأذرع عشية الحرب على لبنان في صيف العام 2006، كلّ من: اللواء بيني غينتس قائداً للذراع البرية، والجنرال دودو بن بعشات قائداً للذراع البحرية، والجنرال في الاحتياط دافيد عبري قائداً للذراع الجوية.

(508) وحدة القيادة والخطة والتنفيذ: هو أحد المبادئ العشرة التي يقوم عليها فن الحرب. تختلف تسميته بين مدرسة عسكرية وأخرى؛ فالأميركيون والسوفيات- على سبيل المثال- يطلقون عليه اسم «وحدة القيادة». في حين أنّ المدرسة العسكرية الإنكليزية تصطلح عليه بـ«مبدأ التعاون والتنسيق».

وثمّة مدارس تمعن في تجزيئه وتفريده إلى غير جزء وقسم؛ نحو: وحدة القيادة، وحدة الخطة، وحدة التنفيذ. إلا أنّ اختلاف التسميات وتعدّدها لا يعني بإطلاق، أنّ ثمّة إختلافاً مماثلاً في المضمون والجوهر، بل إنّ هذا الأخير يبقى واحداً. وهو يتسع لينطوي على جملة من الحمولات، بالمقدور تلخيصها بـ:

أ-الإحاطة الشاملة بكلّ جوانب الوضع المعطى في الحرب، والنظر إليه بنحو موضوعي، بحيث يتناهى الأمر إلى تقويم واحد متماسك، ووجهة واحدة متماسكة.

ب-وضع خطة واحدة متماسكة، وإقامة التنسيق بين أجزائها، وكذلك بين مختلف الخطط المتولدة عنها، كما بين مختلف الأسلحة واللوجستيقا والإدارة.

ج-التنفيذ الموحّد بأمرة قيادة واحدة.

(509) ستيفن بيدل وجيفري ا.فريدمان، حملة لبنان (2006) ومستقبل الحرب: مضامين بالنسبة إلى الجيش وسياسة الدفاع؛ ترجمة باحث للدراسات، ط1، الولايات المتحدة الاميركية: معهد الدراسات الإستراتيجية، 2008، ص 78، 79.

(510) شموئيل بار، ردع الجماعات الإرهابية غير المصنفة في عداد الدول- حالة حزب الله. أنظر: مؤتمر هرتزيليا الثامن: ميزان الصناعة والأمن القومي (20-23 كانون الثاني 2008)؛ ترجمة واصدار باحث للدراسات، ط1، بيروت: باحث للدراسات، 2009، ص304، 305.

(511) كان مقاتلو حزب الله يستعملون الكوابل كوسيلة للاتصال بين المجموعات القتالية المنتشرة في ساحات المواجهة، وبينها جميعاً وغرف القيادة والتحكم والسيطرة. ما عطل كلّ إمكانات التنصّت والتشويش التي كان الإسرائيلي يعكف- بفعل ما يتوافر عليه من تكنولوجيا متطوّرة على هذا الصعيد– على توسّلها واستخدامها. وقد نقلت صحيفة معاريف في عددها الصادر في التاسع والعشرين من شهر حزيران/ يونيو من العام 2007، ومن مقالة بعنوان (الليلة التي سُلت فيها السكاكين)؛ أنّه خلال المواجهات الدامية في بلدة (مارون الراس) على الحدود اللبنانية مع فلسطين المحتلة، وبعد أن أصيب الإسرائيلي بذهول وصدمة من جراء قدرة مقاتلي حزب الله على المناورة، اتصل قائد فرقة الجليل العميد غال هيرش هاتفياً، بقائد الوحدة الممتازة (ماغلان) المقدم أليعيزر، بلغة آمرة:»إقطع كلّ كابل تراه في الميدان».

(512) تلحّ العلوم العسكرية على أهمية وسائط وأساليب التواصل والاتصال بين القادة والوحدات المقاتلة في الميدان. ولذلك نرى كيف أنّ الجيوش تعمل- مستفيدة من مبدأي المباداة والمبادرة- على تدمير شبكات الاتصالات والسيطرة لدى الخصم قبل القيام بعملياتها العسكرية ضده.

(513) كان حزب الله يلجأ إلى عرض فلاشات ومنشيتات مصوّرة تبثّ من على شاشة تلفزيون (المنار)، وتوجّه إلى الداخل الإسرائيلي حيث يصار بنحو مسبق إلى إعلام الجمهور هناك بالأماكن المستهدفة بالقصف: تنشر خرائط موثقة توضح أسماء المدن والمستعمرات الواقعة ضمن مساحات جغرافية معينة، وعلى خطوط عرض محدّدة.

(514) أتقن حزب الله فن إدارة الحرب، كما فن تسييل مفاعيلها ونتائجها مكاسب سياسية؛ فقد كان مقدار الوجبات اليومية من عملية الإطلاق الصاروخي في حرب العام 2006، وحجم قوتها التدميرية، ومستوى ارتفاع لهبها وانخفاضه...، كثيراً ما يُصار إلى إحكام ربطه بعجلة ما ينبغي تحقيقه من أهداف على غير صعيد .

(515) إنّ منظومة القيادة والتحكم التي توسّلها حزب الله لإدارة الحرب في مواجهة العدوان الإسرائيلي على لبنان في تموز- آب من العام 2006؛ وفرت له سيطرة مطلقة على مجريات العمليات القتالية طيلة زمن الحرب، حيث تحكمّت في كمية النار، وارتفاع اللهب، وأماكن الإطلاق، والأماكن المستهدفة...، وذلك وفق ما تقتضيه ظروف المعركة ومجرياتها.

(516) غيئورا روم، اختبار لإستراتيجيات متنافسة: سفينتان تمرّان في الليل. أنظر: معهد دراسات الأمن القومي الإسرائيلي، حرب لبنان الثانية: قراءات إسرائيلية في هزيمة الكيان الأولى؛ تحرير شلومو بروم ومئير إلران، ط1، ترجمة وإصدار باحث للدراسات، 2009، ص 102.

(517) من الضروري الالفات إلى مقدار التحول الذي أحدثته الثورة التكنولوجية على صعيد الحروب، بحيث يصح القول أنها غيّرت وجه الحرب في عالم اليوم: فإلى جانب الدقة المتناهية في التصويب والاستهداف التي أصبحت عليها الأسلحة الحديثة، كما القدرات التدميرية التي بلغت معها آفاقاً غير مسبوقة؛ بالمقدور ملاحظة أنَّ هذه الثورة قد منحت المعلومة - التي لطالما كانت حاضرة وفاعلة في تاريخ المواجهات المسلحة - دوراً رائداً وفيصلاً في ميدان الحسم، بوصفها واحدة من تلك العناصر المفتاحية التي تتحكم بمصير مجمل العملية الحربية وكليتها.

(518) يذكر أنّ صانع القرار الحربي قد أدرك- منذ القدم- أهمية استباق نيّات العدو، وكشف مضمراته، ووعى ضرورة بيان مخططاته، ورصد مواقعه، واستقصاء تحركاته، والإحاطة بقدراته، والوقوف على أسباب القوّة وعناصر الضعف لديه؛ ثم جاءت الثورة التقنية في تكنولوجيا التواصل لتعطي هذا الأمر قيمة تفاضلية وترجيحية إضافية وازنة، بعد أن خلقت جيلاً جديداً من الحرب قوامه النزوع إلى ربح سباق الاستحواذ والسيطرة على المعلومات، ذلك الذي يجري على مسرح افتراضي تؤثثه الأقمار الصناعية الكاشفة لخطوط تمركز وانتشار القوات المعادية. كما أجهزة الرادار، والفيروسات المسبّبة للشلل الإلكتروني، وبرامج الاختراق المعلوماتية لنظم الاتصال وقواعد المعطيات لدى الخصم. والحال، فإنّ القطاع المعلوماتي، وفق ما دلت عليه الإستراتيجية العسكرية المعاصرة وتوسلته، يهدف إلى تجميع وتثمير أكبر قدر من المعلومات التفصيلية ذات القيمة الوازنة والدقة العالية، في قبالة تفكيك شبكات التواصل بين خطوط العدو وضرب تعتيم مربك على المعطيات الذاتية.

(519) عكف الإسرائيليون- بنحو دائم- على تجميع معلومات وبيانات أولية عن كلّ ما له دخالة أو علاقة بحزب الله، مهما كان وضيعاً أو منخفض الأثر؛ كالاستعلام عن كوادره العسكرية والسياسية، وقواعده، وعديد أفراده، ومراكز تدريبه، ومخازن سلاحه، ومواقع منصّاته، وحجم ترسانته الصاروخية وفعاليتها التدميرية، ونظام اتصالاته، وخططه، وتكتيكاته، وطرائق وأساليب عمله...، وتوسّلوا في سبيل ذلك أدوات وتكتيكات تعقب ورصد ومراقبة واختراق وتنصّت وجمع معلومات...، ثم ضخ هذه البيانات والمعلومات بعد معالجتها وتحليلها في مختلف مفاصل ومكوّنات منظومتهم المعلوماتية وأفرعها المتشعبة داخل الأذرع العسكرية والأجهزة الأمنية المختصّة. بما يجعل هذه المنظومة ذات أهلية للاستثمار والتشغيل خلال الحرب، وعلى نحو يحقق أكبر قدر من الفاعلية لأداء قواتهم وأسلحتهم. والحال هذه، كانت الإستراتيجية المعلوماتية لدى الإسرائيليين تتمحور حول نقطة ارتكاز قوامها: إدارة عمليات جمع معلومات، وفهرسة، وتخزين، ومعالجة، وتحليل، وتداول، وتوظيفها في الميادين ذات الصلة بـ«مفهوم هجومي»، ليصار إلى الإفادة منها في تخطيط وإدارة الحرب.

(520) يتوافر الإسرائيلي اليوم على منظومة معلوماتية بالغة التطوّر والتعقيد والفرادة، صير إلى تشييدها، وتطويرها وتحسينها بمعدّلات متسارعة. وذلك بالاستناد إلى القاعدة البحثية والعلمية الإسرائيلية، كما إلى الإنفتاح اللامحدود على المجمع الصناعي العلمي العسكري الأميركي.

(521) جمال محمد غيطاس، الوجه المعلوماتي للحرب على لبنان: هجوم بمنظومة تكنولوجيا معلومات متطوّرة، ودفاع بمنظومة أمن معلومات بسيطة وبارعة. أنظر : الموقع الاكتروني ghietas@ahram 0505.net.

(522) شموئيل بار، ردع الجماعات الإرهابية غير المصنفة في عداد الدول- حالة حزب الله. أنظر: مؤتمر هرتزيليا الثامن: ميزان الصناعة والأمن القومي (20-23 كانون الثاني 2008)؛ ترجمة واصدار باحث للدراسات، ط1، 2009، ص306، 307.

(523) أمل سعد، حرب حزب الله الأخيرة. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثالثة، العدد 896 ، السبت في 15 آب، العام 2009، ص20.

(524) غاي أفيعاد، «قراءة في بناء قوّة حزب الله بين 2006 – 2009، دراسة متخصصة صادرة عن مركز دراسات الأمن القومي الإسرائيلي. أنظر: غابرييل سيبوني وآخرون، الإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية ضد حماس وحزب الله؛ ترجمة عدنان أبو عامر، ط1، باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية، 2011، ص 39.

(525) أمل سعد، م.س.، ص20.

(526) أمل سعد، م.س.، ص20.

(527) لا شكّ أنّ إسرائيل تعتبر قوّة دولية رائدة في مجال تطوير أنظمة الحرب الإلكترونية، وأنّها ارتقت في هذه الصناعة إلى حدّ أنّ علاقة تبادلية نشأت بينها وبين الولايات المتحدة الأميركية، لغرض بحث تطوير العديد من الأنظمة ذات الصلة، حيث صير إلى تثمير خليط من الأساليب والوسائل والبرمجيات والتكنولوجيات والمعدّات الأمريكية والإسرائيلية. والجدير بالإلفات أنّه خلال الحرب الإسرائيلية على حزب الله في صيف العام 2006، لم تكن هذه الوسائل

والمعدّات والتكنولوجيات قاصرة بإطلاق، أو أنّها عديمة الفعّالية والجدوى، بل صير إلى تحييدها بالكامل وإصابتها بالشلل وإخراجها من مدارات اشتغالها، والإضرار بعملها والتشويش على قدراتها، على نحو لم يوفق أي منها في الاضطلاع بمهامه، كما في آداء ما أنيط به من وظائف وأدوار: إذ إنّ وحدات الحرب الإلكترونية في الجيش الإسرائيلي فاجأتها أواليات الحماية المعقدة التي أضافها حزب الله على شبكات الاتصال، والتي تبيّن لاحقاً أنّها كانت متصلة بآلياف بصرية عصيّة على التشويش الإلكتروني.

(528) تكشّفت الوقائع الميدانية لحرب (تموز- آب 2006)– وفق غير دراسة وجهة استخبارية- عن تمكّن حزب الله من اختراق الأجهزة الحربية الإلكترونية الإسرائيلية، وذلك من طريق تفعيل قدراته الاستخبارية المتقدّمة المعنية بجمع المعلومات. فإلى جانب نشاطه الملحوظ في مجالي النفوذ والتجنيد داخل صفوف الجيش والمجتمع الإسرائيليَين، كما طائرات الاستطلاع (مرصاد-1) التي عكف على إرسالها فوق المجال الجوي للدولة العبرية منذ العام 2004؛ حصل الحزب على تقنية مراقبة أخرى تتضمّن أجهزة تنصّت إلكترونية استخدمها من أجل مراقبة المحادثات التي يجريها باللغة العبرية جنود الإحتياط الإسرائيليون مع عائلاتهم عبر الهواتف الخلوية. هذا فضلا عن استخدامه أجهزة وتقنيات أخرى وفرت له القدرة على اعتراض الاتصالات الإسرائيلية اللاسلكية، وتفكيك رموزها، وتحرير حمولاتها.. ما مكنه من تعقب تحركات الدبابات الإسرائيلية، ومراقبة تقارير الإصابات، وطرق الإمدادات والإسناد والدعم ... أنظر: أمل سعد، حرب حزب الله الأخيرة. دراسة بحثية منشورة على صفحات جريدة الأخبار اللبنانية، السنة الثالثة، العدد 896، السبت في 15 آب، العام 2009، ص20،21.

(529) انطوني جوردزمان، الدروس المستقاة من الحرب الإسرائيلية في لبنان؛ اتصالات حزب الله وحربه الإلكترونية، ط1، العام 2008، ص139، 140.

(530) شموئيل بار، ردع الجماعات الإرهابية غير المصنفة في عداد الدول- حالة حزب الله. أنظر: مؤتمر هرتزيليا الثامن: ميزان الصناعة والأمن القومي (20-23 كانون الثاني 2008)؛ ترجمة واصدار باحث للدراسات، ط1، 2009، ص304.

(531) علي شهاب، مواجهة حزب الله بين العقيدة العسكرية الأميركية وفشل إسرائيل. أنظر: موقع عرب تايمز arabtimes.com ، في 11 آب/ أغسطس 2008 .

(532) تكشف أمل سعد في دراسة بعنوان (حرب حزب الله الأخيرة)؛ كيف أنّ حزب الله قد وزّع «قواته على شكل خلايا صغيرة التزمت بتكتيكات قتالية متحرّكة وهجومات فجائية، بالإضافة إلى فاعلين عسكريين غير تقليديين». أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثالثة، العدد 896، السبت في 15 آب، العام 2009، ص20.

(533) كانت كلّ محمية من هذه المحميات، عبارة عن نظام ملاجئ أرضية بنيت من الخراسانات الإسمنتية المسلحة، وقد جُهّزت بأبواب فولاذية، وسلالم، ومخارج، ومنافذ طوارئ، ومنافذ هرب. كما زوّدت بكاميرات للرؤية، وأجهزة تحسّس، وشبكة وسائل تضمن إتصالا متواصلا بعضها محوسب.

(534) يصف أنطوني جوردزمان أحد مخابئ حزب الله التي صير إلى اكتشافها من قبل الجيش الإسرائيلي خلال حرب العام 2006، حيث يقول: «امتدّ المخبأ أربعين متراً تحت الأرض وغطى

مساحة كيلو مترين. ضم تسهيلات طبية ومخازن سلاح وذخيرة وتوصيلات مياه ومخازن طعام وتسهيلات إيواء تسمح للمقاتلين بالبقاء أسابيع دونما حاجة إلى الإمداد. أحد المخابئ في بلدة مارون الراس الحدودية كان على عمق 25 قدماً تحت الأرض، وكانت هناك كاميرا على مدخله الرئيسي موصولة بشاشة عرض في الأسفل».

(535) يعتقد كثيرٌ من المحللين الإستراتيجيين، أنّ حزب الله استلهم نظام الأنفاق من الثوار الفيتكونغ خلال مواجهة الغزو الأميركي لفيتنام.

(536) شموئيل بار، ردع الجماعات الإرهابية غير المصنفة في عداد الدول- حالة حزب الله. أنظر: مؤتمر هرتزيليا الثامن: ميزان الصناعة والأمن القومي (20-23 كانون الثاني 2008)؛ ترجمة واصدار باحث للدراسات، ط1، 2009، ص 306.

(537) اليستر كروك ومارك بيري، من دراسة مشتركة بعنوان (كيف هزم حزب الله إسرائيل) ، ص19.

(538) أنطوني جوردزمان، الدروس المستقاة من الحرب الإسرائيلية في لبنان، ط1 ، العام 2008، ص137.

(539) أنطوني جوردزمان، م.ن.، ص137.

(540) أمير كوليك، حزب الله في مواجهة الجيش الإسرائيلي، نشرة التقدير الإستراتيجي الصادرة عن معهد أبحاث الأمن القومي التابع لجامعة تل أبيب لشهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2006. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، ملحق خاص، السنة الأولى، العدد 290، الإثنين في 30 تموز، العام 2007، ص8.

(541) منير شفيق، الإستراتيجية والتكتيك في فن علم الحرب، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، العام 2008، ص 134.

(542) تتبنّى الجيوش النظامية- في العادة- هيكليات قتالية وحربية تعمل وفق المفهوم العمودي الذي يصار فيه إلى إسقاط القرارت والتوجيهات بنحو مباشر من القيادة المركزية. أي أنّ الجندي ليس بمقدوره إطلاق النار أو تأزيم الموقف دونما أوامر واضحة وقاطعة من ذوي القرار في القيادة العليا. في حين تبنّى حزب الله- وكذلك الجيش الإسرائيلي-هيكلية قتالية تعمل وفق المفهوم اللامركزي الذي يتيح من هوامش المرونة ما يسمح باتخاذ قرارات ميدانية بناء للمشاهدات والمواجهات في منطقة العمليات.

(543) عكف حزب الله على انتهاج سياسة «التسيير الذاتي» لعمل أذرعه ووحداته وخلاياه المنتشرة في جغرافيا القتال، بعدما وفر- لآماد طويلة- كلّ لزوميات الصمود والمواجهة والحرب ضمن ظروف بالغة التعقيد والصعوبة، سواء أكان ذلك على مستوى طول النفس الإستراتيجي الذي تجسّد بمخزون واسع ومنتشر من الذخيرة والوسائل القتالية سهلة الاستخدام، او على المستوى العملياتي الذي سمح بالانتشار في مناطق واسعة من العمق اللبناني، وأتاح استهداف الجبهة الداخلية الإسرائيلية من مسافات متباعدة ومختلفة بصواريخ متعدّدة المديات. فضلاً عن استحداثه وحدات طرف مستقلة ذات قدرات تنفيذية وعملياتية عظيمة. تعمل وفق مبادرات خاصة تتقرّر ميدانيا.

(544) يعدّ الدعم اللوجسيتي ركناً ركيناً من أركان الصمود ومن مستلزمات المواجهة، لأي قوة قتالية سواء أكانت نظامية أم خلاف ذلك، ولهذا يعتبر مأزماً فعلياً من المآزم التي تثقل كاهل الجيوش خلال المعارك والحروب، بوصفه يشتمل على حركة تأمين الطعام والماء والذخائر والمعدات ذات الصلة باحتياجات الآليات والأسلحة. ما يعني أنّ إصابة الدعم اللوجسيتي باختلال وإعطاب من شأنه أن يتأدّى بنحو مباشر إلى سقوط الجيش وانهياره، وبالتالي استسلامه، مهما علت الروح القتالية لديه، لمجرد أن يحاصر، وتتعامل معه أسراب الطائرات وأرتال المدفعية والدبابات.

امّا حزب الله، وفق ما تشير إليه المباحث على هذا الصعيد، فإنّه اتبع ما يمكن تسميته بـ(خطة النمل)، عبر إقامته مناطق تخزين ثابتة ونقالة، أعمّها الأغلب في باطن الارض. ما يحول دون تعرّض قواته وعناصره لمصاعب في ظل سيطرة جوية مطلقة لسلاح الجو الإسرائيلي، ويجعل صمودها في مواجهة العدو عملية أقلّ خطورة، وأقلّ نزفاً وكلفة.

(545) قد لا يتلاءم أنموذج المؤسّسة مع خصوصية حزب الله، بوصف الأخير لا يتوافر كالجيوش النظامية على مفاصل حساسة، أو على مراكز ثقل واضحة، أو على قوات ثقيلة الحركة... فهو منظمة موزّعة ومنتشرة ومتمدّدة، وذات أساليب تحصّن مائزة وفارقة، كما أنّها ذات بنية قائمة على مفاهيم حرب العصابات: كالكرّ، والفرّ، والمراوغة، والضربات السريعة المفاجئة الموجعة التي تستنزف العدو. ليس لها قواعد بيانات عملاقة، ولا حاسبات سوبر، ولا معدّات معلوماتية قتالية فائقة التطوّر. وفضلاً عن أنّها تتقن التخفي والتمويه والتواري والتضليل والاستتار على نحو مدهش، أتاح نشر منظوماتها المتعدّدة، نحو: منظومات الإطلاق، ومنظومات الدفاع، ومنظومات القيادة والسيطرة واللوجستيك...، في مناطق مختلفة، معقدة، ومشجرة، وعصيّة على الوضوح والانكشاف.

(546) أمين مصطفى، الإعصار، ط1، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، العام 2007، ص 232.

(547) اليكس فيشمان، أنظر: صحيفة يديعوت احرونوت الإسرائيلية، في عددها الصادر في 16-5-2010.

(548) يرى ندير تسور في مقالة له بعنوان (أزمة المعاني في الجيش وفي المجتمع بعد حرب لبنان الثانية)، نشرتها مجلة (جيش وإستراتيجيا) عن مركز أبحاث الأمن القومي: أنّ وضوح مفهوم التشغيل وتماسكه، إلى جانب سلاسة اللغة وقدرتها على التواصل والتعبير، هو «الذي يضمن التماسك والتعاون في تشغيل القوّة». أنظر: مجلة الوحدة الإسلامية، السنة العاشرة، العدد 110 ، شباط/ فبراير، العام 2011، ص 25.

(549) إنّ الجنود المفكرين، وفقاً لجانوبيتش، هم الجنود الذين يلتزمون بنحو رئيس الأسئلة العملية، لكنهم من أجل مواجهة المشكلات العملية يستمدّون الإلهام من نظرية عسكرية، ومن تاريخ عسكري.

(550) تعدّ اللغة مركباً أصيلاً من مركبات الثقافة التنظيمية لدى الجيوش؛ يصار بواسطتها إلى تسييل عمليات الاتصال الداخلية التنظيمية. ويصار من خلال الاستعانة بها إلى التعرّف على أهداف الجيش والمهام المنوطة به. فضلاً عن أنّها تخلق قاعدة إدراكية مشتركة واضحة ومألوفة

تتوسّط بين المستوى الذي يقود والمستوى الذي يخطط والمستوى الذي ينفذ، وذلك لغرض الربط بين الأفكار والسياسات من جهة، وتنفيذها وترجمتها من جهة أخرى.

(551) يذهب ندير تسور في مقالة له بعنوان (أزمة المعاني في الجيش وفي المجتمع بعد حرب لبنان الثانية)، نشرتها مجلة (جيش وإستراتيجيا) عن مركز أبحاث الأمن القومي، إلى أنّه: «في حرب لبنان- في صيف العام 2006 ـ أعطيت الأوامر غير واضحة، ودون غايات من ناحية أداء عمل الجنود إزاء الإنجازات المطلوبة منهم، وكان ذلك تداخل بين عدم وضوح الهدف من ناحية الفكرة والتخطيط، وبين اللغة غير الواضحة. وأكثر من مرة حدّدت صيغة الأوامر التأثير المتوقع للعملية، وليس أسلوب تنفيذ العملية». أنظر: مجلة الوحدة الإسلامية، م.ن.، ص 25.

(552) ندير تسور، من مقالة له بعنوان (أزمة المعاني في الجيش وفي المجتمع بعد حرب لبنان الثانية)، نشرتها مجلة (جيش وإستراتيجيا) عن مركز أبحاث الأمن القومي. أنظر: مجلة الوحدة الإسلامية، م.ن.، ص 25.

(553) اليكس فيشمان، أنظر صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية، في عددها الصادر في 16-5-2010.

(554) اليكس فيشمان، م.ن.

(555) اليكس فيشمان، م.ن.

(556) كان الجيش اللبناني- على سبيل المثال- يتوسّل في منظومته للقيادة والتحكم استخدام أجهزة (BRC)، وأجهزة راكال اللاسلكية. وهذه بالمقدور استهدافها وإعطابها بسرعة فائقة، والتعامل مع مصدر إرسالها أينما كان موضعه، بفعل ما تتوافر عليه إسرائيل من تكنولوجيا على هذا الصعيد. ما يتأدّى إلى انقطاع في عملية التواصل والاتصال بين الوحدات القتالية العاملة في ساحة الحرب وبين قياداتها ومرجعيات القرار لديها. أمّا حزب الله فقد إستدرك خطورة هذا الأمر، وتجاوزه من خلال تفعيل شبكة اتصالات سلكية سرية خاصة به.

(557) كان مجلس الوزراء اللبناني برئاسة فؤاد السنيورة، قد اتخذ في الخامس من شهر أيّار/ مايو من العام 2008 ـ بعد جلسة صاخبة استمرّت لنحو عشر ساعات- قراريه الشهيرين القاضيين بإقالة رئيس جهاز أمن المطار في بيروت العميد وفيق شقير، وباعتبار شبكة الاتصالات السلكية الأرضية الخاصة بحزب الله غير شرعية.

ففي الموضوع الاول: صدر بيان رسمي عن الحكومة اللبنانية صير إلى إذاعته في مقرّرات الجلسة المذكورة أعلاه. وقد جاء فيه أنّ الحكومة قرّرت إقالة قائد جهاز أمن المطار العميد وفيق شقير من منصبه، وإعفائه من مهامه، وإعادته إلى ملاك الجيش. وذلك بعد النظر في الاتهامات التي أطلقها النائب وليد جنبلاط ضد حزب الله، على خلفية قيام الأخير بـ«مراقبة مطار رفيق الحريري الدولي بواسطة كاميرات خاصة».

وفي الموضوع الثاني: صدر بيان أيضاً عن الحكومة اللبنانية، جاء فيه أنّ مجلس الوزراء قرّر «اعتبار شبكة الاتصالات الهاتفية التي أقامها حزب الله غير شرعية وغير قانونية وتشكل اعتداء صريحا على سيادة الدولة والمال العام». وقد أعلنت الحكومة في البيان الذي أذاعه وزير

الإعلام– حينئذ- غازي العريضي، إطلاق الملاحقات الجزائية ضد جميع الأفراد والهيئات والشركات والأحزاب والجهات التي تثبت مسؤوليتها في تمديد هذه الشبكة.

وكان الظهور الأول لذكر شبكة الاتصالات الخاصة بحزب الله، كما لجعلها موضع الاهتمام والعناية سواء على الصعيد الداخلي الرسمي، أو الخارجي الدولي المتمثل في الولايات المتحدة الأميركية على وجه أخصّ، وفي كلّ من فرنسا ومصر والسعودية...، في تاريخ الرابع والعشرين من شهر آب/ أغسطس من العام 2007، أي قبل ما يقارب ثمانية أشهر من صدور قرار مجلس الوزراء. وذلك وفق ما أشّرت إليه البرقية الصادرة من السفارة الأميركية، والتي تحمل الرقم (07Beirut 1301). ثم توالت البرقيات الأميركية التي تعكس هذا الاهتمام، وتشفّ عن طبيعة اللقاءات السياسية والأمنية التي صير إلى عقدها وتنظيمها لهذه الغاية؛ فكانت البرقية الصادرة في الثامن من شهر نيسان/ إبريل من العام 2008، والتي تحمل الرقم (08Beirut 490). والبرقية الصادرة في الحادي عشر من شهر نيسان/ إبريل من العام 2008، والتي تحمل الرقم (08Beirut 505). وكذلك البرقية الصادرة في السادس عشر من شهر نيسان/ إبريل من العام 2008، والتي تحمل الرقم (08Beirut 523). ثمّ البرقية ذات الرقم (08Beirut 586)، الصادرة في الأول من أيّار/ مايو من العام 2008. والبرقية الحاملة للرقم (08Beirut 608)، الصادرة في الرابع من شهر أيّار/ مايو من العام 2008، أي قبل يوم واحد من صدور قرار مجلس الوزراء اللبناني.

(558) عملية عسكرية موضعية خاطفة وسريعة نفذها حزب الله في السابع من شهر أيّار/مايو من العام 2008، حيث تمكن من إحكام قبضته على العاصمة اللبنانية بيروت. ما أفضى إلى اختلال المعادلات لغير مصلحة قوى الرابع عشر من آذار التي كانت قد مارست انقلاباً على الدولة منذ العام 2005، وهيمنت على مقدراتها ومؤسّساتها. وكانت أولى مفاعيل هذه العملية ما عرف بـ«اتفاق الدوحة»، الذي أعاد إنتاج تركيبة حكومية جديدة راعت التوازنات السياسية المستجدّة، وأدخلت المعارضة انذاك بأطيافها المتعدّدة ضمن مكوّناتها الفاعلة التي تستحوذ على سلطة الاعتراض والتعطيل (ما سميّ اصطلاحاً بالثلث الضامن في تركيبة مجلس الوزراء).

(559) لقد شكلت حرب تموز- آب من العام 2006 تحدّياً لما صير الى تخليقه وبلورته أميركياً في أواخر تسعينيات القرن العشرين من مفهوم حديث للحرب غير المتماثلة، على نحو جعل الأخير في حاجة ماسّة الى المراجعة، وإلى إعادة نظر بجدواه وفعاليته. ذلك أنّ آداء حزب الله العسكري خلال الحرب، كما تكتيكاته وسياساته وإستراتيجياته ذات الصلة؛ أظهر أنّه لم تعد ثمّة إمكانية بعد الآن لتحديد الحرب غير المتماثلة حصراً بحرب فاعلين سياسيين «يتوسلون أساليب غير تقليدية تتفارق إلى حدّ كبير عن النمط المعتاد الذي يأخذ به العدو في إجراء العمليات» وفقا لما جاء في تحديدات الجيش الأميركي. إذ تكشّفت الحرب عن حقيقة مفادها: أنّ حزب الله لم يعمد إلى تطوير حرب العصابات وحسب، بل تجاوزها ليضع انموذجاً حربياً جديداً يصهر فيه- على نحو إبداعي- الأساليب غير التقليدية بنمط العمليات العادي الذي تجريه الجيوش التقليدية، وبالتالي فإنّه أرسى دعائم نظرية جديدة تصلح لمقارعة مثيلاتها التقليدية والمعاصرة في الحرب والإستراتيجيا.
والحال، فإنّ النمط القتالي الجديد، ليس من طبيعة كلاسيكية، ولا من طبيعة غوارية، بل من طبيعة هجينة لم يسبق لها مثيل، تقع في مساحة التوتر ما بين الجيش النظامي وحرب العصابات. ما أتاح لحزب الله أن يحقق بهذا التوليف توازناً بارعاً بين التقليدي وغير التقليدي في إستراتيجيته،

وسياساته، وتكتيكاته، وأسلحته، وتنظيمه في غير مجال، وعلى غير الصعيد العسكري، وأن يحوّل مقاتليه على المستوى الإستراتيجي، من مجموعة كلاسكية تخوض حرب عصابات، إلى قوّة قتالية شبه تقليدية تمكنت خلال 33 يوما من لجم اندفاعة الجيش الإسرائيلي، ومنعه من إعادة احتلال الأرض.

وكان الخبراء والإستراتيجيون العسكريون الأميركيون، قد أبدوا خشيتهم وتخوفهم من أن يؤسّس نمط حزب الله القتالي الجديد لعدوى حرب هجينة يأخذ بناصيتها الفاعلون من أخصام الولايات المتحدة، سواء أكانوا دولاً أم تنظيمات وجماعات. وذلك بوصفه- أي النمط القتالي- يوفر لهؤلاء الفاعلين الوسيلة الفضلى والطريقة المثلى لموازنة انعدام تماثل القوّة.

(560) صحيفة السفير اللبنانية، السنة الخامسة والثلاثون، العدد 10924، الجمعة في 15 شباط / فبراير، العام 2008، ص5.

(561) صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون، العدد 11894، الأربعاء في 25 أيّار/ مايو، العام 2011، ص4.

(562) من خطاب للأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله، ألقاه في الثاني والعشرين من شهر شباط/ فبراير من العام 2008، في المهرجان الذي نظمه الحزب لمناسبة اسبوع المقاومة الإسلامية واسبوع الشهيد عماد مغنية، في مجمع سيد الشهداء في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(563) من خطاب للأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله، م.ن. .

(564) من خطاب للأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله، ألقاه في الثاني والعشرين من شهر شباط/ فبراير من العام 2008، في المهرجان الذي نظمه الحزب لمناسبة اسبوع المقاومة الإسلامية واسبوع الشهيد عماد مغنية، في مجمع سيد الشهداء في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(565) توسّل حزب الله ابتداءً هيكلية ناظمة لعمل مقاتليه وناشطيه وقواته، تستوي بالهيكليات الخاصة بالقوات غير النظامية. فهو كأي إطار حزبي تؤسّس بيئته المجتمعية حاضنته وقاعدته ومجاله الحيوي؛ تشكلت قواته القتالية من نواة محورية نخبوية ذات كفاءات وقدرات مميزة، وعلى مستوى عال من التدريب والإعداد والتجهيز، إلى جانب عدد غير قليل من المواطنين الناصرين والناشطين الذين يؤدّون مهام قوات الاحتياط ويقومون بوظائفها.

لكنّ هذه الهيكلية الناظمة شهدت تحوّلاً ملحوظاً ومطرداً في أعقاب حرب (تموز- آب 2006)، أي بعد أشهر معدودات على توقف الأعمال الحربية وفق ما جاء في مندرجات القرار الدولي 1701؛ فقد أفاضت تقارير استخبارية وإعلامية غربية وعربية في الحديث عن إطلاق حزب الله لعملية تجنيد وتدريب شاملة طاولت الشباب اللبناني بعامة، والشيعي منه على وجه التحديد. وقد جاء إعلان السيد حسن نصر الله في شهر شباط/ فبراير من العام 2008، خلال مراسم حفل تأبين الحاج عماد مغنية، عن إعداد «عشرات الآلاف من المقاتلين المدربين المجهزين»؛ ليؤكد صحة قيام الحزب بتحويل قوات الاحتياط لديه إلى قوّة قتالية على قدر كبير من الاحتراف والمهنية. وفي هذا تماهٍ خلاق مع القوات النظامية. كما يُعدّ تبني حزب الله لأنموذج القيادة غير المركزية، ولبنية من السيطرة والتحكم، المرفقتين بسرية تنظيمية لا يمكن اختراقها والنفاذ إليها عملياً، من الخصائص النموذجية الفارقة التي تسم عمل مجموعات حرب العصابات. إلا أنّ هذه الخصائص

يقابلها على نحو من الندية الانضباط الصارم والتنسيق الوثيق بين المقاتلين، وهو أمر يسم القوات المسلحة التقليدية.

(566) تؤشّر المروحة الواسعة من الأسلحة المتنوعة التي استخدمها حزب الله في جبه عدوان (تموز- آب 2006)، إلى مزاوجته بنحو إبداعي خلاق بين الأساليب الحربية التقليدية والأخرى غير التقليدية: دمج عملياً بين الأسلحة البدائية التي من غير المتعذر الحصول عليها من قبل جماعات حرب العصابات، وبين أنظمة متطوّرة من الأسلحة التي قد لا تتوافر عليها كثير من الدول. غير أنّ هذه المزاوجة الدياليكتيكية بين غير جيل من الأسلحة، وهذا الجمع المثير بين القديم والحديث منها؛ ليس هو المصداق الوحيد للمساهمة الفريدة التي قدّمها حزب الله للعمليات الحربية، كما أنه ليس قيمتها المضافة وحسب، بل تمثل العنصر الأكثر تعبيراً عن ذلك، فيما أظهره مقاتلو الحزب من قدرات على حسن تطويع بدائية هذه الأسلحة، كما حسن تفعيلها بكيفية مثمرة تتوافق مع مصلحتهم، في الوقت الذي أجادوا فيه استخدام الجيل المتطوّر منها استخداماً احترافياً خلاقاً.

(567) غيئورا روم، اختبار لإستراتيجيات متنافسة: سفينتان تمرّان في الليل. أنظر: معهد دراسات الأمن القومي الإسرائيلي، حرب لبنان الثانية: قراءات إسرائيلية في هزيمة الكيان الأولى؛ تحرير شلومو بروم ومئير إلران، ط1، ترجمة وإصدار باحث للدراسات، 2009، ص 103.

(568) منير شفيق، الإستراتيجية والتكتيك في فن علم الحرب، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008، ص 240.

(569) منير شفيق ، م.ن.، ص 240.

(570) أصبحت الحرب وفقاً لنظرية «الثورة في الشؤون العسكرية»، تخاض من خلال منظومات تكنولوجية بالغة التعقيد، في تغييب حقيقي وواضح لدور الإنسان المحارب وريادته، وقد شفت عن مقولة أنّ السيطرة الجوية خلال المعركة من شأنها أن تتأدّى بالضرورة إلى انهزام العدو واستسلامه، وأنّ بمقدورها إنهاء الحروب بنحو حاسم وبسرعة خاطفة في مواجهة أيّة قوّة عسكرية دونها مستوى في التطوّر.

(571) العمليات المرتكزة على المؤثرات (Effects based operations (EBO: هي العمليات العسكرية التي تأخذ بمنطق تكنولوجي على حساب أحكام الحيلة: تتوسّل حرباً تتكئ بنحو مكثف ومبالغ ومفرط على تفعيل سلاح الجو، كما على تفعيل عنصر النار بنحو يؤدّي إلى شلّ قدرة العدو، وإعطابه، وإصابته بالعجز والقصور، والإضرار بأسباب قوّته وبمقدرته على الحركة والعمل. وذلك من خلال اللجوء الى ضرب مفاصله الرئيسة والحيوية، واستهداف مرتكزاته، والتعرّض لمقاره ولنظم التحكم والسيطرة والاتصال لديه. تستقيم فكرة العمليات المرتكزة على المؤثرات على أطروحة مفاهيمية مفادها: إنّ الاستحواذ على امتلاك التكنولوجيا العسكرية الحديثة، بما ينطوي عليه ذلك من غلبة لسلاح الجو وتفوّق ملحوظ في قدرات هذا الأخير؛ قد جسر عملية انتقال الجيوش من حرب قوامها «الحركة والنار»، الى أخرى من طبيعة مغايرة، صير إلى الإصطلاح عليها بـ«حرب النار الدقيقة» المقترنة بحركة محدودة وسيّالة وفاعلة، والهادفة إلى:

أ-إحكام السيطرة على ساحة المعركة من بعد

ب-تدمير أهداف العدو من دون الاحتكاك به.

ج-كيّ وعي العدو، والتأثير عليه بكيفية تدفعه إلى الانهزام النفسي.

ويعتبر الكولونيل في سلاح الجو الأميركي جوهان فاردن، أول من أشار إلى مصطلح (EBO) كنظرية عسكرية في بعديها المعياري والمفهومي؛ حيث عرض في مؤلفه (The enemy as a system) إلى ما تنطوي عليه من فروض وإلزامات وتحديدات، صير إلى صياغتها وتقعيدها ضمن شرائط ثلاثة من شأنها أن تسقف مجتمعة إستخدام هذه النظرية، وأن تحكم أواليات عملها واشتغالها:

أ-أن يكون العدو مبنياً كمنظومة.

ب-أن تكون لهذه البنية المنظومية مفاصل وركائز محدّدة.

ج-أن تكون منظومة العدو ومفاصله المحدّدة بيّنة وجليّة ومعروفة للجهة المبادرة التي تولت استخدام هذه النظرية.

(572) القتال ما بعد البطولي: مفهوم عسكري أبدعه ونظّر له إدوارد لوتفيك. وهو مفهوم تخلق وتوالد من رحم الطفرة في تكنولوجيا التسلح، والثورة في الشؤون العسكرية. يقوم على تبنّي نمطٍ جديدٍ من القتال بنحو يستوجب عدم الالتحام والاشتباك والاحتكاك المباشر مع العدو. ما بالمقدور أن نقع على تمثلاته في عملية إدارة الحرب من بعد، بواسطة استعمال دفق من النيران الدقيقة والكثيفة والمركزة، وذلك لتجنيب الجيش مخاطر المواجهات والمفاجآت والإنزلقات غير المحسوبة، ولحيلولة دون استنزافه، ودون وقوع خسائر في صفوفه.

(573) الحرب النظيفة: مصطلح عسكري أميركي تبلور خلال وبعد سلسلة الحروب المعاصرة التي خيضت من جانب الولايات المتحدة، بدءاً من الحرب الكورية (1953)، مروراً بالحرب الفيتنامية (1975)، وصولاً إلى الغزو الأميركي لأفغانستان (2001)، وللعراق (1991/2003)، والتي تسبّبت جميعها بنزف بشري حادّ أصاب الجيش الأميركي، وأفضى بالتالي إلى أكلاف باهظة دُفعت على هذا الصعيد. ما تأدّى على نحو مباشر إلى الإضرار بالسمعة العسكرية للولايات المتحدة كدولة عظمى، واستطراداً الإضرار بمكانتها وهيبتها كدولة مقتدرة لاسيما بعد تربعها كقطب أحادي يُخضع العالم لمشيئته، ويملي إرادته السياسية على الشعوب. فضلاً عن تمخض الأمر عن نتائج ومفاعيل داخلية، كان من شأنها أن تسمح لخصوم الحزب الحاكم في البيت الأبيض ممارسة ضغط إعلامي ينزع إلى بيان فشل الخيار العسكري، أو يعكف على تثمير فضح ما يصطلح عليه داخلياً بـ(جريمة التضحية بابنائنا). والحال، كان وازع تلافي الخسائر اللوجستية والبشرية المحتومة، واجتنابها على مسرح المواجهة المحدّد ترابياً، والخاضع لإكراهات الجغرافيا، والمنكشف أمام حركة التصويب والاستهداف، مع لحاظ الاعتبار إلى أنّ هذا المعطى هو معطى ذو مفاعيل بالغة الحدّة إذا ما صير إلى تثقيلها على المستوى السياسي، بوصفه يجعل سيد القرار أسير استجابات وحساسيات الجمهور، ويضعه في مرمى نيران الرأي العام، ويجبره على الانخراط في تسويّات ومواءمات عسيرة. وكان- إلى جانب الأول- وازع الضرورة الإستراتيجية العسكرية؛ هما المحرضان والمحفزان الحاكمان لظهور منجزات الثورة التقنية والتواصلية كالنحو الذي نقع عليه في تفعيل نظام الانترنت، وتطوير تصوّراته الوظيفية في الحظائر التكنولوجية للجيش الأميركي، حيث صير في السنوات الأخيرة إلى تسجيل استثمارات غير مسبوقة في تكنولوجيا التواصل والتقنيات الدقيقة ذات الاستخدام العسكري. ما أفضى الى

تخليق وبلورة عقيدة عسكرية جديدة صير إلى الاصطلاح عليها بـ(صفر قتيل)، في تعبير صريح عن الوجهة التي تنحو نحو تصوّر تدخلات عسكرية دون سقوط ضحايا، والتي تتمثل في الارتقاء بالقدرات والنظم القتالية بما يمكّن من خوض حرب من مسافات بعيدة، وذلك عبر تقليص ضرورات الاحتكاك المباشر بالعدو. الأمر الذي حفّز الخبراء الإستراتيجيون الأميركيون للحديث عن ولوج زمن (الحرب النظيفة)، مع لحاظ الاعتبار هنا، أنّ ما يُتقصد بالنظافة هي نظافة واحدية الجانب، بمعنى اقتصارها على ساحة الجهة المبادرة إليها. أمّا الطرف المقابل فيُعمل على التنكيل به من خلال توسّل شتى الأسلحة الفتاكة والمدمّرة.

الجدير بالإلفات، أنّ فرضية الحرب النظيفة كانت دون ترجمتها وتسييل نتائجها واقعاً ملموساً، موانع وعوائق عديدة تكشّفت عنها غير موقعة ميدانية وحرب، لاسيما المواجهة الدامية بين الجيش الإسرائيلي وحزب الله في العام 2006. وذلك بعد أنّ وقف الخبراء الإستراتيجيون الأميركيون والإسرائيليون على حدّ سواء على حقيقة مفادها أنّ السيطرة المادية البشرية على أرض المعركة ليست أقلّ شأناً ووزناً، بل تستحوذ هي الأخرى على أهمية إستراتيجية لتحقيق النصر الشامل، وذلك في قبالة الوقوف على محدودية التفوّق التكنولوجي- التدميري والتواصلي- في ضمان السيطرة الحاسمة التي تسمح بتحويل الواقع العسكري إلى منجزات سياسية.

(574) كانت جهود الجيش الإسرائيلي من خلال توسّل (الاستخدام المفرط للقوة)، تنصبّ وتتضافر لتصيب القوات المحاربة في حزب الله بمَقاتلها، وتجعل منها شعبا متفرقة، مقطوعة الصلة، موزّعة الأوصال على نحو فوضوي، ومكبلة بعمى معلوماتي يضعها في حالة إنعدام توازن، وفي حالة تخبّط ميداني تفقد معها القدرة على التركيز والاستباق والتوقّع، كما على تعبئة القدرات وتحشيدها في الاتجاه الصحيح؛ لتنتج- بعد ذلك- وضعية لا تلبث أن تنعكس مباشرة على الجانب المعنوي في الحرب، بما يعنيه ذلك من فقدان الثقة بالذات، والتوتر المحرّض على التصرفات الطائشة.

(575) أنطوني جوردزمان، الدروس المستقاة من الحرب الإسرائيلية في لبنان، ط1، العام 2008، ص 81.

(576) الواشنطن بوست، نقلا عن صحيفة افاق، عدد 99، ص3 .

(577) أنطوني جوردزمان، م.س.، ص 81 .

(578) صحيفة المجد الاردنية، عدد 503، العام 2006، ص4 .

(579) أنطوني جوردزمان، م.س.، ص81 .

(580) أنطوني جوردزمان، م.س.، ص81 .

(581) أنطوني جوردزمان، م.س.، ص81 .

(582) أنطوني جوردزمان، م.س.، ص81 .

(583) بالمقدور القول، إنّ العنصر البشري هو أهم أسلحة حزب الله بإطلاق، وهو أكثر استثماراته نجاعة وصلاحاً. هذا ما تكشّفت عنه وقائع وخلاصات حرب العام 2006. فقد وفّر هذا السلاح الذي يتوضّع في قلب المنظومة الأمنية والعسكرية، أسباب القوّة والغلبة والمكنة والاقتدار،

وجعل الحزب لاعباً إقليمياً، وأحد أطراف موازين القوى في الشرق الأوسط. وإذا كان ثمّة من يقول خلاف ذلك لغاية في نفسه، ولكيدية تلحّ على حرمان الإنسان العربي أيّة فضيلة أو موهبة، على النحو الذي تذهب إليه بعض البحوث والتقارير والتقديرات ذات المنطلقات المغرضة، أو تلك ذات الوجهات والخلفيات الأميركية والأوروبية والإسرائيلية التي تغلب الجانب المادي على ما عداه، وتكتفي من هذه الأشغولة بالنظر إلى حجم الترسانة الصاروخية التي يستحوذ عليها الحزب، كما إلى البرمجيات والتكنولوجيات التي يتوسّلها؛ فهو لا شك واقع في التبسيط والتجهيل والافتراء، وضليع في حملة تشويه الحقائق وتزييف الوعي. فحزب الله- إلى جانب أخذه بناصية الوسائل التكنولوجية- عكف في نشاط مطرد على إعادة الاعتبار لدور المقاتل الفرد في ساحة المعركة، وعلى تفعيل حضوره على هذا الصعيد، بنحو تكفلت فيه عمليات الإعداد والتعبئة من الارتقاء بكفاءاته وقدراته، وجعلته بالتالي في حالة من الجاهزية الكاملة.

(584) محمد قبيسي، الحرب السادسة: الصمود والانتصار، ط1، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، 2007، ص78.

(585) ستيفن بيدل وجيفري ا.فريدمان، حملة لبنان (2006) ومستقبل الحرب: مضامين بالنسبة إلى الجيش وسياسة الدفاع؛ ترجمة باحث للدراسات، ط1، الولايات المتحدة الاميركية: معهد الدراسات الإستراتيجية، 2008، ص 42.

(586) إسلام أون لاين. نت، حرب كسر الإرادة، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم– ناشرون، 2007، ص71.

(587) أجرى الباحثان ستيفن بيدل وجيفري ا.فريدمان، دراسة مقارنة بين توسّل حزب الله في العام 2006 بمدارك الحرب التقليدية، وبين تجارب متنوّعة لغير جيش ودولة: «كان الجيش النظامي العراقي في الحربين اللتين خاضهما ضد الولايات المتحدة الأميركية» يقول الباحثان «على مستوى أدنى بكثير من مستوى حزب الله لجهة استخدام أساليب التخفي، والتمويه، وتحضير المواقع القتالية، وضبط الرمي». وكذلك الجيش الإيطالي الذي أظهر في العام 1941 «قدرا أقلّ من الدربة في الحرب التقليدية مقارنة بما أظهره حزب الله في العام 2006». في حين كانت الدفاعات الفرنسية في العام 1941، كما تبدّت على جبهة سيدان، «أكثر انكشافاً وأقلّ قدرة على التعامل مع الظروف المتغيّرة، بالمقارنة مع أداء حزب الله». أمّا عربياً؛ فكان الجيش المصري في العامين 1956، 1967 «أقلّ لقانة من حزب الله في مجال التخفي والاختباء»، كما إنّ «ظهيره الجيش النظامي السوري، لم يقدّم أداء أفضل في حروب: 1967، 1973، 1982».

و«الحقيقة» يضيف الباحثان، أنّ حزب الله كبّد الإسرائيلي «خسائر البشرية في العام 2006»، باعتبار نسبة القتلى الإسرائيليين لكلّ مقاتل عربي، أكثر بما لا يقاس «مما أوقعه أي خصم لإسرائيل في حروب: 1956، 1967، 1973، 1982». ويخلص الباحثان إلى القول «من الواضح أنّ مهارات حزب الله في خوض الحرب التقليدية سجّلت مستوى جيدا ضمن الحدود المعهودة لأداء الكيانات الدول في الشرق الأوسط والمناطق الأخرى؛ بل إنّها فاقت بفارق معتبر مهارات العديد من جيوش هذه الكيانات». أنظر: ستيفن بيدل وجيفري ا.فريدمان، حملة لبنان (2006) ومستقبل الحرب: مضامين بالنسبة إلى الجيش وسياسة الدفاع؛ ترجمة باحث للدراسات، ط1، الولايات المتحدة الاميركية: معهد الدراسات الإستراتيجية، 2008، ص 35، 36.

(588) صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون، العدد 11894، 25 أيّار/ مايو، العام 2011، ص4.

(589) هشام آل قطيط، ثلاثة وثلاثون يوماً أحدثت بركاناً في إسرائيل، ط1، بيروت: مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، العام 2006، ص 89.

(590) مجموعة من الكتاب والمحللين الإستراتيجيين الإسرائيليين، 33 يوم حرب على لبنان؛ ترجمة أحمد أبو هدبة، ط1، بيروت: مركز الدراسات الفلسطينية، العام 2007، ص 97.

(591) حرب العصابات (Guerre de guerillas): هي لفظ إسباني الجذور، معناه الحرب الصغيرة، بوصفها حرباً غير نظامية وغير كلاسيكية، يقوم بها مقاتلون- مقاومون لغرض طرد مستعمر أو محتل. وقد أثبت هذا النوع من الحروب- وفق ما تكشّفت عنه التجارب، وأنبأت عنه الوقائع التاريخية- فعالية عالية، حيث إنها تستطيع بحكم طبيعتها أن توفر مقدرة أكبر على التمويه، والانتشار، وتضليل العدو، وخداعه، وتوريطه في معارك جانبية تستنزف قواه وقدراته وإمكاناته. وهي تعتبر- بحق- حربا سياسية، بسبب من أنها تعكف على استخدام أساليب التعبئة والتحشيد، ووسائل التوعية العقائدية والإقناع السياسي بأهداف الصراع، كأداة لاستمالة المدنيين إلى جانبها، والاستحواذ على تأييدهم ونيل ثقتهم. أنظر: حسين ظاهر، معجم المصطلحات السياسية والدولية، ط1، بيروت: مجد المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2011، ص 130.

(592) الاشتباك الحاسم: هو الظرف الذي يصرّ فيه المدافعون عن المواقع على التمسّك بمواقعهم، ويلحّون على التشبث بها تحت وطأة هجوم معاد، حتى لو بلغ الأمر أن اقترب المهاجمون من هذه المواقع، إلى حدّ يحول دون انسحاب المدافعين سالمين.

والاشتباك، وفقا لتعريف وزارة الدفاع الأميركية- البنتاغون: «يكون في الأعمال الحربية البرية والبحرية، عندما تعتبر الوحدة منشغلة انشغالاً تامّاً بالقتال، بحيث أنّها لا تستطيع المناورة ولا الانسحاب. وفي غياب الإسناد الخارجي، يجب خوض القتال حتى النهاية، بالقوات المتوافرة، سواء أكانت النتيجة إنتصاراً أو هزيمة...». أنظر الرابط الآتي:
www.js.pentagon,mil/doctrine/jel/doddict/data/d/01536.html

(593) ستيفن بيدل وجيفري ا.فريدمان، حملة لبنان (2006) ومستقبل الحرب: مضامين بالنسبة إلى الجيش وسياسة الدفاع؛ ترجمة باحث للدراسات، ط1، الولايات المتحدة الاميركية: معهد الدراسات الإستراتيجية، 2008، ص 96.

(594) ستيفن بيدل وجيفري ا.فريدمان، م.ن.، ص 97.

(595) امل سعد، حرب حزب الله الاخيرة. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثالثة، العدد 896، السبت في 15 آب، العام 2009، ص20، 21.

(596) ستيفن بيدل وجيفري ا.فريدمان، حملة لبنان (2006) ومستقبل الحرب: مضامين بالنسبة إلى الجيش وسياسة الدفاع؛ ترجمة باحث للدراسات، ط1، الولايات المتحدة الاميركية: معهد الدراسات الإستراتيجية، 2008، ص 125.

(597) ستيفن بيدل وجيفري ا.فريدمان، م.ن.، ص 125.

(598) امل سعد، حرب حزب الله الاخيرة. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثالثة، العدد 896، السبت في 15 آب، العام 2009، ص20، 21.

(599) قرّر الجيش الإسرائيلي احتلال بلدة مارون الراس الواقعة على الحدود اللبنانية، في الليلة الفاصلة بين التاسع عشر والعشرين من شهر تموز/ يوليو من العام 2006، وذلك بعد أن حشد لهذه الغاية قوات النخبة لديه بإمرة العقيد نمرود آلوني. لكنّ المحاولات المتعدّدة باءت جميعها بالفشل والهزيمة، وتكبّد خلالها الإسرائيلي خسائر كبيرة. بعدما أبدى مقاتلو حزب الله صموداً أسطورياً، وأظهروا– على قلة عددهم– مقدرة غير مسبوقة على الإمساك بالأرض، وعلى الاحتفاظ والتشبث بمواقعهم. وكان محلل الشؤون العسكرية لصحيفة معاريف عامير رابابورت، قد أشار في العدد الصادر منها في التاسع والعشرين من شهر حزيران/ يونيو من العام 2007، إلى أنّ هذه المواجهة الملحمية أدارها- فقط- قرابة عشرين مقاتلاً من حزب الله. وكانت «هذه الحادثة» والكلام لرابابورت «بداية الحرب البرية التي دفعت الجيش الإسرائيلي إلى التنازل عن تفوّقه الكبير كجيش يضم مئات آلاف الجنود أمام تنظيم يضم من ثلاثة إلى أربعة آلاف مقاتل حسب التقديرات (...) في ذلك اليوم لم تستوعب القيادة الإسرائيلية حقيقة أنّ الجيش في خضم قتال صعب، قبالة عدو مخضرم ومجرّب ويتسلح بوسائل متطوّرة».

(600) دافع مقاتلو حزب الله وعددهم لا يتجاوز العشرين عن الموقع دفاعاً كربلائياً مستميتاً دون أن ينسحبوا، أو يستسلموا، أو يمكنوا الإسرائيلي من إحراز نصر في إحكام قضبته على الأرض.

(601) في يوم الثلاثاء الواقع فيه الخامس والعشرون من شهر تموز من العام 2006، ألقى الجيش الإسرائيلي بكلّ ثقله وقدراته لأجل احتلال مدينة جبيل الحدودية، كي ينال من رمزانية المدينة وما أصبحت تمثله في الوجدان المقاوم، وفي الوعي الجمعي لخيار المقاومة. وقد دفع لهذه الغاية بألوية نظامية مختارة كألوية النخبة من غولاني والمظليين واللواء7، مدعومين بتغطية جوية من عشرات الطائرات الحربية المقاتلة دون ان يؤدّي ذلك الى أي إنجاز يذكر؛ بل على خلاف التوقعات تحوّلت المواجهات البطولية الدامية بين مقاتلي حزب الله والجنود الإسرائيليين إلى معركة إسرائيلية لإخلاء المصابين والقتلى من الإسرائيليين، أو إلى رحلة حمالات– وفق ما أظهره فيلم وثائقي سجّل ما جرى في بنت جبيل- يحمل فيها الجنود الإسرائيليون زملاءهم، ويركضون تحت وابل من النيران لاستنقاذهم وإخراجهم من ساحة المعركة. وقد استمرّت عملية الإخلاء هذه إلى الساعة الواحدة من ظهر يوم الأربعاء في السادس والعشرين من شهر تموز، بعد أن مُنحت طائرات الإنقاذ لأول مرة تصريحا للدخول إلى الأراضي اللبنانية، حيث هبطت خمس طائرات بلاك هوك (ينشوف) وعلى متنها جنود من وحدات الإنقاذ (669)، لإخلاء الجرحى والمصابين، ونقلهم إلى مستشفى رمبام في حيفا. كان ذلك مخاطرة كبيرة، كانت طائرة الإنقاذ تهبط في كلّ مرة لمدة 60 ثانية فقط، لتحمل الجنود الجرحى، وتمضي- كما في فيلم هوليوودي- موليّة الإدبار على وجه السرعة. وكان الإسرائيلي قد حاول من خلال لقاءات إعلامية، كما من خلال إطلاق تصريحات ومواقف، الإيحاء بخلاف ما تنبئ به الوقائع الميدانية، وفق ما أدلى به غير ضابط ومسؤول أمني وعسكري وسياسي؛ إلا أنّ السيد حسن نصر الله حال دون ذلك، ووضع الأمور في نصابها الصحيح بعد أن كشف عن حقيقة الوضع الميداني، حيث يقول من مقابلة تلفزيونية مسجّلة أعدت في اليوم نفسه لهذه الغاية: «لا تصدقوا الحرب النفسية للعدو الصهيوني»، والكلام لنصر

الله «العدو الصهيوني يقول منذ اليوم الأول إنه احتل بنت جبيل، ولكن حتى الآن لاتزال بنت جبيل في أيدي المقاومة».

يذكر أنّ المواجهات الخاسرة في بنت جبيل قد شكلت الانعطافة الحادّة للحرب، وأحد الانقلابات الكبرى منذ قيام دولة إسرائيل. ما حدا بوزير الدفاع عامير بيرتس- في لقاء إعلامي نُظّم للتباحث في آخر التطوّرات الميدانية، نقل مداولاته ووقائعه محلل الشؤون العسكرية في صحيفة معاريف عامير رابابورت- إلى التعليق قائلاً: «لا يمكن أن يكون هناك وقف لإطلاق النار بعد حادثة كهذه (...) لا يمكن الخروج الآن مع ذنب بين الأرجل، من دون احترام».

(602) اندفع الإسرائيليون في الساعات الأخيرة على حرب تموز- آب من العام 2006 إلى صناعة إنجاز عسكري في ميدان المعركة، بالمقدور تثميره وتسييل مفاعيله سياسياً قبل استصدار مجلس الأمن الدولي للقرار 1701 الذي سوف يقضي بوقف الأعمال الحربية؛ أطلق الإسرائيليون على حملتهم اسم عملية «اعادة الإعتبار للجيش الإسرائيلي»، والمهلة الزمنية الممنوحة لتسوية الوضع كانت ستين ساعة حتى تصل طلائع الجيش إلى ضفاف نهر الليطاني في منطقة القاسمية. كان الأمر يتطلب عمليات إبرار جوي بالقرب من بلدة الغندورية بوصفها ممراً إلزامياً، حيث صير إلى إنزال كتيبتين من القوات المجوقلة الخاصة من لواء الناحال ومن لواء غولاني، ثم عززت الكتيبتان خلال المواجهات بكتيبة مشاة خاصة، فضلاً عن سلاح الجو وسلاح المدفعية. كان الهدف من إنزال القوات المجوقلة جواً ضرب مجموعات المشاة والكمائن والمنصّات المضادة للدروع، وبالتالي تأمين مرور المدرعات والدبابات من وادي الحجير. ولبيان ذلك دفع الإسرائيليون من البرّ فرقة المدرعات 162 معزّزة باللواء المدرع الخاص 401 (لجام الفولاذ)، وفي مقدّمة هذا اللواء كانت الكتيبة التاسعة الخاصة وجميع دباباتها من نوع ميركافا4، وفي الطليعة السرية L . بدأ الإسرائيليون بعملية قصف تمهيدي منذ عصر يوم الجمعة الواقع فيه 11 آب، على نحو عنيف، مستخدمين المدفعية الثقيلة وراجمات (دومليرزر) التي تطلق دفعة واحدة 12 صاروخاً من عيار 227 ملم إلى جانب استخدام مفرط للطيران الحربي. لكنّ الواقع الميداني كان على خلاف ما رغب الإسرائيلي؛ انكشفت المعركة عن سقوط 16 جندياً من أفراد جيشه، وعدد كبير من الجرحى وفقاً لاعترافه، وتدمير وإعطاب 34 دبابة بين الغندورية ووادي الحجير. وخرج الإسرائيلي يلملم هزيمته وأشلاء جنوده أمام مرأى مقاتلي حزب الله، تفصل بينهم مفاعيل القرار1701 الذي باتت مندرجاته سارية.

(603) ستيفن بيدل وجيفري ا.فريدمان، حملة لبنان (2006) ومستقبل الحرب: مضامين بالنسبة إلى الجيش وسياسة الدفاع؛ ترجمة باحث للدراسات، ط1، الولايات المتحدة الاميركية: معهد الدراسات الإستراتيجية، 2008، ص 78، 79.

(604) ستيفن بيدل وجيفري ا.فريدمان، م.ن.، ص 78، 80.

(605) من مقابلة متلفزة أجراها السيد حسن نصرالله مع تلفزيون الرأي الكويتي، وصير إلى بثها أثيرياً في تمام الساعة العاشرة من ليل التاسع والعشرين من شهر نيسان/ ابريل من العام 2010.

(606) يذكر أنّ مفهوم الردع ليس مفهوماً واحدياً بإطلاق، بمعنى أنّه يتعيّن في وجهة واحدة، أو يتحدّد في نمطية واحدة من الممارسة والسلوك؛ بل الأمر على خلاف ذلك، إذ تتوزّعه مروحة

واسعة من البدائل، وتتنازعه وجهات وأنماط عديدة تختلف وتتفارق، تبعاً لاختلاف حساسيات وظروف الرادع والمردوع على حدّ سواء.

(607) أدرك حزب الله باكرا حساسية المجتمع الإسرائيلي إزاء الخسارة البشرية، بلحاظ عدم قدرة هذا المجتمع على تحمّل أكلافها، أو على امتصاص جرعات زائدة منها. ذلك أنّ «الإفتقار للثبات الشعبي» وفقاً لتعبير الجنرال موشيه يعلون، وعزوف المواطن الإسرائيلي في المحكات، وعند الاستحقاقات الداهمة عن الحضور الفاعل، وعن الاستعداد للتضحية، وامتناعه عن تبنّي المواقف الكبيرة، فضلاً عن أنّ ثمّة ثقافة تسود المجتمع الإسرائيلي- بوصفه مجتمعاً هجينا يضمّ مواطنين أشتاتاً ومهاجرين- تجعل الأمن الشخصي مقدّماً بما لا يقاس على الأمن القومي... كلّ ذلك جعل الإنسان- المواطن في الدولة العبرية؛ يمثل الخاصرة الرخوة والحلقة الأضعف في ما يسمّى «منظومة الدفاع الوطني»، وعامل فقدان المناعة في النسيج المجتمعي لدى هذه الدولة.

(608) تشفّ القراءات المعاينة لمشهدية الصراع بين إسرائيل وحزب الله، عن أنّ الأخير قد أطلق أعيرته ورصاصه على الوعي الإسرائيلي، وأصاب فيه مَقاتلَ، وأحدث فيه ندوباً وثقوباً، بعد أن أعمل في طبقاته كلّ صنوف التنكيل والتجويف والكيّ. فالإسرائيلي الذي لطالما كان يُفصح عن نفسه على نحو من المبالغة في حجمه ودوره، كما في حدود قوته؛ قد فرِّجت حال الانتفاخ المصطنع لديه، وأُخذ به عنوة إلى تضاؤل في السطوة والقدرة، وإلى تصاغر وتقزّم في الدور والقوّة والفعالية والتأثير. والإسرائيلي الذي لطالما حقق نجاحات باهرة في معارك الوعي سواء على صعيد تنشيط وعيه بتفوّقه وتعاليه واقتداره وغلبته، أم على صعيد جعل الآخرين يعيشون وهم القوّة لديه؛ قد أفضى به الأمر إلى إعادة ترسيم لصورته حيال نفسه، وإلى وعيه بحدود قوّته وقدراته، كما إلى إعادة تظهير لصورته أيضاً، ولكن حيال العرب، وهي بالضرورة خلاف الصورة التي تنمّطت في وعيهم خلال عقود من الصراع.

(609) تفتقد الدولة العبرية إلى عمق إستراتيجي حيوي، وذلك بسبب من صغر المساحة الجغرافية وضيق العمق، إذ إنّ أقصى عرض لفلسطين لا يتجاوز الـ(90 كلم). والحال، نرى إلى الإسرائيلي في كلّ حروبه ونزاعاته العسكرية، كيف كان يستدعي من عقيدته الأمنية مركب «نقل المعركة إلى أرض العدو»، في محاولة منه لاختلاق وإيجاد عمق إستراتيجي بديل ومصطنع، يتيح لجيش هذا الكيان الاضطلاع بحماية مستوطنيه ومنشآته الحيوية من التعرّض للهجمات والاعتداءات، ومن درء المخاطر عنهم، كما يتيح له النأي بالداخل الإسرائيلي عن مفاعيل وتبعات الحرب، وعن مروحة تأثيراتها السلبية.

(610) «كانت الجبهة الداخلية الإسرائيلية» يقول غاي أفيعاد من دراسة بعنوان (قراءة في بناء قوّة حزب الله بين 2006-2009)، قد «شهدت، خلال واقعتي تموز (1993) ونيسان (1996)، وابلاً غير محدود من القذائف الصاروخية التي عكف مقاتلو حزب الله على إطلاقها. وكان أبرز الدروس المستفادة والهامّة التي تحصّل عليها الأخير من هاتين المواجهتين، إدراكه بنحو قطعي أنّ الجيش الإسرائيلي لا يملك حلاً ميدانياً مجدياً إزاء تهديد القذائف الصاروخية. وأنّ هذه قد بدأت تحدث تأثيراً كبيراً على صعيد المزاج الإسرائيلي العام، في الوقت الذي كانت تقدّم لحزب الله إضافة نوعية في ميدان القتال». أنظر: غابرييل سيبوني وآخرون، الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية ضد حماس وحزب الله؛ ترجمة عدنان أبو عامر، ط1، بيروت: مركز باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية، 2011، ص 50.

(611) تفاهم تموز: هو تفاهم شفوي، وليس خطياً. جاء ليضبط ردود الفعل بين حزب الله وإسرائيل عند ملامسة أي من الفريقين الخطوط الحمراء، وذلك في أعقاب ما سُميّ بعملية (تصفية الحساب) التي شنها الجيش الإسرائيلي؛ فهو يمنع إسرائيل من قصف المدنيين والمناطق المأهولة، في مقابل إحجام المقاومة اللبنانية عن قصف المدنيين والمستوطنات الإسرائيلية. وبموجب هذا التفاهم أُعلن وقف إطلاق النار في تمام الساعة السادسة من يوم السبت الواقع فيه الحادي والثلاثون من شهر تموز/ يوليو من العام 1993.

وكان الجيش الإسرائيلي قد بدأ في الخامس والعشرين من تموز من العام 1993 اجتياحاً جوياً وقصفاً برياً وبحرياً لجنوب لبنان، استمرّ لمدّة سبعة أيّام متواصلة، واستهدف أكثر من ستين قرية ومدينة وبلدة، أطلقت خلالها المدفعية والبوارج البحرية الإسرائيلية أكثر من 27 ألف قذيفة من عيار 155 ملم و157 ملم، كما شنت الطائرات الحربية أكثر من ألف غارة جوية، وأوقع العدوان 108 شهداء و597 جريحاً من المدنيين، وأدّى إلى نزوح قرابة الـ 250 ألف مواطن من منازلهم وقراهم. أنظر: جان جورج دانيال، موسوعة الصراع العربي الإسرائيلي، ط1، بيروت: دار نوبليس، العام 2010، ج19، ص 171،172.

(612) كان هذا التفاهم الذي صير إلى بلورته برعاية دولية من جانب كلّ من سوريا وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية، والذي أعلن عنه في تمام الساعة الثامنة عشرة من السادس والعشرين من شهر نيسان/ ابريل من العام 1996، وبدأ العمل بمندرجاته في تمام الساعة الرابعة من صباح السابع والعشرين من الشهر نفسه؛ قد وضع حداً لعملية (عناقيد الغضب) التي نفذها الجيش الإسرائيلي مستهدفاً حزب الله في الحادي عشر من شهر نيسان من العام 1996، موفراً للحزب اعترافاً دولياً بوجوده كقوة مسلحة، واعترافاً بحقه المشروع في الدفاع عن النفس، كما في الدفاع عن المدنيين اللبنانيين، وتجنيبهم أي عدوان إسرائيلي.

أمّا مندرجات التفاهم؛ فقد نصّت على أنّ لبنان وإسرائيل سوف يكفلان ما يلي:

-إنّ المجموعات المسلحة في لبنان لن تقوم بهجمات بصواريخ الكاتيوشا، أو أي نوع آخر من الأسلحة إلى داخل إسرائيل.

-إنّ إسرائيل والمتعاونين معها لن يطلقوا أي نوع من الأسلحة على المدنيين، أو الأهداف المدنية في لبنان.

-بالإضافة إلى هذا، يلتزم الطرفان بالتأكد من عدم كون المدنيين هدفاً للهجوم تحت أيّة ظروف، وعدم استخدام المناطق المدنية الآهلة والمنشآت الاقتصادية كقواعد إطلاق للهجمات.

-بدون خرق هذا التفاهم لا يوجد ما يمنع أي طرف من ممارسة حق الدفاع عن النفس.

وقد صير إلى تشكيل مجموعة مراقبة تتألف من الولايات المتحدة الأميركية وفرنسا وسوريا ولبنان وإسرائيل، حُدّدت مهمتها بمراقبة تطبيق بنود التفاهم المنصوص عليه أعلاه، والنظر في الشكاوى المقدّمة وفق آليات محدّدة تقدّم فيها الشكوى لمجموعة المراقبة في حال أي إدعاء بالخرق، على أن يقدّم الطرف الشاكي شكواه خلال مدة زمنية لا تتجاوز أربعاً وعشرين ساعة. أنظر : جان جورج دانيال، موسوعة الصراع العربي الإسرائيلي، ط1، بيروت: دار نوبليس، العام 2010، ج19، ص 175،176.

(613) يعتبر نهر الوزاني أحد أهم روافد نهر الحاصباني، وهو ينبع من السفوح الغربية لبلدة المجيدية، ويجري نحو خمسة كيلو مترات داخل الأراضي اللبنانية باتجاه الجنوب، وذلك قبل أن يدخل منطقة الحولة في فلسطين المحتلة.

أمّا معدل المياه المتدفقة من نبع الوزاني؛ فتقدّر- وفقا لغير دراسة مختصّة- بـ55 مليون متر مكعب سنوياً، ينساب مجملها باتجاه فلسطين. فضلاً عن أنّ كمية المياه الجوفية التي تنساب بدورها من الأراضي اللبنانية باتجاه فلسطين تقدر بـ200 مليون متر مكعب من حوض الحاصباني الوزاني.

ويذكر في هذا السياق، أنّ أريك جونستون مبعوث الرئيس الأميركي ايزنهاور لحلّ النزاع المائي بين دول المنطقة في العام 1953؛ قد وضع في العام 1955 - بعد جولات تفاوضية عديدة- مشروعاً قضى بتقسيم مياه نهر الأردن وروافده، بما يعطي لبنان حصة مائية مقدارها 35 مليون متر مكعب سنوياً، في مقابل 132 مليون متر مكعب لسوريا، و720مليون متر مكعب للأردن، 565 مليون متر مكعب يستثمرها الكيان الإسرائيلي. إلا أنّ لبنان لا يستغل حقه في هذه المياه.

(614) بعد تقهقر القوات الإسرائيلية الغازية، وتحرير الجنوب في الخامس والعشرين من شهر أيّار/ مايو من العام 2000، وبإزاء الحاجة إلى تسريع عجلة التنمية في المناطق المحرّرة، كما الحاجة إلى المياه سواء للشرب أو للريّ والاستعمال؛ عهد مجلس الجنوب في منتصف شهر آب/ أغسطس من العام 2001، إلى إحدى الشركات المختصّة الاعمال الإنشائية، وإقامة المضخات اللازمة لاستجرار مياه نهر الوزاني، واستحداث شبكة تمتدّ بطول 16 كيلومتراً وصولاً إلى بلدة الطيبة، لغرض جر 12 ألف متر مكعب من مياه الشرب يومياً، أي قرابة 4,4 مليون متر مكعب سنوياً، إلى نحو عشرين قرية وبلدة: كمرجعيون، والقليعة، وبرج الملوك، وكفركلا، وعديسة، وكوكبا، وإبل السقي، والخيام، والماري، والفرديس... ما من شأنه أن يتسبّب في تطوير الإفادة اللبنانية من مياه الوزاني، وتحسين معدّلاتها، وارتقائها من قرابة 8,5 ملايين متر مكعب (يتوزعون بين سبعة ملايين متر مكعب للريّ، و1,5 مليون متر مكعب للشفة)، إلى قرابة العشرة ملايين متر مكعب. إلا أنّ تنفيذ المرحلة الثانية من مشروع استجرار المياه، كان دونه مخاطر ومشكلات؛ فقد أثارت إسرائيل صخباً سياسياً، وعمدت إلى إطلاق التهديدات والتحذيرات، وإلى بعث الرسائل الساخنة في غير اتجاه:

ففي العاشر من شهر أيلول/ سبتمبر من العام 2002؛ أطلق رئيس وزراء الإسرائيلي آرييل شارون تهديداً حذر فيه لبنان من «أنّ استمرار عمليه تحويل المياه سيشكل سبباً للحرب». وبعد مضي ثلاثة أيّام فقط، أي في الثالث عشر من أيلول؛ أعلن وزير الخارجية شيمون بيريز من واشنطن أنّ ما «يقوم به لبنان من ضخ لمياه نهر الوزاني هو بمثابة استفزاز عبثي». وذلك قبل أن يعود ويعلق مجدّداً على هذا الأمر، ولكن هذه المرة من تل أبيب: «لن نقبل لا اليوم ولا في المستقبل تدابير من جانب واحد (...) إن إسرائيل تحتفظ بحقها في الدفاع عن مواردها المائية طبقاً للقانون الدولي». وتعدّدت الأصوات ذات النبرة العالية؛ فقد أكد وزير الدفاع الإسرائيلي بنيامين بن اليعازر أنّ بلاده لن تقف مكتوفة الأيدي إزاء قضية تحويل المياه، فيما قام رئيس أركان الهيئة العامة للجيش موشي يعلون بزيارة استطلاعية على الحدود مع لبنان لمراقبة الأعمال الجارية في منطقة الوزاني من أحد المراكز العسكرية قرب مستعمرة المطلة. والحال، أرادت إسرائيل من هذا الصخب السياسي أن تمارس تهويلاً على لبنان، في محاولة منها لتحويل القضية إلى نزاع يحتاج

إلى مفاوضات سياسية، لكنّ لبنان تمنّع ورفض الإذعان للتهديدات الإسرائيلية، كما للضغوط الدولية التي دعته إلى التمهّل والتريّث، بعدما بعث حزب الله برسائله الساخنة إلى إسرائيل، فباء الأمر بالفشل، واستكملت الأعمال، ودُشّن المشروع في السادس عشر من شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2002، بحضور رسمي وشعبي كبير يتقدّمه الرئيس إميل لحود. ما أضاف إلى انتصار لبنان بتحرير أرضه، انتصاراً جديداً قضى بتحرير بعض حقوقه المائية من القبضة الإسرائيلية.

(615) إنّ الردع كإستراتيجية، هو توسّل اجهاض قدرات ونيّات الأطراف الأخرى المندرجة ضمن تصنيفات الأعداء والأعداء المحتملين. وهو- وفق ما تشفّ عنه الدلالات والمعاني المعروفة والمتداولة- محاولة طرف ما ثني طرف آخر عن الإتيان بفعل، يرى إليه ضاراً به، أو يجده ملحّاً لمنع هذا الطرف الآخر من أن يفكر في القيام بعمل ما، أو الإتيان بتصرف، أو ممارسة سلوك من شأنه أن يشكل تهديداً لمصالحه، أو لأهدافه، أو لموقعه ومكانته. أنظر: سوسن العساف، إستراتيجية الردع؛ العقيدة العسكرية الأميركية الجديدة والاستقرار الدولي، ط1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، العام 2008، ص 95.

(616) تصدر العقيدة الأمنية والعسكرية الإسرائيلية من مقولة مفادها: أنّ ما لا يتحقق من خلال تفعيل استخدام القوّة؛ فإنّه يتحقق- بالضرورة- من خلال مزيد من تفعيل استخدام القوّة. وقوام ذلك نظرية: «دعوا الجيش ينتصر»، التي تنطوي على أن يمنح الجيش الإسرائيلي كلّ ما يحتاجه من هوامش على غير صعيد، بنحو يستحوذ فيه على كامل الحرية في ممارسة ما يشاء ممارسته من تقتيل وعنف دون ضوابط أو قيود ، كما في استخدام ما يشاء استخدامه، وتفعيل ما يشاء تفعيله من أدوات ووسائل القوّة.

(617) يراد بالدافعية ذلك الشعور بامتلاك القدرة على الإضرار بالعدو، إلى جانب امتلاك الرغبة بذلك. ما يعني أنّها تتخلق من خلال تضافر وتوافر كلّ من القدرة والحافزية، إذا ما قدّر وجودهما في آن معاً.

(618) يتوضع الردع- كمفهوم- بين حدّين يحكمان أداءه، وحراكه، وفعاليته، وأهدافه: فهو في حدّه الأدنى، صمّام أمان يحول دون اندلاع الحروب، او اشتعال فتائلها، بوصفه ينزع إلى المحافظة على ميزان الصراعات القائمة، لجهة عدم تحوّلها إلى صراعات من طبيعة عسكرية مدمّرة يصار فيها إلى تفعيل استخدام القوّة المفرطة على نحو جنوني. أمّا في حدّه الأعلى، فهو يتوسّل فرض الإرادة السياسية على الخصم، وإخضاعه، واستلابه، واستتباعه، من دون حاجة إلى افتعال حروب أو إلى نشوب نزاعات دموية. أنظر: يوسف نصر الله، تداعي الأسطورة: مقاربات نقدية لمشهدية الحرب السادسة، ط1، بيروت: دار الفارابي، العام 2011، ص 107.

(619) يذهب الباحث يائير إفرون من دراسة بعنوان «الردع ومحدوديّاته»، إلى أنّ الردع ليس ولن يكون العامل المطلق في إدارة الصراع؛ بل هو مجرد إستراتيجيا واحدة بين العديد من الإستراتيجيات المصمّمة لجعل علاقات الصراع مستقرّة. وهو ليس بديلا من الاتفاقات السياسية؛ بل يقتصر دوره على جعل العلاقات العسكرية مستقرّة أثناء الصراع، وعلى دعم التفاهمات التي تتنضج بفعل الظروف الموضوعية المساعدة. أنظر: معهد دراسات الأمن القومي الإسرائيلي،

حرب لبنان الثانية: قراءات إسرائيلية في هزيمة الكيان الأولى؛ تحرير شلومو بروم ومئير إلران، ترجمة وإصدار باحث للدراسات، 2009، ص 79.

(620) يتنازع الردع بلحاظ الوظيفة نوعان: الردع بالمنع، والردع بالعقاب، حيث أنّ لكل منهما وظيفته الخاصة التي تتحدّد وتتعيّن وفق ما تمليه الظروف والسياقات الموضوعية من جهة أولى، وتبعاً لقدرات وإمكانات الخصوم والأعداء المستهدفين من عملية الردع من جهة ثانية:

أ-مفهوم الردع بالمنع: يتحقق- على سبيل المثال- بالعمل على تظهير عناصر الاقتدار والمنعة والبأس لدى الرادع في ما يسمّى بعراضات القوّة، كما العمل على إبراز ما يملكه ويتوافر عليه من قدرات ردعية أمام الخصوم والأعداء، ثم اسقاطها مجتمعة على وعيهم، في استهداف مباشر لكيّ هذا الوعي وكبحه واستنزافه. ما يفضي إلى إدراك هؤلاء الأعداء لحقيقة عجزهم، وانعدام فعاليتهم، وضعف القدرة لديهم على المبادرة والفعل والإضرار والتأثير.

ب-مفهوم الردع بالعقاب: نقع على فرضية تحققه وتمثله في عمل الرادع على إيهام عدوه بسلبية خياراته، وإثارة الشكّ والارتياب بجدوائيتها وسلامتها وصوابيتها، كما إيهامه بأنّ ما سيقدم عليه من أعمال وممارسات لن يعود عليه بالنفع، ولن يجلب له فائدة، ولن يتحصّل منه على عوائد تزيد على المصائب والأضرار والخسائر والكوارث والويلات التي ستحلّ به كأقدار لا تبدّل ولا تزول. أنظر : يوسف نصر الله، تداعي الأسطورة: مقاربات نقدية لمشهدية الحرب السادسة، ط1، بيروت: دار الفارابي،2011، ص108، 109.

وفي سياق مقاربة وظيفة الردع يقول يائير إفرون: «هناك نمطان اثنان من تهديدات الردع: الأول هو عبارة عن إجراء تثبيطي لمنع المتحدّي من تحقيق أهدافه، بكسر تحدّيه المسلح (الردع بالإنكار). والثاني هو عبارة عن إجراء قصاصي يقوم على ضرب مقدرات ومقتنيات الخصم- بما فيها الأهداف المدنية- وراء ساحة المعركة (الردع بالقصاص). أنظر: معهد دراسات الأمن القومي الإسرائيلي، م.س.، ص 78.

والجدير بنظر الاعتبار هنا، أنّه كلما «تزايدت قدرة الرادع على معاقبة المرتدع أي الأفضليات العسكرية» كما يقول يائير عفرون، بما يعني تعزّز مفهوم الردع بالعقاب؛ فإنّ ذلك سوف يتأدّى بالضرورة إلى أن «تتعزز الفعالية الردعية». أنظر: مجموعة من الكتاب والمحللين الإستراتيجيين الإسرائيليين، 33 يوم حرب على لبنان؛ ترجمة أحمد أبو هدبة، ط1، بيروت: مركز الدراسات الفلسطينية، 2007، ص52.

(621) لقد ألحّ حزب الله في إستراتيجيته الردعية على تضييق الحدود الفارقة بين الدفاع والهجوم؛ بحيث أصبح من العسير إعمال الفرز والتمييز في سلوك القوّة لديه بين الدفاع فيما إذا كان هجوماً، والهجوم فيما إذا كان دفاعاً.

(622) كانت مصادر عسكرية إسرائيلية قد أشارت غير مرة، إلى أنّ إمعان الجيش الإسرائيلي في استهداف المدنيين اللبنانيين بالقصف والاستباحة والقتل والتدمير وارتكاب المجازر خلال الحرب على لبنان في تموز- آب من العام 2006؛ كان في أحايين كثيرة، يصار إليه كي يشكل روافع ضغط فاعلة تستدرج عواصم القرار في العالم إلى مطالبة إسرائيل بوقف الأعمال العسكرية والحربية، علّ ذلك ينفع في استنقاذ سمعة جيشها، ويفيد في توفير مخرج لائق ومشرّف له، بعد

تعثره ميدانياً أمام مقاتلي حزب الله، وبعد إخفاقه وفشله وعجزه عن تحقيق وصناعة إنجازات، بالمقدور تثميرها سياسياً، أو تظهيرها كنصر عسكري.

وفي هذا السياق، يقول الباحث الأميركي بنيامين لامبث من دراسة مطوّلة بعنوان (العمليات العسكرية الجوية لحرب إسرائيل ضد حزب الله): إنّ إستراتيجية «استخدام العنف المفرط ضد المدنيين اللبنانيين» على النحو الذي صير إلى تفعيله من قبل الجيش الإسرائيلي خلال الحرب على لبنان في صيف العام 2006؛ لم تكن إلا وسيلة «لحمل اللبنانيين على الانقلاب ضد حزب الله». أنظر: بنيامين لامبث، العمليات العسكرية الجوية لحرب إسرائيل ضد حزب الله، دراسة تقع في 444 صفحة فولسكاب، أعدها معهد (راند) لمصلحة وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون).

وفي سياق متصل أيضاً، يقول اللواء احتياط غيورا ايلاند من محاضرة حول فرضية (الحرب الثالثة على لبنان)، نظمها مركز أبحاث الأمن القومي في جامعة تل أبيب: «ليست لدينا قدرة جيدة بما يكفي» والكلام لايلاند «ومن المشكوك فيه أن تكون لدينا في المستقبل المنظور، قدرة جيدة بما يكفي، لأن نقاتل بنجاعة العدو الذي يُطلق الصواريخ، ما دمنا نؤطر القتال ضد مطلقي الصواريخ. كنت لأقول أنّه بمثابة اللاخيار. لا خيار أمامنا سوى تحويل المواجهة مع المنظمة التي تطلق الصواريخ إلى مواجهة مع الدولة التي تُطلَق منها الصواريخ. وإذا ما بدأت غداً حرب لبنان الثالثة؛ فإنّ السبيل الوحيد للنجاح فيها، أو إذا شئتم السبيل الوحيد للردع سلفاً ومنع الحرب، هو أن يكون واضحاً أنّ من غير المهم من الذي يطلق الصواريخ؛ لحظة إطلاق صواريخ من لبنان على إسرائيل، فإنّ دولة لبنان هي في حرب مع دولة إسرائيل. وفي الحرب بين دولتين، لا تكون إسرائيل أقوى فقط، وليس فقط يمكنها إيقاع أضرار أكبر ولا تحتمل في الطرف الثاني، بل يمكنها أن تدفع العالم لكي يصرخ أسرع لوقف إطلاق النار، وقياسا إلى ضعف الجبهة الداخلية لإسرائيل، هذا هو المطلوب من قبلنا بالضبط». من محاضرة قارب فيها غيورا ايلاند في الخامس من شهر أيلول/ سبتمبر من العام 2011، فرضية الحرب الثالثة على لبنان، وذلك بدعوة من مركز أبحاث الأمن القومي– جامعة تل أبيب.

(623) لعل الأخطر والأدهى على هذا الصعيد، هو إدراك إسرائيل أنّ حزب الله لا يمتلك القدرة على الصمود أمام أي حرب إسرائيلية وحسب، بل على المبادرة والفعل، كما القدرة على إشعال حروب ونزاعات من طبيعة تقليدية، على نحو ما تؤشر إليه معادلة تحرير الجليل الفلسطيني التي أطلقها السيد حسن نصر الله. ما يعني بطلان المقولة السائدة (أنّ لا حرب عربية ضد إسرائيل من دون مصر)، بعد أن توافر حزب الله على ترسانة من الأسلحة القادرة على مواجهة التفوّق الإسرائيلي، كما على جبه عدوانه، وعلى تكبيده خسائر جسيمة في العدد والعتاد. فضلاً عن أنّها أدركت أيضاً أنّ مركبي الحسم ونقل المعركة إلى أرض العدو لم يعودا متاحين، وأنّ الأمر بات متعذراً وعسيراً، نظرا لقدرة حزب الله على مواجهة القوات الإسرائيلية، وصدّها عند الحدود، ونظراً لقدرته على نقل المعركة إلى داخل الكيان العبري عبر الصواريخ القادرة على الوصول إلى كلّ بقعة هناك. ينضاف إلى ذلك أنّ إسرائيل أدركت قصور القدرة لديها على التحكم بزمن الحرب، واستطراداً عدم القدرة على حسمها في الزمن الذي تريد، ما من شأنه أن يوقعها في مزالق ومخاطر، ويعرّضها لاستنزاف مرهق ليس بمقدورها احتماله.

(624) ينبغي الإلفات إلى أنّ إسرائيل (الدولة، والكيان، والمشروع)، عندما تهاب الحرب وتخشاها؛ سواء الحرب التي تشنّها هي، أو الحرب التي تشنّ ضدها، تكون قد فقدت مبرّر

وجودها: تفقد قيمتها بوصفها ثكنة عسكرية متقدّمة للولايات المتحدة، كما للغرب المستعمر في الشرق الأوسط. وتفقد مكانتها في إستراتيجية الهيمنة الأميركية الإقليمية لتستحيل إلى عبء إستراتيجي يثقل كاهل راعيها. والأخطر أنّها تفقد مشروعها التوسّعي، بحيث تصبح عاجزة عن التوسّع والتمدّد والانفلاش من خلال الاحتلال والقضم والعدوان. فضلاً عن أنّها تفقد قدرتها حتى على الاستمرار، وبالتالي عن توفير الحماية والأمن لنفسها، بنحو تحتاج فيه إلى من يقدّم لها مقومات العيش والبقاء.

(625) تعكس تصريحات قادة إسرائيل تخوّفهم وخشيتهم من أندلاع حرب، لما يمكن أن تفضي إليه من إخفاق وتعثر وفشل وهزيمة، ومن خسائر كبيرة سواء على صعيد الجبهة العسكرية، أم على صعيد ما يسمّى بالجبهة الداخلية. ذلك أنّ الحرب إن قدّر حدوثها، فسوف تكون باهظة الكلفة على إسرائيل، وقد تتكبّد الأخيرة خلالها أثماناً وأكلافاً تقع خارج مدار الحسبة والافتراض في المدى المنظور، بعد أن أدركت أنّ المخاطر تتعدّى انهيار وتهافت مقولة (الجيش الذي لا يقهر)، لتصل إلى قهر دولة إسرائيل ذاتها، عندما تعجز عن جلب النصر، وتعجز بالتالي عن توفير الحماية لمؤسساتها ولقاطنيها.

(626) من خطاب لأمين عام حزب الله السيد حسن نصرالله خلال المهرجان المركزي الذي نظمه الحزب في الذكرى العاشرة لعيد المقاومة والتحرير، وذلك في الخامس والعشرين من شهر أيار/ مايو من العام 2010، في مجمع سيد الشهداء(ع) في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(627) محمد بدير، حفلة تجبين إسرائيلية: الدولة ترهب مواطنيها. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الرابعة، العدد 1270، الإثنين في 15 تشرين الثاني، العام 2010، ص 4، 5.

(628) تندرج التهديدات الإسرائيلية- التي عكف على إطلاقها مؤخراً المستويان السياسي والعسكري- في سياق الحرب النفسية ليس إلا، بسبب من ارتداع إسرائيل عن ارتكاب وعن فعل أيّة حماقة من شأنها أن تعود بنتائج كارثية مدمّرة على الجبهة الداخلية التي تعتبر الجبهة الأكثر هشاشة وضعفاً، إذ ليس بمقدور إسرائيل تحمّل الخسائر والأكلاف الجسيمة المترتبة على ذلك.

(629) يقال إنّ الدليل الدامغ على نجاح الردع، لا يظهر إلا عندما يدفع تهديد ردعي معلن وصريح، الطرف المتحدّي إلى التخلي عن قرار ما كان اتخذه بالقيام بأعمال عدوانية. أنظر: معهد دراسات الأمن القومي الإسرائيلي، حرب لبنان الثانية: قراءات إسرائيلية في هزيمة الكيان الأولى؛ تحرير شلومو بروم ومئير إلران، ط1، ترجمة وإصدار باحث للدراسات، 2009، ص 79.

(630) بالمقدور القول، إنّه إذا كانت التهديدات التي لا ينفك الإسرائيلي يطلقها بنحو دائم، تهدف إلى إصابة حزب الله بالشلل والعقم، وإلى تعطيل قدراته وأسباب القوّة لديه، وإلى منعه من شنّ هجمات أو عمليات ثأرية ضد قادتها ومصالحها الحيوية في غير مكان؛ فإنّ تهديدات حزب الله كما ترد على لسان أمينه العام السيد حسن نصر الله، تهدف هي الأخرى إلى إصابة نزوعات إسرائيل الحربية وخططها ومشاريعها ونواياها بالشلل والعجز والقصور، وإلى منعها من تنفيذ تهديداتها، وإلى دفعها إلى إعمال الفكر والعقل ملياً قبل التهوّر والإقدام على ما يمكن أن يكون مغامرة عسكرية غير مضمونة النصر، فضلاً عن العواقب والنتائج. ذلك أنّ مواجهة التهديدات الإسرائيلية، وفقاً لنصر الله: «يجب أن تقابل بالثبات والقوّة والشجاعة وبالتهديد المقابل». مدعّما رأيه بما آلت إليه حملة التهديدات المدروسة التي توالى على إطلاقها كلّ من ليبرمان وإيهود باراك

لردع سوريا وإخافتها، حيث يقول: «قبل أيّام طلع علينا إيهود باراك فتحدّث، وهدّد سوريا بالحرب (...) عندما تبلغت سوريا رسائل التهديد تولى وزير الخارجية السوري وليد المعلم الردّ، أي ليس قيادة القوات المسلحة ولا رئيس الجمهورية، بل وزارة الخارجية وهي عادة أكثر جهة دبلوماسية، وأعتقد أنّ ذلك كان مقصوداً ولم يكن صدفة، وقالوا للإسرائيليين إذا اعتديتم علينا، فستواجه كلّ مدنكم الخراب والدمار(...) ونتيجة الردّ السوري أنه بعد ساعتين لم يبق أحد في إسرائيل إلا خرج يتبرأ مما قاله باراك وليبرمان». أنظر: خطاب الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله خلال المهرجان المركزي الذي نظمه الحزب في ذكرى القادة الشهداء، وذلك في السادس عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2010، في مجمع سيد الشهداء في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(631) يحيى دبوق، إسرائيل وحزب الله وسباق الجهوزية. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الرابعة، العدد 1270، الاثنين في 15 تشرين الثاني، العام 2010، ص 5.

(632) تكشف دراسة صادرة عن مركز دراسات الأمن القومي الإسرائيلي، بعنوان «قراءة في بناء قوّة حزب الله بين (2006 – 2009)، أعدّها الكاتب غاي افيعاد؛ عن أنّ حزب الله الذي يتكتم بنحو دائم على قدراته وبرامجه وخططه، كما على أنشطته ذات الطبيعة الأمنية والعسكرية، قد افصح هذه المرة، من خلال تسريبات ومواربات، أو من خلال إثارة ضجيج وصخب دعائي متعمّد، عن إجرائه مناورتين كبيرتين وواسعتي النطاق في جنوب لبنان:

الأولى- صير إلى تنظيمها في الأسبوع الأول من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2007. استمرّت على نحو متواصل لمدة ثلاثة أيام، وقد شارك فيها آلاف العناصر من مقاتلي الحزب وناشطيه، حيث جرى فحص القدرات العسكرية على أساس الدروس والعبر التي استخلصت من «حرب لبنان الثانية». اتخذ الحزب خلال هذه المناورة سلسلة من التدابير والإجراءات الصارمة التي من شأنها أن تمنع الظهور العلني المسلح لعناصره في منطقة جنوب نهر الليطاني، وبما يتلاءم مع مقتضيات القرار 1701.

الثانية- نُظمت بعد عام على الأولى، أي في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2008، وقد جرت على كامل المساحة الممتدة بين شمال نهر الليطاني وجنوبه، وخُصص جزء منها لفحص جهوزية العناصر المقاتلة، كما سرعة انتشارها في حال وجود إنذار مسبق.

وتشير الدراسة إلى أنّ إجراء هاتين المناورتين، يدلل بما لا يقبل الشكّ على أنّ حزب الله استعدّ جيداً لمواجهة أي هجوم بري مفترض، تنفذه فرق عسكرية إسرائيلية متعدّدة، وبالتالي اختبار قدرات مقاتليه على اعتراضها ووقف تقدّمها. فضلاً عن اختبار آواليات التنسيق القتالي وفعاليته بين مختلف الوحدات القتالية لديه. ما كان له بالغ الأثر في دفع الإسرائيلي غير مرة، إلى إرجاء حرب جديدة كان يتحضّر لها لغرض التعويض عن هزيمته في العام 2006. أنظر: غابرييل سيبوني وآخرون، الإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية ضد حماس وحزب الله؛ ترجمة عدنان أبو عامر، ط1، بيروت: مركز باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية، العام 2011، ص 37.

(633) كان السيد حسن نصر الله قد توعّد الإسرائيلي في الذكرى السنوية الأولى لانتصار تموز- آب 2006، بمفاجأة كبرى من شأنها أن تغيّر وجه المنطقة بأسرها. أنظر: خطاب الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله خلال الاحتفال الجماهيري الذي نظمه الحزب في الذكرى السنوية

الأولى للانتصار، وذلك في الرابع عشر من شهر آب/ أغسطس من العام 2007، في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(634) لقد أسس السيد حسن نصر الله في مواجهة الإسرائيلي- معادلات صراعية تتدرج على نحو تصاعدي خلاق، بحيث أنّ التهديد الإسرائيلي المستمرّ بالحرب والعدوان، من خلال الإقدام على تفعيل ذراعه البرية والتوغل في عمق الأراضي اللبنانية، وجعلها عرضة للاستباحة والاحتلال؛ لم يعد كما في الماضي ماثلاً في دائرة التهديد وحسب، بل بالمقدور- وفقاً لنصر الله- تحويله إلى فرصة مؤاتية وسانحة لتدمير هذا الجيش. ذلك أنّ توسّل الخيار البريّ من خلال استقدام سبع فرق عسكرية تعادل أكثر من نصف الجيش الإسرائيلي، وزجّها في أيّة حرب مقبلة، لاسيما بعد فشل سلاح الجو في آداء مهامه على هذا الصعيد، وتحييد سلاح البحرية؛ سوف يتيح لحزب الله إمساك هذا الجيش من عنقه: «المرة المقبلة» يقول نصر الله « ليس حيفا وما بعد حيفا، يمكن أن تبدأ القصة مما بعد حيفا، سلاح الجو الإسرائيلي لم يقدر على حسم المعركة، أي لا خيار لديه سوى الذهاب إلى عملية برية واسعة، ولذلك يهدّدنا بخمس فرق وبسبع فرق، ونحن قلنا إنّه هنا يتبدّل التهديد إلى فرصة، عندما تدخل هذه الفرق العسكرية الإسرائيلية وسبع فرق توازي، إمّا نصف الجيش الإسرائيلي أو أكثر قليلاً، إذا دخلت هذه الفرق على الجغرافيا التي لنا، فسبحان الله(...) هذه الجغرافيا عندما خلقها الله سبحانه، خلقها من أجل إذلال وإسقاط وتدمير المحتلين والغاصبين». أنظر: خطاب الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله خلال المهرجان المركزي الذي نظمه الحزب بمناسبة يوم الشهيد، وذلك في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2009، في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(635) أرسى السيد حسن نصر الله في مواجهة إسرائيل معادلة ردعية جديدة، ولعلها غير مسبوقة، قوامها: «العين بالعين، والسنّ بالسنّ». أمّا ترجمتها العملية؛ فهي أنّ كلّ المنشآت والمصالح الإسرائيلية في قبالة مثيلتها اللبنانية: «في لبنان، هناك بنية تحتية، وفي فلسطين المحتلة بنية تحتية (...) أنا اليوم أريد أن أقول لهم ما يأتي، وبمقدورهم التأكّد من هذه المعطيات: إذا ضربتم الضاحية فسنضرب تل أبيب، وإذا ضربتم مطار الشهيد رفيق الحريري الدولي في بيروت فسنضرب مطار بن غوريون في تل أبيب، وإذا ضربتم موانئنا فسنقصف موانئكم، وإذا ضربتم مصافي النفط عندنا فسنقصف مصافي النفط عندكم، وإذا قصفتم مصانعنا فسنقصف مصانعكم، وإذا قصفتم محطات الكهرباء عندنا فسنقصف الكهرباء عندكم (...) اليوم أعلن هذا التحدّي، وأقبل هذا التحدي». أنظر: خطاب الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله خلال المهرجان المركزي الذي نظمه الحزب في ذكرى القادة الشهداء، وذلك في السادس عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2010، في مجمع سيد الشهداء في الضاحية الجنوبية لبيروت.

والحال هذه، يكون السيد حسن نصر الله قد وضع الأهداف الحيوية الإسرائيلية، في قبالة الأهداف الحيوية اللبنانية. بمعنى أنّ استهداف الأخيرة بالإضرار والتدمير، سيتأدّى حتما إلى استهداف الأولى على نحو مماثل، وذلك ضمن معادل موضوعي برع حزب الله في رسم معالمه، وتعيين مثاقيله وموازينه الحاكمة: «إنّ الجبهة الداخلية كلها باتت مكشوفة» يقول نصر الله «ونحن نعرف كلّ شيء عن الجبهة الداخلية، وأين يجب أن نستهدف، وما هي نقاط الضعف ونقاط القوّة. تحدثنا عن اليابسة، وتحدثنا عن البر، وقلنا إنّ المطار مقابله مطار، والميناء بالميناء، والمدينة بالمدينة، والبناية بالبنايات، والكهرباء بالكهرباء، والمصنع بالمصنع». أنظر: خطاب السيد نصر الله خلال

المهرجان المركزي الذي نظمه الحزب في الذكرى العاشرة لعيد المقاومة والتحرير، وذلك في الخامس والعشرين من شهر أيار/ مايو من العام 2010، في مجمع سيد الشهداء في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(636) أهداف القيمة المضادة: هي أهداف حيوية كبيرة الحجم مثل مراكز تجمع السكان، المنشآت الصناعية، منشآت الطاقة كحقول إنتاج النفط ومستودعات تخزينه، ومحطات الكهرباء، مخازن المواد الغذائية، وسائل النقل. أنظر: أمين هويدي، الصراع العربي- الإسرائيلي بين الرادع التقليدي والرادع النووي، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1983 ، ص149.

(637) لقد كشف رونين بيرغمان- محلل الشؤون الاستخبارية والأمنية لصحيفة يديعوت احرونوت– في الثالث عشر من شهر تشرين الثاني من العام 2009، عن وثيقة صير إلى وصفها بـ«الداخلية والسرية»، وقيل إنّ حزب الله كان قد عمّمها على كوادره ومقاتليه. تقع الوثيقة في 150 صفحة، وتشتمل على عدد من الفصول، يعنى كلّ فصل منها بموضوع مفارق، وتعنى مجتمعة بالكيفية التي يتعاطى فيها الجيش الإسرائيلي مع وضعيات عسكرية مختلفة: كيف يدافع الجيش الإسرائيلي عن نفسه من اختراقات حزب الله، ما هو نظام الدوريات العسكرية للجنود الإسرائيليين على امتداد السياج الحدودي؟ كيف يشغل الجيش الإسرائيلي الطائرات من دون طيار في سماء لبنان. ما هي أنواع الكمائن العسكرية التي يتوسّلها الجيش الإسرائيلي. ما هي مواصفات الكاميرات، وما هي أنظمة عملها واشتغالها، وقدرات أجهزة التصوير التي يستعملها الجيش الإسرائيلي على طول الخط الحدودي مع لبنان. كذلك أجهزة الرادارات المختلفة ونظم عملها ومساحات اشتغالها ومروحة أمديتها وتأثيراتها الفاعلة، وقدراتها على إجراء المسوحات لكشف عمليات التسلل. وإلى جانب ما تقدّم، أفاضت الوثيقة في الحديث عن الكيفية التي ينبغي فيها التعامل مع الشريط الحدودي الإلكتروني؛ حيث أوردت تفصيلاً دقيقاً عن كلّ أنواع الشرائط الحدودية، وأجيال تطوّرها المختلفة، ومنظومات التحذير والإنذار المزروعة فيها، وكيفية التغلب عليها. هذا فضلاً عن أنّ الوثيقة أفاضت أيضاً في الحديث والشرح عن ما يجري في وحدة (عوكتس) التي تعنى بتشغيل كلاب تقصّي الأثر. وقد أُرفقت الوثيقة بصور بعضها التقط من الجانب الإسرائيلي للسياج، وهي توثق من بين جملة أمور: نقاط المراقبة الإسرائيلية، مواكبة وحماية الأعمال الهندسية، وأعمال صيانة السياج على الطريق الحدودية، مواكبة القوافل، المناورات، وتبديل القوات التي تعبر بين حدود القطاعات الخاصة بالسرايا...

واذا كان مضمون الوثيقة كما تشفّ منطوياتها، يؤشر إلى أنها تعود إلى زمن سابق على زمن الحرب الإسرائيلية في صيف العام 2006؛ فإنّ توقيت نشرها في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2009، يتجاوز بالضرورة البعد الإعلامي بوصفه سبقاً صحفياً، إلى ما هو أدهى. ذلك أنّ الأمر يُظهر مدى انكشاف الجيش الإسرائيلي أمام أعين حزب الله، وبالتالي فهو مجاوز لمساحات التوتر وللخطوط الحمراء الموضوعة من جانب الرقابة العسكرية على الإعلام الإسرائيلي. اذ كان للرقيب العسكري، كما تشفّ قراءة السلاسل الزمنية لتاريخ الصراع العربي- الإسرائيلي، دور مركزي في حجب موضوعات أقلّ أهمية بما لا يقاس، وأقلّ إضراراً بصورة الجيش. ما يبرّر انطراح السؤال: هل كان هدف النشر إشعار المستوطنين من اليهود، بأنّ جيشهم ليس جاهزاً بعد لشنّ حرب جديدة. لاسيما وأنّ نشر الوثيقة أعقب سلسلة من التهديدات والتلميحات والرسائل التي كانت تنذر بحرب قريبة يتحضّر لها الجيش الإسرائيلي، وبالتالي فإنّ هذه الحرب المرتقبة التي

طال انتظارها إسرائيلياً، بعدما أطلقت لها الوعود مراراً، وضربت المواقيت؛ قد أرجئت مرة أخرى إلى أمد غير منظور.

(638) كان موقع (تيكا ديبكا) الإسرائيلي بوصفه موقعاً إلكترونياً ذا علاقات استخبارية، ويُعرف بقربه من جهاز الموساد؛ قد ذكر أنّ سوريا أقدمت مؤخراً على تسليح حزب الله بصواريخ جديدة من طراز (فاتح- 110). وهي صواريخ باليستية بعيدة المدى: تعمل على الوقود الصلب، وتحمل رأساً متفجرة بزنة 500 كلغ، ويصل مداها إلى 250 كلم. ما يجعلها قادرة على استهداف وسط الكيان الإسرائيلي بما يضم من منشآت وتجمّعات سكانية ومصالح حيوية، وصولاً إلى مدينة بئر السبع في أقصى الجنوب من فلسطين.

وفي سياق مماثل، كشفت مصادر عسكرية إسرائيلية لمجلة (جيروزاليم بوست)، وفق ما أشار عددها الصادر بتاريخ الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني من العام 2010، عن لجوء حزب الله إلى نشر منظومة صواريخ أرض- أرض متطورة من نوع (M 600). وهي منظومة تنشر لأول مرة في لبنان، بحسب مراسل المجلة للشؤون العسكرية آلون بن ديفيد. تتوافر هذه الصواريخ- التي تعدّ نسخة مطوّرة عن صاروخ (فاتح- SSM 100)- على مواصفات عديدة؛ كالقدرة على استهداف وسط الكيان الإسرائيلي، والقدرة على الإصابة الدقيقة للأهداف، بوصفها مجهّزة بمنظومة توجيه آلية تجعل هوامش الخطأ معدومة أو بسيطة بنحو نسبي. فضلاً عن قدرتها الهائلة على الإضرار والتدمير، ذلك أنّها ذات رأس حربية تصل حمولتها إلى الـ500 كلغ من المواد المتفجّرة.

(639) يذكر أنّ فرضية العمل في المناورة الكبرى المسمّاة « نقطة تحول 4»- التي كانت إسرائيل قد أجرتها بتاريخ 23 أيار من العام 2010، كما سائر مناوراتها الأخيرة، لفحص جاهزية جبهتها الداخلية في حال نشوب حرب– قد قامت على سيناريو تتعرّض فيه إسرائيل لسقوط صواريخ من لبنان بأعداد كبيرة، وبنحو يغطي كلّ مناطق الكيان العبري، والوسط السكاني والحيوي بخاصة. وقد قارب الجنرال الإسرائيلي المتقاعد عوديد طيرا هذه الفرضية في مقال نشرته صحيفة «إسرائيل اليوم»، حيث يقول: «إنّ قوّة حزب الله تعاظمت منذ الحرب الأخيرة وازدادت بشكل كبير قوّته النارية ومدى هذه النيران، بحيث بات تقريباً قادراً على بلوغ كلّ نقطة في إسرائيل (...)، وإنّ انتشار الصواريخ أصبح أعمق مما كان سابقاً، والخطر الذي يمثله الحزب بات مكثفاً على قلب إسرائيل وبنيتها الإستراتيجية، وكذلك الخطر على الجبهة الخلفية العسكرية بما يتضمنه من قدرة تشويشٍ على حشد القوات الاحتياطية وتهديدٍ للقواعد الجوية والمقرّات اللوجستية».

(640) كانت غير وسيلة إعلامية إسرائيلية وغربية، قد قاربت ما استجدّ نوعياً من تطور ملحوظ على تراسانة حزب الله الصاروخية؛ «إنّ الزيادة التي طرأت على مخزون حزب الله الصاروخي ليست عددية» يقول روني دانئيل المراسل العسكري للقناة الثانية في التفزيون الإسرائيلي في معرض مداخلة ذات صلة في أيّار من العام 2008 «بل هي نوعية كذلك، وإنّ مدى غالبية الصواريخ التي يمتلكها الحزب الآن تستطيع أن تصل إلى منطقة الكثافة السكانية المسمّاة غوش دان، والتي تضم تل أبيب والمدن المحيطة بها، بينها عدد غير قليل قادر على الوصول إلى مفاعل ديمونة».

من جهتها، أشارت دراسة أميركية أعدّها الرئيس السابق لوكالة المخابرات المركزية سي آي إيه-CAA، جيفري وايت في العام 2011، وفيها صير إلى مقاربة موضوعة الترسانة الصاروخية التي بحوزة حزب الله؛ إلى أنّ «هذه الصواريخ متطوّرة للغاية، وبإمكانها إصابة أي هدف داخل الدولة العبرية، بما في ذلك، المفاعل النووي في ديمونا».

(641) تعتبر منطقة بئر السبع الواقعة إلى أقصى الجنوب من فلسطين، منطقة ذات أهمية وحساسية عالية بلحاظ الخارطة الإستراتيجية والأمنية لإسرائيل، ولذلك يحلو للإسرائيلي أن يطلق عليها تسمية (عاصمة النقب). تتأتى أهميتها من وصفها تضم- إلى جانب ما تحويه وتشتمل عليه من منشآت حيوية- منشأة (ميشور روتيم) المخصّصة ليس لاستخراج مادة الفوسفات من صحراء النقب وحسب، بل يتعدّى الأمر ذلك إلى استخراج خام اليورانيوم الذي يمكن العثور عليه في طبقات الفوسفات. وتؤكد غير دراسة بحثية، أنّ اسرائيل تعمل على استخراج قرابة العشرة أطنان سنوياً، من اليورانيوم الذي يتمّ نقله إلى مفاعل ديمونا كي يصار لاحقاً إلى معالجته وتخصيبه.

(642) نص مقابلة مع تلفزيون الرأي الكويتي ، بثّ في الساعة العاشرة من ليل التاسع والعشرين من شهر نيسان/ ابريل من العام 2010 .

(643) صحيفة هآرتس الإسرائيلية، نقلاً عن صحيفة السفير اللبنانية، السنة السابعة والثلاثون، العدد 11589، الخميس في 13 أيار، العام 2010، ص 14.

(644) حلمي موسى، إسرائيل تعضّ أصابعها ندماً بعد عشر سنوات على هروبها من لبنان، من تحقيق منشور في صحيفة السفير اللبنانية، السنة السابعة والثلاثون، العدد 11597، السبت في 22 أيار، العام 2010، ص 14 .

(645) جسّدت قمة دمشق الثلاثية بين الرئيسين بشار الأسد ومحمود أحمدي نجاد والأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله، الإعلان الضمني للتحالف الدفاعي المشترك، وقد أطلق عليها اصطلاحاً اسم «قمة التحدّي»، بوصفها انعقدت في اللحظة السياسية التي كان التهويل الأميركي الإسرائيلي بالحرب قد بلغ الزبى، وبوصفها وقفت على نحو نديّ لكلّ مشاريع الهيمنة الأميركية- الإسرائيلية في الشرق الأوسط، كما بوصفها تبنّت عقيدة «الحرب الشاملة» التي تحول دون استفراد طرف من أطراف معسكر الممانعة على جري ما كان يحصل في السابق، بما يعني أنّ عهد الاستفراد بحزب الله قد ولى، وأنّ أيّة حرب على الشطر الغربي (أي اللبناني) من الجبهة الشمالية، ستكون مفتوحة على واقع التدهور نحو مواجهة إقليمية طاحنة ليس بالمقدور ضبط إيقاعاتها، فضلاً عن مضاعفاتها ونتائجها.

(646) يقول أمين عام حزب الله سماحة السيد حسن نصر الله في لقاء مع تلفزيون الرأي الكويتي، بثّ في التاسع والعشرين من شهر نيسان/ ابريل من العام 2010 ، مقارباً البعد الردعي للقاء دمشق: «إن رسالة اللقاء في دمشق هي رسالة واضحة وقرأها الإسرائيليون والأميركيون وغيرهما، وعلينا أن نكتفي بما قرأوه».

(647) أمين حطيط، الحرب الوهمية والثمن المطلوب، صحيفة السفير اللبنانية، السنة السابعة والثلاثون، العدد 11579، الجمعة في 30 نيسان، العام 2010، ص 21.

(648) يطلق على هذا العامل اسم (عامل العزم) ويعني استعداد الجهة الرادعة لتنفيذ تهديداتها. أنظر: معهد دراسات الأمن القومي الإسرائيلي، حرب لبنان الثانية: قراءات إسرائيلية في هزيمة الكيان الأولى؛ تحرير شلومو بروم ومئير إلران، ط1، ترجمة وإصدار باحث للدراسات، 2009، ص 79.

(649) كان حزب الله يراكم ويضاعف قدراته وأسباب قوّته، فيما كانت عين إسرائيل ترقب ذلك من بعيد، ويدها مغلولة إلى عنقها بأصفاد وأغلال ردع حزب الله.

(650) يلحّ حزب الله على إجراء متابعة دقيقة للداخل الإسرائيلي، ويحرص على الإلمام بتفاصيل الخريطة الإسرائيلية العسكرية والاقتصادية، ومكوّنات الانتظام المجتمعي والسكاني فيها؛ كأن يصار إلى فهم عميق لنقاط الضعف عند هؤلاء، كما نقاط القوّة، والتعرّف إلى ميولاتهم ونزوعاتهم، وطرائق تفكيرهم، وكيفية تفاعلهم مع الأحداث... ما يجعل الإسرائيلي لا يقرّ بقدرات لدى حزب الله على اختراق أنظمته الأمنية والعسكرية وحسب، وإنّما يعترف له أيضاً بقدراته المدهشة على متابعة وقراءة الواقع الإسرائيلي بنحو جيد، والوقوف على اهتماماته وأبعاده وتفاصيله، وبأنّ السيد حسن نصر الله يعرف كيف يخاطب الرأي العام الإسرائيلي، ويؤثر فيه. والحال، فإنّ هذه الاحاطة الجامعة بالداخل الإسرائيلي، كما بالعقل وبالمزاج العام الإسرائيليين؛ تتيح لحزب الله أن يطلق وينظم حرباً نفسية متكافئة في مواجهة إسرائيل، وأن لا يتوافر على قدرة الردع وحسب، بل أن يجيد استخدام هذا السلاح بالقوّة والفعالية اللازمتين.

(651) من خطاب لأمين عام حزب الله السيد حسن نصرالله خلال المهرجان المركزي الذي نظمه الحزب في ذكرى القادة الشهداء، وذلك في السادس عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2010، في مجمع سيد الشهداء في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(652) إنّ أكثر ما يؤرّق إسرائيل، ويثير قلقها واضطرابها، هو الروح القتالية العالية لدى حزب الله، والإرادة الصلبة التي يتوافر عليها، كما العزيمة، والإصرار، والحافزية، والعناد البطولي، وغيرها من الصفات التي تشكل شخصيته القاعدية، والتي تدفع إسرائيل إلى الإدراك اليقيني والقطعي، أنّه يتحلى بالشجاعة اللازمة لاستخدام مطلق سلاح يمتلكه، إذا ما استدعت طبيعة المعركة والمواجهة ذلك.

(653) تكون الردود على تجاوزات (عتبات الردع)– في العادة- متناسبة إلى حدّ كبير مع الضرر المتأتي من هذه التجاوزات. غير أنّ إعادة (عتبة الردع) الى سيرتها الأولى، في معادلات الردع المصغرة تحديداً، تقتضي أحياناً أن يمارس الطرف الرادع ردّاً غير متناسب مع حجم الضرر. وهو ما يحصل عندما يكرّر المتحدّي تحدّيه ولو بشكل محدود، على أمل ان يصبح هذا السلوك مقبولاً لدى الطرف الرادع، وأن يؤدّي ذلك –تدريجياً– إلى وضع قواعد جديدة للعبة. أنظر: معهد دراسات الأمن القومي الإسرائيلي، حرب لبنان الثانية: قراءات إسرائيلية في هزيمة الكيان الأولى؛ تحرير شلومو بروم ومئير إلران، ط1، ترجمة وإصدار باحث للدراسات، 2009، ص 82، 83.

(654) صحيفة السفير اللبنانية، السنة السابعة والثلاثون، العدد 11568، السبت في 17 نيسان، العام 2010، ص 5.

(655) أعلنت الصناعات العسكرية الإسرائيلية (رفائيل) عن هذه المنظومة في شهر كانون الثاني/ يناير من العام 2010، ورأت فيها إنجازاً كبيراً، بوصفها توفر الحماية من الصواريخ التي

يتراوح مداها ما بين 40 كلم و250 كلم. في حين علق موقع «تيكا ديبكا» الإسرائيلي الإخباري على الإنترنت، وفقاً لمصادر عسكرية إسرائيلية استند إليها، أنّ «منظومة القبّة الفولاذية هي إنجاز مثير، إلا أنّ هذا الموضوع، كأيّ موضوع آخر في دولة إسرائيل؛ مضخم وبعيد من الواقع». وقد نشرت هذه المنظومة في غير مدينة إسرائيلية، لا سيما في محيط (سيدروت) لاعتراض الصواريخ الفلسطينية، لكنّها لم تفلح في مهمتها، على الرغم من الادعاءات الإسرائيلية بخلاف ذلك.

وكان السيد حسن نصر الله، قد قلل من فعالية هذه المنظومة حدّ التسفيه، حيث يعلق ساخراً في حرب نفسية على الوعي الإسرائيلي: «أقول للناس في إسرائيل الذين يُستغلون من حكامهم وقادتهم، إنّ قصة القبّة الحديدية التي ترونها على التلفزيون، هي حتى الآن أقرب إلى الفيلم السينمائي منه إلى الحقيقة الميدانية». أنظر: خطاب السيد حسن نصر الله خلال المهرجان المركزي الذي نظمه الحزب في ذكرى القادة الشهداء، وذلك في السادس عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2010، في مجمع سيد الشهداء في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(656) العصا السحرية: نظام دفاعي جوّي جديد لاعتراض الصواريخ ذات المديات المتوسطة والقصيرة؛ تعكف شركة الصناعات العسكرية الإسرائيلية (رفائيل) على انتاجه وتطويره، وذلك لغرض توفير الحماية للجبهة الداخلية، والحؤول دون استهدافها والإضرار بها. سوف يجري العمل بهذا النظام، وفقا للمصادر الإسرائيلية المتابعة، في العام 2013، ليشكل- كما يؤمل ويُرجى منه- إلى جانب القبّة الفولاذية أو الحديدية، ومنظومة (حيتس) وصواريخ باتريوت، نظاماً دفاعياً جوّياً متكاملاً يوفر الحماية للكيان الإسرائيلي بمجمله من خطر الهجمات الصاروخية المحتملة.

(657) كلمة (حيتس) تعني باللغة العبرية (السهم). أمّا صاروخ حيتس- 3، فهو نظام دفاعي جوي مضاد للصواريخ الباليستية (ABM). صُمّم لحماية إسرائيل من الصواريخ البعيدة المدى. يُطلق على الجيل الثالث من منظومة (حيتس) بعد تعاقب الجيلين الأول والثاني (حيتس1، وحيتس- 2). وقد بدأت إسرائيل العمل على تطويره في العام 2009، وذلك لغرض إعتراض الصواريخ الباليستية في الغلاف الجوي على علو شاهق. وهو طراز متقدّم من الصواريخ. يصل مداه إلى آلاف الكيلومترات، ويُعدّ الأكثر تطوّراً من نوعه إسرائيلياً، بوصفه جاء كخلاصة لصفوة التحسينات التي صير إلى إدخالها على منظومة حيتس. وكان الجيش الإسرائيلي قد شرع في تطوير الصاروخ، بعد الاتفاق الذي تمّ بهذا الخصوص مع الولايات المتحدة الأميركية في السادس من شهر أيّار/ مايو من العام 1986، ليحظى المشروع بتمويل أميركي– إسرائيلي، بتكلفة تقارب الـ2 مليار دولار، وليكون الصاروخ الأول الذي يصار إلى تطويره على نحو مشترك من قبل إسرائيل والولايات المتحدة. وقد أوكلت إدارة الأمر إلى وزارة الحرب الإسرائيلية التي عكفت بدورها على عملية التطوير في إطار ما يُسمّى بـ(منهليت هوما Minhelet Homa)، وهي التسمية التي تجمع مختلف الصناعات الأمنية الإسرائيلية؛ نحو: الصناعات العسكرية، تاديران، الصناعات ذات الصلة بالفضاء الخارجي...

يقوم الآرو- حيتس باعتراض أهدافه عند طبقة (الستراتوسفير) من الغلاف الجوي. (يذكر أنّ بعض الأنظمة الدفاعية مثل «أر آي أم - 161» يعترض أهدافه في الفضاء الخارجي، بينما يعترض الباتريوت «باك- 3» أهدافه في أسفل الغلاف الجوي. أمّا نظام ثاد «THAAD»، فيعترض أهدافه في أعالي الستراتوسفير). وقد ارتبط إطلاقه على نحو وثيق ببرنامج الدعم

الدفاعي الأميركي عبر الأقمار الاصطناعية، حيث أصبح بمقدوره رصد أيّة عملية إطلاق صاروخية.

أختبرت قدرات الصاروخ وفعاليته مراراً، حيث صير إلى إجراء تجارب عديدة: في تموز/ يوليو من العام 2004، وفي الثاني من كانون الأول/ ديسمبر من العام 2005، وفي11 شباط/ فبراير و26 آذار/ مارس من العام 2007، وفي العام 2008، وفي السابع من نيسان/ ابريل من العام 2009، وفي 22 شباط/ فبراير من العام 2011.

يتكوّن نظام حيتس من ثلاثة أجزاء: الصاروخ، ونظام التحكم (Control System)، الذي يسمّى (الكباد الأصفرCitron Yellow)، وأخيراً رادار تتبّع الهدف (آي إيه أي – اي ال /أم IAI EL/M-2080) ويسمّى (الصنوبر الأخضرGreem Pine). وسُجّلت أول عملية نشر لهذا النظام الدفاعي في 14 آذار/ مارس من العام 2000، ضمن القاعدة الجوية العسكرية الإسرائيلية (بلماخيم Palmachim IAF Base) على سواحل البحر المتوسط.

(658) منظومة معطف الريح أو سترة الريح: هي عبارة عن جهاز حماية متطوّر، تعمل شركة الصناعات العسكرية الإسرائيلية (رفائيل) على إنتاجه، تتزوّد به دبابة الميركافا. ويشمل راداراً بمقدوره أن يكشف الصاروخ المهاجم، وأن يطلق صاروخاً باتجاهه لتدميره. وتبلغ تكلفته الإجمالية حوالى 400 ألف دولار.

(659) باراك (Barak): هو صاروخ مخصّص لمواجهة التهديدات الجوية التي قد تتعرض لها السفن الحربية. يصار إلى تثبيته بنظامي إطلاق عموديين (يحويان 32 خلية) على سطح المدفع في مقدّم السفينة. يبلغ مداه 10 كلم، ويحمل رأسا حربية تبلغ زنتها 22 كلغ. كما يتصف بقدرته على معالجة الأهداف السطحية، بوصفه من منظومات الصواريخ المضادة للصواريخ، حيث يأخذ طريقه على وجه المياه إلى أن ينال من الصاروخ المعادي ويدمّره. أنظر: عباس النابلسي، رعب السلاح: أسرار القدرة العسكرية لحزب الله، ط1، بيروت: دار إيوان للطباعة والنشر والتوزيع، العام 2007، ص 166، 167، 168.

(660) تشفّ عملية رصد التحوّلات الإستراتيجية والتكتيكية في جدلية العلاقة الصراعية بين الكيان الإسرائيلي وحزب الله، عن نجاح الأخير في إرساء توازن فاعل للقوى، أو ما يمكن الإصطلاح عليه تجوّزاً بـ(ميزان الرعب). وتوازن القوى، وفق ما ينطوي عليه التعريف العلمي، يعني في جوهره الحالة التي تعمل فيها جهة ما، سواء أكانت دولة، أم مجموعة من الدول، أم إطاراً حزبياً مسلحاً...، على إقامة نوع من التوازن الرادع مع العدو، بنحو يمنع الحرب، ويحول دون وقوعها. ذلك أنّ التكافؤ والتعادل في القدرة على التدمير والإضرار المتبادل، من شأنه أن يجعل غلبة فريق على آخر غاية في الصعوبة، ويدفع- بالتالي- صناع القرار إلى التفكير ملياً قبل التورّط في نزاع، وقبل الانزلاق إلى حرب: النصر فيها غير بائن، والخسارة فيها جلية.

(661) أثبتت الوقائع والمجريات ذات الصلة بالصراع القائم بين إسرائيل وحزب الله؛ أنَّ هذا الأخير كان يحرص بنحو دائم، وفي كل انعطافة من انعطافات الصراع، على تحديد المستوى المطلوب من الردع، وتخيّر الأدوات والأساليب المناسبة لتحقيقه، بما يخدم تثبيت معادل التوازن المرعب واستقراره.

(662) من خطاب ألقاه السيد حسن نصر الله في الذكرى السنوية الأولى لانتصار (تموز- آب 2006). وذلك ضمن أعمال مهرجان نظمه حزب الله في الضاحية الجنوبية لبيروت في الرابع عشر من شهر آب/ اغسطس من العام 2007.

(663) من خطاب لأمين عام حزب الله السيد حسن نصرالله خلال المهرجان المركزي الذي نظمه الحزب في الذكرى الخامسة لانتصار تموز– آب 2006، وذلك في السادس والعشرين من شهر تموز/ يوليو من العام 2011، في ملعب الراية في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(664) تعكس المعادلات التي أطلقها السيد حسن نصر الله في غير مناسبة، وخلال السنوات التي أعقبت حرب (تموز- آب 2006)، تصاعداً متدرّجاً في الخط البياني لإستراتيجية الردع التي عكف حزب الله على بنائها وتشييدها، في تعبير جليّ عن التطوّر المتنامي والملحوظ في الإمكانيات والقدرات التسلحية والحربية، وبما يؤشّر إلى تحقق قفزات نوعية على صعيد الجاهزية والتحفز. ذلك أنّ المعادلات المطروحة كانت تتخلق على نحو تراكمي، وليس تعويضياً. بمعنى أنّ المعادلة الجديدة لم تكن لتجبّ سابقاتها أو تنسخها، وإنّما لتقدّم إضافة جديدة ترتقي بميزان «الردع والرعب» المعمول به الى أسقف أعلى. والحال نرى كيف أنّ المعادلة البرية القائمة على تدمير الفرق العسكرية المتوغلة في الأراضي اللبنانية، جاءت بعد المعادلة الصاروخية القائمة على استهداف الجبهة الداخلية الإسرائيلية، ثم تلتها المعادلة البحرية القائمة على استهداف السفن والقطع الحربية والموانئ والمنشآت البحرية الإسرائيلية، لتأتي بعدها معادلة السيطرة على الجليل، وأخيراً وليس آخراً الإعلان عن امتلاك الحزب لأسلحة الدفاع الجوي.

(665) من خطاب سُمّي بـ(خطاب النصر)، ألقاه السيد حسن نصر الله في المهرجان الجماهيري الذي أقامه حزب الله في الضاحية الجنوبية لبيروت في الثاني والعشرين من شهر أيلول/ سبتمبر من العام 2006، أي بعد ثمانية وثلاثين يوماً فقط على توقف الأعمال الحربية في الرابع عشر من شهر آب.

(666) من خطاب ألقاه السيد حسن نصر الله لمناسبة العاشر من محرم، خلال المسيرة الحسينية التي نظمها حزب الله على جري عادته في الضاحية الجنوبية لبيروت في السادس من شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام 2011.

(667) لا يعني «تدمير الفرق» وفقاً لمعجم النظريات الحربية، أن تدمّر- بالضرورة- الفرقة بكاملها؛ بل يكفي أن يُدمر جزءٌ منها، كأن تصاب بالشلل في غير مفصل من مفاصل ارتكازها، حتى تنهار وتتداعى.

(668) من خطاب لأمين عام حزب الله السيد حسن نصرالله خلال المهرجان المركزي الذي نظمه الحزب بمناسبة يوم الشهيد، وذلك في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2009، في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(669) يعدّ «التدمير المؤكد المتبادل» مدخلاً حتمياً إلى استقرار معادلة «الردع المؤكد المتبادل»، بمعنى أنّ الثانية ليس بمقدورها أن تستقيم بإطلاق دون تخلق الأولى. وقوام الأخيرة: امتلاك كلّ طرف من أطراف الصراع القدرة على تدمير الآخر والإضرار به، حتى بعد تعرّضه للضربة الأولى، وذلك من خلال توافر القدرة لديه على توجيه ضربة مماثلة، لها القوّة التدميرية ذاتها.

فالردع بما يفرضه من استقرار، إنّما يتحقق من طريق انفراد إحدى القوى بالقدرة، أي انفرادها باحتكار أسباب القوّة. أمّا في حالة تعدّد القدرات، فإنّ بمقدور الردع فرض الاستقرار من طريق الرعب المتبادل، أو الخوف من التدمير المتبادل.

(670) يشفّ توسّل حزب الله لنزعة الهجوم- الدفاعي، وفق ما تفصح عنه معادلة «تحرير الجليل»، عن انتقال الحزب إلى أعلى سقف دفاعي ممكن، أي ما يطلق عليه «الهجوم في معرض الدفاع». وقد صير إلى تخيّر هذا النمط القتالي، بعد أن أرسى الحزب تكافؤاً ميدانياً، وامتلك قدرات عسكرية بمقدورها أن تتيح له صناعة إنجازات نوعية جديدة.

(671) تعدّ منطقة الجليل المنطقة المأهولة الثانية، بعد ما يسمّى بـ«غوش دان» التي تتوسّط الدولة العبرية، حيث يقدر عدد سكانها بنحو مليون نسمة، أي ما نسبته 17 % من مجموع سكان الكيان الإسرائيلي. تتأتى أهميتها من وصفها ذات بعد إستراتيجي كبير: تقع على الحدود مع لبنان وسوريا؛ إذ يحدّها لبنان شمالاً، والبحر الأبيض المتوسط غرباً، فيما تشغل هضبة الجولان الحدود الشرقية منها. يطلق عليها الإسرائيلي تسمية «الجبهة الشمالية»، وتعتبر درّة اقتصاده لما تتوافر عليه من منشآت صناعية ذات أهمية بالغة، ومن إنتاج زراعي ضخم ووفير، فضلاً عن كونها منطقة نشطة على الصعيد السياحي والترفيهي، بسبب من طبيعتها الجغرافية التي تجعل منها واحة سياحية كبيرة، ومقصداً في مواسم الاستجمام والاصطياف. يشترك الجليل مع لبنان في مساحته الطبوغرافية، ولذلك يطلق بعض الجغرافيين عليه تسمية «جبل عامل»، كونه يشكل إمتداداً جغرافياً لهذا الأخير. أمّا مساحته فتبلغ قرابة ألفين وثلاثة وثمانين كيلو متراً مربعاً، تتنازعها أقسام ثلاثة:

أ-الجليل الأعلى: تصل مساحته الجغرافية إلى قرابة ألف وخمسمائة كيلومتر مربع، يمتدّ منها نحو سبعمائة كيلومتر داخل الأراضي اللبنانية وصولاً إلى نهر الليطاني، في حين يقع الجزء الآخر، أي نحو ثمانمائة كيلو متر، داخل الأراضي الفلسطينية. تعتبر مدينة صفد عاصمة الجليل الأعلى؛ فهي أكبر مدنه بإطلاق، وهي تضم إلى جانب بعض المنشآت الحيوية، مطاراً يحظى بأهمية بالغة لدى مستوطني المناطق الواقعة إلى الشمال من الكيان الإسرائيلي. يطلّ الجليل الأعلى على سهل الحولة وغور الأردن، ويقيم معهما حدوداً مشتركة. ما يكسبه أهمية مضافة، ويجعله منفذاً برياً سهلاً إلى أراضي المملكة الهاشمية.

ب-الجليل الغربي: يمتاز بموقعه الحيوي المطل على البحر المتوسط، ويعتبر جزءاً من الجليل الأعلى. يمتد من منطقة الناقورة شمالاً على الحدود مع لبنان، إلى تخوم مدينة حيفا جنوباً. تشكل كل من مستعمرة نهاريا ومدينة عكا أبرز مدنه وأكثرها أهمية.

ج-الجليل الأسفل: يحظى بأهمية مائزة؛ فبالإضافة إلى قربه من تخوم مدينة نابلس، يضم مدينة طبريا، ويشغل حيزاً كبيراً على بحيرتها (بحيرة طبريا). تعتبر مدينة الناصرة عاصمة له، وهي أكبر مدنه بإطلاق. تصل مساحته إلى سبعمائة كيلومتر مربع، تمتدّ من كرمئيل شمالاً إلى مرج بن عامر جنوباً. ويقيم فيه إلى جانب العرب المسلمين والدروز والمسيحيين، مستوطنون يهود وفدوا إليه من أصقاع شتى .

(672) لا شكّ أنّ معادلة «السيطرة على الجليل» أو «تحرير الجليل»، التي أطلقها السيد حسن نصر الله؛ تندرج كسابقاتها من المعادلات في سياق إظهار قدرات حزب الله الدفاعية لغرض درء

أي اعتداءات إسرائيلية محتملة. إلا أنّ وجه المفارقة هنا، وهذا ما جعل المعادلة الجديدة صادمة وغير متوقعة، هو أنها المرة الأولى التي يصار فيها لبنانياً إلى تهديد الدولة العبرية باحتلال بري لمستوطناتها. بما يعني أنّ حزب الله لم يعد ليكتفي بردع إسرائيل من خلال قدراته الصاروخية الدقيقة والمدمّرة التي يتوافر عليها، أو من خلال توسّل قتال دفاعي من شأنه تدمير الفرق العسكرية الإسرائيلية التي تتوغل في عمق الأراضي اللبنانية؛ بل أضاف إليها معادلة الجديدة قوامها: مواجهة الاحتلال بالاحتلال، وهذا تطوّر لم يكن سابقاً ليقع حتى في مدار الخيال. والحال هذه، انتقل حزب الله من مرحلة امتلاك القدرة الدفاعية للحيلولة دون تحقيق إسرائيل لأهدافها ومآربها ومشاريعها في حال العدوان على لبنان، إلى مرحلة أخرى متقدّمة قوامها: إظهار هذه القدرة لمنع إسرائيل من أصل التفكير بالعدوان، والإقدام عليه.

(673) من خطاب لأمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله خلال احتفال جماهيري أقامه الحزب في مجمع سيد الشهداء(ع)- في الضاحية الجنوبية لبيروت، إحياء لمناسبة ذكرى الشهداء القادة، وذلك في السادس عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2011.

(674) كان وزير الدفاع الإسرائيلي ايهود باراك، قد قام في الخامس عشر من شهر شباط/ فبراير من العام 2011، بجولة تفقدية واستطلاعية على الحدود مع لبنان، برفقة الرئيس الجديد لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي الجنرال بني غينتس، وذلك بعد يوم واحد على تعيين الأخير، وخلالها أطلق باراك موقفاً نارياً أراد به التهويل من جهة، ورفع جاهزية جيشه من جهة ثانية، حيث توجّه إلى جنوده قائلاً: «يجب أن تكونوا مستعدّين، لأنه لو حصلت حرب قد تطلب منكم القيادة الدخول مجدّداً إلى لبنان».

(675) لنلاحظ هنا، كيف تقصّد السيد حسن نصر الله خلال إطلاقه معادلة الجليل، أن يستعير الأدبيات ذاتها التي كان ايهود باراك قد توسّل بها لتهديد لبنان، وذلك لغرض تفعيل الردع وتعزيزه: «أقول لمجاهدي المقاومة الإسلامية» والكلام لنصر الله «كونوا مستعدّين ليوم إذا فرضت فيه الحرب على لبنان، قد تطلب منكم قيادة المقاومة السيطرة على الجليل».

(676) كان حزب الله قد تمكن من ليّ الذراع البرية للجيش الإسرائيلي خلال عدوان هذا الأخير على لبنان في (تموز- آب 2006)، وكانت نظرية المؤثرات التي أخذ بها الإسرائيلي، والتي تقوم على تفعيل العمليات الجوية؛ قد باءت بدورها إلى فشل، بعدما أخفقت في خوض حرب نظيفة تُحسم فيها المعركة دون التورّط في قتال بري. ليأتي بعد ذلك دور الذراع البحرية التي لطالما صير إلى التفاخر بها، وإلى وصفها بأنّها طويلة وغليظة؛ لتوضع هي الأخرى- في حال اندلاع الحرب- على محكّ المعادلة التي أطلقها السيد حسن نصر الله، وضمّنها التصريح بالقدرة على استهداف كلّ السفن والقطع البحرية الإسرائيلية في أي مكان وجدت فيه على امتداد شواطئ البحر المتوسط والبحر الأحمر.

(677) من خطاب لأمين عام حزب الله السيد حسن نصرالله خلال المهرجان المركزي الذي نظمه الحزب في الذكرى العاشرة لعيد المقاومة والتحرير، وذلك في الخامس والعشرين من شهر أيّار/ مايو من العام 2010، في مجمع سيد الشهداء في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(678) يبلغ عديد الذراع البحرية في الجيش الإسرائيلي، نحو: 9500 جندي من القوات النظامية، و10 آلاف جندي من قوات الاحتياط. أمّا القطع الحربية فتتوزّع بين: السفن المقاتلة وعددها خمس

عشرة سفينة. زوارق الدوريات وعددها سبعة وخمسون زورقاً. غواصات الدولفين وعددها خمس غواصات، اثنان منها في طور الاستلام من ألمانيا. إلى جانب ذلك يحظى سلاح البحرية بعدد من الموانئ:

-قاعدة حيفا: هي مقرّ أسطول الغواصات، والسفن القتالية، وسرية دوريات (الوحدة 914).

-قاعدة عتليت: هي مقرّ الوحدة الخاصة (شييطت 13).

-قاعدة إيلات: هي مقرّ زوارق الدوريات (الوحدة 915).

-قاعدة أشدود: هي مقرّ زوارق الدوريات (الوحدة 916).

(679) قامت العقيدة الأمنية والعسكرية الإسرائيلية على جملة من المركبات الحاكمة التي تستدعي تعزيزاً لمكانة الذراع البرية والذراع الجوية في الجيش، وتفضي من جهة أخرى إلى تراجع في مكانة سلاح البحرية، وبالتالي إلى تبهيت لشأنيته، وإهمال لدوره، وانحصار الأخير بمهام إسناد وعمليات محدودة، ما كان يجد تعبيره في أن وقع جنود البحرية أسرى النظرة الفوقية لجنود ذراعي الجو والبر.

(680) مضيق باب المندب: هو ممرّ مائي يصل البحر الأحمر بخليج عدن وبحر العرب، ويفصل قارة أسيا عن قارة أفريقيا. ظل الممرّ على قدر منخفض ومحدود من الأهمية حتى صير إلى افتتاح قناة السويس في العام 1869، وما استتبع ذلك من ربط للبحر الأحمر وما يليه بالبحر المتوسط وعالمه، حيث تحوّل إلى واحد من أهم المعابر المائية، ومن أهم ممرات النقل على الطريق البحرية بين بلدان أوروبا والبحر المتوسط وعالم المحيط الهندي وشرقي أفريقيا. ثم تضاعفت هذه الأهمية على نحو كبير، بعد تضاعف الحاجة إلى النفط العربي الذي تتوافر عليه دول الخليج بخاصة، حيث أنّ عدد السفن وناقلات النفط العملاقة التي تمرّ فيه في الإتجاهين بات يقدر بأكثر من 21000 قطعة بحرية سنوياً، أي بمعدل 57 قطعة يومياً.

(681) اضطلعت البارجة الحربية (حانيت) بمهمة القيادة البحرية الإسرائيلية خلال حرب تموز-آب من العام 2006، وللغاية انطلقت فجر يوم الخميس في الثالث عشر من شهر تموز على رأس أسطول صغير قوامه: أربع بوارج من طراز (ساعر)، وثلاثة قوارب دورية من طراز (دبور). أُستقدم بعض هذه القطع من ميناء حيفا، وبعضها الآخر من ميناء أشدود، حيث اتخذت مواضع قتالية لها من مسافة نحو 16 ميلاً بحرياً على امتداد الشواطئ اللبنانية من الشمال حتى الناقورة في أقصى الجنوب.

(682) القيود الأمنية: هي إلزامات يناط بها في العقيدة الأمنية الإسرائيلية أمر ملاحظة وتعيين المخاطر الوجودية ذات التأثيرات والمفاعيل الدائمة، التي ليس من اليسير بإطلاق إحداث تغيير جذري فيها، أو إجراء تعديل أو تطوير عليها، أو حتى العمل على تليينها: على نحو الظروف الموضوعية والطبيعية التي تتأتى من موقع إسرائيل الجغرافي بلحاظ البيئة المحيطة بها، أو تتأتى من صغر مساحتها، وضيق عمقها، وانكشاف مصالحها الحيوية، وندرة مواردها الاقتصادية، وقلة عدد سكانها... أنظر: يوسف نصرالله، تداعي الأسطورة: مقاربات نقدية لمشهدية الحرب السادسة، ط1، بيروت: دار الفارابي،2011، ص 84.

(683) تعتبر الدولة العبرية البحر مجالاً حيوياً، ذلك أنّ ما نسبته نحو (98 %) من سفنها التجارية تمرّ في المساحة المائية الواقعة قبالة السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط.

(684) تستهلك إسرائيل قرابة الـ(60 %) من النفط المستورد عبر البحر، في الوقت الذي ليس لديها ثروات نفطية، ولذلك تعوّل كثيراً على ما يمكن أن يحمله إليها حقلا تامار ولفيتان.

(685) تشير الدراسات البحثية العسكرية إلى امتلاك حزب الله لجيل متطوّر من الرادارات البحرية التي بمقدورها رصد السفينة، وتحديد مكانها، وسرعتها، ووجهتها، وهويتها، وحمولتها، وذلك لغرض تزويد الصواريخ بالإحداثيات المطلوبة التي تسهّل عملية إعتراضها واستهدافها وتدميرها. ويرجّح الخبراء أن لا يلجأ الحزب في أيّة حرب مفترضة مع إسرائيل إلى توسّل استخدام الرادارات الثابتة على جري عمله في حرب العام 2006؛ بل إلى تفعيل العمل برادارات متحرّكة يتمّ تشغيلها لوقت وجيز لا يتعدّى الدقائق المعدودات، وذلك لضرب هدف ما، قبل أن يُعاد إغلاقها وإخفاؤها مجدّداً. بما يعني اللجوء إلى أسلوب مراوغ، قوامه الكرّ والفرّ السريعان، على نحو ما يصار إليه في حرب العصابات.

(686) كانت تقارير استخبارية غربية وإسرائيلية تحدثت عن امتلاك حزب الله لمنظومة عريقة من الصواريخ المضادة للسفن وللأهداف البحرية: كالصاروخ الصيني C-802، أو تلك النسخة المعدلة منه التي تنتجها ايران باسم «نور»، أو صاروخ كوسر...

وللغاية أشارت- غير مرة- مصادر صحفية إسرائيلية في شهر آب/ أغسطس من العام 2007، عن امتلاك حزب الله صاروخاً روسياً من طراز (ياخونت SSN-X-26)، الذي صير إلى البدء بتصنيعه في مطلع ثمانينيات القرن العشرين من خلال مؤسّسة (ماشينو ستروينيه) الإنتاجية العلمية. ونقلت عن مسؤولين عسكريين في وزارة الدفاع الإسرائيلية أنّ الصاروخ شبيه بصاروخي (توماهوك) و(هاربون) الأميركيين، وهو صاروخ تكتيكي يمكن استخدامه ضد مدمّرة متوسّطة الحجم أو حاملة طائرات، ما يجعله يشكل خطراً كبيراً على سفن البحرية الإسرائيلية. يتوافر الصاروخ على خصائص فارقة، حيث بالمقدور إطلاقه بكيفيات عديدة سواء من على السفن والغواصات أم من خلال المنصّات الأرضية والطائرات، كما بمقدوره إصابة أهداف بحرية تقع على بعد 300 كيلومتر. يحمل رأساً حربية تبلغ زنتها نحو 200 كيلوغرام من المواد الشديدة الانفجار. فضلاً عن أنّه صاروخ مراوغ يعمل في ظروف بالغة التعقيد: يلاحق هدفه من خلال نظام راداري متطوّر. يتفلت من عمليات التشويش اللاسلكي- الإلكتروني. يصعب اكتشافه والتعرف عليه من قبل الرادارات الحديثة (تكنولوجية ستيلس). يحلق على ارتفاع متر ونصف المتر فوق سطح البحر، ما يجعل من إمكانية اعتراضه أمراً بالغ الصعوبة.

(687) من خطاب لأمين عام حزب الله السيد حسن نصرالله خلال المهرجان المركزي الذي نظمه الحزب في الذكرى الخامسة لانتصار تموز– آب 2006، وذلك في السادس والعشرين من شهر تموز/ يوليو من العام 2011، في ملعب الراية في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(688) يذكر أنّ الكلفة الإجمالية التي تتطلبها خطة حماية المنشآت النفطية الإسرائيلية، تجاوزت مبلغ النصف مليار دولار أميركي. ومن المقدّر أن تتحصّل الحكومة الإسرائيلية على نصف هذه القيمة من الشركات المستثمرة.

(689) انظر: علي دربج، ماذا تخبئ المقاومة لإسرائيل من مفاجآت بحرية جديدة. صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون، العدد 11946، الثلاثاء في 26 تموز، العام 2011، ص4.

(690) من خطاب لأمين عام حزب الله السيد حسن نصرالله خلال مسيرة اليوم العاشر من محرم، التي كان حزب الله قد نظمها في الضاحية الجنوبية لبيروت، في السادس من شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام 2011.

(691) لقد نجح حزب الله في إرساء معادلة «التكافؤ المتقابل بالأهداف»، وهو مؤشر على التطوّر الكبير في القدرات التسليحية والاستخبارية، كما في الجاهزية: جُعلت تل أبيب في مقابل الضاحية، بعد أن كانت في مواجهة بيروت. ثم جُعل المبنى في مقابل المبنى، ومطار بن غوريون في مقابل مطار رفيق الحريري، والمرفأ في مقابل المرفأ، والكهرباء في مقابل الكهرباء، والبحر في قبالة البحر، وصولاً إلى معادلة الجليل التي وضعت الأرض في مقابل الأرض...

(692) ترى إسرائيل أنّ حزب الله يُعدّ أحد أقوى الأحزاب والتنظيمات العاملة على الساحة اللبنانية وفي المنطقة، بل هو أقواها بإطلاق، وأشدّها حيلة واقتدارا؛ بل أكثر من ذلك، فقد «غدا حزب الله» يقول معلق الشؤون الأمنية والعسكرية في صحيفة يديعوت احرونوت رونين بيرغمان «التنظيم الإرهابي الأقوى في التاريخ». أنظر: حلمي موسى، إسرائيل والحرب السرية على جيش الظلال. صحيفة السفير اللبنانية، السنة الثامنة والثلاثون، العدد 12057، السبت في 10 كانون الأول، 2011، ص 14.

ووفقاً لغير مصدر عسكري إسرائيلي؛ فإنّ قوّة حزب الله العسكرية هائلة نسبياً، ولا تتوافر لدى أي كيان آخر– غير دولة، بل إنّ لديه قدرات لا تتوافر لبعض من الدول. والخطير أنه يجيد توظيف هذه القدرات وتكريسها ليس لمواجهة أي اعتداء إسرائيلي على لبنان وحسب؛ بل لمنع إسرائيل من الاعتداء في ساحات إقليمية، قريبة أو بعيدة. ما يسهم في تقليص هامش مناورة الدولة العبرية، ويحول دون استخدامها العنف لتحقيق أهدافها السياسية، إنْ في الساحة اللبنانية نفسها، أو في الساحات الإقليمية الأخرى. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثالثة، العدد 895، الجمعة في 14 آب، العام 2009، ص 2.

من جهتها وضعت مراكز الإستراتيجيا السياسية والعسكرية الدولية والإقليمية، ما يتوافر عليه حزب الله من أسباب القوّة تحت مجهر المعاينة والفحص، وذلك بعد أن تحوّل الأخير من قوّة معيقة ومزعجة ومعرقلة للمشروع الأميركي في الشرق الأوسط، إلى قوّة مانعة قادرة على كبح هذا المشروع، وعلى فرملة عجلة اندفاعته: نجح في تقويض بعض مرتكزات نظام إقليمي هجين أريد تشييده بعد غزوة العراق وأفغانستان، كما في تعثر المشروع الأميركي، وفي عرقلة آلة الهيمنة لديه، وفي تعطيل مشاريعه، وفي كشف شبكاته الاستخبارية، وفي إرغامه مراراً على تغيير وتبديل أولوياته، وفي إفشال تحويل لبنان إلى رأس جسر إستراتيجي للعبور الآمن إلى المنطقة.

وفي السياق عينه، كان رئيس الموساد السابق مائير داغان قد أشار في غير مكان ومناسبة إلى تضخم قدرات حزب الله التسلحية بالقول إنّ «لدى حزب الله قدرة نارية لا تمتلك مثلها 90 في المئة من دول العالم».

(693) أنظر: خطاب الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله خلال المهرجان المركزي الذي نظمه الحزب في ذكرى القادة الشهداء، وذلك في السادس عشر من شهر شباط/ فبراير من العام

2010، في مجمع سيد الشهداء(ع) في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(694) أمير كوليك، الاستخبارات الصهيونية وتحدّيات إطلاق النار منحني المسار، معهد أبحاث الأمن القومي، مجلة الشؤون العسكرية والإستراتيجية، م1، عدد3 ، كانون الأول/ ديسمبر 2009.

(695) إنّ مدينة حيفا بوصفها ثاني المناطق المأهولة في الكيان الإسرائيلي- إذ يبلغ عدد سكانها قرابة الـ(270400) نسمة؛ يشغل اليهود ما نسبته الـ(91,1 %)، في حين يشكل المسيحيون من العرب ما نسبته الـ(4,8 %)- تعدّ على درجة بالغة من الأهمية والتميّز والخصوصية: ليس بفعل ما يمثله ميناؤها الكبير من قيمة تجارية واقتصادية وحسب، وليس بسبب توافر أماكن الترفيه واللهو والإستجمام الواقعة على الساحل، وما يشكله ذلك من قيمة سياحية؛ وإنّما أيضاً- بسبب تركز الصناعات الثقيلة فيها على نحو ما نقع عليه في (مجمع حيفا البتروكيميائي)، الذي يصنف كواحد من أهم المراكز الاقتصادية والحيوية في الدولة العبرية، وواحد من المراكز الأكثر حساسية وخطورة وإلحاحاً، لكونه يحوي منشآت عديدة تعنى بمعالجة وتخزين المواد البتروكيميائية: كمنشآت الخدمة المساندة لتوفير النتروجين (الأزوت)، ومنشآت توفير مياه الشفة والشرب، والهواء المضغوط، وأنظمة مكافحة الحرائق، وشبكات الأنابيب المعدّة لنقل غاز (الميثانول)، ومستودعات لتخزين الأمونيا والإيثيلين، وخزانات لحفظ المواد المشتقة من تكرير النفط؛ نحو وقود الطائرات والغازولين، وزيت الديزل، والكيروسين، ووقود الديزل البحري، والنفط الخام بنوعيه الثقيل والخفيف... فضلاً عن ذلك، تتوافر مدينة حيفا على مصفاة كبيرة ذات طاقة تكريرية تبلغ سنوياً مقدار الـ(13) مليون طن من النفط الخام. ما يجعلها تضطلع بمهمة تأمين مجمل احتياجات إسرائيل من المواد البترولية: كالغاز الصناعي والمنزلي، والبارافين. إلا أنّ ما يمنح هذه المصفاة قيمة مضافة؛ هو اتصالها- من خلال شبكات من الأنابيب- بمصفاة أشدود، التي تعتبر من أكبر مصافي النفط في العالم.

(696) إنّ مدينة تل أبيب بوصفها عاصمة الكيان الإسرائيلي، تمثل عصب الحياة الاقتصادية للدولة العبرية، ومركزها التجاري والحضاري والصناعي والثقافي؛ فيها تتركز البنوك والقطاعات المصرفية والمالية، والمصالح الحيوية، والشركات العالمية الكبرى، لاسيما تلك العملاقة التي تعنى بالتكنولوجيا المعقدة: كشركات (ساب)، و(سيمنز)، و(أي بي أم)، و(سكاسيسكو)، و(غوغل)، و(مايكروسوفت)، و(موتورولا)، و(أنتل)...وسواها من الشركات العالمية ذات الاستثمارات الكبيرة في مجال تكنولوجيا المعلومات، والتي كانت قد أقامت لها في تل أبيب فروعاً للبحث والتطوير. هذا فضلاً عن وجود مطار بن غوريون الدولي، إلى جانب مطارين صغيرين بمحاذاته، ووجود محطات القطار الرئيسة.

تتصف مدينة تل أبيب بكثافة سكانية فارقة؛ إذ تضم منطقتها الإدارية قرابة الثلاثمائة وتسعين ألف نسمة، يقطنون ضمن مساحة لا تتعدّى الواحد والخمسين كيلو متراً مربعاً، أي أنّ مبلغ الكثافة يصل حدّ السبعة آلاف وثلاثمائة نسمة في الكيلو متر المربع الواحد. والحال، فإنّ انطواء اليهود على هذا النحو وانكفاءهم إلى وسط الدولة، فضلاً عن تركز الموارد الجوهرية والقطاعات الحيوية المختلفة، في مقابل إصابة الأطراف اليهودية بالضعف والتهميش بسبب من سياسات التمييز في الخدمات؛ قد جعل الكيان الإسرائيلي- وفقاً لأرنون سوفير- يتقلص يوماً بعد يوم، ويشهد حالة من الانكماش والانحسار إلى داخل منطقة تل أبيب. وجعل بالتالي من هذه الأخيرة، الهدف الذهبي الذي سوف تنشده صواريخ حزب الله في أي مواجهة افتراضية تنشب على الحدود مع لبنان.

(697) منطقة غوش دان أو «جوش دان»: هي التسمية الحالية التي تطلق على الـ(متروبوليتان)، أي منطقة التجمع السكاني في وسط الكيان الإسرائيلي. تطل على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتضم كامل منطقة تل أبيب وما يجاورها من مدن وبلدات؛ كـ(هرتسيليا، اللد، يهودا...). يزيد عدد سكانها على الـ(3198000) نسمة، وتصل مساحتها إلى ألف وخمسمائة كيلو متر مربع.

(698) غيورا ايلاند: هو ضابط احتياط في الجيش الإسرائيلي برتبة لواء. وهو باحث وخبير في عدد من مراكز الدراسات والبحث المتخصّصة بالشؤون الإستراتيجية والعسكرية. شغل في السابق مناصب عديدة؛ تولى رئاسة مجلس الأمن القومي الإسرائيلي، ورئاسة شعبتي العمليات والتخطيط في هئية الأركان العامة في الجيش الإسرائيلي، كما ترأس طاقم تحقيق عسكري خاص للنظر في إخفاقات المؤسّسة العسكرية في أعقاب ما صير إلى الاصطلاح عليه إسرائيلياً بـ(حرب لبنان الثانية).

(699) صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الخامسة، العدد 1525، الجمعة في 30 أيلول، العام 2011، ص2.

(700) صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الخامسة، العدد 1525، الجمعة في 30 أيلول، العام 2011، ص2.

(701) كشفت الوثيقة الأميركية (09TELAVIV2501) الصادرة عن السفارة الأميركية في تل أبيب، أنّ ضباطاً في الاستخبارات الإسرائيلية؛ قد أفادوا خلال اجتماع موسّع ضمّهم ونظراءهم الأميركيين في منتصف العام 2009، بأنّ «حزب الله يستعدّ لصراع طويل مع إسرائيل، يسعى فيه إلى إطلاق عدد هائل من الصواريخ (...) بمعدل 400 إلى 600 صاروخ يومياً، (...) من بينها مئة صاروخ ستستهدف تل أبيب»، وذلك لغرض تعطيل الحياة اليومية فيها، مع الحفاظ على «الوتيرة ذاتها من الاستهداف لشهرين على الأقل».

(702) لقد عكف الجيش الإسرائيلي في أعقاب حربه على لبنان صيف العام 2006– كنتيجة حتمية من نتائج الفشل والهزيمة والتخبّط، وكتوظيف عقلاني لقراءة عبر ودروس وإخفاقات الحرب- على إجراء سلسلة من المناورات الكبرى والعملاقة حملت، على نحو من التسلسلية الرقمية، مسمّى «تحول»؛ بحيث جاءت نقطة (تحول- 1) في شهر آذار من العام 2007، ونقطة (تحول- 2) في شهر نيسان من العام 2008، ونقطة (تحول- 3) في شهر أيّار من العام 2009، نقطة (تحول- 4) في 23 أيّار من العام 2010، وأخيراً وليس آخرا كانت نقطة (تحول- 5) في 19 حزيران من العام 2011. ولعلّ هذه المناورات هي الأكبر والأضخم والأوسع في تاريخ الكيان الإسرائيلي، وغير المسبوقة بلحاظ خضوع كامل الكيان وعموميته وكليّته لأعمال التدريب المكثف وفقاً لما افترضته من سيناريوهات وتصوّرات وترجمات. المفارق أنّ هذه المناورات بثت رسائل ومؤشّرات دالة في غير اتجاه، وحملت بين طيّاتها إقراراً وتسليماً إسرائيلياً غير معهود بالعجز، وبعدم القدرة على تحييد الجبهة الداخلية كما كان يصار إليه الأمر في السابق، وبالتالي تحوّل الأخيرة– لعلّنا نقع هنا على بعض ما يشفّ عن حمولات المسمّى «تحول» - في أي حرب مقبلة إلى ساحة رئيسة من ساحات المواجهة، والى محور دام من محاور العمليات. ما يعني أنّ الزمن الذي كان فيه الداخل الإسرائيلي ينأى عن التأثيرات والمفاعيل المباشرة للحروب قد ولى إلى حيث لا رجعة ، وأنّ الكلام عن مشاهدة المواطن الإسرائيلي لوقائع الحرب وكأنها تجري في

كوكب أخر، وسماعه لأخبارها تتناهى إليه من بعيد، قد أصبح بدوره من الماضي، وبالتالي فإنّ أيّة حرب مفترضة في المستقبل ستنطوي في حال نشوبها على توجيه ضربات شديدة للجبهة الداخلية، على النحو الذي كان عليه الشأن خلال العدوان الأخير على لبنان، بل لعله عينة مخبرية ليس إلا لما يمكن أن يؤول إليه الأمر من العنف والقسوة والتدمير والإضرار. والحال ما هي عليه، توسّلت المناورات جميعها فحص الجبهة الداخلية، ومعاينتها، واختبار جاهزيتها، والتأكد من منعتها، ومن قدرتها على التحمّل والصمود في حال نشوب حرب أو اندلاع مواجهة واسعة النطاق. إلا أنّ المناورة التي حصلت في 23 من أيار من العام 2010، وحملت تسمية نقطة (تحول- 4)– نقع على بلاغة ودلالة انتقاء تاريخ المناورة الذي يتزامن مع بدء تقهقر الجيش الإسرائيلي، وانكفاء قواته، وانسحابه المذل من لبنان في العام 2000– وكذلك المناورة التي حملت تسمية نقطة (تحول- 5)؛ كان التركيز فيهما، على خلاف السابقات، يقع في منطقة تل أبيب وفي غوش دان بعيداً في العمق الإسرائيلي الحيوي، وليس في المناطق الحدودية المحاذية للبنان كما كانت تجري العادة، فضلاً عن أن فرضية العمل فيهما، تقوم على أساس نجاح الصواريخ من لبنان وسوريا في إصابة أهداف دقيقة وذات حساسية بالغة؛ كالمقرّات القيادية، وقواعد سلاح الجو ومخازن الذخائر والطوارئ...

(703) يأتي في هذا السياق خبر الانشغال الإسرائيلي بتفعيل مشاريع العمل التسليحية المشتركة مع الجيش الأميركي، في محاولة للحدّ من قدرات ومن فعالية الردع الصاروخي الذي استحوذ عليه حزب الله على نحوٍ أتاح له ردع وجبه العدوان، وفرض معادلات وتوازنات لجمت العدوانية الإسرائيلية المتغطرسة، وجعلت يدها مغلولة إلى عنقها كما تظهر التجربة.

(704) محمد بدير، من مقالة بعنوان «تحول إستراتيجي: خسارة المبادرة». أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثالثة، العدد 710، السبت في 27 كانون الأول، العام 2008، ص30 .

(705) أنظر: الموقع الإلكتروني لصحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية باللغة العربية: www.ArabYnet.com، وباللغة الإنكليزية: www.Ynetnews.com .

(706) م.ن.

(707) من خطاب لأمين عام حزب الله السيد حسن نصرالله خلال المهرجان المركزي الذي نظمه الحزب في الذكرى العاشرة لعيد المقاومة والتحرير، وذلك في الخامس والعشرين من شهر أيار/ مايو من العام 2010، في مجمع سيد الشهداء في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(708) أنظر: غابرييل سيبوني وآخرون، الإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية ضد حماس وحزب الله؛ ترجمة عدنان أبو عامر، ط1، بيروت: مركز باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية، 2011، ص 29، 30، 36.

(709) من خطاب لأمين عام حزب الله السيد حسن نصرالله خلال المهرجان المركزي الذي نظمه الحزب في الذكرى العاشرة لعيد المقاومة والتحرير، وذلك في الخامس والعشرين من شهر أيار/ مايو من العام 2010، في مجمع سيد الشهداء(ع) في الضاحية الجنوبية لبيروت.

(710) نقع في بيان ذلك على مفهوم (الاستكبار) القرآني، كما على مفهوم (الاستضعاف) اللذين صير إلى استعارتهما وتوظيفهما جدلياً كبديل أعمّ وأشمل من مفهوم الصراع الطبقي بأبعاده

الاقتصادية. وقد أفاد حزب الله من هذه الاستعارة، وهذا التوظيف في خطابه الإيديولوجي والتعبوي الاستنهاضي. أنظر: أمل سعد غريب، حزب الله: السياسة والدين، ط1، بيروت: دار نوفل، 2002، ص 67.

(711) يُسجّل لحزب الله فضيلة استخدام التاريخ العربي ببراعة لافتة، وتوظيف حمولاته بنحو موجب في إطار المواجهة المستدامة مع المشروع الصهيوني، بعد أن كان يصار في ظل التجارب الثورية والتحرّرية السابقة، إلى تجاهله، وإلى التنكر للإمكان الثوري لديه. فهو قد تعفف عن توسّل وإلتماس أيّة حاجة إلى اقتباس، أو استنساخٍ للخصوصيات الأخرى على أهميتها وضرورتها وإلحاحها، وبالتالي وفر القدرة على استيلادِ ما هو أكثر تعبيراً، وأشدّ تماهياً، وانسجاماً مع الخصوصية الإسلامية والعربية.

(712) مثال ذلك: في سياق التعليق على قمة شرم الشيخ التي انعقدت في الثالث عشر من شهر أذار/ مارس من العام 1996، وحملت اسم (المؤتمر الدولي لصانعي السلام)، وذلك لغرض تنسيق وتكثيف جهود المجتمع الدولي في مجال ما يسمّى الحرب على الإرهاب؛ يستحضر السيد حسن نصر الله الآية (173) من سورة آل عمران، في إسقاط وتوظيف متقن وبارع، حتى يُخيّل للمتلقي أنها ما تنزّلت إلا لتعيين وتوصيف هذه المناسبة، وليس لتوصيف أية حادثة أخرى في التاريخ الإسلامي. كما وُظفت في مناسبات أخرى غير آية وسورة قرآنية، نحو؛ سورة آل عمران: 160، سورة النساء: 104، سورة الأنفال: 17، سورة محمد: 7، سورة الأحزاب: 23 ...

(713) في بيان ذلك: غدت مقولة الإمام الحسين(ع) «ألا إنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين السلة والذلة وهيهات منّا الذلة»، بفعل الاستحضار والتوظيف الدائم لها في أدبيات حزب الله وفي خطب أمينه العام، شعار المرحلة في لبنان وفلسطين وسوريا وإيران والعراق والبحرين... حتى يُظن أنّها ما قيلت إلا لهذه المناسبات الراهنة.

(714) يستحضر السيد حسن نصر الله-بنحو دائم- في أدبياته وخطبه سير شخصيات تاريخية إسلامية ملهمة، هي على قدر كبير من المكانة والأهمية؛ كشخصية الإمام الحسين(ع)، وشخصية الإمام زين العابدين(ع)، وشخصية السيدة زينب(ع)..

(715) من خطاب السيد حسن نصرالله في مدينة بنت جبيل، وذلك في الخامس والعشرين من شهر أيّار/ مايو من العام 2000، خلال مراسم الاحتفال الجماهيري بإندحار الجيش الإسرائيلي، وتحرير الجنوب اللبناني من دنس الاحتلال.

(716) القرآن الكريم، سورة العنكبوت، 29/41.

(717) سيف دعنا، إعادة إنتاج الفشل المعرفي الغربي لفهم الظاهرة الإسلامية الثورية. أنظر: صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثالثة، العدد 942، الجمعة في 9 تشرين الأول، العام 2009، ص 20، 21.

(718) تفاقمت - على نحو كارثي يتهدّد وجودية الدولة - ظاهرة عزوف الشباب الإسرائيلي عن الالتحاق بالخدمة العسكرية. الأمر الذي دفع بالسلطات الإسرائيلية إلى تعديل المناهج الدراسية في المدارس الثانوية من خلال إدخال مواد جديدة؛ نحو «تعزيز العمليات العسكرية»، وذلك لغرض توليد دافعية لدى الطلبة للانخراط في الأعمال الحربية ضمن صفوف الجيش. وللغاية نظم الأخير

ورشة عمل تعليمية بعنوان:»الطريق إلى القيم«، استهدف فيها تعزيز تعبئة المتخرجين في وحدات النخبة التي تعمل في مناطق معادية، حيث يقوم كبار الضباط بزيارات مكوكية إلى المؤسّسات التعليمية والتربوية. وتعتبر هذه الزيارات جزءاً لا يتجزأ من مشروع واسع النطاق يهدف إلى تفعيل العلاقات بين القوات الإسرائيلية ونظام التعليم، في محاولة لوضع حدّ للتراجع في عملية التجنيد، حيث يسجل هرب 28 % من الشباب الإسرائيلي كل عام لأسباب دينية وعقائدية. وللغاية أيضاً صير إلى وضع رزمة من المحفزات التشجيعية؛ كالإعلان عن مكافآت مالية ستمنح للمدارس التي تسهم في تجنيد أكبر عدد ممكن من متخرجيها، فضلاً عن مجموعة قيّمة من الجوائز نشرها الجيش عبر وسائل الإعلام. للاستزادة أنظر: كي تكون إسرائيل مثل اسبرطة؛ ترجمة فرح عباس، نقلاً عن الإكسبرس. صحيفة السفير اللبنانية، السنة السابعة والثلاثون، العدد 11672، السبت في21 آب، 2010، ص19.

(719) سُجّل- في المرحلة التي تلت وأعقبت الحرب الإسرائيلية على لبنان في صيف العام 2006 - إحجام الإسرائيليين عن التجند، وامتناعهم عن الخدمة، وعن الانخراط في صفوف الجيش، وسلوكهم كل مسلك ممكن لغرض التهرّب والتحلل من الالتحاق بالمؤسّسة العسكرية: كأن يصار إلى تذرعهم بالتدين الأصولي للحصول على الإعفاء، أو التعلل للغاية ذاتها بغير سبب وعلة (مرضي وصحي ونفسي...)، أو المكوث في خارج البلاد، او ما شاكل ذلك من ذرائع وحجج وأعذار، وفق ما كانت المعطيات والمعلومات المسرّبة من شعبة القوى البشرية في الجيش الإسرائيلي، أو من غير جهة ومصدر، قد أفصحت عنه في غير مناسبة:

فقد كشفت صحيفة معاريف في عددها الصادر بتاريخ 18-7-2007، في معرض نقلها لتقرير شعبة القوى البشرية، عن تراجع حادّ للمتطوعين الإسرائيليين الملتحقين بالخدمة العسكرية، بلغت نسبته نحو 25 %. وعرضت صحيفة (واشنطن تايمز) لموضوعة عزوف الاسرائيليين عن الالتحاق بالخدمة العسكرية الإلزامية، حيث أشارت في عددها الصادر بتاريخ 26-7-2007، إلى أنّ «الجيش الإسرائيلي يواجه مشكلة لم يسبق أن واجهها من قبل، وهي أنّ نسبة كبيرة من الشباب والشابات يفتشون عن حجة رسمية كي لا يخدموا الجندية».

الجدير بالإلفات والذكر، أنّ القانون الإسرائيلي يُلزم كل من بلغ سنّ الثامنة عشرة من عمره، بالخدمة الإجبارية في صفوف المؤسّسة العسكرية، وذلك لمدة ثلاثة أعوام للذكور، وعامين للإناث. ويُعنى بهذه الخدمة العسكرية الإلزامية- على وجه التخصيص- الشبان اليهود، والعرب الدروز، والمسلمين الشركس، فيما يستثني العرب، كما يستثني اليهود من طلبة العلوم الدينية.

(720) مقطع من أغنية إسرائيلية اشتهر الجنود الذين خدموا في جنوب لبنان أثناء الاحتلال، بترددادها على نحو دائم.

(721) حسين سلامة، حزب الله في العقل الإسرائيلي؛ دراسة أكاديمية حول تأثير حزب الله والمقاومة على العدو الصهيوني، ط1، بيروت: مركز الاستشارات والبحوث، 2006، ص 76.

(722) أمين مصطفى، الإعصار، ط1، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، العام 2007، ص 221.

(723) مجموعة من الكتاب والمحللين الإستراتيجيين الإسرائيليين، 33 يوم حرب على لبنان؛ ترجمة أحمد أبو هدبة، ط1، بيروت: مركز الدراسات الفلسطينية، العام 2007، ص 304.

(724) ميشيل كيلو، 25 أيّار: لحظة مفصلية. أنظر: صحيفة السفير اللبنانية، السنة السابعة والثلاثون، العدد 11603، الإثنين في 31 أيّار، 2010، ص 19.

(725) رغم ما توافر عليه الجيش الإسرائيلي، خلال حربه على لبنان في صيف العام 2006، من سلاح وعتاد وتكنولوجيا ومعلومات، وما سُخّر له من دعم على غير صعيد؛ كان من كرتون يفتقد إلى أدنى مقومات الروح. أنظر: عبد المجيد عمار، توازن الرعب: في الحرب المفتوحة، ط1، بيروت: مؤسسة دار الكتاب الحديث، العام 2002، ص 188.

(726) يقال إسرائيلياً في توصيف (حرب لبنان الثانية)، إنها (حرب خيار). ذلك أنها لم تفرض على الدولة، وإنما ذهبت إليها الأخيرة بملء إرادتها وطوعها، متوسّلة من خلالها تحقيق أجندة سياسية محدّدة.

(727) صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثانية، العدد 579، الجمعة في 18 تموز، العام 2008، ص2 .

(728) صحيفة الأخبار اللبنانية ، م.ن.، ص2.

(729) للسيد حسن نصر الله سحره وسرّه وكاريزماه وتأثيره على الوعي الإسرائيلي الجمعي العام؛ إذ إنّ لكلّ إطلالة إعلامية وقعها السيكولوجي والنفسي الخاص على جمهرة المستوطنين اليهود بنحو يؤرّق مضاجعهم، ويرسم تساؤلاً جوهرياً ووجودياً عن استمرارية مناعتهم السابقة.

(730) تشفّ القراءة السايكولوجية الفاحصة للشخصية الإسرائيلية عن مدى الرعب والقلق الذي تعيشه حيال عجزها عن ممارسة العدوان، ذلك أنّها تستمدّ طمأنينتها وشعورها بالأمن والاستقرار والتذوّت من استشعار امتلاك القدرة على شنّ الحروب، كما على الإضرار والأذى والاعتداء.
والحال، فإنّ تفعيل الحرب النفسية ضد إسرائيل ونجاحها؛ إنّما يتأتى من توافر القدرة على إثارة هذا الرعب، وبالتالي على لجم الجنوح الإسرائيلي، وعلى كبحه، وفرملته، وشلّ اندفاعته وإعطابها. ولهذا نرى إلى حزب الله كيف استطاع أن يجدّد- بنحو دائم- فصول هذه الحرب مع كلّ تصريح وتهديد وموقف يطلقه السيد حسن نصر الله، معلناً فيه عن ملكيته لأسباب القوّة والردع أمام أي اعتداء إسرائيلي.

(731) جرت (عملية الرضوان) وفقاً للتسمية التي أطلقها حزب الله على العملية التي صير فيها إلى تبادل الأسرى بين إسرائيل وحزب الله، في صباح السادس عشر من شهر تموز/ يونيو من العام 2008؛ حيث سلم الحزب جثتي الجنديين الإسرائيليين الأسيرين ايهود جولدفاسر وإيلداد ريجيف لمنظمة الصليب الأحمر الدولي، في الوقت الذي أفرجت فيه إسرائيل عن الأسرى اللبنانيين، يتقدّمهم عميد الأسرى سمير القنطار، ونحو 200 من رفات وجثامين الشهداء العرب، لاسيما اللبنانيين والفلسطينيين.

(732) أصابت عملية تبادل الأسرى- على النحو الذي تمّت فيه واكتملت- إسرائيل بمقتل، وجرّعتها سكرات الصدمة والذهول، ودفعت بالجمهور هناك إلى مزالق الخيبة والخسران والإحباط، بحيث صير إلى توصيف ذلك اليوم بـ«اليوم الأسود في إسرائيل»، وفقا لما أشّرت إليه نتائج الاستصراحات ودراسات الرأي لقطاعات واسعة من المستوطنين اليهود، لاسيما بعدما ظهر أنّ الجنديين قد قتلا، وأنّهما قد عادا في صندوقين أسودين، دون أن تتحصّل إسرائيل في المقابل

على آية مكاسب سياسية، ودون أن تتوافر لديها أنباء شافية عن الطيار رون آراد. والحال، توقفت المقاربات الإسرائيلية لأوجه الإخفاق والفشل لديها في قبالة إنجازات حزب الله، عند الحرب النفسية والإعلامية الناجحة التي أدارها الأخير بكيفية جلبت له النجاح والانتصار. فقد تكتم الحزب على حقيقة وضع الجنديين الأسيرين حتى اللحظة الأخيرة، وأبقى خبر موتهما سراً طوال فترة المفاوضات، وبالتالي فإنّ إسرائيل لم تكتشف حقيقتهما إلا بنحو تدريجي، وعند بدء تنفيذ عملية التبادل، حيث أدركت هذا الأمر كأيّ متلق، أو مشاهد للصور المبثوثة على الأثير بنحو مباشر. فبعد أن أطلق وفيق صفا عجلة انطلاق العملية بالقول «نقوم الآن بتسليم الجنديين اللذين أسرتهما المقاومة» للوسيط الألماني جيرهارد كونراد؛ ظهر على شاشة التلفزيون من خلال تقنية البثّ المباشر نعش الجندي الأول لتتأكد حقيقة وضعه دون الآخر، ثم ما هي إلا لحظات حتى تلاه نعش الجندي الثاني. وهكذا ناور حزب الله، إمعاناً منه في الإضرار بالوعي الإسرائيلي حتى الدقيقة الأخيرة، وجعل كلّ إسرائيل-والعالم من حولها- في حالة انتظارية تترقب مصير جندييها. هذه الحرب النفسية التي أدارها حزب الله ببراعة لافتة، والتي تمثلت في تجليات وترجمات عديدة، بدءاً من الغموض الذي أحاط بمصير الجنديين، وصولاً إلى لحظة الكشف عن مصيرهما على شاشات التلفاز، وليس انتهاء بالأدوات والمضامين الدعائية التي توسّلها حزب الله لهذه الغاية؛ قد دفعت غير معلق إسرائيلي إلى وصف الأمر بـ«حرب أعصاب شنت ضد إسرائيل ومن فيها». كنحو ما أشارت إليه معلقة الشؤون العربية في صحيفة يديعوت احرونوت سمدار بيري: «حتى اللحظة الأخيرة» تقول بيري «كانوا ينكلون بنا، يهزوننا، يشدّون أعصابنا الهزيلة حتى النهاية (...) كانت هذه إحدى اللحظات الأكثر إثارة للقشعريرة تلتقط ذات مرة في البثّ الحيّ والمباشر في عدسات التلفزيون». أو كالنحو الذي نقع عليه أيضاً في تعليق المراسل العسكري لصحيفة هآرتس عاموس هرئيل، حيث قال: «إذا كان ثمّة حاجة إلى دليل إضافي على قدرة حزب الله وكفاءته في هذا المجال؛ فقد جسّد حزب الله مجدّداً قدرته كساحر بارع في التكنيل النفسي بالعدو».

(733) صحيفة الأخبار اللبنانية، السنة الثانية، العدد 579، الجمعة في 18 تموز، العام 2008، ص2 .

(734) صحيفة الأخبار اللبنانية، م.ن.، ص2 .

(*) وصف أطلقه الخبير الإسرائيلي في علم النفس السياسي الدكتور أودي ليبل على سماحة السيد حسن نصر الله، وذلك في إطار مقاربة أوردتها صحيفة معاريف، الأول من شهر شباط من العام 2007.

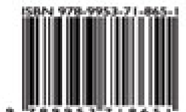
هذا الكتاب

عمل بحثي جاد، يعكف على مقاربة وازنة لأطروحة الحرب النفسية التي أرخت بأحمالها على مساحات اهتماماته: تثير الإشكاليات، وتطلق الأسئلة القلقة في الفضاء البحثي المفتوح على غير صعيد. إلا أنه في مبلغ عنايته تلك، تصادى لمقاربة تحرص على مجانبة الوقوع في السلبية، والمجافاة القصدية للحقيقة، فضلا عن محاذرة أي نزوع للإنحراف أو ميل للتحريف، كما تحرص على الإحاطة بما لهذه الحرب من فنون وأواليات وأهداف، بمقدار الحرص على التعمّق في المصطلحات، وتبيئتها، واسقاطها بنحو موجب، من خلال الإستدلال بالترجمات الحية، لغرض اخراجها من مثاليتها المتعالية، والإلقاء بها عارية في خضم المعاينة والإختبار. وللغاية، وضع الكتاب نفسه في نسق توسّل مثل هذه الإحاطة، دون أن يدعيها، ودون أن يقطع مع المباحث ذات الصلة، أو أن يبخَس هذه الأخيرة حقها، بل منّى النفس بأن يشكل معها عتبة وعي صحيح إلى مباحث أخرى: أشمل، وأغنى، وأعمق، بما يخدم الرقي الفكري والمعرفي، ويحقق الإضافة العلمية.

والكتاب يلحّ في تشفيف مقاصده على البحث أكاديميا في مسارات التشكل النظري لأطروحة الحرب النفسية وتنضجها على المستوى المفهومي: إذ لم ير مندوحة من التنقيب الحفري عن الإمتدادات الغورية لجذور المصطلح واستخداماته، ومن تحرّي قواعد الضبط الحاكمة، وفروض الإشتغال التي دفعت بها إلى التخلق على النحو الذي تناهت به، بحيث قيض لها أن تشكل أداة النصر الفاعلة في غير موقعة ونزاع. كما يلحّ على بيان ما كان لهذه الحرب من فضيلة في صياغة سيرورات الإنتصار لدى حزب الله، ذلك أنّ الحزب في سياق ممارسته لها، لم يقف في قبالة الإسرائيلي موقفا نديا وحسب، وإنّما كان له في صولات عديدة اليد الطولى، وأنّ استراتيجياته وتكتيكاته قد أضرت بوعي العدو، وحملته على إعادة نظر في مستقبل وجوده، بعدما أيقظت هواجس البقاء لديه... ما ولد دافعية الإضاءة على فواعل هذا الإقتدار، وعلى أسباب هذه القوّة، ونتائج ما صير إليه من فتح ونصر. علنا نسهم في معركة تنشيط الوعي العربي بحقيقة ما لديه من قدرات وإمكانات، كما بتثويره، وعتقه من إسار الشعور بالتصاغر والدونية أمام الآخر المستعمر بمعناه الكولونيالي.

د. يوسف نصرالله ، كاتب وباحث وشاعر لبناني
- عضو اتحاد الكتاب اللبنانيين.
- أستاذ جامعي، حائز على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها.
- شارك في العديد من الندوات والمحاضرات والمؤتمرات التربوية والأدبية المختصة، كما في الورش التدريبية والإعدادية للمعلمين.
- نشر له عدد من الدراسات والمباحث ذات الصلة.

صدر له:
- عابرة الليل (شعر) مطبعة قصير، بيروت، 1995.
- لن أحب زمانا لست فيه (شعر)، دار الجديد، بيروت، 1999.
- تداعي الأسطورة مقاربات نقدية لمشهدية الحرب السادسة، دار الفارابي، بيروت، 2011.
- مقدمات في الأدب وتقنيات التعبير والتواصل، دار البنان، لبنان، 2009، (طبعة ثانية 2012).


ISBN 978-9953-71-865-1